ج. أحمد البوعياشي

حرب الريف التحريرية ومراحل النضال

الجزء الأول

جزيرة النكور



نشر عبد السلام جسوس وسوشبريس

كتــــــاب

حرب الريف التحريرية ومراحل النضال

وهى حلقــة من حلقات الوحــدة الوطنية الكبــرى
عبــر تــاريــخ المــغــرب

الجــزء الأول

تــألــيـــف :

الاســتــاذ البحــاثــة :

ج. احمد عبد السلام البوعيــاشــى

بسم الله الرحمن الرحيم

نحمدك اللهم حمدا يلهمنا السداد فى أعمالنا ويفتح للتدبير فى صروف الدهر مجال عقولنا .

ونصلى ونسلم على سيدنا محمد الذى ملأت قصص حياته تاريخ العزة والسؤدد والمثل العليا ، وعلى آله وأصحابه الذين درجوا الى المعالى بهمة شماء .

أما بعد : فان هذا الكتاب المتواضع «حرب الريف التحريرية ومراحل النضال» نقدمه للقراء عن حسن نية، وعسى أن يجدوا فيه فائدة تذكر ولكاتبه تشكر .

وما توفيقى الا بالله وعليه توكلت .

طنجة فى :
رمضان المعظم 1394
اكتوبر سنة 1974

احمد البوعياشى

الاهــــــــــداء

الــى روح المنــاضـــل الاول

محمــد الخــامــس

قــدس الله روحـــه

والــــى

سائــر المناضلــين الاحـــرار

وعلى رأسهم ابن عبد الكريم الخطابى

البطــل التــاريخــى

كـلـمـــــــــة

كنت بدأت أنشر أبحاثا تاريخيا فى الريف وحضارته ، وقد وسمت البحث عن مدينة النكور وامارة العرب فيها بأنه الحلقة الاولى، كما وسمت بحثا آخر يتعلق بقصة الثائر بوحمارة بأنه الحلقة الثانيـــة، وقد رأيت الآن أن يكون موضوع هذه الابحاث فى كتاب متكامل ، للاحداث التاريخية فى نواحى الشمال ، وبالاخص نواحى الريف، التى كانت الى حد الآن محل اغفال أو تغافل، أما لانها جهة نائية تتخطاها الاعين الى حاضرات المغــرب الاخرى الزاخرة بالعمران والحضـــارات التى تدفقت عليها من بغـــداد والقيروان شرقا، أو غرناطة وقرطبة شمالا، وأما لانها عاقتها عن الالتفـــات الى هذا الصقع الشاطىء، سلسلة جبال جعلتهـــا الطبيعـــة حاجزا منـــع الاتصالات الحضرية التى أهم أسبابها التنقيب عن المعالم، وتدوينها فى السجـــلات الحافظـــة لهـــا .

ولهذه الاسباب بقيت جهات الريف غفـــلا من حظوظها التدوينيـــة الا ما يعثر عليه لماما فى كتب التاريخ ، لا يمر عليها الا مر الكرام، بمناسبة أو أخرى وبالاخص اذا كـــان الميدان ميدان الجهاد والنضـــال .

وقد حفزنى هذا التغافل ان أنقب جهد المستطاع بين طيات الكتب التاريخية، والمراجع الدينية، وفى خبايا صناديق حفظ الوثائق الشخصية التى تحتفظ بها كل عائلة من عائلات تلك الجهـــات، وبالاخص الظهائـــر الملكية، وسلاسل الانساب الشريفة كأعز ما تملك، فوجدت أنه اذا كـــان هناك فرق بين جهات المغـــرب من حيث التـــراث الحضـــرى، والامجـــاد القومية، فان الفرق نسبى ضئيل، الا ما كان من الفرق البين الذى تختص

به بداوة الريف، فهى بـــداوة متحضرة لها انسابها المسلسلة المحفوظـــة، حتى فى صدور القوم، وقد تغلغل فيهم الكيان الاسلامى، تغلغلا استولى على مشاعرهم، فهم لا يقبلون فيه مساومـــة .

كما تغلغل فيهم الحفاظ على الشرف والعرض الا ما اباحته الشريعة السمحـــاء، فهم فى بداوتهم يتأثرون بمشاعر الآيـــة الصادقة «لا تدخلوا بيوتا غير بيوتكم حتى تستأنسوا وتسلموا على أهلهـــا» .

ويراعون أشدها سلسلة المحارم من غيرها، وفى حياتهم الاجتماعية يسيرون مع الاخلاق الحافظة حذو النعل بالنعل من كرم الضيافة وقراها وسماحـــة النفس ، وحفظ الجار ، والنجدة عند الحاجـــة ، الى غير ذلـــك مما طبع عليه القوم ارثا أبا عن جد، تلك تربية ميزت بها البادية هناك .

وعلى ذلك، فان ما يمكن ان يقال فى حق حواضر المغرب من المآثـــر العمرانية، والعلمية، يمكن أن يوصف به ولو نسبيا بادية الشمال، أعنـــى سلسلة جبال الريف، مع الفارق البسيط فى طبيعة خشونة البادية، وليونة أهـــل الحاضرة، مما انفصل عنه العالم الاجتماعى ابن خلدون .

وهذه الخصال هى التى حفـــزت هؤلاء المجاهديـــن لدحر الثائـــر بوحمـــارة، كما حفزتهم لرد عاديـــة الغازيـــين الاستعماريين الاسبانـــى والفرنسى، فى ذلك الصراع البطولى الذى خصصنا له القسط الاكبر من صفحات هذا الكتاب، مع بسط بعض الاحداث التى جرت على هذه الجهة، لكى يمكن للقـــارىء أن يلمس الوضع التاريخى بكاملـــه، ولهذه الغايـــة ولجمع شتات تلك الاحداث بسلكها فى وحدة متناسقة، توجب علينـــا أن نعيد فى طى هذه الصفحات نشر مضمون الحلقتـــين معا اللتين كنـــت نشرتهما مستقلة الاولى تحت عنوان «الريف بعد الفتح الاســـلامى» والثانية تحت عنوان «الثائر المهـــزوم» .

ولئن عمدت هنا الى التنويه بهذه البادية بالخصوص، فان الباعث ليس النيل من باديات المغرب الاخرى، أو العصبية القبلية التى تقول:

وما أنا الا من غزية ان غوت غويت وان ترشد غزية أرشـــد

بل القصد من ذلك، اننى أثير كوا من الباحثين، ليتعدى قلمهـــم تلك الجبال الشاهقة التى يحتضنهـــا جبل تدغين فى علو 2.400 متـــر، الى

حيث حاضرات ساحليه، كانت يوما ما مهدا لامارات، كمدينه النكــور ورباطات لصلحاء طفاحل كمداشن بادس، والمزمه، وتكساس، وغساسه، وبوسكور، وترغه، وسبته، ومديبه، التى بنيــت عى انقاض مدينـــة روساديـــر الفنيقيـــه، علاوة على اصدار هذه المدن وباديتهـــا، للمجاهدين الباحثين عن جنه الفردوس تحت ظلال السيوف، فى اقطار الاندلس، يوم كانت مثار النقع تسابق الشجعان الصالحون بين غبارها، الذى لا ينفضونه عن جسدهم تبركا به، وفى جهات أخرى من نواحى المغرب، لفك أســر مدن العرائش، وأصليـــه، وطنجة، وسبته، وغيرها مما شهد لها التاريخ.

وانى اذ أبين فى هذا البحث شيئا مما عثرت عليه بعد البحث والتنقيب فانا اعتزم أن أضعه نواة قد تكــون بدايه انطلاقه ليتنقلوا بين مواقــع المعارك، التى شهدتها كـــل بقعة من الشمال، من بوغاز جبل طـــارق الى المدينة المغراوية (1) بأقصى مشـــرق المغرب، ومـــن شواطىء البحـــر المتوسط الى ضواحى فاس، وتازة، ووزان، ليسجلوا أى أمجاد تشهـــد بها تلك المواقـــع فى سبيـــل النعـــرة الدينيـــة أولا، وفى سبيل الوحـــدة الوطنية ثانيا، والذب عن العـــروش المتعاقبة على المغـــرب التى تعمـــل لحفظ كيانه من السقوط فى مهاوى الاطمـــاع .

تلك شنشنة سار عليها سيرا حثيثا فى احضان هذه الدولة العلوية، والدوحة النبوية، التى ورثت كل مزايا دولة ذات سيادة ونجدة، كفلتـــا للمغرب التقدم فى مضمار الرقى والازدهار، الذين تشهد الدلائل الحثيثة انها تسابق الركب الحضرى العصرى، بقيادة ابن تلك الدوحة، والعتـــرة الطاهرة جلالة الحسن الثانى نصره الله، وما الحرب الريفية الا جزء مـــن تلك الانتفاضات المتسلسلة، التى تجلت فيها الوحدة الوطنية الكبرى بكـــل مظـــاهـــرهـــا .

وانى اذ أهيب بحاملى الاقلام، للالتفات الى هذه الجهـــة، فانى أضمن لهم أن يجدوا مجالا واسعا، وميدانا فسيحا، وتربة ثرية، وصيـــدا

---

(1) وهى وجدة، بناها زيزى بن عطية المغـــراوى، اختطها فى شهر رجـــب 384 هـ. (الاستقصاء ج.ل.ص. 195) .

ثمينا، فالاعلام التاريخية لا زالت بكرا لم تطـرق بعد، وسلسلـة من المجاهدين الذين لاقوا حتفهم فى معارك الشـرف ضد المغيرين المعتديـن لا زالت فى ذمة التاريخ، والحملات الصليبية التى تضافـر عليها الغـزاة، لم تنشر بعد اسبابها، ودواعيها، والمجالات الفلسفية للسياسة الاستعمارية والاستراتيجية الحربية لم تدرس بعد دراسة كافية، والحرب التحريرية الريفية التى رفعت رأس المغرب عاليا، والتى سمع دويها العالم المستعمر فى عقر داره، وذهل لها أيما ذهول، كما سمعها العالم المتعطـش للحرية، فباركها وطرب لها، لازالت سرا فى صدور الرجال، الا ما كتب عنها لماما سطحيا لم ينفذ الى عمق أوارها، ومع انى بحول الله سأتتبع هذه الابحاث الى نهايتها، لكى انشل منها ما قدرت على نشله، وانفض الغبـار الـذى تراكم على احداثها، فان الجهد الفردى مهما استنفذ قواه فلن يصل الـى اعماق الاعماق المتوخاة فى كـل بحـث .

ولذا فانى أقدم هذا البحث المتواضع عن حرب الريف التحريريـة الذى استلزم ان اكشف النقاب عن وسط هذه الجهات من حيث الازدهـار العلمى والاجتماعى، والتى كانت يوما ما زاخـرة بالحضارات فى العلـم والصلاح، والتى لم يكن حظها من عوادى الدهر اقل من حظوظ غيرها من مدن الشواطىء المغربية، التى تعرضـت للقرصنة البحرية، فعفى عنهـا الزمان بسبب تلك الهجمـات .

كما ألم الما ما بوضعية القلاع الخمسة التى قدر لها ان تبقى فى الاسر الى اليوم، واتبع ذلك بنبذة عن وادى الذهب والساقية الحمراء.

ونظرا الى ان تاريخ جهة ما يشمل الاحـداث التى وجدت فيـه أو فى الجهات التى تتأثر بهـا .

ونظرا الى أن هذه الجهة قد ازدهرت فى ايام الادارسة والموحدين، وكانت منتجعا للدولة المرينية من بعدهم، التى كان تكوينها الاساسى فى الجهة الشرقية للمغرب، فقد عرجت على بعض الاحداث التى تأثرت بها هذه المنطقة فى أيامهم .

وقد أدرجت فى الكتاب مخطوطا ورد فى احد العلماء الصالحين عاصر جل القرن السابع وجزء من القرن الثامن (640–734 هـ) وهو ابو يعقوب

البادسى، لما توخيناه فيه من القاء ضوء على الحياة العامة والخاصة فى ذلك العصر . ولاجل اخذ الفائدة المتوخاة من فقراته فقد بوبناها بعناوين متـــلاحقـــة .

ونظرا الى الاغلاط التى يطالعنا بها بعض الكتاب حتى من المغاربة فيما يخص الحرب الريفية التى كانت فى مبدئها الاصيل هو الدفـــاع عن العرش والوطن والعقيدة ضد الغزاة الاجانب، الذين تكالبوا لاحتلال الوطن.

وقد جاء فى افكار بعض هؤلاء الكتاب، ما ينم عن انهم غير مطلعين على احوال جهة الشمال، وبالاخص الريف، فاعتمدوا على مؤلفات الاجانب المشحونة بالسموم كمراجع، واما انهم تهافتوا على من هب ودب، ممـــن هم بعيدون عن تقييم الحقائق تقييما واقعيا، ينبع عن الاطلاع الصحيح، لا عن الشائعات الملفقة تلفيقا، والمروجة ترويجا استعماريا .

فانى تحريت جهد الامكان أن أضفى على هذا العمل صفة الحقائق التاريخية التى تستلزم استبعاد العاطفة فى تقييم الوقائـــع المجردة، لكى تبدو واضحة، ضاربا بعرض الحائط ما كان لفق لصالح جانب أو آخر .

واذ عنونت هذا الكتاب «بحرب الريف التحريرية» فان القصد من الريف هـــو ما يشمـــل قبائل سلسلة جبال الريف، تمشيا على أن الريـــف من سبتة وطنجـــة الى وجدة، وسنجد ضمن صفحاتـــه، أن المعـــارك التى جرت فى كل القبائل، كانت أشـــد وقعا على الغـــازين فى تحركاتهم، ممـــا خلفت له مآسى حزت من كبريـــائهـــم .

ولذا تتبعتها واحدة فواحدة على الجبهات الاربع. الشرقية والغربية والجنوبية، والشمالية، مراعيا فى ذلك التسلسل التاريخى حسب الوقائع، فانتقل من جبهة الى جبهة أخرى، ثم ارجع الى الاولى، حسمبا يتجـــدد من الاصطدام بين المتحاربين، فى فترة معينة مـــن الزمن، واذكر القـــواد المحليين الذين خاضوا المعارك، محليا اياهم بما كان يحليهم به اخوانهـــم، من صفات الاستبسال فى النضال، وحسن القيادة، كما لا أغفل عن صفـــات الضعف والخور التى وسم بها الاخرون، ممن قعدت بهم سجيتهم، فلـــم يفلحوا او كانت لهم بواعث غير سليمة فيما قصدوا .

أما قطب رحى هذه المأثرة، الذى هو الزعيم محمد بن عبد الكريم

الخطابى، الذى أوقد أوارها على النسق الصحيح، حتى ايقظ سبات العالم الذى لم يألف من احد أن يعرقل اكتساح الاستعمار الغربى، لاقطار الشرقيين، فاننا سايرنا احداثه، وتحركاته، وما اثر عنه من مزايا القائد الماهر الذى يشهد بها شوود عيان من أبناء غير أبناء جلدته، فى نفس الوقت بل ذات التاريخ .

ومع ان صفات القائد تلك، لم تكن من خلق معركة أنوال فحسب، بل لم تكن معركة أنوال الا بداية لانطلاقة عارمة، شملت جهات الشمال باسرها، فان الكتاب والمؤرخين الذين قصروا تلك البطولة على هذه المعركة، التى يبدو من صنيعهم كأنها الاولى والاخيرة، فانهم لم ينسجموا مع الواقع الصارخ، ولم يوفوا للرجال كيله، كما لم يوفوا للشهداء الذين أراقوا دماءهم فى كل شعب من شعاب الشمال، وهضابه وأدغاله .

ولذا كان لزاما علينا أن نستقصى ما استطعنا تلك الصور الرائعة، على أن لا يمنعنا ذلك من كبح جماح بعض الكتاب الاجانب، الذين راحوا يتملقون هذا الطرف، او ذاك، من المتحاربين، لنرد الامور الى نصابها.

هذا، وان أولئك الكتاب الاجانب، اطبقوا على ان يطلقوا على ابن عبد الكريم، اسم عبد الكريم تارة، وكريم تارة أخرى .

وسبب ذلك ما اختلط عليهم من اسماء العائلة الخطابية، لان أب العائلة اسمه عبد الكريم، والولدين القائدين، احدهما محمد بضم الميم، والاخر محمد بفتح الميم، والجميع له صيت فى النضال .

ولاجل تفادى هذه الاخطاء، فانى أقيد ما ورد من اسم عبد الكريم بالاب، واسم الولد الكبير بابن عبد الكريم كما هو معروف به عند الاهالى، وعلى أخيه محمد الخطابى تمييزا لكل واحد منهم عن الاخر، مع التمشى على الاسماء الحقيقية .

وعلى كل، فانى جعلت نصب عينى ان لا اتوانى فى ذكر الحقائق ولو مرة بعض الاحيان، حتى اجعل القارىء يلمس ملابسات تلك الحرب التحريرية التى يتلهف بالطبع أن يطلع عليها ــ وقد ضن بها الكتاب الذين تناولوا الموضوع ــ واذا كان التاريخ يدون لاستخلاص العبر منه، فان العبرة التى تتضمنها حرب الريف تتجلى فى الزمان والمكان والبيئة

والامكانيات اللائى قامت تحت وطأة ثقلها مجموعة، ومع مرور خمسين عاما عليها، فان جدتها بقيت مصونة لم يطرقها البلى، ولذا عملت على نشر كل تلك الملابسات التى كان معظمها صعابا ذللت بفضل المثابرة والحصافة التى استخدمت كأساس لنجاح المهمة .

واذا تمكنت من سرد تلك الاحداث الآن مصوغة فى قالب تاريخ متكامل، فانه كان عملا متواصلا جرى بالاحتكاك مع معظم الذين عاشوا تلك المعامع، اذ تمكنت من استيقاء اخبارها من شاهدى عيان فى حالات شتى، وعلى الاقل فيما يخص الحالة الداخلية للثورة، فضلا عن مراجعة المراجع التى تمت الى الكتاب بصلة .

كما يستلزم ان الم ببعض العائلات التى ثبت نسبها والظروف التى عاشت فيها مع تأثرها فى المجتمع، مع العلم بأنى لا أذكر الا قليلا جدا من تلك العائلات نظرا الى انى اضرب الامثال فقط، وقد يكون تركت من هو أكثر شهرة، معتذرا بان الكتاب لم يوضع اساسا لاحصاء تلك العائلات، لان ذلك يقتضى دراسة أخرى مستفيضة، كما ان فترة من الزمن مرت على هذا الشمال بعد هذه الحرب التحريرية والتى عرفت بفترة الحماية الاسبانية التى تستلزم هى بدورها تسجيل احداثها فى اطار معطياتها التى جاء نتيجة لتلك الحرب الاستعمارية الضروس وذلك للكشف عن تلك المعطيات السلبية والايجابية التى تخضع لعقلية استعمارية عامة ذات برنامج موحد فى جميع الاقطار المكبوتة، الا ما كان من الفروق البسيطة فى وسائل التطبيق .

وقد يكون من المفروض علينا وقد اخذنا على عاتقنا ادبيا أن نسير فى خطوات التنقيب والتسجيل لاحداث هذا الجزء من الوطن، ان لا ندع هذه الفترة دون تدوين تلك الاحداث، وبالاخص انى تحاككت ردحا من الوقت مع تلك الاساليب بفضل المركز الذى كنت احتله كقاض لبنى ورياغل: القبيلة التى اندلعت منها شرارة تلك الحرب التحريرية .

أما اذا تخطينا هذه الحقبة من تاريخ المغرب العليل، الى حقبة رفع الحجر عنه، عندما انتزع استقلاله بالحديد والنار، من يد أولئك الحماة، فان احداثا تاريخية ذات أهمية فى ميادين الحياة المختلفة المناحى، سياسية

كانت أو اقتصادية أو عسكرية، دلت على تبلور الوحدة الوطنية، التي قادها عاهلان عظيمان متشبعان بروح الشهامة واصالة الرأى، ومؤهلان لقيادة الامة الى عصرها الذهبى، فان تدوين تاريخها يكون حافلا بعظائم الامور .

فقد مهد المغفور له جلالة محمد الخامس أسس الوحدة الوطنية المتراصة الاركان، لكى يتمم وارث سره جلالة الحسن الثانى، ذلك البناء الشامخ الذى تخطى به من الوحدة الوطنية، الى وحدة القومية العربية فى مظهرها العملى الشجاع الخارق للعادة، فكان صدى الزحف التاريخى المقدس، لاستخلاص الشام وبيت المقدس، من براثين الصهيونية يعبر تعبيرا صادقا عن مواهب قيادية عصرية، ذات مردود تاريخى لامجاد المغرب الخالدة، والتى أحيت فى النفوس ذكريات الامجاد الاصيلة التى يستوحى منها المسلمون عند اقدامهم على كل أمر ذى بال، اسرار الفائدة المتوخاة، والتى منها ما خلده الرسول محمد بن عبد الله (صلعم) فى نجدة الشام بنجدات عسكرية لاستخلاصها من يد الطغاة المستعمرين .

المؤلف

مـنـاضـل مـن بـلادي



ابن عبد الكريم الخطابي بلباس الميدان سنـة 1921

الزعيــم ابــن عبد الكــريــم الخطــابــى
أمــير المجاهــديــن والبطــل التاريخــي

لا نجد صيغا نعبر بها عن المواهب التى خلقت مع الرجــل أدق وأصح من الاوصاف التى صاغها فى حقه أولئك المراساون لمختلف الصحف الذين شدوا الرحال لاكتشافـــه فى ابان المعامع، والذين كفونا التعريف بـــه وبأوصافه، التى ان انشدناها نحن قد تفسر بالاطراء الشعرى المعروف، مثلما انشد شاعر عربى حينما أطرى كريم قومه (1) هرم بن سنان، فقال:

دع ذا وعــد القــول فـــى هـــرم

ذلك لان الحق ما شهدت به الاعــداء .

ولان ما كتب عنه فى ذلك الوقت، كاف للتعريف بالرجل واخلاقه البطولية، وشجاعته الوطنية. وقــد توارد المراسلون على وتيرة واحـــدة، الا مكابرة مكبوتة من المراسل «ولتـــير هاريس» مراسل التيمس الــذى كان آنئذ ينتقل فى ربوع المغرب، والذى تأثر كثيرا بأساطين العسكريين الفرنسيين، وقد وصف الامير فى احدى مراسلاته، «بأنه يشتهى الانتقام من الاسبانيين، الذين ازدروه لما زجــوا به فى السجن بمليليـــة، وان لـــه عيوبا تتمثل فى ابتغائه الحصول على الثروة الشخصيـــة، وعلى السلطـــة المطلقة، وان مطلبـــه باستقلال الريف كـــان لاجـــل اشباع شهوتـــه فى الانتقـــام الشخصـــى» .

على انه لما كان الواقع فى قرارة نفسه غير ما لمزه به، فانه فى مراسلة أخرى ابان عن الواقع المتواتر لدى جميع المراسلين، فقد جـــاء فيها، «ان ابن عبد الكريم لم يكن منظما جيدا ومقاتلا رائعا فحسب، بل كان منشىء مراسلات ممتازا وبارعا، وقد تعلم ان يتحدث اللهجة التى كانت أوربا قد ألفتها فى البرقيات المتعلقة بالانتدابات، وما شابه ذلك مثل: الدحض ــ الجريح ــ الكبرياء ــ للبواعث الخاطئة ــ الاحتجاج المداهن ــ

---

(1) من عرب الجاهلية، يضرب به المثل فى الكـــرم .

بالنيات الخالية من الاثرة ــ الى غير ذلك، ثم قال: «ان ابن عبد الكريم رجل لا يتورط فى أية مغامرة، قبل ان يدرس جميع احتمالاتها» .

وهنا نترك الرد على هذا المراسل لمراسلين آخرين تجردوا من تلك الصفات المشينة، فقد وصفوا ابن عبد الكريم أدق وصف، وكان «فنسينت شيان» مراسل جريدة «شيكاغو تريبيون» الامريكية، يرافق الامير عند تفقده الخطوط الامامية للمجاهدين، على القمم التى تطل على خليج الحسيمة، الذى ملأت عرضه البوارج الحربية للاعداء، وهو فى مرحلة عسيرة حيث كانت جيوش العدو تدق أبواب عاصمته بأجدير .

فقد قال هذا المراسل: «كان يجسد شعبه فى أفضل خصاله، وكان يعبر عنه ويعرفه بصورة أعظم، لاى انسان فرد، أن يفعل فى المجتمعات الاشد تعقيدا، وكانت عبقريته هى عبقرية شعبه، وقد رفعت الى قوة أعلى»

«وعلى الرغم من معرفته العظيمة بحضارة أوربا وأفكارها، فانه لم يشاهد لحظة واحدة قط، العالم أو مشاكله الخاصة فيه، من وجهة نظر رجل أوربى، كان يراها كما يمكن لاى ريفى أن يراها، وكان تفوقه يقوم على الواقع التالى: الا وهو انه كان فى مقدوره ان يراها بوضوح أعظم وان يهاجمها بشجاعة اكثر، وبذكاء أشد براعة، وكانت أفكاره السائدة واغراضه فى الحياة قليلة جدا، وانه يمكن ارجاعها جميعا، الى غرض واحد، الا وهو «استقلال الريف المطلق» .

«ولقد كان فى استطاعته أن يدافع عن هذا الضيق الظاهرى فى الرواية بكلمات «سافونارولا»، لقد كانت أغراضى عظيمة» .

«وفى بلاد كبلاده، حيث لا يكاد التنظيم الاجتماعى يتجاوز المرحلة البدائية، لابد أن يكون طموح البشر الاول نحو الحريه دائما ولابد أن يكون الواجب الاسمى للقائد فيما بينهم هو تأمين هذه الحرية، ولم يكن وحدانية غرض عبد الكريم، فى هضاب شعبه الخاص، ووديانه فى تلك اللحظة المحددة من تاريخه، دليلا على قصر البصر، بل كانت دليلا على العظمة» .

«وما كان يمكن ان يبدو قط وجها أكثر بطولة مما بدا لى خلال تلك الايام، ان أفضل سياسى أوربا التافهين ليتراءون أشبه بالدمى تلقاء

صفاته، ولو أنه أتيح لى أن أبقى فى أجدير وأن أتأمل هذه الظاهرة وقتا اطول، فلقد كان ايمانى يتجدد فى قدرة الجنس البشرى على الارتقاء فوق ذات قدرته على ان يبلغ مهما تكن المناسبات نادرة، القمم التى تشير الى امكانية الوصول اليها» .

وعندما اراد شيان بعدما رحل ابن عبد الكريم منفيا ان يطرى أحد قادة العالم الاسلامى، وهو المفتى (1) الاكبر للقدس فقال: «انه يذكرنى من حين لآخر بعبد الكريم» وقال: «انه لا يعرف اطراء أعظم من هذا الاطراء» .

واضفى غيره من المراسلين أوصافا تجعله معجزة العصر، وفى هذا الصدد، قال أحدهم وهو أمركانى ممن زاره فى آيت قمرة سنة 1924 بعد حوار معه .

«ياله من رجل خرج من ذلك المكتب المظلم الصغير، الذى يمارس فيه المحاماة، (يعنى القضاء فى مليلية» الى المركز الفريد فى بلاده، اتراه دجالا باركه الحظ؟، أم أنه أحد أبطال الملاحم أو سيف الاسلام المسلول؟ تلهبه حمية الفاتحين الاولين الذين خرجوا من الجزيرة العربية؟، لعل فيه شيئا من الخصال الثلاث لكنه قبل كل شىء ابن اريب للقرن العشرين، ورجل ذكى كفؤ، وواسع الحكمة، فضلا عن ذلك، ليس ثمة عبقرية هنا، بل ثمة ما هو أفضل من العبقرية، القدرة على تقدير القوى الجماعية وتوجيهها، ورغم انه لا تظهر فى طليعته كثير من النبالة، الا أنه حذر حصيف، وكان يملك الشىء الاساسى، وهو القدرة على التركيز، وبعد النظر، وانه بعد ذلك يقدم الاسطورة للعالم، بايقاظ الطاقة البربرية من رقادها» .

وقال مراسل جريدة «نيويورك تايمس الامريكية»، «ان كثيرا ممن يجهلون الحقيقة عن شخصية ابن عبد الكريم يبخسون حقه ولا يقدرونه التقدير اللائق بالمقام الذى ناله بباده وجهده، واكسبه براعة وكفاءة، فهو أحد الذين يبث الله فيهم روح الزعامة، ويمنحهم القوة والشجاعة ليتولوا

---

(1) الحاج أمين الحسينى، أكبر زعيم اسلامى ورئيس اللجنة العربية العليا لتحرير فلسطين .

قيادة شعوبهم وابناء عشيرتهم، فى طريق الاستقلال والحرية وتحقيق الامانى القومية، وهذا علاوة على انه مصلح كبير وعسكرى قدير، وله فى بلاد الريف تأثير لا يضارعه تأثير» .

وقالت جريدة «الدوتشى تسيتانغ الالمانية»، الواسعة الانتشار، «ان ابن عبد الكريم رجل قدير، ذائع الصيت، وزعيم متعلم، وقائد ماهر ومنظم حاذق، وسياسى حكيم، وهو زعيم منطقة قل أن ذاقت مرارة الحكم الاجنبى، حتى أن الرومان الذين أخضعوا الالب، واذلوا الالبان، لم يقتحموها» .

وقالت جريدة «الديلى اكسبريس الانجليزية»، «يعد الامير ابن عبد الكريم من مشاهير رجال العالم، ومن الذين لا تقرء سيرتهم الا فى الروايات، وهو شديد الحذر والانتباه، ولا يبوح بخطته الا عند تنفيذها، وقد عبأ جيشا من احدث النظام، ودرب رجاله على أساليب القتال» .

وقالت جريدة «الطان الفرنسية»، «ان كثيرا من الفرنسيين الكتاب الذين كتبوا عن ابن عبد الكريم صوروه كأحد دعاة الكماليين (يعنى أحرار الاتراك) والسفييت والالمان، ولم يظهروه قط بمظهره الحقيقى، بمعالجة نفسيته المغربية، حتى انك لا تجد من الالقاب التى لقبوه بها، من قاطع الطريق الى رئيس الجمهورية، لقبا ينطبق بها عليه وعلى حركته، مع أنه ليس فى ابن عبد الكريم وثورته ما يبعث على الدهشة والاستغراب، فقد اعتادت بلاد المغرب، ان تنتجب من وقت لآخر رجلا ثائرا» .

أما أحدوثة الاكبار عند قادة العالم الاسلامى، فان الامير شكيب أرسلان تكفل بترجمة آرائهم فيه، فى حاضر العالم الاسلامى حيث قال :

«لا نبالغ اذا قلنا أن الامير محمد بن عبد الكريم متولى كبر الثورة على الاسبانيول، فى شمال سلطنة المغرب، هو فى الثورة الحاضرة بطل الاسلام وأسده الضرغام والعلم المفرد، الذى سار بذكره القاصى والدانى، والخاص والعام، لابد اذا نظر الناس بعين الانصاف، يجدونه بطل العصر الحاضر بين جميع الامم، لا بين المسلمين وحدهم» .

أما ما هو معروف به لدى مواطنيه، فالرجل كما وصفه كثير منهم، وطنى مخلص، شهم، له مبادىء قارة فى جميع اطوار حياته ولو

بعد غربته النائية الطويلة، ولم تملكه ايام الحرب بهاريج الدنيا وملذاتها فقد كان حلس التنقلات، تصل به المتاعب احيانا الى مستواها اللاذع، كما أنه لم يخطر بباله قط ان يضع شـــارات مميزات عن اخوانـــه، كما لـــم يستغل عنهم فى مكان مأموريته، التى خضعت للتقاليد المحلية المتعارفة من السذاجة والبساطة، وكان فى تنقلاته التى يصحبه فيها أركان حرب الثورة عندما يجن الليل يبيت معهم فى دارة واحدة وعند وقت الصلاة يخرج الى العراء ليؤم المجاهدين، ثم يعقد جلسة عمل فى نفس العراء، ليحدثهم عن فضائل الجهاد، وعن المآسى التى تنتظرهم ان لم يطردوا العدو الغازى، كما يحثهم على النبـــل فى معاملة العدو، عندما يسقط أسيرا وعند الغلبـــة فى أية معركة وأى دليل أنصع من كف جمهـــور المجاهدين المتحمسين مـــن اقتحام مليلية عندما كانوا على أبوابها، وهم فى نشـــوة الانتصار، بينمـــا العدو فى هوان الانكسار، الذى احدث له فوضى لم تدع له مجالا للدفاع عنها، أكان ذلك رحمة بالاولاد والعجزة والنساء، أم كان جبنا منه؟ وهـــو الذى قاد المجاهدين من نصر الى نصر فى أقصر مدة، الم تكن هذه المدينة هى منطقة مهانته عندما زج به فى السجن؟ وهـــو قاضى القضاة فيهـــا، ولم يكن هناك حائل لاشباع شهوته من الانتقام، اذا كان كما يتخيله ولتير هاريس، ارضاء لمن كان يتصل بهم ويسهلون عليه مأمورية التنقل مـــن أساطـــين الغـــزاة .

وأما فى الجبهة الجنوبية فانه لما كان المجاهدون فى نوفمبر سنـــة 1924، على ابواب احتلال فاس، وكان الكورونيل كمباى، يرى الاجلاء عن تازا تحت ضغط المجاهدين، وحاول الجنرالان شمبرون وهوش تحصينات فاس، وما كادا، فان ابن عبد الكريم الخطابى لم يشأ ان تصبح المدينتـــان حطاما محطمة على رؤوس مواطنيه، عند اقتحامها من طرف المجاهديـــن الذين انتشوا بنشوة الانتصارات الباهرة، فأمر بالكف عن الهجوم عليهما لا جبنا منه، ولكن لاعتبارات انسانية، لم تجـــد هذه الانسانية محلها عند القادة الامركانيين عندما حطموا مدينتى «هـــيروشيما، وناجازاكى» على السكان اليابانيين العزل بوسائل الدمار المبيـــدة، والتى لا زال الاحيـــاء يعانون منها الى الآن، وقد تملكت النشوة أعظم قائد فى ذلك التاريـــخ

وهو الرئيس تشرشل نفسه، عندما أخبر من طرف مستشاريه، بولادة «الطفل سالما» (عبارة عن القنبلة الذرية)، قال فى مذكرته عن الحرب العالمية الثانية، انه وأركان حرب الحلفاء، لم يعترض أى واحد منهم فى القائها، كما كان نصيب مدينة كولون الالمانية ذات المعالم الاثرية التاريخية ان اندثرت تلك المعالم تحت قنابل الدمار .

نعم هناك كتاب آخرون، كانت ارتساماتهم عنه ابلغ، حتى قال عنه الملازم البحرى مونتان، وقد كان ضمن الوفد الفرنسى الذى ذهب من تركيست الى زاوية اسنادة لمفاوضة ابن عبد الكريم للاستسلام وهو فى اللحظة الاخيرة من جهاده الذى كرس حياته لاجله، «كان عبد الكريم يبدو خلال الساعات المؤثرة فى نظر أولئك الذين حاولوا اقناعه بعدم جدوى الاستمرار فى الصراع، يبدو كرجل دولة بربرى حقيقة مدرك لمسؤولياته وواجباته» .

وعن أهدافه التى يعمل من أجلها مستميتا، فقد وصفه آخرون «بأنه كان زعيما وطنيا لحركة تحريرية وطنية، فى اقليم معين من أقاليم الوطن العربى الكبير، وانه رجل مبادىء لم تتغير منذ عمليات كفاحه فى العشرينات، برغم نفيه عن بلاده أكثر من عشرين سنة» .

وهو وصف صحيح، عمل من أجله، ولم يرتض عنه بديلا من الجمهورية، والسلطة، لان ذلك يعتبر فى حقه خدشا فى وطنيته الصادقة حتى أنه بمجرد أن وطئت قدماه ارض الكنانة، عمل على تأليف لجنة تحرير الشمال الافريقى وترأس مأموريتها، وكانت أقطار الشمال الافريقى تحت نير الاستعمار المباشر، فعمل على لم شعث الوطنيين الذين شردتهم تلك السلطات، وكان له الفضل كل الفضل فى اندلاع المقاومة المتلاحقة فى تلك الاقطار، الى أن أحرزت على حريتها .

ولما كانت عقيدته مبنية على الواقع السليم، فانه يرى ان لا شىء من العبادات يوازى تلك المقاومة التى تحمل فى طياتها عقيدة الجهاد، وسيادة الاسلام، ولذا فانه فى مواسيم الحج عندما يكون لزاما على

الحجيج أن يمر مركبهم فى قناة السويس، ان تنــزل شخصيات المركــب لزيارته فى القاهرة، قبل أن يتابعوا طريقهم الى البقاع المقدســة :

ويحكى أنه لما زاروه، وكانت حرب الجزائر مع فرنسا فى عنفوانها، سأل الزوار الى أين تسيرون؟ ومن الذيــن فى ركبهم؟ فاجابوه بأنهــم يتوجهون على الحجيج من المغاربة لاداء فريضة الحج فقال لهم الا توجد الجنة على خطوات منكم، تحت ظلال السيوف؟ فتعرضون عنها، وتطلبونها فى غيرها، قــد توفون بحقــه وقــدلا» .

وزاد قائلا «ان الشريعة الاسلامية تجعل الجهاد فرض عين، ولا تجعل الحج فرضا الا مع الاستطاعة، وأين الاستطاعة مع اذلال العــدو لبلد مسلم، لا يجهر بشعائره فى احضانه؟ »،

ومع ذلك فقد يبدو غريبا ونحن الآن فى مراحل طوت صفحــات ذلك الجهاد الخالد، ان تفرض علينا الشعارات ذات المناسبات التى تتكرر تكرر الاغراض السياسية، والتى تلجأ الى تحوير الاحداث ولبسها لباسا براقا، والتى جعلت ابن عبد الكريم هدفا تلوكه الالس، بعــد أن قضى نحبه، واصبح فى ذمــة التاريــخ .

الوحــدة الوطنيــة فى مظهرهــا العملى

وهنا يجدر بنا ان نلقى اضواء ولو خافتة على الجهاد المقــدس الذى حول الآن، وبمناسبة مرور خمسين سنة، على بدىء الانتصــارات الباهرة انطلاقا من معارك مثلث الموت: انوال ــ اعرويت ــ اغريبن، فى قبائل الريف العاتية، ومثلث آخر: الوطاء الحمــراء ــ تغزوت ــ دار بن قريش، فى قبائل جبالة، الى مثلث ثالث: البيبان ــ تاونات ــ بنى دركون، بقبائل نهر ورغة الى شعارات سياسية .

واذا كان هذا الجهاد قد اثار صدى بعيد المــدى لدى الدوائــر العالمية فانما ذلك، لانه كان بوحى من الايمان بالله وبالوطنية، وليــس ذلك لغرض الاستلاء على الحكم، باحداث الانقلاب فى النظام الداخلــى لدولــة المغرب التى كانــت تعتبر ذات كيان دولى ، ولو حاولت الــدول

الاستعمارية طمس ذلك الكيـان ، بل كان ذلك أطرد الغزاة الاجانب، الذى كان هو الهدف الاول والاخير .

ومن الاجدر التذكـير بالموقف التاريخى ابطولى لهذا الامليم الابى الذى لم يرض أن يساومه احد عبر تاريخه الطويل، اى مند بـداب مطامع الاوربيين تحوم حول امتلاك المغرب، فهب رجاله لرد عادية المغيرين على هذه الشواطىء، بلغيرة على الوطن ودولته، وطابـا للشهادة، جعلتهم يهرعون، فكـان الفوز والحمد لله حليف المجاهدين فردوا الاعداء علـى اعقابهم، واذا ما تجاوزنا هذه الاحقاب الى حقبه توقيع الاتفاقيات بـين الدول المتكالبة على المغرب سنة 1904، وما بعده، فاننا نرى رجالا نبغـوا قبل الامير ابن عبد الكريم الخطابى، ومنهم سيدى محمد امزيان الشريف الحسنى البطل الذى كان القوم يشبهون بطولته ببطولة خالد بن الوليـد سيف الاسلام، لانه كان حلس فرسه فى المعامع، الذى لما سقط شهيـدا فى حدود قبيلة قلعية المتاخمة لقبيلة بنى سعيد، فى معركة حامية، قيـل أن فرسه لم يشأ ان يفارقه، رغم مطاردة الجيش الاسبانى له، للقبض عليه حيا، فكان يذهب بعيدا ثم يرجع الى صاحبه الشهيد يقبله برأسه، فلمـا أعى الاعـداء اردوه قتيـل مع صاحبـه .

ومنهم سيدى عبد الكريم الخطابى، (الاب) الذى قاد حملتين اثنين: احداهما ضد الجيش الفرنسى على قبائل تازة، والاخرى ضد الجيـش الاسبانى بتفرسيت، حيث سقط شهيـد الغدر به، من طرف أحد عمـلاء الاسبان، الذى دس له السم هناك، فحمل الى داره حيث قضى نحبـه .

ومنهم المجاهد القاضى السيد محمد العزوزى الذى كان يعـرف بقاضى الشباب لحماسه، واعتماده على الشباب فى اثـارة غريزة الجهـاد بأسلوبه الدينى المتوقد، وكان ينتقل من قبيلة الى قبيلة، ومن سـوق الى سوق فى خفـة المؤمنين المحتسبين أعمالهم لله، وقد اقض مضجع حاميـة جزيرة الحسيمة فاشترت ضمير عميل من قبيلته الذى أطلق عليه الرصاص عندما رجع من احدى رحلاته الجهاديـة، فارداه شهيـدا .

واذا كانت حالة الريف فى هذه الحقبة من التاريخ، كانت كالمرجل يغلى، فان جهاد ابن عبد الكريم لم يكن ابن وقته، بل هو تركة خلفها لـه

من كان قبله، فقام هو ليتم نفس المهمة التى رسخت فى عقيدة القوم، فلم يكن عمله ارتجاليا، يسعى من ورائه كسب شهرة أو جاه، بل كان مستوحى من تلك العقيدة التى حمل مشعلها وهو يدرس فى جامعة القرويين، بينما الاخرون من الاوربيين يتقاسمون الغنيمة، وعندما فكر، اهتدى مع والده أن يستكمل معلوماته السياسية والعسكرية، فغامر بمخالطة الاسبان فى مليلية، بصورة مستعارة، وهى القضاء الذى لم يحفل به لان الغرض كان من وراء ذلك، كما غامر ببعث اخيه الى قلب اسبانيا لدراسة الهندسة والأضطلاع باشياء آخرى .

وهكذا كانت المراحل الاولية التى استكمل فيها دراسة الاشياء عن كثب، فلما حان الوقت قاد اخوانه الذين كانت تعوزهم تلك القيادة المحنكة، فكانت الجولات فى مثلثات الموت .

والحقيقة أن ابن عبد الكريم، وجد الريف فى حالة فراغ، فمن جهة تعتبر البلاد بلادا لا تصل اليه يد السلطة العليا المدونة ومن جهة ثانية، فان زعماء المجاهدين الذين هم السيد عبد الكريم الاب وسيدى محمد أمزيان والسيد محمد العزوزى، قد نقوا حتفهم شهداء، فكان لزاما عليه أن يسد هذا الفراغ، وقد سده بنجاح .

وبعد هذا الانتصار كان ضروريا تنظيمات عصرية للثورة التى أصبحت أمرا واقعيا فرضته البطولة القتالية عند الارياف، لانه اكتشف أن تلك الطاقة ليس من التدبير اهمالها، أو تركها على حالة تفتت تقاتل أحيانا وتهدأ أحيانا أخرى، فعمل على جمع شملها، جمعا يتلاءم والمهمة التاريخية الكبرى، التى وضعت على كاهله، كقائد ثورة عصرية، قامت لمحو شنار الاستعمار الذى لطخ سمعة المغاربة أجمعين .

فما كان من عمله المبارك، الا أن التأم الجمع، والتفوا حوله وكانت المذابهات التى احاطت بالقوم، هى التى سهلت مهمته الشاقة فاستطاع أن يضمن تأمين حياة القوم المتنافرين للضغائن الدموية التى كانت مستفحلة بين العشائر .

وقد فرض عليه موقفه هذا أن ينظم قيادة الثورة، فكون المجلس الوطنى ووزع مسؤولية القيادة على الابطال، حسب قاعدة ثورات الدنيا، واصبح مركزه الذى يحتله بين هذه المجموعة المحمودة المساعى، يتطلب

اسما يحتاج فى صياغته أى أضفاء الفخامة عند سماعه .

وقد أهتدى القوم، ومنهم علماء أجلاء، غرفوا من جامعة القرويين تلك الجامعة التى اضاء اشعاعها ربوع الريف، من مدى اجيال، اهتدوا الى كلمة الامارة، تمشيا مع الالقاب العربية المعتادة فى تسمية قائد المجاهدين باسم الأمير ـ اى أمير الجهاد ـ، وتحت هذا اللقب سار على بركة الله، فاتسعت رقعة الانتصارات شرقا وغربا، مما أزعج الاستعماريين، الاسبانى والفرنسى، ومن ورائهما الملة المسيحيــة، التى تندب حظها فى تنصيــر اقطار أخرى اسوة بالأندلــس .

ونظم المقاتلين تنظيما فى مستوى المسؤولية بتاريخية واوطنيــة فسلك السكان قاطبة فى سلك مقاتين مستنفرين على الدوام .

وعند ما وصل الحد الى هذه الدرجة، فان الاسبان سئموا وصاروا يضربون اخماسا فى أسداس، واذ لم تنفعهم الوسائل الجهنميــة التى استخدموها ضد السكان، بما فيهم القرى والمداشر التى تحتضن النســاء والعجزة والاطفال، فانهم عمدوا الى وسيلة الدعاية الكاذبة، ينشرونها فى جرائدهم وانديتهم، مفادها أن ابن عبد الكريم نصب نفسه سلطانــا على الريف، هكذا سلطانا، راجع كتاب المغرب ومراحل التهدئة «للجنرال غوديد» الذى يعد أهم كتاب نشــره أحد العسكريــين الــذين شاركوا فى غــزو المغرب، وسمى الجمعية الوطنية الثورية، المخزن الريفى وقادة الثــورة وزراء .

وقد ضربت الدوائر الفرنسية على نغمة الجمهورية الريفية تــارة والمخزن الريفى تارة أخرى، فعندما يكون الامر خاصا بأنديتهم فان الصيغة التى يعطونها للثورة، هى الجمهورية الريفية، وعندما يكون الأمر يتعلــق بالمغرب وملكه، فانهم يسمون ابن عبد الكريم سلطان الريف، وان غرضــه اشعال الحرب من اجدير الى أكديــر .

وقد نشط أحد رجال المخابرات الفرنسية الذى كان مراقبا فى توريرت، المدعو «غابريياى» الذى كان ينفث سمومه فى الدوائر المغربيــة بتقاريره المستوحاة من الكراهية التقليديــة الاستعمارية، حتى عمد الــى طبع بعض الاوراق تحت عنوان الجمهورية الريفيــة، وأشاعها فى المــدن والقــرى .

أما الصحفيون الاجانب الذين زاروا الريف في ذلك الوقت، وجبهم امريكان، من مختلف الجنسيه، فتارة يسمونه سلطانا، وتارة يسمونه زعيما وتارة رئيس جمهورية

وهو أمر يدل على التهافت المريب، فلم يهتدوا الى صيغة واحدة، فدبت القابهم انها القاب مستوحاة من الكراهيه، لان من تتبع الاحداث وعرف أساليب الاستعمار، يعلم أن كل هذه الاوصاف مدسوسة ضد الثورة الريفية، لشل حركتها وتشويه سمعتها .

لان هؤلاء الذين يتكلمون بلسان الاستعمار الذى يضفى دائما على نفسه وصف المتمدن المترفع، ينعت الشرقى اذا ما أتى بمأثرة تاريخية من نوع مشرف، وكان الاستعمار عاجزا عن كبح جماحها بوسائل الدمار الوحشيه يصير الى حبك أساليب الدعاية الخادعه، لتغطية قضية انهزامه أمام أولئك الذين يعنونون كتبهم عندما يؤلفون عن تلك المآثرة بالعناوين اللا انسانية، فمثلا كتب أحدهم وهو «كون الامريكى» عن حرب الريف تحت عنوان «لحم الثور الوحشى» يعنى به الريف، أليس بمجرد سماع هذا العنوان تشمئز النفوس من العبارة الجارحة، لشعب يدافع عن شرفه ازاء المفترسين الذين يصح التعبير عنهم بالثور الوحشى .

ومن هذا النمط، وصف ابن عبد الكريم بسلطان الريف، ورئيس جمهورية الريف، وذلك يعنى بلغة الاستعمار المتمدن أن الثورة الريفية لم تقم على مبدأ وطنى، تسعى بكل وسائلها المادية الضعيفة، معتمدة على وسيلة معنوية قوية، وهى الايمان بقضيتها العادلة، للتضحية، وانما قامت لغرض سافل بسيط، وهو الاستلاء على الحكم، أو الانقلاب الجزئى، فى اقليم من أقاليم المغرب، ليعطى حسب هواه الوصف الغير اللائق بعظمة المبادىء الوطنية الصحيحة من طرد الاجنبى، ودفعه الى البحر، ليعود من حيث أتى، مستوحى ذلك من مأساة الاندلس التى لا تمحى عن ذاكرة المواطن المغربى .

وذلك لاجل الحط من قيمة القائد التاريخى الخالد ابن عبد الكريم الخطابى، وتنظيماته العصرية الدقيقة، والطعن فى ذكائه الخارق، ووطنيته الصادقة، فأثاروا هدفا لا يتلاءم والاعراف الوطنية، العالمية المتحضرة، التى تجعل تطهير الوطن من الاحتلال الاجنبى هو الهدف الاساسى

والاسمى، وأما الاستلاء على الحكم بالقوة اثناء الثورة، فهو رذيلة محطمة لقضية الجهاد والعمل الوطنى، وعنوان على مطامع شخصية غير سالمة من الوجهـه الوطنيـة .

ولهذه المبادىء التى أصبحت مبادىء مسلمة عالميا، ولما يتحلى به هذا القائد من الترفع على المكاسب الشخصية، فان الدوئر الحكوميـه لكل من أسبانيا وفرنسا، طالما راودته عن منح الريف الاستقلال الداتى، تحت رئاسته مع العلم بأن الدوائر المذكورة، كانت تسعى لحفظ ماء وجهها أمام العالم المتمدن لاجل أن تقنعه بأنها وصلت الى حل مشرف لها .

وكان ابن عبد الكريم يعلم حق العلم، هلع الجيوش الغازية مـن قضية الريف، وان التذرع بأسلوب الاستقلال الذاتى ما هو الا تهرب من الواقع المفروض عليهم ليصمد القتال، ولو أن الاستعمار يريد أن يتـرك سقوط الريف الى عامل الزمن، حيث تهن العزائم، ويدب الخلاف، وحينئذ ينقض من جديد، فانه ابت عليه شهامته، ووطنيتـه الصادقة، ان يلطـخ أسمه البطولى، واحتفظ لنفسه الى آخـر الرمق بنقاء الضمير، ونظافـة الطوية، مما هو مشهور عنـه .

فلم يفاوض الا على الاستقلال المطلق، أى جلاء الاجنبى عن الوطن وهذا المطلب لا يتعارض مطلقا مع سيادة العرش العلـوى، وليس هنـاك بديل للمفاوضة عليه منطقيا مطلقا، لان المخاطب (بفتح الطاء) هو المستعمر والخطاب هو اجلاءه عن الوطن ويتركه لذويه، حتى ولو فى جزء منـه، وقد يكون ذلك أضعف الايمان، ومع ذلك فانه ليس فى مقدرة ابن عبد الكريم غير ذلك، ومطلب الاستقلال التام هو دستور الجميـع بما فيهـم الاحزاب السياسية التى ما فتئت منذ انشائها تطالب بالاستقلال للوطـن لان الاستقلال هو عـزة للجميـع .

ومن ناحية مبدأ وطنى آخر، فان فصم اقليم من الوطن الكبـير وهو المغرب، يعد سبة ايضا فى الكفاح الوطنى، وهذا المبدأ مقدس وطنيا، وابن عبد الكريم يعى ذلك وعى مجرب خريت، ومتشبع بروح المصلحـة العليا للوطن، ومع ما وصف به من طرف المراسلين الذين زاروه حتى قال بعضهم وهو «فونسنت شيان»، «انه أعجوبة الزمن وهبة الاهية خارقة» فان تفكيك الوحدة توصمه أيضا بوصمة عـار مدى الاجيال، وهـو الذى يحفظ لنفسه شرف الشهامة والنبـل .

ان الذى ثبت تاريخيا، أنه فى آخر لحظة من المفاوضات التى كانت تجرى بين وفده المتركب من السيد محمد أزرقان والسيد احمد بدى وحدو الاكحل، وبين الوفد الاسبانى والفرنسى، فى مدينة وجدة، برئاسة «الجنرال موجان»، كان وفد الريف مزودا بوكالة من ابن عبد الكريم بامضائه تحت ختمه أمير الريف، وهو مرجع يرفع كل التباس؛

(نسخة فتوغرافيه من الوكالة)

على أن الفرنسيين والاسبانيين معا قد منحوا لقب الامير لابن عبد الكريم فى مشروع صلح، كانوا أزمعوا أمرهم على انهاء مشكلة الريف بطريقة سلمية، (25—1926) .

ذلك أن رئيس وزراء فرنسا «مسيو بانارفيه» نشر بيانا بتاريخ أكتوبر 1925، عرض فيه على الريف حكما ذاتيا، على أن يمنح ابن عبد الكريم لقب الأمير تحت السلطة الروحية سلطان المغرب، وجاء عقبه وزير الخارجية «المسيو بريان» فأكد شروط الصلح التى وافقت عليها الدولتان، الاسبانية والفرنسية، على أساس ان يقوم بالوساطة الانجليزى «غوردون كاننغ»، وكان ضابط فرسان، برتبة نقيب قبل ذلك، وفى الوقت ذاته كان رئيس لجنة الريف التى انشئت فى يونيو 1925 بالاشتراك مع اللجنة الامريكية التى يرأسها «هاربرت مايون» الامريكى، وكان غوردون يعطف على القضية الريفية عطفا خاصا، عندما منعه الاسبان سنة 1924 من ايصال معونة طبية الى الريف، بصفته ممثلا لجمعية الهلال الاحمر .

ومن البديهى ان الانجليزى، لم يتدخل فى اجراء الصلح الا بايعاز من الدولتين معا، فدخل الريف فعلا، واستقبله السيد امحمد الخطابى فى ترجيست، وأبلغه عرض فرنسا واسبانيا على الريف الحكم الذاتى تحت رعاية سلطان المغرب، وأكد له أن رئيس وزراء فرنسا والمقيم الفرنسى بالمغرب، «مسيو تيدور ستيغ» قد وافقا مبدئيا على منح ابن عبد الكريم لقب الامير .

وبعد مناقشة حررت صيغة مشروع الاتفاق الذى تضمن من جملة ما تضمن قبول لقب الامير لابن عبد الكريم، وتسيير شؤون الريف تحت سلطة السلطان .

الحمد لله وحده «تمسمانت» 14 ابريل 1926

أنا محمد بن عبد الكريم الخطابي أمير السكان المتمولين بخط
[illegible] علما من الجبل والريف أشهد على تعييني لتشكيل الوفد
تحت تسيير [illegible] السيد محمد بن محمد أزرقان [illegible]
المذكور مع نواب دولتي فرنسا واسبانيا وعقد الصلح وابرام
مع الدولتين بعوضنا حول المحادثة في جميع الامور اللازمة
لعقد الصلح والسلام

محمد بن عبد الكريم
الخطابي

الحمد لله وحده

إلى حضرة السيد محمد أزرقان السلام عليكم
ورحمة الله وبعد بمقتضى الوفاق
الذي وقع بيننا فإننا أمرنا بانعقاد
الهدنة من تاريخ السادس عشر ابريل
[illegible] إن حكومة مادريد
أخبرت بذلك بواسطة باريز
وتفضلوا بقبول اعتباري الفائق
وبه [illegible] في 16 ابريل 1926 م
و ب الجنرال [illegible]

رسالة بامضاء الزعيم ابن عبد الكريم الخطابي لاعتماد الوفد ناظر الخارجية تحت امضاء الامير .

جواب رئيس الوفد الافرنسي بموافقة على الهدنة .

وبعد تحرير الاتفاق فى تسعة بنود، سافر غوردون كاننغ الى تماسنت لمقابلة ابن عبد الكريم ليحرز على موافقته شخصيا، فاتصل به وأعطاه مبدئيا الموافقة على المشروع الذى كان مطلعا على مراحل المباحثة مسبقا، قائلا له انه لا حاجة لمزيد من الايضاح .

ولاجل الرغبة فى انهاء القضيه بالسرعه المتطلبة، فقد زود الانجليزى برساله مؤرخه بـ 16 جمادى 1344، يعلم فيها الحكومة الفرنسيه، بانه يفوض الانجليزى بأن يستلم من فرنسا واسبانيا شروط الصلح .

وبعد رجوع غوردون الى باريس، تلقى رسالة من طرف المقيم العام الفرنسى بالمغرب «مسيو ستيغ» بتاريخ 10 دجنبر 1925، يهنئه فيها على انجاح الذى أحرزه فى مسعاه .

وعليه فان لقب الامير كان هو اللقب المتعارف عند الدولتين الغازيتين، أخذا مما هو متعارف لدى رجال الثورة بالريف، وما عدا ذلك من الالقاب المدسوسة، فانها كانت للدس والتشويه، مثل التشويه الذى جرى فى استصدارهم ظهيرا بتمرد الريف، ذلك الظهير الذى جاء على نسقه بعد الظهير البربرى، لاجل أن تتمسك بهما فرنسا عند الحاجة وتلغى العمل بها عند حاجة أخرى .

فالمفاوضة وعرض لقب الامير على زعيم الثورة، كان اعطاء المشروعية للعمل الثورى، الذى أسس على نهج صحيح تحت سلطة السلطان الذى كشفت عنه تلك المفاوضة والذى قامت عليه الثورة، وهذا القدر من الحقيقة هو الذى عند الدوائر الوطنية بالمغرب، التى تزن الامور بمقياسها الصحيح، وقد عبر عن هذا الرأى رائد من روادها، وزعيم من زعماء مناهضة عموم الاستعمار، والمفكر الخريت، الاستاذ علال الفاسى، الذى يغوص بتفكيره فى العمق، اذ قال فى كتاب الحركة الاستقلالية فى المغرب العربى، صحيفة 119، «ولقد حاول الفرنسيون فى دعايتهم أن يجعلوا من الريف، مجرد ثائر، راغب فى الملك أو ناقم يطالب بالسلطان وكان الامير لم يتأخر عن التصريح فى الوقت المناسب، بأنه لا يرغب الا فى تحرير البلاد، وانه لم يثر ولن يثور أبدا على العرش المغربى الذى ظل أسلافه مخلصين له دائما» .

«كما أكد الامير بمجرد وصوله لبور سعيد، انه دائم الولاء لجلالة ملـــك المغـــرب الاقصى» .

وكما أسلفنا، فان لطخ سمعـــة المجاهد ابن عبد الكريم، كـــان حربا نفسانيا اعتمدها أساطين الاستعمار، للتأثير على الرأى العام العالمى وبالاخص لبث الشقاق بين ملك المغرب واحد اقاليـــم مملكتـــه، فراحـــوا ينشرون ان الامير يحاول من وراء الحرب ضد الجيش الفرنسى على نهر ورغة ان يدخل فاسا للنداء عليه هناك سلطانا على مراكش، ونظرا لجهلهم بمقومات السلطة الروحية والزمانية فى المغرب، شاعوا بان ابن عبد الكريم فى تفجير الحرب على ورغة بالذات فى أشـهر الصيـــف، الاولى التى كـــان يوافق منها ثانى يوليو 1925، يـــوم عيد الاضحـــى، ان ينحر فى فـــاس كبش الاضحية الذى هو من حق السلطان وحده .

وقد ضربوا صفحا ان يذكروا الاسباب الحقيقية التى أوحاها القلب الكبير المملوء انسانية، فتجنب احتلال العاصمة العلمية التى تشع العلـــم والنور، ولانها تضم بين جدرانها رفاة سلالة من السلالات النبوية التـــى عملت على رسوخ مبادىء الاسلام فى هذا البلد العزيز، وحافظت علـــى استقلاله الوطنى، الا وهو مولانا ادريس الثانى، كما تضم رفاة ملـــوك علويين من نفس السلالة ورفاة علمـــاء وصلحـــاء .

فكان على قائد مسيرة الثورة، أن لا يلطخ شرفها باحتلال مدينـــة مقدسة يعلم مسبقا ان الاحتلال سيجر عليها وبالا ودمارا، لان الاعـــداء لا يتركونها لقمة سائغة من دون أن يعرضوهـــا للخراب بوسائل الابـــادة الجهنمية ، فتجنب احتلالهـــا .

واذا كـــان تجنب احتلال مدينـــة مليلية عندما وقفت جماهـــير المجاهدين على ابوابها وأرادت اكتساحها فى عنفـــوان الحماس المنقطـــع النظير، فكبح جماحهم بعد لاى، لاسباب الانسانيـــة، التى تمنعـــه من أن يتعرض خمسون ألف من الاطفال والنساء والعجزة للهلاك، ولان الميثـــاق الوطنى تركها خارجة عن منطقة الريف، اعتبارا لوضعيتها الخاصـــة التى هى عليها، فان الاجدر بذلك مدينة العلم والعرفان والصلاح الذى ينبو من يتعرض للدمار عن مائة الف من أبناء جلدته من المسلمين .

وعلى كل، فان الانسانية عند دوائر الاستعمار تختلف باختلاف الاغراض، فاذا كانت من انسان الشرق سميت ضعفا، واذا كانت من انسان الغرب، دعيت شرفا ونبلا، وبالعكس، فان ما يرتكبه الانسان الأول من الدفاع عن الشرف والنفس، سمي قرصنة، وما يقوم به الانسان الثاني، فهو خدمة الانسانية، ومن قبيل الاول الذى يستملح التذكير به هنا كمثال: ان أحد المخافر فى شهر يناير 1925 وكان يدعى «بني دركول» الواقع على نحو 8 أميال بالشمال الغربي من مركز بيبان المشهور، بقبيلة مزيات حوصر من طرف المجاهدين، وكان رئيس المخفر المدعو «بول لابايير» برتبة ملازم، قد انهكه الحصار، اذ يتساقط افراد المخفر أمامه واحدا فواحدا، فكان يرسل بمعلوماته الى المركز الواقع فى جنوبه مباشرة، فكان يصف المجاهدين الذين يردون اغارة الجيش الفرنسي الاجنبي بالقراصنة والاوغاد، وهنا يجدر أن نتساءل، من هم القراصنة والاوغاد ؟

أما ما هو من قبيل الثانى فهو ما أستفناده عن الرئيس «تشرشل» عن الحرب العالمية الثانية، عندما رميت هيروشيما بالقنبلة الذرية، وقال ان القاء القنبلة لم يكن موضع نقاش بين اركان الحرب الامريكية والانجليزية، ولم يثر احد أى اعتراض .

وهكذا يظهر التناقض المكشوف الذى لا يبدو غريبا، عندما نسمع من أساطين الاستعمار الضرب على هذا الوتر، ولكن يكون غريبا عندما يقلده الكتاب العرب الذين يكتبون عن حرب الريف التحريرية بذلك الاسلوب الذى يقلدونه من دون تمحيص، واذا كنا لا نلوم أعداء المغرب الذين أناخوا عليه بجيوشهم الجرارة وآلاتهم المدمرة، فانما ذلك لان الحرب النفسانية والدعائية هو أسلوب آخر، من أساليب الغزو ولكن الذى يحز فى النفس أن يطالعنا كتاب العربية العرباء بالضرب على تلك النغمة، فيما يخص تلك الحرب التحريرية التى كانت فى مبدئها الاصيل هو الدفاع عن الوطن والعقيدة والعرش، ضد الذين تكالبوا لاحتلال الوطن واهانة المقدسات .

لكن على المرء أن يبحث عن الحقيقة ولا يني، وان يحكم عقله فى الملابسات التى تكتنف القضية أية قضية، حتى يرد ويصدر عن بينة.

وهنا يجدر ان ننقل فى الموضوع كلاما للزعيم علال الفاسى فى نفس

المصدر صحيفة 122، فقد جاء فى عرضه لمواد الميثاق القومى الذى أقـــره المجلس الوطنى الثورى، التى منها :

1) ــ عدم الاعتراف بأى معاهـــدة لها مساس بحقوق البـــلاد المغربية وخاصة معاهدة 1912 .

2) ــ جلاء الاسبان عن المنطقة الريفية التى لم تكن فى حوزتهم قبل ابرام المعاهدة الاسبانية الفرنسية سنة 1912 .

ثم عقب على ذلك فقال: «واذا فالحرب الريفية كانت مع تمسكها بوحدة التراب المغربى فى ظل العرش العلوى، ترمى الى أمرين: استقلال البلاد، وتمتيعها بالحكم الدستورى» .

«وقد ظل هذان الامران غاية المواطنين المغاربة عند فجر القـــرن العشرين الى اليــوم» .

ثم جاء فى صحيفة 121 «ولكنهم فى الحقيقة لم يكونوا يستطيعون الكلام باسم ملك المغرب، الذى جعلته ظروفـــه القهرية فى منطقة النفـــوذ الفرنسى، ولم يريدوا أن يقعوا فى الخطأ الذى وقع فيه الهبة ووالده ماء العينـــين، حينما أعلنا نفسيهمـــا ملكين، بعد أن كانـــا مخلصين للعـــرش والمدافعين عنـــه» (1)

«ولذلك فقد وجدوا (زعماء الريف) حلا وسطا، هو تأسيس نظام موقت يمكنهم من تنظيم الادارة، وتدريب الجمهور على أن يحكم نفســـه

---

(1) الواقع أن الشيخ ماء العينين وولـــده الهبة من بعده كانا خليفتـــين للسلطان، ومجاهدين كبيرين، ويكفى للاستدلال على ذلك ما جاء عـــن المؤرخين الاسبان أنفسهم أمثال فيكراس وباروخا وغيرهم، فقد جاء عنهم أن ماء العينين كان يتلقى التعليمات مباشرة من السلطان، وهكذا ففى سنة 1873 زار مولاى محمد فى مراكش وفى سنة 1887 زار مولاى الحسن فى مراكش أيضا ثم زار مولاى عبد العزيز سبع مرات فى مراكش وفاس، أما ولده الهبة الذى خلف والده فى الجهاد فقد اتسع عمله من واد الذهب وموريطانيـــا الى مراكش لرد الزحف الاكبـــر الاستعمارى عن المغرب وكان الجهاد الشغل الشاغل له .

بنفسه، ومتى تم التحرر الكامل لسائر أبناء الوطن، سلموا البلاد المحررة لصاحب العــرش» .

هذا من جهة، ومن جهة أخرى، فقد قرأت للكاتب البحاثة، الاستاذ محمد الخطيب التطوانى مقالا قيما فى الموضوع، نشره فى مجلة التضامن بتاريخ يناير 1970 عدد 2، جاء فيه «ذلــك التنظيم الذى أعطى للثــورة المدلول المتكامل، بما فيه تنظيم الهيأة المشرفة عليها، اذ الى جانب سهره بنفسه على جوانب العمل، قام بتكوين هيــأة وزع بينها شؤون التسيــير المتطلب، واختارها كعادته، رجالا صدقوا فيما عاهدوه وعاهدوا الله عليه».

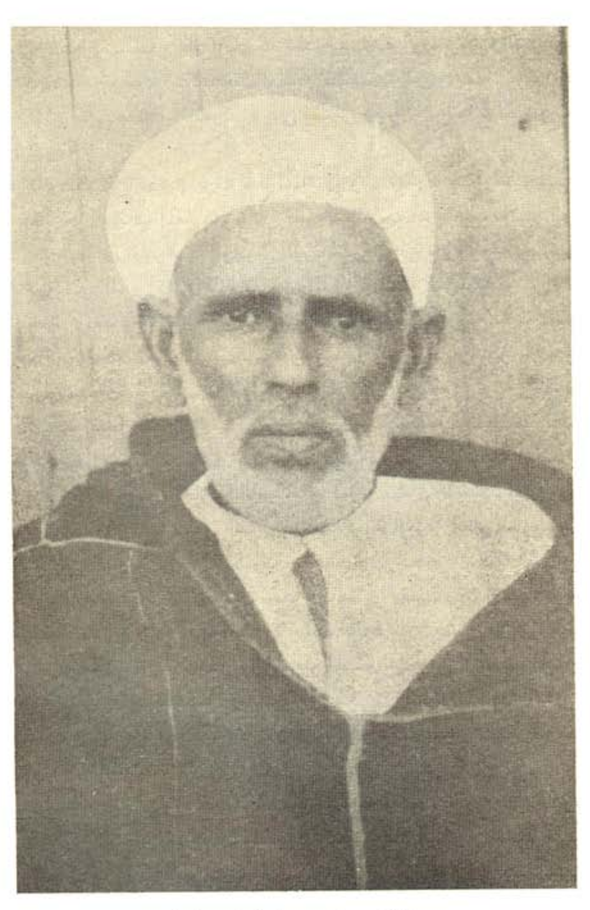
«وعين زيادة على من سبق ذكره (وهما أخو الامير السيد امحمد الخطابى، وعمه السيد عبد السلام الخطابى) السيد (1) عبد السلام الحاج موحند، الذى كلفه بالشؤون الحربية، قبل اسنادها الى السيد احمد بودرة، والسيد اليزيد بن الحاج حمو الــذى كلفه بالشــؤون الداخلية، والسيــد حدو المعلم، الذى عينه مفتشا عاما للبحرية، والسيد احمد أكرود كناظــر عام للاوقاف، والسيد عمر بن محمادى ناظرا للجبايات والسيد محمد بــن صالح عينه قاضى القضاة، والسيد محمد بوجبار متصرفا عاما للماليــة، والسيد عبد الكريم بن حدو قائدا للمشور، والسى اعلى بن محمد (المدعو السى على فطومة) مديرا للمدفوعات فى الخزينة» (ان هذه اللائحة ذكرها الجنرال غوديد فى كتابه المذكور آنفا) .

«وبجانب هؤلاء، قام بتوزيع الاعمال واختيار القضاة، والقواد المحليين وقواد النواحى، توزيعا محكما» .

ثم عقب الكاتب قائلا «وبهذا الشعور، وهذا الحب، نستطيع أن نفهم حقيقة نظام الثورة الريفية، وعــلاقاتها بالهيكل الشرعــى للدوله، فالذين يقولون بأن الحركة الريفية، كانت نظاما يعيش على هامش النظام العام للمغرب من الوجهة القانونية، ليشوش عليهم فى ذلك الاعتقاد ما كان من شأن بعض الظواهر والتسميات، كلقب الامير، واطلاق لفظ الجمهورية على النظــام» ؟

ثم زاد فقال «وتأويل الشبهة، أما أن يكون تأويلا بسوء النيــة،

(1) والــد المؤلــف .



صورة ناظر الحربية في ثورة الريف
السيد عبد السلام بن الحاج محند (والد المؤلف)

فيكون ذلك من مظاهر الاستغلال، وهو ما وقع بالنسبة لخصوم الثـورة، وفى مقدمتهم السلطات الفرنسية والاسبانية، التى كانت تجد بكل سبيل لتعميق الشعور بالنقمة على الحركة عند الجمهـور المغربى، الذى تعلمـه من بعد تمسكه بنظام حكمه، بل أنهـا استهدفت من ورائها شيئا آخـر، وهو التأثير على صاحب أعرش، كي يشعر هو الآخر ببعد الخطورة ءى مـركـزه» .

وذلك لان هذه الحرب مع نظافتها وقداستها، قد تركت عقدة غلط عند بعض من الكتاب المغاربة، وكان مفروضا عليهم من ناحية المبدأ الوطنى أن يضعوهـا فى اطارهـا الوطنى الواقعـى، وان يدرؤوا عنها شبهـات الاستعمار، وبالتالى دحض ما جاء فى تلك المؤلفات الاجنبية، التى ضربت على نغمة الانتقام السياسى، والاعـلامى، بعدما عجزت مدافعهـم، ان تنال منالا مشرفا لهم، ولو أنهم تغلبوا بعد لأى، وبعد أن بكوا مآسيهـم فى أدغال الشمال، فانما ذلك لطغيان الجحافل البرية والجوية والبحريـة التى حشرت فيها طاقة دولتـين أوربيتين فى عنجهيـة عظمتهما، وحـداثة تجهيزها، واذا كان الجنرال «منويل غوديد»، وكان من جملة أولئك الذين جروا جحافل الجيش الغازى الاسبانى، لغزو شمال المغرب، أبدى وأغرب فى قلب الحقائق عندما تمس الحادثة السياسية العامة التى سارت عليهـا اسبانيا ابان الحرب وحاول تشويه سمعة قادة الحرب عندما قال عن ابن عبد الكريم، ما معناه: «انه رجل شجاع سياسى محنك مقتدر لقيادة القبائل وتنظيمها، الا أنه خانه الحظ عندما استسلم، فابدى غـير ما عرف عليـه اذ أدركه ضعف العزيمة، فكان الواجب المحتم عليه أن لا يستسلم، لانـه كزعيم مسلم يعتقد بالقضاء والقدر، أن يبقى فى خندق الجبهة الحربيـة، مع المناضلين الذين آزروه، ولا يتركهـم وراءه للمصير المنتظر، وينجـو بجلده وجلد عائلتـه» .

وقال عن أخيه امحمد الخطابى «أنه رجل متخرج من المدرسـة الهندسية بمدريد، ويبدو بطلا محاربا عندمـا قاد الهجوم ضـد الجيـش الاسبانى فى جزيرة بادس، وجحافل المحاربين الارياف، الى جبهة جبالـة، فهجم هناك على الجيش الاسبانى ورد الامور الى نصابها، حتى بين تلـك القبائل التى حاولت التمرد ثم قاد حملة أخرى الى جهـة قبائل ورغـة،

حيث اصطدم مع الجيش الفرنسى، يقول الجنرال المذكور: «ومع ذلك فانه يبدو عكس أخيه، اذ أن هذه الاوصاف تستدعى أن يكون شهما بالمعنى الحقيقى، ولكن الذى يأمر بقتل الضباط الاسبانيين فى الاسر، لا يمكن أن يتحلى بالشهامة والبطولة». وهذه العبارات التى نمقها، تعتبر مدسوسة والا فان الاول لم يستسلم الا بعد انتهاء الحرب نهائيا، اذ استسلم فى تركيست، حيث اطبق عليه الجيشان، الاسبانى والفرنسى، وكان الاول وصل الى مغاور بوصالح المتصلة رأسا مع تركسيت، وكان الثانى يزحف على جبال بنى عمارت، وصنهاجة، ووصل الى تركيست، بينما الاساطيل البحرية تشد انخناق على السواحل، تغدو وتروح فى فخامتها، التى تكونت مما يزيد على مائة بارجة ومدمرة، فلم يبق له الا الاستسلام، والا كان عنيدا منتحرا، وان ايمانه بالقضاء والقدر هو الذى هداه لان لا يلقى بنفسه الى التهلكة من دون طائل، الا أنه مما زاد امتعاض الاسبانيين عليه، أنه لم يرد أن يستسلم بيدهم، بل فضل أن يستسلم الى الفرنسيين، وقد صرح لدى الصحفيين عقب ذلك، بأسباب تحز من كبريائهم، وذلك ما ازدادهم خنقا عليه .

أما أخوه امحمد فان وصفه اياه بأنواع البطولات، كان صحيحا، ولكن الضباط الاسبانيين الاسرى بعكس ما قال، فانهم لقوا عناية فائقة فضلا عن أن يأمر باعدامهم .

ان الجنرال نبارو الذى كان أخذ بمعركة جبل عرويت، كان من جملة الاسرى الضباط، وقد أطلق سراحه مع الجنود الاسبانيين مقابل فدية أدتها اسبانيا للريف، فقد صرح عقب تحريره، بما يخالف ما زعمه هذا المؤلف، بل أدت أريحية الامير امحمد الاخطابى، ان منح له سرير نومه احتراما لرتبته العسكرية، وحفظا على نبل المسلم، أما غير الجنرال، فان احدى الاسيرات، وهى ازبيلا، افحمت أحد الصحفيين الاجانب، عندما قال لها: هل تخافين هنا؟ فأجابت مم أخاف؟ وصرحت للمراسل «بول سكوت موورور» أنها تتلقى معاملة طيبة وليس لديها ما تشكوه به .

وأخرى وهى «سيبريانا» بعد ما فديت مع الاسرى رجعت الى الريف وسكنت فى الحسيمة، وعندما نزل ابن عبد الكريم فى القاهرة سنة

1947، بعثت اليه برسالة تهنئه بسلامة الوصول، وتشكره على المعاملة الطيبة التى لقيتها خلال السنوات الخمس التى قضتها فى الاسر .

وقد زاد هذا المؤلف فى الضرب على هذه النغمة، فوصف ابن عبد الكريم بسلطان الريف تارة، ويصف قادة الحرب بمخزن الريف تارة أخرى (1) .

الا أنه عندما ينسى النزعة الاستعمارية، يذكر الاشياء كما هى، فقد قال فى نفس الكتاب (2)، أنه عند تنظيم الثورة بتاريخ 1922 كان بعض الاشخاص وسماهم السيد عبد الكريم بن الحاج على اللوه من بقيوة، والشريف التجانى، يحاولان زج ابن عبد الكريم فى مأزق تنصيبه سلطانا على الريف، وكان ذلك من وحى أفكارهما الخاصة، على أن تدعى المنطقة المحررة «منطقة الريف»، ويكون مركز السلطة أجدير، وتضم القبائل التالية: بنى ورياغل ــ بنى بوفراح ــ بنى يطفت ــ بقيوة، ولم يتكلم عن باقى القبائل التى كانت محررة، وهى: تمسمان، وبنى توزين، وبنى وليشك، وبنى سعيد شرقا، وقبائل تركيست بنى عمارت، بنى مزدوى، زرقت، صنهاجة الشمالية، كتامة، بنى اكميل، مسطاسة غربا، وقال الا أن ابن عبد الكريم اختار طريقة أخرى، وهى التفاوض مع سلطان المغرب مولاى يوسف والدولة الفرنسية بالمغرب .

وحقيقة، فان هذه الشهادة التى أتت من أحد أساطين الغزاة، كانت هى احدى قواعد الثورة الاساسية، وتطبيقا لها فان الامير ابن عبد الكريم، كلف الفقيه ابن على المدعو ببولحيا، والقائد حد الاكحل من بقيوة، لاجل تنفيذ مشروع المفاوضة، وقد اختار الرجلين، لان الاول كان مكلفا بشؤون القضاء، والثانى له علاقة مع احد المراقبين الفرنسيين وهو مراقب توريرت بناحية وجدة المدعو «غابرييلى» .

ومما نعلم، فان الاول اتصل كتابيا مع وزير العدل فى ذلك الوقت، وهو الشيخ الامام، الشريف الحسنى سيدى عبد الرحمن بن القرشى،

---

(1) كتاب المغرب ومراحل التهدئة المطبوع عام 1932، صحيفة 83 .
(2) نفس المصدر صحيفة 86 .

وهنا نترك الرواية لهذا الاخير، فقد كان يروى فى مجالسه، انه توصل بكتاب من ابن عبد الكريم ببنقتـه (1) بالمشور بالرباط ، يطلب منـه التدخـل لدى السلطان مولاى يوسف، لاجل اصدار رضاه على العمل الحربى للجهاد فى سبيل الله، وأن ابن عبد الكريم هو جندى للدوله المغربيه، وانه لا يطلب الا أن يكون أحد المجاهدين، وأميرهم الحربى لاجل اجلاء الاسبان عـن الشمال، وانه عند طردهم يبقى خاضعا للدولة، يسير طبق ظهائر الدولـة وأوامرها، قال سيدى عبد الرحمن ابن القرشى، انه طلب مقابلة السلطان مولاى يوسف، وحمل اليه الرسالة، وأطلـع على فحواها فأطرق مـولاى يوسف مليـا، ثم قال لى، ماذا تقول أنت؟ فقلـت يا مولاى: ان هـؤلاء الارياف معروفون باخلاصهم للدولة، وانهـم دائما كانوا جندا لاسلافكم المقدسين، فهذا جدكم مولاى اسماعيل، حاصر بهم العرائـش وأصيـلا، حتى أجلوا الاجناب عنهما، وتخليدا لعملهم أمـر ببناء حومة فى كـل من المدينتين، مع مسجد وحمام وفرن، واسكنهم فيها، وهذا جدكم مـولاى محمد بن عبد الله، حاصر بهم مليلية وسبتة، وانه تفقد شواطىء الريـف وانهم لم يقوموا الآن بما يقومون بـه الا من ذلك القبيل، فقال له ولكـن السيـف كلخـة .

وهذه الحكاية التى رواها شيخ الاسلام بالمغرب، تعطى الدليل القاطع على فشل المرشال ليوطى، الذى حاول مع السلطان أن يجره الى اعتبار ثوار الريف خارجين عن الطاعة واستصدار فتاوى بعض المعممين ممن يدعون بالعلمـاء وما هم بالعلمـاء .

وفى صدد هذه الوحدة الوطنية، ننقل ما نشره الاستاذ الخطيـب فى المجلة المشار اليها «وقد ثبت أن هذا التخوف كان على جانب كبير مـن الواقعية، وتأكد ذلك بعدة رسائل، التى كان ابن عبد الكريم يوالى توجيهها لجلالة الملك يوسف يدعوه فيها للوقوف فى وجه الحماية والاحتـلال» .

«ولو حدث ذلك، لوقع تحول كبير فى مجرى الحياة المغربيـة، وهو

(1) عبارة مغربية عن مكتب الموظف فى ذلك الوقت بالمشور .

ما كان ابن عبد الكريم يقصد اليه، اعتقادا منه كسائر المغاربة، بأن العرش هو الذى يجمع شتات الامة، ويوحد كيانها» .

أما الشخص الثانى وهو القائد حدو الاكحل، وكان هذا الرجـل يحسن كثيرا من اللغات وبالاخص الفرنسية، وكان فى القطـر الجزائرى، وهو الذى جلب أدوات التنقل، كالطائرات والسيارات، فقد اتصل بالدوائر الفرنسية، وأظهرت استعدادا مشوبا بالحذر، لان الدعاية التى كان يروجها أعداء الثورة من عسكريين وصحفيين، الذين يخوضون فى الماء العكـر، ان نوايا ابن عبد الكريم هى تحرير المغرب من أجدير الى أكـدير .

والذى يتمعن فى هذه الجملة الدعائية، يدرك مغزاها العميق، فقد نسق هؤلاء الدعاة كلمتى (أجدير وأكدير) المتشابهتين اللفظ والمعنى، ومن المعروف أن رجال الصحافـة حربين أو غيرهـم، يختارون جملا رنانـة للاستغلال، والاخذ بعقول القراء وتصديقهـا ؛

ورغم هذه الدعاية ، فان ابن عبد الكريم، بقى وفيا للمفاوضات التى كانت تجرى بينه وبين تلك الدوائر التى كانت فحواها، ان يشـيروا على السلطان، مولاى يوسف، بأن يصدر رضاه على عمله، باعتباره أحد رعاياه، على أن لا يجرى أى عمل ضد فرنسا، بل يترك شأنها للسلطـان، ويعمل لاجلاء الاسبانيين فقـط .

الا أن الجيش الفرنسـى تحرش بقبائل ورغة، فاحتل بنى زروال، وجهز حملة من المغاربة الى مرنيسة لحماية القائد عمر بن احميدو، ورغم ذلك، فانه التزم بمبدأ المفاوضة، فكتب الى رئيس ناحية فاس العسكرى مستلفتا نظره، ولكن هذا رد عليه رد المستعلى اذ قال فى جوابه، ان كل قبيلة تطلب منه أن يحتلها فانه يفعل .

وهكذا ، فان عبد الرحمن الدرقاوى الغمارى، رئيس الطائفـة الدرقاوية ببنى زروال طلب منه حماية زاويته ببنى زروال من الاعتـداء عليهـا فقد احتلها، وان القائد عمر بن احميدو طلب منه الحماية فحماه.

وعندئذ عمل ابن عبد الكريم بما يقتضيه الموقف، فاحتل مرنيسة وبنى زروال وعين عائشـة وبوعادل وغيرها .

على أن الذى يتمعن فى ملابسات الاحـداث فى الريف قبل ذلـك،

فانه يرى انه لم يكن مضى الا وقت قصير من القضاء على الثائر بوحماره، بوحي من تلك العقيدة الوطنيه، دفاعا عن العرش وعن الوطـن، مهم مى تصرفاتهم كنها ضده، لم تكن الا لاجل هذا المبدء، حسبما ياتى، وقد كـان من اساطين رؤساء القبائل الفقيه السيد عبد الكريم الخطابى (والـده) ، فكيف يتصور ان القوم نفسهم والعبار المتطاير من تلك المعارك لم ينفـص بعد، ان يقلبوا ظهر المجن بين عشيه وضحاها، والحال ان فرصه بوحماره ستمرد كانت اسهل لأنه لم يكن هناك هجـوم خارجى، فهم فى مامـن من الأنكسار أو الفشل، أكثر من هذه الفرصه التى هى مزروعه بالاشـوك، ففرنسا قد احتلت المغرب الجنوبى، وهى التى تعهدت لاسبانيا باحتلالهـا الشمال، وتعتبر حليفتها بالطبع، لان الذى يصيب الثانيه لم يكن ليخطىء الاولى، مهما تقوى المغاربة الذين رضخوا تحت الاقدار والقوه، وهذا الفهم صحيح، وليس العكس، ولكن ليس موجها ضد المغاربه بعضهم البعض، بل ضد من طعن سيادة المغرب فى الصميم فوزعها وزيعـة .

وعلى كل، فانه ليس هناك سذاجة أفدح، اذا اعتبرنا أن فى هـذه الظروف المحيطة، يفكر أى واحد كيفما كـانت بساطتـه أن يعمل بوحـى التفرقة التى لا ترجع بالوبال الا على المغاربة أنفسهم، بينما العدو يكون بمنجـاة .

أما قبل هـه الحقبة، فان الريف بوحى من وطنيته آزر السلطان العظيم مولاى محمد بن عبد الله، لما حاصر مليلية وسبتة، كما أن بعض المناضلين من الارياف قبل ذلك استمروا فى حصار سبتة مدة طويلة، وقـد بنى بعضهم دارا فى الجهة الامامية، لا زالت اطلالها هناك، وعندما عقـد السلطان مولاى محمد ابن عبد الله الهدنة مع اسبانيا برفع الحصار عـن مليلية، بقى المجاهدون هناك، ولكن فى حدود التقيد بالاوامر السلطانيـة ، خوف أن يصدر منهم تمـرد عن تلك الاوامر، لان السلطـان اعتبر عمـل اسبانيا باطلاق أسرى المسلمين بادرة تستوجب العناية .

ان هؤلاء المجاهدين أنفسهم ابناء أولئك الذين لو نبغ فيهم شاعر، لكان قمينا أن ينشد فى حقهم مثل ما انشد الفرزدق مفاخرا :

أولئك آبائى فجئنى بمثلهم اذا جمعتنا يا جرير المجامع

او مثل ما أنشد شاعر آخر متحمس :

قبائل من سام وحام تجمعت　　وما جمعت الا الاسود الضواريا

وإذا انتزموا بالاوامر، ولم يتمردوا لان أعمالهم كانت نابعه عن عقيدة دينيه صميمه، تتمثل فى أن عصيان الملك الشرعى، هو مروق من من الدين الذى يعضون عليه بالنواجد، ولا يقبلون فيه مساومه ولا مساسا.

ان المرء ولو لم يكن خريتا عندما يجوب قبائل هذه الجهه، ويطلع على معتقدات القوم من الولاء الخالص الغير المشوب بلعب البهلوان الذى لا تعرف سجيتهم، حقا هذا النوع من اللعب، يجد ان كل عائله تقريبا، تشمل خزائنها المتواضعة، مثل مزود وصندوق من خشب وقصب مجوف، على ظهائر ملكية يتنافسون فى استصدارها من الملوك العلويين المتعاقبين، ويحفظونها مع أعز تراث أجدادهم، ولا يسمحون بها لاحد ولو باعارة لوقت ما .

على أنه يجب أن لا يغرب على البال، ان سكان هذه الناحية امتزج دمهم بالدم العربى، امتزاجا قد يكون متساويا .

وذلك لان السكان الاصليين، كانوا يعمرون الجبال الشاهقة، والاراضى العالية، عن الشواطىء فرارا من القراصنة الذين كنوا يجوبون البحار ويغيرون على السواحل، لاخذ الاولاد الصغار لتنشئتهم بحارة، فلما وفد العرب اليمنيون على سواحل الريف، عمروا هناك مدنا، مثل مدينة النكور، ومدينة المزمة، ومدينة بادس، وقرية بوسكور، ومدينة تمسامان بوادى امقران، ومدينة فساسة قرب مليلية بقبيلة بنى بوغافر.

ثم أن الاشراف الادارسة، وجدوا ملجأ فى هذه الناحية بعدما اجلتهم عن قاعدة ملكهم (فاس) فتن موسى بن أبى العافية، عدوهم اللدود، وأسسوا امارات بحجرة النسر وتيكسان بغمارة ومدينة بادس بالريف، كما أسس الحموديون امارة أخرى بمليلية، وبفعل هذا التوافد على الشمال، انتشر الدم العربى، وكان للادارسة القسط الوافر من الامتزاج مع كل قبيلة أو قرية، واندمجوا مع السكان اندماجا بدون فارق يذكر، فهم ريفيون باللغة والتزاوج والعوائد، وهؤلاء الاشراف معلومون الآن، بنسبهم المتواتر وانه لا يطلب منهم فوق هذا من حجة، لان التواتر قطعى

فى ثبوت الانساب الشريفة على ما انفصل عليه الونشريسى فى معياره وسيدى المهدى الوزانى فى نوازله: الجزء ـــ11ـ صحيفة 121 الى 125، من ان الشرف يثبت بالسماع انفاشى، كما يثبت شرف من يدعى بالمرابط ان أدعى الشرف، حسبما انفصل عليه المصدر الثانى ـ نفس الصفحة ـ .

وبهذا يعتبر ما نشر فى بعض المؤلفات (1) من أن النسب الشريفى فى الريف مشكوك فيه، كلام من لا يزن الاقوال بمقاييسها الاساسية .

وهنا يجدر نقل طريقة وقعت لامير المؤمنين، المأمون العباسى، فقد ذكر القاضى عياض فى كتابه ترتيب المسالك لمعرفة اهل مذهب مالك (2).

انه: لما ورد المأمون الى مصر، جمع العلماء، وكان منهم سعيد بن عفير (وكان محاورا لاذعا)، صاحب الامام مالك، وبعد حوار فى شأن بلاد مصر التى قال فيها الله تعالى: «ودمرناها تدميرا»، سأل المامون سعيد بن غفير عن عاملين وردت شكاية بهما، فقال سعيد، انهما ظلومان غشومان، فقال المأمون هل عصباك أو ظلماك؟ فقال سعيد لا، فقال كيف تشهد عليهما؟ فقال سعيد كما أشهد بأنك أمير المؤمنين قبل أن أراك (يعنى أن التواتر حجة قاطعة على الشىء المتواتر) .

وعليه، فان انساب الشرفاء بالشمال، ثابتة ثبوتا شرعيا بما لا مزيد عليه، فكل عائلة تواتر شرفها بين تلك القبائل، فهى مثبوتة النسب، وكذلك من شاع شرفها سماعيا فاشيا مستفيضا، أو المرابطين الذين يدعون النسب، على ان كل عائلة شريفة، صغرت أو كبرت لها ظهائر ملوكية ..

فكل الانساب محفوظة لدى القوم، حفظها عند العرب الاقدمين فى الجزيرة العربية سواء .

وقد أوردنا قصة الاشراف، لنعطى الدليل على أن الريف، بصفة خاصة، والشمال بصفة عامة، كان للاشراف فيها تأثير دينى قوى، لانهم من العترة النبوية، ولهم حرمة، والحال أنهم يكونون سوادا له اعتباره الخاص، ومن هؤلاء، عائلة الخطابيين، فهم فى تصرفاتهم مستوحاة من

---

(1) كتاب الزعيم ابن عبد الكريم، لمؤلفه محمد العلمى ـ طبعة سلا ـ.
(2) صحيفة 272 طبعة وزارة الاوقاف بالمغرب .

الشريعة السمحاء التى تمنع عليهم فتق الفتـــوق فى الاسـلام وبالاخـــص دوبة شريفة ذات رسوخ فى دفع العوادى عن الوطن، مثل الدولة العلويــــة، فكان طبيعيا أن يكبحوا جماح من سولت له نفسه غير ما أمرت به السنـــة النبوية، من طاعة من صحت بيعته ولو عبدا حبشيا، فكيف ممن ينتمى الى سلالة ذات طهر وأمجاد، فلم يكن لقوم عرفوا فى دوائر الدولة المغربيـــة فى أحقاب متتابعة بالمجاهدين وأبناء المجاهدين، أن يتنكروا لهذه المنقبة ولو لحظة، والحال أن ذلك يعتبر عزا لهم ارثا أبا عن جد، وكان الملوك العلويون، عندما يعطون الاوامر لسد ثغر من الثغور يقولون أدعوا المجاهدين، وافعلوا بالمجاهدين كذا، وعندما حز بهم أمـــر بوحمـــارة، كان الرئيس العــــلامة، المعروف بقاضى الشباب السيد محمد بن احمد العزوزى، يحـــث الهمـــم بابتكار رسائل ملوكية كأنها مبعوثة من السلطـــان، مولاى عبد الحفيــــظ، فيشحد العزائم، وكان لذلك تأثير فعال فى هزيمة بوحمارة .

واذا كان مبلغ الاخلاص الخالص وصل بالقوم الى هذه الدرجة فانه يصعب على المرء المتبصر أن يصدق ما حفلت به كتب الاجانب وقلدت من بعض المغاربة عن حسن نية أو عن قصد غير سليم، على أنه أعوزهم أن يأتوا ولو بصورة مصغرة لوثيقة من الوثائق التى تعتبر عادة أساســـا لكل عمل من هذا القبيل، أما وثيقة بيعة من طرف أولى الامر فى الريـــف، ومنهم العلماء الذين كثيرا ماهم فى تلك الاصقاع، كما سنبين بعد، ومنهم الاشراف الذين وصفنا مكانتهم عند القوم، ومنهم رؤساء القبائـــل التى كانت تأتمر بأمرهم، وان يأتوا بصــــورة ما عن تلك البيعــــة، والا كيـــف يطلقون الكلام على عواهنه فى أمر له خطورته ويشغل بال الرأى العام.

وأعجب ما قرأت فى كتاب الجنرال غوديد المذكور (1)، ما ذكره من أن ابن عبد الكريم، كان اتفق مع انجليزى قال: انه معروف بالمغرب، ولم يذكر اسمه (2)، على أن يطبــــع عملة مالية خاصة بالدولـــة المزعومة، فى لندن بانكلترا، وجعل يصفها بتدقيق، مثل لونها أخضر، عرضها كذا وطولها

---

(1) صحيفــــة 93 .

(2) وهو غرادنى الانجليزى الذى كان يتاجر فى تهريب السلاح الى الريف.

كذا، ..؟ الخ، وانه كان بصدد أن ينشىء بنكا ريفيا مقره بأجدير، وانه قدم مشروعا يتضمن جميع التجهيزات العادية التى تحتاجها كل عملية بنكية، ثم عقب الجنرال على ذلك بأنه فشل آخر الامر، لانه لا يتوفر على الضمانة من رصيد الناض .

ان كل من يتأمل هذه الخرافة التى ينمقها كاتب محارب فى نفس الجبهة، يعلم مدى الدسائس المحاكة ضد رجل قام بجهاد فى سبيل الله، عسى أن ينال شهادة الموت ليدفن فى ثيابه، وهى منقبة خاصة بالشهداء .

انه من المعروف، أن ابن عبد الكريم، خبر الاساليب العصرية، وهو من الافذاذ فيها، بشهادة اعدائه أنفسهم، وفوق ذلك، فهو سياسى مجرب، وله فراسة قوية، فاذا كان بهذه المثابة من اليقظة فان تفكيره فى مشروع كهذا، ينتج انعكس، لان انشاء عملة لا تكون الا للتعامل بها، فمن الذى يتعامل بها؟ فى جهة ضيقة محاطة بسياج من الاعداء الاجانب احاطة فكى كماشة، وما هو المقصود من العملة؟ اذا كان لا يشترى ولا يباع بها مع الخارج، وحتى فى المغرب، لان له عملته الشرعية القارة .

وانه اذا كان يعرف كأى واحد أنه لا يتوفر على الضمانة النقدية، فلماذا هذا الاستهلاك من الوقت الثمين؟ الذى لم يترك له الغازون أية دقيقة للراحة، مع العلم بأن المشروع مثل هذا، يستنزف الطاقة العقلية لمدة غير قليلة .

على أن المشروع نفسه يحتاج الى الاختصاصيين فى الموضوع، ومن هم هؤلاء الاختصاصيين الذين حضروا المشروع؟ وهم بصدد تنفيده.

ان كل هذه المعلومات لا وجود لها الا فى مخيلة من يكيد كيدا، فاضفاء الاوصفاف على العملة المزعومة انما ذلك تنميق لتصديق فريته، وهى لا تخفى على كل متبصر .

ولابد أيضا من القاء نظرة وجيزة هنا على الظروف التى كانت تحيط بابن عبد الكريم، قبل أن يتولى زعامة الحرب من 1921 الى 1926، وعلى حالة القبائل فى تلك اللحظة .

ان قبائل الريف كانت فى نضال مع الاسبان على حدود مليلية، لما كان ابن عبد الكريم هناك، وفى هذا الوقت بالذات، كان الشريف الادريسى سيدى محمد أمزيان، يقوم بزعامة المحاربين المجاهدين، يؤازره فى قبيلة بنى ورياغل، شريف آخر، هو قاضى الشباب، وان رياسة القبائل كانت موكولة لامغارن، وأمغار فى لغة البلد، هو رئيس القبيلة أو الفخدة أو الخمس (1)، ويكتسب هذا اللقب بما يكون يتوفر عليه من النجدة وسداد الرأى والقوة الفعلية والسياسة القبائلية، ولا يكون عجوزا كما يحلو لبعض الكاتبين أن يفسروه (2)، لان العجوز، مشتق من العجز وهى صفة لا تتناسب ومهام أمغار .

واذا كانت القبائل، كانت تعيش تحت تأثير رؤسائها، وهى فى حالة حرب مع مليلية التى يوجد فيها السيد ابن عبد الكريم، فانه كان يصعب عليه أن يرضخ له أولئك الرؤساء، بدون أن يتوفر على الوقت، وبدون أن يظهر الاخلاص فى جهاده، مع العلم بأن أباه، طيلة وجود بنيه عند الاسبان أما للعمل معهم أو للدراسة، كان محل اتهام من طرف القبائل، ولولا عصبيته التى له فى قرية أجدير من أعمامه وأصهاره الذين يؤازرونه كلما هبت عاصفة هوجاء، لكانت العاقبة غير محمودة، ولم يهدأ باله الا عندما عزم ولداه على الرجوع الى الوطن، وكان سجن ولد محمد بمليلية، وما كان يقوم به من أعمال سرية ضد الاسبان، هو الذى كان شفيعا ما حيا لما علق فى الاذهان: اذهان جماهير المجاهدين، مع الحنكة التى يعتبر مفوها فى هذا الميدان .

ورجل بهذه الصفة، وفى هذه الظروف، كيف يمكن أن يظهر أمام هؤلاء المومنين بمظهر غير المظهر الذى عاهدهم عليه، والا يكون نكوثا منه عن العهد، ونكوصا على أعقابه، فيؤدى ذلك الى نزع الثقة منه، فترجع القبائل الى عهدها السابق .

ان وصفه بالزعيم أو الامير، لم يكن متعارفا أيام الحرب الريفية

---

(1) تقسم القبيلة الى خمسة أخماس، والخمس هو الفرقة، أوسع من الفخدة . (2) كتاب السيد محمد العلمى «زعيم الريف»

الاولى، وانما كان ينعت فى مبدأ قيامه، بالفقيه، وهو لقب فى ذلك الوقت سام، لا يحمله الا المتضلع فى العلوم المتداولة، لانه يحمل فى مغزاه، العقل والرزانة وسداد الرأى، ولم نكن نسمع من آبائنا ونحن شبان نتحاكك معهم ونتحبب سماع أخبار الجهاد والمعارك، منهم كرؤساء المجاهدين، عندما يرجعون من مهامهم، لا نسمع منهم الا أمر الفقيه، وفعل الفقيه ابن عبد الكريم، ثم لما تطورت المعارك الى انهزام الاسبان، فى الجبهة الشرقية، ابتداء من معركة «دهار ابران» ومعركة «أنوال»، سمعنا كلمة الرئيس، تطلق، ويراد بها ابن عبد الكريم فقط، أما باقى قادة الحرب، فسموا قوادا .

وانما أول ما سمعنا كلمة الامير، كان عندما حفظنا النشيد الحماسى الذى ألفه الشريف سيدى الحسن القادرى التلمسانى، الذى رحل عن تلمسان الى الريف، ليساهم فى الحرب التحريرية، بتجاربه وقلمه الحماسى، الملتهب، وبنصائحه الخالصة، التى تصدر عن المؤمن الصادق الايمان، وذلك لاجل استقبال السيد امحمد الخطابى عند دخوله الى شفشاون. كما سنبين فيما بعد .

فقد ألفه نشيدا للحرب الوطنية، ومن مقتطفاته :

ريفنا كالعرين نحن فيه الاسد ريفنا نحميه
فى ثنايا العجاج والتحام السيوف بينما الجوداج والمنايا تطوف
يتهادى نسيم فيه أزكى سلام نحو عبد الكريم الامير الهمام

الى أن قال :

فلنذوق الزعاف بالضبى والاسال فلنعلى الهتاف بالامير البطل

ان هذا النشيد، يعتبر حجة تاريخية لوصف الامارة، مع العلم بأن انشاده كان يوم دخول الامير امحمد الى شفشاون بتاريخ 10 دجنبر 1924 كما سيأتى، أى بعد تقولات الاعداء عن الجمهورية الريفية وسلطان الريف على أنه من مزايا حركة الريف، انها لم تكن عميلة لدولة أجنبية ما، فقد استمرت تكافح رافعة رأسها، فلم تطاب معونة من أحد، سواء فى المعدات، أو غيرها، ولو من اعداء اعدائها، كالمانيا مثلا، فاكتفت بما

تكسبه من عملها بل أن ابن عبد الكريم، بقى وفيا لمبدئه حتى عندما نقلته فرنسا من منفاه السحيق بجزيرة رونيون، بالمحيط الهندى، لكى تجرب حظها معه، فى التهديد به فى القضية المغربية الكبرى، وهنا يبدو الرجل لم تفارقه العصامية التى يتحلى بها، ولو بعد عشرين سنة ونيف من الغربة المطبقة، فقد التجأ الى مصر فى ظروف شبه مستحيلة وسقط فى يد اعداء المغرب مرة أخرى كما سقط فى يدهم لما رفع السلاح ضدهم، وحتى فى الحرب العالمية الثانية، لما حاول هتلر ان يختطفه من منفاه، وحضرت اليه هناك غواصة، رفض أن يستعمل كوسيلة للتهديد به فى المعارك الحربية .

ونحن اذا راعينا التسلسل التاريخى نجد :

أولا : ان ابن عبد الكريم انحدر عن سلالة كانت اليد اليمنى فى الريف للدولة العلوية، فان عمه القائد زيان، كان واليا للسلطان مولاى محمد بن عبد الله على قبائل الريف الوسطى، ثم خلفه من بعده القائد السيد بوبكر وشان، وهو من العائلة الخطابية، ومن صناديدها، فكان واليا للسلطان مولاى الحسن الاول .

أما قبل الدولة العلوية، فان القصة التى نثبتها هنا وهى قصة تاريخية سيأتى تفصيلها، تستوجب الوقوف عندها، لانها تفيد ان الريف جند للدولة المغربية تلقائيا، ولم يشذ عن هذه القاعدة فى يوم ما .

ذلك أنه فى أيام الدولة المرينية، وبالضبط لما توفى السلطان يعقوب المنصور المرينى بالاندلس فى 12 محرم 685 هـ. قام شخص من قبيلة بنى كميل على شاطىء الريف الغربى، وكان يدعى الحاج العباس ابن صالح الكميلى، وكان ينتسب الى التصوف، فقام بدعوى الفاطميين وقد تحين فرصة موت يعقوب المنصور المرينى فى فاتح 685 هـ. أى 12 محرم بالجزيرة الخضراء، بالاندلس فى جوازه الرابع الى الاندلس برسم الجهاد فمرض ، فاغتنم هذا الثائر الفرصة مستغلا الفتن التى قامت اثر تولية ولده يوسف بن عبد الحق، اذ قام عليه محمد بن ادريس بن عبد الحق ولحق بجبال ورغة داعيا لنفسه، وكما استغل تنقل السلطان يوسف

المذكوز الى مراكش لضبط الامور فاعلن الحاج العباس المذكور الدعـــوة يـــوم عاشـــوراء سنـــة 688 هـ.

وبعدما استولى على بادس وجبالها تبين له الانتصار فأراد اخضاع الريف جميعــه فجمع جموعه وذهب لاحتلال مدينة المزمة بسهول بنى ورياغل، الا أن ابناء القبيلـــة صمدوا له، وعندما هجـــم على المدينة قتـــل الثائـــر وبقتلـــه انتهـــى أمـــره .

فجز رجال بنى ورياغل رأسه وأرسلوه الى السلطان يوسف بن يعقوب المنصور الموجود فى مراكش، وبعدما طيف به فى مدن المغرب علـــق على باب المحلة بمراكش، أما جثته فقد صلبها أهالى القبيلة بباب المزمـــة.

وعلى كل فان الذى ينبغى أن يوصف به عمل الحرب التحريريـــة الريفية التى صدمت الاجانب، انها كانت انطلاقة للنهضة الوطنية الاولى، والتى اكتسحت فيما بعد شمال افريقيا، وانها كانت طبيعية، تماما، كمـــا كانت طبيعية بالذات مقاومة الاقطار الاسلامية الاخرى فى المشرق العربى مثل تركيا أتاتورك، وسعد زغلول بمصـــر، ومجاهدين آخرين فى أطلـــس المغرب، وان الحرب العظمى الاولى كـــانت أصداؤها خير حافز للقيـــام بالمجهود الوطنى ولو الى حدود ما وبالاخص مقاومة الاقطار التى أصابتها شظايا تلك الحرب أو أصبحت ترزح تحت نير الغازين، فكان من الطبيعى أن تتداعى لذلك الصدى الاقطار التى تنتظر نفس المصير، وبالاخص أن المشرق العربى كـــان يرسل شواظا من نار كتاباته الوطنية وكانت الحركة الوطنية فى مصر قد تأججت بعد ثورة 1919، وتفاعلت مع الزمن ورفعت رأسها شامخا تحت زعامة زعيم مثالى وهو سعـــد زغلول، حيث وضـــع مسلك بريطانيا الاستعمارى فى المقيم المعقـــد .

من هم الخطابيون وما هى أطوار حيــاة ابن عبد الكريم قبــل تفجــير ثــورة 1921

اعتاد الكتاب أن ينسبوهم الى عمر بن الخطاب، وذلك أخذا مــن كلمة الخطابى، لتوافق الكلمتين، وشهرة اسم الخطاب الذى ينتمى اليــه أعظم خليفة فى الاسلام لرسول الله (صلعم) «أما عمرو أبو نصر فى كتابه «بطل الريف»، فقد روى عن ابن عبد الكريم نفسه، قوله:

«انه ينتمى الى محمد بن عبد الكريم الحجازى الاصل، وان عائلته نشأت فى بلدة ينبع من أعمال الحجاز، غادرت هذه البلدة فى القرن الثالث الهجرى، وانها أقامت فى قبيلة بنى ورياغل من الريف الواقعة بين البحر وتركيست، وهى موطن العائلة منذ ألف سنــة» .

يبدو أن ابن عبد الكريم لم ينســب نفسه لعمر بن الخطــاب، لسبب بسيط، وهو أنه لم يثبت تاريخيا أن عائلة سيدنا عمر بن الخطــاب اشتهر منها أفراد فى الريف، لانه لو رحلت عائلة منها لتضافر المؤرخــون عن ذكرها، وتتبع رحلاتها ورحلات أفرادها .

وتبسط ذلك تبسيطا يتلاءم ومقــام الخليفة الثانى لرسول اللــه (صلعم) لماله من ذكر خالد فى صلب الاسلام وعند المسلمين قاطبة، فــلا يعزب عنهم نزوح عائلة تنتمى اليه، والحال أنهم تتبعوا رحلات عائــلات أدون منها درجة فى الاعتبار فوسعوهــا بحثا وتنقيبا، فضلا عن عائلــة انحدرت عن الذى سمى فاروقا لتفريقه بين الحق والباطل، والذى قــال فى حقه سيد المرسلين (صلعم) :

(ما سلك عمر فجا الا سلك الشيطان فجا غيره) .

ولكن رغم كل ما ذكر ورغم ما نقله عنــه عمرو ابو نصر، فــأن الخطابيين بالمغرب يوجدون على عائلتين اثنتــين: احداهما بربريــة وهى الخطابيون الصنهاجيون الذين كانوا يسكنــون ضواحى فاس، ومنهــم

العالم «ميمون الخطابى» الذى عرف به الاستاذ السيد عبد الله كنون فى سلسلة «مشاهير رجال المغرب» .

وثانيتهما الخطابيون الشرفاء الادريسيون الذين منهم عائلة السنوسيين فى طرابلس الغرب والذين كان منهم الملوك السنوسيون فى العهد الاخير والذين قاوموا الاستعمار الايطالى فى بسالة نادرة بليبيا .

كما كان لهم ملك أولاد زيان الشرفاء من تلمسان وتقدامت بالصحراء قبل ذلك .

وهؤلاء ينتسبون الى الشريف الخطاب بن على بن يحيى بن راشد بن احمد بن المرابط بن حنداش بن عبد القوى بن عبد الرحمن بن يوسف (1) بن زيان – واليه ينسب الزيانيون – بن زين العابدين بن يوسف بن حسن بن ادريس بن سعيد بن يعقوب بن داود بن حمزة بن على بن عمران بن مولاى ادريس الاصغر (2) دفين فاس ومؤسسها.

والخطاب الذى تنتمى اليه هذه العائلة عرف به صاحب الدرر السنية (3) فقال :

(العلامة الهمام، القدوة الامام جد آل خطاب قاطبة، وقبره مشهور، مزار هناك بملتقى وادى شلف وواد مينة (بالجزائر)، فهو والد الشريف الابر القطب الاكبر السيد عبد الله النقابى المذكور، المتوفى القطبانية، وهو دفين ثغر بلاد مستغانم الكائنة بساحل البحر المعروف بالمطمر وما عمرت تلك البلاد الا بعد حلوله بها .

وقد ذكر ابن خلدون «أن أصل الشرفاء الزيانيين هم من الريف، انتقل أحد أجدادهم من بين حسن ويعقوب الى قصبة «تالوت» بأعلى الصحراء بنواحى وادى سلم، ونهر واصل، وصارت هذه القصبة مقرا لاسلافهم، ولهم بها قدر عظيم، وجاه جسيم، تولوا هناك الملك، مما يزيد

---

(1) الى هنا انفرد به كتاب الدرر السنية .
(2) والى هنا شارك فيها ابن خلدون .
(3) صحيفة 107 .

على مائة سنة، ومع ذلك فانهم لم ينسوا مقرهم بقصبة «تالوت»، فعندما قضى على ملكهم الوطاسيون فى تلمسان، رجعوا الى قصبتهم».

وقبل الوطاسيين كان بنو مرين الاصليون (احترازا من بنى مرين الفرعيين وهم الوطاسيون) كانت لهم وقائع مع الملوك الشرفاء الزيانيين فى تلمسان، فقد كان تولى الملك من هؤلاء الشريف احمد بن زيان ومكث سلطانا على تلمسان ثلاثين سنة ثم خلفه ابنه يوسف وتولى الملك عشر سنين، وفى عهده استولى بنو مرين على تلمسان وقتلوه واستباحوا قصبة الشرفاء فى تلمسان، ففروا الى قصبة «تالوت» الى أن أعادوا الكرة واستولوا على تلمسان وأجلوا بنى مرين، وتملك الشريف احمد بن يوسف بن احمد بن زيان، وخلفه أحد موالى زيان بن زيان وبقى سلطانا لمدة أربعين سنة، حيث أعاد الكرة بنو مرين الفرعيون فهجموا على تلمسان بمعونة العرب والبربر من جميع القبائل، فحاصروها مدة أربع سنوات حيث انهكوا تلمسان وضاعت بالجوع، فانهزم الشرفاء الزيانيون وهرب من فلت من الموت الى جهات مختلفة، وقصد جلهم قصبة «تالوت» وانقرض ملكهم بتلمسان .

والملوك الزيانيون هؤلاء غير ملوك تلمسان الزيانيون المعروفون ببنى عبد الواد، فهؤلاء زناتيون فى الاصل، وكانوا ملوك تلمسان قبل الشرفاء الزيانيين المذكورين، وقد انقرض ملكهم فى حدود أواخر المائة الثامنة الهجرية وهم أولاد زيان بن يوسف بن محمد بن زكرياء، وقد قال المقريزى فى (قلائد العقيان من انساب عرب الزمان) .

ومن زناتة بنو عبد الواد ملوك تلمسان القائمون بها الآن وهم بنو عبد الواد بن بار بن رميك بن واسيرا ... الخ .

ثم أن الخطابيين أولاد بنى زيان، انتشروا فى الافاق، فمنهم السنوسيون الذين منهم الامام السنوسى صاحب العقائد، ومنهم سيدى محمد بن سيدى على السنوسى مؤلف «الدرر السنية فى أخبار السلالة الادريسية» وهو من جعبوب، بلد الزاوية الجعبوبية بليبيا، ومنهم ملوكها.

ومنهم الخطابيون الذين نزحوا من تلمسان الى الريف الذى هو أصلهم الاول، ففى الدرر السنية (1) فى أخبار السلالة الادريسية .

«أما محل أسلافه (يعنى جدهم عبد القوى الحسنى الادريسى الزيانى التالوتى، أحد ملوك اقليم مدينة (تقدمت) قاعدة المغرب الاول، كما كان سياق كلامه) وقرار أوائله فهم أهل قصبة تالوت باقليم الصحراء باعالى أواسطها بنواحى وادى سلم ونهر واصل وما يلى ذينبك من أطراف اقليم تلك النواحى، فهى مقر أسلافهم وأوائلهم بعد انتقالهم من محل أسلافهم الاولين مولاى عمران ابن ادريس وبنيه الذى هو الريف وبادس، حصته مع اخواته العشرة، حيث قسمها بينهم أخوهم الامير مولاى محمد بأمر جدتهم» .

وبناء على ما ذكر وعلى ما كان يروى عن عبد الكريم الاب من أن أسلافه جاءوا من تلمسان واستقروا ببنى ورياغل، فانه يرجح أن يكونوا من هذه السلالة والله أعلم وبالاخص أن اسم الخطابيين لم يكن يعرف فى تواريخ مدن المزمة وباديس والنكور وهى تواريخ لم تترك قبيلة ولا قرية ولا موضعا الا ذكرتها باسمها المعروف فى ذلك الوقت فى سياق ذكر الاحداث السياسية أو الدينية التى تصدت لها باسهاب، الامر الذى يدل على ان الخطابيين لم ينزحوا من تلمسان الا بعد انقراض ملكهم أيام الوطاسيين، حيث رجعوا الى موطنهم الاصلى، كما نزح غيرهم الى الجهة الشرقية، فاستقروا بليبيا الى غير ذلك .

(1) صحيفة 102 طبعة الشباب بمصر .

عائلـة الخطابيـين حـالا

أما الخطابيون فى بنى ورياغل الآن، فهم مشهورون ولهم جـذور عريقة فى رياسة القبيلة الروحية والعملية وهم يستحوذون على القطاع الجغرافى الممتد على خليج الحسيمة وجزيرة النكـور، وينقسمـون الى فرقتين اثنتين هامتين، تسمى احداهما بآيت يوسف وعلى، ومنها عائلـة ابن عبد الكريم الخطابى والثانية تعرف بآيت على ويظهر من التسمية أن الجدين المنسوب اليهما الفرقتان هما اخوان، تفرقا، فسكن الاول هضـاب أجدير وآيت قمرة وما اليها وسكن الثانى بسهل أمزورن، والفرقتان الآن قد تصل نسمات سكانهما الى حوالى 30.000 نسمة، الا أن الذى يجـب اعتباره أنه ليس كل من هو موجود الآن فى هاتين الفرقتين من أصل عائلة الخطابيين، بل اختلط بهم غيرهم بفعل الهجرات من الجبال الى السهـول حيث العيش والمواصلات متوفرة، فقد رحلت عائلات وعائلات واختلطت هذه بتلك، وتلك بهذه، بفضل التصاهر والسكنى، كما كان شأن الشرفـاء أيضا فى نفس الفرقتـين .

والخطابيون الاصليون هم سكان أجدير المنقسمون الى الافخـاد التـاليـة :

فخذة آل زرعة، وهى فخذة الزعيم ابن عبد الكريـم، وفخذة آل مسعود ايوسف هكذا بضم الهمزة وآل محند أبو بكر وآل على أعيسى .

ومما يستملح ذكره فى أوصاف هذه الافخـاذ ما كان يروى عن الوالى الصالح سيدى امحمد بن موسى الغلبزورى، قال فى بعض أوصاف هذه الافخاد ما يلى :

ينكب آل مسعود أيوسف على قراءة القرآن، فهم أحلاس المساجد، وتزوج نساؤهم للفخفخة والكبرياء الفارغـة .

أما آل على أعيسى فانهم لا يقدرون على نزال الاقران، ولذا يكثر فيهم الرجال ويعمرون، ونساؤهم يتزوجن للكسب ونماء المال .

وأما آل زرعة فهم الشجعان الذين لا يبلــغ منهم رجالهم ســن الشيخوخة لكثرة خوضهم المعــارك، واذا أردت امــرأة اعرابية فعليــك بنسائهم فهن حصن الدار وموطن العائلة .

أجدير وموقــع القــريــة :

كلمة أجدير فى الاصل بربرية تطلق على مخزن الحبوب فى المطامر (المرسى)، لان اسكان فى القرية أى قرية كانت، كانوا يختارون محلا لــه طبيعة خزن الحبوب، بحيث لا تتسوس، وذلك بالتجربة والاختبار، فتحفر كل عائلة مطمورة (بئرا بلا ماء) تضع فيها محصولها الفــلاحى الســنــوى (الحبوب خاصة) وتأخذ منها شيئا فشيئا حسب الحاجة ويدعى هذا المحل أجدير، ولا زال أهالى الاطلس يدعونه كذلك، أما فى الريف فلم يبق هــذا الاسم الا عاما على القرى، فتوجد فى الريف عدة من القرى تدعى بأجدير، مثل أجدير بنى بوقياضا، وأجدير تمسامان وغيرهمــا .

تقع قرية أجدير مسقط رأس الزعيم على هضبات حجرية تلتطــم لديها أمواج البحر الابيض المتوسط، عند خليــج الحسيمة وأما فرضــة اشمرى والسوانى وتسامت جزيرة النكــور، التى دعيت عند الاسبــان «بالا وسيماس»، ومنها أخذت الحسيمة اسما لمدينة الحسيمة .

وفى التاريخ القديم كانت قرية أجدير تقبع على كتف مدينة المزمة التى ذكــر البكــرى بأنهــا كانت محل تسويق محصــولات الواديــين: غيــس والنكــور .

ولهضاب القرية استراتجية خاصــة منقطعة النظير، بحيــث أن قليلا من التحصينات تجعلها قلعة حصينة منيعة، تبدو مثل خلايا النحــل ترسل لسعاتها الموجعة الى كل دخيل يريد هتك حصانتهــا .

ففى حرب التحرير، كانت كل قمة من تلك القمم الصخرية موضع مدفع أو مدفعين أو ثلاث، يسيرها طبجيون ريفيون ماهرون، كما سيأتى تفصيله، وقد ضاقت جزيرة النكور: القلعة المأســورة بيد الاسبان ذرعــا من هذه التحصينات التى تتحدى مدفعيتها الثقيلــة المصوبة الى القريــة والى سهول الخليج والتى كانت ترمى بدون هوادة لما كانت وحدها فـــى



المدافع الريفية فى هضاب اجدير ضد جزيرة الحسيمة والبحر وهى مختبئة فى الاعشاب

الميدان، أى قبل غنم مدافع العدو فى المعارك المختلفة فى الجبهــات فكانوا يرسلون بعض الكلاب فى الادغال الموازية للجزيرة، فتتحرك الاشــجــار، وحينئذ تصب الجزيــرة جام غضبها وحقدها فتنفـــث ما فى صدرها من الغيض، بينما السكان يتفرجون على تلك المناظــر من الهضاب والقمــم الذين يكونون قد انبطحوا عنها، ليشاهدوا ذلك المنظر المتكرر الذى يروقهم ويتفكهون به، ثم يرهفون الاسماع بعد ذلك ليلتقطوا اشارات لاسلكيــه تثبت نتائج المعارك ضد الكــلاب، بأنها قذفــت صوب المقاتلين الاهالــى فقتلــت وفتكت وخربــت .

ان هذه الهضبات الحجرية المنيعة الصلدة المحيطة بأجديــر والتى يقابلها مثلها من قمم سيدى شعيب المفتــاح بتمسامان (رأس كليطــو)، جعلت المنظر أمام المغيرين رهيبا ورهيبا حقا، ذلك أن المقاتلين الاريــاف، كانوا فى تلك القمم بمأمن من كل هجمات العدو برا وبحرا وجوا، بحيــث أنه قل أن تصيب قذائفه أى هدف بالذات، فهى ترجم رجم الغيب، لانهــا حباها الله كما حبا شواطىء الريف من مرتيل الى مليلية بمناعــة قل أن يكون لها نظير، لان فرضها التى يخلقها الوديان قليلة، فما عدا فرضة خليج الحسيمة وفرضة وادى لو وبعض الفرض الاخرى الصغيرة فيما بين هذين الموقعين، توجد الجبال الشاهقة المطلة رأســا على البحر كأنها صوامــع حراسة ذلك ما جعل المغير من جهة البحر ييأس من استعمال تلك الشواطىء لاغراضه الهجومية، فعندما يحاول أن يزج بنفسه فى أية مغامرة، فانــه يقع فى مصيدة نصبت الطبيعة الجيلوجية شراكها فى حين يقبع الاهالى المقاتلون على رؤوسها مطلين بعيون الصقور وخفة الغزلان ووثبة الاسد.

قبيلــة بنــى ورياغــل مسقــط رأس الزعيــم

تقع هذه القبيلة ما بين قبائل أخــرى منيعة، فمن جهة الشــرق تحدها قبيلتان، هما قبيلة بنى توزين التى تعمر منطقــة ذات تضاريس

جبلية وعرة المسالك يجرى بينهما وادى النكور الذى ينزل على رفيدين، احداهما غربى ينبع من جبل ورغة، والآخر شرقى ينحدر من أزرو أقشار من كزناية، وقد جعلته الطبيعة فاصلا بين القبيلتين، وثانيتهما قبيلة تمسامان وهى أيضا تحتل منطقة نسخة طبق الاصل من الاولى، ما عدا تفتحها البحرى .

ويسكن القبيلتين معا أهالى ذووا نجدة ورسوخ فى الشهامة وهم من بطون زناتة (1) من قبائل بطيوة، فاسم بنى توزين محرف عن بنى توجين، أما تمسامان فكانت تسمى، بنى ورتدا، وأولاد بلند، وكلها أسماء زناتية، وقد تأثرتا كما تأثر جميع أهالى الريف بالهجرات التى انصبت على الناحية من أشراف وعرب آخرين ولغتهما تمازيغت منحرفه النطق عن لغة بنى ورياغل، ومن جهة الشمال يحدها خليج الحسيمة المنبسط من مصب نهر النكور الى قمة سيدى العابد على رأس مدينة الحسيمة، كما تحدها قبيلة بقيوة التى تقع هى أيضا على هضبات ذات أحجار كلسية ممتدة من رأس سيدى العابد الى فرضة مدينة بادس، وهى تختص بموقع استراتيجى لا نظير له، حيث تشرف على البحر رأسا ويعمرها أهالى يرجع نسلهم الى صنهاجة، وقد كونتهم طبيعة الارض أن يكونوا ذوى نجدة وصلاح معا، فهم من ناحية خوض غمار المعارك البحرية لا يجارون، ولذا كثرت من قديم التاريخ فيها رباطات المجاهدين الصالحين، ومن ناحية أخرى فالقبيلة تعد مقبرة الصلحاء، ولغتها تمازيغت لها نطق حلو خفيف .

ومن جهة الغرب هناك قبيلة بنى يطفت وأهاليها من صنهاجة أيضا وهى متصلة قديما بمدينة بادس وتختص بفرضة قلعة طريس التى خلفها وادى قصبة سنادة التى تعتبر محور القبيلة والتى احتلت فى نفس التاريخ مكانة عند الاهالى، بجعل الشرفاء الوزانيين مقرا لهم، أسسوا فيها زاوية، فانحشرت القبيلة اليها، ولغتها الاساسية هى العربية الدارجة مع اتقانها للغة تمازيغت .

---

(1) الاستقصاء ـ الجزء التاسع صحيفة 205 ـ

كما تحدها من هذه الجهة قبائل ترجيست أيضا، وهي لها مركز صلة الوصل بين سكان سواحل البحر وسكان صلب الجبال التي هي المقر الاصلي لقبائل صنهاجة الريفية الاصلية والتي يأوي اليها الشرفاء الخمليشيون الذين أسسوا مركزا رئيسيا في تلك القبائل، فانصاعت اليهم كلية وكانت تصدر وترد على توجيههم حيث أسسوا زاوية ذات اشعاع صلاحي نبغ فيهم في هذه الفترة من التاريخ الشريف سيدي محمد اخمايش الذي استحوذ على تلك الجهة بالصلاح وسداد الرأي ولغة تلك القبائل اللهجة العربية مع تمازيغت، قد لا يفهما أهالي القبائل الاخرى ويحدها من جهة الجنوب قبيلة بني عمرت، وهي قبيلة من صنهاجة أيضا، وهم يعتبرون أخوة لقبيلة بني ورياغل، ويسكنون في أعالي الجبال المتاخمة لجبل حمام، وهم ذوو نجدة لهم قدم معروف في الحروب، يتكلمون تمازيغت ويوجد من بينهم الشرفاء الخمليشيون، الا أنهم من أواسط السكان، كما تحد أيضا من نفس الجهة بقبيلة اكزناية التي تصل اطرافها الى مدينة تازة، قاطنة في جبال وعرة لها مواقع حربية هامة وهي التي اندلعت في أرضها الثورة الريفية على فرنسا أخيرا التي كان من مشاهر معاركها، مثلث الموت بين بوزينب وتيزي وسلي وبورد، ولغتها تمازيغت.

أما قبيلة بني ورياغل، فسكانها أيضا من صنهاجة وهي تحتل منطقة لها تفتحات على البحر وعلى سهل النكور، وأغلبها جبلية وفي تقسيماتها الداخلية تسير على نهج تخميس الاخماس، خمس الخطابيين، خمس المرابطين، خمس بني بوعياش، خمس بني عبد الله، وخمس بني حذيفة .

وهذه الاخماس هي التي تكون سياسة القبيلة تحت رؤسائها (امغارن) .

ان هذه القبيلة في هذه الحقبة من التاريخ كانت محور الريف الاوسط وبالاخص حقبة حوادث بوحمارة التي لم تأخذ منها منالا رغم خضوع قبائل الريف الشرقية لترهاته، ولذا قال الاستاذ: دافيد هارت

الامريكى (1) ولما كان بنو ورياغل يشكلون القبيلة الاشد باسا، فقد كانوا يوجهون سياسة الريف، ولعل عدم خضوعها له من أول وهلة ومناوشاتها المستمرة ودفاعها المستميت لصالح العرش المغربى، اكسب لها نفوذا تكون

---

(1) يلاحظ أن الاستاذ دافيد هيرت الامريكانى يطلق على بنى ورياغل كلمة آيت ورياجل، وقد جرت بينى وبين الدكتور دائل ايكلمان الامريكانى الاستاذ فى العلوم الاجتماعية بجامعة نيويورك. محاورة كتابية اقتطف منها ما يأتى :

س — هل كان البعض من أقاربك من كبار آيت ورياجل ؟

ج — قبل الاجابة أشير الى أن كلمة آيت ورياجل التى وردت فى السؤال غير مستحبة، انما الصحيح أن يوضع مكانها كلمة بنى ورياغل التى تعرف بها القبيلة .

أولا — لانه الاطلاق الذى تعرف به فى فترات حياتها حسبما هو موجود فى الوثائق العريقة فى القدم من ظهائر الملوك ورسوم التعامل وكتب التاريخ، وبالاخص تاريخ ابن خلدون والمسالك والممالك للبكرى وغيرها .

ثانيا — ان كلمة بنى أخف ولها أصل فى اللغات الحية، أما آيت فغير معروفة الا فى اللسان البربرى الاطلسى التى لا تتقيد به جهات الريف التى تنطق بلهجة تمازيغت .

ثالثا — انى أعرف أن كلمة آيت تبناها الاستاذ دافيد هارت فى كتابه (دراسة اثنوغرافية قبيلة آيت وراجل الريفية) المطبوع عام 1954 وانى أفهم أن سبب تبنيه لهذه الكلمة هو تأثره بالبحث عن الالفاظ الغريبة البعيدة عن الكلمات العربية حتى يعطى صفة البربرية للريف فى جميع مظاهرها، مع أن التاريخ الصحيح لا يوافقه على ذلك فان الريف تقبل العرب والعربية فى المد الاول وكان صلة الوصل لتدفق العرب على الشمال الافريقى مجتازين الى الفردس المفقود وقد حافظ الريف على اصالة اللغة العربية فى مظاهرها الثقافية والدينية بكل أمانة، مما جعل أسماء القبائل كلها جاءت على أسماء عربية

بما رسخ فى أذهان أوساط الريــف من قدرتها البطولية فى حوض غمــار المهالك من دون مبــالات .

ويمكن أن تكون حادثة الباخرة الاسبانية التى غرقت قبالة جزيرة

الا قليلا سواء التى تبدأ ببنى، فمثلا بنى توزين جاءت فى تاريخ ابن خلدون هكذا بنى توجين كما جاءت بنى ورياغل فيه كذلك ومثل ذلك بنى بويحى وبنى سعيد وبنى بويفرح وبنى اكميل وبنى عمرت كما جاءت الاسماء الاخرى وفقا لقواعيد اللغة من أسماء الاعــلام مثل كبدانة وقلعية ومطالسة وبقيوة وكتامة، وهكذا سردها أيضــا البروفيسور كارلتون كون فى كتابه (قبائل الريف)، لانه من المعلــوم أن الاسماء التى تختم بهاء التأنيث هى أسماء عربية، نعم ان الاسماء التى أصلها بربرى تكون مختومــة بتاء، وقد احتفظت بها بعــض القبائل، مثل تركيست وتماسينت وتافرسيت، الا أن هذه الالفــاظ ليست مقصورة على الريف، بل توجد فى قبائل جبالة، مثلا توجــد بقبيلة بنى سعيد وادى لو، تمرابت تمرنوت وتزروت فى بنى عروص. كما لاحظت فى كتابه المذكور، عدم التفريق بين تامازيغت وتاشلحيت فجعلها لغة واحدة، مع أن الواقع هى لهجات مختلفة، فالشلوح، هم سكان الاطلس، وأمازيغان أى أبناء مازيغ هم سكان الريف، وهؤلاء لا يتفاهمون مع أولئك الا بواسطة العربية، وفضلا عن ذلك، فان الاستاذ هارت ذكر بنى ورياغل هكذا آيت ورياجل بالجيم، وهو الاسم الذى يحاول اطلاقه على القبيلة اغرافا منه فى الابتعاد عن العربية، وهنا أؤكد ان الرجل لو سار من تطــوان الى وجدة شاقا وسط سلسلــة جبال الريف، يسأل اين جاءت قبيلة آيت ورياجل، لما استطــاع أن يحصل على جواب بالاثبات، لان هذا الاسم غير معروف، ولو حتى للعجائز التى يستعمل آيت بمعنى الاهل، فيقال مثــلا آيــت فاس آيت تطوان، ولا يقصد بها أن يسمى فاس آيت فاس .

وبناء على ما ذكر، فان السؤال يجب أن يكون كما يأتــى :

هل كان البعض من أقاربك من كبار بنى ورياغــل ؟

بادس بسبب اغارة أهالى تلك الشواطىء عليها عام 1311 هـ. عاملا آخر. حيث بقيت قبيلة بنى ورياغل بعيدة عن الحادثة، التى كلفت الدولة المغربية تعويضا ماليا لاسبانيا، مبلغه أربعة آلاف ريال، اضطر السلطان مولاى الحسن الاول لارسال الباشا الشهير بوشتى البغدادى لتأديبهم، واستخلاص المال منها، فنزل بقبيلة بنى ورياغل بوطء أجدير قرب ضريح سيدى امحند وعلى، ووجه عساكره الى تلك الجهة .

فضلا عن ما تقدم، فهناك حادثة قضائها على الثائر الكميلى أيام الموحدين، ولهذه الاحداث وأحداث أخرى محلية كثيرة يسردها الاهالى، كانت أساسا متينا لتبوء المركز أمام القبائل الاخرى .

البيئة التى نشأ فيها الزعيم ابن عبد الكريم

وفى هذه الحالة، فان ابن عبد الكريم تكون كما يتكون عامة الشعب، معتمدا على نفسه، له أسلوب حياة الشدائد من دون التمتع ببحبوحية الرفاهية المترفة، بل يقنع كما يقنع اترابه بشظف العيش، ان دعى الحال وشاع فى ذلك الوقت أن من العادات المستقبحة أن يستسلم المرء لمذات بطنه ولا يساهم فى الفروسية، كما تكون عن عادة حمل السلاح من فترة الطفولة، واستعماله باتقان، يتبارى به مع أقرانه فى ضرب الاهداف واقتناص الصيد، بل وحتى ضرب الاعداء عند الضرورة .

ونظرا الى تفتق ذهن والده عن الاحداث الدولية العامة، وعدم قصور نظره على الاحداث المحلية التى يراها تكبيتا لهمم الرجال الاشداء، الذين ينبغى أن ينظروا الى مرامى شاسعة الاغراض، فانه جعله يزيد بيئة أخرى الى بيئته التقليدية، وقد ساعده على ذلك أن الريف كان يتمتع علاوة على الحياة الآنفة الذكر، بحياة اجتماعية ذات تقاليد عامة، فى تثقيف العائلات لابنائها، بثقافة علمية دينية وشرعية، وبالاخص العائلات التى لها مركز الرياسة فى القبائل .

وقد وجد ابن عبد الكريم حياته تتقاذفها تيارات ثلاثة، دينية وعلمية وسياسية، حسب الحياة العادية فى ذلك الوقت بين قبائل الريف .

وقد جمعنا هذه التيارات، لان طبيعتها فى ذلك التاريخ يصعب فصل احداها على الآخر، وقد بدأنا بالاولين لنتفرغ الى التيار الاخير، الذى هو موضع هذا البحث بالذات، وهو التيار السياسى المحلى والخارجى .

ان التيار الدينى يتمثل فى هذه الزواوى المنتشرة فى أصقاع الريف، بحيث انها تعتبر جزءا مهما من حياة السكان، يرجعون اليها فى ملماتهم الدينية والدنيوية، وهى مقصدهم عندما يفرغون من متاعب الحياة المعيشية، وهى مفزعهم اذا ادلهمت الامور بين قبيلة وأخرى، أو بين جماعة وأخرى، لما أحيطت بها فى معتقداتهم من القدسية والحصانة الخلقية، ولما ابداه مسيروها من الاشراف والصلحاء من كمال التهذيب الربانى تارة، والنفوذ العملى الذى اكتسبوه على مر الاجيال تارة أخرى .

ولاجل التدليل على انتشار هذه الزوايا، فاننا نأتى بأمثلة لتلك الزوايا هنا، فى القبيلة التى احتك بها أكثر من غيرها، مع العلم بأن القبائل الاخرى مثلها أو أكثر .

ففى بنى ورياغل كانت توجد فى هذا العهد: عهد عائلة عبد الكريم الخطابى، زاوية سيدى يوسف، وهى أعظم زاوية تتوسط القبيلة، حتى أطلق اسمها على القرية بأجمعها، التى سكانها من ذرية هذا الولى الصالح سيدى يوسف الغابزورى، وقد تمسكوا بالصلاح، وكانت محط أنظار القبيلة يلجأ اليها أفرادها لرتق الفتوق عندما يحتد الخلاف بين أفرادها، وكثيرا ما فضت مشاكل عويضة قد تؤدى الى هلاك خلائق ؟

زاوية سيدى عيسى بن عبد الكريم، وكانت هذه هى الاصل عن الاخرى، ورغم أن مؤسسها من عائلة واحدة، لان الاول حفيد الثانى، فان الرياسة فى الفترة التى قضى فيها على بوحمارة وبدء زحف الجيوش الاسبانية من مليلية، كانت رجعت لاى هذه، بفضل نبوغ أحد أفرادها المجاهد الشهم السيد محمد بن احمد العزوزى، الذى ستأتى ترجمته ضمن الثلاثة أشخاص الذين جاد بهم الزمان قبل ابن عبد الكريم .

زاوية سيدى امحمد الصغير بقرية آل هشام، وهى زاوية فضلا

عن وظيفتها الدينية ، كانت لها جولات في السياسة المحلية، بفضل حفيده سيدى احمد بورجلــة .

زاوية سيدى الحاج مسعود الكمونى بوادى توريرت، وهى زاوية كانت الافخاد التى تسكن جبال بنى بوعياش وتمرزكى وتوريرت، تلجــأ اليها بفضل صلاح أهلها، الذين حافظوا على الصبغة الدينية لعلاقاتهــم مع الاهالى، وبالاخص زوية بوعلمة التى نبع فيها ولده الشريف المعروف بسيدى احمد بوعلمــة .

زاوية سيدى احمد مروى، أسفل جبل حمــام .

زاوية سيدى احمــد اقنيــا .

زاوية سيدى الحاج عبد السلام بتشيتيو الى غير ذلك .

مع العلم بأن هذه الزوايا لا تتبع طريقــة من الطرق الصوفيــة، وانما منحاها الصلاح والاصلاح لحد ذاتهمــا .

ذلك أنها كانت بحد ذاتها، تكون مجموعة سكنية تنحدر من الرجل: رئيس العائلة الذى اشتهر بالصلاح، والذى اختار المحل مقرا له ومسقط رأس ذريته من بعده، فتكونت منهم قــرى ذات ثقل من وسط المجتمــع المحدودة الذى يحيطها، لان أولئك الاحفاد حافظوا ولو نسبيا على سمعــة الصلاح والاقتداء، فكانوا خير واسطة لفض النزعات القبايــة .

لاجل اعطاء مثال، نورد هنا حادثة من نوع التدخلات ذات نفــس المقصد، ففى حوالى أواخر القرن التاسع عشر الميلادى، حدث فى بنى بوعياش (قرية الرابطة) أن أحد الاشخاص قتل غيلة أحد أعمامنا، ثم أن القاتل رحل الى قرية بنى بوستة، وهى قرية يسكنها الشرفاء البوستاويون وكان رئيسها يدعى الحاج امحند، الذى كان فى نفس الوقت صديقا لجدنا الحاج محمد الربضاوى الذى اغتيل ولــده .

وقد سكن القاتل عند صديقه، ولم يبد جدى أى غضاضة، احتراما لصديقه، ولم يشأ أن يمسه بسوء ما دام محتميا به، ولكن، ان أحد أولاد الرئيس البستاوى كان يصاحب القاتل أحيانا عن طريق السوق، ذلــك ما أغاض أولاد جدنا، وهم شباب، فما كان منهم الا أن ترصدوا للقاتل فــى الطريق، فضربوه، ولكن اخطأوه وأصابوا ولد الصديق، فأردوه قتيلا، وقد

سبب ذلك فى خلق جو غير ملائم بين الصديقين، فاستدعى جدنا شرفاء زاوية سيدى يوسف لاصلاح ذات البين باداءه الدية لصديقه، فاجتمعوا وكونوا مسيرة ضخمة بطقوسهم الدعائية وصلواتهم المسترسلة وتلاوتهم القرآنية، الامر الذى استدعى أنظار القبيلة بأسرها مترقبة نتيجة التدخل الاصلاحى، فكان القوم يترقبون للحاج امحند الـوستاوى احدى الخصلتين، أما رضى الشرفاء أو سخوطهم، فى حال عدم الاذعان، وكانت شجيته تحمله على الثانية، نظرا لغلظ قفاه، وفعلا امتنع من قبول الصلح باطنيا واستخف بالشرفاء ولم يعتن بهم .

ذلك ما دعا جدنا أن يأوى الشرفاء الى داره ثلاثة أيام، اعتبرها الشرفاء بادرة تقديرهم عكس الآخر، فاغدقوا عليه من الدعاء ما اعتبره الاهالى عزا له ولذويه من بعده، أما الآخر فقد تهاوت سمعته وخبت رياسته، فلم تقم له قائمة .

هذا هو الاعتقاد السائد فى ذلك الوقت، وهو اعتقاد لا نريد هنا أن نشرح مدى صحة جوهره، ولكن هو فى الواقع اعتقاد يعتبر تيارا يجرف معتقدات القوم التى خلفت استقرارا فى الحياة لا يستهان بها من حيث تأثيرها فى التوجيه المعنوى للقوم، ولهذا فان الجماعات من القوم الذين نشأوا عن هذه التربية وهى منتشرة فى نقط مختلفة من القبيلة بسهولها وجبالها وحولت اليها أنظار المتساكنين، قد جعلت ابن عبد الكريم يتأثر بها، لا لانه يعتقد كما يعتقد عامة القوم فى تأثير دعواتها لتحويل الاقدار الالهية عن مجراها الطبيعى، ولكن لانه لا بد أن يقرأ الحساب لهذا الاسلوب من الحياة مدا وجزرا .

وهى كما انتشرت فى قبيلة بنى ورياغل، انتشرت أيضا فى قبائل أخرى .

ففى قبيلة تمسامان مثلا، زاوية المرابطين بوسويقة ــ ينطق بها الاهالى بالزاى ــ .

وزاوية المرابط احمد وزاوية سيدى بويعقوب، وزاوية تمزغنين وزاوية سيدى بوداود، وزاوية أولاد عبد الوهاب، الى غير ذلك، وفى بنى

توزين زاوية سيدى الحاج على، زاوية بوجداين، زاوية اجـار مرواس، زاوية غلبون الى غير ذلك، وفى بقيوة زاوية سيدى الحاج حسون بادوز، وفى بنى يطفت زاوية الشرفاء الوزانيين باسناده، وفى تركيست زاويـة الخمليشيين ، الى غير ذلـك .

أما التيار العلمى فكان يتمثل فى الاشعاع العلمى المستمد مـن جامعة القرويين حسب التـالى :

اشعـاع جامعـة القـرويـين :

من هذا المزيج الصالح الذى غمر هذه الجهة، والذى أعطى دمـا لشرايين الحياة فيها، وهو مزيج العلماء الذين غرفوا من معين مدينة مولاى أدريس التى تحتضن جامعة اسلامية فريدة من نوعهـا، وهى جامعـة القرويين الذى ظهرت كمعجزة بركة آل النبى (صلعم) والتى ازدهـرت ازدهارا لم يزدها مرور الايام وكر العصور الا تقدما الى الامام، فأضاءت اشعاعا حضاريا وعلميا بلغ شأنا كبـيرا، كانت دائما محج قاصديها مـن مشرق الارض ومغربها، والآية الكبرى لكل المتطلعين الى المعارف حتى من غير المسلمين، فاسدت للعرفان ما لا يمكن لقلم أن يحصيه وقد أحصـاه الزمان بما حوى فى طياته من فطاحل طوى تاريخهم فى السجلات المأثورة، ولا زالت الى الآن تسدى من معينها الفيـاض .

وقد انقلب هؤلاء العلماء من القرويين ييممون الشمال فى الريف وغمارة والجبالة، حاملين الشعلة التى لا تنطفىء ــ وما كان لنور الله أن ينطفىء ــ وقد تمكنوا مما تعلموا، فاضاءوا من تلك الشعلة هذا الصقـع المبارك، وقد هداهم ايمانهم ولوجه الله فقط أن يبثوا ما تعلموا فى صدور أبنائهم واخوانهم، نيلا للمأثورة النبوية، اذا ما مات المرء، انقطع عملـه الا من ثلاث : علم يبثه فى الصدور الخ. أو كما قال (صلعم) أما الشـق الثانى من ذلك المزيج، فهو ما استفناه من آل البيت النبوى الذى غمـرت بهم صدور القوم عزة وحبورا، وكان منهم من الصنف الاول (العلمـاء) النصيب الافر، ثم يأتى الشق الثالث من ذلك المزيج وهو رجال التصـوف الذين وجدوا فى هذه الجهة تربة ثرية تنبت نباتا حسنا من يحمل تلـك

التعاليم الالهية التى تصقل النفوس وتهذب الطبائـــع وتأمر بالمعـــروف وتنهى عن المنكر، فأسدت خيرا كثيرا للانسانيـــة الفطرية فى توجيهها، لما فيه صلاح المعـــاش والمعـــاد .

وقد تسابق هؤلاء المتصوفون فضربوا فى جهات الارض يبتغـــون فضلا من الله على يد المشاييخ القطاحل، وكان للطريقة الشاذلية الفضل الاكبر، وهى تتمثل فى الطريقة الدرقاوية فى المغرب التى كانت الى ذلك التاريخ ناصعة العمل، نظيفة المعتقد، سنية المأخذ، لا تغلو فيما قصدته من تهذيب النفوس وتنوير الاذهـــان .

وسنذكر نبذة عن صلحاء الريف المتصوفين وجماعة من الشرفـــاء، كأمثلة حية عن الحياة الصلاحية والعلمية فى مختلف الاوقات لكى يتمكن القارىء من أخذ فكرة واقعة متلمسـة لا تدع مجالا للتخمين والجزاف .

وبفضل هذا المزيج المتعاون نشأت فى مختلف قبائل الريف معاهد علمية، وهى تعتبر فروعا كاملة عن جامعة القرويين، وقد ظهرت فوائدها الجمة، فتسابقـــت الجماعات لفتح مساجدهـــا للطلبة ورتبت الفقهـــاء المقتدرين فى تلك المساجد، باجازة مالية من حبوب الغذاء، وكـــان يعنى أن الجماعة تشترط على الفقيه أن يقوم بامامة المصلين جماعة وجمعة ويرتب الطلبـــة للتعليـــم .

وذلك لاجل تهىء الطلبة للتوجه الى القرويين لاستكمال معارفهم، فهو فى الواقع مرحلة ابتـــدائيـــة .

وقد أدى هذا العمل خدمة جلى لسكان الشمال، وأظن أن هـــذه الجهة قد انفردت بهذا العمل عن بوادى المغرب، الا ما كان من بلد سوس البلد الذى لا يفترق عن الشمال فى شىء، فهما توأمان فى العوائد والاخلاق والمقاصد الحسنة، وأغلب ما كان الطلبة يتبادلون الرحـــلات بـــين الريف وغمارة وجبالة، وذلك لتعلم العلم فى الغربة، لانها أى الغربة تعينهم على الانكباب على التحصيل من دون أن يعوقهم عائق شواغل الاهل والخلان، فكانت توجد هذه المعاهد فى قبائل الريف قاطبة، وهى عبارة عن المسجـــد الجامع فى القرية التى تتكون هيأة بنيانها من غرف متعددة للسكنـــى ومن غرفة كبيرة فى صدرها المحراب ومقياس القبلـــة والمنبر ان كانت لصـــلاة

الجمعة، وهى التى تدعى مسجد الصلاة، لا يدخلها الا من كان طاهرا الطهارة الكبرى، وعلى المتقين الطهارة الصغرى أيضا، وفيها تعطى الدروس العلمية من الصباح الى الغروب على حسب استطاعة الفقيه، وتكوين الطلبة وهؤلاء ينكبون على المطالعة والمراجعة ومناقشة بعضهم بعضا، بحيث أن الايام كلها تعتبر ندوات علمية .

أما معاش الطلبة فهو على الجماعة بأسرها، عند غروب الشمس ينقسم الطلبة على جهات الجماعة لاخذ الكمية التى تعطيها كل دار ويدعى (المعروف)، وهو وان كان الاسم يقتضى فى الاصل تبرعا ولكن فيما بين الجماعة اجبارى حسب الاتفاق فيما بينهم، فمن لم يؤدى المعروف يلزمه لوم من الجماعة، أو حرمان من منافع القرية، الى غير ذلك من الاساليب، وانما كان الطلبة يذهبون بعد الغروب بالخصوص صونا لمحارم السكان التى هى قاعدة مأثورة .

أما الفقيه فمعاشه على الجماعة بالتناوب، ويدعى (النوبة) ولا يمكن التخلف عنها من أى أحد والا تعرض لعقوبة صارمة، وهذا المعاش داخل فى الشرط، ويلزم أن يكون وافرا، بحيث يتعدى معاشه منها الى الطلبة، وهذه المعاهد انتشرت انتشارا متزايدا فى جميع القرى، وسنذكر منها بعضا على سبيل المثال، ورحلات الطلبة الى مختلف المعاهد تدعى بالتخنيشة، وقد يكون أخذا من الخنش الذى يجمع فيه الطالب حوائجه.

ومع العلم بأننا نؤرخ لفترة ما بين أول القرن العشرين الى تاريخ الحرب الريفية، فاننا نأتى بأمثلة دلالة على الحياة فى وجهها العلمى، وهو عنصر لمعرفة البيئة التى كونت المناضلين .

ففى بنى ورياغل :

1) مسجد أجدير وهو مسجد عامر يقصده الطلبة من القبائل وكان يقوم بمهمة التدريس فيه الفقيه البركة النوازلى السيد على الاجديرى وهو من فخذة آيت مسعود ايوسف .

2) مسجد زاوية سيدى يوسف كان يتولى فيها التدريس الفقيه العلامة السيد محمد القاضى العبد الهادى، وهو شريف غلبزورى من

نفس القرية، كان كاتبا مشهورا كلفــه ابن عبد الكريم فى أيام الحــرب بتقييد وقائـــع الاحـــداث .

3) مسـجد زاوية سيدى عيسى، كان يتولى التدريس فيها الفقيه العلامة المشارك من السلف الصالح السيـــد احمد بن القاضى وهو مـــن قرية آل القاضى الشندوريين، وهو الذى تصاهر الى السيد عبد الكريـــم الخطابى الاب ببنته تيمونت وهى أم الزعيم الخطابى .

4) مسجد الرابطة، كان يتولى التدريس فيهـــا الشريف البركـــة سيد الحاج شعيب بن سيدى الحاج عمر صاحب ضريح الربضة، وكــان صوفيا وشيبة الحمد، وكان يجمع الى دراسة العلم تولى الاشـــراف عى قراءة القرآن بقراءة ورش وحمزة، وهو متبحر فيها ومن ثم خلفه بنفس القرية الفقيه العلامة النحوى الاصولى سيـــدى محمد بن الحاج احمـــد بوزيان من قبيلة بنى توزيـــن وبعده خلفه سيـــدى محمد بن محمـــادى الطلحاوى التوزانى صاحب الجد والاجتهاد، علامة زمانه فى النحو، الذى لا يجارى فيه يقدر أنه قرأ الفية ابن مالك مائة مرة، وفضلا عن ذ لك فلـــه باع فى التصوف وعلم الكلام، وله كتابات فى هذا الموضوع، توفى رحمـــه الله عـــام 1958 م.

5) مسجد تزورخت، كان يتولى التدريس فيها العلامة السيـــد محمد بوزلماط من عائلة الشركيين من بنى توزير قرية تعمرت .

6) وفى بنى بويخلف الفقيه العلامـــة سيدى امحمـــد بن الحـــاج مسعود من قرية بنى بوستة، كان يشرف على طلبة القرآن أيضا ثم تولى التدريس فيها سيدى محمد بوزيان المذكور آنفـــا .

7) وفى زاوية آل هشام كان يتولى التدريس فيها الفقيه القاضى النوازلى السيد محمد الشركى عميد عائلة الشركيين .

8) قرية الطاعة، كان يتولى التدريس فيها أبو يعقوب يوســـف الطاعى وهو علامة مشــــارك ، وكـــان نحويا بارعـــا له منظومة اعـــراب لا اله الا اللـــه .

وفى بنى توزيـــن :

1) مسجد ايجار مرواس، تولى التـــدريس فيها العلامة اللغـــوى

سيدى احمد بن الصديق من نفس القرية كان لغويا يحفظ جل أبــواب القاموس المحيط، وكان يجيب ببداهة عن الاسئلة التى تلقى عليه مــن مختلف العلوم وكان قبله يتولى التدريس فيه السيد محمد بودهر، وكان علامة زمانه تولى شرح قصيــدة السيد محمد العزوزى فى لحن القــراء فى تــلاوة القــرآن .

2) مسجد زاوية سيدى الحاج على كــان يتولى فيها التدريس الفقيه العلامة الشجاع المفتى المجاهد سيدى محمد على بولحيا التوزانى من شرفــاء بنى وكيــل .

وفى تمســامـــان :

1) مسجد سيــدى أبو يعقــوب .

2) مسجود تمرغتــين .

وفى قلعيــة ببنى سيــدال :

1) مسجد تانوت الرمان، كان يتولى التدريس فيه الفقيه العلامة السيد الوايد ثم خفله من بعده البركة القدوة المشارك سيدى علال التنوتى.

2) زاوية سيدى ورياش، كان الفقيه العلامة السيد محمد واحمد يتولى التدريس فيها، وكان قاضى القضاة بالناضور أخــيرا .

وفى بنى عبد الله ــ ببنى ورياغــل ــ :

1) مسجد سيدى أبو يعقوب بمدشر آيت زكرى، تولى التدريس فيه السيد محمد بن الصديق الموساوى من مدينة تيلكوزين، كان علامـــة فى الفقــه والنحــو .

2) مسجد سبعة أبواب ــ هكذا تسمى ــ ، تولى التدريس فيــه العلامة العابد لله محمد بن السيد محمد السكاكى من مدشر اغلط .

وفى بنى حنيفة من بنى ورياغــل :

1) مسجد مشكور، تولى التدريس فيه السيد محمد الخمليشى، كان عالما متضلعا فى النحو والفقه والتوحيــد .

وفى تــركيســت :

1) مسجد سيدى بوثمن، تولى التــدريس فيه الفقيــه العلامــة السيد عبد السلام الخمليشـــى .

وفـــى زرقـــت :

1) مسجد سيدى الوافى، كان يتولى التدريس فيه العلامر السيد الحاج على الزرقتى جد القاضى السيـــد محمد الزرقتى، وكـــان يتولى التدريس فيه أيضا الفقيه الطنـــاز .

وفى بنى يطفـــت :

1) مسجد سمار واعمـــار، تولى التدريس فيه الفقيـــه اسيـــد احمـــد مشبـــال .

2) مسجد اغبال احمد، كان يتولى التدريس فيه الشريف سيدى محمـــد الخمليشـــى .

وفى بنـــى بويفـــرح :

1) مسجد عبد الله وشعيـــب .

وفى بقـــيـــوة :

1) مسجد تلا يوسف، تولى التدريس فيه العلامة المتفتن الموقت السيد شعيب التمسمانى .

2) زاويـــة ادوز كان يتولى فيها التدريس مولاى على الخمليشى، وكان علامة نوازليا فرضيا تولى مهمة قاضى القضاء بالحسيمة أخيرا .

أما فى جبالة، فمشهور فيها معاهد مهمة يقصدها الطلبة من كـــل جهة، وبالاحص المساجـــد التى يدرس فيها العلامـــة السيد بن يرمـــق، والعلامة المجلاوى فى بنى كرفط فى قرية بومعدة فى زاوية تازروت، مركز الزاوية الريسونية، والعلامة سيدى المفضل، وفى غمارة بزاوية أولاد بن صالـــح بمزيات .

وهذا عدا المساجد التى هى خاصة لحفظ القرآن بقرآته السبـــع المختلفة، فانها انتشرت كذلك فى القرى والقبائل، وعلى كل فان من يتجول فى ذلك الوقت فى ربوع الشمال يأخذه العجب مشوبا بالاغتباط والانشراح، فأين ما توجه لا يجد الا جوا مملوءا بالتحصيل وتجويد القرآن ومناظرات علمية مفروض فيها استقصاء الحجج والبراهين عن طريق التصوف أو عن طريق العلم الظاهر أو عن طريق القرآن، وكل حزب بما لديهم فرحون .

وهذه المؤسسات الدينية أو العلمية مضمونة من جميع الاذى ولو عثر أى شخص على عدو من أعدائه فى تلك المعاهد، فانه لا يأخذ أى ثار، والا تعرض لعقاب القبيلة التى ينتمى اليها بالتغريم والتخريب، بل والتحريق .

وهذه الجهات كلها مأمونة فى سبيل من يقصدها، وكثيرا ما يقصد المتصوفون والعلماء من الجنوب، فتراهم يتنقلون من زاوية الى أخرى ومن معهد الى معهد فى ضيافة وكرم .

ان هذا الاسلوب من الحياة النادر فى هذه الجهة يعتبر حافظا للعلائق الوشيجة بينها وبين جهات المغرب الاخرى التى تعتبر معينا يغترفون منه كفاس وسلا ومراكش ومكناس وطنجة وتطوان وشفشاون، مع العلم بأننا نؤرخ هنا للبادية التى أثرت هذه المعاهد فى اثارة الحماس الجهادى فى أرض الريف، على أن الذى يلفت النظر من كل ذلك، ان هذه المعاهد كانت العنصر الهام فى توجيه الناس لتعلقهم بالعروش المتعاقبة على المغرب، فمن مبادىء التعليم الاساسية وكذلك مبادىء التصوف، ان الفتق على الملك يعتبر مروقا من الدين، وبالاخص ان صلاة الجمعة تعتبر منبرا للبيعة لما تحتوى الخطبة الثانية من الدعاء لامير المؤمنين، ففى كتب التاريخ عندما نجد أن شخصا ما عندما يخرج عن الملك مثلا يقال، انه خطب به على المنابر فى صلاة الجمعة، فالخطبة فى الجمعة بالملك تعتبر مبايعة له وتجديدا لها، واستمرارا للتعلق بالملك .

وفى هذا المضمار تمسكت جهات الشمال بالعرش العلوى، ولم ينفض أبدا، يده من يده رغم ما كانت عليه الحالة، مما يعتبر البلاد بلاد السيبة كما يقولون، ولكن اذا أردنا أن نحلل كلمة السيبة، نجدها كلمة تطلق على عواهنها، لان القوم رغم ضعف السلطة المركزية عن ايصال الاوامر المشددة اليها، فان الناس بقوا على ما عاهدوا عليه من الحفاظ على الولاء والاخلاص لملكهم ودينهم، فهم أشد حفظا حتى من الذين كانوا تحت السلطة الفعلية المباشرة .

وذلك اننا اذا تفحصنا التاريخ، نجد أنه بتاريخ كذا خرج فلان فى جهة كذا، وبايعه الناس هناك، وان الملك الشرعى سير اليه أما بنفسه

أو بأحد قواده للقضاء على الفتنة، وذلك ما هو مشحون به كتب التاريخ، أما جهة الشمال، فاننا لا نجد شيئا يذكر، بل أن من سوات له نفســه أن يفعل شيئا من هذا القبيل كان حتفه على يد القبائل تلقائيا، مثل الكميلى (1) وبوحمار (2) وزيطان (3) وغيلان 4) الى غير ذلك، لان العلماء غرســوا فى النفوس هذه العقيدة، وقد ملئوا بها كتبهم لمن قدر له أن كتب .

وفوق ذلك، فان هذه المعاهــد هى التى انجبت زعماء الحــرب التحريرية، لان الجهــاد فى سبيل الله كــان ولا زال من أهم الاغــراض الدينية التى تتعلق بها النفوس والتى كانت بالطبع تحرض عليها تلــك المعاهد وتعاليم الصوفية، وسنذكر فيما بعد زعماء ثلاثة كان لهم اليــد الطولى فى قيادة المجاهدين ضد الاسبــان قبل البطل سيــدى محمد بن عبد الكــريــم الخطــابى .

قصة وجود ابن عبد الكريم فى مليليــة :

تكلم الذين كتبوا على وجود ابن عبد الكريم فى مليلية واســره هناك بشتى التأويلات المستوحات اما من تلقى الاخبار الاسطورية التى يحكيها الاهالى بعضهم لبعض، فيحرف هذا أو يطنب الآخر، حتى ابتعدت الرواية الصحيحة عن واقعها الحقيقى، أما جملة أو فى بعض فصولهــا، وأما عن كراهية نابعة عن الحقد الدفين الذى يسيطر على أفءدة العاجزين ليأتوا بالمأثرة التاريخية فيحاولون الحط ممــن تخطى صعاب الزمــان، لخلق تلك المفخرة التى تبقى خالدة، وهكذا، فان القول بأن ابن عبد الكريم كان يساير الاسبان فى أعمالهم فى شمال المغرب، بما كان ينشره فى بعض الجرائد، مثل «تلغراف الريف»، وان القول، بأن سبب أسره بمليلية هو لاجل النزاع الذى كان بينه وبين الجنرال سلفسترى، وان هذا الاخــير صفعه على خده، لانه لم يمتثل أمرا كــان كلفه القيام به فيما يتعلــق بالوساطة التى كان يقوم بها بين الاسبان وبين زعماء قبائل الريف، وان

---

(1) فى قبائل صنهاجة الريــف، (2) فى سهول بنى ورياغل بالريــف، (3) فى قبائل الاخماس بجبالة، (4) فى قبيلة بنى كرفط بنواحى العرائش.

القول بأنه اقترح على سلفستري بأن يأتي له برئيس الثوار مقابل مائة ألف بسيطة، تدفع للقائد الثائر وان الجنرال لما سمع هذا القدر الضخم من المال دفعه غضبه أن يصفعه على خده بعدما شتمه باللص، هي أقوال مدسوسة من توافه الاخبار التي صدرت في الاصل عن المؤرخين الاسبان مثل الجنرال «منويل غوديد» الذي استقى الرواية الخاصة بحياة الزعيم ابن عبد الكريم عن رجل من الريف، وقد وصفه الجنرال المذكور في كتابه «المغرب ومراحل التهدئة» المطبوع بتاريخ 1932 بصديق اسبانيا (1) وقد أفاض هذا الشخص في التنكر لمبادىء الشهامة التي كانت مفروضة في المناضلين الاحرار الذين لم يأخذوا السلاح الا دفاعا عن تلك الشهامة كي لا يلطخون بالنذالة الا أن المطلع على خبايا الامور يعرف لماذا تنكر لمثل الرجولة ليتسنى له أن يحمل لقب صديق اسبانيا الحميم بدلا من لقب المناضل الشريف، وقد اعتقد أنه شفى غليله بعد ما نفث في روايته الملفقة كل سموم الحقد الدفين الذي كان منطويا تحت جناحه والذي يقال في مثله أن القوة تظهره والجبن يخفيه وقد نسي أن التاريخ لا يرحم، وان سنن الخلق في هذا المضمار تسير على وتيرة واحدة تظهر ناصعة ولو بعد أجيال وأجيال بالتنقيب والتمحيص من دون فتور، فتدحض الخزعبلات مهما غطيت، تلك سنن التاريخ، فاذ كان الرجل ينتقم لنفسه ويعرض صفحا عن الحقائق عندما اختلى بالجنرال الغازي ليملي عليه ما أملاه بدواعي الانتقام، حينما حامت حوله شكوك في قبيلة من قبائل الجبالة التي طلب أن يعين حاكما على ذلك الخط، فاستدعى من قبل الزعيم وجرد من المسؤولية، ثم اختفى والتحق بطنجة ليحمل اسرار الثورة، فان هذا الانتقام لا يجديه عندما يرجع الكيد في نحره .

أما حقيقة الامر في وجود ابن عبد الكريم في مليلية، فان ذلك كان مبدأ مقررا بين الولد ووالده لخطة مدروسة شريفة، وان الاسر كان أيضا لسبب شريف، حسبما سنقصه نقلا عن رفقاء ابن عبد الكريم في مليلية وفي الريف .

---

(1) صحيفة 86 .

ان المؤامرات الاستعمارية ضد المغــرب كانت سلسلة متصلــة الحلقات بعدما كثر الاستعمــار الاوربى عن انيابه وأصبــح لا يخفــى النوايا المبيتة لاحتلال شمال افريقيا، فبعد ما نزلت الجيوش الفرنسيــة فى الجزائر، وبعــد ما استولى الاسبــان على مليلية وسبتة والاسافــين الشمالية، وبعد ما خاض المغاربة المعامع ضــد البرتغال والانجليــز على شواطىء الاطلس من المغرب، فلم يبق هناك سر لما يبيت لهذا الوطــن، وبالاخص فى جهة شمال المغــرب التى خاضت نضالا شريفا مع الثائــر «بوحمارة» الذى وجد دعما من محتلى الجزائر، ومن الجدير هنا ســرد بعض الحقائق التاريخية باجمال، ولو قد تكون معروفة عند الباحثين لاجل التخلص الى قصة قاضى قضاة مليليــة الذى كانت مهمتــه الاساسيــة ايداع المجرمين فى السجن والتى انعكست الآية فزج به فى السجن ولكــن ليس على يد القضاء، بل على يد البوليس العسكرى الاسبانى لتهمة وطنية شريفة، الا وهى تحريكه للعمل النضالى بالاستعانــة بممثلى منسمــان اخوان، المؤسسة الالمانية للتنقيب عن المعادن، التى كانت تعمل فى معــدن جبل وكسان غربى الناضور وجنوب اسغنغــان، ومن يكون فى موقفــه الحرج لما يرى تكالب الاعداء على وطنه له الحق فى ان يتعامل ولو مــع الشيطــان .

وللتدليل على حقيقة حادث سجنه ننقل هنا نبذة من مقال نشــر فى الكتاب الاسبانى «عشرون سنة من التاريخ»، جاء فيــه :

«ان عبد الكريم ــ اعتاد الاجانب أن يعبروا عنه بعبد الكريم وهو اسم أبيه وعليه فالقصد هو ابن عبد الكريم ــ عرف أنه وصلت ساعتــه وذلك للرد على التحدى الاسبانى، وكان يتمشى فى خطته على مخطط سيدى محمد أمزيان الذى قطع الطريق عام 1911 عن القوات الاسبانية فى خط الرجعة ــ أى فى معركة الثعلب ــ ، كما تتبــع خطتــه فى اثارة القبائــل الخاضعة للجيش الاسبــانى .

وعبد الكريــم الذى ولد فى أجديــر عام 1882 ودرس فى كليــة

القرويين، انتهى به الطواف عام 1909 ان يسكن فى مليليـــة، حيث كـــان يشغل وظيف قاضى، ثم فى سنة 1914 عين قاضى القضاة مع عملـــه فى الصحافة، وكان يتمتع باحترام من طرف الجميع، وفى سنة 1917 وقعت له خلافات مع الكرونيل «خوان خيل خيل»، وعند قيام الحرب الاوربيـــة الكونية، كان عبد الكريم مستعمـــلا من طـــرف المانيا مما جعل الحكومـــة الاسبانية تودعه فى السجن بالضغط الملح من طرف فرنسا، وسرعـــان ما هرب من السجن، حيث القى عليه القبض من جديد، وبعد الحرب خرج من السجن ولكنه كان قد تغيـــر» .

وسيأتى تفصيل الكـــلام عن تحرك الالمـــان فى الريف، وعمل عبد المالك حفيد الامير عبد القادر الجزائرى ونتائج ذلـــك .

أما الاحداث التاريخية التى غمرت عواصـــم أوربا ضد المغـــرب فقد تكونت عن احتلال البرتغال والاسبان لمدن طنجة وسبتة ومليلية وجزر بادس والنكور، التى تدعى عند الاجانب بلاوسيماس (الحسيمة) والجزر الجعفرية (جزر كبدانة) ومن انتقال مدينتى طنجة وسبتة من البرتغـــال الاولى الى انكلترا، كهدية بمناسبة زواج أمير انجليزى بأمـــيرة اسبانيـــة والثانية الى اسبانيا بعد استفتاء سكانها الاجانب بالطبع .

الا أنه فى نهاية القرن الثامن عشر وبداية القرن التاسع عشـــر استفحلت اطماع الاوربيين فى الاستيلاء على شـــواطىء شمال المغـــرب، نظرا لقربه من أوربا أولا، ولانه يحتل مكانة طبيعية استراتيجية جغرافية، حباه الله بها، ثانيا، وبعد ما كانت اطماع هـــذه الامم قبل هذا التاريـــخ منشغلة بشواطىء الاطلسى التى عاركوا من أجلها مع الاهالى، اضطروا أخيرا الى الرحيل عنها .

وهكذا حاولت فرنسا أن تحصل على رخصة قانونية من سلطـــان المغرب لاكتســاب قواعد عسكريـــة على شواطىء شمـــال المغرب وكانـــت رغبتها الاكيدة الاستيلاء على الجزر الجعفرية وجزيرة الحسيمة التى لـــم تحصل على مبتغاها باباء من السلطان سدا لما عسى أن يقع من تسربهـــم الى الريف الذى كانت الرقابة عليه غير تامة وبالاخص سكان هذه الجهـــة

من طبيعتهم التى فطروا عليها ركـوب المخاطر، والولوع بالرماية، فهــم عشاق الاسـحة التى تظهر مستحدثـــة .

ولما لم تحصل على هذا الاذن توجهت أطماعها صوب الجزائـــر التى احتلت منها مدينة الجزائر عام 1830، وابتداء من هذا التاريخ كان على شمال المغرب أكثر من جنوبه أن يأخذ العبـــرة بما حدث، لارتبـــاط القطرين بأواصر شتى، جوارا واقتصاديا وجغرافيـــا، وعليه ان يتبنـــى مساعدة النضال الجزائرى الذى خاضه ابناؤه البواسل تحت قيادة بطـــل مجاهد ممن يندر أن يجود بهم الزمان، وهو الامير عبد القادر الجزائـــرى الذى نظم الدفاع عن بلاده، فلم يتقدم الغـــازون الا شبرا بشبر، وكـــان تنظيمه يظاهى تنظيم الامير الخطابى الـــذى نؤرخ له فى الاعتمـــاد على الاسلوب العصرى من تنظيمات المجاهدين على غرار تنظيمات العدو نفسه.

واذا كانت رغبة السلطان المولى عبد الرحمن، قد تطورت لتأييـــد المجاهدين الجزائريين، بمالا مجال فيه للجـــدال، اذ قدم المعونة الـلازمـــة التى تظاهى شهامة المناضلين، فان العبأ الاكبر من تلك المساعدة، كانـــت تأتى من سكـــان الشمال الذين تقاطـــروا للتطوع للجهاد بباعث الديـــن والقومية العربية، وحينما طال نضـــال الجزائريين دخل عنصر تثبيـــط العزائم بالضغط من طرف فرنسا من جهة واثارة الشكوك لدى السلطـــان من جهة ثانية ازاء الامير عبد القادر مع العنصر الاقتصادى الذى استفحل نتيجة الحصار على الحدود بين الجزائر والمغرب من جهة ثالثة، ولما اشتد الهجوم عليه من قبل الجيش الفرنسى، دخل الى جهة الريف الى أن وصل الى تفرسيت، جاعلا اياها مقر عملياته العسكرية، الى أن ارتحل لملاقـــاة السلطان، حيث حيكت له دسائس، ولا شك أنها من نمط تلك الدسائس التى استعملها الاستعمار لخلق البلبلة بين الاشقاء فكانت الواقعة التى تواجـــه فيها الفريقـــان حسبما يأتى :

وكان من نتائج القضاء على ثورة الامـــير عبد القادر ما شهـــده المغرب بعد ذلك من هجوم الفرنسيين بقيادة الجنرال بوجو على وجدة فى وقعة اسلى المشهورة التى كانت نذير الشؤم للمغرب عام 1844 ولـــولا تدخل بريطانيا لمصالحها الخاصة لتوغل بجيوشه الى ما شاء .

أما الاسبانيون فقد تحرشوا مع الاهالى فى مليلية، اذ بدأوا يتقدمون الى داخل البلاد فى 20 شتمبر 1909، حيث اصطدمت القوة الاسبانية التى حاولت تأمين السكة الحديدية التى تمتد الى منجم الحديد باكسان، وفى الشمال الغربى خرجت القوة الاسبانية من سبتة لاحتلال تطوان ومصب نهر مرتيل فى ابريل سنة 1911، واحتلوا الشواطىء ما بين طنجة والعرائش فى نفس السنة، وقد كانت اسبانيا سنة 1860 احتلت مدينة تطوان، فلم تخرج منها الا بعد ما أرغمت المغرب على دفع غرامة حربية باهضة واهتبلتها فرنسا فرصة لغل المغرب بقروض وضعت على كاهل المغرب وضعية اقتصادية شاذة، الامر الذى جعل فرنسا تدخل ميدان التنافس فى المغرب متذرعة بهذه المديونية المدسوسة التى أقلقت بال كل من المانيا وانجلترا، الاولى لانها تحتاج الى أسواق لترويج منتوجاتها الصناعية، والثانية لان شمال المغرب يقع على فم مضيق جبل طارق فهى لا يهدأ لها بال اذا تفوقت عليها المانيا فى نفوذها فى المغرب، وبالخصوص بوغاز جبل طارق الذى لها فيه احتكاك مباشر، وقد تزايد قلقها عندما رأت غليوم فى موكب حافل فى طنجة راكبا الجواد وسط جمع من شخصيات المغرب فى حفل شبيه بحفل سلاطينه .

وأمام هذه المؤامرات تمخض الحل، لكن لم يكن للمغرب فيه لا ناقة ولا جمل، بل الحل كان على ظهره، وهى النكبة التى جرت ما جرته عليه، اذ رضيت بريطانيا على أن تسكت عن فرنسا باحتلالها للمغرب، على أن تحتل شماله اسبانيا، فتمخض الامر على معاهدة الحماية سنة 1912 بعد مؤتمر الجزيرة الخضراء سنة 1906، ثم الاتفاق بين فرنسا واسبانيا، والى هذه الدرجة فانه لم يبق الا تنفيذ الاحتلال، أما فرنسا فانها سارت على منوال آخر غير منوال اسبانيا التى تعثرت، لان المنطقة التى وكل أمرها اليها، تعتبر خلية الزنابر لسعها أشد ايجاعا «ولابد دون الشهد من ابر النحل» .

هذه الاحداث كلها يعيها عبد الكريم الاب على ظهر قلب، فهو الذى يعنيه الامر أولا وبالذات، لانه المسؤول الاول من حيث مركزه فى الريف، ومن حيث احساسه الوطنى، ولكن لابد له من اعداد عدته، وها هو ولده

البكر محمد قد كرع من العلم من منبعــه الصافى بفاس، حتى تبــرز فى العلوم الاسلامية وأطلع على أسرار المؤامرات وعلى الوصاية اللا شرعية التى وكلت الى اسبانيا على بلد هو مسقط رأســه .

ومع ما كان أبوه متميزا به من احترام المجلس العائلى الذى يرأسه بحكم مركزه الابوى فيه، فانه رحل الى فاس، حيــث كان ولده يستكمــل دراسته ما بين سنة 1905ــ1909 لعقد احــد المجالس العائلية فى احــدى حجرات مدرسة الشراطين التى كان يسكنها الابــن .

وقد تمخض هذا الاجتماع عن دراسة الاتفاق الفرنسى الاسبانى حول الشمال عام 1904 اذ وضعت فيه الخرائط الاولية لحدود الشطريــن التى كانت آنئــذ حدودا وهمية، نظرا لعدم اكتشاف ادغال تلك الحــدود بعد من طــرف الدولتــين .

ويقول بعض المؤرخين، ان الولد لم يكن رد الفعل من طرفه يتسم بالاهتمام، نظرا الى أنه كان يرى أن الاحتلال الاجنبى قد يأتى بخير لبلده الذى يفتقر الى استقرار وتمدن وانه لم يتغير رأيه الا بعــد الاختلاط مع الاسبانيين فى مليلية اذ اختبر نواياهم السيئــة .

وقد يكون هذا التفسير صحيحــا لو أن الطالب فى صدد دراســة الاوضاع بكامل جوانبها، والواقع أن أشغــال الدراسة كانت تحــول دون التعمق فى الامر، فلا يمكن اصدار قــراره النهائى، على انه من المبــادىء القارة التى يسير عليها والتى أطلع عليها بواسطة قراءته للكتب الوطنيــة التى ترد على جامعة القرويين من جامعــة أخرى مثلها، وهى الازهــر فى مصر، هى أن الاستعمار لعنة على الامــم المستضعفــة .

ونظرا الى أن معالم طريق الكفاح المجدى لم تكــن واضحة أمــام أنظار الوالد والولد معا، فان القرار الذى اسفر عنه الاجتماع هو أن يرجع الولد الى الريف لكى يتجه وجهة أخرى، لسبــر غور القضية من منهلهــا الاصلى، وهو الاختلاط مع الاسبانيين بأية وسيلة كانت، مع تهيىء الولــد الثانى امحمد الذى كان يبلغ عام 1909 حوالى 18 سنة، لانه من مواليــد 1892 لاستكمال دراسته فى اسبانيا أيضــا .

وان الاب كان قد خطط لهذا الامر قبل الاجتمــاع فى فاس، اذ ان

جزيرة الحسيمة التى هى على قدر رمى الحجر من اليابسة، كانت أبوابها مفتوحة على مصراعيها لاهالى الريف، وبالاخص أهالى أجدير الذين تقع الجزيرة تحت أنظارهم مباشرة، وقد جعلها الاسبان سوقا رائجة يقتنى منها الاهالى حاجياتهم من السلع الاوربية التى عز نظيرها عندهم فى ذلك الوقت لعدم اتصالهم الخارجى، وكان أهالى القرى الشاطئية يروحون ويغدون يوميا حاملين معهم بنادقهم التى يلزم أن يدعوها عند مدخل الجزيرة تحت أنظار الحراس ليذهبوا الى داخلها يجوبون دروبها، وكان الجنود الاسبان يعرفون كل واحد منهم كمعرفتهم لابناء جلدتهم، وبالاخص الحاكم العسكرى الكولونيل سيبانطو المكلف فى ذات الوقت بالشؤون السياسية التى هى وظيفته الاساسية، التابع للحاكم العسكرى بمايلية، وكان يتكلم اللغة المحلية باتقان، وكان من مبادىء السياسة التى ينهجها لفتح الريف ساميا التسامح مع الاهالى حتى حدث ذات يوم أن واحدا من اعيان أجدير يدعى عزى بن بوطاهر ضرب ضابط الصف الاسبانى المكلف بالحراسة بهراوة الى رأسه وأسقطه أرضا بسبب خصومة تطورت الى عنف، وريثما تأتى الاغاثة واعلام الحاكم، كان نزل من سلم الجزيرة الى حيث تودع البنادق، فأخذ بندقيته وخرج من دون ان يلحقه أذى، وما كان من الكولونيل الا أن حمل مسؤولية الحادثة لضابط الصف الذى أبعده عن الجزيرة نهائيا .

الا أنه ومع تفتح الجزيرة على الاهالى، فان عامتهم لم يكونوا راضين بالذهاب اليها، وكانت السلع التى تقتنى من الجزيرة وكان أغلبها السكر والدقيق والثياب، لا يمكن بيعها فى أسواق القبائل والا تعرض بائعها للانتقام من الاهالى بتغريمه واحراق داره، وكان على الذين يأتون بها، أن يدعوها فى دارهم لعولتهم .

وقد لعبت سياسة هذه الجزيرة دورا كبيرا، فقد اشترت ضمائر بعض المتعاونين معها ورتبت لهم مرتبات شهرية، وتدعى العمولة التى يأخذونها «بالراتب»، هكذا بالثاء، وقد انتشر هذا الداء كثيرا واشترك فيه جمع من رؤساء الجماعات والاعيان الذين كادوا أن يعقدوا حلفا مضادا لحلف المجاهدين، وقد افتتن الناس افتتانا كاد أن يلحق التفرقة بين العشرة

والعشيرة، وقد أدى الحال الى اغتيال رئيس المجاهدين، القاضى السيد محمد بن احمد العزوزى، الذى سيأتى توضيح حياته وجهاده .

وفى خضم السياسة الاستعمارية جاء ابن عبد الكريم من فاس ملتحقا بعائلته بأجدير حسب الاتفاق مع أبيه، وقد وجد بندقية الموزير (الخماسية) فى الدار التى تعتبر من أولى المعدات التى يحملها من بلغ سن التسلح، ترافقه فى الحل والترحال، لا تفارقه طرفة عين، وفى الايام التى قضاها فى أجدير كان يحملها ليذهب الى الوطاء وهو سهل غيس، حيث جنات أهالى أجدير، ليقضى فيها وقتا ما لرياضة الرماية بالبنادق، مع أصدقائه وبنى عمومته وعندما يرجع الى الدار يجد والده قابعا خلف حجرة ملساء أو تحت شجرة فيحاء يطلق بصره الى ما بعد الافق فى تأملات الشيخ الذى اثقلت كاهله المسؤوليات الجسام : العائلية والوطنية والقضائية، ولا يستفيق الا عندما يسمع المؤذن يؤذن لصلاة العصر أو المغرب، فيقوم ليؤدى الواجب نحو الله .

واذا حضر الابن هش فى وجهه ويسأله أسئلة من لا يحمل أى ثقل على قلبه، وكما سيأتى، فقد كان سريع البديهة، طيب المعشر، لطيف النكتة، لا يتركها تمر فى أحاديثه، بل يطعمها بها كل ما سنحت، مما يضفى على المسامرة معه بهجة وسرورا، الى نفوس محدثيه، وبعد صلاة العشاء وكثيرا ما تكون فى بيت الضيوف، وهو بيت تكون بوابته مفتوحة الى خارج الدار، وهو لازم فى بنايات الاهالى، لكل دار تحفظا من التكشف على ربات البيوت فى خدورهن، وهذا البيت لا تطرقه الاناث الا عند تنظيفه وترتيب أثاثه. وعلى الذين يكونون ــ الاولاد ــ قد بلغوا سن التكليف الشرعى أن يحضروا صلاة العشاء مع والدهم الذى يؤمهم، واثر الفراغ منها كان على الذين لم يبلغوا سن الرشد السياسى أن يذهبوا ويبقى معه الآخرون، لكى يجروا حوارا ويستعرضوا الاحداث التى جرت أو التى تهم العائلة.

وهنا لا يمكن الضبط كم قضى الابن فى أجدير قبل أن يلتحق بمليلية عن طريق الجزيرة، الا أنه حسب الروايات المتداولة لم يطل مقامه فى أجدير بل ذهب الى مليلية، حيث عين أستاذا فى المدرسة التى فتح فيها قسم للغة العربية استدراجا للاهالى لارسال أولادهم الى

المدرسة التى تعتبر اللغة العربية فيها اغراء لهم وبعد ما أصبح معروفا عند الاسبان بمزاياه الشخصية، سمح له فى تحرير صفحة باللغة العربية فى جريدة «تلغراف الريف» وهى الجريدة التى يصدرها المكتب السياسى الاسبانى فى مليلية تحت رئاسة الكولونيل «مورليس» الذى قرب اليه ابن عبد الكريم طمعا فى أن يكون عونا لتوعية أهالى الريف بالفوائد المتوخاة من الحملة الاسبانية، ولكن الرجل لم يأبه قط لمرامى هذا الكولونيل، كما لم يأبه لغيره ممن هو أعلى منه .

ويجدر هنا أن أروى بتدقيق وجود عائلة عبد الكريم الخطابى لدى الاسبانيين فى حال حياته، فكان ولده محمد بمليلية مدرسا ثم قاضى القضاة محررا فى الصفحة العربية من جريدة «تلغراف الريف»، وولده امحمد طالبا فى قسم الهندسة بمالقة ثم مدريد، وأخوه من الاب عبد السلام الخطابى كاتبا مع حاكم جزيرة الحسيمة، ذلك أن القيادة العليا الاسبانية فى تطوان، كانت خططت تخطيطا لاحتلال شمال المغرب على الاسلوب التالى:

1) أن تخضع القبائل الجبلية وتثبت اقدامها فى الجهة التى توجد فيها مدن الشمال: تطوان، وشفشاون، وأصيلا، والعرائش، والقصر الكبير، المحتلة من قبلها، وان يمتد نفوذها على القبائل التى تشرف على هذه المدن، واعتمدت فى هذه الجهة على متزعم كان يبدو لها أنه قوى يتزعم تلك القبائل وهو مولاى احمد الريسونى، وكان هذا يتقلب حسب مصلحته تارة وحسب الضغط من طرف المجاهدين تارة أخرى، وقد جرت معارك فى تلك الجهات ما بين تطوان والقصر الكبير سيأتى تفصيلها .

2) واذا ما انهت هذه الجهة، فانها تلقى بثقلها على الجبهة الشرقية التى كانت تجرى فيها معارك محلية فى قبيلة قلعية تحت قيادة سيدى محمد أمزيان، على أن لا يتوغل الى قلب الريف، الا بعد انهاء الجبهة الغربية.

3) وفى أثناء هذه المرحلة يجب أن تكسب أنصارا فى قبيلة بنى ورياغل التى هى القلب النابض فى الريف وقد رأت ان عبد الكريم الاب هو أقوى رجل وأصلح، يمكن أن تعتمد عليه وبالاخص فانه أقرب الى جزيرة الحسيمة التى استعملت كل وسائلها الاغرائية، كالمال والسلاح، ولكن يجب أن تختار زعيما له وزنه ومكانته لدى القبيلة، ولم يكن أولى

من قاضى بنى ورياغل الذى ينحدر من عائلة كانت لها الرياسة فى عهد المولى محمد بن عبد الله ومولاى الحسن الاول، فاتصل به حاكم الجزيرة التى كانت مهمته الاصلية هى رياسة قسم المخابرات، على أن يعمل واسطة بينها وبين أهالى القبيلة ويكون صلة الوصل مع العلماء الذين يختارهم لاخذ المال كمرتب شهرى، على شرط أن يعطى لولده الاول مكانا مرموقا فى مايلية، وتقوم اسبانيا بفتح المعاهد لولده الاصغر، ويوظف أخوه من الاب كاتبا مع حاكم الجزيرة العسكرى وقد درس عبد الكريم مع والديه وأخيه هذه العروض وما يمكن أن يستفيدوا منها، كما درس العواقب التى يمكن أن يتعرض لها مع أهالى القبيلة الذين سيفسرون ذلك على أنه مروق من الدين والوطنية وتتعرض حياته العائلية الى أوخم العواقب، وقد وازن بين الفوائد التى ستجنيها العائلة والخسائر التى يمكن أن تتكبدها. فاسفر الرأى على المجازفة بقبول هذه العروض التى تكون من فوائدها

1) انه اذا تأخر عن قبول العروض المقدمة اليه فان الاسبان، سيتخطونه الى شخص آخر من القبيلة الذى يفترض أن يعمل معهم باخلاص، فتكون الكارثة على الريف وعلى كل حال فان المال الذى سيتدفق من الجزيرة على القبيلة سيجد قلوبا ضعيفة الايمان لا تتورع أن تجر الويل بكل موبقاته على هذه القبيلة التى تعتبر القلعة المنيعة فى وجه الغزو الاستعمارى

2) فانه من الاحسن الظهور للاسبانيين بمظهر المتعاونين معهم سدا للطريق على الغير من بنى الجلدة.

3) ان المخطط الذى خططاه فى فاس والذى لا محيد عنه من أخذ الاهبة لاستقبال كوارث الغزاة يقتضى أن تخرج العائلة الخطابية من العزلة المميتة بين أهالى القبيلة الذين لا تعدو مخططاتهم الضحلة أن يستميتوا فيسقطوا شهداء واحدا بعد واحد الى أن تنقرض النخبة المؤمنة، فيبقى الجو العملاء المرتشين.

4) وعليه، فانه يجب أن يستفيدوا من هذه الفرصة التى واتت لكى يزيدوا خبرة بالاساليب العسكرية والسياسية، ويزيدوا وعيا للقضية

الوطنية الكبرى ويتخبروا الاعداء عن كثب ليعرفوا أى سياسة يخططون لها لكى يأخذوا الامر من معينـــه .

5) وللابقاء على الاتصال بأهالى، فانه يبقى الاب رئيسا للعائلة فى مسقط رأسه رغم ما يتوقعه من المصاعب التى سيحدثه هذا المخطط الذى يفسره الاهالى على ظاهـــره ولكن لابد ليوم ما فى القريـــب العاجـــل أن ينجلى الغبار على المخطط، فيرجع الاعتبار فى أعين الاهالى كامـــلا .

6) انه بهذه العمليـــة الجريئة ستبقى جزيرة الحسيمة وجزيـــرة بادس مفتوحتين أمام السكـــان لشراء المواد الغذائية التى تستحضرهـــا اسبانيا كجزء من مخطط الاغراء، ولشـــراء الاسلحة من المهربين الذيـــن يتغافل عنهم الجيش الاسبانى عمدا لاجل أن يتقاتل الاهالى فيما بينهـــم لاخذ الثأر الدموى بين عشيرة وأخرى حتى اذا انهكت قواهم بذلك سهلـــت الحملة لاكتساح تلك الربوع المنشغلة على استئصال جذور بعضهم البعض نتيجة الضغائن الدموية المستحكمة فى العائلات، ولكن رأى عبد الكريم الاب أن نفعها فى المستقبل للمعارك الحاسمة ستكون أكبر من ضرها، اذ علـــم أن الريفى مهما تجاهل ضد أخيه، فانه لا يقف ذلك حائلا فى حين ساعـــة الجهاد الاكبر فى الغزاة، وهم يعتزون بأن الشهيد يصبح بعد موته حمامـــا من حمائـــم الفـــردوس .

7) ان بقاء المراكب البحرية مفتوحة أمام الاهالى سيوفر البسيطة الاسبانية، وبالاخص من البعثات المنقبة على المعادن التى اعتبرت أن جبال الريف كلها براكن لمختلف المعادن بعد اكتشاف المعدن الحديدى فى اكســـان قرب الناضور، وذلك ما دعا بعض الاسبان أن يقترحوا على عبد الكريـــم الاب أن يهىء ولده الاصغر للتخصص فى هندسة المعادن .

أما المتاعب التى وضعها فى الميزان فانهـــا :

1) انحطاط سمعة عائلة الخطابى أمام القبيلة التى كانت تعتبرها الرئيس المدبر لها والصادق الايمان بمبادىء الجهاد والشرف والشهامـــة وبالتالى ضياع تلك الثقة العمياء التى أولوها اياهـــا .

2) وقد يتعدى ذلك الى الهجوم على العائلة الخطابية من الجمهور المتحمس، وقد لا تحمد عقبى تلك الغضبة الجماهيرية التى لا تتحكـــم الى

استعمال فلسفة اللعبة التى لا يمكن على أى حال البوح بها، والا فسدت تلك المخططات وقتلت فى مهدها قبل أن تأتى ثمارها .

وعلى كل فقد وازن بين الخطتين وقارن بين المنافع والمضار لكل منهما واستقر رأى العائلة على الخطة الاولى، لانها أكبر فوائد مهما كانت مخاطرها عظيمة، تاركين ذلك الى رحمة الاقدار التى تعامل الانسان على نيته .

وختم عبد الكريم الاب مجلسه بالحديث المشهور : «من كانت هجرته الى الله ورسوله فهجرته الى الله ورسوله، ومن كانت هجرته الى دنيا يصيبها أو امرأة ينكحها فهجرته الى ما هاجر اليه» .

وهنا انتفض الجمع واعقب ذلك تنفيذ الخطة، فالتحق الابن الاكبر بمليلية، كما تقدم، والتزم العمل بكل وصايا والده، فلم يتطرق اليه أى فتور فى سبيل المخطط الذى يعمل بكل الحاف ليدركه حتى انى سمعت ممن حدثوا عنه من أقرانه فى ذلك التاريخ، أنه كان يأتى أحيانا الى جزيرة الحسيمة عن طريق البحر لاستطلاع أحوال القبيلة وبالاخص أهالى أجدير الذين يغدون ويروحون الى الجزيرة وانه كان لا ينزل الى اليابسة لزيارة عائلته، بل يبقى فى الجزيرة، حيث عمه السيد عبد السلام الخطابى كاتبا، وقد حكى لى المجاهد السيد حمادى غياية، أنه وجده ذات يوم فى الجزيرة، فلما سلم عليه سأله ماذا تصنع هنا فى هذه الجزيرة التى يحتلها الكفار مع أنك مسلم، فاندهش غياية لهذه العبارة المعنفة له، وأجابه فاذا كنت أنا أجىء من دار الاسلام أحيانا، فانك ساكن معهم فى مليلية، بل أنت موظف مع الكفرة، فأجابه ابن عبد الكريم، حقا أنا موظف فى مليلية، ولكن لى بصيرة أنظر بها الامور، على حقيقتها ولا خوف على أما أنتم الفلاحين السدج فان أدنى أحبولة ينصبها لكم العدو تقعون فريسة الكفر، الامر الذى يضيع معه اسلامكم .

أما القصة الاخرى التى حكاها لى أحد أعمامه أن الكرونيل موراليس كان قربه اليه وسماه قاضى القضاة للاهالى عام 1913، وكانا يشتركان العمل فى مكتب واحد، يحتل الكرونيل زاوية ويحتل ابن عبد الكريم زاوية أخرى، وكان عندما يزور الكرونيل أحد الاهالى لتبليغ خبر أو طلب

أمر يستغفل الكرونيل ويقول للعميل انتظرنى خارج المكتب، وعندما يستفسره عن الخبر الذى أتى به، وربما نهاه بصريح الكلام كى لا يتكرر منه ذلك وربما أعمى عليه بحكاية ملتوية زرعا للخوف فيه، واذا استعظم أحد مركزه كقاضى القضاة سفهه بصريح العبارة اذا كان ممن يستحق الافصاح قائلا، ان عملى هذا لا يعدو أن يكون تخذيرا لكم أنتم الذين ترون عملى هنا احتراما لشعوركم، أما أنا فاعتبره تحديا لكم ولشعورى بنفسى، ولكن سأتناول مرارة ذلك، كما يتناول المريض مرارة دواء للشفاء.

وربما سأله بعضهم عن تحريره فى جريدة «تلغراف الريف»، وكان جوابه دائما اذا كان محدثه ممن يوثق به انه قرع الخديعة بالخديعة فرسائلى فى الجريدة لا يقرؤها أحد من المغاربة أو المشارقة، بينما الاسبان يعبئون التراجم اترجمة مقالاتى، التى لا تحمل أى معنى بالنسبة انى والى قرائى المغاربة، فعلى هذا فذاك مما يقال فيه حبر على ورق، واذا فان أى مجازفة فى القول الذى يحلو لبعض الكتاب أن يكتشفه بأن تلك المقالات التى كان ينشرها فى تلك الجريدة، كانت تبشيرا بعمل اسبانيا فى شمال المغرب (1)، ليس بصحيح، كما ليس بصحيح أن والده كان قاضيا بمليلية (2) بل تقصى حياة والده من أقرب العناصر التى كانت ترافقه فى حياته يفيد، انه لم تطأ قدمه مليلية أصلا .

وانما كانت له جزيرة الحسيمة معبرا أحيانا الى تطوان عندما يندلع ضده ما كان يتوقعه من غضبة الاهالى، وكان ينجو منها تحت حماية عصبية عشيرته من أجدير الى جزيرة الحسيمة، ومنها يرحل الى تطوان، ولم يرحل قط الى مليلية رغم الحاف الاسبان ليلتحق بوالده هناك، الى أن تهدأ فورة الهيجان، فيرجع الى أجدير تحت مصالحته مع القبيلة بوساطة بعض زعماء عشيرته ليستأنف الحوار مع زعماء القبيلة التى لا تكاد تفهم مراميه التى لا يمكن أن يبوح بها كى لا يتسرب مراده الى الاسبان، فيفشل مخططه، وهو الامر الذى بقى يتحمل عبئه وحده، فيقع فى حيرة

(1) كاتب محمد بن عبد الكريم لمؤلفه الاستاذ العلمى صحيفة 17 . .
(2) المصدر نفسه .

مكمومة، حتى اذا أعياه الكتمان صرح ذات يوم لزعماء القبيلة فى مجمع هام، بأربعاء سيدى أبى العفيف ـ على الضفة الشرقية لنهر غيس أحد النهرين اللذين يشقان قبيلة بنى ورياغل، ويصبان معا أمام جزيرة الحسيمة ـ صرح قائلا لهم: «انكم تسموننى بالنصرانى، أليس كذلك، فأجابوا بلى، ألست تخالطهم بأولادك وأقاربك؟ ومن خالط قوما فهو منهم» فيعقب على ذلك ويقول: «انى أنبئكم بأن الوطنية والاسلام مقبوران الآن فى ديار المغرب، الا ما كان من دارى، وأنتم أنفسكم من يبقى منكم حيا فسيبحث عنهما فى دارى، هذه التى تهدمونها، عندما تثور ثورتكم».

وفعلا فانه تحمل كل تلك الهجمات التى تجعله هدفا لها، ورغم أن جزيرة الحسيمة يلح عليه كلما وقع الهجوم عليه، ان ينزل جيوشه الى اليابسة لحمايته ورد عادية المغيرين عليه، فانه يمتنع ويقول له ان الوقت لم يحن بعد، لان الاهالى فى مركز الحماس والقوة، لا يجمل الاحتكاك بهم، وان اخلاءه داره والهجرة الى تطوان أسهل سبيل لرد عاديتهم.

وكان الغرض من كل ذلك أن يسوف الاسبان عن مراميهم حتى يستوفى أغراضه التى يعمل من أجلها من اخفاء مخططه الذى يأتى يوم لينفذه بكل جرءة وحماس المسلم الوطنى المحنك.

وقد اتضح للاسبان أنه يلعب بهم بعد ما نمى اليهم قولته المذكورة عن طريق عملائهم المبثوتين، واشتبهوا أيضا فى قاضى القضاة بمليلية، عندما غير أسلوب مقالاته فى جريدة «تلغراف الريف»، وقد استعمل فيها لهجة قوية الحماس ضد الاستعمار على العموم، وان لم ينص صراحة على الاستعمار الاسبانى، وأحيانا يندد بالاستعمار الافرنسى، كما بلغهم بعض التصرفات التى لا ترضيهم، وبالاخص اتصاله بممثلى مؤسسة «مانسمان اخوان» الالمانية، التى تنقب عن الحديد فى منجم اكسان، حيث أفاده هذا الاتصال للاطلاع على الوثائق الاسبانية السرية الخاصة بالتنقيب عن المعادن فى الريف، وبالخصوص فى جبل حمام من بنى ورياغل، وقد أطلع بذلك على المرامى الحقيقية لاسبانيا فى احتلال الريف، حيث لم تدع له الشك فى المرامى الاستعمارية.

الاسباب الحقيقية لسجنه :

وقد أعطت لهم هذه الاستعلامات نتائج مهولة، ضد قاضي القضاة وعائلته التي كانت الى حد الوقت يعتبرها الاسبان مفتاح الاحتلال، وذلك نظرا للاتصال المريب الذي كان يجريه مع هؤلاء الالمان من جهة، ثم استفحلت الريبة عند ما جاء عبد الملك حفيد عبد القادر الجزائري الى مليلية من طنجة صحبة الالماني المدعو «الفار» اللذين راحا يعملان عميلين لالمانيا ضد فرنسا في المغرب من جهة أخرى .

وقد جاء عبد الملك هذا الى المغرب عام 1902 م. ومن المظنون أنه كان يبحث عن ميدان للمغامرات القتالية التي كان تشبع بها بروايات أخبار جده الامير عبد القادر الجزائري، الذي خاض معارك بطولية في الجزائر ضد الاستعمار الفرنسي، وقد يكون تأثر بهذه الاخبار التي رويت له في الشام حيث ولد في سوريا .

وقد حفزته هذه الاخبار أن يحضر الى المغرب ليفتح تلك المغامرات، بالانضمام الى ثورة بوحمارة في الشمال الشرقي المغرب، ولكنه سرعان ما انفصل عنه بعد ما أطلع في عين المحل عن فشل عمل الثائر، وقد حمل هذا الانفصال المولى عبد العزيز الى أن يقربه اليه، الا أنه لما كان المولى عبد الحفيظ انتقض على أخيه في المغرب في شأن النزاع على العرش المغربي، فان عبد الملك هذا انضم في هذا النزاع الى المولى عبد لحفيظ، ولما انتصر هذا الاخير عينه مكافأة له على رياسة الشرطة المغربية بمدينة طنجة.

وفي أثناء قيام الحرب العالمية الاولى 1914 م. وثق الاتصال بالالمانيين، وعملائهم الذين راحوا يبحثون عن العملاء الذين يكونون عونا لهم لخلق المشاكل ضد فرنسا في المغرب، وفعلا اهتدوا الى عبد الملك هذا الذي جعل يتصل بهم سريا، وربما استعمل الاتصال بواسطة الهاتف بالقائم بأعمال المانيا في طنجة، وقد تفطن الى هذه الاتصالات المخابرات الفرنسية وسجلت بعض تلك المخابرات الهاتفية التي تدينه، وسرعان ما علم بذلك عن طريق أصدقاء يعملون في تلك المخابرات، فحزم أمره واختفى عن طنجة الى جهة الريف، حيث يكون في مأمن من وصول يد فرنسا اليه،

وحيث يوجد ميدان للمغامرات الحربية التى هاجر من أجلها، والتى يكون العثور بين طياتها على الاموال التى يهفو اليهــا والتى لمس عن كثــب أن جيوب الالمان المنبثين فى طنجة مملوءة تبحث أين تطلق رنينها، وفعلا فقــد اتفق مع الالمانى المدعو «الفــار» الذى كان غرضه الاساسى اثارة القبائل الشمالية لنهر ورغة ضد فرنسا لحلق المصاعب، وقد التحقا بتلك القبائــل وتمكنا من اثارة حروب العصابات فى تلــك الجهة بعــد استمالة القبائــل بما أغدقه الالمانى الفار من الاموال عليهــم .

وفى هذا الوقت لم يكن المغرب دخل رسميا فى الحرب العظمــى رغم تجنيد الفرنسيين للمغاربة الذين انخرطوا بصفة شخصية، وبعثــت بهم الى ميادين القتال، الا أنه تحت الضغط انصاع السلطان مولاى يوسف لالحاف المرشال اليوطى، المقيم العام الفرنسى، فأعلن السلطان الحــرب ضد الالمان وتركيا، وبعد دخول المغرب رسميا محاربا فى صف الحلفاء، رأت القوة الفرنسية فى المغرب أن تشن حربا شعواء على قبائل شمال فاس التى لم تكن خاضعة، والتى تأثرت الى حد كبير بمناوشات عبد المالك والالمانى الفار، وبهذه الحملة الفرنسيــة فى تلك الجهة ، جعلت الحالة غير صالحــة لعبد المالك، ففكر هو والالمانى أن يحتموا بقبيلة بنى ورياغــل، على أن يكون ذلك عن طريق قاضى القضاة بمليلية، وقد تنكر عبد المالك تحــت اسم مستعار، وهو هامان الالمانى .

وعلى أى حــال، فقــد اتصلا فى مليليــة ــ خفية عن أنظــار الاسبانيين ــ بابن عبد الكريم الذى كانا قصداه لطلب العون من قبيلــة بنى ورياغل التى تأتمر بأمر والده والتى تعتبر القبيلة العاتية فى وســط قبائل الريف، ولا سيما ما خبره عبد المالك منها فى قضية الثائر بوحمــارة من كونها كانت جماع أمر تلك القبائل المسلحة التى تهفو للقتــال .

وقد أجاب ابن عبد الكريم الذى رأى فى مطلبهما ما يوافق المخطط العام الذى خططه والده معه من محاربة الاستعمار، اينما ثقف، وان ذلــك يعتبر فرصة تتاح للريف، لاجل شحذ العزائم مرة أخرى، وقد اتفق الرأى بين الثلاثة، على أن يذهب عبد المالك والفار الى عين المكان بقبيلــة بنى

ورياغل، حيث يتصلان بأبيه الذى يهيء لهما اجتماعا عاما لزعماء القبيلة للاتفاق على الاسلوب والجهة الذين يفرضه الموقف عليهما .

ولاجل القيام برحلة تحت الستار فقد أختفيا فى لباس الاهالى : جلابة من الصوف من نسيج محلى الى أسفل الركبتين مغروزة بوردات من حرير فى مواضع التحامها بخيوط من حرير يدعى «برشمان» وعمامه بيضاء ملتوية على الرأس مرات، وهو محلوق الشعر تماما، ونعل محلى، ورافقهما فى رحلتهما على زورق صغير بالمجاديف والقلاع ثلاثة أشخاص، اثنان من أعمام ابن عبد الكريم وهما السيد محمد بن الحاج بـودرة زوج أخته والثانى الرئيس محمد المدعو بوباطاطا (لازال حيا) كلاهما من أجدير وكان معهما تونسى كان حضر مع الالمانى الفار، الذى يستعمله ترجمانا وقد ودعهم ابن عبد الكريم بعد ما زود عميه برسالة شفوية الى أبيه، وكانت الرسالة تحمل رموزا لم يفهم كنهها حتى حاملاها، امعانا فى التعمية، وهى تدور على أن الفرصة قد واتت وأن عليه — أى أبيه — أن يغتنمها، فالرجلان يحملان أفكارا ومالا معا، مع امكان استغلالهما لبدء تنفيذ المخطط العام لما يمكن أن يجابا من السلاح، وودعهما فى مرسى غربى مليلية قرب رأس ورك، حيث امتطيا متن الزورق المستأجر من أربابه الذين يعملون حوذيين، والذين ظنوا أن السفر عادى وان المسافرين هم من أهالى الريف الذين طالما أوصلوهم الى شواطىء الحسيمة .

وعلى كل، فقد صار كل شىء على ما يرام، فقد ابحر الزورق بالاشخاص الخمسة ناشرا قلاعه فى اتجاه الريح، يتناوب اثنان من بحارته على المجادف، بينما الآخر يحرس القلاع، الى أن وصلوا الى شواطىء الحسيمة بساحل السوانى فى حالة الخفاء، حتى عن ربابنة الزورق، نظرا لاستعمال كل أنواع الايهام المضللة من عدم اثارة أى حديث الا باللغة المحلية ومن تعمد الشح مع الربابنة حتى لا يظهر عليهم أى ثراء غير عادى، كما تظاهر الضيوف بالدوخة التى تعترى بعض المسافرين، لكى لا يضطروا الكلام .

وقد سلكوا جميعا مسالك غير مطروقة الى أن وصلوا الى دار

السيد عبد الكريم الخطابي الاب، حيث بلغ الرسولان رسالة ولده التي لم يجد صعوبة في فك رموزها التي كان أعتاد أن يتلقاها ويفهم مرادها، وبعد المحاورة التي كشفت له عن الدواعي والاسباب التي حملت الضيوف عن شد الرحال اليه، وبعدما استقرا عوامنها الايجابية والسلبية، وبعد ما استدعى أخاه من جزيرة النكور أن يزوره زيارة عادية، تقبل العمل مع الالمانيين، بشرط أن يعقد مؤتمرا مع زعماء قبيلة بني ورياغل وبني عمرت المتاخمة لقبائل ورغة والتي تعد اشجع قبيلة بين تلك القبائل .

ولاجل الابتعاد عن أنظار جزيرة الحسيمة التي ترقب كل حركات الاهالي، فقد اختار أن يكون المؤتمر في قرية آيت قمرة، وهي بلدة تقع غربي أجدير، تحجبها عن أنظار الجزيرة كدية تامسقيذانت والجبل الكبير، وكانت الوفود كما يلي :

عن بني بوعياش: السيد عبد السلام الحاج محمد (1) مع وفد يضم حدو بوقراب وشعيب بن حمو الطاعي وموح بن الطاهر الزكيري .

وعن بني عبد الله: محمد ابرقاش ومحمد بن عمر ابا موحند والسي علي بن السي المسناوي .

وعن بني حديفة: موح بن صديق وبوطاهر مكوح والسي عمر محمادي .

وعن المرابطين: السيد عمر بن سمحند والسي امحند بركان من تاشيوين بجبل حمام، وشعيب بن الحاج تهامي والسيد بوقشوش من زاوية سيدي يوسف والسيد احمد بورجلة عن زاوية آل هشام .

وعن آيت يوسف وعلي: موح ابقوي والحاج محمد شدي والقائد سي بوبكر وشن وعلوش بن المدني واشهبار بن بوعزة .

وعن آيت علي: محمد بن الحاج محمد وحمو بن حد تقلعت .

وعلاوة على هؤلاء الرؤساء، فقد رافقهم زعماء ثانويون من كل خمس، حسب مصطلحات القبيلة التي يصحب كل زعيم عصابته التي تحميه والتي تكون في يقظة دائمة تحتضن سلاحها .

---

(1) والد المؤلف .

وعلى أي حال، فقد اجتمعوا في ظل اشجار من التين المغطاة بأوراق الخريف والتام الجمع على أحسن ما يرام، مما اذهل الالماني الفار ورفيقه عبد المالك، لما ابداه الزعماء من الحماس، واليقظة وقد خطب الالماني في الجمهور بواسطة الترجمان التونسي الذي كثيرا ما يمد اليه السيد عبد الكريم معونة توضيح بعض الفقرات باللسان المحلي (تمازيغت) .

وكان من جملة ما قاله الالماني، أنه تخطى القبائل كلها من الجنوب والشرق وقصد هذه القبيلة الشجاعة العاتية، وانه كالماني يحب الحرية كأفراد هذه القبيلة، فانه جاء ليضع نفسه رهن اشارتها بكل ما تحتاجه من مال وسلاح لكي تقوموا بمحاربة عدوكم وعدو المانيا، كذلك، وهي فرنسا التي استولت على جنوب المغرب وهي بصدد احتلال شماله، الامر الذي تأباه شجاعتكم الموروثة، وها أناذا بين ايديكم لازودكم بالمال والسلاح وما عليكم الا أن تشدوا من عزيمتكم، فتقوموا قومة رجل واحد.

وقد كان لخطاب الالماني اثر في النفوس وقد أحدث حماسا وبالاخص انه بين أن المال الذي سيدفعه هو البسيطة الاسبانية، ويمكن لهم استبداله بالريال الحسني في تطوان، التي كانت السوق الرائجة لاستبدال تلك العملة، كما كانت سوقا رائجة لشراء حبة الخرطوش لبنادقهم، وقد كان الاهالي مولوعين بالتجارة فيها حاملين اياها الى الريف بواسطة الزوارق، بحيث كانوا يذهبون الى تطوان في قوافل ليشتروا الريال الحسني بالريال الاسباني الرائج في الريف بواسطة ممثلي مؤسسة «منسمان اخوان» الالمانية، وقد راج تهريب الحبة والريال الحسني بواسطة المهربين من تطوان وطنجة عن طريق مرتيل، حيث تسافر الزوارق بحرا .

وقد دار نقاش في مؤتمر آيت قمرة وكان حادا حول الجبهة التي يجب أن تفتتح، هل مع الجيش الفرنسي أو مع الجيش الاسباني الذي يتعمد احتلال مركز فمركز بصورة تدريجية ومن دون ضوضاء، وقد كان من رأي الالماني أن تفتتح الجبهة في قبائل ورغة ضد فرنسا، وان تترك جبهة الشرق مع الجيش الاسباني الى وقت آخر، ذلك نظرا الى أن بقاءها مفتوحة يسهل جلب السلاح من هناك، وكذلك المال، ولكن الاهالي الحوا على فتح الجبهة مع الجيش الاسباني أيضا لانه يتقدم خطوة فخطوة بعد

ما غزا قبائل قلعية، ويجب ايقافه عند حده وأخيرا وقع الاتفاق على فتـــح الجبهتين معا، على أن يقع الثقل الاكبر على جبهة الجنـــوب .

ووقع الاتفاق على أن يعطي للفارس ريالان وللراجل ريال واحـــد بالعملة الاسبانية، وهو أجر فيه كثير من الاغراء في ذلك الوقت وان يكـــون الاداء على يد عبد الكريم الاب، الذى ينظم (الحركة)، وهكذا تكونت قوة من الاهالى تحت رياسة عبد الكريم وتوجهت الى قبائل كزناية ومرنيسة، حيث عسكروا هناك، ضد الجيش الفرنسى، مستنفرين قبائل ورغة، وقـــد تحمست القبائل الاخرى غير بنى ورياغل، فاستنفـــر زعماؤها أهاليهـــا ، فحشدت قبيلة كتامة مقاتليها تحت رياسة السيد محمد كويسن كما فعلت تركيست مثل ذلك تحت رياسة الزعيم السيد محمد السليطن من الخمليشيين وكذلك قبيلة بنى توزين برياسة عبد السلام بن القائد بميضار، وولـــد أبو الخريف من فرقة اغربيا وحمو عمر كذلك، وقد تجمعت هذه القـــوات التى هرعت الى المراكز الاماميـــة .

وفى هذا الحال، فقد انجلت للاسبانيين مرامى عبد الكريـــم الاب، وولده قاضى القضاة بمليلية، وعلى ضوء ذلك فقد فكر الاسبان أن يتحركوا سياسيا قبل أن يتحركوا عمليـــا بالجيـــش .

وقد اهتدوا الى أنه يجب تجاهل عبد الكريم وعائلته، والبحـــث عن أشخاص آخرين من قبيلة بنى ورياغل، حيث يخلق له ذلك مصاعـــب داخليـــة مع اغداق المال بالكثرة الكثيرة لاغراء بعـــض زعماء القبيلـــة للتحرك ضد عائلته التى لم تنفع فيها الى الآن الاساليب المتخذة معهـــا، ولم يكن هناك ند لعبد الكريم الا السيـــد احمد بورجلة صاحب زاويـــة آل هشام، وكان من شرفاء بنى ورياغل نسبـــا، وكانت له سيطـــرة على خمس المرابطين الذى ينتمى اليه بعصبيته، وكان له دهاء خارق وثروة محلية لا بأس بها، ورغم ان المعتاد من رؤساء الزوايا أن يتجنبوا سياســـة القبيلة ويدعو الى السلم بالتى هى أحسن، الا أن هذا الشريف كـــان لا يعبأ بهذا التقيد الذى يكبله، فراح أسوة بزعماء القبيلة يضرب فى كـــل ميادين الحياة العامة، يرأس فرقة المرابطـــين ويسهم فى مهام الحـــرب والسلم معا، وينافس عائلة عبد الكريم الخطابى فى الشهرة والمال، ورغم

قصوره من ناحية ميدان القضاء، الا أنه لم يقصر من ناحية استعمال دهائه لضمان رياسته واعتباره أحد الزعماء المرموقين، يحسب له حسابه.

وفضلا عن ذلك فقد كان له ولد اسمه عبد السلام بعثه الى تطوان للدراسة، وكان قد شب وترعرع واكتسب قوة وحماسا وأخذ يتحمل قسطا من أعباء والده السياسيه وقد كان خير من يخاف عبد الكريم هو السيد احمد بورجلة الذى توفرت فيه مؤهلات أن يكون ندا له ولعائلته، وبالخصوص فقد شد أزره بالاصهار الى ولده عبد السلام هذا من عائلتين كبيرتين، احداهما من فرقة آيت على التى كان يقول فيها جده اسى امحند أموسى، مؤسس زاوية العائلة بأنه كلما سدد سهما الى هذه الفرقة، الا وكان الحاجز الذى يمنعنى من أن أنال منها منالا، هو الكرم الموصوفة به، فلا تبلغ سهامى الى رغيف كامل بل تكل عند نصف الرغيف ـ كناية عن بدل الطعام من طرف الفرقة ـ، والمراد السهم المعنوى، لانه كان يعتقد فى أسى امحند أموسى (الكرامة) وقد تزوج أخت حد بنعالية.

وثانيهما من فرقة أجدير عن السيد موح ابقوى الذى كان يعتبر زعيما بالدرجة التى تلى زعامة عبد الكريم الخطابى فى أجدير .

وكان غرضه من الاصهار بهاتين العائلتين، تقوية مركزه السياسى فى القبيلة .

وهكذا فقد برز السيد احمد بورجلة مع الحاج محمد شدى من فرقة آل مسعود يوسف، وكان يعتبر من زعماء تلك الفرقة وكان له جاه وثراء وعصبية من ابناء عمومته، ضد مخطط عبد الكريم «الاب»، وكان الداعى الحقيقى هو التنافس بين العائلتين والتسابق لكسب الانصار، وليس خيانة للوطن، لان السيد احمد بورجلة هذا قام فى قضية بوحمارة بمجهود كبير حسبما ذكرنا فى كتابنا الثائر المهزوم، وكما سيأتى فى ملخص تلك القضية، الامر الذى برهن به على تمسكه بالوحدة الوطنية .

الا أنه هاجت القبيلة ضدهما وهاجمتهما فى عقر ديارهما فى ثورة عارمة، تتجه اليهما فى جموع، فافترقت القبيلة الى فرقتين، احداهما تتجه الى دار السيد احمد بورجلة بزاوية آل هشام، والاخرى الى الحاج محمد شدى بأجدير، فما كان من الاول الا أن احتمى بضريح جده اسى

امحند أموسى بعائلته التى كانت القبيلة تقدسه لمكانته من الولاية والصلاح، فلم تجرأ أن تدنس حرمه، بل انثنت بعد طلقات نارية متقطعة، مات فيها بعض أفراد القبيلـــة .

أما الثانى وهو الحاج محمد بن شدى، فقد اعتصم مع عصبيته من ابناء عمومته بداره، مصوبين لدى القبيلة أفواه البنادق، فاعصوصب بداره، ولم يكن للقبيلة أن تزحزحه منها، وقد تبودل اطلاق النار لايام ولم تنـــل منه القبيلة أى منال، فانكفـــأت راجعة تاركة ايــاه فى داره، الا أنه لـــم يستطع بعد ذلك أن يخرج من داره، ونظرا الى أنه فى تلك المناوشات التى جرت سالت دماء من القبيلة التى أصبحت تتطلب ثارا منه، حيث وجـــد وبذلك أصبح سجين داره الى أن تدخلت عناصر من زعماء فرقته للعفـــو عنه، لما ابداه من التوبة، ومع ذلك فقد كان عليه أن يحترس كل الاحتراس.

أما السيد احمد بورجلة الذى احتمى بضريح جده، كما أسلفنا فانه استغاث بأصهار ولده من أجدير، فجاؤوا اليه وضمنوه الى القبيلة وارسل الى ولده عبد السلام الذى كان فى تطوان والذى كان قد اشترى هناك دارا للسكنى استعدادا لمثل هذه الطوارىء، فرجع الولد من تطوان وعند قيـــام الثورة كان سيدى احمد بورجلة من أنصارها الى أن اغتاله أحد الطائشـــين الذى لقى جزاءه على يد المجاهدين فى الحـــين .

احتجـــاج فرنســـا لـــدى اسبانيـــا

بعد هذه الاحداث التى جرت فى شأن تنظيم القبائل الريفية للعمل مع الالمانيين ضد فرنسا فان المقيم العام الفرنسى المرشال اليوطى الذى لم يكن خافيا عنه تحركات عبد الكريم وولده فى مليلية والذى يعتبـــر الـــى ذلك الوقت من أصدقاء اسبانيا، احتج لدى المقيم العـــام الاسبانى فى تطوان الجنرال خوردانا، متهما اسبانيا بتواطؤها مع عبد الكريم والا لما تجرء أن يقود القبائـــل ضدها لاعانـــة الالمانيين على اثارة القلاقـــل فى قبائـــل ورغـــة .

واثر هذا الاحتجاج استدعى حاكم مليلية الجنرال اسبورو ذو الانف الاعوج بحضور الضابط رئيس القسم السياسى المكلف بسياســـة

قبيلة بنى ورياغل برتبة قائم مقام كرونيل يدعى «الريكارمى»، وبحضور ضابط آخر برتبة كبطان يدعى «بربيطا»، مكلف بقبائل كرط، ولما كان وقع لابن عبد الكريم خلاف مع الكورونيل «خوان خيل خيل» فى نفس الاتجاه فانه وبعد حوار مع ابن عبد الكريم، فى شأن سياسة اسبانيا ازاء قبائل الريف، وما تتحمله نتيجة الاتفاقات الدولية على هذه الجهة، التى وكل أمرها الى حمايتها والتى ترتبط بفرنسا فى القسم الجنوبى من المغرب، حسب تلك الاتفاقيات وبعد ما تطرق الى الاشتباهات فى سلوكه، ووالده مع اسبانيا، التى أسدت اليهما ثقتهما، ومع ذلك فان والده أثار قبائل الريف وجمعهما فى حلبة القتال، الامر الذى يعد خطرا على عملها من جهات: أولاها، اساءة علاقة اسبانيا مع فرنسا، ثانيها، تمرس القبائل على قتال الاجنبى مهما كان، ثالثها، تدفق السلاح على المقاتلين القبليين وعلى أى حال، فان عمل والده لم يكن الا بموافقته معه، وعليه فانه يطالب منه أن يكف على هذا الفعل، وان يوصى اباه بأن يرجع الى الجادة، والا استطاع هو أن يرده الى الجادة بوسائله الخاصة .

وهنا ثارت ثائرة ابن عبد الكريم، فخرج عن الحذر الذى كان لزمه الى ذلك الوقت، فنفث ما فى صدره من كمائن الاحقاد التى يخفيها للاستعماريين الفرنسى والاسبانى، واستمر فى فورة من الغضب الذى لم يملك بها نفسه حتى ابان عن كل الحقائق الوطنية وفى هذه المرحلة فان الحاكم اسبورو لم يتمالك نفسه من جهته فثار فى وجه ابن عبد الكريم وأمر بالزج به فى سجن مليلية، وكان ذلك عشية ذات يوم أربعاء من عام 1915 م. وسجن فعلا بقلعة البرج بمايلية واستمر مسجونا لمدة سنة، وكانت هذه القلعة على شكل القلاع الاثرية القديمة، بنيت على شاهق محاطة بخندق عميق مجصص بالاسمنت المسلح يتصل بابها الوحيد بقنطرة من الخشب ممتدة الى الطرف الخارجى للمرور عليها نهارا، فاذا غربت الشمس ازيحت القنطرة، فتبقى القلعة معزولة عن العالم .

وكان مكلفا بالحراسة على المعتقلين المجرمين جنود اسبانيون بقيادة ضابط برتبة الرائد، الا أنه ورغم هذه الحراسة، فقد استأنس على مرور الايام الجنود بما فيهم الضابط الرئيسى الى اخلاق السجين ابن عبد الكريم

وسهلوا له اتصال أفراد عائلته وأصدقائه، فكان الزوار يغدون ويروحون نهارا، وكان السيد محمد شراط وهو ولد موح ابقوى صهر عبد السلام بورجلة كثيرا ما يزوره فى السجن وكان شابا قويا وله نوع من ثقة الاسبانيين لعلاقة المصاهرة مع السيد احمد بورجلة، وكان يأخذ ورقة الزيارة من عند رياسة حراسة القلعة ليبقى معه كل النهار يؤنسه وقد حكى لى أنه عندما كان يزور ابن عبد الكريم يجده يدخن بحرارة ويسأله عن أحوال المجاهدين الذين فى الجبهة مع فرنسا ونتائج المعارك، ثم يتطرق الى سب اسبانيا، وكان يقول انها تآمرت عليه، لانها تعرف أن الدائرة تدور عليها، ولكن لابد من ذلك، وان ذلك اليوم آت عن قريب ولا ريب، ومن جملة من يزوره السيد عبد الكريم بن الحاج بودرة، وكان رجلا شجاعا سخيا وهو أخو السيد محمد بن الحاج بودرة زوج أخت ابن عبد الكريم الذى كان ذهب مع الالمانى الى بنى ورياغل، وكان يدخل عليه من أصدقائه الشريف اسماعيل الشاذلى من قبيلة قلعية، وقد اقترح عليه ذات يوم من سنة 1916 م. ان يهربه من السجن، فلما وافق ابن عبد الكريم على ذلك هيأ الشريف المذكور حبلا خبأه تحت جلبابه ودخل به اليه على أن يدليه من طاقة زنزانته ليلا فاذا نزل الى وسط الخندق مد اليه حبلا آخر من جانب الخندق الجارجى فيجذبه به هو وثلاثة رجال آخرون قد أعدهم لهذا الغرض، وفى الموعد المحدد القى ليلا ابن عبد لكريم الحبل وشده الى الطاقة وتدلى مع الحبل، ظانا أن الحبل وصل الى قاع الخندق، فلما وصل الى آخر الحبل، وكان بقى بينه وبين أسفل الخندق مسافة فسقط فى الخندق وكان كسب بدانة داخل السجن الذى أرغمه على عدم الحركات الرياضية وتكسر من رجله اليمنى ولم يستطع الشريف الشاذلى مع رفاقه أن يعملوا أى شىء لفائدته، وبقى هناك الى الصباح حيث التقطه جنود الحراسة وأرسل فورا الى المستشفى، حيث عولج بعناية الى أن شفى، وفى أول الامر اقترح عليه الاطباء قطع رجله، ولكنه امتنع نظرا الى أنه فهم أن ذلك بالايحاء من قادة الجيش، ثم رد الى نفس السجن وفرضت عليه تقنينات فيما يخص زيارة أهله وأصدقائه، وكان لا يدخل أحد الا بعد التفتيش الدقيق وقد كان يزوره من أجدير السيد

محمد شراط والسيد عبد الكريم بن الحاج بودرة، السالفا الذكر .

ولما يئسوا من أية حيلة للخروج به من السجن اقترحـــوا عليه أن يعمدوا الى طريقة التسامح من طرف الاسبانيين بواسطة عبد الســـلام بورجلة، وهو زوج أخت شراط، وعندما وافق ابن عبد الكريم على ذلـــك، فان الشخصين الوسيطين سافرا الى بنى ورياغل للاتصال بالسيد عبد السلام بورجلة الذى يوجد فى دار أبيه بزاوية آل هشام وكان سفرهما عن طريق البحر من مليلية الى جزيرة النكور (الحسيمـــة) على ظهر باخرة البريـــد التى تربط بين معاقل الجيش الاسبانى من مليلية فجزيرة الحسيمة فحجرة بادس وتنتهى الى سبتة، ثم تكر راجعة من حيث أتت، وذلك على رأس كل أسبوع، وعندما نزلا الى اليابسة بأجدير ذهبا توا الى الفقيه السيد عبـــد الكريم ــ الاب ــ ليعرضا عليه الفكرة، وقد استمهلهما الى غده لكى يخلـــو لنفسه ويوازن بين قبول العرض وعدمه وعلى كل حال، فان القاء القبض على ولده من جهة الاسبان قد ازاح عنه كثيرا من مصاعب القبيلة، فأصبح الاتهام متوجها الى أشخاص آخرين ينافسونه، فكان عليه أن يهتبل الفرص لوضع مركزهم مزعزعا وسط انسكان، وكان من رأى الفقيه عبد الكريـــم، أنه قاد السفينة بين الانواء والصخور وأنه قرب أو كاد أن يصل بها الـــى شاطىء النجاة، مما يجعل مخططه يقترب شيئا فشيئا الى تحقيقه وان الظلام الدامس الذى خيم على ذلك المخطط الى ذلك الوقت أصبح ينقشع، ويبدو ضياء الفجر الذى سينير السبيل وان كان يغطى بقشع من السحب الملبدة التى تحجب النظر الى بعيد، ومع ذلك فان اليأس القاتل الذى ران على عقله أخذ ينحسر شيئا فشيئا، وقد خرج بالنتيجة التاليـــة :

1 ــ ان سجن ولده كان خيرا وبركة فى بعض الحالات، ولم يكـــن شؤمـــا كلـــه .

2 ــ وان محاولة هروبه التى خلفت له كسورا فى رجله، حيث عولج بعناية فائقة من طرف الاعداء، يعتبر ارهاصا بأن المخطط يسير الى الامام، ولا يتأخـــر قيـــد انملـــة .

3 ــ فان أنظار المجاهدين التى كانت قد تحولت عنه وتركته وعائلته

قد تسلطت عليه من جديد في نظرة أخرى، وهي منحه الثقة واسترجاع ما كان ضاع منها .

4 – ان هؤلاء الجماعات من الذين اغراهم المال والسلاح، وهم أغرار سيرجعون الى الجادة بوحي من ضميرهم الوطني .

وعليه، فان مصلحة المخطط أن يدع الوسطاء يعملون لاجل انقاد ولده الاكبر من السجن، لانه وقد استكمل المرامي التي من أجلها وضع موضع المخاطرة، فلم يبق الا أن يرحل الى حيث عرين الاسد للبدء في المرحلة الشاقة الهامة .

5 – انه يعلم في قرارة نفسه، وبوحي من الحساسية وفراسة المؤمن، ان السيد محمد شراط لم يذهب بالاقتراح الى والده الا بعد أن اختلى بزوج أخته عبد السلام بورجلة، وان هذا الاخير لم يعط كلمة السر الا حفظا لماء وجه الجيش الاسباني الذي أصبح تلوك الالسن غدرهم بالرجل الذي يحتل مكان قاضي القضاة، وهو مكان مرموق، فضلا عن وجود أفراد آخرين من العائلة نفسها تحت انظارهم، وفي بلدهم، وان تصرفهم هذا وضعهم موضع نزع الثقة منهم التي عملوا لاكتسابها طيلة مدة مديدة، لم ينالوا منها الآن الا قسطا ضئيلا جدا عند جماعة لا تزن وزن عائلة الخطابي، رغم الصوائر الباهضة .

وفعلا فقد قر رأيه على أن يوافق على المسعى، وفي الصباح اذن للوسطاء أن يمضوا في عملهم، فذهبوا توا الى دار السيد عبد السلام بورجلة بزاوية أبيه، فما كان من هذا الا أن حزم أمره للسفر عن طريق جزيرة الحسيمة في الباخرة قاصدا سبتة، ثم تطوان، حيث دخل على المقيم العام الاسباني الذي كان أشعر مسبقا من طريق حاكم الجزيرة، وبعد الحوار، قر رأي المقيم العام على القاعدة التالية لاطلاق سراحه :

أولا: ان يحاكم ابن عبد الكريم أمام القضاء العسكري في مليلية، الذي يصدر تبرئته بعدما يقدم ابن عبد الكريم ولو شبه اعتذار.

ثانيا: فاذا رغب في المكوث في منصبه في مليلية، فان المقيم العام يرحب به، على أن يتعهد بعدم اثارة المشاكل أمام الجيش الاسباني في الريف .

ثالثا: اما اذا رغب فى اللحوق بأجدير بمسقط رأس عائلته، فانــه يعطى رهائن ثلاثة من عمومتــه يمكثون فى مليليــة، ولا يتحركون منهــا، ويوضعون تحت رقابة المخابرات العسكرية، على أن يتعهد بشرفــه أن لا يحدث مصاعب امام سياسة اسبانيا ازاء الاهالى فى الريف، وبالاخص أمام الجماعة التى تعتمد عليها هناك، على أن لا يحمل معه أمواله المودعة فى بنك اسبانيا بمليلية، ورجع بورجلة هذا الى أجدير يحمل هذه المقترحات الى الفقيه عبد الكريم الخطابى، الذى أحاله على ولده فى مليلية، قائلا: انه يوافق عليها اذا هو راقتــه .

وحالما وصل بورجلة الى مليلية، فقد عرض على ابن عبد الكريم مشروع الاتفاق، ووافق حالا على البندين الاول والثالث ـــ أى المحاكمة وبند الرهائن ـــ كما وافق على الشطر الاول من البند الثالث الا أنه تردد فى الشطر الاخير من البند الثالث الذى يتعلق بالتعهد من قبله، وقد عرض عليه أن ينفح ألف ريال شهريا على أن يقبل هذا الجزء من هذا البند، وهو عدم اثارة المشاكل أمام جماعته، وقد وافق ابن عبد الكريم على عــدم سحبه لامواله المودعة، ولم يقبل المــال .

وضمن هذا الاتفاق فقد ألفت محكمة عسكرية لمحاكمته ـــ ولــو صوريا ـــ فحوكم على تهمتين اثنتين: أولهما قيامه بأعمال تخل بالاتفاقيات المعقودة بين اسبانيا وفرنسا، وثانيهما محاولة الفرار من السجن. وقــد اندفع الجنرال «الريكارمى» متطوعا للدفاع عن ابن عبد الكريــم، فألقى دفاعا أمام القضاء العسكرى، ملقيا اللوم على قيادة الجيش، التى زجــت بــه فى السجن قبــل التحقيق، والحال أنه كــان يحتل مركزا يجعلــه فى الحصانة القانونية، وأما عن التهمة الثانية، فان المسؤولية تقع على نفــس القيادة اذ تركته فى السجن لمدة طويلة من دون محاكمته، ليعرف مــدى المدة التى يقضيها مسجونا ولذا فان اليأس تسرب الى نفسه، وكان لزاما عليه أن يطرق أى حل يبدو متيسرا أمامه، وليس ذلك الا الفرار من السجن.

وعلى ضوء هذا الدفاع أصدرت المحكمة العسكرية تبرئتــه مــن التهمتين معا، وصرحت برد الاعتبار اليه كصديق لاسبانيا، حسب حيثيات الحكم، واثر ذلك شرع فى تطبيق البند الخاص بالرهائن، لرغبته ان يلحق

بعائلته بأجدير، وقد وقع الاتفاق بين والده وبين حاكم جزيرة الحسيمة بواسطة عبد السلام بورجلة، على تعيين الاشخاص الآتية أسماؤهم كرهائن فى مليلية وهم :

1) ولد السيد مصطفى أبودرثن، ومما تجب الاشارة اليه أن السيد مصطفى هذا من فخذة ءال زرعة وهى فخدة عبد الكريم .

2) امحند بن حدو ويكنى امغار من عائلة ابن عبد الكريم .

3) شخص آخر ولعله من أولاد حمادى غياية .

وهكذا سافر الرهائن على متن باخرة البريد الى مليلية، واتصلوا بابن عبد الكريم، والقى اليهم كلمة السر «أن يصبروا فان انقاذهم دين عليه لازم» .

وحين سلمت الرهائن الى حاكم مليلية، رجع ابن عبد الكريم الى عائلته بأجدير، حيث تقاطرت القبيلة لتحمد له السلامة، كما اغتبط والده بجمع شمل العائلة، وعمل هذا الاخير على عقد الزواج لولده على بنت السيد محمد بوجبار من أجدير، وكان السيد عبد السلام بورجلة فى هذه الفترة كثير التردد على ابن عبد الكريم وقد شجعه على الزواج، فكان يوم العرس يوما مشهودا، حضره بورجلة هذا مع أعيان فرقة المرابطين، ومع جماعة أنصاره وقد حمل من الهدايا والذبائح شيئا كثيرا كما تبارى القوم فى اطلاق الطلقات النارية من بنادق (الموزر) الاسبانية التى يتنافس القوم فى اكتسابها وعلى أى حال، فان هذا الحفل خلف تساؤلات كثيرة، وكان سببا لكثير من التفكير الطويل الذى استوحاه موقفان متناقضان :

أولاهما: ظهور سنحة السجن على العريس التى تركته يعرج من رجله اليمنى مع سمنة غير معتادة ووجه وضاء مدور بلحية سوداء فى تفكير عميق، علامة على الاعباء الثقيلة التى توشك أن تقسم ظهر الجمل.

وثانيهما: ظهور موكب جديد من الجماعة الموالية للاسبان أمام الحاضرين من أهالى القبيلة التى حضرت الآن لان تبارك تلك العائلة التى لم يكن ما توسم به الا رجما بالغيب .

وقد جرت هذه التساؤلات الى تفكير آخر فى القضية الكبرى، الا وهى مرامى اسبانيا ازاء الريف فقد بدا للجمهور أن تبختر هؤلاء أمامهم

بهذا الوجه السافر، يعتبر تحديا القبيلة التى كانت بالامس تهرع للجهاد ثم الآن تختلط مع جماعة أخرى وجها لوجه، لا تحـــرك ساكنـــا، اذا ما هو الذى حصل؟ اتمالاءت العائلتان معا على قضية الريف، واقبر الجهاد؟، وفى خضم هذه الهواجس التى لا تخلو من الهمسات بين الزعماء بعضهم البعض.

وعلى كل، فان العريس يجب أن يترك وشأنه لقضاء شهر العسل، بعد طول المحن التى عاركته فصقلته واكتسب مرانا فى مدارس السياســـة الاسبانية الملتوية، كما اكتسب خبرة فى مهامه الصحفية التى كانت تصلـــه بوصفه ذلك، صحف المشرق العربى التى كانت تلهب حماسا عقب الحرب العظمى التى أعقبتها تلك الحركات المولدة لمطامـــح الحرية فى الشعـــوب التى احتكت بعواقب تلك الحرب، فهذه الجزيرة العربية تحت قيادة الشريف حسين انهاشمى تحبر احتجاجا تلو الآخر لدى الانجليز، الذين غـــدروا بوعودهم المبذولة سخية من قبلهم، للشريف حسين وللعرب أجمعين، ابان المعامع لاستقلال البلاد العربية من الخليج الى قناة السويس.

وهذه تركيا الفتاة، تنهض بقيادة مصطفى كمال، بعد الهزيمـــة التى منى بها الباب العالى.

وهذه مصر تحضن أمثال سعد زغلول، زعيم حزب الوفد والتى انجبت جمال الدين الافغانى ومحمد رشيد رضى تحمل أفكارهم العامة، مجلة العروة الوثقى، وجريدة المنار، الملتهبتان حماسا، هذا من جهة ومن جهة أخرى، فان ابن عبد الكريم بفضل مركزه الاجتماعى والسياسى وبفضل اتقانه للغة الاسبانية، كان يعرف ما يجرى فى مدريد بين المؤيدين لمواصلة الحرب فى الشمال والمعارضين لغزو تلك الاصقاع التى لا تأتى بربـــح كبير بالنسبة للدماء الاسبانية التى تسيل هناك بغزارة، وقد رجع بذلـــك من مليلية بغير الافكار التى رجع بها من فاس قبل ذلك، كما رجع أخوه انسيد محمد الخطابى من مدريد باستدعاء من أبيه بدعوى حضور حفلـــة زفاف أخيه الاكبر، وكما رجع عمهما من جزيرة الحسيمة، وقطع الجميع صلته مع الاسبان.

وفى هذه الاثناء كان الجيش الاسبانى المعسكر فى قبيلة قلعيـــة التى خاضت معه ما ينيف عن مائة معركة برئاسة البطل الخالد الشريف

سيدى محمد أمزيـــان، والتى ابتدأت عام 1908 م. حيث قاد الجنـــرال «مارينـــا» حاكم مليلية المجندين الاسبانيين، فكبده المجاهدون هزيمـــة منكرة، قتل فيها من جملة من قتل الجنرالال «بينيطو، وفكرنو»، وعندما وصلت التعزيزات العسكرية من اسبانيا قام الريفيون فى كمين بسحـــق قافلة عسكرية عندما قام الكرونيل «بريمو ذى الرفيرا» بهجوم مضـــاد برى، ثم قام انجنرال مرينا بعدما وصلت التعزيزات الاسبانية بهجـــوم بجيش قوامه 40 ألف مقاتل مما اضطر المجاهدين الى التقهقر .

وكانت من أشهر تلك المعارك الدامية، هى معركة الديوانة ــ معركة احد بنى شيكار ــ معركة مرسى اركمام بكبدانة ــ معركـــة تنكمارت ــ معركة سلوان ــ معركة اسغنغان ــ معركة ازرورا ــ معركة ازروهمار ــ معركة الحمام ــ معركة وادى الكرت وأخيرا معركة تكرمـــين، وهى التى استشهد فيها سيدى محمد أمزيان، لما كان يخوض المعركة على جـــواده الازرق، وقد كلفت هذه المعارك اسبانيا ما يفوق عن مائة مليون بسيطـــة انتى تعد أضخـــم ميزانية حربيـــة فى ذلـــك الوقت، وقد ترتب عن ذلـــك هيجان (1) فى اسبانيا، نجم عنه اسقاط الحكومة الاسبانية، ولما خلفتهـــا حكومة أخرى وأطلعت على التكاليف الباهضـــة، أمرت بتجميد القتـــال فى الريف، نظرا لاقتناعها، بأن الارياف مقاتلون مغاور، لا يحتقرون فى ميادين المعارك، وقد عمد العدو بعد استشهاد هذا المجاهد البطل الى وقف القتال، معتمدا على أسلوب المراوغة واختلاس احتلال المراكز خفية وبدون ضجة، مع فتح الابواب الى الاهالى ليغدوا ويروحوا الى مليلية من دون رقابـــة تأنيسا لهم مع الفوائد المادية التى يدفعها بسخاء، فكان يرسل ثلة مـــن الجنود لاحتلال الموقع الذى يقرب الى معسكره، وعندما يهدأ الامر ينتقل الى مركز آخر بمعنى أنه ارتكب السطو على المراكز واحدا فواحدا، الى أن وصل الى تفرسيت، وهى قرية تعتبر عنق القنينة بالنسبة لكونها صلـــة

---

(1) وهو الهيجان الذى يسمى بأسبوع برشلونة الدامى الواقع فى بحـــر عام 1909 والذى ترتب عنه سقوط حكومة ماورة وصعود لموريـــط زعيم المعارضة الى رياسة الحكومة الاسبانية .

الوصل بين قبائل شتى، فشرقا توجد قبيلة مطالسة، وجزء من قبيلة بني وليشك، وشمالا يوجد الجزء الآخر من هذه القبيلة بني سعيد، وغربا توجد قبيلة تمسامان بجبالها العاتية، وجنوبا قبيلة بني توزين التي تشرف بقمم هضابها عليها، بينما تحتضن عينا معينا من الماء يندفع من الاخدود، اندفاع الشلال، مما كسب لارضها خصبا تحولت الى جنات من عنب وزيتون وفواكه .

ولما وصل الى هذه القرية جمد حركاته منتظرا الفرص التي تسنح لكي يتحرك من جديد، لاستيصال البقية من القبائل، في انتظار أمر حكام جزيرة الحسيمة التي تعد القبائل التي لم تحتل بعده من مشمولات سياستها العامة .

وفي غضون هذا الانتظار حدث حادث أقام الجيش الاسباني وأقعده، ذلك أن زعماء قبيلة بني ورياغل، قد استفزهم التعاظم الذي أظهره جماعة المتعاونين انطلاقا من حفلة عرس ابن عبد الكريم، فقد جعلوا ديدنهم أن يتنقلوا من قرية الى قرية، حيث يحلون على أصدقائهم الذين يعدون لهم الولائم الغير المألوفة لدى الاهالي، فيعمدون الى شراء الدجاج من الارامل والمعوزين، وقد سارت لدى الاهالي حفلات هذه الجماعة مضرب الامثال، وكانوا يكونون في السوق الذين يؤمونه محط أنظار الاهالي، أما باحتقار من طرف المجاهدين، وأما بالتعظيم من طرف أصدقائهم المنضوين تحت لواء الريالات المغدقة عليهم .

وهكذا أتاحوا الفرصة لخصومهم وعلى رأسهم الفقيه عبد الكريم، فحزموا أمرهم لجمع شتات القبيلة من جديد بعد ما كانوا فقدوا البطل القاضي سي محمد العزوزي قبل ذلك، والذي ذهب ضحية عمله المتواصل للم ذلك الشتات ضد الغزاة، كما سيأتي :

وفي ذات أسبوع نمى الى زعماء القبيلة أن تلك الجماعة ستذهب الى سوق احد المرابطين بوادي تيسر، الذي كان يعد سوقا تحت سيطرة حمو بن الحاج عيسى من زاوية سيدي عيسى، وفضلا عمن ذكر، فان الجماعة كانت تتكون من موح اقزن لقبا، وموح بن علوش اقيعان، وعبد العزيز بن موح موحند، وحمادي بن عمر ابقيوي، وقد باتوا ليلة

الاحد بدار حمو بن الحاج عيسى وأبلغهم بعض أصدقائهم أن يتخلوا عن فكرة الذهاب فى غده الى السوق، لان القبيلة لهم بالمرصاد، فأبى حمو بن الحاج عيسى أن يذعن لهذا التهديد، واعتبره تحديا له فى سوقه الخاص به، وحلف ليرد السوق مهما كانت النتيجة .

وقد تصدى لهم فى السوق جمهور الحاضرين تحت رياسة شعيب بن حمو الطاعى البوعياشى وعمر بن حمادى من آل امحند ايحيا، والسيد امحند اكروح، واستنفروا كل من فى السوق، وعندما انحدروا المنحدر الذى يصل الى الوادى، كانت جماعة المجاهدين قد استعدوا محتمين تحت اعشاب الغابات فما أن وصلوا على حافة الوادى حتى انهال عليهم الرصاص من كل جهة، فاندفعوا الى خربة بمقربتهم ينادون بكلمة العفو، ولكن كان غضب الجماهير قد بلغ منتهاه، فلم يكن فى مقدور أحد أن يرحمهم، بل هرعوا جميعا لرميهم بالحجارة فى الخربة التى سقطوا فيها للاجهاز عليهم، وكان الواحد منهم اذا رمى بحجر عليهم يردفه بقوله: خذ هذه الرجلة من لحم الدجاج، أو هذه الصدرة ايها الصديق، ذلك تعريض بما كان يشاع عليهم من اختيار الدجاج فى حفلاتهم .

وبهذه المذبحة سقط فى ايدى الاسبان، كما سقط فى أيدى انصارهم، وقد كان حاكم جزيرة الحسيمة الذى كان يدعى «سيبانطو»، وكان برتبة كرونيل يساعده فى القسم السياسى ضابط برتبة كبطان يدعى «كنديدو»، وكان هذا الاخير يعرف اللسان المحلى كأحد أبناء الريف، وظف لهم مبلغ ثمانية آلاف ريال أسبانى شهريا، يوزعه على من يسير فى ركابه .

وقد تمكنت هذه الجماعة من استمالة جمع من زعماء القبيلة على النحو التالى :

— من فرقة المرابطين : حمادى بن الحاج شعيب وشعيب بن الحاج التهامى وسليمان أوراغ .

— ومن بنى عبد الله: عمر بن السمحند من تزاغن وغيره .

— ومن بنى بوعياش: موح أزرقان وحمادى مونة وسلام محمادى وموح بن حميش اصوفى وتهامى بن شعيب .

— ومن آيت على: امحند بن الحاج محمد ،

ـ ومن آيت يوسف وعلى: الحاج محمد شدى وموح ابقوى والقائد السيد بوبكر .

ـ ومن بقيوة السى بيرا والسيد دادى بن حدو بن على وعبد الرحمن اظليلح وامحند بن الجيلالى وعلى بن الحاج التهامى .

ـ ومن بنى حديفة: روحند وعمر بن صديق وبو السندروس .

وبعد مذبحة سوق احد المرابطين، انكمش هؤلاء وقبعوا فى ديارهم محتمين بعصبية أقاربهم الخاصة، ينتظرون الدور المؤلم من غضبة الجماهير، ولكن الفقيه عبد الكريم أتجه بهذه الجماهير اتجاها آخر حتى لا تتحرك الضغائن الدموية مع أبناء جلدتهم .

وذلك انه بعد هذه الحادثة انقطع تظاهر اتباعهم فى الاسواق والقرى، فدعا القبيلة الى عقد مؤتمر باربعاء سيدى بوعفيف، وقد تقاطر الناس لسماع كلمة الاشارة التى سيتوجه بها الفقيه عبد الكريم اليهم اثر مرحلة الانتصار على جماعة جزيرة الحسيمة، وقد كانوا يظنون آن المرحلة الاخرى هى استئصال البقية الباقية، الا أنه لم يقتنع بهذا التفكير، بل وجههم وجهة آخرى وهى تجهيز الحملة الى العدو بتفرسيت التى لم يبق له الا مرحلة أو مرحلتان يقطعها، فاذا هو بسهول نهرى النكور وغيس، قائلا لهم ان العدو يسر كثيرا اذا نحن اشتغل بعضنا ببعض، وعليه، فان الآكد هو تولى وجهتنا اليه، وقد وجه نداءا اليهم بأن يقلعوا على صنيعهم ويلتفوا حول اخوانهم ووجد نداؤه آذانا مصغية، فجهز حملة توجه بها الى تفرسيت فعسكر على مشارف القرية من قبيلة تمسامان وبث قومه بين الشعاب والوديان، الا آنه لم يطل به المقام، فسقط مريضا، ويقال بأنه بفعل سم دس له فى طعام عند الشخص المدعو عبد السلام التفرسيتى، بايعاز من قيادة الجيش الاسبانى بتفرسيت، وجل من تحدث الى على ذلك لا يستبعدون ذلك، بل يؤكدونه، نظرا لان هذه الخديعة من الاغتيالات كان الاسبان يركنون اليها، ومن قبل حادثة سم الفقيه السيد عبد الكريم بنحو ثلاث سنوات، كانوا قد عمدوا الى اغتيال بطل آخر من نوع السيد عبد الكريم، وهو القاضى السيد محمد العزوزى، الذى ذهب ضحية اغتيال

باطلاق رصاصة من أحد أفراد عمومته الذين رشتهم قيادة جزيرة الحسيمة كمـــا أسلفنـــا .

وعلى كل، فان كل ما يقال عن هذه الجماعة التى سقطت فى الفخ ، انهم حدعوا للفراغ الذى كان موجودا فى هذه الجهة، والا فان الذين بقوا فى الحياة منهم أبلوا البلاء الحسن فى الجهاد، واستشهد من استشهد منهم رحمهم الله، فكانوا مثالا للوطنية الصادقة، والمجاهدين الابرار، وخلفـــوا ذرية لا يزالون يعملون فى الحقل الوطنى، حفظهم الله .

الوســـط الطبيعى والتاريخى لارضيـــة المعركــة

قبل أن نتابع تحليل الاساليب الاستعمارية، التى دفعت اسبانيا، كدولة أوربية استعمارية الى غزو الشمـــال .

وقبل استقصاء أحداث المعارك التى جرت على الجبهات الاربـــع: جبهة كرط، جبهة الجبالة، جبهة ورغة، جبهة الحسيمة، يجدر بنا القـــاء ضوء ولو على الاجمال، على أرضية تلك البطولات، وصلا لحلقات حياتهـــا التاريخية، والحضارية، والاجتماعية، لكى يتسنى للقارىء أن يتعرف على تلك الاصقـــاع، التى قامت بواجب الجهاد، لحفظ الوحدة الوطنية عبـــر التـــاريـــخ .

ويعتبر هذا الفصل وما بعده مدخلا للأبحاث، التى تدور حول حـــرب الريـــف .

الوسـط التـاريخى والطبيعى لارضيـة المعركـة

الـريـف :

ان حوضا منبسطا ما بين غمارة غربا وهضاب نهر ملوية شرقـا امتدادا على ساحل البحر الابيض المتوسط شمـالا ومشرفا على عتبـة تازة وسهل مسون جنوبا هو الذى يدعى بالريف، وفى فترات من التاريخ كان يدعى بالنكور، تسمية له باسم عاصمة امارته «مدينة النكور» وقـد حدد بالضبط لدى ابن خلدون بهذه الحدود كما فى بحثنا حول هذه المدينة، والتى نعيد نشره هنا توحيدا لمظان البحث من جهة وتجديد الطبع لها بعد نفاذ الطبعة الاولى من جهة أخـرى .

وحسب هذا التحديد، فانه يشمل قبائـل الريف الخالصة التى تستعمل اللهجات الريفية كلغة تخاطب، لا لغة كتابة أو تعلم، التى هى اللغة العربية الفصحى والتى يبرع فيها أبناؤه براعة، وهذه القبائل تبلـغ نيفا وعشرين قبيلة، منها ابتداء من الشرق بنى يزناسن – كبدانـة – قلعية – أولاد ستوت – بنى بويحيى – مطالسة – بنى سعيد الريفية – بنى ولشك – تفرسيت – تمسامـان – بنى توزين – كزنايـة – وهى قبائل بطيوة التى قال عنها صاحب المقصد الشريف (1) فى التعريف بصلحاء الريف: وقبائل بطيوة هم من وادى النكور من حوز المزمة الى وادى ملوية، وهذا هو الذى فى المعجب (2) أيضا اذ قـال فى صدد محمد ابن ادريس الملقب بالمستعلى بالله انه لما طرده بادس ابن حبوس عن مالقة عام 449 هـ. انتقل الى مليلية وبايعه شعب بطيوة (3) .

---

(1) مخطوط بالخزانة العامة بالرباط تحت عدد 110 قرأها ناسخها على مؤلفه، ومخطوط كان من ممتلكات الفقيه العلامـة السيد الحـاج احمد الرهونى وقد تبرع به قبل وفاته على خزانة تطوان .

(2) صحيفـة 68–204 .

(3) من برابرة زناتة حسبما فى روضة النسين فى دولة بنى مرين ص 5.

هجرة قبائل زناتة الى الريف :

وقد اختلط بهم قبائل من زناتة هاجروا اليها من المغرب الاوسط نتيجة انتهاء ملكهم بموت الكاهنة داهية التى تملكت جبال أوراس، وكانت لها وقائع مع الفاتحين العرب، ففى ابن خلدون :

وافترق جراوة أوزاعا بين قبائل البربر، وكان منهم قوم بساحل مليلية، وكانوا آثر بين جيرانهم واليهم ابن أبى العيش لما غلبه موسى بن أبى العافية على سلطانه بتلمسان، أول المائة الرابعة (الهجرية)، حسبما نذكر، فنزل عليهم وبنى القلعة بينهم الى أن خربت بعد ذلك .

«والفل منهم بذلك الوطن الى الان لهذا العهد مندرجون فى يطوفت ومن اليهم من قبائل غمارة» (1) .

ولا زالت قبيلة بنى توزين تحتفظ الى الآن باسم أحد بطون زناتة مع تحريف فى حرف الجيم لقرب مخرجه من حرف الزاى، ويدعى هذ البطن من زناتة «ببنى توجين»، وهم أخوة بنى عبد الواد، ينتسبون الى بنى بادن بن محمد، وهم من قبائل بنى واسن التى كانت تسكن ضفاف ملوية، ففى ابن خلدون (2) «فذكر فيهم من كان على ملوية وصا (3) .

---

(1) صحيفة 18–ج–31 طبعة دار الكتاب اللبنانى .
(2) الجزء 31–ص–121 طبعة دار الكتاب اللبنانى .
(3) وادى صا (زا) شرقى توريرت يصب فى ملوية عند المحل الذى يعرف الآن بملتقى الوديان، توريرت هذه هى الآن مدينة عصرية وكانت قديما قصبة بناها السلطان يوسف المرينى، ففى الاستقصاء –ج–ث–ص–76 وقد كانت تخما لبنى مرين وبنى عبد الواد (يعنى التلمسانيين) فنصفها للسلطان يوسف (المرينى) ونصفها لعثمان بن يغمراسن، ولكل واحد منهما عامل من ناحيته، وفى سنة 694 هـ. خرج السلطان يوسف لغزو تلمسان فطرد عامل ابن يغمراسن وشرع فى بناء الحصن الذى هناك، فأدار سوره وشيده وركب أبوابه مصفحة بالحديد، وكان يقف على بنائه بنفسه من صلاة الغداة الى المساء،

من قبائـــل بنى واســـين» فذكـــر منهم بنى واسن، لان تلـــك المواطـــن هى مواطنهم قبل الملك، وفى هذه الطبقة منهم بطون، فمنهم بنو حريـــن وهم أكثرهم عددا وأقواهم سلطانا وملكا وأعظمهم دولة، ومنهم بنـــو عبد الواد يتلونهم فى الكثرة والقوة، وبنـــو توجين من بعدهم كذلك .

أما القبائل الريفية الاخرى وهى بنو ورياغـــل وبقيوة ــ وبنـــو يطفت ــ وبنو بويفرح ــ وبنو اكميل ــ ومسطاسة ــ ومتيوة الريـــف ــ وتركيست ــ وبنو عمرت ــ وبنو مزدوى ــ وزرقـــلت ــ وتعزويـــت ــ وبنو احمد ــ وكتامة فهى قبائل صنهاجة، وقد اختلط بهم زناتة أيضا لما تقدم عن ابن خلدون، فقد جاء عن المقصد الشريف، قوله غاب عن بلد بقيوة سائحا فى جبال صنهاجة من حوز بادس فمات فى جبل ببنى كميل وفى موضع آخر وقد قدم علينا رجل أحمق من بنى جميل من صنهاجة بادس .

الا أنه مما يلاحظ أن سكان ضفاف وادى النكور من العدوتين قـــد يسمون ببطيوة، فمثلا توجد حومة بمدشر اغميرا يدعون بطيـــوة الى الآن وهـــم فى قلب قبيلة بنى بوعيـــاش من بنى ورياغـــل قـــرب مدينـــة النكـــور التاريخية .

وهذا الاطلاق الذى عبر عنه المؤرخون الاقدمون، كابن خلـــدون والبكرى هو الذى كان يعرف بامارة النكور، وهو ما يعرف الآن بالريف، وهو يشمل اقليمين اثنين كاملـــين: هما اقليم الناظور واقليم الحسيمـــة ويشمل اجزاء من اقليمى تازة ووجدة، أما اقليم الناظور، فكان يسمى فى الاصطلاح الادارى أيام الاستعمار، بمقاطعة كرط، باسم الوادى الذى يخترق قبائل بنى توزين وبنى سعيد وقلعيـــة .

واقليم الحسيمة كان يسمى مقاطعة الريف، نظرا لوجود القبائل الريفية الخالصة وهى قبائل صنهاجـــة بادس على ما فى كتب التاريـــخ،

لا يغيب عن العملة الا فى أوقات الضرورة، وفرغ من بنائه وتحصينه فى رمضان من السنة المذكورة ولما تم شحنه بالعسكر والسلاح وعقد عليه لاخيـــه أبى بكر بن يعقـــوب وكنى أبا يحيى وانكفـــأ راجعـــا الـــى الحاضـــرة .

أما وجه التسمية بالريف، فقد قيل أن العرب الذين نزلوا بهذه الجهة سألوا زعيمهم أين يستقرون، فقال لهم ريفوا هنا – أى أرعوا غنمكم ريفا (1) .

الاطلاق الثانى :

على أن كتب التاريخ المتداولة أيضا تطلق الريف على ما يشمل القبائل من مدينة سبتة وطنجة غربا وتلمسان شرقا، فتشمل أراضى سلسلة جبال الريف الممتدة على شكل قوس بساحل البحر الابيض المتوسط، والمشرفة عليه مباشرة، ففى المقصد الشريف قال: ثم أن الاديب المحقق المتفنن أبا الحجاج يوسف ابن الزيات أتى فى كتابه الموسم بالتشوف الى رجال التصوف، بآيات، وذكر أن الحامل عى تأليف ذلك الكتاب ما أهمله من تقدم من المصنفين والكتاب من ذكر صلحاء المغرب الاقصى الى أن قال وبالغ فى ذكر المصامدة مظهر الكل شيخ محاسنه ومحامده، ولم يعرج فى تلك الاحياء عن ذكر احد من الاحياء، وغفل فيما آثر له من الحسن والاحسان عن الريف الكائن ما بين مدينتى سبتة وتلمسان، وهذا الاطلاق الثانى هو الذى تضافر عليه المؤرخون، كالاستقصا والمعجب اللذين يتعمدان تسمية دولة الادارسة بالبصرة بأنها دولة ريفية، فكلاهما قال الخبر عن دولة الادارسة الثالثة بالريف، وفى مكان آخر من الاستقصاء بصريح العبارة، حيث قال الريف البحرى كله من عمل عمر من تيكساس، وبلاد غمارة الى سبتة ثم طنجة .

وهذا الاطلاق الثانى هو الذى يوافق ما يعبر عنه جغرافيا بسلسلة جبال الريف، لان سكان هذه السلسلة امتزجوا ووحدت بينهم الطبيعة والاخلاق والبيئة والتناسل أيضا، فهم لحمة واحدة .

وعليه، فانه يزاد على القبائل الآنفة الذكر قبائل غمارة التى هى قبيلة بنى اسميح وقبيلة بنى اكرير – قبيلة بنى رزين – قبيلة بنى خالد – قبيلة بنى سلمان – قبيلة بنى منصور – قبيلة بنى زجل – قبيلة بنى زيات .

---

(1) المنجد فى مادة ريف قال «رافت الماشية» رعت الريف .

وقبائل جبالة وهى: قبيلة بنى سعيد وادلو ــ قبيلة بنى حسان ــ قبيلة بنى ليث ــ قبيلة بنى حزمر ــ قبيلة بنى يدر ــ قبيلة الاخماس العليا ــ قبيلة الاخماس السفلى ــ قبيلة بنى احمد ــ قبيلة حوز تطوان ــ قبيلة أنجرة ــ قبيلة بنى عروس ــ قبيلة وادراس ــ قبيلة بنى مصور ــ قبيلة فحص طنجة ــ قبيلة الغربية ــ قبيلة البدور ــ قبيلة الخلوط ــ قبيلة سماتة ــ قبيلة بنى كرفط ــ قبيلة آل سريف ــ قبيلة بنى يسف ــ قبيلة بنى زكار ــ قبيلة اغزاوة، وكذلك قبائل شمالى نهر ورغة.

اقليم الحسيمة :

كلمة الحسيمة هى اسم لمدينة الحسيمة وانما سمى الاقليم بها من باب تسمية الكل بالجزء المهم، وذلك لان هذه المدينة هى مركز الاقليم وعاصمته .

والكلمة حديثة الوضع حدوث المدينة نفسها، فقد أسست المدينة عند احتلال الاسبان لهذا الموقع فى الغزوة الكبرى التى غزوا بها هذه الجهة فى الحملة الصليبية التى شنها الاسبان والفرنسيون تحت قيادة الجنرال الاسبانى «سان خورخو» والتى شاركت فيها ما يزيد على مائة بارجة حربية مختلطة، لما انهكت كلا من الدولتين الحرب التحريرية الريفية فتوحدت كلمة المسيحية وانزلت قوتها بموضع الحسيمة فى تاريخ 8 غشت سنة 1925 م.

موضع المدينة ووجه التسمية :

وقبل الاحتلال كان الموضع رمالا رقيقة تدعى عند الاهالى «بتجذيت» (وهى اسم للرمال الرقيقة باللسان المحلى الريفى)، وهذا المحل لم يكن موضع مدينة ولا كانت فيه اطلال، بل كان ملكا جله الاكبر لرجال بقيوة من دشرة تيغنمين واجدر عياش، والبعض الآخر كان لاهالى أجدير من بنى ورياغل، وكان المالكون يزرعونه بالخضراوات الى حدود سنة 1925 م. والى حد الآن تسمع النساء وكذلك الرجال الطاعنون فى السن ينادى بعضهم البعض هلم بنا الى تجذيت أو قد جئت من تجذيت الى غير ذلك، وقد احتل الاسبان أول ما احتلوا فى هذه الجهة هذا الموقع، حيث نزلوا برأس سيدى عابد بمحل سموه «ساباديا» ولا زالت أرقام

التاريخ موجودة فى هيكل بنائى محاط بسلسلة ضخمة من حديد تخليدا لهذه الغزوة الاستعمارية، ولا أدرى ما وجه الاحتفاظ عليـــه .

ومما يلاحظ أن الاسم تغير مرات عديـــدة فى عهد الحماية، فعنـــد انزال الحملة والقيام بتأسيس المدينة وضع لها الغزاة العسكريون اســـم «بياسان خورخو» تخليدا لذكرى الغازى، وعندما قامت الجمهورية باسبانيا سميت «بيا لوسيماس» وعنـــد قيام الحركـــة الوطنية الاسبانية بقيـــادة الجنرال فرانكو سميت بالاسم الاول، وبقيت كذلك الى أن وقع استقلال المغرب حيث رجعت الى الاسم الثانى، مع تغيير فى الكلمة، لتوافق العربية، فسميت بالحسيمة، وذلك فى أول زيارة قام بها رئيس الحكومة المستقلـــة امبارك البكاى، وخطب الاستاذ عبد الخالق الطريـــس معلنا محو الاســـم العسكرى، كما محى اسم ميناء اليوطى عن القنيطرة، ومناء كباس عـــن قلاع بادس ببنى بويفـــرح .

أما الحسيمة، فانه مأخود من كلمة لوسيماس وهى اسم فى الاصل للنبات المعروف «بالخزامى» وهو نبات قال المنجد العربى «زهره أطيـــب الازهار» وفى كتاب التـــداوى بالاعشاب: عشبة يبلغ ارتفاعهـــا 30—60 سنتيمترا كثير الفروع المنتصبة الى الاعلى أوراقها طويلة مستطيلة ملساء غير مسننة ازهارها عطرية الرائحة مرة المـــذاق زرقاء اللون بمجموعـــات كالسنابيل «تستعمل فى التطبيب» وفى المنجـــد الاسبانى طبعـــة 1955 صفحتى 68—510 مـــا يلـــى :

ALHUCEMA Espliego-Mata labiada, muy aroma tica de flores ozules, de las cuales se extrae un aceite esencial muy usado en perfumeria.

وقد كان الاسبان يطلقون هذا الاسم على جزيرة النكور، حيـــث تكثر هذه الاعشاب فى سواحلها على الشاطـــىء المقابل لهـــا، كما كانـــوا يطلقون على جزيرة بادس «لا بنيون» .

ولما احتلوا محل الحسيمة سموها بلوسيماس، وبعد الاستقلال عرب الاسم الى الحسيمة .

ومن هذا البيان يتضح أن من يجعل اسم الحسيمة محرفا عـــن اسم المزمة الذى هو اسم للمدينة التاريخية، انما نشأ ذلك عن غلـــط فى



الصورة تمثل المرشال أمزيان، ورئيس الحكومة الاولى المستقلة امبارك المبكاى، والقيم على الشمال الاستاذ عبد الخالق الطريس، وبينهما قاضى بنى ورياغل مؤلف الكتاب، فى اول زيارة قاموا بها الى الحسيمة سنة 1956.

الموقعين، فمدينة المزمة موضعها حيث الآن نادى البحر الابيض المتوسط بالذات، وهى بعيدة عن الحسيمة بحوالى 11 كيلو ميترات على الجنوب الشرقى وتسامت تماما جزيرة النكور، وهذه المزمة ليست هى مدينة النكور التى كانت عاصمة الامارة العربية من أولاد صالح الحميريين، وقد فصلنا أمرها فى بحثنا حول مدينة النكور، الآتى بعده .

وهذا ما وقع بالذات للسيد محمد الفاسى عميد جامعة محمد الخامس سابقا، حيث قال فى مقال تحت عنوان «أصول الاعلام الجغرافية المغربية» نشرته مجلة البينة فى عددها الاول لشهر ماى سنة 1962 م. حيث قال «وأريد أن أختتم هذا الحديث بقصة الحسيمة، وهى أن هذه اللفظة لا أصل لها مطلقا، لا فى العربية ولا البربرية، وانما هى من مخترعات الذين غاروا على لغتنا واعلامنا أن تفسدها اللكنة الاعجمية، فارادوا ان يردوا لفظة الوسيماس الى أصلها العربى فقالوا الحسيمة».

ثم قال أما أصل أوسيماس فهو المزمة، وهى مدينة من أولى المدن التى أسسها العرب ببلادنا اذ فى أول الفتح الاسلامى تكونت قبل كل دولة عربية امارات صغيرة على ضفاف البحر الابيض المتوسط كانت من جملتها امارة بنى منصور التى اتخذت عاصمتها مدينة المزمة، ولما اتصل الاسبان بهذه الفرضات وسمعوا هذه اللفظة نطقوها على عادتهم فى نطق الزاى سينا المزمة، ثم حرفوها لاسباب لغوية يطول شرحها الى الوسيماس وكل كتب الجغرافية عند المغاربة وكل المؤرخين يسمونها المزمة .

ان السيد محمد الفاسى وقع له غلط فى موضعين :

الاول: ظن أن موقع المزمة هو موقع الحسيمة بالذات وليس كذلك كما أسلفنا .

الثانى: ظن أن المزمة هى عاصمة امارة النكور وليس كذلك، بل بينها مسافة حوالى 15 كلم، وكانت المزمة هذه فرضة لمدينة النكور منها يوسق محصول سواقى المزمة .

وانى لا آخذ على العميد، فقد وقع الغلط لبعض المؤرخين كالامير شكيب أرسلان الذى تبع الادريسى فى نزهة المشتاق، ولكن نحن الذين نعيش كلمات الاهالى ونعرف اطلاق الاسماء على المواضع والمدن

والسواقى الموروثة أبا عن جد، نعرف بالضبط الفرق الدقيق، أما قوله أن لفظة الوسيماس لا أصل لها مطلقا لا فى العربية ولا فى البربرية، فهو صحيح بالنسبة للعربية .

تقع مدينة الحسيمة فى درجة 3 غرب خط كرنيش من خطوط الطول، و23 درجة من خطوط العرض شمال خط الاستواء، ولذا فهى فى صميم الاقليم الرابع حيث الهواء معتدل والتربة خصبة والفصول متساوية سليمة من العوارض، وهى محفوظة من الارياح العكسية بهضبات حجرية تحوط بها من جميع جهاتها، فمن الشمال، تعلوها هضبة سيدى عابد التى تحرسها من هناك، ومن الغرب تحفظها جبال بقيوة العاتية المتصلة الامتداد الى سهول بنى بويفرح القصيرة، ومن الجنوب تحرسها هضبات أجدير المترادفة ذات الرؤوس الحادة الصلبة التى تخللها شعاب ضيقة تنساب فى انحدار الى البحر، أما من الشرق فهناك تنفرج عنها لتطل على خليج الحسيمة الذى ينبسط أمامها بعد أن تحرسها منه تلك الحافات الشاهقة من الصلب الجيرى الغائض فى مياه الخليج، وبينما تكون حاجزا مروعا تلتطم عندها الامواج، فمن حافات بوسكور الى حافات سيدى العابد وحافات الرأس القديم ثم حافات أجدير اذ بها تلتقى بمنبسط فسيح خصيب ذى تربة ثرية لا أثر للاحجار فيها تسقيها سواقى وادى غيس والنكور، حيث يبتدأ فجأة من سهول أجدير من موقع المدينة التاريخية المزمة الذى تطل عليه جزيرة النكور، كبارجة حربية راسية أمام ذلك المنبسط، ويمتد الى السوانى بتمسامان حيث ينتهى برأس سيدى شعيب — رأس كيلاطس — .

ولا يرتفع هذا المنبسط عن الماء الا قليلا، وذلك ما دعى علماء الجيلوجية الى القول بأنه فى فترة من الفترات الجيلوجية لطبقات الارض كان البحر يمتد الى هضاب أمزورن، ثم انحسرت عنه بفعل التقلبات.

وهذا التقدير قريب الى الحق، لان الذين يبحثون عن منابع الماء فى تلك الجهات لا يعثرون عن حجر ما، بل الارض طبقات من طين تكونت من رسوبات للطمى الذى تحمله السيول الهابطة من سلسلة جبال حمام وكزناية وبنى توزين وغيرها .

حضارات تاريخيـة عبـر شواطىء الريـف :

مدينة النكـور تمهيـد : (1)

يطلق بلد النكور فى كتب التاريخ على الحوض المعروف الآن بالريف، ويمتد على الشاطىء الجنوبى للبحر الابيض المتوسط فيما بين قبيلة بنى يزناسن شرقا وغمارة غربا، ويحد جنوبا بورغة وحدده البكرى (2) فى مؤلفه المسمى المسالك (3) والممالك الذى ألفه حوالى عام 460 هـ. كما يأتى : «ذكر بلاد النكور وحده ينتهى من جانب الشرق الى زواغة جراوه الحسن ابن أبى العيش ويجاورهم من هاهنا مطماطة وأهل كبدان وينتهى من جانب الغرب الى قبيل من غمارة يعرفون ببنى مروان وبنى حميد ، اليهم تنسب الحميدية والى مسطاسة وصنهاجة ومن ورائهم اوربة حزب فرحون وبنى وليد وزناتة أهل تاجريد أو بنو مرسن حزب قاسم صاحب صاع والكدية المعروفة بتاوريرت» (4) .

ولا يخفى أن أهل كبدان هم قبيلة كبدانة وهـم متصلون شرقا بقبيلة بنى يزناسن، وأما مطماطة، فهى قبائل تحد كزناية وهى الحد

---

(1) هذا هو الجزء الاول من البحث الذى كنا نشرناه تحت عنوان «الريف بعد الفتح الاسلامى» والجزء الثانى نشرناه عند الكلام على مدينة سبتة. (2) هو الوزير عبد الله بن عبد العزيز بن ابى مصعب البكرى ويعرف بابى عبيد توفى سنة 487 هـ. موافق 1094 م. (3) وصف فيه افريقيا الشمالية فى عهده وصفا دقيقا وخصوصا شواطىء البحر الابيض المتوسط، ألفه حوالى 460 هـ. وطبع بالجزائر عام 1274 هـ. موافق سنة 1857 م. وله عدا ذلك كتاب (المغرب) ـ بضم الميم ـ فى ذكر بلاد افريقيا والمغـرب ـ بفتح الميم ـ ويعتبـر جزءا من كتاب المسالك والممالك. (4) صحيفة 86 .

جنوبا المريف وقلوع جارة هذه هى التى أسست فيها مدينة مليلية عام 98، أسسها مليك (1) أمير بنى يفرن الذى كان مع ادريس بن صالح مؤسس مدينة النكور، وهذه القلوع هى التى تنسب اليها قبيلة قلعية وقد قال فيها البكرى: «انها حصن منيع لا متناول له ولا مطمع فيه (2). وذكر مرة لأخرى: (أن قلوع جارة هى لبنى ورتدى وانهم سكان مليلية (3)). وقبيلة قلعية هذه هى شبه جزيرة فى شمالى كرط يبلغ فيها جبل الكروكو البركانى 800 مترا، ولذا لما فتح مدينة مليلية عبد الرحمن الناصر لدين الله عام 314 هـ. وبنى سورها لاجل أن تكون معقلا لموسى بن أبى العافية، قال فيها الشاعر احمد بن محمد بن موسى الرازى :

والملك (4) الناصر (5) لدين الله	فيما يحوط الدين غير ساه
بنى لموسى عدة مدينة	منيعة شاهقة حصينة
ذلت لها تاهررت والا فارقة	ولم يطق بنيانها العمالقة

ولمناعتها لم يكن يدخلها أحد من التجار الا أن يكون على يد شخص من سكانها وقد كان ذلك بالاقتراع وكان يقترع السكان فيما بينهم على يد من تكون مراقبة تجارة الشخص القادم (6) «فمن اصابته قرعة الرجل منهم كان تجره على يده ولم يصنع شيئا الا تحت نظره واشرافه فيحميه ممن يريد ظلمه ويأخذ منه الاجر على ذلك والهدية لنزوله عنده».

---

(1) ذكر ذلك فى التعليق على القرطاس فى الطبعة على الحروف بسلا علم 1355 هـ. موافق 1936 م. كما ذكرها أيضا فى الترجمانة الكبرى لابى القاسم الزيانى صحيفة 79 طبعة وزارة الانباء بالمغرب. (2) المسالك والممالك صحيفة 88. (3) نفس الكتاب ونفس الصحيفة . (4) صحيفة 89 من الكتاب نفسه. (5) عبد الرحمن بن محمد الناصر لدين الله صاحب مالقة. (6) المسالك والممالك صحيفة 89.

فى الجنوب الشرقى من هذا البلد (يغلب نظام من طبقات بارزة) غير متواصلة اظهرها جبال كبدانة وبنى بويحيى، وفى هذه الكتل قيعان مقعرة كقاع كرواوة فى قبيلة بنى بويحيى وفى اراضى هذه القبيلة ترتفــع كتلة (مسدوت) أو (مزكوت) كما يلفظ بها الاهالى وهى قرية مسطحــه وجبل مزكوت معزز من سهل ماوية بجبل كتيز البركانى، وهو يمتد غربا فى هضاب جيرية أهمها هضبتا (التدنى) و (الندرى) اللتان تضمان الابار، والكهوف الطبيعية، وتلك الهضاب محفوفة بحافات من الصخور الوعــرة كصخور بوحجر التى تشرف على بوصواب على ارتفاع ألف متر وتبايــن كتل هذه الجهة تباينا واضحا بقية أجزاء السلسلة الريفيه بتكوينها واحوال تطورها فالتى وقعت بين كرط (1) وملوية قد بقى قسم كبير منها هادئا لم يتأثر الا ببعض الحركات وهى قليلة الارتفاع، فالقمم الشمالية لا تبلغ ألف متر ويبلغ جبل الكروكو فى قبيلة قلعية البركانى 800 متــرا، وهى ذات تركيب غير بسيط أى مختلط لان امتداده ناتج عن اتصال اجــزاء متوازية مختلفة الاصول والطبائع، سببتها الانكسارات والثورات البركانية، أما الجبال الجنوبية لهذه الجهة فتجــاوز 1800 متر، كجبل (مزكــوت)، وبفضل الانخفاضات التى سببتها المياه التاركة للاثقال المتراكمة، فاسفرت عن سهــول داخلية فسيحة سهلــت المواصلات فى هذه الجهة، ومن تلــك الانخفاضات ذلك الذى يربط بين (المسون) و (الكرط) بسهول (بوصــواب) وعين الاحمر، ومن ذلك الوادى الفسيح فى الكــرط المتوسط فهو يتجــه نحو الشمال الشرقى وينفتح على سهل سلوان .

أما ناحية الريف الاوسط فتتكون أراضيه من مجموع جبال معقدة التركيب تنتشر على شكل اكليل تتمركز فى خليج الحسيمة مفصولة عــن بعضها، فسلسلة جبال بقيوة المنفردة على شاطىء البحــر المشرفة عليــه بحافاتها العظيمة ناشئة عن الصلب الجيرى الغائص فى البحر وهى مفصولة

---

(1) وادى كــرط وملويــة .

عن بقية السلسلة الكبيرة بسهول بنى ورياغل التى تتسع شرقا فى أراضى أجدير وتحمل فى منبسطها نهرى غيس والنكور، ويحدها شرقا بتمسامان وبنى توزين وباتجاه هذه السهول من الجنوب الى الشمال على شاطئ البحر تكون الطرف الشرقى لخليج الحسيمه ويحد جنوبا بجبل حمام وهى الكدية التى تشرف على توريرت التى ذكرها ابن خلدون (1) وهذا الجبل ينفصل انفصالا بينا عن السلسلة العليا وتطل على هذه الكدية قمة آزرواقشار، وهى جبل عال الارتفاع ينيف على ألفى متر، وهو أعلى جبل فى ناحية الريف الاوسط الذى تسكنه القبائل الريفية الخالصة ويشرف على مركز لتوزيع المياه يسترعى الانظار، فالمياه التى تذهب الى البحر الابيض المتوسط مباشرة تصب فى نهرى كرطط والنكور، والتى تنحدر اليه بطريق غير مباشر تصب فى السواعد العليا لنهر المسون، أما الذاهبة منها الى المحيط فتتفرغ فى فرع نهر ورغة، وهذا الجبل جزء من الجناح الشرقى للسلسلة الريفية .

العرب والنكور

أول من نزل الريف من العرب هم الحميريون وقد جاءوا مع العرب الفاتحين للمغرب مع حملة موسى بن نصير وطارق بن زياد، ونتيجة لفتحهم فانهم قسموا المغرب أقساما جعلوا على رأس كل قسم منها عائلة من العرب، ونصبوا منها عليه أميرا وكان بلد النكور قسما منح للعرب الحميريين، وقد سماهم موسى بن نصير أمام الخليفة الاموى لما مثل عنده بدمشق (الابطال المغاور) (2) حين سأل عنهم وقد يكون لشجاعتهم منحوا

---

(1) فى تاريخه المعروف (بالعبر وديوان المبتدأ والخبر فى أيام العرب والعجم والبربر) المطبوع بمطبعة بولاق على الحروف عام 1282 هـ. موافق سنة 1865 م. فى سبعة أسفار ماعدا المقدمة، وابن خلدون هو أبو زيد عبد الرحمن بن محمد ابن خلدون المتوفى بمصر عام 808 هـ. موافق سنة 1405 م. وهو شيخ المؤرخين .

(2) المسالك والممالك.

سواحل البحر التى هى معرضة للاخطار التى تاتيها من البحر، وقد كانت قرصان المجوس تجوب عبابه من دون رقيـــب .

وأول من نصبوه أميرا عليهم هو صالح بن منصور اليمني، وقــد كَــان يــعــرف فيمــا بينــهــم بالعبــد الصالــح (1) وقــد أستمــر فيهــا مستخلصــا اياهــا لنفسه تــم رفع أمرهــا للخليفــة الوليد بــن عبد الملك الاموى، فأجابه هذا باقراره على الامارة فيها وذلك سنة 91 هـ. واول موضع نزل فيه هو مرسى بتامسامان على البحر يدعى واد البقر، ولعله محرف عن واد امقران المعروف به الآن، وبين هذه المرسى ومدينة النكور عشرون ميلا وهى مرسى صيفية، ويقابلها من بر الاندلس، قال البكرى: (مدينة طنيانة) (2) واستــوطن صالــح هذا، بلد النكور ونشــر الاسلام فيه وكثر نسلــه واجتمعت عليه غمــارة وصنهاجة البربريــه واسلموا على يده وخضعوا له وايدوه، الا أنهم عادوا فثاروا عليه وخلعوه وولوا أمرهم رجلا من نفزة يعرف بالرنــدى، وسبب ثورتهم استثقالهــم للتكاليف الشرعية التى رفضوها باخراج صالح، ثم رجعوا وعــادوا الى الاسلام وأرجعوا صالحا الى امارته وبقى فيها الى أن توفى بتمسامان عام 123 هـ. قال (3) البكرى (ودفن بقرية يقال لها اقطى بتمسامان بــواد البقر، وقبره يعرف الى الآن، وهذه القرية تعرف الآن بالقصبة السفلى بواد ولعله هو واد البقر، أو واد امقران، وهذه القصبة هى مدينة تمسامان على ما لابن خلدون، ولما مات صالح خلف من الاولاد المعتصم وأدريســا وأمهما صنهاجية وعبد الصمد، وقد تولى امارة النكور بعد وفاته، (صالح) ابنه الاول المعتصم وقد سار مسيرة حسنة فى امارته، الا أنه توفى بعد أبيه بأيام يسيرة، وكان متدينا عفيفا يؤم الناس فى الصلوات الخمس ويخطب يوم الجمعة، وكان فوق ذلك شجاعا شريف النفس عالى الهمة .

الامــير ادريس مؤسس مدينــة النكــور

ثم تولى بعد المعتصم شقيقه ادريس حفيد صنهاجة واختط مدينة

---

(1) ابن خلدون ج.س.ص. 312 . (2) المسالك والممالك صحيفة 91 .
(3) المسالك والممالك صحيفــة 91 .

النكور ولم يتمها، ومات سنة 143 هـ. غير أنه لم ينتقل اليها، بل استمرت عاصمته هي مدينة تمسامان، كما كانت أيام أبيه وأخيه المعتصم والـذى جعلها (1) عاصمة لامارة النكور، هو الامير سعيد وهـذا يخالف ما جـاء فى ترجمانية الكبرى لابى القاسم الزيانى من ان مدينة النكور أسست عـام 80 هـ. (2) .

ومدينة النكور هذه تقع على الضفة الغربية لوادى النكور فى فرقة بنى بوعياش من قبيله بنى ورياغل حوالى 25و26 كيلو متر من الحسيمه، يشقها وسطا طريق السيارة العمومى الرابط بمليلية، ويقابلها من الضفة الاخرى حوض ماء يدعى عند الاهالى بحوض حواء وهو عين ماء غزيرة فى منبسط من الارض وماؤها عذب المذاق يجرى منها الى الوادى ثم تحمله السواقى الى الجنات لسقى خيراتهـا، وهى معلومـة بلذات الطعـم، ويقابلها أيضا شمالى الحوض ربوة كأنها صومعة لحراسة المدينة وفى رأس الربوة ضريح شخص يدعى بالسيد البرقى ولا يعرف شىء عن تاريـخ هذا الرجل، الا ما تدل عليه نسبته الى برقة الامر الذى يدل على أن الرجل رحل من برقة ويظن أنه أتى مع القافلة، وفى أسفل الربوة حجر يدعى بحجر العروس تحكى على السنة الاهالى خرافات فى تسميته بذلك، منها أنـه يوجد فى الحجر أثر قدمى عروس ومن حوض حواء كان آل صالح جروا ساقية الى المزمة، ولا زال أثرها موجودا عندما تمر بقرية أمزورا، ويقال أن هذه الساقية كانت كبريد بين النكور والمزمة ترسل الكتب من النكـور مقفلة فى قصب مشمع ويؤخذ فى المزمة وقد اندثرت الآن معالم المدينـة وأصبحت اطلالا ولا زالت رسوم سورها المحيط بها ظاهرة والمحل أصبح أرضا حراثية نصفها يسقى بماء الوادى والنصف الآخر بعلى وعندما كانت العملة تشتغل فى تعبيد طريق السيارات عثروا على آثار مهمة من الحيطان وأوانى الخزف وغير ذلك، وقد كان بدىء فيها بالحفريات الاثرية فعثـر فيها على نقود ذهبية مهمة من الوجهة التاريخية، وعندما يكون الفلاحون يعمقون فى الخدمة يعثرون كذلك على الاوانى وغيرها، وقد استخرج بعض الفلاحين أخيرا رحى مائية صغـيرة .

---

(1) مدينـة النكـور. (2) صحيفـة 79 .

وقال ابن خلدون فى التعريف بمدينة النكور ما ياتى (1) : (تقع فى عدوة وادى النكور التى تقع بين الوادى المذكور وواد غيس ينبع الاول من كزناية من جبل نيركويس ويتحد منبعه مع منبع وادى ورغـة والثانى ينبع من بنى ورياغل ويجتمعان فى آكام ثم يفترقان الى البحر)، وقـال: (انها تسمى بهذا العهد المدة ومثله لأبكرى وبين الاكام التى تجتمع فيها بأنها يقال لها أكدال) وزاد قائلا (وعلى (2) نهر غيس بنى سعيد ابن صالح مسجدا على صفة مسجد الاسكندرية بمحرابه وجميع منافعه، وعـدوة غيس هذه يقال لها (تكراكرى) وهى منيعة وفيها يتناتج كراع آل صالح).

الامـير سعـيـد

ولما توفى ادريس بن صالح الذى اختط مدينة النكور قام مـن بعده ابنه سعيد، وأول عمل قـام به اتمام مدينة أبيه فأتمها وانتقل اليها فى أول ولايته وجعلها عاصمة عمله بدلا من عاصمة أجداده قال ابن خلدون: (بعد (3) ان كانت مدينة تكسمان) أى تمسمان .

وقد ازدهر عمرانهـا فى أول حياتها ثم طغت عليها موجة مـن الحروب الى أن خربت كما يأتى مفصلا، وقد كان جمالها الطبيعى الذى اكسبته اياها العدوتان وحوض حواء الرقراق والواد الجارى الذى سطر بجنبيها الشرقى والشمالى سطرا ثعبانيا يلتوى بين الربى منحدرا الى المنبسط الفسيح الذى خلفه طفو الماء حاملا لاكداس الرمال حافزا لقرائح الشعراء فاذكوا قرائهم متغزلين بمحاسنها ومذكرين بمائها العذب ورزقهـا المستطاب، فقال ابراهيم ابن أيوب النكـورى :

أيا أملى (4) الذى أبغى وسؤلى   ودنيـاى التى أرجـو ودينـى
أأحـرم من يمينك رى نفسـى   ورزق الخلـق من تلك اليمـين

---

(1) العبر وديوان المبتدأ والخبر فى أيام العرب والعجم والبربر ـ الجزء السادس صحيفـة 212. (2) المسالـك والممالك صحيفـة 89 .
(3) الجزء السادس صحيفة 212. (4) المسالك والممالك صحيفة 91.

ويحجب عن يمينك لحظ طـرفى ونـــور الارض من ذاك الجبـــين
وقـــد جبت المهامـــة من نكـــور اليك بكل ناجية (1) أمـــون (2)

ثم بدا دور الغزو فاول من غزاها المجوس بأساطلهم فى ولاية سعيد عام 144 هـ. وغلبوه عليها واستباحوها، قال ابن خلدون (ثانيا) (3) ويظهر من ذلك انهم غزوها مرة أولى غير اننا لم نعثر على غزوة أخـــرى للمجوس فى المصادر التى اعتمدناها، وزاد قائلا: وسبوا من فيها الا من هرب وكان من جملة من سبى أمة الرحمان وقنعولة ابنتا واقف بن المعتصم بن صالح ففداهما محمد بن عبد الرحمن واجتمـــع البرانس الى سعيـــد واعانوه على اخراج المجوس من مدينته فتم له ذلك وأخرجهم ولم يبقوا فيها الا ثمانية أيام وعادت غمارة فثارت على الامير سعيد بعـــد واقعـــة المجوس، هذا ما فى ابن خلدون والذى فى المراجع الاخرى (وقامت البرانس على ادريس بن سعيد) غير أن الذى يتبين من مساق الواقعة ترجيح ما عند الأول لانتظام أسلوبها، وانتقضت غمارة وولوا عليهم رجلا غماريا منهم اسمه (بسكن ـــ بالباء، وفى المسالك مسكن بالميم)، الا أنهم لم يثبتوا فى حروبهـــم معه فتراجعـــوا واخضعهم وفـــرق جماعتهم وقتل مقدمهـــم (بسكن) واستوثق أمره الى أن توفى عام 188 هـ. لسبع وثلاثين، قـــال ابن خلدون من أيامه: والذى يتبين من تاريخ ابتداء امارته الذى هو 143 وتاريخ وفاته الذى هو 188 ان مدة امارته 45 عاما، الا أن يكون لا يعـــد له أيام استيلاء المجوس على امارته وأيام انتقاض غمارة عليه، وقـــد خلف من الاولاد منصورا وحمـــودا وصالحا وزيـــادة الله والرشيد وعبد الرحمن الشهيد، وسمى شهيدا قال البكرى (4) (لانـــه استشهد فى غـــزوة أبى العباس القائد، وكان فقيها على مذهب الامام مالك وتقيا، حج أربع مرات ومجاهدا عبر الاندلس للجهاد فقطع عليه ابن حفصون الطريـــق فقتل من كان معه وتخلص عبد الرحمن على فرسه) وخلف أيضا معاويـــة وعثمان وعبد الله وادريســـا .

---

(1) الناجية، الناقة السريعة تنجو بمن يركبها. (2) المطية المأمونة العثار.
(3) الجزء السادس صحيفة 213 . (4) فى المسالك والممالك .

الامــير صالــح بــن سعــيــد

ثم تولى الامارة بعد سعيد ابنه صالح وكان شديد التمسك بمذهب سلفه فى الاستقامة، وكانت له مع أهالى النكور الاصليين حروب ووقــائع، من تلك الحروب قال البكرى (1): (ما وقع له مع بنى ورياغل وكزنايــة حيث انضموا الى أخيه ادريس (أصغر اخوانه) فانقضوا عليه والتقى معهم بجبل كزناية المعروف بجبل «كروين» ــ منبع وادى النكــور وورغة ــ، ولم يثبت صالح امامهم، بل انهزم وتبعه أدريس ينهب معسكره وذهب الى فتح مدينة النكور مكتسحا القرى ولما وصل اليها امتنع عليه والــى المدينة الذى خلفه عليها صالح، ولما لم يتمكن من الدخول ارسل اليــه بأن صالحا قد مات فلماذا تمتنع على، فأجابه الوالى بأنه اذا ثبت عندى مقتل صالح فانى لا أدافع عن المدينة، ولما لم يقم له الدليل على مقتــل صالح تنكر ونزل الجبل المطل على المدينة (وهو الى الجهة الغربية لمدينة النكور فى رأسه قرية «بنى بوقياضا» ولما جن الليل جاء صالح ودخــل المدينة خفية مع خاصة من أصحابه، وفى الغد ارسلوا الى ادريس ليتسلم المدينة، فاقبل ادريس على فرسه وعليه درعه وهو لا يدرى ما دبر لــه، ولما توسط المدينة أحاط به فتيان صالح فأنزلوه عن الفرس وأرجلوه الى أن دخلوا به على صالح أخيه فأمر بحبسه فحبس فى داره ولم يكن يريد أن يقتله ولكن اقتراح قاسم الوسنانى صاحب «صاع والكدية» والحاحه عليه جعله يعدل عن الحبس الى القتل فأمر مواليه بقتله، وامتنع هؤلاء من تنفيذ الامر فأمر فتى من فتيانه يقال له عسلون فقتله .

ثم استعصت عليه مكناسة أيضا وامتنع أهلها من دفع المغاوم التى كانوا يدفعونها له فكتب اليهم كتابا يدعوهم فيه وختم الكتاب وجعله فى مخلاة وعلقها على حمار له كان معروفا عندهم وبعثه مع أحد ثقاته وأوصاه اذا توسط بلاد مكناسة فانه يترك الحمار بما عليه ففعل ذلك فأصابــت مكناسة حمار صالح المعروف لديهم فأخذوا المخلاة، فلما قرأوا الكتــاب ائتمروا على عقر الحمار والتمادى على الامتناع، وأخيرا عدلوا عن هــذا

---

(1) نفس المصــدر صحيفــة 92 .

الرأى واجمعوا أمرهم على أن يجمعوا ما كان عليهم لصالح من المغارم، فجمعوا ذلك وجللوا الحمار بملحفة مروية وأتـوا صالحا بالحمار مجللا وبمغارمهم كاملة فاستعتبوه فأعتبهم واستمرت الفتن فى أيامه الى أن توفى عام 250 وفى تاريخ ابن خلدون (1) لاثنين وسبعين سنة من ملكه ولعله غلط مطبعى فى سبعين والا فالذى يبقى بعد اسقاط 188 من 250هـ و62 وفى البكرى ومات صالح بعد أن ملك ثمانية وعشرين عاما، غير أنه لم يذكـر تاريخ وفاته، فالذى يظهر أن الصحيح هو الاول، لانه ذكر تاريخ التولية والـوفـاة معـا .

الامـير سعيـد بـن صالـح

وقام بالامر من بعده ابنه سعيد وكان أصغر أولاده ونافسـه على الامارة أخوه عبد الله وعمه الراضى فثارا عليه ووقعـت بينهم حـروب ووقائع وبسبب تلك الفتن دخل عليه عبيده الصقالبة فسألوه العتق وأجابهم هو بأنهم جنده وأنهم كأحرار، غير أنهم لا يرثون ولا تجرى عليهم المقاسم فلم يقتنعوا بذلك وتمادوا فى الحاحهم وتمادى هو فى الامتناع، ولما يئسوا من اجابته طلبهم لحقه منهم جفاء وغلظة، فانتهزها أخوه عبد الله وعمـه الراضى المكنى بابى على (وهذا الراضى لم يوجد من أولاد صالـح فى المصادر المرجوع اليها) فرصة سانحة فانضمـا اليهم مؤلبين عليه الجنـد المكون من الصقالبة وزحفا بهم الى قصر الامارة فحاربهم سعيد من أعلى القصر مع فتيانه ونسائه حتى انهزموا وقامت عليهم العامة فأخرجوهم من المدينة الى قرية فوق المدينة تعرف بقرية الصقالبة وتحصنوا بها سبعة أيام فخرج اليهم سعيد مع القوم وظفروا بهم بعد حروب شديدة، والمراد بالصقالبة هنا هم الارقاء الذين صحبوا العرب اليمنيـين فى فتحهم لانـه فى القرون الوسطى كان الاسترقاق من الأمة الصقلبية عادة وكان اسـم الصقلبى معناه الرقيق كما هو فى اللغات الافرنجية، وقد كان الاصـل فى الصقالبة يطلق على أمة السلاف التى تسكن على شواطىء البحر الاسود وضفاف الطونة ومعنى السلاف الشرفاء، ثم انقلب عن معناه الاصلـى

---

(1) الجـزء السادس صحيفـة 213 .

وجاء من لفظة السلاف لفظة اسكلاف ومعنها عبد، وأيام زحفة البرابرة الكبرى على الدولة الرومانية كان السلاف يقسمون الى سلاف غربيين وسلاف شماليين وسلاف جنوبيين وهم الذين سكنوا على شطوط بحر الادرياتيك وأول ما عرف العرب هذه اللفظة كان بسبب مجاورتهم للدولة البيزنطية وكان كثيرا ما تمد سلطانها على السلاف الجنوبيين، ولما كان العرب لا يوجد عندهم حرف الفاء الفارسية وكانوا يقلبونها باء فلفظوا لفظة الاسكلابيين اصقلابيين، ومنها جاءت لفظة صقلبى وصقالبة وقد جاء هؤلاء الصقالبة مع الفاتحين كجنود واسكنوهم قرية فوق المدينة دعوها قرية الصقالبة ولما عصوا أمر الامير وحاربهم انهزموا فقبض على أخيه وعمه الراضى المذكور فنفى الاول الى المشرق، قال البكرى (الى بلاد بكة وكل به من أوصله اليها وبقى فيها حتى مات) أما عمه الراضى فانه عفا عنه لما بينهما من المصاهرة، وهى أنه تزوج ابنته وطالت تحته وكان عفوه بعدما حبسه مع أخيه عبد الله فنفى هذا وعفى عن ذاك ولعل هذه الواقعة هى التى توجد عند الاهالى من أن عامل المزمة كان متزوجا بابنة أمير مدينة النكور ثم أنه وقع بينهما خلاف فخرج الاول مع خيله والثانى كذلك الى أن تلاقيا بالقرية المعروفة الآن بقرية بوكدارا الواقعة أسفل امزورا وايكدارا باللهجة المحلية الخيل مفردها اكيدار، فانهزم عامل المزمة أما الباقى من عمومته وأقاربه للذين كانوا انضموا اليهما أيام الفتنة فانه أعدمهم جميعا ومنهم الاغلب وأبو الاغلب ما عدا سعادة الله ابن هارون قال ابن خلدون (1) فانه لحق ببنى يصلتين أهل جبل ابى الحسن ودلهم على عوراته وبيتوا معسكره وأخذوا الآلة وقتل منهم وبسبب ذلك قال البكرى (2) انه لما قتل الاغلب وهو ابن عم سعادة الله وترك أخاه عبد الله وعمه الراضى مع أن ذنبهما واحد، امتعض سعادة الله وشكا ذلك لبنى يصلتين فى جبل ابى الحسن وهو فى تمسمان فالبهم عليه وعقد معهم على سعيد وهو لا يعلم بذلك، فلما أعلن بنو يصلتين بالخلاف على سعيد جمع اصحابه وخرج اليهم ومعه سعادة

(1) الجزء السادس صحيفة 213. (2) المسالك والممالك صحيفة 49 .

الله، فلما التحمت الحرب تحيز سعادة الله فيمن تبعه الى بنى يصلتين فخذل سعيدا فانهزم وأخذت بنوده وطبوله وقتلوا من مواليه نحو ألف رجل وأتوا مع سعادة الله حتى حاصروه بنكور واستجمع سعيد قواه وكر عليهم فهزمهم وأسر ميمون ابن هارون أخا سعادة الله وقتله وسار سعادة الله الى تمسمان وحرق سعيد دوره وخربها ثم صالح سعيدا فانصرف الى النكور، وفى ابن خلدون (1) تقبض – يعنى الامير سعيدا – على أخى سعادة الله ميمون فضرب عنقه ثم سار سعادة الله الى طلب الصلح فأسعفه وانزله معه مدينة النكور بعد الصلح (وهو كذلك لان بنى يطتين غلبوا أولا سعيدا وأخذوا بنوده وطبوله ثم استجمع قواه وتغلب عليهم وهرب سعادة الله الى تمسمان ثم صالحه وسكن معه مدينة النكور) .

وبعد ذلك جمع الامير سعيد قومه وأهل ايالته من غمارة وقام بغزو (بلاد بطيوة) (وتيصف) وقاوع جارة (وهى قبيلة قلعية) وبنى ورتدى (وهم أهل مليلية) وانه نهد بهم قال البكرى (الى مرنيسة وزناتة فقتل واستقاد له جميع ذلك البلد،) وقد انتصر فى هذه الغزوة التى قام بها بمختلف القبائل شرقا وجنوبا، لانه حارب أولا بلاد بطيوة وهى قبائل تمسمان وبنى وليشك وتفرسيت كما حارب قلعية وأهل مليلية ثم عطف على القبائل الجنوبية من مرنيسة واكزناية، وفى ابن خلدون ما يدل على أنه عقب هذه الغزوة سكنت ايالته والقت قيادة الطاعة فقال (انه توطد له الامر فى تلك النواحى (نواحى النكور) واصهر بأخته (أم السعيد) الى احمد بن محمد بن سليمان (ابن عبد الله بن الحسن بن الحسين (2) بن على) صاحبه وأنزله مدينة النكور، ولم يكدر عليه عيشه الرغد واستقراره المكين الا قيام عبد الله المهدى الشيعى مناوئا اياه، فكتب هذا اليه يدعوه الى الخضوع له وكتب فى أسفل الكتاب ينذره أن لم يستجب دعوته أبياتا كثيرة منها البيتان اللذان هما :

وان (3) تستقيموا استقم بصلاحكم ... وان تعدلوا عنى أرى قتلكم عدلا
وأعلو بسيفى قاهرا لسيوفكم ... وادخلها عفوا واملؤها قتلا

---

(1) الجزء السادس صحيفة 213. (2) كذا الاصل والصواب الحسن .
(3) تاريخ ابن خلدون الجزء السادس صحيفة 213 .

فأثر ذلك فيه وفى عائلته فأمر أخوه يوسف بن صالح شاعرهم الاحمس الطليطلى ان يجيبه، فاجابه بالمثل أو أشد فى أبيات كثيرة منها الابيمات التاليـة :

كذبت (1) وبيت الحق ما تحسن العدلا
ولا علـم الرحمان من قولك انفصلا
وما أنت الا جاهل ومنافق
تمثل للجهال فى السنة المثلى
وهمتنا العليا لدين محمد
وقد جعل الرحمان همتك السفلى

فأغضبت هذه الابيات الشديدة اللهجة عبيد الله المهدى الشيعى وكتب الى مصالة بن حبوس صاحب تهرت يأمره بغزو النكور فأغزاها سنة 304 غرة ذى الحجة ونزل من مدينة النكور على مسيرة يوم بموضع يقال له تاسفت (وهو موضع جبلى بقبيلة بنى توزين يسكنه ربع تاسفت المعروف بهذا الاسم الى الآن) فخرج اليه سعيد بن صالح فحاربه ثلاثة أيام متكافئا معه وكان مع سعيد رجل من شجعان البربر واعلامهم يقال له حمو بن العياشى قال فى المسالك «من بنى يطوفت» (وهى قبيلة بنى يطفت التى تقع فيها قصبة اسندة) (2) دعته نفسه الى أن يقصد معسكر مصالة فيفتك به فوافى المعسكر فى سبعة فوارس واقتحم على مصالة فتصايح الناس وكاثروهم فأخذ حموا سيرا ومن معه فأمر مصالة بضرب أعناقهم فقال حمو ليس مثلى يقتل فقال مصالة ولم؟ قال لانك لا تطمع فى سعيد الا بى وعلى يدى فاستبقاه وقربه والطف مكانه حتى أنس به ثم أعطاه قطعة من العسكر فقصد بها من جانب كان يعلم الغرة منه حتى دخل معسكر سعيد من المأمن من حيث لا يظن ففرق جمعه وغشى سعيدا مالم يأتأهب له، وتتابعت عليه العساكر فنظر أمرا لا يستطيع المقام عليه فبعث من مدينة النكور كل من كان فى قصره وما معهم وصاروا الى جزيرة فى مرسى النكور (وهذه الجزيرة هى التى تقع قبالة مسجد أجدير

(1) ابن خلدون الجزء السادس صحيفة 213. (2) المالك صحيفة 95 .

الناطح للسحاب بصومعته فى الفضاء على ربوة المزمة وهى على شكل بارجة حربية تسترعى أنظار ركاب السيارات المنسابة بين هضاب المزمة الملتفة التى يجدد شبابها وادى غيس بجداوله الممتدة بين اليمين والشمال، غادية ورائحة وهو منظر خلاب زاده رونقا المنبسط الفسيح ذو الاشجار بينما وادى النكور يقوم بقسطه الوافر ويسابقه فى اثارة الحياة مرسلا جداوله أيضا من مدينة النكور الى حيث يلتقى بجداول غيس فتتحد لطلحة واحدة وهى اخراج مخبئات الارض لخير البشر ويبلغ هذا المنبسط من الهكتارات تقريبا تسعة آلاف، والجزيرة بدورها تمدها من بحرها بالسمك الطرى اللذيذ، فاستقر فى الجزيرة آل سعيد ومعهم صالح وادريس والمعتصم أولاد سعيد وظاهر سعيد بين ذرعين هو وفتيانه وخاصته وقاتل حتى قتل واستبيح عسكره ودخل مصالة مدينة النكور يوم الخميس لثلاث خاون من المحرم عام 305 هـ. وعليه فقد بقيت بينهما الحرب سنة كاملة وسبعة وعشرين يوما) وانتهب مصالة مدينة النكور وسبى النساء والذرية وبعث بالفتح الى عبيد الله الشيعى وبعث برأس سعيد بن صالح ومنصور بن ادريس بن صالح وغيرهما من بنى صالح بن منصور فطيف بها فى مدينة القيروان ونصبت بمدينة رقادة وفى تلك يقول أبو جعفر احمد بن المروزى فى أرجوزة لـــه :

لما (1) طغى الارذل وابن الارذل ... فى عصبة من الطغـام (2) الجهل
من الالـه كالحريـق المشعـل ... فحـل أرضا طالمـا لم تحلـل
حطم أهل كفرها بالكاكـل (3) ... وجاء رأس رأسـهـا المبـذل
على القنا من الرمـاح الذبل (4) ... ذو لمـة شاعثـة لـم تغسـل
ولحيـة غبـراء لم تـرجل (5)

---

(1) الابيات فى المسالك والممالك صحيفة 95 (2) اوغاد الناس للواحد والجمع (3) الجمع: كلاكل وهى الجماعات ويطلق على الصدر أو ما بين الترقوتين (4) صفة للرماح يقال الرماح الذوابل أى الدقيقة.
(5) يقال رجل الشعر : سرحـه

وقد كان النصر أولا حليف سعيد ثم تغلب مصالة أخيرا وقتل منهم وشرد وبعث الرؤوس الى رقادة وطيف بها كما تقدم .

أما البقية من أولاد سعيد فانهم قطعوا البحر من جزيرة النكور فارين الى مالقة وكان صاحبها اذ ذاك عبد الرحمن بن محمد الناصر لدين الله فرحب بهم وتقبلهم أحسن قبول وبالغ فى اكرامهم وحباهم بالكسوة الرفيعة والصلات الجزيلة وخيرهم بين المقام بدار مملكته أو المقام بمالقة فاختاروا الاخيرة لقربها من بلدهم رجاء أن يجدوا غرة فيرجعوا اليها.

وبقى الفاتح مصالة فى عاصمة النكور ستة أشهر ثم قفل راجعا الى مقره (تهرت) وولى عليهم رجلا من كتامة يدعى دلولا وهو من أصحابه ولم يستعمل هذا التدبير اللازم مع جيشه فانفضوا حوله وكان بفارغ الصبر للانقضاض عليه .

الامير صالح بن سعيد

ولما بلغ الخبر الى اولاد سعيد الذين كانوا بمالقة وعلموا ثورة جنوده عليه، كانوا هم ثلاثة ادريس والمعتصم وصالح، وكان معهم قومهم بمالقة تلقوا الخبر بغاية الابتهاج فتسارعوا بقطع البحر فسبق صالح ونزل بمرسى تمسمان بوادى البقر ــ واد امقران ــ وهى القصبة السفلى المدفون فيها جدهم صالح المعروف ضريحه هناك قال البكرى (1) (وذلك أنهم اتفقوا على أن يركبوا فى ليلة واحدة ووقت واحد وبريح واحد، فمن سبق منهم فهو الذى يتولى امارة النكور خلفا لابيه، فسبق صالح وعاق الاخوين البحر فبقيا فى البحر شهرين، وهما يترددان ثم وصلا بعد ذلك سالمين الى «النكور» واجتمع البرابر اليه هناك، وبايعوه سنة 305 هـ ولقبوه «بالقيم» لصغره هكذا فى ابن خلدون، والذى فى المسالك والممالك «باليتيم» من اليتم وهو الصحيح، لقول ابن خلدون لصغره فدل على أن لفظة القيم عنده تصحيف ومن هناك أى تمسمان) هجموا على دلول الكتامى قائد مصالة على النكور وانتصروا عليه وقبضوا عليه وأعدموه

---

(1) المسالك والممالك صحيفة 97 .

وصلبوه مع جماعة على ضفتى نهر النكور، وكتب صالح رسالة الى الناصر لدين الله صاحب مالقة وبشره بفتح بلاد آبائه وأعلمه بأنه يقيم الدعوة له فقابله هذا بالشكر وأرسل له هدايا وتحفا وآلة حربية كعربون على شكره ووصل الى صالح جميع أخوته وقومه الذين بقوا فى مالقة معلنين له طاعتهم، وقد كان صالح هذا شديد الاقتداء بسلفه فى الظهور بالمظهر الدينى الجدى واستمر كذلك الى أن توفى سنة 315 فتكون ولايته حسبما تقدم عشر سنين وفى ابن خلدون ما يأتى (1) (ولم يزل على هدى أوليه من الاقتداء الى أن هلك سنة 15 (يعنى) وثلاثمائة فحاصره وتغلب عليه فقتله واستباح المدينة وخربها سنة 17 (يعنى وثلاثمائة) ثم راجع اليها وقام بأمرهم أبوا نور اسماعيل بن عبد المالك ابن عبد الرحمان بن سعيد بن ادريس بن صالح بن منصور واعاد المدينة التى بناها صالح ابن منصور وسكنها ثلاثا هـ؟ كلام ابن خلدون وفيه من الغموض ما لا يخفى .

أما أولا فلم يبين المحاصر (كسرا) من المحاصر (فتحا) لانه كما ترى ويظهر من كلامه أن الواقعة كانت بعد موت صالح لقوله انه خرب المدينة سنة 17 وموته سنة 15 وهل كان قام بالامر من بعده أخ من أخويه المار ذكرهما، ولما قتلهما قام بالامر من بعدهما ولد عمهما :

وأما ثانيا: فان قوله راجع اليها لم يلتئم مع قوله، وقام بأمرهم أبو نور اسماعيل الخ. لان هذا من عائلة الامراء اليمنيين، ولعل المقصود رجع عن المدينة وتركها لاصحابها الشرعيين .

وأما ثالثا: فان الذى بنى المدينة هو ادريس بن صالح كما مر والواقع فى كلامه هو صالح بن منصور ويمكن أن يجاب عن هذا بأن صالح ابن منصور كان صاحب فكرة بنائها فلذا يصح نسة البناء اليه مجارا .

مقتل الامير ابى أنور اسماعيل بن عبد الملك

وبعد أن تولى الامر الامير اسماعيل أوعز ميسور مولى أبى القاسم ابن عبد الله الى صندل مولاه عندما أناخ بفاس فجهزه بمعسكره وأمره بالتوجه لمحاربة امارة النكور، فتوجه صندل وحارب جراوة وعطف على

---

(1) الجزء السادس صحيفة 213 .

نكور، وكان اسماعيل استعد له فى قلعة أيرى وحصنها وشرع صندل يرسل له الرسل من طريقة يفاوضه للاستسلام، فغضب اسماعيل لذلك وقتل الرسل، فلما علم صندل بذلك أسرع المسير الى أن وصل الى القلعة وانشب الحرب معه واستمر القتال ثمانية أيام فظفر صندل به وقتله وأباح القلعة للجند فعاثوا فيها فسادا وسبوا النساء والذرارى وقتلوا الرجال وولى عليهم رجلا من كتامة اسمه مزمازو ورجع هو الى فاس ولكن أهل النكور لم يرضوا بالفاتحين فانتفضوا على الكتامى هذا .

موسى بن المعتصم

وبايعوا موسى بن المعتصم بن صالح بن منصور اليمنى وكان مقيما عند بنى يصلتين أهل جبل أبى الحسن (ولعله من بقية اللاجئين الى بنى يصلتين أهل جبل أبى الحسن عندما اضطهدهم أخوهم الامير سعيد ابن صالح بن سعيد كما تقدم) وموسى هذا كان يعرف بابن الرومى وقال صاحب (1) المقياس هو موسى بن رومى بن عبد السميع بن رومى ابن ادريس بن صالح بن ادريس وقد انتقم الامير موسى من أعدائه فظفر بمرمازو الكتامى ومن معه فقتلهم وبعث برؤوسهم الى الناصر لدين الله صاحب مالقة (يظهر أنه اقتدى بأسلافه فى الدعوة للناصر مكافأة له على تقبله له واحسانه) .

الامير عبد السميع بن جرثم بن ادريس بن صالح

ثم أنه ثار على موسى بن صالح عبد السميع من أعيان بيته وخلعه وأخرجه من النكور سنة 329 وارتحل موسى بأهله وولده وكثير من عمومته ومعه أخوه هارون بن رومى الى الاندلس ونزل هو المرية، وأما قومه فمنهم من نزل هناك ومنهم من نزل فى مالقة، أما الامير عبد السميع فانه بقى فى امارته الى سنة 336 وفى هذه السنة ثار عليه أهل النكور وقتلوه.

الامير جريح بن احمد بن زيادة الله بن سعيد بن ادريس ابن صالح بن منصور

وبعد ما انتفضوا على عبد السميع وقتلوه استدعوا جريحا من

---

(1) نقلا عن تاريخ ابن خلدون الجزء السادس .

مالقة وولوه أمرهم، واستقر له الامر الى أن توفى آخر سنة 360 وكانت مدة ولايته 25 سنة وكان سلفيا شديد الاقتداء بأوليه متدينا على مذهب الامام مالك كأسلافه وبقيت الامارة متصلــة فى اولاده الى سنـــة 406 فانقرضت دولتهم من النكور بعد أن استمرت 314 سنة من لدن تأسيسها فى تمسمان سنة 91 هـ. على يد صالح بن منصور المدفون ثمة، وقد كان سبب انقراضها أن ازداجة الذين تغلبوا فى نفـــس التاريخ على وهـــران والذيــن كانــوا جيران امـــارة النكـــور أرادوا توسيـــع ملكهم فزحـــف الامـــير يعلـــى بـــن أبـــى الفـــتـــوح الازداجـــى عـــلـــى النـــكـــور واستولى عليهـــا وخرب مدينـــة النكور وبقيـــت امـــارة النكـــور بعد فى أولاده قال، ابن خلدون (1) الى أعوام 460 ثم أن يوسف بن تاشفين وجه وجهته نحو بلاد الريف سنة 473 قال فى القرطاس (2) (وفيها فتح مدينة أجرسيف ومدينة مليلية وجميع بلاد الريف وفتح مدينة النكور وخربهـــا ولـــم تعمـــر بعـــد) .

هنا نصل بهذا البحث عن قيمة هذه المدينة التاريخية التى كانـــت المحور الاساسى فى هذه الزاوية من المغرب طيلة قرون أربعة تقريبا، وقد طاولت الايام فى استقرارها رغم الغـــزوات الموجهة اليها شمالا بغـــزو المجوس اياها بأساطلهم بحرا، فلم يمكثوا فيها سوى ثمانية أيام، كمـــا غزاها عبيد الله الشيعى شرقا بواسطة قائده على تهرت مصالة ابن حبوس وكانت النتيجة اخراج عامله على النكور ودحره كما غزتها مكناسة ثـــم فاس جنوبـــا ولم يمكـــث عامل صندل عليهـــا المدعو مرمازو الا قليـــلا وقبـــض علـــيـــه .

ولم يحل عقدتها الا الهرم الذى يعترى الامم والدول كما يعترى الافراد، فكان عونا لامراء ازداجة على القضاء على امارة النكور العربيـــة وذلك بسبب الفتن الداخلية التى كانت تنشب ما بين فترة وأخرى ســـواء التى بين العائلة نفسها تارة وبين السكان والعائلة تارة أخرى .

---

(1) من كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر الخ .
(2) لابى العباس احمد بن أبى زرع توفى فى بضع عشرة وسبعمائة .

وقد كانت نهاية الانقراض محتمة على هذه الامارة وذلك نتيجة تكوينها من عرب بدو لم يألفوا الحضارة ولم يصحبوا شيئا من قانون الحضارة تتمركز عليه امارتهم وتتسع دراسه برامجها باتساع نفوذها، بل اقتصرت فقط على الصبغة الدينيه التى اعتمدوا عليها فى حكم الاهليين، فكان سبب استقرار أحوالهم والتفاف السكان حولهم وقد تجلى ذلك فى التعريف بكل شخصية من شخصيات هذه الامارة التى أسلفنا ذكرها، فلا يكاد يخلو تاريخ أى فرد منها من وصفه بالتدين المتمسك بأهدافه والمقتدى بسلفه فى المذهب، وهذه الصبغة الدينية كما عند (1) ابن خلدون هى اسبب فى حصول الملك للامم المتوحشة .

ولذا اعتمد عليها كثير من الفاتحين للمغرب وكان سبب نجاحهم فى تأسيس امارة أو دولة وهى ظاهرة غالبة على أهل المغرب، فانهم انقادوا للاسلام انقيادا لم تزعزعهم عنه مطاولة العصور والاحقاب ومنه هذه الزاوية التى كان الفضل الاكبر للعرب اليمنيين فى ذلك، وقد دللنا بهذا البحث على قيمة هذه المدينة التى لم يترك منها الزمان الا رسوما بعد ما قوضها يوسف بن تاشفين تقويضا شأن اعماله فى التهديم لما بناه غيره ولو فى القطر الاندلسى الشقيق مهد الحضارة، ولو ترك يوسف بن تاشفين هذه المدينة وعمرها ونقل اليها الحضارة لما كان من شأنها معه الا تخليد ذكره، ووصل جنوب بلاده بشماله وضبطه بها ضفة هامة من البحر الابيض المتوسط، وأظهرنا هذه الامارة العربية التى ساست بلاد الريف، فكانت الشغل الشاغل للممالك المجاورة لها، وقد كان لها شبه استقلال فى ادارتها غير ما كانت تقوم به طوعا من الولاء تارة للخلفاء الامويين فى الجزيرة العربية لانهم القائمون بالخلافة الاسلامية وهم فى درجة تقديس كبرى فى عقيدة الاسلام، وتارة لملوك الاندلس لحسن الجوار ولطف المعاملة كما تجلى فى مقابلة عبد الرحمن الناصر لدين الله بالاكرام والتجلة للعرب الفارين اليه أيام اضطهادهم .

ومن نتيجة الفتح المذكور ظاهرة أخرى غير ترسيخ العقيدة

---

(1) فى المقدمة .

الاسلامية فى الافئدة وهى ترك السلالة العربية تشارك السلالة البربرية وتمتزج بها امتزاجا تناسليا فتكون من سكان الريف العربى وللبربرى والمزيج منهما رغم جهل أية نسبة من النسب تمت بها الآن السلالاة المذكورة وان كان يغلب على الظن أن السلالة العربية قوية أيضا لما انفصل عليه علم الاجتماع كما فى مقدمة ابن خلدون (من ان الرياسة لا تكون الا بالغلب والغلب انما يكون بالعصبية فلابد للرياسة من أن تكون عصبية غالبة لعصبياتهم واحدة واحدة لان كل عصبية منهم اذا أحست بغلب عصبية الرئيس لهم أقروا بالاذعان والاتباع والساقط فى نسبهم بالجملة لا تكون له عصبية فيهم بالنسبة انما هو ملصق لزيق) .

ولو كان عدد الفاتحين دون السكان لما كانت عصبيتهم تقوى على عصبية السكان فيكون لهم الغلب ثم الاستقرار ولو أنه بعد الاستقرار كان انجاح الاكبر راجعا الى العصبية الدينية، فانما ذلك بعد حين وبعد ذوق حلاوة الدين الفاتح، ويزاد على ذلك ان السلالة العربية قد تسللت الى الريف فسكنت بلاد النكور فى شخص بعض الاشراف الادريسيين فى حين دولتهم بعد انقراضها، (1) وسيأتى تفصيل ذلك .

مدينة بادس

ان اسم بادس يطلق فى التاريخ الاسلامى بحوض البحر الابيض المتوسط على مسميات أربع، اثنان منها لقائدين بربريين احدهما قائد صنهاجى بشمال افريقيا وهو بادس بن منصور بن بلكين بن زيرى بن مناد الصنهاجى، وكان أميرا على صنهاجة افريقية الشمالية تابعا للفاطميين الذى تكونت دولتهم عقب انهيار الدولة العباسية فى هذه الاقطار، أسسها عبيد الله بن المهدى الشيعى الفاطمى نسبة الى فاطمة بنت رسول الله (ص) حسب ادعائهم، وكان ذلك بتاريخ 868 ميلادية ــ أى حوالى النصف الاول من القرن الثالث الهجرى ــ.

أما القائد الثانى فهو بادس بن حبوس أمير غرناطة الذى قضى على ملك الاشراف الادارسة المعروفين بالحموديين بمالقة عام 449 هـ. حيث

---

(1) هنا ينتهى الجزء الاول من بحث الريف بعد الفتح الاسلامى .

اضطر بعضهم الى الانتقال الى بطيوة بمليلية ونواحيها لمحاولة تأليف امارة الادارسة هناك عام 456 هـ. ولكن لم يحالفه النجاح .

أما الاسمان الآخران فأحدهما لموضع بالزاب قال فى معجم البلدان (1) قال السلفى سمعت الاصم النوتى يقول: الزاب الكبير منه بسكرة وقسطنطينية وطولقة وقفصة ونفزاوة وخطة وبادس .

وثانيهما لمدينة على ساحل البحر الابيض المتوسط قال فى الصدر المذكور (وبقرب فاس على البحر مدينة يقال لها بادس) وهذا الاخير هو الذى يعنينا هنا وهو اسم المدينة المدعوة بهذا الاسم، واضافة لهذا الاسم هناك جزيرة تصاقب المدينة تدعى عند جغرافيى العرب بجزيرة بادس، وتدعى عند الاسبان «بانبنيون» وهى احدى القلاع الخمس التى على شواطىء الشمال والتى لا زالت ماسورة باحتلال الاجنبى لها، وهى من الغرب الى الشرق حسب التالى: سبتة، جزيرة بادس، جزيرة النكور (الحسيمة)، مليلية الجزر الجعفرية (وهى ثلاث جزر متقاربة أعظمها جزيرة الكنغريس).

وقبل الكلام على مدينة بادس وتأسيسها يجدر أن نشير الى أنه وقع خلط عند بعض الكتاب، فلم يفرق بين المدينة وجزيرتها، فاعتبر أن الجزيرة هى نفس المدينة، حيث استشهد بقول المؤخ الشريف الادريسى السبتى فى نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق .

«بادس مدينة متحضرة فيها أسواق وصناعات وهى آخر بلد غمارة، ويلجأ اليها أهل غمارة لقضاء حوائجهم) وسيأتى تفصيل ذلك عند الكلام على الجزيرة .

والواقع أن مدينة بادس التى ورد فيها نص المؤرخ المذكور هى غير جزيرتها التى سنخصها فيما بعد ان يسر الله بابحاث مستقلة نظرا للاحداث التاريخية المهمة التى تعرضت لها باستهدافها لصراع عنيف بين المغاربة من جهة واتراك الجزائر واسبانيا من جهة أخرى، الى أن انفصلت عن المغرب انفصالا جائرا .

ففى معجم البلدان (2) : بادس بكسر الدال المهملة وسين غير

---

(1) لياقوت الحموى — صحيفة 364 . (2) صحيفة 29 الجزء الثانى .

معجمة اسم لموضعين بالمغرب (المغرب العربى) قال أبو طاهر احمد بن محمد سمعت أبا الحجاج يوسف بن عبدون بن حفاظ الزناتى بالاسكندرية يقول سمعت أبا عبد الله البادسى الفقيه وهو من بادس فاس لا من بادس الزاب وبادس فاس على البحر قرب فاس» .

ومدينة بادس هذه تقع على الضفة الجنوبية للبحر الابيض المتوسط بين حافات جبال قبيلة بقيوة غربى مدينة الحسيمة ببعد حوالى 25 كلم بحرا وحوالى 45 كلم برا، وتقع جزيرة بادس قبالتها ولذا نسبت اليها ويفصل بينهما قنال من ماء البحر .

أجل كانت هذه المدينة بمثابة اكليل على هامة الشاطىء الشمالى للمغرب، وكانت صلة الوصل بين العدوتين الشمالية والجنوبية، فهنا المغرب تحت سلطان قادة برابرة عظام من مصامدة وصنهاجة وزناتة، وهناك الاندلس موطن الفاتحين الاولين من العرب الذين خلفهم فى نفس المهمة أولئك البرابرة من المغاربة، كما طار اليه صقور قريش من الامويين لتأسيس الحضارة العربية على الاسس المتينة نشرا لالوية الاسلام وفضائل القرآن الكريم ونقلا لحضارة الشرق من بغداد عاصمة العباسيين ومدينة أبى جعفر المنصور التى أسسها مدورة، والتى كانت تضم يوما ما مائة مترجم لكتب الحكمة والفلسفة مارة تلك الحضارة عن طريق القيروان مدينة الفاتح العبقرى المتقشف «عقبة بن نافع الفهرى» بقصر تونس لتصل تلك الحضارة الى الغرب العربى بالعدوة الاخرى، حيث تستقر بطليطلة وغرناطة وقرطبة واضرابها لاجل تعزيز صولة الفتح العسكرى بالفتح الثقافى فى شبه الجزيرة الايبيرية شمالى بحر الزقاق وكان موقع بادس من الاندلس لا يقل أهمية من موقع سبتة، فاذا كانت هذه رابضة على مدخل الممر المائى العالى الهائل، فان بادس معززة بجزيرتها كانت احد الروافد المغربية لذلك الاشعاع العربى الاسلامى الذى هاجر الى غرب أوربا، وفضلا عن ذلك فقد كانت الحارسة الامامية لذلك الممر المائى كى لا يؤخذ على غرة .

وبالنسبة للمغرب فقد كانت مرفأ هاما لتصدير السلع وتوريدها من العدوة الاخرى واليها، ولتصدير المجاهدين الاشداء، وكانت الزوارق

تجوب عباب البحر بهم حيث مواقع نقع السيوف التى يطلبون الشهادة تحت ظلالها ولرفع راية الاسلام هنات خفاقـة .

ففى تواريـخ بادس التى دونت أحداثها وعمرانها ـ وأغلبها مخطوطات ذات أهميه ـ حبرها فطاحيل من علماء ذلك العصر من رجال نفس المدينة أو من غيرها يتبين الدور الرئيسى الذى قامت به بصالح العلم والعرفان والعمـران الحضارى أسوة بسبتـه وغيرها من مدن الثغـور الاسـلاميـة .

وقد كانت ظاهرة تلك التواريخ الاساسية هى التى كانت سائـدة فى بيئة ذلك العصر من تسجيل حوادث العلم والصلاح، وبالتالى همـم الصلحاء الذين يستكملون صلاحهم بفضـل الجهاد فى سبيل الله وسـد ثغـور البـلاد الاسـلاميـة .

ويبدو منها أنها كانت تتأثر فى حياتها التاريخية بعوامل ثلاثـة :

أولها: انها كانت كما أسلفنا معبرا للحضارة الشرقية الى أوربا.

ثانيها: انها كانت بابـا مطروقا بل منفـدا هاما ومرفئا للمغـرب يستعمله لصلة الوصل بين العدوتين وبالاخص عن طريق فاس وتـازا، ولاجل التدليل على ذلك نورد هنا قصـة وردت فى مخطوط ألفـه قاضى الجماعة بفاس الشيخ الجليل أبو عبد الله محمد الاورابى (ترجم لهـذا المؤلف صاحب سلوة الانفاس صحيفة 301 وقال عنه: انه قاضى الجماعة العالم الجليل كما ذكر شيوخه الذين أخذ عنهم وتلامدته الذين أخذوا عنه، وكلهم من فحول علماء المغرب ومثله فعل صاحـب نيل الابتهاج وجـدوة الاقتبـاس) .

وكان الغرض من تأليف هذا الكتاب التعريف بمناقب أبى يعقوب البادسى، ولهذا المؤلف قيمته التاريخية خصوصـا وان مؤلفه من النقـاد المتبصرين فقد قال فى حقه صاحب سلوة الانفاس (1)، «انه عارف بأحوال أهل زمانه خاصة وعامة وتواريخهم وانسابهم كثير الحكايات فى مجالسه، ناهيك وأنه أخذ عن الشيخ أبى الحسن الغرناطى وأبى عبد الله محمد بن

(1) الجزء الثانى صحيفة 29.

احمد يوسف الطنجاوى وأخذ عنه سيدى احمد السراج الكبير وأبو الوليد اسماعيل ابن الاحمر، وله فتاوى فى المعيار، ولد بتاريخ 701 وتوفى فى ليلة الاثنين 16 ذى القعدة عام 782 هـ ».

وهذه القصة التى نستدل بها تدل على كون بادس مرفأ للمغرب الداخلى، فقد جاء فيه (1) «أن السلطان أبا الحسن على بن أبى سعيد عثمان المرينى وجه خادمه غازى بن الكأس الى بادس برسم جواز المجاهدين الى الاندلس فى قاربين سمى احدهما باسم غراب والآخر باسم طريرة وعندما وصل الخديم الى قائد بادس لاعلامه بأمر السلطان تجمع هناك تجار يريدون أن يجتازوا بسلعهم الى الاندلس للاغراض التجارية، ولما لم يجدوا المراكب فقد تجمعوا وذهبوا الى أبى يعقوب البادسى أى بصفته وليا صالحا ورجل بادس الاوحد الذى يفزعون اليه فى ملماتهم حيث يهتم بشؤونهم، فتدخل أبو يعقوب لدى الخديم واعتذر هذا بأنه رسول فقط الى الوالى، فأرسل أبو يعقوب الى هذا الاخير وطلب منه تلبية رغبة التجار، فرفض الطلب وقال فى صيغة «مليح والله السلطان أمرنى على الاجفان (القوارب) برسم الجهاد وأنا أحمل فيها التجار» فغضب الشيخ أبو يعقوب وقال: «لابد أنهم يجتازون فيها فتوسل الى ربه وعلم السلطان بأمر التجار، فما لبث أن جاءت الاغاثة الالهية بأن أرسل السلطان يأمر الوالى بأن يحمل التجار، وهى منقبة حفظت للولى الصالح .

وفى المعجم التاريخى للاستاذ عبد العزيز بن عبد الله صحيفة 12 كانت بادس مدينة تجارية مهمة تعتبر ميناء لفاس على البحر الابيض المتوسط، وكان الاسطول التجارى البندقى يأتى مرة كل سنتين الى هذه الميناء .

أما العامل الثالث الذى تأثرت به المدينة، فهو هذا الحجيج من العلماء والصلحاء، سواء من الاندلس أو من المغرب، بل ومن المشرق، وهنا نكتفى بأن نورد عائلة مهمة من عائلات الاندلس العالمية التى اختارت هذه المدينة كما نأتى بعده بشهادة عالم ناقد مشهور، وهو لسان الدين بن الخطيب .

---

(1) أى فى المقصد الشريف .

أما العائلة الاندلسية فقد جاء فى مخطوط (المقصــد الشريف فى التعريــف بصلحــاء الريف) وهو الذى ألفه أحد أفــراد هــذه العائلــة وهو أبو محمد عبد الحق بن القاضى اسماعيل الخزرجى المتوفى أوائـــل القرن الثامن الهجرى، وعبد الحق هو اسمه أما كنيته فهو أبو محمد وليس كما جاء فى كتاب دليل مؤرخ المغرب من قوله محمد بن عبد الحق، وجاء فى هذا المخطوط تعداد أفراد هذه العائلة، ويتبين من ذلك أنها هاجــرت من الاندلس فى زمن كان الاندلس لا زال فردوســا غير مفقود ونظرا الى أن بادس كانت نسخــة طبق الاصل من حضــارة الاندلس ومدنه، بل كــان الاندلسيون يفضلونها لما اتسمت به من الصـــلاح ومــا يشاع عنها مــن أنها مقبرة الاتقياء، ولذا نزحت هذه العائلة وأمثالهــا .

وتنحدر العائلة فى الاصل عن قيس بن سعد بن عبادة اللخزرجى وهم أحد الذين آزرو النبى (ص) وأصحابه فى مطلع النبوة بيثرب التى دعيت فى الاسلام «بالمدينة المنورة» مع الحى الآخر الذى هو حى الاوس، وقد خلدوا جميعا أمجادا اسلامية أولى لما نبغ فيهم من الايمان الصادق عند ما جحدت قريــش ونصبت العداء للديــن الحق، فرفع الحيان رايــة النجدة وآوت النبى (ص) وأصحابه المهاجرين ضد طغيان بنى عمومتهم، ثم أسلاف هذه العائلة الخزرجية كانت تسكن فى مدينة غرناطة وقد دعاها سمعة بادس العلمية والصلاحية أن ترحل اليها، فاستقرت فيهــا .

ورغم أننا لم نعثر على الظروف التى نزحت فيها عن غرناطة ولا تاريخ استقرارها ببادس ولا من هو الرجل الاول الذى حل بها، الا أنه من المعروف جيدا حسبا يأتى، أن العائلــة تركت شهرة فى العلم والصـــلاح والقضاء، كونها الاشخاص التالون الذين من عائلة بنى الاحمر الخزراجيين.

1) أبو العباس احمد بن الخضر الخزرجى الغرناطى :

كان فقيها واماما فى جامع بادس وهو الجامع الكبــير .

وهذا القدر من التعريف به، هو الذى يؤخذ من المصادر المخطوطة التى بين أيدينا، ولا يعرف شىء عن ظروف حياته وتاريخها، الا ما يؤخذ من كون ولد أخيه الآتية ترجمته بعد، خلفه فى امامة المسجد ببادس وولد أخيه

هذا كان حيا فى النصف الاول من القرن السابع الهجرى، وعليه فيكون حيا فى أواخر القرن السادس الهجـــرى .

2) أبو العباس احمد بن محمد بن الخضر الخزرجى :

كان حيا فى أول القرن السابع الهجرى وتوفى عام 615 هـ.

حياتـــه اليوميـــة : روى عن بنته زينب (المترجم له) وكانت عجوز صدق، راوية للاخبار، وقالت كان أبى الفقيه أبو العباس يصوم النهـــار ويقوم الليل ويعلم كتاب الله، فلا يجالس أحدا ولا يخالطه أحد، ويومـــا الخميـــس والجمعة يلازم منزله فلا يخرج الا الى الصلاة، وهو كـــان الامام الخطيب ببادس بعد عمـــه أبى العباس احمد بن الخضر، وكـــان وافقه فى الاســـم .

حياتـــه العائليـــة : تزوج مرتين، أولا تزوج بنت عمه ــ أى أبى العباس بن الخضر المتقدم الذكر ــ وهى أم الفقيه حيون وابراهيم، ثـــم ماتت فتزوج ثانيا صفية بنت ستر بن مسعود، فولد له معها محمد وزينب واسماعيل (القاضى اسماعيل بعده)، وهذا الاخير كان أصغر اخوانه تركه أبوه رضيعا، والفقيه حيون أكبرهـــم .

صلاحـــه وتقـــواه: كان كثير التصدق، روى عن بنته زينب قالت: كان اذا خرج لقضاء مآربه فوجد انسانا عريانا كساه ثوبا من ثيابه التى عليه، وربما اعطى فى اليوم الواحد ثوبين أو ثلاثـــة .

وكان فى بعض الايام يصنع أبياتا من الشعر، ويكتبها فى كفـــه، ثم يكررها ويبكى، وكان لا يعمل شعرا الا فى الزهـــد .

ممـــاتـــــه: سبق أنه تـــوفى عـــام 615 هـ. وقـــد روت بنتـــه زينب المذكورة فى شأن موته، قالت وكنا ليلة نائمين فاستيقظ فقال لامى صفية، قرب الوقت، فقالت له وما ذاك، قال رأيت الساعة النبى (صلعم) وأبا بكر رضى الله عنه، فأبوبكر يمشط رأسى بمشط فى يديـــه، والنبى (صلعم) يصب الماء على رأسى، انما ذلك طهارة من الدنيا، قالت فأصبح متوضئا وتوالى وصاله، فمات دون سبع من ليلة تلك الرؤيـــا .

3) الفقيــه حيون بن أبى العبــاس :

لا نعلم عن حياته الا ما حلته به أخته من الاب زينب، لقونها الفقيه حيون، وهو أكبر أولاد احمد بن محمد ابن الخضر، ويليه ابراهيم وهــو شقيقه، ثم محمد وزينب واسماعيل أبنـــاء صفية بنت ستر بن مسعــود كمــا تقــدم .

كما لا نعلم شيئا عن ترجمة ابراهيم ومحمد .

4) القاضى الشيخ اسماعيل بن احمد الخزرجى البادسى :

ولد بتاريخ عام 614 هـ. بمدينــة بادس، تركه أبوه ابن سنــة، ينتمى نسبه الى سعد بن عبادة الخزرجى وهو من علماء بادس الصالحين، تولى القضاء ببادس وكان مثال العدالة والنزاهة وكان كريما جوادا، كان أولا يقرأ القرآن للصبيان الى أن أجبر عن تولى القضاء، فتولاه بحقــه الا أنه تمسك بعادة تعليم القرآن، فقد قال ان ضيعت عيالى فأنا لما سواهم أضيع وذلك أنه يرى ان ترك أولاده وأقاربه بدون تعليم القرآن ضياع لهم.

فقهــه وورعــه: ويحكى عن نزاهتــه فى القضاء أعاجيــب، فمن ذلك أنه ذات يوم أتاه شخص بجــراب مملوء لوزا وأربعــة رؤوس من الدجاج وآنية من السمن وشيئا من البصل مظهرا أن ذلك هدية له لغــير سبب، ولكن القاضى رد عليه ذلــك، وامتنــع من أخذه بل زجــره، وبعد الصلاة فى ذلك النهار أتى بذلك الانسان شخــص فى دعوى دين له عليــه وثيقة بسكة قديمة غير السكة المتعامل بها حين المحاكمة، فقال له القاضى انما أتيت بما أتيت به الى من الهدية لاجل أن تقضى الدين بالسكة الحالية، ثم حكم عليه بأن يرد الدين بقيمة السكة القديمة ذهبا، لانها معلومة (وهو الوجه الشرعى فى مثل الديون الذهبيــة والفضية التى لا يجوز فيهــا التفاضل والنسا)، غير أنه أوصى رب الدين أن يحسن من التقاضى.

كراماتــــه: كان والى بادس فى وقتــه اراد أن يخاطــب له على شهادة زور فامتنع القاضى من ذلك، وكان هذا الوالى سلف للقاضى قبل أن يتولى القضاء خمسة عشر دينارا، جهز بها بعض بناته، الا أنه قاضـــاه فى أجر تعليم أولاد الوالى القرآن سنة، وبرأه من الدين بوثيقة، ولكــن الوثيقة ضاعت من يد القاضى، فطلبه الوالى بخمسة عشر دينارا، منكرا

أن يكون قاضاه باقراء الاولاد، ولكن القاضى استنكف من اليمين، فما كان من القاضى الا أن عقد سلما فى شعير له بثمانية دنانير، ودفع الدراهم الى الوالى الظالم وصرها هذا فى طرف حزامه، وذهب الى البحر وقعد فى ظل قارب على الساحل لينفذ بعض أشغاله، فمال عليه القارب بدون سبب فشدخه وانكسرت يده وحمل على أسوء حال، ودراهم الشيخ مصرورة فى حزامه، وتعذب عذابا أليما، وتعطلت يده، ومع ذلك فانه لم يرجع الدراهم الى أن مات وأتى ولده الى القاضى حاملا الوثيقة التى أبرأه فيها والده.

ومما يحكى فى كراماته أن شخصا معروفا بالغصب والتعدى يدعى محمد بن جعفر، أقام عرسا فى داره، فأهدى حسب العادة بعض لحم لعائلة القاضى، ولم يكن عارفا بذلك، فقام من نوم القيلولة فرأى كأن نارا تخرج من تحت الاناء الذى يحلب فيه، فأفاق، وسأل زوجته عما تحت الاناء، فأخبرته بهدية محمد بن جعفر، فأمر الخادم برمى ذلك فى الزقاق.

وفاته: توفى رحمه الله فى العشر الثانى من ذى الحجة عام خمسة وثمانين وستمائة هجرية (685 هـ ـ الموافق 1286 م)، وفى أثناء مرضه الذى توفى به أخبر ولده العالم الجليل المؤلف الشيخ عبد الحق بوقت وفاته وذلك انه لما ثقل عليه المرض عاده جمع من الصالحين، فلما خرجوا من عنده، تعرضوا لصلاحه، وقالوا ان مرضه ثقيل عليه وربما لا ينجو من الموت، فسمعت بناته ذلك فجعلن يبكين فقال لولده قل لهن يسكتن ولا ينحن، فان يوم الاربعاء تقضى الحاجة، ثم أخذ فى النزع، فلما أصبح أفاق فقال لى ناولنى تراب التيمم لاصلى صلاة الصبح، فتيمم وصلى الصبح، ثم غاب غيبة عظيمة، فلما كان وقت الزوال فتح عينيه، وقال اسندنى الى الحائط ثم اضجعته فاستقبل القبلة ليتمدد وتشهد ومات، ولم نتمكن من دفنه ذلك اليوم بل الى غده، كما قال، وظهر على وجهه اشراق وضياء.

5) أبو محمد عبد الحق بن اسماعيل الخزرجى :

هو العالم العلامة المؤلف المتصوف المحقق صاحب كتاب القصد الشريف فى التعريف بصلحاء الريف، توفى أوائل القرن الثامن الهجرى وكان حيا بتاريخ 722 هـ.

وقد اختلط عن صاحب كتاب دليل المؤرخ فسماه محمد بن اسماعيل مع أنه أبو محمد كنية واسمه عبد الحق كما أشرنـــا .

مكانتـــه العلميـــة: ومن خلال تأليفه هذا يعلم باعه فى علم الحقائق وغوصه عن المعانى الرقيقة، واذا قال رأيا فى المسألة قال قولا سديدا، مع احاطته بما ورد فى الموضوع، ولاجل الايضاح نأتى بجمل من نظرياتـــه فى الجدال الذى يقع بين الائمة، ففى ميـــدان ما قاله الفيلســوف ابن سبعين المرسى فى: أن الروح الكلى هو جوهر بسيط يلقى الى الاجسام البشرية من نوره ما تلقيه الشمس من شعاعها الى المرايا الصقلية، وقد تبـــع فى ذلك أبا حامد الغزالى الذى تبـــع عبد الجليل بن موسى القصـــرى. قال عبد الحق وما قاله أبو حامد وعبد الجليل باطل، وقـــد استند قائلـــه الى الحدس والتخمين ويتحقق بطلانه انه لو كان كذلك لما تميزت النفوس بعد موت الاجسام، ولا ترتب عليها حكم من ثواب وعقاب الخ...، ثم قـــال: والقائلون بالروح الكلى هم الفلاسفة، ولا دليل لهم على ذلك الا محـــض التحكم، وعندهم الاجساد لا تتعدد، وانما تتعدد الارواح، ثم قال الصحيح ان الارواح محدثة متعددة الاجسام، وانها باقية فى البرزخ الى حين النشر فتقاد الى أجسامها وان أرواح السعداء منعمة وأرواح الاشقياء معذبة الخ.

وله تدخلات فى مواضع دقيقة بعد نقله المستفيـــض لما ثبـــث فى الموضوع من نصوص قرآنية وأحاديث نبوية أو كلام طفاحيل العلمـــاء فى الميـــدان أى ميـــدان كـــان .

حياتـــه العلميـــة والصوفيـــة :

من خلال كتابه هذا تبين قدم الرجل فى العلم والصلاح، فقد ألف هذا الكتاب، كتاب «المقصد الشريف فى التعريف بصلحاء الريف»، فى جزأين الاول يتضمن اصطلاحات الصوفية فى علوم العقائد، ومراحل الصـــلاح مبنية على ما ورد فى الموضوع من كتاب وسنة ورواية كبار الائمة وآرائهم المبينـــة على الشريعـــة .

وقد قسم كتابـــه الى أقسام ثلاثـــة، الاول فى مقامات الاوليـــاء وكراماتهم وما قيل فى ذلك عن علماء الميدان، بعد أن يأتى بما يستدل بـــه

على ذلك من القرآن الكريم وما ورد فيه من الاحاديث ثم أقوال القــوم، وقد رتب هذا القسم على أربعة فصول، يذكر أول كل فصل المعنى اللغوى، ثم المعنى الشرعي ثم المعنى الاصطلاحي وهذه الفصول هي: الفصل الاول: الولاية، الفصل الثاني في الفقر والفقراء، يعني الفقر الاصطلاحي الذي هو لزوم طريقة من طرق التصوف، الفصل الثالث في التصوف واصطلاحه ومأخذه وكيفيـــة ابتـــداء أمره الى غـــير ذلك، الفصل الرابع في اثبـــات الكـــرامـــات للاوليـــاء .

أما الجزء الثاني فقد خصه لتراجم العلماء والصلحاء الذين كانوا في الجزء الشمالي من المغـــرب الذي سماه بالريف وعينـــه من سبتة الى تلمســان، وفي ضمن هذا الجزء يأتي بتكييف الحياة الاجتماعية لذلك العصر مع ذكر اخبار استطرادية مهمة في معرفة البيئة التي كانت سائدة وعلاقة بادس مع الاندلس ورحالات رجال بادس الى المشرق وما شاهدوه هناك، وذكر علاقة رجالها مع الدولة المغربية الى غير ذلك، مما يستفاد منه مـــن أحوال المغرب التي تأتي في خضم التعريف بالصلحاء والعلماء، كما يستفاد منه ان للمؤلف مؤلفات أخرى منها ما سماه «بطبقات الاولياء» لم نعثـــر عليه الى الآن كما ذكر بعض مؤلفات لغـــيره .

وعلى كل فقد أتينا هنا بذكر هذه العائلة، لانها تتضمن سلسلة من الافراد انحدروا عن غرناطة وما ادراك ما غرناطة في ذلك التاريخ، علـــى أنه هناك من هو أشهر وأغزر عرفانا وصلاحا منها، ونحـــن هنا نضـــرب أمثالا فقط لما توخيناه من ذكر الحضارة التاريخية لهذا الجزء، ولا يمكن أن نستقصي كل شيء الا أنه سيأتي الكلام عن حياة أفراد العائلة مفصلا ضمن تراجيم بعض رجال الشمال .

فمثلا نجد فيه قصصا في مغامرة المجاهدين في الاندلس، ولا تخلو تلك القصص من الطرافة والغرابة ذلك أنه جاء فيه أن المجاهـــدين كانـــوا يتعرضون للكلاب البواليس، فقد نقل عن أبي العباس احمـــد بـــن يحيى الزهيلي عن أبي علي بن عمر الطنجي وكلاهما ممن عرف بهم في الكتاب، قال: أي أبو علي الطنجي توجهت الى الاندلس غازيا فخرجت في سريـــة فدهمنا جيش عظيم فاسر من السرية أكثرها واستخفى بعضهم وكنـــت

ممن استخفى في شظية (الشظية ليست كلمة عربية فصحى والمراد هنا حفرة أما الفصحى كما فى المنجد فتطلق على القوس وعلى عضم الساق وفلقة العود) غير ساترة كانت رجلال بارزة منها، وما قدرت الا انى ماسور، قال فكانت خيل الروم ـ القصد من الروم النصارى على العموم كما هو شائع عند القوم ـ تمر بى فلا يرانى أحد منهم، ووقفت بالقرب منى جماعة ولهم كلاب أرسلوها للبحث، قال: فلقد أتت تلك الكلاب حتى لحست قدماى ثم انصرفت عنى فسترنى الله وكنت أقرأ سورة «يس» فلما جن الليل خرجت ومشيت فيسر الله على فى اللحاق ببلاد المسلمين.

تأسيس مدينة بادس :

يبدو من نصوص بعض الكتاب أن تاريخ تأسيس مدينة بادس غامض، فقد قال الاستاذ المرحوم احمد المكناسى مدير الخزانة العامة بتطوان سابقا فى بحث القاه فى مؤتمر الاثارات بفاس تحت عنوان «المدن الاسلامية المندرسة فى الشمال» ان تاريخ تأسيس بادس يرجع الى زمن سحيق، وهى عبارة كما يبدو لا تفى بالمتطلب فى تحديد هذا الزمن السحيق، ويتبادر الى الفهم انها مدينة ازلية أى قبل الفتح الاسلامى، مع أن عنوانه بنفسه يقتضى انها مدينة اسلامية أى تأسست فى احضان الاسلام، وهو على كل حال زمن غير سحيق .

وقرأت لبعض الكتاب فى جريدة الميثاق أنها تأسست بعد فتح جبل طارق عام 92 هجرية، أسسها أحد أمراء لواته وهكذا كانت العبارة أيضا غامضة شيئا ما، وقد يكون مرجع الغموض لدى هؤلاء الكتاب أنهم لم يعثروا على النص الصريح فى تاريخ تأسيسها ولا شخصية مؤسسها بالضبط .

الا أن الثابت تاريخيا، حسبما جاء فى تاريخ الترجمانة الكبرى (1) فى أخبار المعمور برا وبحرا لمؤرخ الدولة العلوية أبى القاسم الزيانى، انها ثانى مدينة اسلامية تأسست فى المغرب بعد مدينة النكور، فقد قال:

(1) صحيفة 79 طبعة وزارة الانباء بالرباط بتاريخ غشت 1967 .

«وأما بعد ظهور الاسلام فأول مدينة بنيت بالمغرب مدينة (1) النكــور، أســسها ادريس بن صالح الحميرى عام ثمانين (هجرية)، وجهه حسان ابن النعمان الغسانى أمير عبد المالك ابن مروان بافريقيا لفتح المغرب فنــزل الريف وعليه اسلم قبائل لواتة وأقام بتلك البلاد وورثها أولاده من بعده الى أن انتقلوا أعوام الفتنة الى الاندلس» .

«ثم مدينة بادس أســسها أمير لواتة الذى كان مع ادريس بن صالح الحميرى واسمه بادس عام تسعين هجرية ثم مدينة مليلية أســسها أمير يفرن الذى كان مع ادريس بن صالح واسمه امليل عام 92 هـ.» .

وعليه فان تأسيسها وتاريخه ثابت لا غبار عليه ولا يخدش فى ذلك عدم ذكر اسم والد بادس مؤسسها، لانه يكفى أنه كان مع الامير ادريس بن صالح الحميرى أى ممن آزروه من قواد لواتة وهى شعب من برابرة المغــرب حسبما عند ابن خلدون حيث قال «وتفرع من البربر الاولــى: المصامدة، البرانس، صنهاجة، كتامة، اوربة، لواتة، زناتة كما آزره أمــير من بنى يفرن فكانت الحكمة أن يحمى كــل أمير منها جناحا من امارتـــه فكان أمليل اليفرنى على الجناح الشرقى وبادس أمير لواتة على الجنــاح الشرقى فأسس كل منهما عاصمة امارتـــه .

أما بادس بن منصور بن بلكين الصنهاجى قائد العبيديين فى شمال افريقيا فان دولة العبيديين الذين يدعون بالفاطميين والشيعيين لم تقــم الا سنة 868 ميلادية أى فى النصف من القرن الثالث الهجرى، وان بادس هذا تأخر كثيرا عن تاريخ قيام الدولة، ذلك أن جده بلكين كان قاد حملة فى زمن قائد الفاطميين جوهر الصقلى أحد قادتهم العظام الذى احتل مصــر وبنى القاهرة باسم المعز العبيدى الفاطمى قادهـــا ضد المتأخريـــن من الادارسة الذين كانوا تحصنـــوا فى قلعة حجــرة النسر بشمال المغــرب، وبالضبط عند تولية أمر الادارســـة الحسن بن القاسم المعروف بكنـــون، حسبما جاء فى تاريخ ابن خلـــدون .

ومن المعروف أن مــولاى ادريس الثانى توفى عـــام 213 هـ ،

---

(1) سبق الكلام مستوفى عن هذه المدينـــة .

فقامت أمه كنزة البربرية الاوربية وقسمت اقاليم المملكة المغربية على أحفادها وان عمران ولد مولاى الادريس اختص ببادس كما جاء فى تاريخ الدرر السنية فى السلالة الادريسية للشريف سيدى محمد السنوسى الخطابى، وعليه فانه بتاريخ 213 هـ. كانت بادس موجودة ومعروفة .

فاذا كان بلكين جد القائد بادس الصنهاجى تأخر الى أواخر الادارسة، فان حفيده بادس يكون قد تولى أمر الفاطميين فيما بين 387—406 هـ.

وفى هذا التاريخ كانت بادس عامرة وكانت معروفة بهذا الاسم، أما بادس بن حبوس أمير غرناطة فهو مستبعد بالدرجة الاولى عن اعتباره له يد فى تأسيسها أو تسميتها لانه لم تكن له علاقة مع المغرب، عكس الصنهاجيين الذين آزروا الفاطميين الى آخر حياتهم التى امتدت قرابة ثلاثة قرون، وكان لهم فى المغرب بالذات صراعات وجولات وبالاخص مع الادارسة الذين وان كانوا أهل بيت النبوة وان الفاطميين قامت دولتهم حسب الظاهر للتشيع لآل البيت، الا ان هذا الصراع مع الادارسة أفادنا بأن المذهب الذى اعتنقوه كان لاجل الاستيلاء على أقطار شمال افريقيا فقط، وانهم لم يتأخروا ان يسفكوا دم المتشيع لهم، فقد جردوا لهم حملات متعددة تارة بقيادة العدو اللدوذ للادارسية وهو موسى بن أبى العافية المكناسى (من مكناسة تازا) وتارة بقيادة قائدهم على تهرورت بالجزائر مصالة بن حبوس .

ثم لما طمع موسى بن أبى العافية فى الاستبداد بالمغرب والولاء لعبد الرحمان الناصر لدين الله سيروا اليه حملة تحت قيادة حميد بن يصليتن المكناسى أيضا فاذاقه هزيمة لم تقم له قيامة من بعده، وذلك بتاريخ 321 هـ.

وهنا نرى أن الادارسة خضعوا بولائهم للعبديين وانضموا الى قائدهم ميسور الخصى .

وعلى كل فان المغرب كان مسرحا لصراعات عنيفة، وكان امراؤه من الادارسة ينقلبون وبالاخص عندما ضعف أمرهم لما تحصنوا بقلعة حجر النسر فى عهد يحيى بن ادريس بن عمر بن مولاى ادريس سنة

309 هـ. الى عهد ابراهيم بن محمد القاسم فتارة يدينون بالولاء للامويين بالاندلس وتارة للفاطميين، فاذا خطبوا للامويين كانت الحملات ضدهم غير رحيمة، ولا يتقيد الفاطميون بشعار التشيع لآل البيت .

وكان المغرب يتأثر بهذا الشعار أيضا حتى أننا نجد أحد المتصوفة من رجال بادس، وكان يدعى الحاج العباس الكميلي (من قبيلة كميل الريفية) حاول بتاريخ 685 هـ. اقامة نظام شيعي في الريف تابع للفاطميين، فاستولى على قبائل صنهاجة بادس، واحتل هذه المدينة نفسها ثم جمع جموعه وحاول اخضاع مدينة المزمة التي كانت توجد بقبيلة بني ورياغل بساحل جزيرة النكور (الحسيمة) وهناك قتل في 20 صفر الخير عام 686 هـ. وجز رأسه وبعث به الى مراكش عاصمة المرينيين زمن السلطان أبي يعقوب يوسف ابن يعقوب بن عبد الحق، فعلق الرأس بباب مراكش مع رأس أبي عامر عبد الله بن محمد بن علي بن محلي البطيوي القائم بمراكش، أما جثته فقد صلبت بباب المزمة، كما سبق .

أما مساحة هذه المدينة أي بادس فاننا نجد أيضا قصة طريفة في مخطوط المقصد الشريف تعطينا نظرة تقريبية عن المساحة المبنية في أواخر القرن السابع الهجري .

ويستفاد من القصة أن المدينة كانت عبارة عن حوالي 320 دارا، ذلك أنه في هذا التاريخ كان يعيش في بادس العالم الجليل التقي الورع الصالح وهو يوسف بن محمد بن عبد الله الزهيلي المعروف «بأبي يعقوب البادسي أصله من غرناطة» انتقل اسلافه الى بادس للاغراض السالفة الذكر، وكان صوفيا وعالما متبحرا قرأ القرآن على العالم القاضي اسماعيل الخزرجي المذكور آنفا وقرأ العربية والادب واللغة على الاستاذ أبي القاسم الاندلسي وقرأ الرسالة وتهذيب البرادعي على الشيخ أبي زكرياء المدفون ببقيوة، وقرأ ببادس تهذيب البرادعي على الفقيه العلامة أبي ابراهيم الاعرج الورياغلي جد الشرفاء الغلبزوريين بالريف ورحل الى فاس، وقرأ موطأ الامام مالك على قاضيها وامام الفرضيين فيها الفقيه المزدغي، ثم عاد الى بادس وظهرت عليه مخاييل العرفان في التصوف، حتى عرف بالولاية والصلاح، ألف في مناقبه قاضي الجماعة بفاس الشيخ الامام أبو عبد الله محمد الاورابي المتقدم الذكر .

ومفاد القصة التى تروى عدد ديار بادس آن تلامذة أبى يعقوب البادسى الذين كانوا يجالسونه للاستفادة منه علما وعملا قالوا انه قال لهم ذات يوم (ان الولى يشفع فى أربعين دارا امامه واربعين خلفه وأربعين عن يمنه وأربعين عن يساره) ففهموا أن القصد من الولى هو نفسه بالذات، متسابقوا لعد الدور فالفوا أن ديار مدينة بادس كلها داخلة فى شفاعته.

وهنا يؤخذ من القصة أن أصحابه لو عرفوا أن الديار عن جهاته الاربع أقل من أربعين فبالضرورة لا يتسابقون لعدها، ولكن عندما اشتبهوا فى كثرتها ازالوا الشك بالعد .

وبالطبع فان العملية الحسابية التى تعطى النتيجة هى أن كلا من الخطين العمودى والافقى يتكون كل واحد منهما من 160 دارا، فاذا أضيف الى ذلك الديار التى يشغل الاضلاع التى بين العمودين، تكون الديار لا تقل عن 320 دارا، على أن الاضلاع تتسع لاكثر عند وسط ورأس العمودين.

أما المرافق الاخرى التى تتوفر عليها كل مدينة متحضرة فانها متوفرة أيضا فى بادس وكان فيها الجامع الاعظم الذى كان مقر التدريس وملتقى الرواد من علماء الاندلس وفاس وسبتة وغيرها من مدن المغرب، ويوجد كثير من النصوص فى المخطوطات التى تكفلت بحياة الصلحاء والعلماء الذين عاشوا فى مختلف الاحقاب فى المدينة، فمثلا قال المؤلف أبو الحسن على المراكشى أصلا البادسى قرارا فى مخطوطه الذى ألفه فى مناقب شيخ زمانه الحاج حسون البقيوى الادوزى، قال: «انى كنت جالسا بمدينة بادس أيام اقامتى بها عند الشيخ الابر الولى الصالح أبى محمد عبد الله التستورى فى جامعها الاعظم، وكنا نتكلم مع أهل بادس عن كرامة الاولياء ».

وجاء فى مخطوط مناقب أبى يعقوب البادسى، قال: «أبو الحسن على خديم الشيخ ان والده كان فى المسجد الجامع ببادس جالسا مع سارية من سوارى المسجد والشيخ أبو يعقوب جالس مع الحائط» الى غير ذلك من النصوص وذلك لان المسجد الاعظم لا يتوفر عليها الا المدن المتحضرة والا فهناك مساجد أخرى مثل مسجد المقبرة وغيرها .

كما كانت تتوفر على دار للصنعة التى توسعت طبق حاجة العمران

حتى شملت رباطة، كانت تدعى رباطة ساحل البحر، ففى مخطوط المقصد الشريف، «كان أبو يعقوب البادسى يتعبد فى الرباطة التى على ساحل البحر خارج المدينة وهى التى ادخلت الآن بدار الصنعة» .

كما كانت تتوفر على قلاع مثل قلعة صنهاجة ورباطات للمجاهدين والاتقياء، وكانت توجد فى هذه المنطقة رباطة أم ايمن انشأتها امراة صالحة، ولذا دعيت بها، ورباطة تمدى (وكلمة تمدى تعنى النسر فى اللهجة المحلية)، ورباطة ساحل البحر، ورباطة للا منانة انشأتها هذه المراة الصالحة، ورباطة المزمة ولا زالت الى الآن تسمى بمسجد المجاهدين قبالة جزيرة النكور، ورباطة أبى داود، انشأها شيخ زمانه أبو داود البلندى التمسمانى، وله ضريح مشهور، ورباطة النكور، ورباطة الصيد ورباطة حجارة اسودان، الى غير ذلك، ذلك أن شواطىء البحر كانت مملوءة بهذه الرباطات للعبادة والحراسة من طرق العدو البحرى للشواطىء .

ولتوضيع تلك المرافق عدا المسجد الاعظم نذكر هنا مقتطفات من تلك المخطوطات التى ذكرتها .

مسجد المقبرة : وكان فيها مسجد أخر يدعى مسجد المقبرة، ومن الاضافة يعلم أنه كان بمقبرة بادس ففى «المقصد الشريف» وكان على بن محمد النعجة اماما لمسجد المقبرة .

قصبة بادس : وكان فيها قصبة تدعى قصبة بادس كان محلا لنتجارة والعمران، ففى المقصد الشريف وحدثنى بعض تلامذته أنه قال وجهنا الشيخ أبو عبد الله (اليستثشى) رحمه الله الى بادس لنشترى له زيتا، فقال اقصدوا بقصبة بادس تاجرا اسمه موسى بن عطار فاشتروا منه جرة زيت اشبيلى هى عنده فى قعر مخزن حانوته .

قلعة صنهاجة : ففى مكان آخر من المصدر نفسه قال «فلما كان وقت العصر نادى مناد على جبل العقبة المشرفة على بادس من جهة قلعة صنهاجة» .

دار الصنعة : كما كانت فيها دار للصنعة توسعت على ممر السنين بمقتضى الحاجة اذ دخلت فيها رابطة الساحل، ففى المصدر نفسه «بالرباطة التى على ساحل البحر خارج المدينة وهى التى ادخلت الآن

بدار الصنعة»، فيقتضى هذا النص دار الصنعة كانت خارج المدينة، حيث تكون بعيدة عن السكان، خوف اذايتهم واحتراما للسكنى .

رباطات المجاهدين على شواطىء البحر المتوسـط :

ببـادس لم نعثر فى كتب التاريخ الا على ثلاث رباطات، الاولى رباطة ساحل البحر، الثانية رباطة أم ايمن، الثالثة رباطة تمدى التى تخص بادس فالاولى كانت على ساحل البحر، وهى التى ادخلت بدار الصنعة وكان يتحنث فيها الشيخ أبو يعقوب البادسى بعد رجوعه من فاس واستقر ببادس، فكان يختلى فيها ويتصوف، ويقضى فيها الايام موحدا ربه الى أن لاحت عليه بوادر الحق، واعترته الحقائق الباطنية .

أما الثانية فكانت أيضا قرب البحر، ولها غرف كـان يتعبد فيهـا العالم المؤلف أبو الحسن على بن محمد المراكشـى .

وأما الثالثة رباطة أم ايمن، فانها انشأتها امرأة صالحـة تدعى أم أيمن فنسبت اليها، وكانت فوق الجبل المطل على ساحل البحر المدعـو سـاحـل مكـرم .

وحدث عن الشيخ الصالح الرضى ابن العباس احمد بن سوسان انه قال: كان من عادة عباد بقيوة، وصلحائهم ومشايخهم أن يجتمعوا ليلة النصف من شعبان وليلة سبعة وعشرين من رمضان وليلة عاشوراء فـى الرباطة المعروفة بأم أيمن الكائنة فوق الجبل المطل على ساحل مكرم وهى رباطة فاضلة أمرت ببنائها امرأة صالحة اسمها أم أيمن فعرفت باسمها» .

وعدا هذه الرباطات الثلاث فانه كان على طول ساحل البحر الممتد من بلاد الريف الى سبتة رباطات أخرى كانت بمثابة مركز حراسى يرابط فيها المجاهدون الصالحون لمراقبة أنفسهم ولمراقبة العدو المباغت بحـرا.

وكانت القرصنة البحرية التى توجه غاراتها ضد البلاد لنهب المال وأخذ الاولاد تجوب خلال المراسى وقـد أسس رباطة بتمسمان الشيـخ

الصالـــح أبو داود البلندى (1) وكـــن هذا الشيخ من تلاميـــذ أبى مدين، ولما رجع من عنده الى بلده بتمسامان بنى هذه الرابطـــة .

وكانت اذ ذاك تدعى بنى ورتدا وكان موضع داره يدعى باحلاس على ساحل البحر الذى كان يدعى ساحل تيقلال، بنى على ساحل البحـــر بتقلال رباطة بينها وبين المزمة خمس فراسخ، يتحنث فيها مع أصحابـــه وتلامذته، وكانت فى مكان مخوف من عدو ابحر المقاتل للمسلمين (2) .

وحدث عن أبى عقيل حفيد ابن داود قال: سمعت جدى الحـــاج ابراهيم يقول سمعت جدى الشيخ ابا داود يقول: كان موضع هذه الرابطه يعنى الرباطة التى أقام بناءها ملكا لبعض جيراننا فكنت أصلى فيه فاذا جاء ربه وجد فيه محرابا مبنيا، فيقول لى يا أبا داود من حل لك أن تبنى محرابا فى أرضى بغير أذنى، أتريد أن ترد أرضى مسجدا، فأقول له مـــا بنيت ولا أمرت به فيهدمه وينصرف، فلما طال عليه ذلك وعلم صدقى قال لعل الله أراد أن يكون فيه مسجد، قد وهبته له، قال فبنى فيه أبو داود الرباطة المعروفة له التى اتفق له فيها مع النصارى القصة الآتيـــة وانفق فى بنائها بالآجور والخشب الطيب وصرف مالا جسيما اعانه فيها رجـــال صالحون ميسورون نفعهم الله بذلـــك .

ومن هذه الحكاية تظهر فوائد هـــذه الرباطات، فكما كانت محـــل عبادة وخلوة، كانت مركزا حراسيا يحرس فيها هؤلاء الصالحون طوارق البحر حتى لا يباغتهم العدو الذى كـــان يأخذ ابنـــاء المسلمين لبيعهـــم فى الاقطار الاخرى، أو لتنصيرهم أو لتمرينهم على الملاحة واللصوصية، ورغم أن كثيرا ما يعتمد المتجردون للعبادة فى تلك الرباطات على الكرامات وطرق العوائد، الا أنه لا يخلو وقتهم من فض الحسام والدفاع عن حوزة الوطن.

أما القصة التى اتفقت لابى داود فى رباطته هذه فان حفيد حفيده أباعقيل (وسيأتـــى التعريف بالجميع) قال: حدثنـــى من مشيخة أهلـــى

---

(1) يوجد فى مدشر كزناية من قبيلة فحص طنجة عائلة من تمسامـــان لا زالوا الى الآن يدعون بالبلنديين .

(2) المقصد الشريف للتعريف بصلحاء الريف .

وجيراني وحدثني جدى الحـــاج أبو اسحاق ابراهيـــم بن عيسى بن أبى داود، وكان (أبو اسحاق) ادرك اباداود، وقال أستفاض عندنا ما اتفق لابى داود مع العدو البحرى قصمه الله، وذلك كان الشيخ أبو داود بات ليلة من الليالى فى رباطته فحبسه العدو بهـــا، وتحمل أسيرا فى سلـــورة للروم، فلما حاولوا المسير به توقفت السلـــورة، فما زالـــوا كذلك حتـــى أصبحوا وهم فى موضعهم الذى كانوا فيه حين تحمل الشيخ فقالوا لـــه: قم فانزل فأنت طالق، قال لهم لا أنزل حتى تخلوا سبيل كل اسير عندكـــم من المسلمين، ففعلوا، ثم راموا الحركة بالسلورة فلم تتحرك، فأشـــاروا اليه بالضراعة والتـــذلل أن يخلى سبيلهم فأشـــار اليهم أنه قـــد بقى فى سلورتكم عصاى، وقيل نعلاه، فلما ردوا عليه عصاه أو نعله نهض جفنهم(1).

ثم قال أبوعقيل وما زال الشيخ أبو داود يتعبد فى رباطته حتى مات وحفيده الحاج ابراهيم، وما رأينا فيها قط عدوا بحريا يتسوغ عليها، وهى ظاهرة يراها كل من هو على الساحل، قال ويظهر أن أسر الشيخ أبى داود، انما كان فى حق من استقر فى تلك السلورة أسيرا من المسلمـــين، حتى خلصهم الله ببركته، وهذه الرباطة فى قبيلة تمسامان ولا زالت الى الآن تدعى الرابضة وهى قرية من قرى آل بوداود الى الجهة المواليـــة لوادى النكور على ساحل البحر، وهى قريبة لمدينة المزمة التاريخية بمالا يزيد عن خمسة فراسخ، أما سيدى أبوداود، فانه مدفون بتمسامان وقـــد سميت الفرقة التى دفن فيها بآل بوداود الى الآن وضريحه مشهور ثمة، وسيأتى التعريـــف به .

موضوع الرباطة نفسه أقيم فيه مسجد الرابضة وعندما أسس المسجد على انقاضها كان العملة يعثرون على آجور وجير البناء الاول .

رباطـــة المـــزمـــة : وهذه الرباطة حولت الآن الى مسجد ويدعى

---

(1) الجفنة فى المنجد: القطعة الكبيرة ومنها أخذ الجفن للزورق وهو الذى عبر عنه بالسلوة وهى بكسر السين المشددة وفتح اللام كذلك مـــع سكون الواو، ان الكلمة أخذت من اسم سمك قال فى المنجد السلـــور اسم سمـــك بحرى .

مسجد المجاهدين، هى بهضبة على رأس المزمة قبالة جزيرة النكور التى تسامتها، وفى أسفل قرية أجدير وقد كان الموضع مهما جدا، لكونه بقرب جزيرة النكور، ومنه كان الاهالى يراقبون حركات الاسبان فى جزيرة النكور، وكان صلحاء بنى ورياغل يرابطون فيه ليل نهار، وحتى فى المدة الاخيرة لما كانت الحروب منشوبة بين الاهالى والاسبان، كانت الحراسة فيه متناوبة بين المجاهدين، وكان الزعيم ابن عبد الكريم يحشر اليها فقراء الطرق للحراسة فيه ومن امتنع منهم يخرج أعوانه من طائفتهم فلا يجد مقاما بينهم .

أما الآن فأصبح على حسب العادة الموروثة عندهم تقام حفلات دينية بمناسبة عاشوراء والمولد النبوى الشريف، ويقصده القبائل المجاورة، ومع الاسف فقد اختير الموضع أخيرا لاقامة نادى البحر الابيض للسياحة مما عفى صلاحه ومكانته .

رباطة للا منانة : وفى عهد بادس كانت هناك ما بين موضع الحسيمة الآن وبادس قرية عامرة ومرسى لسوق المراكب منها الى الاندلس، وهى غير بادس وغير المزمة وهى بمقدار خمسة أميال بحرا من الحسيمة وتدعى هذه القرية بوسكور وليست هى مدينة النكور التى التبست على البعض، فقد قلد صديقنا الاستاذ احمد المكناسى الامير شكيب أرسلان فى الحلل السندسية فقال: «ان بوزكور كانت مدينة فيما سلف لكنها خربت ولم يبق لها رسم وتسمى فى كتب التواريخ «نكور».، وهذا غلط عن شكيب أرسلان تبعه فيه الاستاذ احمد المكناسى مدير الخزانة العامة بتطوان سابقا، والواقع أن بوسكور موضع آخر قرب بادس، وبعيد عن النكور بحوالى 30 كلم، وبوسكور مرسى على البحر بين حافات بقيوة، أما مدينة النكور فهى بعيدة عن البحر بحوالى 15 كلم تقريبا، وتقع فى قبيلة بنى بوعياش والحقيقة أن الذى ذكرها هو الشريف الادريسى فى نزهة المشتاق، اذ قال: «ومن بوزكور الى المزمة 20 ميلا، وكانت قرية عامرة ومرسى توسق منها المراكب» .

وتوجد شرقى بوسكور قمة عالية كانت فيها رباطة تدعى رباطة

تلا منانة، ولا زالت معروفة بهذا الاسم الى الآن، وهى فى علو شاهق داخل فى البحر مشرف عليه اشرافا تاما .

وبوسكور هكذا بالسين، وليست بالزاى كما جاء فى الحلل السندسية نقلا عن نزهة المشتاق، وقد كانت قرية عامرة بين بادس والمزمة، ولا زال الموضع يعرف بهذا الاسم الى الآن، وهى غربى مدينة الحسيمة الآن بحوالى 10 كلم بحرا، وليست هى مدينة النكور كما ذكر فى المصدر نفسه (1) نقلا عن نزهة المشتاق للادريسى .

وتقع مرسى بوسكور أسفل قرية تدعى الآن التسولايين، وانما سميت بذلك لانها مسكونة بقوم أتى جدهم الذى يدعى محمد بن عبد العزيز من قبيلة التسول بأحواز تازة .

وللقرية عادة فى الصيف يقيمون فى مرسى بوسكور حفلة الصيف، ولعل هذه العادة موروثة عن أهل بوسكور، لانها كانت قرية عاصرت مدينة بادس، وكان بها مسجد قديم لا زال قائم الاثر، وقد عثر البناؤون عند ترميمه عن قرمود قديم، كما توجد آثار لصومعة فى موضع يدعى الخندق، وهذه الصومعة لم تكن للمسجد الاول، بل تدل على أنه كان هناك مسجد آخر بالخندق ويدعى الخندق الاسفل كما يوجد هناك خندق آخر يدعى بالخندق الاعلى .

وهناك ضريحان اثنان، احدهما يدعى بسيدى يعقوب والثانى لولده يدعى الحاج داود وهما شريفان بقاليان، ترك الثانى ولدا هناك يدعى الحاج ياسين، وفى شرقى بوسكور جرف يدعى بجرف الجمل وفى أعلاه، تقع رباطة تلا ميمونة، وهى قمة كما أسلفنا داخلة فى البحر يصعب الصعود اليها .

رباطة النكور : وعدا سواحل البحر فكانت توجد أيضا محل الرباطات يقوم فيها حراس المدينة ففى قرية الرابضة من بنى بوعياش، (وهى مسقط رأس عائلتنا) كانت توجد رباطة تدعى الى الآن أم الرابضة وهى فى أعلى قمة بالجنوب الغربى لمدينة النكور التاريخية،

---

(2) من اللحلل السندسية صحيفة 69 طبعة فاس .

ونشرف هذه الرباطة على سهول النكور جميعا، كما تشرف على هضبات بنى توزين وتمسامان وغيرها، بحيث أن الحراسة ثمه يمكن لها أن تطلع على ما يجرى فى الجهات الاربع لمدينة النكور، وكانت على خط الطريق الذى يربط بين مدينة النكور والجنوب مارا فى أعلى قمة جبل حمام وبنى عمرت الى فاس .

وهكذا كانت رباطات على السواحل والمواقع الهامة من البلاد حتى تصل الى سبتة فنجد ثمة أيضا رباطات منها :

1) رباطة الصيد : فقد حدث الشيخ أبو عبد الله محمد بن أبى القاسم بن الصبان عن أبيه قال أنه كان من أهل مدينة فاس فانتقل منها مرتحلا الى المشرق ثم رجع من المشرق فاستوطن مدينة سبتة الى أن مات بها، قال ابنه المذكور كنا معه يوما فى رباطة الصيد وجماعة من الناس قد حضروا فقال ان العوام فى البحر يجمعنا فقال الحاضرون سمعا وطاعة فنزلنا الى البحر وعمنا الخ. (1)، وذلك ان أحدهم كان جنبا فأراد بالعوم فى البحر أن يغتسل الجنب .

2) رباطة حجارة السودان : وكان بات ذلك الفقير ليلة وروده برباطة حجارة السودان خارج البلد (2) .

الاندلس تحيى بادس :

ان علاقة بادس بالاندلس كانت وثيقة كما أسلفنا، فالمراكب ذات الشراع الابيض تأتى بحركة بين العدوتين محملة من هنا وهناك بالسلع والمجاهدين، فالزيت الاشبيلى الجيد مما يستورد الى بادس ومعجون الترنج كان يتهادى به الاصحاب والخلان، فقد حدث الشيخ أبو الحسن ابن ماخوخ قال: كان بين الشيخ ابن عبد الله (اليستثنى) وبين الشيخ أبى اسحاق مراسلة ويرسل بمعجون الترنج (3)، والمجاهدون يفدون الى الخطوط الامامية لاجل الجهاد فى العدو وربما تعرضوا للكلاب

---

(1) المقصد الشريف للتعريف بصلحاء الريف للمؤلف عبد الحق الخزراجى.
(2) المصدر نفسه. (3) المصدر نفسه.

البوليسية، كما رحل الى بادس كثير من العلماء والصالحين ولهم فيها مقام حسن سنأتي على التعريف بهم في محله ان شاء الله.

أما التحية التي أرسلتها الاندلس مدوية صادقة تحمل الاشواق اليها، فهذه القصيدة الرنانة التي تعد من روائع لسان الدين ابن الخطيب، ذلك البلبل الصداح الذي غنى بشعره ونثره منتقلا من غصن الى غصن، متخيرا الاغراض الشيقة، فقد قال في مدينة بادس : (1).

عسى خطرة بالركب يا حادى العيس (2)
على الهضبة الشماء من قصر بادس
لنظفر من ذاك الزلال بعلة
وننعم في تلك الظلال بتعريس (3)
حبست بها ركبي فواقا (4) وانما
عقدت على قلبي لها عقد تحبيس
لقد رسخت آي الجوى في حوانحي
كما رسخ الانجيل في قلب قسيس
بميدان جفني للسهاد (5) كتيبة
تغير على سرح الكرى (6) في كراديس (7)
وما بي الا نفحة حاجرية
سرت والدجى ما بين وهي وتغليس (8)
ألا نفسي يا ريح من جانب الحمى
تنفس من نار الجوى بعض تنفيس
ويا قلب لا تلق السلاح فربما
تعذر في الدهر اطراد المقاييس

---

(1) أزهار الرياض. (2) الابل البيضاء يخالطها سواد خفيف الواحد العيس والواحدة عيساء (3) عرس القوم نزلوا في السفر للاستراحة ثم يرتحلون. (4) ما بين فتحة اليد وضمها على الضرع. (5) الارق. (6) النوم. (7) طائفة عظيمة من الخيل. (8) ظلمة آخر الليل.

وقــد تعتــب الايــام بــعــد عتــابهـــا
وقــد يعقــب اللـــه النعيــم مــن البــؤس
ولا تخش لـــج الدمــع يــا خطــرة الكــرى
الى الجفن بـــل قيســـى على صرح بلقيــس
تقــول سليمــى مــا لجسمــك شــاحــب ؟
مقـــالـــة تـــانيــب يشـــاب بتـــانـــيـــس
وقـــد كنــت تسطــو كلمــا هبت الصبـــا
بـــريـــان فى مـــاء الشبيبـــة مغـــمــــوس
ومن رابـــح الايـــام يـــا بنـــت عـــامــــر
يجــوب الفـــلا راحـــت يــداه بتفليـــس
فـــلا تحسبـــى والصـــدق خـــير سجـيـــة
ظهـــور النـــوى (1) الا بطون النـــواميـــس
وقـــفـــراء أمـــا ركـــبـــهـــا فمـــضـــلـــل
ومربعهـــا (2) مـــن آنـــس غـــير مأنـــوس
سنحـــنـــا بهـــا مـــن هـــضبـــة لـــقـــــرارة
ظـــلالا وملنـــا من كناس (3) الى خيـــس (4)
اذا مـــا نهضنـــا عـــن مقيـــل غـــزالـــة (5)
نزلنـــا فعرسنـــا بســـاحـــة عـــريــــس (6)
أدرنـــا بهـــا كأســـا دهـــاقـــا مـــن الســـرى
املنـــا بهـــا عنـــد الصبـــاح من الـــروس (7)
وحـــانــــة خمـــار هـــدانـــا لقصـــدهـــا
شـميـــم الحميـــا (8) واصطكـــاك النواقيـــس

(1) البعد. (2) محل الربيع الذى ترعاه الابل وغيرها. (3) عرين الضبـــاء الوديعة. (4) عرين الاســـد الشرسة. (5) الشمـــس عند ارتفاعهـــا. (6) نزلنا للاستراحة ثم ارتحلنا. (7) المشى بالتبختر (8) صـــورة الخمر أو الخمر نفســـه .

تطلع بانيها من جداره
يهيم فى جنح الظلام لتقديس
بكرنا وقلنا اذ نزلنا بساحة
عن الصافنات (1) الجرد والضمر العيس (2)
أيا عابد الناسوت انا عصابة
اتينا لتثليث بلى ولتسديس
وما قصدنا الا المقام بحانة
وكم البس الحق المبين بتلبيس
فأنزلنا قوراء (3) فى جنباتها
محاريب شتى لاختلاف النواميس
بدرنا بها طى الختام بسجدة
أردنا بها تجديد حسرة ابليس
ودار العذارى بالمدام كأنها
قطا (4) تتهادى فى رياش الطواويس
وصار فنانيها نضادا بمثله
كأنا ملأنا الكأس ليلا من الكيس (5)
وقمنا نشاوى عندما متع الضحى
كما نهضت غاب الاسود من الخيس (6)
فقال : لبيس المسلمون ضيوفنا
أما وأبيك الحبر ما نحن بالبيس (7)
وهل فى بنى مثواك الا مبرز
بحلبة شوى أو بحلقة تدريس

---

(1) الصافنات من الخيل التى تقف على ثلاث قوائم. (2) الابل البيضاء يخالطها سواد خفيف. (3) الخيل الضامرة من التعب. (4) الحمام . (5) العقل والظرف. (6) العرين. (7) لا يقال فى حقنا بيس القوم .

اذا هز عسال (1) اليراعة فاتكا
أسال نخيع (2) الحبر فوق القراطيس
يقلب تحت النقع (3) مقلة ضاحك
اذا التقت الابطال عن مقل شوس
سبينا عقار الروم فى عقر خاننا
بحيلة تمويه وخدعة تدليس
لئن أنكرت شكلى ففضلى واضح
وهل جائز فى العقل انكار محسوس ؟
رسبت بأقصى الغرب ذخر مظنة
وكم درة علياء فى قاع قاموس (4)
واغريت نفسى بالعذيب وبادس
على وطن دانى الجوار من انسوس

هذه هى القصيدة الرائعة التى حيا بها لسان الدين ابن الخطيب هذه المدينة التاريخية وقد أحسن فيها واجاد، وغاص على ذرر البلاغة فيها وافاد، وقد انتقى المقرى هذه القصيدة فى ازهار الرياض وعلق عليها فقال: قال بعض الاعلام شعر ابن الخطيب ما بعده مطمع لطامع، ولا معرج على شاعر بعده للآذان والمسامع، فمن ذلك قوله سامحه الله: (واتى على القصيدة برمتها) فالقصيدة تعبير صادق لما كانت عليه المدنية من عزة واكبار فى أعين الاندلسيين، فهضبتها شماء ــ أى منيعة ــ وعزيزة، لانها وعرة المسالك، ولكن بالرجال الاشداء الذين تحصنت بهم من حاملى السيوف والاقلام والصلاح معا .

لذلك فانه يترجى أن ينهل من معين عرفانها وصلاحها ولو بعلة، ــ بفتح العين ــ ما يتعلل به وان ينزل تحت ظلال السيوف أو الفلاح ولو آخر الليل .

---

(1) رمح يهتز لينا كناية هنا عن القلم. (2) نخع العود جرى منه الماء.
(3) الغبار المتطاير من القتال. (4) البحر .

ثم تحسر على أنه لم يحط بها ركابه الا فواقا ــ بضم الفاء وفتــح الواو ــ ما بين فتح اليد وضمها على الضرع وهو كناية عن أن الوقت الذى قضاه فيها قصير، ولو كانت أياما، لان ذلك بالنسبة لمزاياها لا يستكثــر، الا أنه سلى نفسه بأنه حبس قلبه، فالتحبيس لا يبدل ولا يغير، ثم ذكــر الباعث على التحبيس والنتائج الملموسة للتحبيس اذ رسخت آى الجــوى بجوانبه، ثم استغاث فى تضرع المحب وتذلله الا نفس ياريح من جانب الحمى، ومع ذلك فقد قوى من عزائمه وترك اليأس جانبا، شأن المتشبث الصارم كى لا يدخل اليأس الى نفسه فتنهار معنوياته، ويا قلــب لا تلقى السلاح وربما تعذر فى الدهر اطراد المقاييس، وضرب لاقناعه أى القلــب حكما وأمثلة مما لا ينكرها، وأمره بالتأسى بقوله «تعالى ادخلى الصرح» مع ما فيه من تشبيه بادس بصرح بلقيس، ثم رد ردا منطقيا صارما على بنت عامر، التى تزيد فى تجريك ما كمن من نار الجوى اذ تذكره بالشحوب وتغير اللون، فشرح لها أى عزة هى التى يشتملون عندما ينحدرون مــن الكناس ــ أى موضع الضباء الوديعة ــ الى خيس الاسد ــ أى عرينها ــ ليعرسوا بعريسها، فأى فخار هذا وأية سعادة تلك، حينما يتبادلون السرور كؤوسا دهاقا، ثم ما شئت من وصف بارع لحالة السرور التى صاغها فى الفاظ لم يرد منها الا التعبير الصادق لتلك الحالة، فالتثليث والتســديس والعذارى والمدام والنواميس ونشاوى، كل ذلك أضفى صورة بليغة ممتعة لحالة الابتهاج والانس بالاقران فى ميدان الصفاء، ثم ابان عن تلك المعانى اللغوية فى صراحة واعتزاز «وهل فى بنى مثواك الا مبرز ــ بحلبة شورى أو بحلقة تدريس»، ابان أن الرفاق من علية القوم من ايوان حكم أو شرف علم وصاحب قلم، لان المدينة ليست الا مأوى لامثال هؤلاء القوم فانكار صورة لا تزيح عن صاحبه فضلــه كوقوع الدر فى البحــر لا ينقــص من قيمتهــا .

ومع ذلك فانه لا يزال يغرى سجيته ويمنيها عن هذا الوطن بالبارق والعذيب، أى يغريها بمواضع أخرى محبوبة عندها حتى تتناسى عن الوطن القريــب من ســوس .

وأنت ترى أية تحية هذه التى أرسلها، وأى وصف هذا لهذا المعقل

الحصين من هذه العدوة المباركة، ويرجح أن يكون صدرت عنه بفاتح القرن الثامن لانه توفى سنة 706 هـ.

ابن سبعين الفيلسوف بيادس :

اسمه عبد الحق ابن سبعين المرسى من مرسية بالاندلس، ولد سنة 614 هـ. وتوفى سنة 669 هـ. وكان بادىء ذى بدء تصوف فاستقر بسبتة وشغفت به امرأة موسرة فتزوجها وبنت له زاوية فى داخل دارها وانفقت عليه أموالا طائلة، ثم أنه اشتغل بالفلسفة، وكان له باع طويل وبالاخص أن عهد الموحدين كان حافلا بالعلوم والفنون، وكان المغرب (1) من الاقطار التى يفزع اليها فى مشاكل الفلسفة، فكان ابن سبعين هذا بمن برز فى الفلسفة واحرز قصب السبق حتى ان علماء سبتة ندبوه للجواب على سؤال ملك ايطاليا فدريك الثانى الذى رفعه الى علماء سبتة فى مسائل فلسفية، فانتدب للجواب عنها وكان يعتبر اذ ذاك من الفلاسفة المسلمين الكبار، فألف كتابا سماه المسائل العقلية، وقد اشتمل على 19 صفحة، وتوجد منه نسخة خطية فى اكسفورد وألف كتابا آخر سماه الفقرية (2) قال فيه «الفقير ليس متصلا بالعالم ولا منفصلا عنه ولا داخلا فيه ولا خارجا عنه» وقد شيع عليه علماء الوقت فى ذلك، لان هذا الكلام لا معنى له كما اعترض عن الغزالى فقال انه مضطرب وعاب عن ابن سيناء، بأنه حائر وقال ان التصوف لم يدركه احد ممن سلف .

نفيه عن سبتة : وفى أثناء اشتغاله بالفلسفة بسبتة. قام أعداؤه بالوشى به عند حاكم المدينة ابن خلاص طاعنين فيه من حيث علاقته بالمرأة المثرية، ومن المعلوم أن الفلاسفة يعيشون فى عالم من حرية التفكير وربما يسخرون من العالم المادى وربما اطلقوا للسانهم العنان ليعبر عن تلك الافكار، فاذا بهم أمام مصاعب متلافة .

وذلك ما وقع لهذا الفيلسوف المتبحر، ووشى به أقر أنه من العلماء وجعلوا تأليفه الذى ألفه تحت عنوان «البد» سندا للطعن فيه، فانه

---

(1) نفح الطيب ج.أ.ص. 418، والمستشرقون ص. 17 وكتاب العلوم والادب والفنون فى عهد الموحدين للمنونى. (2) المقصد الشريف .

حشره بالنظريات الفلسفية، وانكروا عليه تسمية الكتاب «بالبد» وهو اسم صنم، يقول المعرى: «ويعبد القلب من اهوائه: ما يعبد الكافر من بده».

فنفاه ابن خلاص عن سبتة وجمع رحله فنزل ببادس، وكان يجلس فى الجامع الاعظم للمحاورات، فيأتيه العلماء والقضاة للحوار معه (1)، قال القاضى اسماعيل بن احمد الخزرجى البادسى المتوفى عام 685 هـ. ببادس، كان ابن سبعين قد استقر بمدينة سبتة، فشاع عنه أنه فيلسوف فنفاه ابن خلاص منها فمر علينا ببادس متوجها الى المشرق فدخلت عليه بجامع بادس فسألته، عن قوله تعالى «قل ان كان للرحمان ولد، فأنا أول العابدين»، فقال لى أول الجاحدين، قلت وهذا القول أضعف ما قيل فى ذلك، فانه انفرد أبو عبيدة بنقل العابد بمعنى الجاحد، قال: تقول العرب عبدنى حقى — أى جحدنى —، ثم أنه ارتحل الى المشرق فاستقر بمكة وكانت له أخبار فى الطب والفلسفة حتى انه صنع لابى نمى أمير مكة شقا فى رأسه كان أصيب به فى حرب بقشر القرعة، وحضى عنده واتسع ذكره واتصل خبره بالملك المظفر ملك اليمن فدس عليه من سمه فمات بمكة، وقد مدحه اوحد زمانه شعرا وأدبا وظرفا نجم الدين فى قصيدة بارعة منها،

وشيخ غدا فى الفضل منقطع الند أمام المعالى والمراقى ومن له
الفضل ما أربى عن الحصر والعد

البرغواطيون ببادس :

من هم البرغواطيون هؤلاء؟ : انهم من المصامدة، كان لهم نفوذ على البلاد التى كانت تعرف اذ ذاك بتماسنا، وهى ما بين سلا شمالا الى أسفى جنوبا، أسسوا مملكة هناك تعاقبوا عليها من أوائل القرن الثانى الهجرى الى أواسط القرن الخامس، وقد بنوا أمرهم هذا على خرافة التنبأ، أول من تنبأ منهم طريف البرغواطى، الا أنه لم يوطد أركان تنبئه على قواعد، ولعله لضيق الزمن الذى عمل فيه مستقلا، لانه كان تابعا لميسرة الخفير الصفرى، فلما توفى ميسرة خلفه، وانما الذى وسع فى تلك المخرفة

(1) المقصد الشريف .

ولده صالح بن طريف البرغواطى فانشـأ ديانة وحلل وحرم كـانت هذه الديانة لصالح الديك، لانها حرمت ذبحه وأكله فعظم شأنه وأصبح اماما فى صيحاتـه يتباهى ومن ذبحه اعتق رقبة، كما رفع الحجر عن الـزواج والطلاق، فليتزوج البرغواطى من شـاء، وليطلق كذلك الى غير ذلـك من الخـرافـات .

وبسبب هذا التنبؤ فتحت فى هذه الجهة من المغرب جبهة للجهـاد، مكان المغاربة، وبالاخص المتسابقون الى الاستشهاد يغزون فى سبيل الله ويقتلون الرغواطى اينما ثقف ويتوغلون فى تخوم البلاد التى استحوذوا عليها، ويردون هم الهجمات الى جهات المغرب الاخرى، غير تماسنا، وهكذا يكون المد والجزر وقد ظل الى ما شاء الله، الى أن قامت دولة المرابطـين، فطهرت المغرب منهم نهائيا .

ومما كان من هذا المد أنهم استولوا على مدينة بادس، الا أننا لا نعلم بالضبط أول استيلائهم ولا مدة بقائهم فيها، ماعدا ما وقفنا عنه من مخطوط لمناقب الشيخ الحاج حسون الذى كان حيا فى أواسط القـرن الخامس الهجرى، وحج عام 466، فيكون استيلاء البرغواطيين عليها كان أواخر ايامهم بالمغرب، لانهم انقرضوا بأواسط القرن الخامس وان ذلـك كـان قبل حج الشيـخ حسـون .

على ابن العافية البرغواطى والشيخ الحاج حسون :

كان على ابن العافية هذا قائدا للبرغواطيين على بادس وكان لـه وزراء وجنود وفى ضواحى هذه المدينـة من قبيلة بقيوة بقريـة ادوز، كانت تقع زاوية الشيخ حسون الذى تلمذ للشيخ أبى داود التمسمانى الذى تلمذ لابى مدين ورجع حسون الى بلـده بادوز وقعد باذن شيخـه ليربى التلاميذ المنقطعين الى العبـادة وترويض النفس، فشاع خبـره وصلاحه فى أواسط القبائل واثر فيهم ذلك الصلاح فأوجس منه القائـد البرغواطى خيفة وخشى تفاقم أمره واستعظمت له بطانته أمر الشيخ، فاستشار رئيس البرغواطيين بتاماسنا، وقـد قال فى كتاب «كشـف النقاب فى مناقب الشيخ الاواب الحاج حسون المبين فضله لدى كل مـن

أناب وقد صحت لدى كل من قد صدق ومن تاب» لمؤلفه أبى الحسن على المراكشى الذى توفى ببادس كما سيأتى عند التعريف به، ان قائد البرغواطيين هذا أرسل الى أخيه البرغواطى -يعنى رئيس البرغواطيين-، فقد أجابه رئيسهم بأن يغير بجنوده وأهالى القبائل على الشيخ وأمره فوق هذا بأن يقرأ كتابه على رؤوس الاشهاد ويطلق المنادين فى أسواق المدينة .

فأرسل الى القبائل لتتقاطر اليه ليؤلف حملة فأتت اليه مآت من الاجناد والرماة من قبائل بنى يطفت وهنتوتة وبنى ورغين وبنى بويفرح وغيرها، ولما تكاملت قوته وهم بالخروج من بادس الى جهة الحاج حسون بآدوز، دخل عليه الزاهد العابد الشريف الورع سيدى عبد الله (ولعله والد ابى عبد الله محمد الشريف المذكور فى مؤلف المقصد الشريف، لانه ذكر ثمة أنه محمد بن عبد الله الحسنى) وهو - أى عبد الله هذا - مدفون بأعلا مقابر بادس وروضته مشهورة تزار.، دخل عليه - أى على قائد بادس البرغواطى - وكلمه ليكف عن التوجه الى الحاج حسون قائلا: ان الرجل من الصالحين وانه لم يفعل ما يفعله على هواه، وانما متبع للسنة وانه مشتغل بأوراده وتلقين تلامذته وانه ان تركه فانه يكون منه مطمئنا من جهة السياسة، وأما اذا توجه اليه فانه لا يأمن أن تأتى منه اذاية الاهية، وذكر له حديث «من أذى وليا من أوليائى فقد بارزنى بالمحاربة» غير أنه لم يسمع منه شيئا، بل زاد غيضا، فانصرف الشريف مغاضبا .

أما البرغواطى فانه فى الصباح خرج بالقوة التى معه متوجها الى الحاج حسون، وعند الزوال وصل الى الموضع الذى كان يدعى «بتجرجرت» فنزل وأمر بضرب الخيمة ودخل البرغواطى الى خبائه وأرسل الى كاتبه الفقيه احمد التوزانى وبعض وجوه القبائل ورؤساء أجناده وأمرهم بأن يأتوا الى الشيخ الحاج حسون ليعرضوا عليه أن يأتى اليه فى تلك الليلة أو فى غده بمن معه من تلامذته، فان لم يمتثل فانه يهجم عليه صباحا بجنوده التى لا قبل له بها ويخرجهم من الزاوية اذلة وهم صاغرون، فتوجهوا حالا ولما وصلوا الى الزاوية وجدوه فى خلوته يعبد الله ولا يبالى والفقراء فى الزاوية بالمسجد المسمى بمسجد الحاج (وهو الحاج على

التذكنتي البقوي) ولما وجـدوه في الخلوة لم يقـدر أحد أن يدخل عليـه، فأرسلوا ولده الصغير عبد الحليم، لان الحاج محمد ولده الكبير اختفى منذ ثلاثة أيام، فلما دخل عليه ولده عبد الحليم القاه في خلوته ساجدا متضرعا الى الله، فكلمه أولا فلم يجبه ثم ثانيا فثالثا، ثم قال له ولده يأبت ان قائد بادس والاعيان يريدون ان يدخلوا عندك ليبلغوك ما أمرهم به ذلك القائـد فاذن بدخول الفقيه التوزاني عليـه وحده، فدخل عليـه، فلما سلم عليـه صافحه الشيخ وأجلسه معه وقال لـه ما تريد، فاستحيى التـوزاني من ابلاغه أمر القائد، ولكن الشيخ بادره وقال له قل ولا عليك فانك رسـول، وحينئذ أعلمه التوزاني بما أتى من أجله وقال له ان هذا الخبيث المطرود من رحمة الله عازم على الفضيحة الا أن الله يحميك منه، فأجابه الشيـخ ثابتا بأن يعلمه بأنه غدا يسير اليه وأوصاه في خاصة نفسه أن لا يخشى شيئا، فان الله سيكفيـه مؤنته، فخـرج الكاتب وأمر القواد والاعيـان بالركوب متوجهين الى محل البرغواطي، فلما وصل اعلمه بعزم الشيخ على المجيىء غدا قائلا له ان الشيخ لا يخلف وعده، فأمر بنشر الخبر في الاجناد والقوة فاستبشروا خيرا وباتوا في سـرور .

عمـل الشيـخ غـده :

ان الشيخ لم يتوان في غده أن وفى بوعده فذهب في ثلة من فقرائه لا يتجاوزون الخمسة عشرة والباقي الذي كـان يبلغ اربعمائة اختفـوا وجنين، وكان معه ولده الحاج محمد وعبد الحليم وعبد الرحمن بن الشماس (خديمه) والمعلم عبدون، فذهب الشيخ متكئا على عصاه وهو يدعو بالدعاء الآتي: «يامن له العظمة والجبروت ياذا الملك والملكـوت، يامـن هو حي لا يموت، انصرنا على من يموت»، وكان أصحابه يرددونه بعده الى أن أتى موضع الصفاح يدعى صف الحمام، فقال للفقراء من يذهب ليأتينا بخبـر المحلة، فقال المعلم عبدون انا لها، وذهب فوجدهم نائمين قد أخذ الله علـى أبصارهم، فرجع وأعلم الشيخ بذلك، فكان الشيخ يردد «هكذا، هكـذا، والا فلا طرق الجد غير طرق المزاح» ثم تقدم الشيخ بعصاه والفقراء وراءه الى أن وصل الى شجرة عرعار ثمه، وقال هذا حد زاويتي، وركز حـدودا

ثمة، ثم أمر المعلم عبدون وولده الحاج محمد وعبد الرحمن بن الشماس وقال لهم ايتوا هذه المحلة وخذوا من ترابها وانثروه عليهم، ثم ادخلوا على قائدها وكلموه بأن يذهب الى حال سبيله، فانه يستجيب لذلك ان شاء الله، ففعلوا، فما كان من القائد بعد سماع موعظتهم الا أن أمر بركوب الجميع والتوجه الى بادس، فرجع الشيخ وتلامذته الى مقر عبادتهم مستأنفين نشاطهم .

هذا فى كتاب مناقب الشيخ، وهو أمر لا يستبعده عقل ولا نقل، لان الايمان بالشىء والعزيمة القويمة هما أحد من السيف وأمضى، فالشيخ كان ثابتا على مبدئه متحديا هذا الظالم الذى يريد هتك حرمته فى معبده فأتاه من حيث الموعظة وعدم الا مبالات له، فكانت حكمة الله أن رده على أعقابه خاسرا، ومثل هذه الواقعة موجودة عند أولى العزم من الصالحين أسوة بالنبى محمد (صلعم) .

تغلب العرب على بادس :

ففى حدود عام 635 هـ. تغلب العرب للمرة الثانية على بلاد الريف، واستولوا من جملة ما استولوا عليه مدينة بادس، وكان الاهالى يخافون منهم ويختفون عن أنظارهم فقد حدث عبد الحق بن اسماعيل البادسى أن أهالى بادس اختفوا عن أنظار العرب المتغلبين، حينما احتلوا مدينة بادس، وكان الشيخ أبو الحسن المراكشى يذهب ويجىء من دون مبالاة ولا رؤية العرب، وحدث عبد الله المعرى البادسى قال: كانت العرب قد تغلبت على الريف عام 35 (أى وستمائة) (635 هـ) فخفنا منهم فارتحل جميع أهل بادس بأموالهم وأمتعتهم الى الجزيرة التى فى بادس وكنا نحرس الديار رجالا بالاسلحة لا غير، فاذا جاءت العرب غدوة انبسطوا فى الوادى وتقطع الناس من العدوتين عدوة الصف وعدوة الركينة، لا يقدر من يدخل الوادى من أجل العرب وكنت أرى الشيخ أبا الحسن المراكشى جائيا ذاهبا من احدى العدوتين الى الاخرى، ويشق فى وسط العرب وعليه ثيابه فما ناله من احدهم منه شىء» .

ان هذا النص يدل على أن العرب فى احتلالهم الريف كان بصفة المتغلب المتسلط، بحيث أن الاهالى ينفرون من وجوههم ولا يخالطونهم،

كما أن العرب يعاملون الاهالى بالقسوة والقتل، فلم يكن هؤلاء العـــرب العرب قد امتزجوا بعد مع الاهالى امتزاجا روحيا يعدونهم منهم واليهم، بل كان احتلالهم للبلاد شبه اكتساح لها، يقتلون وينهبون ثم يذهبــون، ومن المعلوم أن ملوك بنى مرين الاولين كانت لهم حروب مع عرب رياح فى المغرب، فالامير عبد الحق ابن محيو المرينى الذى أمر المرينيين الاولـــين عام 613 هـ. قام بحروب ضروس مع عرب رياح لقى حتفه بوقعة وادى سبو، وقد طاف ولده عثمان الذى تولى من بعده أمر المرينيين على قبائل المغرب، ووصـــل فيما وصل اليه بقبائل بطيـــوة من الريف وقد انتصـــر المرينيون على العرب (1)، الا أنه رغم هذا الانتصار فانه لم يقـــض على عرب رياح، فقد بقوا بقاء النار تحت الرماد، ففى عام 621 هـ. غزاهـــم أيضا ببلاد الهبط وأزغار واثخن فيهم، وهكذا استمر فى العراك معهم الى أن توفى سنة 638 هـ. (2)، ومما ذكر، يعلم أن استلاء العرب على بادس والريف كان أيام أبى سعيد عثمان بن عبد الله المرينى، لان الاستيـــلاء كان عام 635 هـ. وهو فى ذلك الوقت كان يقوم بالحرب فى أطراف المغـــرب الشمالية ضد هؤلاء العـــرب، وبما أن أهالى الريف كانوا يعتـــزون بان الدولة المرينيـــة الجديدة، كـــانت دولتهم لانهـــا نشأت بين أحضانهـــم، فالموقعة الاولى التى انتصر فيها المرينيـــون على الموحدين والتى تدعـــى وقعة المشعلة، كانت بوادى النكور، وكان معقلهم الذى درجوا فيه ومنـــه ترعرعوا حصن تزوطا (قرب الناظور) من شعب بطيوة، فان تسلط العرب عليهم بمثابة احتلال لبلاد موالية لاعدائهم المرينيين، فلذا كـــان الاهالى يفرون من وجوههم ويدرسون ديارهم بالاسلحة، وكان العرب يفرضون على الاهالى مغارم وربما وقعت بينهم حروب بسبب تلك المغارم، فقد حدث (3) عن ابن عقيـــل بن عبد الرزاق بن عبد الواحد بن الحاج ابراهيم بـــن عيسى بن الشيخ داود التمسمانى، أن العرب فى حياة جده الحاج ابراهيم ــ المولود عام 560 والمتوفى 650 هـ. ــ الذين تغلبوا على الريف، فرضوا

---

(1) الاستقصاء، جـ ثـ ص. 9 (2) الاستقصـــاء، جـ ثـ ص 10 .
(3) المقصـــد الشريـــف .

مغرما على قبيلة بنى ورتدا، ــ وهى من قبيلة تمسامان ــ فامتنع أهالى القبيلة من اداء ذلك المغرم وتحصنوا بمعاقلهم بساحل البحــر، فلما رأى العرب توتر الحالة بينهم وبين القبيلة، طلبوا من الحاج ابراهيم، وكــان يسكن فى دار جده أبى داود، ويتعبد فى رباطته ــ المتقدمة الذكــر ــ أن يتوسط بينهم وبين القبيلة، حتى يؤدوا المغارم المفروضة، وقد الح عليــه العرب الحاحا بعد ما امتنع، فذهب الى أهالى القبيلة وأبلغهم أمر العرب فامتنعوا ولم يجيبوه لشىء ثم أنه لما رجــع أسر على ساحــل البحر، أسره قراصنــة النصــارى .

وهذه القصة نفسها كانت فى التاريــخ نفسه، فان العــرب لما شردهم بنو مرين احتلوا الاماكين القاصيــة، وكانت لهم مع الاهالــى مناوشات وحروب، ولم يتفقــوا قــط .

تخــريــب بـــادس :

وهكذا كانت مدينة بادس مرفأ للمغرب الى أن تعرضت لحملات عدائية من قبل أتراك الجزائر والاسبان الذين تنافسوا على اكتســاب جزيرتها للاستيلاء عليها، وتكررت تلك الحملات مرات متعددة، فكانــت قراصنة (1) الاسبان من مليلية يغيرون عليهــا، بينما قراصنة الجزائــر الاتراك يتخذونها مقرا للهجوم على سواحل الاندلس واقتناص السفــن المتوجهة الى الهند يعاونهم فى ذلك قراصنة تطوان والعرائش، وكانت (2) قراصنة مليلية يؤدون لملك اسبانيا خمس اسلابهم ولولائهــم كانــوا يحملون اسبانيا والبرتغال سنويا أزيــد من مليون من العملة الذهبيــة، وكان الجند الريفى يتصدى للاسبان الذين يحتلون جزيرة بادس، وقــد طردوهــم منها عــام 929 هـ. وبقى الوطاسى أبو حسون ثم السعديون مالكين لبادس الى عام 1554 م. (961ـــ962 هـ.، حيث احتلها الاتــراك نحوا من عشر سنوات، ثم استرجعها الاسبــان وهدموا مدينــة بادس، فتخربت واحتفظوا بجزيرتها معززين بـــ 92 سفينة برتغالية واسبانية،

---

(1) ج.ل.ص. 243 من السلسلــة السعدونية. (2) السلسلــة الاولى السعدونيــة ج. لث. ص. 15 .

مع جنود مرتزقة من الالمان والصقلبيين والايطاليين، ثم استرجعها الاتراك (1)، وقد رفض السلطان امضاء معاهدة للاعتراف بالامر الواقع ووجه قائدين لاسترجاع الحصن .

مدينة المزمة :

هناك في منتهى سهل وادى غيس بالشط الشمالى الغربى أمام جزيرة النكور، وفي احضان رباطة المجاهدين عند أسفل هضاب أجدير، كانت تقع مدينة المزمة، يقال أن الاسم عربى مصحف عن الخزامى اسم لعشب كان ينبت في تلك الجهة، ولما وصل العرب في الفتح الاول ووجدوه بكثرة سموا المدينة به، وهكذا بالميم والزاى والميم، وفي بعض هوامش التاريخ المذمة ـ بالذال وهو خطأ صراح ـ لان اسماء الاعلام تنضبط بالنقل، وبه تثبت فالسنة الاهالى لا زالت تنقل خلفا عن سلف تسمية مرافق هذه المدينة باسم المزمة، فهذه ساقية المزمة، لساقية تخرج من وادى غيس وتتجه صوب موقع المدينة الذى أصبح الآن من الخصوبة بمكان، بحيث ان ذلك الماء موزع برسوم لها قرون بالساعات، بل والدقائق، فلاولاد فلان مثلا كذا على ساقية المزمة، لان ماءها في الصيف يخرج من عنصر معين يدعى «بويا حريشن» فيقسم على اسهم لساقية المزمة، وهى التى على الشط الشمالى الغربى لوادى غيس، كذا، ولساقية تفضنة كذا، وهى التى على الشط الجنوبى الشرقى، وكان من جملة محاكم ابن عبد الكريم «محكمة المزمة» التى كانت تعتبر المحكمة الرئيسية لقبيلة بنى ورياغل، أما محكمة أجدير فهى خاصة بابن عبد الكريم وهى المركز العام لحركة التحرير، كما سيأتى مفصلا، وأما لفظة مذمة بالذال، فانه تحريف لحرف الزاى الى الذال وهما كثير الشبه .

واذا كانت لفظة المذمة المصفحة هى تحمل معنى لا يليق بمقام هذه المدينة التاريخية المجاهدة فانه يحق للسان حالها أن ينشد :

واذا أتتك مذمتى من ناقص   فهى الشهادة لى بأنى كامل

---

(1) السلسلة الاولى السعدونية ج.لث.ص 63–141–151 .

وذكر الادريسى فى نزهة المشتاق، انها كانت قرية عامرة ومرسى تسوق المراكب منها، وذلك لانها كانت بمثابة ميناء لمدينة النكور التى تبعد عنها بحوالى 15 كم، وفضلا عن ذلك فانها المنفذ الوحيد لمحصولات سهول النكور الخصبية، فمنها تستصدر البلاد حاصلاتها الى بادس والى الاندلس، وكانت صلة الوصل بين مدينة النكور عاصمة الامراء العرب وبين بادس عاصمة الصنهاجيين والعلماء والصالحين .

مرافق المدينة :

كان بالمدينة جامع أعظم كما فى سائر المدن المغربية، وفى وقت ما كان الخطيب فيه محمد بن أبى بكر بن الفقيه عبد الله، ففى المقصد الشريف قال: وحدثنى احمد بن محمد الطائع الشهير بالادباس قال : سمعت محمد بن أبى بكر بن الفقيه عبد الله خطيب المزمة يحدث عن أبى طاهر الخ .

رباطة المجاهدين :

وقد تقدم الكلام عن رباطة المجاهدين التى على ربوة لاصقة بمدينة المزمة ولا زالت الى الآن محولة الى مسجد الصلوات الخمس، وتقام فيها حفلات عيد المولد النبوى الشريف يقصدها طلبة القبائل المجاورة.

رباطة أبى داود :

وقد تقدم أيضا الكلام مستوفى عن رباطة أبى داود التى هى على خمسة أميال شرقى مدينة المزمة، وقد بناها أبو داود حوالى عام 550 هـ.

جزيرة النكور :

وتوجد قبالة المدينة جزيرة النكور وكانت من معاقيل تلك المدينة ولا تبعد عن ايابسة الا بمقدار 500 متر فقط، ولهذه الجزيرة مقام خاص فقد كان أهالى مدينة المزمة وقبيلة بنى ورياغل يرابطون فيها خوف مباغتة العدو من جهة البحر، وكانت القراصنة يجوبون البحر ويغيرون على الشواطىء، وبالاخص محل العمارات فكانت جزيرة النكور رباطة لحراسة المدينة، وفى اثناء امارة النكور كان أمراؤها ياجأون اليها عندما تقع حرب بينهم وبين اعدائهم الجنوبيين، فعندما غزا مصالة ابن حبوس عامل العبديين على تاهرت مدينة النكور سنة 304 هـ. التجأ سعيد ابن صالح

اليمنى النكور بأهله الى جزيرة النكور وتحصن بها، ثم عبر البحر الــى مالقة اذ تلقــاه عبد الرحمان الثالث الامــوى الملقب بالناصر لديــن الله بالتبجلة والمكرمة كما سبــق .

عــلاقــة المــزمــة ببــادس :

كان لكل من المدينتين استقلالها عن الاخرى، الا أن علاقتهما كانت حسنة على ما أطلعنا عليه من نفث تاريخيـــة .

ففى عام 566 هـ. نجد أنه لما رجع الحاج حسون البقيوى ــ كان يسكن ضواحى بادس وتقدم موقفه من قائد البرغواطييــن ــ من حجه مر على مدينة المزمة، وبقى فيها ثلاثة أيام، استضافه أهل تلــك المدينة وهرع اليه جميع المحبين من تلامذته وأصدقائه وفرح به أهــالى المزمــة فرحا عظيمــا (1) .

وفى كتاب مناقب أبى يعقوب البادسى «أن أحد السراق سرقوا حوالى أواسط القرن الثامن كيســا لاحد الاندلسيــين ورد على بادس وأخذها السارق وهرب الى المزمة، وبعد يومين من وقوع الحادثة وصــل رسول من المزمة بكتاب من واليها يقول فيه وصل هنا رجل من الغــزاة وبيده شكارة انكرناها عليه وسألنا عما فيها فتوقف فثقف وثقفت الشكارة، فان كان هناك من ضاع له شىء، فليأت، فتوجه الرجل التاجر ــ الــذى ضاعت منه شكارته ــ الى المزمة وأخرج زمامه وذكر فيه جميع ما فى الشكارة، ورجع الى الشيخ ــ يعنى أبا يعقوب البادسى الذى كان دعى لتاجر برد ضالته ــ ، ومن هذين النصين نستنتج العلاقة التى كانت بين المدينتين الساحليتين، كما نستنتج من النص الاخير مدى يقظة ولاتهــا وحصافة أحكامهم، فان النص مستند هام لكون والى المزمة استعمــل سياسة رشيدة فى القبض على السارق والبحث عن السرقة حتى تتجلى لــه حقيقــة الامــر .

لجــوء الادارســة الى الشمــال :

وكما ذكرنا، فقد ترك الفتح العربى الاســلامى اثرا ذا جــذور

---

(1) المقصــد الشريــف .

عميقة فى نفوس السكان الاصليين البرابرة فى عموم المغرب، وتأثــروا بالتعاليم الاسلامية تأثرا قاوم العصور والاعصار معا، وكان نصيب هذا الجزء الذى نؤرخه لا يقل عن غيره من الاجــزاء فى نفس الاتجاه، بــل أن الشرفاء وجدوا هنا ملاذا آمينا ونصرا مؤزرا حبتهم هــذه الجهــة وجعلت منهن نواة الخير، واستمطروا بهم بركات الله، ذلك ما جعل لهم من المكانة محل الصدارة واعتزوا من الدعامة الاولى للعرب الفاتحــين، وقد امتزجوا مع الاهالى ليس فحسب بالمعاملات والاعتقاد، بل بالتزاوج والتناسل وبذلك تكون منهم ومن الذين تقبلوا وفادتهم برحابــة الصــدر دم مزيج، مما زاد فى نسبة الدم العربى الذى تركه العــرب الفاتحــون غير الاشراف فى هجراتهم الاولى، ولذا يعتبر الريف عربيا، ولا يؤثر فيــه اللهجات المحلية، وفى هذا الصدد كنت نشرت فى جريدة الريف التى كانت تصدر بتطوان باشراف مديرها الشريف المبجل صديقنا الهمام المرحــوم سيدى التهامى الوزانى، فى عدد 194 بتاريخ 25 يونية 1939 م. تحت عنوان «الريف وعروبته»، بينت فيه تمسك الريف بالعربية وذلك ردا على كتاب نشره مراقب اسبانى برتبة كولونيل يدعى «اميليو بلانكــو» ضمن هذا الكتاب قوانين كانت قبائل الريف تعقدها ضبطا لعلاقتها فيما بينهــا عندما انحسرت سلطة الدولة الايام التى قبل الحماية عن هذه الاصقــاع وسماه «قانون الريف»، وكان قصده تحضير جو ادماج الريف فى الظهير البربرى، أو استصدار مثله ضربا على نغمة الاستعمار الفرنسى، فكتبت هذا المقال، وكان له صدى بعيد الاثر فى دوائر المراقبة، كما كان عمل هذا الكولونيل سببا فى تنحيته عن هذه المنطقة وتغريبه الى «فرناندوبــو» ــ بصحراء افريقيا ــ، حيث توفى هناك، وكان فحوى الذى نشرته ان اللهجة المحلية الريفية لا تغير من عروبتــه فى شىء، لان لغة الكتابة والدراســة والدين بل حتى التخاطب الرسمى هى لغــة القرآن ولم توجد للهجــة المحلية أية قواعــد تنظيمية يكتب بها، ولــم يوجد فى التاريخ لها كتابــة ومعرفتها هى من باب معرفة الاشياء أفضل من جهلها، وان القوانين التى كانت تحرر فى علاقات القبائل بعضهــا مع بعض هى راجعة الى مسائــل سياسة غير اجتماعية، وذلك كتنظيم لعلاقة الاتصالات فى الاسواق وحفظ الجوار وعدم اخفاره وما الى ذلــك .

وعليه فيصح أن يلاحظ على اقبال العرب، وبالاخص الشرفــاء منهم على الريف التأثيرات التاليــة :

1 ــ التأثير الديموغرافى الذى خلقه اختلاط النسب من هــؤلاء وأولئك، بحيث لم يكن يعتبر هناك فارق بين مراتب الكفئية فى الــزواج، فالمسلم كفؤ المسلمة من أية سلالة كانت فاقبــل الطرفان على الاندمــاج فى العادات والبيئة اندماجا كليا، جعلــت حالتهم الاجتماعية على قــدم المساواة ولم ير أى طرف غضاضة فى اعتناق مبادىء الآخر الاجتماعيــة، وقد أخذ الجميع ما صلح من تقاليد كل، وذلك ما خلف فى هذه الجهــات حياة اجتماعية راقية نسبيا عن جل البوادى الاخرى وهو ما يشاهد عيانا لمن جال فى تلك الاصقاع، فالعيش نضيف واحترام الاعراض موفور وكرم الضيافة والوفادة وحماية الجار الى أنواع الشهامة الاخرى مما يضــرب بــه المثــل .

2 ــ التأثير الدينى وذلك لمقام العترة الطاهرة التى انحــدرت عن السلالة النبوية، والتى حملت مشعل الاسلام الى أقطار المغرب فى مبدىء هجرتها عند فرار المولى ادريس الاكبر امام تعســف العباسيــين الذى أصاب آل البيت النبوى بدعوى تأثــير محبتهم لدى المسلمين على الاتجاه السياسى فى المشرق، الامر الذى يخشى منه ان يعصف بعــرش العباسيين، وبالاخــص ان جمهور المسلمــين فى ذلك الوقت كان دينهــم الصراحة وعدم اللف والدوران، لاعتقادهم بأن ما يصيبهم لم يكن ليخطئهم وما اخطأهم لم يكن ليصيبهم، تلك مشيئة هى بيد الله وحده، ولهذا الاعتبار نفسه احتضنت هذه الجهة الشرفاء الوافدين الذين يعتبرون خيرا وبركــة على حياتها، وان ذلك الاحتضان والحب هو قسط دينى يعتقدونه، كمــا اعتقدوا مبادىء التبشير الاسلامية الذى قام به الشرفاء .

3 ــ التأثير السياسى الذى خلقه جو امارات محلية للادارسة من لدن تولية عمر بن ادريس النواحى الريف من قبل أخيه محمد الاكبر، حيث جعل عاصمته «تيكساس» بغمارة، وكانت شاطئا واحدا مع بادس وسبتة، بحيث كان الاتصال ميسورا والاحكام نافذة والمسافة تقطع بزورق صباحا حيث يمسى فى بادس ومنها الى المزمة الى غساسة برأس ورك والى مليلية،

الامر الذى ضمن شمول النفوذ الادريسى شمولا كاملا حيث كانت الاوامر لا تخالف، لانها صدرت من سلطة شرعية من الوجهة الادارية ومن الوجهة الدينية التى كانت المحور الاساسى والوازع الاهم فى ضبط البلاد وحكمها.

ولهذه المزايا تدفق الاشراف الادارسة على هذه الجهة فعمروها وبالاخص فى أيام اضطهادهم فى مغرب الارض، كما اضطهدوا فى مشرقها، فعندما تسلط على تشريدهم موسى ابن ابى العافية الذى يعتبر ألد أعدائهم والذى تولى كبر الفتنة عليهـم فى مواقع طويلـة مستوفاة فى المصـادر التاريخية، انحاشوا الى الريف فى ظرفين اثنين، أولهما فى ظرف تأسيسهم لامارتين اثنتين قاومت أعداءهم بجنودهم المخلصين الذين تكون اخلاصهم من محبتهم لآل النبى (صلعم)، ثانيهما فى ظرف اختيار هذه الجهة للسكنى والاستقرار بعد التشريد شرقا وغربـا، وقد تقاطروا عليها من جميـع الجهات، فخلفوا عائلات واحفادا، واستوطنوا أسوة بالسكان لا يجدون فارقا، بل يجدون محبة متغلغلة فى النفوس، كانت اثرها ان تكاثر الواردون عليها، وتسابقوا فلم تشذ أية قبيلة من قبائل الريف وغمارة ونواحى سبتة، حتى أن جبل العلم ببنى عروس أصبـح محجا يحج اليه السكـان، وفى فترات من الوقت كان محجا لسائر المغاربة يقصدونه للتبرك والتعـرف على ملاذ آل النبى المختار (صلعم).

أما نواحى بادس، فان الحالة الدينية التى عاشت عليها هذه الجهة جعلت اقبال الشرفاء عليها استكمالا لحرية دينهم، يترجون منها أن تكون مقبرتهم لانها مقبرة الصالحـين.

المنطقـة الاولى لنفـوذ الادارسـة :

على اطلاق الريف الشامل لاراضى سلسلة جبال الريف، كما أسلفنا، أصبحت الامارات الادريسية فى الشمال ريفية بعد انقراض دولتهم بفاس وتسنى لصاحب الاستقصاء كالمعجب أن يترجم بقوله «الخبر عن الدولـة الثانية للادارسة ببلاد الريف».

لانهم كانوا يحكمون هذه الاراضى جميعا، وكانت قاعدتهم مدينة البصرة التى قال عنها البكرى وابن حوقل «انها تأسست مع أصيلا، أوائل

القرن الثالث الهجرى، وكانت عامرة ولها شأن، ثم خربت أواخر القــرن الرابع الهجرى، ولا يعلم موضعها بالضبط، ومن الممكن انها كانت بنواحى حد كورت وقد خربها بلكين الصنهاجى لما قفل فارا من هضاب تطــوان أمام جعفر بن على ابن حمدون قائد منصور بن أبى العامر الاندلسى الذى خيم بسبتة ضده كما كان معقلهم قلعة حجر النسر التى قال عنها البكــرى أنها بناها محمد بن ابراهيم بن محمد بن القاسم ــ صاحب طنجة وسبتةــ ابن ادريس عام 317 هـ. وكانت شامخة الى السماء .

وقال عنها صاحب الاستقصاء «انها موجودة قرب سبتة (1) ثم خرج غالب ــ أى الاموى ــ من قرطبة فى آخر شوال عام 362 هـ. فاتصل خبر قدومه بالحسن بن كنون (الادريسى) فخاف منه وأخلى مدينة البصرة وحمل منها حرمه وأمواله ودخل الى قلعة حجر النسر القريبة من سبتــة واتخذها معقلا يتحصن بــه» .

وقد كانت هذه القلعة من المناعة بمكان لعلو بنائها حتى أن الحسن بن كنون الادريسى الذى عرف عنه الشدة والقسوة، كان اذا ضفر بأحــد أعدائه يدفعه من أعلى الحصن بعود فلايطل الى الارض الا واشلاؤه ممزقة.

ويظن الآن أن هذه القلعة كانت بقبيلة سماتة، حسبما انفصل عنه السيد احمد المكناسى مدير الخزانة العامة بتطوان سابقا، فى بحثه الــذى القاه بالمؤتمر الثالث للأثار العربية بفاس (2) .

ومن المعلوم تاريخيا، ان أولاد مولاى ادريس الثانى اقتسمــوا بعد موت أبيهم المملكة المغربية مناطق نفوذ عين لكل ولد من الاولاد التسعة البالغين جهة يحكمها، بينما بقيت المملكــة لمحمد ابن ادريس وبقى غــير البالغين فى كفالة جدتهم الاميرة كنزة (3) .

وهذا التقسيم كان من وحى هذه الجدة البربرية اذ رأت ان تقسيم المملكة مناطق نفوذ على أولاد المولى ادريس كعمال للدولة، يجعل الوارثين

---

(1) الجزء الاول ص. 183. (2) صحيفة 8. (3) حكى لى القائد الخلادى البرنوصى انها من قرية اوربة من هــذه القبيلة ولا زالت معروفــة بها الى الآن .

للعرش لا يتنافسـون، بل يشتغل كـل واحد منهـم بالجهة التى يديـر شـؤونها، على أن يحتفظ أكبرهم (محمد) برئاسة الجميع .

ولا غرو فان هذه الجدة العجوزة قد عايشت الاحداث وعاركتهـا من منذ ما دخل زوجها مدينة وليلى سنة 172 هـ. وشـاهدت مصرعه والملك لم يلتئم بعد، فحفظت ذلك التراث الثقيل فى بطنها يوم كان المغاربة أقرب الى الارتداد من التأييد، وقد صبـرت على مضض واحتسبت العمل للـه ولآل بيت نبيه التى تعد الحارسة الوحيدة للامانة اذ لا يعدو سره بطنهـا ثم بيتها يتيما غريبا فى آن واحد فربته وأحسنت التربية واحترسته مـن شر الاعداء وكيد الكائدين ومن يدرى عن المستقبل المجهول؟ عاقبة الامر .

ثم شـاهدت ولدها يافعا مبايعا سنة 188 هـ. يخطب فى القوم ولو لم يتجاوز عمره أحد عشر سنة يقول: فلا تمدوا الاعناق الى غيرنا، فـان الذى تطلبونه من اقامة الحق انما تجدونه عندنا، ثم شهدت الملك الشـاب يستأثر به الله سنة 213 هـ. ولم يتجاوز عمره 36 سنة .

شـهدت كل هذا وشـاهدت تدبير ذلك المـلك الفتى وأوحـت الى زوجها وابنها بكثير من حكمها الغالية، فكيف لا تسير نفس الخطة فى حفظ التراث بين احفادها الذين قرت بهم عينها وهـم العزاء الوحيد لها وقـد ملأوا عليها الدار أنسا بعدما كانت وحيدة الاهل والعشيرة .

وكان توزيع مناطق جهات الريف ــ وهى التى تهمنا فى بحثنا هذا حسبمـا يأتـى :

1) مولاى عمران ــ بادس وبلاد الريـف .

2) مولاى عمر ــ تيكساس وترغة وهما فرضتان بساحل غمارة وكانتا قريتين عامرتين وما اليهما من قبائل غمـارة .

3) القاسم ــ سبتة وطنجة وقصر مصمودة ــ القصر الصغير ــ وقلعة حجر النسر وتطوان وما بين ذلك من القبائل .

4) يحيى ــ أصيلا العرائش البصرة، بلاد ورغة وما بين ذلـك من القبـائـل .

أما الاخوة الخمسة الآخرون فقد أخـذوا أقساما أخـرى من

المغرب من سوس غربا الى تلمسان شرقا، ففى تاريخ ابن خلدون (1) أنه لما اجمع أمر محمد بن مولاى ادريس، على قسم المملكة بين أخوته (2) جاءت فى قسمة أخيه القاسم طنجة والبصرة وسبتة وتطوان وقلعة حجر النسر وما الى ذلك من البلاد القبائل، وجاءت فى قسمة عمر تيكساس (3) وترغة وما بينها من قبائل صنهاجة وغمارة، وجاءت فى قسمة عيسى أصيلا والعرائس وبلاد اروغة — هكذا بتقديم الراء على الواو ولعل القصد منها ورغة بالواو ثم الراء — .

أما بادس والريف فقد أعطى لعمران بن مولانا ادريس، وهذا ما جاء فى كتاب الدرر السنية لاخبار السلالة الادريسية قال (4) ولكون عمران أيضا أعطى من بين أخوته أرض الريف وبادس، وانتقل هو اليها وتناسلت أولاده هناك بها، ويظهر أن الشريف عمران هذا كانت سلطته دينية أكثر منها سياسية وكان عمر صاحب تيكساس هو الذى يحكم سياسيا هذه الجهات .

وذلك ان عمر هذا كان محاربا وسياسيا ماهرا وذلك ما جعله أهلا لان يستولى على اقسام عيسى والقاسم .

وقد قال ابن خلدون (5) ان عيسى خرج على أخيه محمد طالبا الامر لنفسه فبعث لحربه أخاه عمر، بعد أن دعا القاسم لذلك فامتنع، ولما أوقع عمر بعيسى وغلب استبد به الى أعماله باذن أخيه محمد ثم أمره أخوه محمد بالنهوض اثر أخيه القاسم، لقعوده عن اجابته فى محاربة عيسى، فزحف اليه وأوقع به وضم ما كان تحت امرته الى ما بيده، فصار الريف البحرى كله بيد عمر هذا من تكساس وبلاد غمارة الى سبتة ثم الى طنجة وهذا ساحل البحر الرومى — البحر الابيض المتوسط — ثم يعطف الى أصيلا ثم سلا ثم أزمور وبلاد تمسنا، وهو

---

(1) تاريخ ابن خلدون ج. 4ص. 14. (2) يعنى سنة 213 هـ. لانه فيها توفى أبوه مولاى أدريس. (3) هى فرضة بلاد غمارة بالموضع الذى يدعى الآن ببو احمد وهى قريبة من ترغة .

(4) ص. 108 للشريف سيدى محمد السنوسى الخطابى المتوفى سنة 1272 هـ؟ (5) تايخ ابن خلدون ص. 14 ج؛ 4 .

ساحل البحر الكبير ـ المحيط الاطلسى ـ ثم قال، واتسعت ولاية عمر بعمل عيسى وانقاسم وخلصت طويته لاخيه محمد الامير، وهلك فى امارة أخيه محمد ببلاد صنهاجة بموضع يقال له فج الفرت سنة 220 هـ. ودفن بفاس ثم عقد الامير محمد لولده على بن عمر على عمله .

ثم قال ابن خلدون (1) وانقطع الملك من عقب محمد بن ادريس وبلغ الخبر بشأن يحيى الى ابن عمه على بن عمر صاحب الريف واستقدمه أهل الدولة من العرب والبربر والموالى، فجاء الى فاس ودخلها وبايعوه ثم حكى فتنة بينه وبين عبد الرزاق الخارجى، وانه هرب واغتاله الربيع بن سليمان سنة 292 هـ. وقام بالامر مكانه يحيى بن ادريس بن عمر صاحب الريف وهو ابن أخ على بن عمر (2) .

هذا هو التدبير الذى وضعته تلك العجوزة الصالحة ذات القلب الفولاذى الا أن الاقدار قد خانتها فى احتياطها فما لبث أن تنكر عيسى صاحب البلاد الغنية بالمال والرجال (سلا وأزمور وما بينهما) لاخيه محمد زعيم الاسرة، فأعان البيعة بمدينة أزمور ودعى لنفسه، مما اضطر محمد الى اتخاذ تدابير وقائية ضد أخيه الشاق عصا الطاعة علنا، والذى فتق فتقا لا يعلم مغبتها أحد، فأمر كلا من القاسم صاحب طنجة وعمر صاحب تكساس بالتوجه الى عيسى لرده عن غيه وربما كان محمد بهذا الامر يعجم عود أخويه ليعلم موقفهما، فما كان من عمر الا أن لبى أمره وصار فى جموع من برابرة صنهاجة الريف وغمارة وامده السلطان بألف من رجال زناتة، بينما تنكب القاسم عن قتال أخيه عيسى وعصى أمر السلطان .

وقد جرت الرياح بما تشتهى نفس محمد فانكسر عيسى وفتح عمر بلاده جميعا فجازاه أخوه محمد وضم اليه بلاد المهزوم، عملا بالمثل «من قتل قتيلا فله سلبه»، الا أنه كلفه بمهمة أخرى وهى القضاء على القاسم (3) صاحب طنجة وسبتة والقلعة المنيعة الذى يبدو من تأخره عن

---

(1) ص. 15 ج. 4 من تاريخ ابن خلدون. (2) نفس الجزء والصحيفة والكتاب ـ نفس المصدر ـ (3) ضريح سيدى قاسم معروف بضواحى طنجة على البحر، جنوبها.

امتثال الاوامر المركزية انه متواطىء مع عيسى، ومرة أخرى امتثل أمره واستعان بالله لرتق فتق العائلة الادريسية التى شاءت الاقدار أن تأخـــد المعول لهدم صرحها بنفسها، ففى الاستقصاء (1) وأمره مع ذلك بالمسير الى قتال القاسم الذى عصى أمره أولا فزحف عمر الى القاسم، واستولى عمر على ما بيده من البلاد فصار الريف البحرى كله فى عمل عمر من تيكساس وبلاد غمارة الى سبتة ثم الى طنجة وهذا ساحل البحر الرومى ثم ينعطف الى أصيلا والعرائش ثم سلا وهذا ساحل البحر المحيط — ولا ندرى شيئا عن يحيى صاحـــب أصيـــلا ومـــا آل اليـــه ، هـــل سلـــم نفســـه أم مـــاذا فعـــل ؟ .

وبهذا أصبح عمر بن ادريس صاحب الريف ذا امارة تمتد علـــى سواحل البحرين الابيض المتوسط والمحيط الاطلسى، وصفى الجو لهـــذا الامير القائد، وقد اخلص فى عمله لزعيم الاسرة السلطان محمد، وبقى كذلك الى أن توفى سنة 220 فى امارته، وحمل الى فاس ودفن مع أبيـــه .

وبهذه الكيفية تأسست امارة الريف الادريسية بزعامة عمر بـــن ادريس الثانى، وقد خلفها ارثا لاولاده من بعـــده، فقد شهدت المملكـــة المركزية الادريسية بفاس هجمات من العبيديين من الشيعة تتوجه اليهـــا من الشرق، ففى سنـــة 305 هـ. هجم قائد العبيديين بتاهرت والمغرب الاوسط مصالة بن حبوس المكناسى وزحف على يحيى بن ادريس بن بن عمر بن ادريس الثانى بفاس، ولما تلقاه هذا بقرب مكناسة انهـــزم مفلولا امام القائد العبيدى الى فاس وتبعه مصالة فحاصر فاسا، ومـــا الكشف عنها الا عند ما أذعن يحيى للبيعة للعبيديين، على أن لا يتعـــدى نفوذه أسوار فاس، بينما أطلـــق يد ابن عمـــه موسى بن أبى العافيـــة المكناسى صاحب تبسول وبلاد تـــازة على نواحى المغرب الاخرى، عـــدا امـــارة الريـــف .

ومع ما انطوى عليه موسى بن أبى العافية (2) من حقد وعداوة لآل ادريس، فانه لم يفتأ يكيد ليحيى، فعندما رجع مصالة الى المغـــرب

---

(1) الجزء 3 ص. 157 . (2) من مكناسة تـــازا .

سنة 309 القى القبض على يحيى واستصدر أمواله ثم نفاه الى بنى عمه بالريف، ففى تاريخ ابن خلدون (2) وكان بين موسى بن أبى العافية وبين يحيى بن ادريس شحناء وعداوة يضمرها كل واحد لصاحبه، حتى اذا دعى مصالة الى المسيرة فى غزاته الثانية سنة تسع – أى 309 هـ. – اغزاه موسى بن أبى العافية بطلحة بن يحيى بن ادريس صاحب فاس فقبض عليه مصالة واستصفى أمواله ودخائيره وغربه الى أصيلا والريف عمالة ذوى قرباه ورحمه .

وقال فى نفس الصحيفة «واستولى ابن أبى العافية على جميع المغرب واجلى بنى محمد ابن القاسم بن ادريس وأخاه الحسن الى لريف، فنزلوا البصرة واجتمعوا الى كبيرهم ابراهيم بن محمد بن القاسم أخى الحسن وولوه عليهم واختط لهم الحصن المعروف بحجرة النسر سنة 310 هـ. ونزلوه وبنو عمر بن ادريس يومئذ بغمارة من تيكساس الى سبتة وطنجة .

ومع ان الحسن الحجاج الادريسى قام بمحاولة استرجاع الدولة الادريسية، فانه لم يلبث موسى بن أبى العافية أن عاود الكرة على ماس وانتزعها منه .

وبذلك انقرضت الدولة الادريسية بفاس وتقاطر الادارسة من كل صوب وحدب من جهات المغرب الى أبناء عمهم بالريف بقلعة حجر النسر، فارين من وجه عدوهم اللدود الذى لم يراع فيهم الا ولاذمة، فاخلوا جميع الجهات التى كانت بيدهم، وحتى التى كانت بيد عمر ابن ادريس من أصيلا وسلا وأزمور ولم يبق بيدهم الا القلعة التى انكشموا اليها متحصنين تحت مناعتها، مع تقدير الاهالى الذين يحفظون دمهم الزكى الطاهر، لانهم عترة آل بيت النبوة الى بلاد الريف التى لم يصل اليها نفوذ موسى ومع ذلك فانه تبعهم الى معقلهم وحاصرهم وقد خلف لحصارهم قائده أبا الفتح التسولى، واستمر فى حصارهم مدة أربع سنوات الى أن انهزم موسى ابن أبى العافية أمام حميد بن يصليتن المكناسى قائد عبيد الله

---

(2) الجزء الرابع من تاريخ ابن خلدون ص. 14.

الشيعي صاحب القيروان سنة 321 لما تنكر موسى بن أبي العافية لاولياء نعمته وقلب الدعوة الى الامويين بالاندلس، فخطب لعبد الرحمان الناصر على منابر المغــرب :

فانتقض الادريسيون من معقلهم وقتلوا أبا الفتح التسولي المخيم قربهم ونهبوا معسكره، ففي الاستقصاء (1) «ولما اتصل ببني ادريـــس المحصورين بحجر النسر خبر هزيمة موسى ابن أبي العافية وفرار ابنه من فاس وولاية حامد بن حمدان عليها، قويت نفوسهم وتظاهـــروا على أبي الفتح التسولي، فنزلوا اليه وقاتلوه وهزموه ونهبوا معسكره وخرجو الى الفضاء بعد انحصارهم بالقلعة المذكورة أربع سنوات» .

ومع ان الادارسة انضموا الى الشيعيين وتولوا أكبر مقاومة عدوهم اللدود موسى ابن العافية، وأصبحوا في صف ميسور الخصي قائد الشيعيين قلبا وقالبا حتى شرد الى الصحراء، فانهم فكروا جيدا في تأسيس دولتهم بالريف بمعزل عن اطماع الجميع فأسسوها وبقوا يتوارثونها خلفا عن سلف.

الا أن الميزة الظاهرة في هذه الدولة الثانية انها لم تكن مستقلـــة استقلالا تاما، بل كانت على وجه التبعية تارة للشيعيين وتارة للامويين بحسب الغلبة، وهذا ما فقد مركزها كدولة تعمل لصالـــح المغرب، بـــل أصبحت هذه الدولة امارة تابعـــة للمتغلـــب .

وحيث أن دولة حالتها هذه، فانها لم يطل أمرها، كما أنها لا ينتظر منها أن تقدم خدمة للبلد، لان ضعف مركزها زعزعها وأصبحت تنام باحدى مقلتيها وتتقي المنايا بالاخرى، وتتملق المتغلب لكي يرضى عنهـــا .

فالقاسم المعروف بكنون، وكان يقيم بحجـــر النسر تابع ميســـور الخصي ودان للعبديين بالطاعة ما دام ميسور في المغرب، ثم جاء ابنه العابث احمد الذي كـــان يدعى بين بني ادريس بأحمـــد الفاضل، فكان ميـــالا للامويين فقطع دعوة الشيعيين في جميـــع أعماله، وبايـــع لعبد الرحمن النـــاصـــر (1) .

---

(1) الجـــزء الاول ص· 176 ·

(1) الاستقصاء ج.ل.ص· 178 ·

ورغم هذه الطاعة وهذا الميول فان عبد الرحمان الناصر لم يقنع منه، بل طلب منه ضم طنجة رسميا الى الدولة الاموية، أى جعلها مستعمرة فى المغرب، كما استعمر سبتة قبلها، ولما أبى أبو العيش من اجابة مطابه وجه اليه حملة مزودة بأسطول بحرى فحاصره فى قلعته ملاذهم المنيع اذا حزبهم الامر، وتحت هذا التهديد رضخ لمطابه ولم يقف مطمع الامويين عند هذا الحد، فان الناصر عين واليا من قبله على فاس وذلك ما دعى أبا العيش بأن يقترح على الناصر جوازه الى الاندلس برسم الجهاد فجاز وبنى له فى كل مرحلة قصرا حتى وصلت قصوره ثلاثين.

أما الحسن بن كنون الذى خلف أخاه أبا العيش على عمله فى المغرب، لما انقطع هذا الى الجهاد بالاندلس، فانه ما فتىء أن بايع للعبيديين حينما تغلب جوهر بن عبد الله قائد الشيعيين على المغرب، وكانت هذه البيعة مؤقتة بوجود جوهر فى المغرب، فلما قفل هذا راجعا الى القيروان سنة 349 نكث بيعتهم وانضم الى الامويين، فبايع الناصر ثم ولده الحكم المستنصر، الا أنه عاد فنكث بيعته هذه مرة أخرى وبايع الشيعيين لما حضر بلكين بن زيرى الصنهاجى الى المغرب، وعندئذ لم يقبل منه الامويون بيعته مرة أخرى، فصيروا اليه حملة سنة 362 بقيادة قائد أموى مشهور بالنجدة والشهامة والدهاء مزودا بالاموال، وبعد معارك فى أراضى فحص طنجة هرب الحسن بأمواله وحرمه من البصرة الى حجر النسر ليتحصن فيه، الا أن ذلك لم ينفعه فانه فر عنه رجاله الذين فرق فيهم غالب الاموال الطائلة، فطلب الحسن الامان ونزل هو وجميع الادارسة فغربهم الى الاندلس ولم يترك بالمغرب رئيسا يذكر.

ورغم محاولة الحسن هذا أن يعيد الكرة بعد ما طرده المستنصر عن الاندلس الى المشرق فى حادثة عنبرة لم يرد أن يسلمها له، لاجل أن يسترجع شيئا من دولته تحت حماية العبيديين مرة أخرى، فانه فشل ولم ينفعه طلبه الامان مرة ثانية، لان الحكم لم يقبل منه فقتله، وبموته انتهى أمر الادارسة ولم يعد لهم ذكر فى المغرب كأمراء أو أصحاب حل وعقد، بل اندمجوا كأهالى فى الشمال.

المنطقـة الثـالثـة :

وفى شعب بطيوة من قبائل مليلية أسس ادريس آخر سنة 449 امارة ادريسية، الا أن هذا الادريسى لم يجئ الى هذه القبائل عن طريق فاس أو حجر النسر، وانما عبر البحـر من الاندلس، وكانت لاجـداده هناك دولة وصولة مركزها مالقة وتدعى «دولة الحموديين» .

ففي نفح الطيب للمقرى أن أدريس بن يحيى العالى لم يكن آخر أمرائهم (الحموديين) فقد بويع من بعده ولده محمد بن ادريس ولقـب بالمستعلى، ثم سار اليه بادس بن حبوس (صاحب غرناطه) سنة 449 فغلب على مالقة وسار محمد المستعلى هـذا الى المرية مخلوعا، ثـم استدعاه أهل المغرب الى مليلية وبايعوه سنة 449 فظل الى أن مات سنة 470 (1)، ولذا فانه تعتبر هذه امارة أخرى بالريف وهى احياء للامارة الثانية، لان هؤلاء الحموديين احفاد لصاحب الريف عمر ادريس المتقـدم الذكر، وذلك أن رجلين من أحفاد عمر بن ادريس احدهما يدعى القاسـم وثانيهما يدعى عليا وهما ابناء حمود بن ميمون بن احمد بن على بن عبد الله ابن عمر بن ادريس كانا من جملة جنود سليمان بن الحكم الاموى وقـد رقاهما الى أن صارا قائدين على المغاربة لنجدتهما وشهامتهما، ثم ولى القاسم وهو الاكبر أعمال الجزيرة الخضراء وولى عليا أعمال سبتة وطنجة.

ثم أن عليا هجم على مالقة باتفاق مع العبيد، فدخلها وملكها ثم زحف على قرطبة فملكها أيضا وقتل بيده سليمان بن الحكم بالسيف صبرا أيام 407، وبذلك انقرضت الدولة الاموية بالاندلس ونشأت دولة الادارسة الحموديين من هذا التاريخ واستمرت فى الاندلس الى سنة 449 وانتقلت للريف واستمرت فيها الى ما شاء الله فانقرضت، وقد اعتمد المستعلى فى نقل دولته من الاندلس الى الريف على المحبة التى تغمر هؤلاء السكـان لجانب الادريسين آل البيت الذى حفظوا دمهم الزكى الطاهر وناضلـوا عليه لانهم العترة الطاهرة من آل النبوة، فلذلك لما أجلى بادس بن حبوس المستعلى هذا الى المرية طالبه شعب بطيوة بالمجئ اليه ليعتز به، وحنانا

---

(1) هامش العجـب ص. 68 ـ م.ل .

أيضا الى دولتهم القديمة التى تأسست على يد عمر الادريسى جد المستعلى هذا، فهو منهم واليهم وأخوهم وأميرهم فى الحقيقة، والواقع، فلم يقطع البحر الا الى وطنه الصميم ومهد أبائه وأجداده الذين طالما قاتلوا تحت رايتهم ضد الاعداء الخارجين .

فهم الذين قتلوا عدو الادارسة اللدود موسى ابن أبى العافية بضفاف واد ماوية لما أجلى عن فاس الى الصحراء، ثم رجع الى اكرسيف ونكور فانتقموا منه لاشرافهم الاعزاء عليهم الذين يقدسونهم .

الا أننا لا يمكن أن نجزم بما يمكن أن يكون قامت به هذه الامارة الجديدة فى هذه المدة الوجيزة من الاصلاح والخير لصالح البلد .

والمعتقد أنها لم تقم بشىء لان المدة كانت وجيزة، مع الفتن التى كانت انتشرت فى طول البلاد وعرضها، فغاية هذه الامارة أنها تحصنت بجزيرة مليلية يخضع لها شعب بطيوة روحيا أكثر منه عمليا لانها من عمل يدهم وعلى الاخص انهم داقوا عجرفة موسى بن أبى العافية فى حملته ضد جزيرة النكور ووحشيته، لانه فى عمله يعتبر نفسه فاتحا لبلد موالية لاعدائه الادارسة، بل هم جندهم الاقربون المخاصون وفى كتاب (1) البيان المغرب «ثم قام بالامر ولد أخيه وهو ادريس بن يحيى ابن ادريس بن على ابن حمود، وسمى بالمستعلى بالله، ثم أخذ نفسه وخرج كأنه تاجر، ففى غمارة قبض عليه وسيق الى سبتة وقتله البرغواطى سنة 444» وبناء على ذلك فان ادريس الحمودى الذى كان آخر ملوك الحموديين فى الاندلس، خرج الى الريف متنكرا وبغمارة قبض عليه لان البلد كانت عامرة بالبرغواطيين الذين احتلوا مدينة سبتة وباقى النواحى، ولذا لما قبض عليه قدم للبرغواطى فى سبتة فقتله ثم أتى بعد ذلك ولده محمد وهو الذى أسس الامارة الادرسية الثالثة بالريف، بشعب بطيوة بقبائل كرط من نواحى مليلية .

(1) ص 218 .

حصن تزوضا وبنى مرين :

هناك غربى مدينة الناضور بحوالى 10 كلم فى الجنوب الغربى لمدينة مايلية تقع ربوة عالية مطلة على البحر المتوسط، بينما يتسع منبسط «بوعاك» أمامها، يعززها جبل «أكسان» شمالا، ذلك الجبل الذى يخزن بين أحضانه المنبع الذى لا ينبض بمعدن الحديد الصلب وتدعى هذه الربوة «تزوضا» بمعنى القصعة باللسان المحلى، وقد بنى عليها بنو مرين حصنا حصينا دعى «حصن تزوضا» كان معقلا لدولتهم، وفى هذا الحصن وجهوا الضربة القاضية لدولة الموحدين الذين انكسروا أول ما إنكسروا فى مواقع ثلاثة هامة (1) موقعة المشعلة على وادى النكور التى سميت بهذا الاسم نسبة لاعشاب المشعلة التى يتميز المحل بها، (2) موقعة تازة برباط تازة، (3) موقعة سبو .

الامير عبد الحق المرينى :

كان الامير عبد الحق بن أبى بكر بن حمامة بن محمد المرينى أميرا على المرينيين، وهؤلاء هم شعب قوى الشكيمة من شعوب زناتة، اخوان بنى عبد الواد ملوك تلمسان، وبنى توجين وغيرهم، كانوا ينتجعون الصحراء شتاء للصيد وركوب الخيل، وفى الصيف يضطرهم قيض الحر الى الانحياز الى سواحل الريف باكرسيف ونواحيه، الامر الذى ربطوا صلات وثيقة فى الريف أدت بهم تلك الروابط الى توسيعها على حساب دولة الموحدين، فانشأوا حصن تزوضا معقلا لهم، وقد شملت امارة عبد الحق هذه الجهة وأصبحت خاضعة له ومن هناك كانت قبائل بنى مرين تشن غاراتها على أطراف المغرب، حيث لا تأخذه سلطة دولة الموحدين .

وقد زاد فى تقوية نفوذهم فى المغرب الشرقى الشمالى النكبات التى حلت بدولة الموحدين فى عام 609 هـ. فقد اصابت الدولة فواجع ثلاث عجلت بالقضاء عليها، وقيام دولة أخرى فتية، فالاولى كانت الهزيمة

النكراء التى لحقت بالملك الموحدى الناصر فى وقعة العقاب بالاندلس، اذ هلكت الحاميه المغربيــه عن اخرها وهلك معهــا جمهور من المجاهديــن المغاربه، والثانيه كانت الوباء الذى اعقبت تلك الوقعه، فأتى على البقيــة الباقيه، وفنى جمهور السكان، وثالثها، كانت المصيبــة القاصمــة التى قصمت ظهر الدوله بوفاة الرأس المدبر الملك الناصر فى عام 610 هـ. وخلفه ابنه الصبى المستنصر الذى حمله شبابه على أن يغرق فى الملذات والملاهى واصبحت الدوله بلا رئيس مسؤول يحس بثقل المسؤولية .

وقد عجلت هذه الفواجع الثلاث بانقراض دوله وقيام دولة أخرى، ذلك أن القبائل المرينية العاتيه التى عاشت على ركوب الخيل وطــرد الصيد، وشظف العيش، اوجفت برجلها وخيلها على قبائل آخرى فــى شمال المغرب واستولت على ما تبقى منها من المعاقل والحصــون، التى كانت ملىء بالملتجئين اليها من الفزع الذى أصابهم من جراء الغــارات المتتالية من طــرف الصحراويين هــؤلاء، أما الملك الصبى المستنصر بن الناصر الموحدى الذى كان يتلهى فى مراكش، فانه بعد الصراخ المتعالى الذى كان يرسله عقلاء الاهالى اليه، والذى كــان مليئا بالتظلمات مــن هذه القبائل الصحراوية المكتسحة لاطــراف الجهات، فانه لم يعبأ بهــا ولم يعرها أذنا صاغية، الا عندما فات الاوان ولات حين منــدم .

وقعــة المشعـلـــة :

كان قدر للمستنصر أن يجر الخراب لدولته ولنفسه بنفســه، اذ عندما فات الاوان سرح الى بلاد الريف لمحاربة بنى مرين والقضــاء عليهم، جيشا قوامه عشرون الفا فقط، وهو بالنسبة لهذه القبائل المائجة التى ترى اللذة للتصدى فى طراد الخيل وركوب السنن لعبة محببة قــد تتلهى بها هذه الاباليس وقتا ما، وفعلا كانت وقعة المشعلة نزهة طريفة، اذ ما وصل قائد الجيش الموحدى أبو على بن وانودين معززا بعامل فاس أبى ابراهيم بن يوسف ابن عبد المومن على العشرين الف من أولئك الجنود الى فحص الواد بوادى النكور، حتى لقيتهم تلك القبائل مــن بنى مريــن والريف فى جيش خضم من البشر يتسلقون الجبال والمسالك الوعرة، حتى كأن الارض تلدهم، بينما كانت محارم المرينيين محصنة فى معقلهم المنيــع

بتزوضا، بمنجى من كــل أذى، فما هى الا جولــة أو جولتان حتى كانــت الهزيمة النكراء قد لحقت بالموحدين، فلم تقم لهم بعد ذلك قائمة، وكانــت النذير العريان، فقد تركوا أمتعتهم وذخيرتهم واسلابهم وامتلأت بها أيدى بنى مرين والقبائل الموالية لهم، ورجــع الموحدون الى فاس حفاة عــراة يخصفون من أوراق المشعلة، وهى نبات يعرف عند أهل المغرب بهذا الاسم، وقد سمى ذلك العام ــ وهو عام 613 هـ ــ 1213 م. ــ عام المشعلة، لان البلــد اخصبت وأخصب هذا النبــات .

مــوقعــة ربــاط تــــازا :

أما الموقعة الثانية فكانت نتيجة حتمية للاولى، لان بنى مريــن لما رأوا أنفسهم منتصرين عملوا لتصفية الحساب مع غرمائهم، وفعــلا جهز عبد الحق حملة من هذه الجنــود الغفيرة التى أصبحــت تواقة الى التلاقى مع الاقران لكسب البطولات الحربية وللاستيلاء على الغنائم التى يخلفها أولئك الذين يلقون حتفهم أثناء المعارك، فتلاقت مع الموحدين برباط تازة فى ذى الحجة عام 613 هـ. وكان عامل تازة الموحدى على رأس قــوة الموحدين المتجمعة من الجيش الكثيــف والعرب وقبائل تسول ومكناســة وغيرها، فلما وقعت الملحمة قتل عامل تازة، وبقتله انفل الجيش الموحدى ففر الجميع ولم يبق الا الاسلاب من الخيل والذخيرة غنيمة باردة لتلــك الجموع المتدفقة والمفعمة حيوية ونشاطا، فقد فرقها عبد الحق فى قبائــل الريف كلها ولم يدع لنفسه او ذويه شيئا منهــا .

وقعــة وادى ســبــــو :

لما انهزم الموحدون هذا الانهزام الشائن، كان عليهم ــ كسلاح أخير ــ أن يعمدوا الى طريقــة تفرقة صفــوف أعدائهم، وهى طريقــة سياسية يعمد اليها قواد الحرب لتفتيت صفــوف الخصم عندما تعجــز القوة العسكرية أو تضعف وهكذا بدا للموحدين أن يسلكوا نفس المسلك، وقد كانت قبائل بنى مرين تنتسب الى فخذين اثنين: فخذ بنى حمامة بن محمد، هم الذين لهم الرياسة فى القبائل ومنهم عبد الحق الامير المرينى، وفخذ بنى عسكر بن محمد، وقد استطاع الموحدون أن يستميلوا اليهــم

بنى عسكر من المرينيـــين مع عرب رياح الذين عمــروا المغرب بخيلهــم ورجالهم، وكانوا شديـــدى الشكيمة والقوة لقرب عهدهم بالبـــداوة التى تركت فيهم اثرا للشهامة وتجشم المشاق، فانشق شعب المغرب على شقين، شق يناصر الملوك الشرعيين وهم الموحدون حتى ذلك الوقت، وهذا الشق هو بنو عسكر بن محمد ومن سار فى ركابهــم الذين ينافســون ابنــاء عمومتهم من بنى حمامة وينقمون عليهم تفردهم بالرياسة، وقد تعضدوا بجموع العرب من بنى رياح، وشق ضد الموحدين الذين ينعتون أنفسهــم حتى ذلك الوقت بالملوك الشرعيين، وهذا الشق هو بنو مرين أولاد حمامة، معززين بقبائل الريف العاتية التى ايدتهم وانغمست فى الخلاف الناشىء بين الفريقين، وكان لها القدح المعلى واليــد الطولى فى نتيجــة المعارك السابقــة، كما أسلفنــا .

واذا وصلت الحالة الى ما ترى، فان الطرفين المتنازعين استعــدا استعدادا تاما لخوض المعركة الفاصلة، وقد جرب عبد الحق قومه مقدما فأمر بجمع جموعهم والقى عليهم الاسئلة التاليــة :

ـــ ان العدو فى جموع غفيرة، فهل أنتم مستعدون للموت ؟

ـــ نعم: ان القضية قضيتنا ، أما الانتصار أو الموت .

ـــ هل أنتم متحدون متضامنــون ؟

نعم : نحن نجدد البيعة للامير عبد الحق ونموت دونه جميعا .

ـــ يا معشر بنى مرين أما ما دمتم فى أمركم مجتمعين، وفى آرائكم متفقين، وكنتم على حرب عدوكم أعوانا، وفى ذات الله اخوانا، فلا أخشى أن القى بكم جميع أهل المغرب، وان اختلفت أهوائكم وتشتت آرائكــم ظفر بكم عدوكــم .

وبعدما استيقن من صدق طوية قومه، نهض بهم من الريف قاصدا فاسا، فالتقى مع جموع الموحدين بمقربة وادى سبو على أميال من المحل الذى كان يعرف «بتافراطت»، فدارت بين الفريقين حرب لم يعهد مثلها من قبل، مات خلالها الامير عبد الحق المرينى، كما مات ولده ادريــس، ومع ذلك فان الامر لم يزد بنى مرين الريف الا صبرا وثباتا، فقد أبوا دفن الرئيس عبد الحق وولده الا بعد أن يأخذوا بالثار، وهكذا استأنفوا ولــم

يتركوا لعدوهم سبيلا للراحة الى أن انتصروا، فتشتت عرب رياح شذر مذر، وقتلوا منهم خلقا كثيرا وتفرق الباقى فى الاودية ورؤوس الجبال وتركوا خيلهم وأسلحتهم وأموالهم غنيمة لبنى مرين الريف، وكانت هذه الموقعة الحد الفاصل والمجهود الاكبر لانقراض دولة الموحدين، ورغم أن هذه الاخيرة بقيت حية بعض الوقت بعد ذلك، الا أنها كانت فى النزع الاخير تستسلم تدريجيا للقضاء المحتوم .

عثمان بن عبد الحق المرينى :

كانت تولية عثمان بن عبد الحق امارة المرينيين بالريف، حادثا هاما فى تحويل مجرى تاريخ المغرب الداخلى والسياسى، ففيه فكر عثمان هذا فى تقوية جانب المرينيين الداخلى جديا، ولم يعلن شيئا عن نيته فى توليته الملك، بل بقى كما كان أبوه خاضعا للدولة الفحصية، متمسكا ببيعتها حاكما للجهات التى خضعت له تحت اسمها .

الا أنه حول جهوده الجبارة لتنظيم صفوفه تنظيما جذريا والاعتناء بضبط الاحوال فى النواحى التى تحت نفوذه، فجمع شيوخ بنى مرين وندبهم للقيام بأمر الدين، والنظر فى مصالح المسلمين بصورة عملية وجدية، تقوم على أساس العدل والشهامة والانفة، وأمرهم بأن يعودوا الناس على ذلك كما يعودونهم على البطولة وركوب الخيل، فأسرع الاشياخ الى اتباع نصائحه والاقتداء بعمله، وقاموا بأعمال هامة فى هذا السبيل تنفيذا لتلك الوصاية .

وفى أثناء ذلك قام برحلات متتابعة فى القبائل الخاضعة له، وهى: هوارة وزكارة وتسول ومكناسة وبطيوة من قبائل الريف، وفشتالة وسدراتة ومهلولة ومديونة، فتقرى القرى واتبع مسالك البلاد وأمر باصلاح ذات البين وتقوية الاخوة بين الاهالى .

وقد ملك هذه القبائل العجب مما رأوه من تبدل ما ألفوه من حكامهم الاقدمين من العسف والجور والاستبداد وعدم المبالاة واختلال الاحوال، فازدادوا تقربا الى هذا المصلح الجديد، ففتحت له القبائل قلوبها وأحبته من صميمها، لانها رأت فيه منقذها من المفاسد .

وبعد أن وطد الامن فى الجهات الخاضعة له، اكتفى منها بفـرض الخراج يجبيه عماله الذين فرقهم فيها بصفة مصلحين لا حكام مستبدين.

أما المدن ، مثل فاس وتـازة ومكناسة وقصر كتامة ـ القصـر الكبير ـ فانه فرض عليهم ضريبة معلومة على رأس كل سنة، وتركهم ولم يستعمل عليهم أحدا من العمال، بل شرط لهم مقابل ما ذكر ان يرفع عنهم الغارة من القبائل المجاورة ، ويصلح سابلتهـا .

وهكذا انقضى عهد عثمان هذا فى نشر الاصلاح وضبط الداخليـة واستمالة القبائل، وقد توفى عام 638 هـ. 1240 م قتله علج غيلة كان رباه.

عين الصفـا ودولـة بنى مريـن المستقلـة :

تقع عين الصفا فى قبيلة بنى يزناسن بالريف الشرقى غربى مدينة وجدة حيال جبال تفوغالت الوعرة المسالك على رأس سهل انكاد المنبسـط أمامها الى حدود البحر المتوسط، وتعمر على الضفة الجنوبية الشرقيـة لمصب نهـر ملويـة .

عندما توفى عثمان خلفه أخوه محمد المعروف بأبى المعرف، ورغم أن زمن هذا الخلف لم يكن حسنا بالنسبة لبنى مرين، لانهم تكبدوا أولى هزيمة فى موقعة صخرة بوباش بأحواز فاس بتاريخ 642 هـ؟ 1244 م. أمام الموحدين الذين جاءوا فى جيش عرمرم، يقدر بعشرين ألفا أو يزيدون، فقد اجتمعت فيه قبائل المصامدة وعرب بنى رياح وجموع الافرنج وقـد كانت الاقدار نفسها عونا لهم، فقد تردى فرس أبى معرف وسقـط مـن أعلاه، فتمكن أحد زعماء الزنوج الذين صحبوا الموحدين وطعنه طعنة مات بها عشية يوم الخميس 9 جمادى الاولى عام 642 هـ. فلم ينج أصحابه الا ليلا، حيث تستروا بالظلام فانفلتوا الى جبال غياثة المنيعة فتحصنوا بهـا ريثمـا طاروا الى الصحـراء .

أبـو بكـر بن عبـد الحـق :

بعد موت أبى معرف تولى أبو بكر بن عبد الحق أمور بنى مريـن وقد استطاع أن يضع الحجر الاساسى لاستقلال ملك بنى مرين فى الريف بعين الصفا عام 646 هـ. 1248 م. ففى هذا التاريخ قطع أبو بكر دعـوة

الحفصيين أصحاب افريقيا، ودعا لنفسه، واتخذ آلة الملك، وبهذا أصبحت دولة بني مرين ذات كيان داخلي مستقـــل .

ذلك أنه لما تولى الامر بعد أخيه أبي معرف، التجأ الى الصحراء مع من بقى من بني مرين، فاتخذ رمالها وقاية من تتبع الموحدين له وهـــي متسعهم الفسيح الذين ترعرعوا في هضابها الرملية، حيث كانوا يطاردون غزلانها، وحيث لا يقتفي لهم الاثر، فهم في مأمن من الاعتـــداء .

الا أنه لم يكد يمر عام واحد حتى جمع شتات ذويه وقومه ومن تلك الرمال استطاع أن يقود غارة على جبال زرهون ومكناس ودعا أهلها لمبايعة أبي زكرياء بن أبي حفص الحفصي، وقد فعل ذلك لاجل استمالـــة السكان اليه، وفعلا تمكن من اخضاع هذه الناحية وبقيت خاضعة له مـــن سنة 643 هـ. الى 645 هـ وفي هذه السنة نهض ملك الموحدين سعيد مـــن مراكش قاصدا استئصال شافة أعدائه الالداء الثلاثـــة: 1 ــ بني مرين، 2 ــ بني زيان ملوك تلمسان، 3 ــ الحفصيين بافريقيا، وقد مهد لذلك بأن جمع الجموع الغفيرة التي لا قبل لها، وعندما وصل الى وادي بهوت غربي مكناس، استعرض تلك الجيوش الجرارة، وقد ملكت عليه كثرتها اعجابه، فقوى عزمه على القضاء على خصومه الذين اقضوا مضجعه، ولم يتركـــوا لـــه راحـــة .

أما أبو بكر المريني فانه هالته كثرة المحتشدين ولم ير له قـــدرة على التغلب عليها ولاجل استقصـــاء الامر فقد تنكـــر ذات ليلة وذهـــب يجوش خلال القوة القادمة في معسكرها فرأى بعينيه أمرا مهولا، وجمعا كثيرا، ففي صباح غده جمع أشياخ قومه وعقد مؤتمرا ودارت المحادثات التـــاليـــة :

ــ ان جيوش العدو في الكثرة كما ترون، فماذا نعمـــل ؟
انـنـــا نقاتـــل للمـــوت ،

ــ ليس ذلك هو التدبير الناجع، ان موتنا يريح أعداءنا وتلك بغيته.

ــ اذن فما هو الحـــل الناجـــع ؟

ـ ان لنا معقلنا الذى لا يرام بالريف، فما علينا الا أن يرحل اليه قومنا جميعا، ولكن بصورة فجائية، بحيث لا يعلم العدو بذلك، حتى لا يقتفى أثرنا، وعلى الاشياخ أن يتدبروا اعلام المحلات اينما كانت وان تسلك كل جماعة مسلكها الخاص، على أن تكون الملاقاة بحصن تروضا .

ـ اتفقنا على هذا الرأى ، انه الرأى الوحيد السديد الذى يمكن لنا معه النجاة والبقاء على قوتنا الى وقت ما، وقد نفذ أشياخه هذه التعليمات بحذافرها، فقد تسابقت المحلات الى الحصن بصورة سرية.

أما الموحدون فما أن علموا بالامر حتى اقتفوا أثرهم، ولكن بعد أن توقفوا فى مكناس، حيث خرج الاهالى متذللين خاضعين حاملين الصبيان الرضع، ومقدمين الاطفال والشيوخ العجزة أمامهم مقبلت شفاعتهم وعفى عنهم كما توقفوا فى فاس أيضا لنفس الاسباب الا أنه احتراما لمدينة العلم لم يشاءوا أن يدخلوها، بل بقوا خارجها، ثم رحلوا الى تازة، وهناك عسكر الملك الموحدى بجيوشه، وفى هذه الفترة وصلته رسل الامير أبى بكر بن عبد الحق المرينى من حصن تروضا بالريف حاملين اليه بيعته وبيعة قومه طالبين العفو والامان. فعفا عنهم .

ويظهر أنه لم يرد ان يتحرش بهذه القبائل التى نقل الركبان مخاطرتها فى الحروب ولانه قليل الاطمئنان الى جموعه التى جمعها أحلاسا وشتاتا من شتى القبائل التى لا تربطها به الا صلة الاسلاب والنهب، ولانه أيضا كان أمامه اعداؤه الخارجون، وهم: ملوك بنى زيان التلمسانيين وملوك الحفصيين يتربصون به الدوائر، فأى خلاف داخلى فى ترابه يسدى اليهم خدمات جلى .

وهذا ما دعا أبا بكر المرينى أن يستهويه حيث عرض عليه ـ فوق البيعة ـ أن يتكلف بقتال يغمرسن بن زيان صاحب تلمسان قائلا: ارجع يا أمير المؤمنين الى حضرتك ـ عاصمتك ـ وأنا أكفيك أمر يغمرسن وافتح لك تلمسان، الا أن الملك سعيد الموحدى ـ جريا على عادته ـ استشار خاصته فى الامر، فكان جواب الخاصة «لا تفعل يا أمير المؤمنين فان الزناتى أخو الزناتى لا يسلمه ولا يخذله وانا نخاف أن يصطلحا على حربك»، وقد استجاب الملك لخاصته وأرسل اليه أن يمكث فى مكانه،

وان يمدد بجماعة من قومه فأمده أبو بكر بخمسمائة من رجاله ساروا معه الى تلمسان تحت قيادة ابن عمه: أبى عباد بن أبى يحيى ابن حمامة، واثر ذلك نشب خلاف بين الامير أبى بكر وبين أولاد الوزير الوطاسى الذين اختصوا بالمعقل بعدما اتخذ المرينيون عين الصفا مركزا لهم، فقد دبر هؤلاء مؤامرة لاجل اغتيال الامير أبى بكر، وقد كشف هذه المؤامرة له بعض الشيوخ الوطاسيين، وبعد ما أعلموه بذلك ارتحل الى عين الصفا مركز المرينيين من جديد، وقد كانت هذه المؤامرة التى رحل عقبها سببا لانتصاره على الموحدين، ذلك أن سعيدا ملك الموحدين لما ولى وجهته نحو تلمسان بعد أن اطمأن الى طاعة المرينيين ومهادنتهم التقى فى موضع يقال له «تامزردكت» قرب تلمسان مع قوة يغمرسن الزيانى، فدارت معركة حاسمة واسفرت عن مقتل سعيد ملك الموحدين، فانهزم قومه وولوا الادبار راجعين من حيث أتوا، فما كان من الخمسمائة الرجال الذين أمده بهم أبو بكر الا أن طاروا بالنبأ يعلمونه برجوع فلول الموحدين المنهزمين ومقتل ملكهم، فاعترض أبو بكر بقومه من عين الصفا التى هى قريبة من مركز الجنود، فالتقى بهم فى نواحى كرسيف، حيث جرد القوم من الالآت والمعدات الحربية التى كانت معهم وضم اليه جموع الافرنج الذين صحبوا الحملة واختص بهم لنفسه وبذلك دعم حركته وقوى جانبه، وحينئذ دعا لنفسه ملكا على المغرب، واتخذ الموكب الملكى وضربت بين يديه البنود شعار الملوك، وذلك سنة 646 هـ. وأسرع الى مكناس فاحتلها واحتل باقى معاقل نهر ملوية، وبهذا أصبحت دولة بنى مرين دولة مستقلة قطعت علاقاتها مع الحفصيين وتقاتل تحت شعار الملك بعد ما كانت تدعو لغيرها .

أما ما كان خبأه القدر فى انتقاله من معقل تزوضا الى مركز عين الصفا، فانه لو بقى مكانه لما تأتى لقومه الخمسمائة الذين شارك بهم فى حملة الموحدين على تلمسان، أن تهتبل فرصة رجوع الحشد الذى بقى بلا قيادة، وان تقتفى أثره لاعلام أميرهم، ولما تأتى لهذا الاخير أن يلتحق بهذا الحشد ويعترض سبيله بسهولة، حيث لم يفته الاوان عندما قر عزمه على الانتقام واهتبال الغرة عكس ما لو كان بقى فى حصن

تزوضا، فانه لبعد المكان عن كرسيف بمراحل، كـــان لا يمكن له أن يـــدرك العدو المقاول وان يأخذه على غرة ولو أطلعتم على الغيب لوجدتـــم أن مـــا فعل ربكـــم خـــيرا .

الوطـــاسيـــون فى قلعـــة تزوضـــــا :

يعتبر الوطاسيون من المرينيين، الا أنهم فرعيون، لانهم ليســـوا أولاد عبد الحق بن محيو، وكانوا قد استولـــوا على حصن تزوضا عندما كان المرينيون الاصليون مشتغلين بالاستيلاء على المغرب وارتياد المراكــز المهمة فى الدولة مثل فاس ومكناس وزرهون .

وقد كان الوطاسيون هؤلاء يدعون بأبناء الوزير، ولما احتلوا هذا المعقل كانت الرياسة فى هذا المعقل ونواحيه بيد عمر وعامر ابنى يحيى ابن الوزير الوطاسى، وقد استغل الوطاسيون المذكورون انشغال المرينيين الاصليين بالاستلاء على المغرب والقضـــاء على الموحدين، فطمعـــوا بأن يستقلوا بنواحى الريف، وبالاخص أنهم قد نزلوا بحصن تازوضا وجعلوه حصنا ومركزا لاعمالهم، وفعلا نظموا أمرهم وجعلوا يجبون الخـــراج من قرى الريف وامصارها كبادس والمزمة وقد عام بنو مرين الملوك تشوق أبناء الوزير الى الرياسة، فتوجسوا منهم خيفة وحسبوا لهم ألف حساب، ورغم أن الحالة وصلت الى هذه الدرجة فى العلاقة من الفريقين، ورغم أن الوطاسيين كانت لهم السلطة الفعلية فى نواحى الريف، الا أن المرينيـــين كانوا لا يهملون هذا المعقل الحصين الذى لا يوجد له نظير فى سائر أنحـــاء المغرب ، ذلك ما دعاهم الى انتقاء أصـــدق قوادهم ليتولى شؤون المعقـــل ونواحى الريف، وان يكون كفئا مخلصا للوقوف فى وجه مطامع الوطاسيين، فقد اقتنفت هذه السياسة المرينية ان لا تسند الولاية الا الى أشخاص من العائلة الملكية، ففى عهد السلطان يوسف بن يعقوب المرينى عقد لابـــن أخيه المنصور بن عبد الواحد بن يعقوب ووجهه الى الحصن ليكون واليـــا وقائدا عاما على الريف ليحد من سلطة الوطاسيين الذين كان يرجع اليهم فى أمـــور الريـــف .

ثورة عمــر بن يحيــى الوطــاســى :

وبهذا الاسلوب الذى يدعو الى الحذر، ادرك الرئيسان الوطاسيان ما يراد بهما من تولية ابن أخى السلطان ولم يخف عليهما شىء من نوايا المرينيين، فاستعد عمر لمجابهة الحالة، قبل أن يفلت الزمام من يده، فأعلن الثورة ضد الوالى الجديد، ومنعه من تسلم أمور الحصن ونواحيه .

ففى شعبان عام 691 (1291 م) أعلن عمر بن يحيى بن الوزيــر الوطاسى الثورة، وشملت جميع أنحاء الريف، وطرد المنصور بن عبد الواحد، بل لم يقتصر على طرده وحرمانه من تولية مهامه التى وكلت اليه وانما فتك بحاشيته ورجاله، واستولى على ما فى الحصن من العتــاد الحربى والامتعة التى كانت موضوعة باسم ملوك المرينيين وجيشهم، واعشــار كانت مخزونة ثمة، وقام بضبط الحصـــن ضبطا كامــلا، وحشاه برجالـــه ووجوه قومه من أبناء الريف الصناديد، أما المنصور فانه رجع مطــرودا ولحق بالسلطان المرينى الا أنه لفرط حزنه على ما أصابه فى حشمه وقومه لم تطل حياته، بل مات غما وكيدا مما أصابـــه .

السلطــان يوســف يهتــم بالثــورة :

نزلت ثورة الوطاسيـــين على السلطـــان المرينى نزول الصاعقـــة، وخصوصا الفتك بذوى اخوانه وجمع من قومه، فاهتم بها اهتماما بالغـــا، وقد جهز جيشا كثيفا لمناجزة الثائر والقضاء عليه، ولو كلفه ذلك ما كلفه، وقد سرح الجيش الى الريف تحت قيادة وزيره الناصح المخلص له: أبى على عمر بن السعود بن خرباش، فتوجه هذا لمنازلة الحصـــن .

عــامــر ينقــلـــب :

أما عامر بن يحيى الوطاسى الذى كان مع أخيه عمر فى الحصـــن، فانه حدث أثناء استعداد السلطان لمهاجمة الثائر، أن لحق بـــه فى مراكش، وعاب على أخيه عمله الثورى، ويظهر أنه هو الذى أغرى السلطان ليكون قريبا من أخيه، ليفيد فى التماس العفو عليه عند الحاجة، وربما أيضا كان افتراقـــه عن أخيه لم يكن الا عمــلا ظاهريا مصطنعا، وخدعة حربيـــة، ومــن يـــدرى ؟

وكيفما كان الامر، فان السلطان توجه بنفسه، ليتولى القضاء على

الثورة، وشد الحصار على الثائر فى معقله، أما الثائر عمر فانه لما وجد أنه لا قبل له بمقارعة السلطان، أرسل الى أخيه عامر يطالب منه أن يتوسط بينه وبين السلطان ليعفو عليه، وربما كان أعده لمثل هذا من قبل، كما أسلفنا، ولما عرض عامر على السلطان مطلب أخيه أجابه السلطان بالقبول، وتركه يصعد الى المعقل ضامنا له أن ينزل عند ارادته ويستسلم، الا أن الثائر بعدما اجتمع بأخيه فى مناجاة سرية، فر ليلا الى تلمسان، اختفاء حتى عن أخيه عامر الذى تركه فى الحصن يضرب أخماسا فى أسداس، وحمل ما قدر عليه من الذخيرة وعند الصباح سقط فى يد عامر، حيث لم يجد أخاه، وخاف من السلطان أن يتهمه بالتواطىء مع الثائر، فيقتله، وكان القتل عقوبة عادية، فامتنع عامر فى الحصن، واستعد للدفاع على نفسه، متمثلا فى قول القائل :

اذا لم تكن الا الاسنة مركب   فلا يسع المضطر الا ركوبها

ابن الاحمر ووساطته عند السلطان :

بقى السلطان محاصرا لعامر بعد فرار عمر الى تلمسان، وبقى عامر معتصما بالحصن خائفا من بطش السلطان به .

وقد سمع صاحب مالقة: أبو سعيد فرج بن اسماعيل ابن الاحمر بوجود السلطان فى الضفة الغربية المقابلة لضفة الاندلس محاصرا حصن تزوضا، وكان ابن الاحمر قد غدر السلطان يوسف ابن يعقوب فى مدينة طريفة، وظاهر ملك اسبانيا: «سانجة» على الاستلاء على طريفة، وكانا اتفقا على اقصاء السلطان عن هذه المدينة التى كانت الممر الاقرب الى الضفة الغربية، وفيها كانت ترسو القوارب الحربية المحملة بالمجاهدين لغزو الاندلس .

وقد كان السلطان بتاريخ رمضان عام 690 هـ (1290 م) احتل مدينة طريفة، بعد ما نشبت معركة حربية بين أسطول السلطان المرينى ، وأسطول الطاغية، كانت النكبة أولا حلت بأسطول المغرب، ولكن السلطان جدد عمارة أخرى، وقصد طريفة، الا أن الطاغية الاسبانى تنكب أن يتلقى معها، فانزلت العمارة المجاهدين ونزل السلطان بنفسه فيها، وغزا جهات أرض العدو، وقتل واثخن، وحاصر الى فاتح سنة 691 هـ (1291 م)،

رجع السلطان الى الجزيرة الخضـــراء، ثم قطع البحر الى المغـــرب وبعد رجوعه تواطأ ابن الاحمر والطاغية على اقصاء ملك المغرب عن شبه الجزيرة، وكان الاتفاق فيما بينهما على ان اسبانيا تغزو طريفة وتحتلها، وعندمـــا تتخلص من المغاربة يسلمها «سانجة» الى ابن الاحمر، وفي مقابل ذلـــك يقدم ابن الاحمر للحملة ما تحتاجه من المال والدخيرة، ويتنازل لسانجـــة عن معاقل ستة من معاقله المنيعة بالاندلس .

الا أنه لما ظهر للطاغية الاستيلاء على مدينة طريفـــة، وحيازتـــه للمعاقل الموعود بها، غدر ابن الاحمر، وضرب باتفاقه معه عرض الحائط، فترك ابن الاحمر بعض أطرافه ندامة، ولات مندم ــ فلا حصونه بقيـــت بيده، ولا ذخيرته احتفـــظ بها، ولا مدينـــة طريفه بقيت اسلامية، وبعـــد ضربه اخماسا في اسداس رأى أن رد الفعل الوحيد الذى يمكن له أن يرد به على الطاغية، هو مصالحة السلطان المريني فكون وفدا تحت رئاسة ابـــن عمه أبي سعيد فرج ابن اسماعيل ابن الاحمـــر، ووزيره عزيز الـــداني، فخرج الوفد في أسطول بحري الى أن نزل بمرسى غساسة ــ وهي فرضة على البحر المتوسط غربي مليلية ازاء رأس ورك في قبيلـــة بني بوغافـــر القلعية، وكانت مدينة عامرة، ومرسى هامة بها ترسو السفن القادمة مـــن العدوة الاخرى، ومنها تصدر الى الضفة المقابلة ــ .

وقد مثل الوفد أمام السلطان في معسكره حول الحصن، وقدم لـــه الاعتذار عن ابن الاحمر صاحب مالقة على تواطئه مع الاجنبي .

وقد اغتنم عامر المتحصن بالمعقل وجود هذا الوفد، فأرسل اليـــه يلتمس منه أن يتوسط بينه وبين السلطان، ويستشفعه فيه، فقبل الوفـــد ذلك، وقام فعلا بمساعي حميدة، كانـــت النتيجـــة أن عفا عنه السلطـــان مشترطا أن يغادر المغرب تماما الى الاندلس بحاشيته وعائلته، فاظهر عامر القبول والرضى وأخفى كراهية ذلك، مضمرا الفرار الى تلمسان، حيـــث يلتحق بأخيه عمـــر .

وعلامة على قبول شروط السلطان ظاهريا، ارسل الى الاسطـــول الراسي بمدينة غساسة بعض جماعته فركبوا منتظرين وصول عامـــر، الا

أنه عندما أرخى الليل سدوله، تنكب الى جهة تلمسان، فارا بعائلته وترك قومه عرضة للقتل والفتك بهم .

فلما أصبح الصباح، وتبين للسلطان خديعته أمر خيالة لاقتفاء أثره، فطاردته الخيالة فى مفازة بوعاك وصبرة، وانكاد، غير أنها لم تعثر له على أثر، الا ما كان من ولد له يدعى أبا الخيل، فانه تاخر ولحقت به الخيالة، فأنتبه اليه، وبعث الى فاس، حيث قتل هناك وصلب جثمانه على أسوارها، كما استنزل من بقى فى الحصن، ومن ركب الاسطول، وبعد ما جمع الجميع أمر بقتلهم، ولم يعف ولو على واحد، بل قتل حتى النساء والذرارى فى يوم مشهود، وتملك السلطان يوسف حصن تزوضا، وانزل بها عياله ومسلحته، وقفل راجعا الى حضرته بفاس، آخر جمادى الاولى سنة 692 هـ. (1)، وقد استمرت الثورة عشرة أشهر، لانها قامت بتاريخ شعبان 691 هـ؟ وانتهت فى آخر جمادى الاولى سنة 692 هـ.

هدية افرنج جنوى :

واثناء مقام السلطان يوسف محاصرا حصن تزوضا، وفد عليه أيضا رجل من نصارى جنوى بايطاليا، مصحوبا بهدية قدمها سكان المدينة، وكان مما تضمنته تلك الهدية شجرة مموهة بالذهب على اغصانها طيور من ذهب أيضا تصوت بحركات هندسية، مثل ما صنع المتوكل العباسى، وقد تقبل السلطان من الوفد هديته، وأمن وفادته، وكان ذلك تقربا من هؤلاء الافرنج الى ملك عظيم بالمغرب طارت شهرته الى الآفاق، وبذلك أقيمت علاقات حسنة اتصلات بين ايطاليا والمغرب .

نكبة أولاد الامير ابى بكر المرينى :

لما تم للسلطان القضاء على ثورة الريف كما أسلفنا، وكان أولاد الامير أبى بكر فى عين الصفا، حيث تركهم ابوهم المتوفى برجب عام 656 هـ. (1257 م) وقد سعى الوشاة بين هؤلاء الاولاد وبين السلطان يوسف، فوشوا اليه بأن هؤلاء الامراء يريدون الانتقاض على السلطان، والقيام بثورة أخرى، فصدقهم فى ذلك، (وليس بأقرب الى التصدق من أخبار

---

(1) الاستقصاء ج.7.ص.47. (طبعة دار الكتاب بالدار البيضاء) .

الانتقاض على الملك، وبالاخص فى تلك الظروف، وبالاخص من أولاد أمير، كان سبق أن تسلط على بعض البلدان، كما تقــدم، وإذا يقال أن الملــك عقيم)، فهم السلطان بالفتك بهم، الا أنهم علموا بنوايا السلطان فهربوا الى تلمسان، وكان ملكها يغمرسن ابن زيان الزناتي، يتقبــل كــل لاجىء سياسى من المغرب، لان علاقته بملوك المغرب لم تكن حسنة، ويظهــر أن السلطان تحقق من كذب الوشاية، فندم على ما كان عزم عليه، أو لانه رأى أن فرار قرابته الى أعدئه، يفسر تفسيرات سيئة، ولذا بعث الى أولاد الامير المذكور بالامان، طالبا منهم الرجوع الى بلدهم، فاستبشروا بذلك، واقبلوا برجلهم وخيلهم، عائدين الى الوطن .

وعندما وصلوا الى صبــرة موضع قرب نهر ملوية من المغــرب الشرقى من بلاد الريف، اعترضهم ولده أبو عامر عبد الله ابن يوســف، ففتك بهم فتكا ذريعا، فى مجزرة يندى لها الجبين، وهو يعتقد أن عمله هذا يرضى أباه، وانه قام باهلاك عدو له، كانت سياسة الملك الظاهــرة تقضى عليهم باستدعائهم، أما فى الباطن فانه سيكون مرتاحا الى عمله الجرىء، ولكن أبوه كان صادق الطوية، ولم يستدعهم للغدر بهم، فانزعج لعمل ولده ايما انزعاج، وحزن على ما فعله حزنا كبــيرا، لان فى فعل ولده معــرة له داخليا وخارجيا، فهم من القرابة بالمكان، جاءوا بامان الملك .

ولذا أعلن السلطان غضبه على ولده واقصاه عن حظيرة الملــك، فانجلى هذا طريدا فى بلاد الريف، وجبال اغمارة يتنقل شريدا الى أن مات بقبيلة بنى سعيد الريفية، آخر سنة 698 هـ (1297 م) ونقل جثمانه الى فاس، حيث دفن بزاوية بــاب الفتوح .

وقد خلف ولدين احدهما يدعى عامر، والآخر سليمان، تولى الاول الملك بعد وفاة جده يوسف وتولى الثانى بعد وفاة أخيه عامر .

نكبــة تفرسيــت وأحوازهـــا :

تقع قرية تفرسيت بين قبائل بنى توزين وبنى اوليشك وتمسامان فى منخفض من الارض، تخرج فيه عين معين من الماء الصافى، تسقى منها جناتها وبساتنها، وتعتبر جنة بطيوه .

وكما أسلفنا، فان تلمسان كانت مأوى للفارين الناقمين على دولة

المغرب ورجال الحكم فيها، سواء أيام الموحدين أو المرينيين، وكان يقوم بشؤون تلمسان ملوك بنى زيان الزناتيون، ورغم أن دوله بنى مرين زناتية أيضا، وقد سبق عن خاصه الملك سعيد الموحدى أن قالوا له: «لا تفعل يا أمير المؤمنين، فان الزناتى أخو الزناتى لا يسلمه ولا يخذ له، وأنا نخاف أن يصطلحا على حربك» فان الخلاف ظل قائما بين الدولتين الأختين، لان الملك عقيم، وكان سبب الخلاف ما كان عليه اعتقاد بنى مرين من أن بنى زيان اغتصبوا تلمسان، واحوازها، لانها من جملة المملكه المغربيه فى ايام الموحدين، فيجب أن يرثوا المملكة بأجمعها، كما ورثوا المغرب عنهم، وقد كان نفس الاعتبار بالنسبة للدولة الحفصية فى افريقيا أيضا، وبنو مرين لم يهدأ لهم بال، ولم يستكينوا الى الخلود ما دام هاتان الدولتان قائمتين على انقاض الموحدين فى الشمال الافريقى .

على أن مما كان يزيد فى شقة الخلاف طمع سلطان تلمسان بتملك المغرب، أسوة بتلمسان، فقد كانت له مطامع فى المعرب أيضا، فعندما توفى الامير أبو بكر ابن عبد الحق المرينى سنة 656 هـ (1257 م) طمع سلطان تلمسان يغمرسن فى المغرب، اذ ظن أنه بموت هذا الاسد من المرينيين يمكن له أن يهتبلها غرة ليتملك المغرب، فى حين أن ابا حفص عمر بن الامير أبى بكر المتوفى قد اختلف مع عمه يعقوب ابن عبد الحق، وحشر كل منهما أنصاره، للتقاتل على الارث الذى خلفه لهما الامير أبو بكر وهو فى حالة غليان لم يستقر به المقام بعد، فتبارز القريبان، يقتتلان، ولكن رجحت كفة الامير يعقوب، لانه كان بجانبه، وفى صميم جيشه، انصار بنى مرين الاولون، الذين على بطولاتهم قامت دولتهم، وهم ابطال الريف الذين آزروا الدولة من أول وهلة، فهم اذ يقاتلون الآن فى صف يعقوب، فانما يقاتلون لامر هو منهم واليهم، أما عمر بن ابى بكر فانه جمع اعياصا لم يؤمنوا به ولا بدولته التى يحاربون من أجلها، بل هم يعتبرون دخيلين فى صفوف هذا القتال، ولا يعنيهم من الامر الا انهم يتفرجون .

وسبب انحياز يعقوب للريف، أنه لما تملك الامير أبو بكر، كان أول ما فعله أنه (1) قسم بين قومه بلاد المغرب وقبائل جبايته، وأنزل كلا منهم

(1) الاستقصاء ص. 11 ج. ث .

بناحية سوغها اياهم سائر الايام طعمة لهم، وأمر كل واحد من أشيــاخ بني مرين أن يستركب الرجــال .

وكان ما قطعه لاخيه يعقوب تنــازة وما والاها من بطيوة ملويــة والريف الى البحر المتوسط، فكانت هذه الجهات تعد من أقوامه وأنصاره الذين استركبهم الخيــل، وعلمهم الفروسية والنزال. وقد كــان الامــير يعقوب أول وفاة أخيه أبي بكر واستيلاء ابنه أبي فحص على الملك، اذ كان حاضرا فى فاس لما توفي أبوه، وكان يعقوب غائبا فى ولايته بتازة، أراد أن يركن الى ايالته، ويكتفي بها عن التقاتل عن الملك، الا أن أنصاره أرغموه على الطلب بالملك، لانهم يرونه أولى من ابن أخيــه .

وقد يكون من دواعي ذلك أولا: ما أسلفناه من أنه كان دربهم على الفروسية، وثانيا، لانه حفيدهم، فأمه ريفية صميمــة من بطيوة، تدعــى أم الايمن بنت علي البطوي، وثالثا: فان استــلاءه على الملك معناه أنهــم الوزراء والانصار وأصحاب الكلمة العليا فى الدولة، شأن ذلك شأن جميــع الامــم .

فلم يجد الامير يعقوب بدا من اجابتهم، والقيام بالامر، فبويع بتازة ونهض باتباعه الى ملاقاة ابن أخيه، وكما أسلفناه من كون هذا الامير جمع الاعياص والشذاذ من الناس، فانه لما رأوا قوة الامير يعقوب، خذلوا أبا حفص، ففروا عنه من دون قتال، فرجــع الى فاس مفلولا، واكتفــى من الغنيمة بالاياب، وطلب من عمه أن يقطعه مكناسة، وينزل له عن الامــر فأجابــه لذلــك (1) .

تقدم ان يغمرسن ملك تلمسان، كان يطمع فى المغرب، ولذلك فانه انتهز هذا الخلاف، وجمع قومه من بني عبد الوادي، وآزرهم بقبائل بني توجين ومغراوة وأطمعهم فى الاسلاب والمناصــب، ووعد ومن، فقادهــم جيوشا جرارة، ودخل المغرب الى أن وصل الى موضع يدعى «كلدمــان»، ولكن السلطان يعقوب كان قد انهى خلافه مع أخيه، فجمع قوته، وصمــد له، فكانت الغلبة للامير يعقوب، ورجع يغمرسن على أعقابــه .

---

(1) الاستقصــاء ج. ث. ص. 20 .

الا أنه لما كان أمر قوات الامير يعقوب مرجعه الى الريف، وهـم الذين هزموا يغمرسن، فان هذا الاخير اراد أن ينتقم منهم، فلما رجع من معركة كلدمان، دخل قلب الريف وعسكر فى قرية تفرسيت، وجعل ينتقـم ويحرق ويقتل ويهتك الاعراض، ويسبى النساء، ويرسل قواته الى جهات مختلفة من الريف، مطلقا لها العنان للتخريب والتنكيل، فلم يدعوا وحشية الا ارتكبوها، وكانت نكبة عظيمة لحقت بالريف، وعندما أشبع وحشيتـه قفل راجعا الى تلمسان، وذلك سنة 658 هـ (1279 م) .

الحياة الاجتماعية فى مختلف فترات تاريخ الريف

يضم هذا الفصل جملة من العلماء والقضاة، والصلحاء، وأهل البيت من الشرفاء، الذين تواجدوا فى الريف فى مختلف الفترات من التاريخ .

كما يضم النص الكامل لمخطوط من مخطوطات عصر مدينة بادس، التى ازدهرت أيام الموحدين والمرينيين، وذلك كله لاثبات الحياة العامة الراقية فى ذلك التاريخ .

الوســط الاجتمــاعــى للــريـف :

بعد الموجز عن الاحداث السياسية فى عصر مدن النكور وبــادس والمزمة، يجدر أن يكون ختم هذا القسم، بسرد بعض رجال العلم والتصوف والشرف فى الفترة التاريخية التى عاشت فيها تلك المدن للنظرة السريعــة التى أردنا القاء الضوء بها ولــو بصيصا عن الحياة العامة، قبــل أن نلم بالاحداث الكبرى التى هى محور هــذا الكتاب، وهى أحداث الحــرب التحريرية الريفية، ليكون وقع اخبارها لــدى القارىء خالصا مستوعبــا ولو باجمال لماجريات تلك الحياة، وكيف كان أثرها عند السكان الذيــن حجبتهم تلك الجبال الشاهقة فى فترات التاريخ، عن معرفتهم لدى غالبية سكان الجنوب، حتى أنه أقصى ما وصلت اليه معرفتهم بهم أنهم أنــاس يخشى بأسهم، وأنهم فى حياة لا تطاق، من حيث عدم الاستقرار، ذلــك ما دعاهم الى أن يدعوها بلاد السيبة، وعسى أن تكشف هذه العجالة من القول على عكس تلك المعتقدات التى ظلمت قوما، لهم فى مكارم الاخــلاق والصفات النبيلة ما لغيرهم من أبناء جلدتهم من البرابرة والعرب، والذين تشبثوا بحياة الدين الحنيف الى الرمق الاخير .

وهذه ترجمة بعض أولئــك الرجال غير العائلة الخزرجيــة التى تقدم الكلام عليهــا مستوفى .

أبو يعقوب البادسى: (17 دى الحجة 640 11 ربيع الثانى 734هـ)

افتتحت هذه السلسلة من العلماء والصلحاء بهذا العالم الصالــح الفذ فأذكره أولا: تبركا به وان كنت سأخصه بنشر مخطوط كامل عنــه وعن التعريف به وبمناقبه فى آخر التراجمة اختتاما به، نظرا للفائــدة الهامة فى هذا الموضوع، اذ أن المخطوط، زيادة عن كونه يفيدنا عن حيــاة المترجم له وباعه فى العلم والتصوف، فانه يلقى ضوءا ساطعا عن الحياة فى ذلك العصر، وبالاخص ان المخطوط من بنات فكر فحل من فحول علماء فاس وقاضى الجماعة فيها فى وقته، وهو أبــو محمد عبد الله بن محمد الاوربى، الذى عرف به صاحب كتاب سلــوة الانفاس ــج ــلث ــص. 301، كما عرف به أيضا صاحب النيل ومؤلف جذوة الاقتباس .

وفى المخطوط ذكر لبعض رجال ذلك العصر، ممن لهم اتصـــال بالمترجم، أو لهم احتكاك برجالـــه .

أبو يعقــوب بن الشفــاف البادســـى :

هو يوسف بن الشفاف البادسى أصلـــه من قصر كتامة ــ قـــرب القصر الكبير ــ وكان من أعيان وجهائها، فرفض ذلك الجاه، وخرج مهاجرا الى بادس، وسكن بها الى أن توفى فيها رحمه الله .

تاريـــخ حياتـــه : كان حيا زمن القاضى اسماعيل الخـــزرجى، فقد قال هذا دخلت عليه يوما فأخرج لى ورقة من كتاب المستصفى وقـــد أحرق وسطها، فقال لى أجبر هذه الورقة، فقلت له وما حرقهـــا، فقال لى كنت البارحة أنتظر فيها فقربتها من القنديل فسقطت عليها نقطة من الزيت، فأردت أن أنشفها لشعاع السراج، فاحترقـــت .

وبما أن القضى اسماعيل توفى عام 685، فانه يكون أبو يعقوب هذا حيا فى أواسط القرن السابع الهجرى .

مكانتـــه العلميـــة والصلاحيـــة :

قال القاضى اسماعيل، كان الشيخ آبو يعقوب الشفاف عالما بالفروع والاصول وكتب التصوف، وكان أوحد زمانه ورعا، وعرف به صاحب المقصد الشريف، فقال: محكـــم الاوصول والفـــروع، المحافظ على كل مسنـــون ومشروع الشيخ الفذ، وكان كثير الحيـــاء .

وحكى عنه خديمه الشيخ الصالح المؤذن يوسف بن عبد الله، قال: أقام سنين لا يرفع رأسه حياء من الله، وفى بعض الليالى يسألنى هـــل السماء مصحبة أو مغممة، فأخبره بحالهـــا .

تحكى عنه كرامات سخرها الله له بسبب صلاحه وتقواه .

وأبو يعقوب هذا غير أبى يعقوب يوســـف بن محمد بن عبد الله الزهيلى المعروف بأبى يعقوب البادسى المعـــروف بأبى الغماز صاحـــب الضريح بالمصلى ببادس، خلف قبـــر أبى على المراكشى، وان كان كـــل منهما عاش زمن القاضى اسماعيل، الا أن الذى يؤخذ من ترجمتهما معـــا، أن أبا يعقوب ابن الشفاف أكبـــر من أبى يعقوب الزهيلى ابن الغمـــاز،

فالاول كان شيخا للقاضى اسماعيل، والثانى كان تلميذا له، وهذا الاخير سيأتى التعريف به بنشر ترجمته برمتها، التى ألفها أبو عبد الله الاوربى.

الشيخ أبو على الحسن الخراز :

أصله من أهالى مالقة بالاندلس، وكان فى بادىء أمره مشتغلا خرازا ينسج الديباج، وتزوج بمالقة ببنت عمه، وهو ابن أخت أبى العباس القنجيرى المالقى، وفى آخر حياته رفض الدنيا وخرج من مالقة مهاجرا الى مدينة بادس، (مقر الصالحين)، وحين وروده على بادس كان عمره حوالى ثمانين سنة .

اعتكافه : وقد نزل فى رباطة البحر ببادس، فاعتكف بها مدة من الزمن، وبسبب وجوده فى هذه الرباطة لاحظ النازلون خصب العيش فيها، وذلك أنه لا يصل قارب من قوارب التجارة الى مرسى بادس الا بادر باعطاء هدية الى فقراء الرباطة، وكانت هذه العادة جارية عند وراد هذه المرسى .

بركاته فى هذا الشأن : وكان له خديم يدعى موفقا، وحكى هذا أنه فى يوم من أيام اعتكافه بهذه الرباطة ورد قارب من أشبيلية الى بادس موسقا بالتين والزيت، مارا بذلك الى جهة وهران، فأقلع القارب ولم يعط شيئا للرباطة، فأتى الخديم الى الشيخ وأعلمه بأن القارب أقلع من المرسى من دون أن يعطى رسوم الرباطة، فقال له الشيخ لابد أن تأكل من تينه وزيته، فردته الرياح الشرقية التى عاكست القارب الى مرسى يالش، وهذه المرسى الى غربى بادس، فمكث هناك الى أن ساعدته الريح، فسافر فأعلم الخديم الشيخ، وقال له هذا لابد أن تأكل من تينه وزيته، وفعلا قامت ريح عظيمة فردته الى يالش بعد أن تكسرت بعض الواح القارب، فأرسل وكيلا له الى بادس لشراء الخشب لاصلاحه، فأعلم الوكيل بقولة الشيخ فبادر الى ارسال التين والزيت، وحينئذ سهل عليه السفر .

سفره الى سبتة : ومع كبره كان يسافر الى سبتة عن طريق البر، فقد حكى المؤذن يوسف أنه تلقاه فى سوق مسطاسة ـ وهى قبيلة جبال صنهاجة بادس غربيها ـ، فقلت له ما حاجتك هنا، فقال أريد زيارة

سبتة ثم اشتريت له خيارا وذهب، وقد تلاقيته بعد ما رجـع الى بادس فسألته أين بات، فقال أنه بات فى ترغـة ــ وهى مرسى فى آخر قبائـل غمارة ــ والمسلك اليها وعر كثيرا بالجبال والصخور، لا يقدر على سلوكها أقوى الاشخاص، فكيف لمن جاوز الثمانين .

حيـاتـه : كان حيا فى حـدود 685 هـ. وذلـك يؤخذ من قـول المؤذن يوسف، وهو أبو الحجاج يوسف المؤذن، انه تلاقاه فى سوق مسطاسة، لان هذا المؤذن كان حيا فى هذا الوقت بالذات، وهو تاريخ وفـاة القاضى اسماعيل الخزرجى، فقد قال الشيخ عبد الحق بن اسماعيـل، القاضى أن أبا الحجاج يوسف المؤذن تولى غسله وأنا أصب عليه الماء، فلما كشف عن وجهه رآه اشراقا وبهجة فقبله بين عينه وبكى .

أبو الحسن على بن محمد المراكشى نزيل بادس :

هو مراكشى أصلا، نزل ببادس بعد ما رحل الى المشرق وحـج، فقد قال عن نفسه فى كتابه «مناقب الاولياء» قعدت يوما بمكة أنظـر فى البيت وأتفكر فيه وأرى له أربعة أوجه والناس يصلون الى كل جهة فيـه، فألهمنى الله تعالى الى أن قرأت : فأينما تولوا فثم وجه الله .

مكـوثـه بمصـــر :

وبعد الحج رجع وبقى فى مصر باحثـا عن الاشياخ الصلحـاء، فقد قال عن نفسه أيضا فى كتابه المذكور، سكنت بقوص مدة فذكر لى عن شيخ فى الاقصور يعرف بأبى الحجاج يوسف الاقصوى، فأردت زيارته، فتخلفت عنه أياما، فنمت يوما فسمعت قائلا يقول لى قم الى الشيـخ يوسف فانه خرج ليجتمع بك، فلم أكذب ــ أى الرؤية ــ فخرجت أما أن ألقاه وأما أن أمشى الى منزلـه على وجه الزيارة، فمشيت على ساحـل النيل حتى انتهيت الى موضع المعدية، الى أن أتى على الحكاية التى ذكره فيها أنه لقيه ثمة، وانه طلب منه نصيحة شافية، فقال له عليك بمحاسبة نفسك ومراقبتها، وعليك بالصمت بين يدى العلماء، وعليك بالتواضع وقلة الدعوى ثـم انصـرف .

زيـــارتـــه لبيـــت المقـــدس :

حدث عن نفسه فى الكتاب المذكور، قال: مشيت الى بيت المقـــدس (وذلك فى صدر المائة السابعة) وأقمت فيه يوما، وخرجت الى زيارة أبينا ابراهيم عليه السلام، فأتيت الى قبره، وهـــو مدفون فى مسجد صغـــير ، فصليت ركعتين ثم خرجت لاسلم عليه، فاذا انا بثلاثة نفر وهم يتلـــون هذه الآية: «وذا النون اذ ذهب مغاضبا فظن أن لن نقدر عليه الى الظالمين» وهم يكررونها فسلمت عليهم وبقيت متعجبا من كونهم لم يجدوا ما يقرءونه على أبينا ابراهيم الا هذه الآية، فأتى الى رجل منهم، فقال يا هذا لا تعترض نحـــن من قومـــه الـــخ .

رجوعـــه الـــى مـــصـــــر :

قال دخلت سنهورا (1) بينها وبين الاسكندرية يوم وبعض يوم، فركنت وتجردت للعبادة، فآويت الى مسجد آخـــر البلد، فاجتمـــع حولى فقراء بغير اختيارى وكـــانوا لا يبرحون عنى وضيقوا على فى العبـــادة، فعزمت على الانتقال الى بلد غيرها، فلما كان العشاء الاخيرة من ذلك اليوم رأيت رجلا دخل علينا المسجد وأولئك الفقراء قعود، كل واحد فى موضعه، فأخذ الرجل بيدى وأخرجنى من المسجد، وقال لى امش معى الى أن قال وأخذ بيدى وأدخلنى الى منزله فى غرفة لم أجد فيها الا حصيرة من الحلفاء أقعدنى عليها، ثم دار فى زاوية الغرفة فأنزل بـــين يدى عسل نحـــل ولبنا معقودا وخبزا حارا، فواكلنى ثم قـــال، فسألته عن اسمه، فقال اسمـــى ضرغام بن مخلوف، فقلت له ما حرفتك، فقال لى قزاز وبعده أراد الانصراف فقال له الضيافة ثلاثة الخ ...، ثم تركه عنده شهرا كاملا وقال قلت متمثلا:

نزلنـــا على أن المقـــام ثـــلاثـــة فطابت لنا حتى أقمنا بها شـــهـــرا

تيهـــه فى صحـــراء مصـــــر :

قال: صاحبنى شاب اسمه يوسف، وكان ذانية، وحرفته يـــدور ويطعم الفقراء، فلما كان ذات يوم، خرجت للسياحة، ففطن بى فتبعنـــى

---

(1) سنهـــور بلد بمصـــر .

وبيده أبريق لا غير، فساءنى فعلـــه، فقلت له ما حملك على هـــذا ــ أى مصاحبته ــ ارجع الى الفقراء، فلم يفعل ورغبنى وبكى، فتركتــــه معى وكنت أردت أن أصل الى أسوان الى رجل يعرف بالهرغى، واسمه عبد الله وكنت رأيته بقوص، فمشى معى الشاب ونحن على ساحل النيل لا نفارقه، ثم وصلنا الى موضع بدماميل فبتنا فيه عند رجل من الفضلاء اسمه مفرج، والشاب يوسف معى لا يفارقنى، فلما كان فى السحر أردت المشى الى الاقصور، فسرقتنا طريق صغيرة والشاب معى، فما شعرنا الا ونحن فى صحراء والغزلان أمامنا، اذا بوادى، ثم انقطعت عنا الطريق التى أخذنـــا عليها، فلم نعلم حيث نحن من الارض، فسرنا النهار كله فبتنا ثم أصبحنا وتيممنا وصلينا، ثم مشينا الى وقت الزوال وقعدنا الى الارض، ولا شىء بقى من الشمس، وأخذنى العطش الشديد، والابريق بيد الشاب يوسف، فقلت له أصابنى العطش، فقال لى ياسيدى اقعد مكانك فتوارى عنـــى، ثم أتانى وابريقه مملوء ماء، ثم قال: فقلت والله لا شربت من هذا المـــاء شيئا حتى تعرفنى، فقال لى يا سيدى انى أعرف فى هذا الموضع مكـــان الماء الخ القصة، حيث شربا وتوضيا ثم قعدا الى صلاة العصر، ثم مشيـــا الى المغرب، فباتا تلك الليلة قال ولم نعلم حيث نحن، فلما أصبح صلينـــا الصبح ومشينا حتى رأينا النخيل، فلما خرجنا من النخيل عرفنا البلاد الذى هو الاقصور، فبتنا تلك الليلة عند الشيـــخ أبى الحجاج الاقصورى، ثـــم مشينا الى أسوان، وكان قريبا من العيد الكبير، فعيدنا عند الشيـــخ أبى محمد الهرغى، ثم أراد الشاب أن يمشى، فخليت سبيله، وهو الآن بمكـــة يبعث لى السلام مع كل من يعرفنى .

رجـــوعه الى المغــرب :

بعد رحلته الى المشرق رجع الى المغرب، وقد اختار أن يستقر فى مدينة بادس، لانها مقبرة الصلحاء، كما قال، فقد حكى تاجر ببادس كان يدعى محمد بن ادريس، وكان يتردد بزورقه على مراسى البحر الابيض المتوسط لوسق سلعه مع ابن عمه الرئيس يوسف البحرى، قال كنا حملنـــا فى قاربنا خشبا من بادس برسم التجارة ــ أى الى مرسى هينين بنواحى

الجزائر ــ فلما بعنا وحضر سفرنا، أتانى شيخ رضى بهى السيمة، فقال لى من أين جئتم فقلت له من بادس، فقال نعم بادس مقبرة للصالحــين، م قال لى وأى وقت تحاولون الرجوع اليها، فقلنا له الساعة، فأنا مسافرون ان شاء الله، فقال ان بدا لى التوجه صاحبتكم اليها فى قاربكم، قلت لــه نعم، فقال لى أنا ومن معى وهى مملوكة، فقلت له أنت ومن معك، قــال فعرفت اذ ذاك شريكى وابن عمى الرئيس يوسف وكانت فيه شراسة، فقال لى ما يطلع معنا الا بالكراء فقلت له قد أذنت له فى طلوعه، ولا يمكن نقض الوعد معه، فحاسبنى بواجبك من الكراء عليه، قال فأتى الشيخ أبو الحسن وخادمته فطلع معنا فى القارب واقلعنا من هينين وسرنا فأصبحنا يومــا على حرف بادس فنظرنا فى الغبش، فرأينــا شيطيا ــ باخرة ــ حربيــا قاصدا الينا من البر فدهمنا أمر عظيــم، وسار بعضنا يمــوج فى بعض، والشيخ أبو الحسن واضع رأسه بين ركبتيه، فسمع ضجيجا وما نحن فيه، فرفع رأسه وقال ما شأنكم، فقلت له أظنك مصابا فى عقلك، نحن الساعــة أسارى للعدو، ثم قال فقام فكانت منه التفاتة الى جهته، فرأيته قد أمسك طوقه بيده، وأخذ به كالخائف لنفسه، ثم رفع رأسه الى السماء، قال فغشينا فى الوقت ضباب كثيف لا يكاد الانسان يرى يده، وهبت علينا ريح طيبــة سوائع، فغاب عنا الشيطى وما كان الا يسير حتى وصلنا الى بادس سالمين.

حالتــه ومكــوثــه ببادس :

نزل ببادس بعد رجوعه من المشرق كما تقدم، فأقام بها محترفــا بالخياطة، وكانت هيئته فى لباسه كما حكى القاضى اسماعيل، قال قــدم على بادس الشيخ أبو الحسن على بن محمد المراكشى، وعليه جبة صوف خضراء رائقة اللون، واحرام صوف تلمســانى، وعمامة بيضاء، ونعــلان طليطلان، وهو شيخ بهى رضى يظن من رآه انه أحد عمال الموحدين ، وكانت له مملوكة سوداء تعمل الخبز وتبيعه .

وكان يجالس تاجرا بزازا اسمه على بن محمد الزهيلى، ويعرف بالنعجة، فكان يعطيه أثوابا من حانوته يخيطها له بالاجرة وما زال متسترا بما ذكر حتى مات رحمه اللــه .

تـــآليفـــــه :

له تأليف سماه كشف النقاب، فى مناقـــب الشيخ الاواب الحـــاج حسون المبين فضله لدى كل من أناب ــ لم نعثر عليه، وقد ذكر فى مخطوط للجلاب فى مناقب الشيخ حســـون ــ .

وله تأليف آخر سماه «مناقب الاولياء وصفة سلوك الاصفـــاء» (مذكور فى المقصد الشريف فى التعريف بصلحاء الريف لعبد الحق الخزرجى)، وقال انه نقل عنه فى كتابه طبقات الاولياء، كما نقل فى مقدمة المقصد.

وفـــــاتـــه :

أقام ببادس فى حدود الاربعين وستمائة 640 هـ. وذلك انه لما رجع من المشرق استقر ببادس وتستر بالخياطة واللباس الفاخر الى أن توفى ودفن بالمقبرة التى بمشرق بادس، وقبره مشهور بها يزار ويتبرك به، وكانت قصة وفاته كما يأتى: كان التاجر البزار الذى كان يأخذ منه الثياب ليخيطها له بالاجر، يتهمـــه بعلم الكمياء، فكان يبالغ فى اكرامه والبر بـــه للطمع، وذلك ان مملوكته السوداء الخبازة كانت تشترى القمح بدراهـــم سكة جديدة ليست من سكـــة ذلك الوقت، وكان الشيـــخ المراكشى يسكن برباط «تمدى»، (لفظة تمدى هو اسم النسر بالريفية) بمقربة من البحـــر فى غرفة هناك، فلما حان وقت وفاته، وكان على بن محمد النعجة الزهيلى ــ أى التاجر ــ اماما فى مسجد المقبرة، وكان ذلك الوقت وقت صلاة الظهر، فقال له يا أبا الحسن، قم صل بالناس، فان الجماعة تنتظرك، فقال لـــه يا سيدى لا أريد فراقك ــ يظهر أنه كان مريضا مرض الموت وان لم يرد فى النص ذلك ــ فقال له قم فان قدر لك رزق فى شىء ادركته، (فهم الشيخ غرض التاجر من مكوثه معه وهو ان يحوز دراهم الكيمياء عند موته قبل أن يعلم بموته أحد). فذهب للصلاة فلما عاد وجده ميتا رحمه الله، فلـــم يجد عنده شيئا غير كتابه المعروف بمناقب الاولياء وصفة سلوك الاصفاء.

الشيـــخ أبو الحجـــاج يوســـف القصـــير

كان من الشيوخ الملتزمين برباطـــة البحر يتعبـــد فيها مستتـــرا

بالاصطيـــاد فى البحر، وذلك أنه كان يتعيش من البحر، يذهب كل يـــوم بسلة يصطاد الحوت ليقتات منـــه .

عـــادتـــه: كان من عادتـــه الصيد فى البحر، كما أشرنا، وذلـــك لمجرد الاقتيات، ومن عادته أيضا أن يذهب الى سبتة فى كل شهر رمضان ليقضيـــه ثمة صائمـــا .

منـــاقبـــه : حكى عنه الشيخ أبو على ارحسن بن هنا البادسى الزهيلى (يظهر أنه من عائلة أبى يعقوب البادسى)، قال: حدثنى يوسف بن احمد البادسى، أنه اتفق أن سافر هذا الاخير الى سبتة فى شهر رمضان، قال وبعد ما صلينا ليلة 27 من رمضـان عزمت غده وكان يوم الجمعـــة أن نسافر بعد صلاة الجمعة، فتلاقانا الشيخ يوسف القصـــير، وقال لى متى تسافرون، فقلت له بعد صلاة الجمعة، فقال أنا أسافر معكم ان شاء الله، فأحضر اسقاطا له قليلة من متاع البيت، قال فلما صلينا قلنا له اركب معنا فقال ظهر لى أن أصلى العصر هنا مع المسلمين، سيروا فى حفظ الله، قال يوسف البادسى، فلما وصلنا الى مرسى يليش قرب مدينة بادس فى نصف الليل بتنا فيها الى السحر، ولما وصلنا الى مرسى بادس فى الغبش رأينـــا ماشيا على الساحل قاصدا الينا، فاذا به الشيخ أبو الحجاج القصير، فأخذ ماعون بيته وذهب، قال وذهلت ان أسأله الى ما بعد مدة تذكرت فقلت له فى ذلك فقال نعم وما أبطأنى الا بقرة وجدتها لبنى يذر، ذلك أنه فى تلـــك الليلة ضاعت بقرة لاولاد يذير بنواحى مرسى يليش فبقى أولاده عامـــة الليل يبحثون، فلم يجدوا لها أثرا، وعندما رجعوا الى دارهم ويئسوا منها، فاذا هم مناد من الخارج يا بنى يدير اخرجوا الى بقرتكم، ولما خرجـــوا وجدوا البقرة ولم يجدوا معها أحدا، وكـــان ضياع هذه البقرة هو سبـــب عدم ركوب الشيخ أبى الحجاج فى الزورق لكى يعثر عليها ويردها لاربابها.

حيـــاتـــــه : كان حيا فى النصف الثانى من القرن السابع الهجرى، لان الشيخ أبا على الحسن بن هنا، كان فى حياة الشيخ عبد الحق البادسى الذى كان حيـــا فى أوائل القرن الثامن الهجـــرى وقد حكى فى ترجمة أبى الحسن المراكشى أن ابن هنا هذا كان شيخا مسنـــا .

الشيخ أبو زكريـــاء حسون بن على البادسى :

عرف به صاحب سلوة الانفاس (1) فقال: هو الحـــاج الابى الولى الصالح الزاهد الورع المتقشف .

حياته ووفاتـــه : وهو بادسى مولـــدا ومنشأ وقرارا، الا أنه فى أواخر حياته زار فاسا وبها توفى فى أواخر القـــرن السابـــع الهجـــرى، حسون ليس هو الشيخ ابا على الحاج حسون الادوزى، الذى كان شيـــخ وقته فى التصوف والكرامات، فهذا الاخير من بادية قبيلة بقيوة كما سيأتى التعريف به مفصلا، والمترجم له هنا هو من أهالى بادس، ولم يعرف شىء عن حياته الا ما تقدم عن صاحب سلوة الانفاس من الاوصاف، وما يذكره صاحب المقصد الشريف من كون والـــد الشيخ عبد الحق اسماعيل صهـــره اذ تزوج ببنته، لانه كثيرا ما يقول فى الكتـــاب المذكور، حـــدثنى خالـــى الحاج يحيى بن حســـون .

ولـــده الحـــاج يحيـــى :

وكان ولده هذا فى أول أمره مسرفا على نفسه، وكان من شبـــان مدينة بادس المترفين الذين مالوا الى التكسب والاحتراف الى أن هداه الله الى ترك ما هو عليه من الترف، وكان سبب ذلك أنه طالع كتاب الشيخ أبى الحسن على بن محمد المراكشى فى التصوف، وبالاخص ما حكاه عن الشيخ أبى الحجاج الاقصورى من الكرامات، فتاقت نفسه الى الهجرة الى مصر لزيـــارة الشيـــخ الاقصـــورى .

رحلتـــه الى الحـــج : وفعلا فقد رحل الى المشرق التى هى سنة الصالحين فى ذلك الوقت وزار زاوية الشيخ الاقصورى وقبره وســـأل عن وارث سره، فقيل له انه الشيخ الشماس النوبى، فذهب اليه، وكان الشيخ الشماس هذا مكفوفا أسود اللون فبقى عنده الشيخ الحاج يحيى وخدمه خدمة قيل عنه أنه لم يكن بالزاوية اكثر منه مجاهدة وتقشفا وانقطاعـــا، وفى هذا الاثناء حج الى بيت الله الحرام، ثم رجع الى المغرب ولم يعرف أنه رحـــل رحلـــة أخرى .

---

(1) الجـــزء لث ــ ص. 317 .

مشـــايــخـــه : أخذ الطريقة عن الشيخ الشماس النوبى المتقدم الذكر، وقال عن نفسه أنه تلاقى فى تلك الرحلـــة مع الاكابر من أصحـــاب الشيخ أبى الحجاج الاقصـــوى، منهم احمد بن الخطيـــب، خطيب منى وأبو الحســـن الافواهى وغيرهمـــا .

بعـــد رجـــوعـــه : وبعد رجوعه حاول ان يتكسب من التجارة، فأخذ رأس مال للتجارة من شخص يدعى احمد .ن على البطوطى، وجعل يتاجر، الا أنه لم يفلح فى التجارة، بل اثقل كاهله برأس مال البطـــوطى الذى تلف له، ثم تذكر ان العهد الذى أخذه عن شيخه الشماس الخروج من الدنيا عند فراقه له، فاقلع عن التجارة ولبس المرقعة، وتعيش مما يفتـــح الله به عليه، وما زال كذلك الى أن رحل الى فاس ومات بها كما تقدم، وهو من أهل القرن السابع ووفاته كانت فى أواخره (1) .

أبو العباس احمد بن يحيى بن سعيـــد :

كان رجلا عابدا لا ينام لاجتهاده، وكان يلازم الصلاة فى مسجد بادس وقـــد حكى عن نفسه أنه كـــان يسمع من أبى عبد الله محمد بن انصبان العالم الكبير، أن قبلة مسجد بادس مائلة عن القبلة الى المغـــرب، قال مؤلف المقصد الشريف، وما زلت أراه هو والشيخ أبا عبد الله بـــن الصبان فى حالة الصلاة، ينحرفان الى المشـــرق .

حيـــاتـــه : كان حيا زمن الشيخ عبد الحق بن اسماعيل الخزرجى الذى تقدم انه كان حيا عام 722 هـ. ويستفاد من رواية الشيخ عبد الحق أن هذا الشيخ كـــان أكبر منه سنا، وكـــان يقتدى به حيث قال انـــه رآه والشيخ الصبان يميلان عن المحراب الى المشرق .

صـــلاحـــه : حكى عن نفسه أنه ذات يوم كان يتأمل فى انحراف القبلة فى المسجد، قال فحركنى رجل الى جانبه فرفعت رأسى فأشار بيده وقال القبلة هكذا، فنظرت فرأيت الكعبـــة، قال فطلبت الرجل فلـــم أجده، واللـــه أعلـــم .

---

(1) من سلوة الانفاس صحيفة 317 ــ ج ــ لث .

أبو القاسم سيدى احمد بن يحيى البادسى :

عرف به فى سلوة الانفاس وقال انه كان يعرف بأبى كماشة، كان بفاس توفى فى رابع محرم عام 1100 هـ. ودفن فى فاس بعرصة الخياط رحمه الله .

الشيخ أبو شعبان اليرزيجا :

كان أسود اللون أبيض القلب، يعرف ببوشعبان، ورد على بادس وتعبد فى رباطاتها، ولم يعرف بلده الذى أتى منه الا أنه كان معروفا باغترابه، وقد لازم التعبد فى رباطة البحر، ومرض فيها مرة مرضا أشرف على الموت .

مناقبه : حكى عن نفسه أنه لما مرض فى رباطة البحر حتى أشرف على الموت سقطت قواه ولم يقدر على التحرك، قال ولما كان بعد جزء من الليل دخل على شخص لا أعرفه ببادس، وأتى بطعام، فقال لى كل فاشرت اليه انى لا أقدر، فاطعمنى بيده، فانتعشت فى الحال وبقيت متصرفا فى مصالحى بعد ذلك، وأنا أعرف جميع أهل بادس، فلم أعرفه فيهم .

انتقاله الى سبتة ووفاته بها: بقى ببادس برباطة البحر، وكان الصبيان يتبعونه ويقولون ارحم بوشعبان فيبتهج لذلك ابتهاجا حتى صار يعرف بكلمة ارحم بوشعبان، ثم انتقل الى سبتة ولزم الاذان فى مساجدها المختلفة الى أن توفى رحمه الله، ولا يعرف تاريخ وفاته، الا أنه كان حيا أواخر القرن السابع الهجرى .

الشيخ أبو العباس احمد بن الناهظ :

لا يعرف مسقط رأسه. كان شيخا فاضلا صاحب يقين واخلاص يؤثر عن نفسه ولو كان به خصاصة وعالما حليما مجاب الدعوات، الا أنه كان من عادته أن لا يدعو لاحد الا بشرط شىء معين يدفعه طالب الدعاء .

رحلاته : كان يجوب أقطار المغرب ولم يعرف عنه أنه ذهب الى المشرق، كما كان يتردد على سبتة وذلك كله للتعرف على الطلحاء

والعلماء، كما كانت العادة فى ذلك الوقت، وقد رحل الى فاس ورجع من هناك قاصدا سبتة، وكانت معه كتبه العلمية والدينية، فقد حكى الشيخ أبو محمد عبد الله بن الرايس على البيدق قال أتى ابن الناهض من فاس قاصدا سبتة، فنزل عندنا بمنزل تازجا الى أن قال فأمرهن بتنقيل اسقاطه وكتبه .

مناقبه : قد قدمنا انه كان مجاب الدعوة، الا أنه كان يشترط شرطا معينا يأخذه من طالب الدعاء لقضاء مآربه، ومن جملة ما وقع له فى ذلك مع الشيخ حسون بن على والد الشيخ الحاج يحيى قال كان لابى أخ يدعى محمد بن على أسر فى مالقة، فقيل له أن الشيخ ابن الناهظ له دعاء لقضاء الحوائج، فذهب اليه، فقال له تعطى أربعين دينارا ويخرج أخوك، فقلت له عسى أن تخفف عنى، فقال لا يخرج بأقل من أربعمائة دينار، قال فذهبت فلم أستطع اخراجه الا بأربعمائة دينار، وقضيت العجب من ذلك .

كما حكى عنه أنه كان بسبتة رجل قزاز وله ولد فى مالقة سافر اليها، فما زال أبوه يطلبه بالرجوع وهو يمتنع، فقيل أنه أتى ابن الناهظ فطلب منه الدعاء لرجوع ولده، فقال له تعطى ربع قنطار من السميد قال ففعل، فأول ما أتى جفن من سبتة وصل ولده فيه .

حياته : كان حيا أوائل القرن السابع الهجرى لانه عاشر حسون والد الشيخ يحيى الذى توفى أواخر القرن السابع، ولا يعلم أين مات، الا أن الذى يظهر توفى ببادس .

الشيخ أبو القاسم ابن الصبان :

الشيخ الجليل العلامة العلم والمدرس المتصوف صاحب أحوال ومكاشفة، المتعبد المتحنث المتضلع فى دراسة التصوف وتفسير القرآن .

هو من علماء فاس، ارتحل عنها ومكث فى بادس مدة ثم انتقل الى سبتة وبها توفى رحمه الله .

تدريسه ببادس : كان يدرس التصوف بمسجد المحلة ببادس وكان فى تدريسه التصوف يفضل أبا حامد الغزالى على ابى طالب المكى،

الى ان وقعت له رؤيا صالحة، فأقلع عن التفضيـــل، وذلك أنه بينما هـــو نائم ذات ليلة فرأى نفسه كأنه فى مسجد، وشيخ بهى الطلعة رضى المظهر جالس مسند الى القبلة، فدخل رجل من الباب ويده الى خلفه وعقدهمـــا شبه التكتف، ومشى حتى قبل يد ذلك الشيخ الجالس، ثم رجع القهقرى الى خلفه ووجهه مقابل للشيخ، فلما بلغ اليه قال أتدرى من ذلك الشيـــخ ومن أنا، فقال له لا، قال ذلك هو أبو طالب المكى وأنا حامد الغزالى، وقد رأيت حالى معه، فلا تفضلنى عليه، ومن ذلك الوقت، أقلـــع عن تفضيـــل الغزالى عن أ بى طالب المكى .

مؤلـــفـــاتـــه : قال الشيخ عبد الحق بن اسماعيـــل الخزرجى، رأيت بيد ولده أبى عبد الله محمد بن أبى القاسم الصبان سفرا فيه شرح أسماء الله الحسنى بخط أبيه أبى القاسم الصبان، فقال ان والده جـــرد ذلك من تفسير أبى محمد عبد الجليل للكتاب العزيز، وان ذلك التفســـير فى ستين مجلدا، لكل حزب مجلـــد . .

رحـــلاتـــــه : رحـــل الى المشـــرق لاداء فريضة الحج وزيـــارة المشايخ المقتدى بهم، وقد طاب له أن يجلس فى جزيرة خالية ــ لا نـــدرى بالضبط اسمها أو موقعها ــ الا من امرأة وابنها يتعيشان فى غنيمات لهما يتعبدان فى الجزيرة، وأقام عندهما وصام هناك شهرين من رمضان، ثـــم سافر بعدما عيد هناك العيد الثانى برفقة رجل غريب أتى الى الجزيـــرة لقضاء شهر رمضان، كما هى عادته، وفى برقة مكث سنة على عين ماء يتعبد هناك، وبعد ما قضى مناسك الحج رجـــع وذهب الى فاس، وكان يومـــا بمسجد القرويين فدخل عليه صاحبه الذى رافقه من الجزيرة وكان بهيئـــة حسنة وثياب فاخرة وتعرف عليه فاذا هو من أعيان فـــاس .

مـــنـــاقـــبـــه : منها ما ذكر من ركونه الى الخلوة متعبدا، ومنها أنه كان ابن السبعين الفيلسوف ألف كتابا سماه بد العارف، وكان مملـــوءا بهذيان، وكان ابن السبعين هذا ممن اتهم بامرأة مثرية انفقت عليه أموالها، وكان هذا الكتاب لم يطلع عليه أحد فكاشفه الشيخ ابن الصبان .

وقال له مزق الكتاب فانه مذموم، فكان ابن السبعين يقول لولـــد ابن الصبان انه لم يطلع أحد على كتابه، وان الشيخ كاشفه بذلـــك .

ومما يحكى عنه أنه كان بفاس وطلب كراء دار فقصد السمسار، فقال ليس هناك الا دار مسكونة بالجنون لا يدخلها أحد الا خرج منها حالا، قال فالترمت كراءها على ذلك الشرط، وسكنتها، فلما كان بعد العشاء قمت أتهجد، فسمعت صفعا عظيما فى وسط الدار وأصوات مهولة، فما عرجت على ذلك، ثم دخل على فى البيت تمثال ثعبان، وبعد ساعة دخل على شخص على صورة الافعى، فلما فرغت من الصلاة قلت من أنت قال أنا من الجن المؤمن، ونحن ساكنون بهذه الدار، قلت له فما شأنكم تسيئون جوار من يسكن قال انما يسكن معنا من لا أخلاق له، قال فاقمت معهم وكانوا يأتون فى جوف الليل فيصلون خلفى بصلاتى .

أشياخه : تلمذ للشيخ أبى زيد الدهمانى فى مصر، والشيخ أبى محمد عبد الرزاق الجزولى كذلك، وقرأ بعض التفسير على الشيخ عبد الجليل بن موسى القصرى .

تلامذته : تلمذ له شيخ سبتة فى وقته أبو عبد الله الدباغ وولده الشيخ أبو عبد الله محمد الصبان .

حياته : كان حيا فى أواسط القرن السابع وتوفى بمدينة سبتة، التى لها اتصال وثيق ببادس .

أبو عبد الله محمد الصبان :

هو ولد الشيخ أبى القاسم الصبان المتقدم الترجمة، كان شيخا فاضلا، وكان يقتدى بكتاب أبيه فى اسماء الله الحسنى، وكان يروى عن أبيه حياته وكراماته وعلمه .

ولم يعرف له صاحب المقصد الشريف وانما ذكره فى ترجمة أبيه ووصفه بقوله الشيخ الصالح أبو عبد الله كما وصفه بأنه تلميذ أبيه الشيخ ابن القاسم الصبان .

حياته : كان حيا زمن أبيه الذى عاش فى أواسط القرن السابع الهجرى، وبناء عليه فانه كان حيا فى هذا التاريخ، كما لا نعلم أين توفى هل ببادس أو بسبتة، وقد كان يتردد على هذه الاخيرة، فقد حكى

عن كرامات والده أبى القاسم، أنه قال، كنا يوما فى رباطة الصيد (ومعلوم أن رباطة الصيد هى بسبتة كما تقدم)، وجماعة من الناس قد حضروا فقال (أبو القاسم الصبان) ان العوم فى البحر يجمعنا، فقال الحاضرون سمعا وطاعة، فنزلنا الى البحر، وعمنا، فلما خرجنا أقبل على رجل من الجماعة فقال له سرا ما حملك على ما صنعت، جامعت أهلك وأتيت الى المسجد جنبا، لا تعد، فكان الامر كما كان .

من رجال كتامة (القصر الكبير)

أبو محمد الشيخ عبد الجليل بن موسى الكتامى :

من قصر كتامة كان آية فى تفسير القرآن الكريم وكان يتولى تدريس التفسير بقصر كتامة، فقد حكى عنه الشيخ أبو محمد عبد الرزاق الجزولى الذى كان شيخا بمصر، أنه جال فى أقطار المغرب، قال فما قرع سمعى فيها مثل رجل يفسر كتاب الله العزيز بقصر كتامة اسمه عبد الجليل بن موسى .

وهو الذى تقدم فى ترجمة الشيخ الصبان بأن له تفسير القرآن فى ستين مجلدا لكل حزب مجلد قال الشيخ ابن الصبان، فلما رجعت الى المغرب قصدت زيارة عبد الجليل، فرأيت رجلا عالما، فأقمت عنده سبعة أيام، أول ليلة بت عنده استفتح بعد العشاء الاخيرة الكلام فى شرح سورة ق. فأقمت عنده السبع الليالى وهو يتكلم فى معنى القاف .

أبو عبد الرحمن عبد الرحيم بن احمد الكتامى :

يعرف بابن العجوز من أهل سبتة، ومن كبار قوم قصر كتامة، وكانت له ولابيه فيهم وفى المغرب رياسة فى العلم، واليه كانت الرحلة فى المغرب فى وقته، وعليه كانت تدور الفتيا، وله عقب نجباء فى العلم بلغوا الى خمسة أئمة امام ابن امام فى عصرهم (1) .

---

(1) سلوة الانفاس — ج لث — ص 298 .

رحل الى الاندلس وافريقيا :

أشياخه : لازم أبا محمد بن ابى زيد واختص به وسمع منه كتبه: النوادر والمختصر وجاء بهما وبغيرهما الى سبتة، وسمع من الشيخ الدراق بن اسماعيل فقيه فاس، وأبى محمد الاصيلى، ووهب ابن ميسرة الحجازى .

وكانت رحلته الى القيروان من سبتة فى نحو عام 380 هـ. وأخذ عنه الناس بسبتة علما كثيرا وتفقهوا عليه، وسمعوا منه، وكان من حفاظ المذهب المالكى العالمين به .

تلامذته : روى عنه جماعة من فقهاء سبتة منهم أبو محمد قاسم بن المامونى، ومنهم محمد بن عبد الرحمان بن سليمان، ومنهم خلف الله ومنهم ابراهيم بن يعقوب الكتامى، ومنهم أبو عمران بن أبى سوار من قلعة حماد وجماعة من أهل سبتة وفاس .

قال فى الديباج توفى سنة 413 هـ. وقال فى الانيس عام 417 هـ. والله أعلم .

من علماء بنى يزناسن :

الشيخ أبو سالم ابراهيم بن عبد الله اليزناسنى :

هو الفقيه الصدر العلامة الصالح الولى المجاب الدعوة العارف بالسيد أبى سالم ابراهيم بن عبد الله بن أبى زيد بن أبى الخير اليزناسنى، قال فى الجذوة، لما عرف به انه أحد أعيان أصحاب الشيخ أبى الحسن الصغير .

كان مفتيا بفاس فاضلا منصفا حافظا يقضى حوائج المسلمين ماضيا فى مصالحهم وكان حيا بعد 740 هجرية. (1) وهو والد سيدى ابراهيم اليزناسنى الذى كان قاضى الجماعة بفاس وسيأتى التعريف به.

---

(1) سلوة الانفاس ـ جـ لث ص 254 .

الشيخ سيدى سليمان اليزناسنى :

هو الشيخ سيدى سليمان بن عبد الله كان عالما فاضلا مشاركا بارعا لم نعثر على حياته أو وفاته والراجع أنه كان حيا فى القرن السابع الهجرى .

وقد ترجم له فى سلوة الانفاس ج.لث.ص. 7-3 من دون أن يذكر بيانا عن الحياة أو الوفاة .

أبو اسحاق سيدى ابراهيم بن محمد اليزناسنى :

هو ابراهيم بن الفقيه الصدر أبى عبد الله محمد بن العلامة الصالح الولى أبى سالم المتقدم الترجمة كان فقيها قدوة فى العدل، أوحد فى النزاهة، الامام العلامة الحافظ قاضى الجماعة بفاس، يكنى أبا اسحاق.

وكان فقيها نظارا بارعا فى الفقه محصلا ولى القضاء بمدينة فاس مدة فى دولة احمد بن ابى سالم واثنى عليه الامام الحفيد بن مرزوق، وذكر انه من مفاخر القطر الذى حل به .

وله فتاوى كثيرة شهيرة ناظر فيها وحقق، ذكر جملة منها فى المعيار، وحلاه بالسيد الفقيه المفتى المدرس العالم المحقق العلامة، الصدر العلم الشهير قاضى الجماعة بفاس (هكذا حلاه صاحب المعيار، وهى أوصاف لا يطلقها الا على من اتصف بها حقيقة) .

توفى رحمه الله بفاس يوم الخميس 18 رجب عام 794 هـ. ، ذكره الونشريسى فى وفياته، وترجم له فى الجذوة والدرة والنيل والكفاية وروضة النسرين فى دولة بنى مرين (1) .

عبد الرحيم بن ابراهيم اليزناسنى :

هو ولد سيدى ابراهيم بن محمد اليزناسنى المترجم قبله وكان من قضاة أمير المسلمين احمد ابن أمير المسلمين أبى سالم .

كما كان من قضاة أمير المسلمين المنتصر بالله وولده أمير المسلمين المولى عثمان المرينى (2) .

---

(1) صحيفة 36 .

(2) المصدر نفسه ونفس الصحيفة .

من علمــاء بطــيــوة :

أبو الحسن سيــدى على بــن قاســم :

هو أبو الحسن على بن قاســم بن عبد العزيز الزياتى الــريفى البطوى، ولد بفاس سنة 967 هـ. وكــان اماما عالما محققا زاهدا ورعــا مولعا بالخلوة والذكر والمطالعة والتقييد تاركا للاسباب ملازما بيته .

عرف به صاحب سلوة الانفاس (1) فقال الشيخ الامام الفقيــه العلامة المدرس النبيــه المحدث الصوفى المتفنــن الدراكة المحقق المتقــن المشارك فى المعقول والمنقول، الرجوع اليه فى حل المشكلات وتحقيق النقول وكان له خط حسن جيد نسخ بخطه عدة كتــب .

أشيــاخــــه : أخذ عن القصار، والبدوى والمنجور والحميــدى والاستاذ احمد القدومى وسيــدى الحسن الــدراوى وابى الحسن بــن عمران وابى زكرياء الســراج وابى عبد الله الزيانى وابى القاسم بــن القاضى وسيدى رضوان الجنوى وابى المحاسن الفاسى وسيدى محمــد بن منصــور .

ســيرتـــــه : صحب الشيخ احمد الشاوى، وكان حسن النية فى التعليم ذا خلق حسن وحلم وحياء ينتفع بالقراءة عليه فى الايام اليسيرة مالا ينتفع على غيره فى الايام الكثيرة من سهولة تعبيره وعدم تكلفه ولــى قضاء الجماعة بفاس مدة فحمدت سيرتــه .

انتــاجــه : لــه تقاييــد حسنــة على المطول، وعلى مختصــر السنوسى وعلى تحفة ابن عاصم وله كتاب فى التصوف، حسن فيــه نحو 15 بابا وغير ذلــك .

تــلامــذتـــــه : أخذ عنــه ابن عاشر والشيخ ميارة شــارح المرشد المعين والقطب مولاى عبد الله الشريــف الوزانى، قرأ عليه عــدة مصنفات فى عدة من العلــوم .

وفــاتـــــه : توفــى ليلة الجمعــة 28 ربيع الثانى عام 1039 ودفن بروضة سلفه بباب الجيسة بفاس رحمة الله عليــه .

---

(1) ج ـ لث ـ ص 17 .

من رجــال كبــدانـــة :
الشيـــخ أبو اسحــاق البطــال :

كان شيخا فاضلا ذا فراسة دقيقة لا تخطىء، ولــه براعـــة فى ابطال شبهات المبطلـــين .

أصله من قبيلة كبدانة على ضفاف ملوية، وكان كثيرا ما يزور بلاد قلعية، ومدينة غساسة التى هى فرضة الى جهـــة رأس ورك بقبيلة بنـــى بوغافر وكانت مدينة عامرة فى وقتـــه .

صـــلاحـــــه : ومن صلاحه حسبما حكى صاحب المقصد الشريف انه كان يقطع المفازة ما بين داره بكبدانة، وبين مليلية وحده رغم ان هـــذه المفازة كانت غابة كثيفة مسكونة بالسباع والوحـــوش الضارية، وفى ذلـــك الوقت لم يكن يطرقها الا الجمع من الناس .

وحكى عن نفسه أنـــه بات ذات مـــرة بمفازة «أزغران وريغ» ــ ولعلها ازغنغان ــ وقال انها كانت مفازة عظيمة بين مليلية وكبدانـــة ــ بات أمام سدوة فلم يقع له ولا لدابتـــه التى كـــانت رمكـــة أى ســـوء مـــن الوحوش .

ومما يحكى عن هذه الدابة أنها كانت مشهورة بأن من ركبها وذهب الى قضاء أى حاجة قضيت حينا ببركة هـــذا الشيـــخ .

واقعة له مع شخص من بنى يزناســن :

كانت زوجته من قبيلة كبدانة، ولد له معها بنت أصهـــر بها الى رجل من قبيلة بنى يزناسن، وفى بعض الايام خرجت البنت مع زوجهـــا الى فدان يشتغلان فيه، الرجل يحصد والزوجة تلقط السنابل خلفه، فوقع بينهما خلاف كان الزوج هو الظالم، فاستغاثت الزوجة بأبيها الشيخ أبى اسحاق، فلما أغاثها ذهب اليهما فسمع منهما ظلامتهما، فقال الشيخ أهلك الله الظالم منكما، قيل فنهشت حيـــة الزوج ومات من حينه، والله أعلم.

حيـــاتـــــه : كـــان حيا فى النصـــف الثانى من القرن الســـادس الهجرى على ما يوخذ من كلام الرجل الصالـــح الحاج احمد تلميذ المعلـــم عبدون الذى كان حيا أواسط القـــرن السادس .

من رجـــال بنى وريـــاغـــل :

أبـــو ابراهيـــم الاعـــرج :

هو جد الاشراف الغليزوريين الموجودين فى بنى ورياغل الـــذين سـأذكرهم مفصلا بعده وحسب مخطوط مجهول المؤلف، فهو مـــن ذريـــة مولاى ادريس الاصغر دفين فاس بن مولاى ادريس الاكبر دفين زرهون حفيد سيدنا الحسن رضى الله عنهم، وهناك سلسلة أخرى من الشرفـــاء أولاد سيدنا الحسين رضى الله عنه وهم من ذرية موسى الكاظم، وقـــد جاءت هذه الذرية الى الشمال عن طريق تلمسان، ذلك أن شريفا كان يدعى عبد القوى بن عبد الرحمان بن ادريس بن موسى بن اسماعيل بن موسى الكاظم جاء من تلمسان وسكن قبائل بطيوة وانتشرت ذريته هناك، وهـــو شريف موسوى حسينى، وقد اعتمدنا على ذكر هؤلاء فى لائحة الشرفـــاء لما تقدم فى المعيار، من أن من كان يدعى بالمرابط وادعى الشرف يقبل منه، على أنه جاء فى كتاب (1) حادى الرفـــاق «أن ابا ابراهيم الاعـــرج هـــو شريف ادريسى وهو جد المرابطين ببنى ورياغل .

أما المترجم له فاسمه اسحاق بن يحيى بن مظهر (2) الورياغلى من قبيلة بنى ورياغل من فخذ بنى يملك (لا زالت الفخذة تدعى الى الآن ببنى ملـــوك) .

حـــيـــاتـــــه : كان مثالا للرجل الشريف النفس والنسب، ففى سلوة الانفاس قال (3) ومنهم الشيخ العلامة الصالح، الحافظ الحجـــة الواضح، كان رحمه الله بعد قدومه لفاس اماما بجامع الشطة منها، وهى الكائنة فوق باب الزربطانة يسار الطالع الى ناحية المدرسة البوعنانية مـــن

---

(1) حادى الرفاق الى فهـــم لاميـــة الزقاق للفقيه سى احمد الرهـــونى التطوانى ص. 9 .

(2) هذا هو ما جاء فى المقصد الشريف أما فى سلوة الانفاس فقد جـــاء فيها مطر بالميم والطاء والـــراء .

(3) الجـــزء لث ــ ص ــ 144

طلعة فاس، وكان اماما من أئمة الدين والعلماء المهتدين آية الله عز وجل فى المدونة وهو صاحب الطرر عليها وفقيه فاس فى وقته، قال الشيخ سيدى بومدين الفاسى فى كتابه «المحكم فى الحكم» حكى أن الشيخ أبا ابراهيم بن يحيى بن مطر الورياغلى عرف بالاعرج رفيق أبى الحسن الصغير، والدعاء عند قبره مستجاب .

شيوخه : أخذ عن الشيخ أبى محمد صالح الهسكورى صاحب الشرح على الرسالة وهذا الشيخ هو أبو محمد صالح دفين أسفى وهو غير أبى محمد صالح دفين الرباط، وقد كان هذا الشيخ (أى الهسكورى) ممن يضرب به المثل فى التبريز، وكان داعية كبيرا للاسلام، حتى أنه نظم سياحة قارة للحج الى بيت الله الحرام، حسبما ذكره كتاب العلوم والاداب والفنون فى عهد الموحدين (4)، فقد قال ولئن دل ما سبق على اهتمام المغاربة بسياحة البحث والاستكشاف، فان هذا يدلنا على اهتمامهم بنوع آخر من السياحة وهى سياحة الحج الى الاراضى المقدسة، وان الفضل فى الدعوة الى هذه السياحة، يرجع للشيخ أبى محمد صالح المتوفى سنة 651 هـ. فقد كون الركب الحجازى لاول مرة فى تاريخ المغرب، وكان مهمى انتهى اليه أحد يطلب الانخراط فى طريقته يجعل أهم الشروط لقبول اياه حج بيت الله الحرام، أو على الاقل برهن على أنه خدم طريق الحج، ولقد جعل من أصحابه كجمعية تبشيرية تدعو الناس لحج بيت الله الحرام وزيارة قبر رسول الله عليه وعلى آله الصلاة والسلام، وتبنى منازل نزول الحجاج فى ذهابهم وايابهم وكانت تبتدىء هذه المنازل من بلاد حاحة بالمغرب من أسفى الى الحجاز، أنظر المنهاج الواضح صحيفة 352-353-375، وانظر أسفى وما اليه صحيفة 19-400» .

وقد كان هذا الشيخ ـ أبو محمد صالح ـ يقول فى حق أبى ابراهيم الاعرج انه أوحد زمانه فى الفقه والسخاء واحفظ خلق الله لاسباب الايخاء، ومع ذلك فلم يلن جانبه لسلطان قط (5) .

---

(4) للاستاذ محمد المنونى ص ـ 95 .
(5) سلوة الانفاس ـ لث ـ ص 144 .

تـــلامــذتـــه : تلمذ للسيد (1) أبى ابراهيــم الاعرج، الشيخ أبو الحسن الزرويلى وجماعـــة .

مناقبـــه : قال فى سلوة الانفاس (2) نقلا عن أبى مدين الفاسى كـــان يأمر الامير يعقوب ابن عبد الحـــق المرينى بالمعروف وينهاه عـــن المنكر، فأكثر عليه مرة، فقال له الامير اخرج من بلدى، فلما خرج أصـــاب الامير وجع شديد فأمر برده، فقال لا أدخـــل حتى يخرج هو، ولا أكـــون أنا وهو فى بلد واحد، فخرج ــ أى الامير ــ فى الحين وسكن وجعه، وقـــد ذكر هذه القصة جمهور من المؤرخين كصاحب الروضة وصاحب تحفة الوارد والصادر وغيرهما، ومن مناقبه كما فى المقصد الشريف، انه حدث له أن وقعت له منازعة فى مسألة فقهية مع فقهاء فاس كان الصواب معـــه، الا أن هؤلاء الفقهاء بلغوا عنه الى السلطان يعقوب المنصور بن عبد الحـــق المرينى، الذى تولى ملك المغرب بعد وفاة أخيه فكان من جملة ما بلغوا عنه أن طلبة البربر يريدون المخالفة على السلطـــان، (ويظهر من هذا أن المسألة الفقهية كانت تمس البيعة ولم نقف على صورة المسألة الفقهيـــة) فأمر الملك بنفى الفقهاء عن فاس ومنهم أبو ابراهيم الاعرج هذا، (وانما أدرج من جملة فقهاء البربر لانه ساكن معهم) وأبو يعقوب المحاسنـــى وأبو عبد الله بن عمران، وقد ذكر أن الشرطى الذى وكل باخراجهم، وكان يدعى ابن العطار سلط الله عليه حكة على لحمه فجعله يحكها حتى مـــات، ولما بلغ ذلك الى علم السلطان أمر بردهم، وصار السلطان يعظم أبـــا ابراهيم الاعـــرج، ولما بنى السلطـــان المدرسة التى فى قبلة جامـــع القرويين من رحبة البقر (ولعلها مدرسة العطارين) دخل للصـــلاة فى جامع القرويين يوم الجمعة، وكان أبو ابراهيم الاعرج يصلى فى الجانب الغربى فى الصف الاول، فلقيه الملك بعد صلاة الجمعة وعانقه، ثم قعـــد معه فطلب منه أن يجيبه على ثلاث مسائل، الا أن الشيخ أجابه بأن لا فائدة له فى الجواب، لانه لا يعمل به والح عليه فامتنع فما وسع الملـــك الا أن طلب منه الدعاء فدعى له وانصرف .

---

(1) ج ــ لث ص ــ 144 من سلوة الانفاس .
(2) نفس الصحيفـــة .

ومما اتفق له مع الشيخ اسماعيل بن احمد ـ تقدم التعريف به ـ أن هذا الاخير كان يريد أن يتوجه الى تيكساس بغمارة (وكانت عاصمة عمر الادريسي الذى تولى امارة الشمال بعد وفاة المولى ادريس الاصغر كما تقدم) فاركب عياله وزوجته وبنتيه مركب صيد ولما وصلن الى حجرة يليش خرج عليهن القراصنة واسر الاناث واعلم الشيخ اسماعيل أبا ابراهيم الاعرج ـ ولعله ذهب اليه الى فاس ـ وكان القصد اعلام السلطان بالاسر وطلب قيمة الفداء منه، وكان عند الشيخ أبى ابراهيم نصف دينار ولم يملك غيره فدفعه اليه وفى الغد رجع اليه فقال له ارفع طرف المطرح فرفعه ووجد تحته 26 دينارا ذهبا، قال له خذها فان الله أتى بها بواسطة محب عرفته بقضيتكم فدعى له وتوجه الى السلطان فدفع له الدنانير، وكانت الفدية 230 دينارا ففك الله اسر العائلة .

سبب عرجه : قيل فى سبب عرجه حكايات أولاها أنه دخل عليه لصوص فى مسجد ببلاد سدارة لما كان طالبا يتنقل للتحصيل فأصيب بعرج فى رجله عرجا شديدا، وهذه الحكاية موجودة فى المقصد الشريف وثانيتهما: أنه كان فارسا لا يقدر عليه أحد على محاربته، فكان ذات يوم يلعب فى وليمة فعثر فرسه به فقام ناهضا ـ أى الفرس ـ فالتوت رجله فى الركاب بعدما سقط عن الفرس فتعرج بذلك، الا أنه لم يكن عرجه شديدا، وهذه الرواية موجودة فى مخطوط تحت يدى بين فيه سلسلة الشرفاء الادارسة ومن نزل منهم فى الريف .

ومن مناقبه أيضا أنه كان سببا فى بناء مدينة فاس الجديدة وكانت تدعى المدينة البيضاء، ففى سلوة الانفاس، لما ذكر وجع السلطان يعقوب المرينى وسكونه بعد خروجه من مدينة فاس قال «وأمر ببناء، مدينة الدار البيضاء ـ أعنى فاسا الجديدة ـ ثم حكى عن روض النسرين أنه ركب ـ يعنى يعقوب المنصور ـ فرسه من قصبة مدينة فاس القديمة فى ضحى يوم الاحد الثالث من شوال عام 674 الى ضفة وادى فاس ومعه أهل المعرفة بالهندسة والبناء فوقف عليها حتى حدت وشرع فى حفر أساسها .

وكان الذى أخذ له طالعها الفقيه العدل محمد بن الخياط زاد فى

القرطاس وأبو الحسن بن القطان فكان تأسيسها فى طالع سعيد ووقت مبارك ميمون ومن سعادة طالعها أنه لم يمت بها خليفة منذ أسست ولا خرج منها لواء الا نصر ولا جيش الا ظفر (1) بفضل الله .

تدريسه : تقدم أنه كان آية الله عز وجل فى المدونة، وذلك لتعاطى تدريسها، كما كان يتعاطى تدريس تهذيب البرادعى، فى كل من جامع بادس الكبير وفاس، ومن جملة من قرأ عليه تهذيب البرادعى الشيخ أبو يعقوب البادسى حسبما يأتى فى كتاب مناقب أبى يعقوب البادسى لابى عبد الله الاوربى .

تأليفه : مما عثرنا عليه من بين ما أشير اليه أنه كانت له طرر على المدونة الا أنه لم نعثر هل كانت هذه الطرر كتابا مستقلا بالمعنى المتعارف عليه أو كانت طررا على هامش نسخة المدونة التى كان يدرس بها.

نسبه : حسب البحث الذى استقصيناه من بين المخطوطات التى عثرنا عليها عند أحفاده من الشرفاء الغلبزوريين، أنه أبو ابراهيم اسحاق ابن يحيى بن مظهر بن كنون بن السكناوى بن احمد بن عبد الله ابن حمزة بن ياسين بن محمد بن عبد السلام بن السكناوى بن عبد الله ابن عبدالواحد بن عبد الكريم بن عبد السلام بن مشيش ــ صاحب جبل العلم ببنى عروص المشهور ــ وقد أخذ هذا المخطوط حسبما يظهر من كتاب التاريخ والاعتبار فى نسب آل النبى المختار، لمؤلفه الشيخ الامام العالم العلامة الهمام سيدى احمد بن أبى عبد الله البكرى الصديقى، والله أعلم .

سبب مجيئه الى الريف : كان جده السكناوى نازلا فى نواحى سبتة ومن هناك انتقل حفيده هذا مرتحلا الى نواحى الريف، فنزل بجبل حمام (1) ببنى ورياغل على وادى المزمة المعروف بوادى غيس ــ ولا

---

(1) قد أنكر هذه الفكرة المؤرخ النقيب مولاى عبد الرحمان بن زيدان فى اتحاف اعلام الناس الجزء الاول واستشهد بقضية بوحمارة .

(1) بفتح الحاء والميم المخففة وهو معروف الى الآن بأعالى قبيلة بنى ورياغل وهو معروف بالعسل البيضاء .

زال الى الآن بهذا الاسم ـ وقد خلف ذرية كبيرة فى قبيلة بنى ورياغل عن طريق حفيده الشيخ العالم سيدى عبد العزيز بن موسى الورياغلى المعاصر للشيخ زروق الذى كان نازلا بالموضع المعروف «بأغيل أبزور» وبه دعى أبناؤه واحفاده بالغلبزوريين .

وفاته : توفى رحمه الله بفاس عام 683 هـ. ودفن بباب الكيسة، قال فى سلوة الانفاس «ورأيت بخط بعضهم قال وقبره معروف بباب الكيسة قبالة الباب، وقف عليه مولانا سليمان بن محمد» ثم قال: صاحب سلوة الانفاس «وأظنه والله أعلم صاحب الحوش المبنى قريبا من ضريح سيدى مبارك بن عبابو وراء قوسه الى ناحية المدينة المقابلة من الباب، وقد ذكره المدرع فى منظومته عقب ذكره سيدى العريس فقال:

بقربه الورياغلى ابراهيم غناه لا يحتاج للدراهيم»

ومنهم سيدى عبد العزيز بن موسى الورياغلى :

صاعقة الارض : هكذا عبر عنه صاحب المعيار فى فهرسته وانما وصفه بصاعقة الارض لان دعواته لم تكن لتخطىء، أما الشيخ زروق فقد كان يسميه بالغندور وهو وصف للشجاع المقتحم الذى لا يخشى أحدا وهو من أحفاد سيدى ابراهيم الاعرج .

ولادته ووفاته : ولد حسبما ذكر نيل الانتهاج عام 802 وتوفى عام 881 هـ. وفى المعيار تولى الخطابة والصلاة بالقرويين عام 879 واستمر عليها الى أن توفى يوم السبت غرة رمضان عام 880 وعليه، فالخلاف بين نيل الابتهاج والمعيار فى سنة فقط وحيث ان الاخير ذكر التاريخ بتدقيق باليوم والشهر والسنة فينبغى أن يعتمد دون غيره .

حياته : عرف به فى سلوة الانفاس (2) فقال: «هو الشيخ الفقيه الخطيب العلامة المدرس الاديب الصالح البركة الاشهر الآمر بالمعروف والناهى عن المنكر أبو الفارس سيدى عبد العزيز بن موسى الورياغلى وعرف به الشيخ زروق فقال: «كان رحمه الله فقيها عالما

---

(2) الجزء الثانى ص. 80 .

صالحا زاهدا ورعا يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، لا تأخذه فى الله لومة لائم»، وكان اماما وخطيبا بجامع القرويين ومفتيا بفاس صلبا فى دين الله يلقى بنفسه فى العظائم ولا يبالى وله اخبار كثيرة .

مناقبه : قال صاحب سلوة الانفاس (1) وسيدى عبد العزيز هذا هو: الذى ثارت العامة بفاس على يديه على السلطان أبى محمد عبد الحق بن السلطان أبى سعيد المرينى فخلعوه وبايعوا مزوار الشرفاء — أى نقيبهم — السيد محمد بن على بن عمران الجوطى بسبب توليته — أى السلطان — لليهود عليهم، حتى كانوا يتحكمون فى الشرفاء والفقهاء وأكابر الناس بما يريدون من الضرب والحبس وأخذ الاموال .

سبب تسميته بالغندور : كان الشيخ زروق رحمه الله يسميه مداعبة منه بالغندور ولما حكى صاحب السلوة هذا الوصف قال ان معنى الغندور هو الشجاع، وكان الشيخ زروق يقول: أنا لا أصلى خلف سيدى عبد العزيز، فانه غندور كالمداعب لمن يذكر له شأنه، فيجمع بين تعظيمه والتبرى منه — أى مما فعل من تأليب العامة على السلطان حتى خلع وبذلك يكون مخالفا لليونة الائمة الذين لا يتدخلون فى الشؤون السياسية ولذا كان يسميه غندورا، أى الشجاع الغليظ الطبع المقتحم لعظائم الامور —.

سبب تسمية أحفاده بالغلبزوريين : كان ينزل فى موضع بأعلى قبيلة بنى ورياغل على نهر غيس يدعى «أغيل أبزور» وقد خلف أولادا هناك ثم انتشروا فى أفخاد قبيلة بنى ورياغل، وسموا بالغلبزوريين نسبة الى منزل جدهم هذا وذلك تمييزا لهم عن الشرفاء الآخرين الذين فى بنى ورياغل، وعليه فان تسميتهم بالغلبزوريين كانت تسمية متأخرة ولذا لم يعرف بهم بهذا الاسم فى كتب الاشراف، أما اتصاله بجده سيدى أبى ابراهيم الاعرج فقد ذكر المخطوط المشار اليه سابقا أنه عبد العزيز ابن موسى بن العباس بن الفاضل بن أبى ابراهيم الاعرج. الا أن الذى يظهر من تاريخ وفاة جده الذى هو 683 الى تاريخ ولادة المترجم له

(1) الجزء الثانى ص. 81 .

هذا الذى هو 802 هـ. أنه ربما هناك غير من ذكر من الآباء وعلى كل فان المخطوط مما يستأنس به فقط والله أعلـــم .

ومنهـــم سيـــدى عيسى بن عبد الكريـــم :

ومن أحفاد سيدى عبد العزيز الذين كانت لهم الشهرة فى بنـــى ورياغل من حيث الصلاح والتقـــوى سيـــدى عيسى بن عبد الكريم .

منـــاقبـــه : ففى كتاب مناقب ابن يعقوب البادسى الذى أشرنا اليه فيما قبل والذى وعدنا بنشره ضمن هذا البحث قال المؤلف الاوربى: ان فى بنى ورياغل رجلا مسنا من أولياء الله تعالى اسمـــه عيسى ابـــن عبد الكريم وانه من جماعة الشيخ أبى ابراهيم الاعرج وان له أسلافـــا صالحين أولياء فشوقت الى رؤيته كثيرا الى أن يسر الله على فمشيت الى موضعه واجتمعت معه وبت فى بيته وأكلت طعامه ورأيت له بركة عظيمة وهو رجل أمى لاكنه يحفظ من مسائل الفقه ما يحتاج اليه فى دينه مـــن العبادات والمعاملات شيئا كثيرا ويتكلم فى دقائق الامور كلاما تعجبت منه تعجبا عظيما، فكنت أتحدث معه فى كرامات الصالحين الى أن تكلمنا على الشيخ سيدى أبى يعقوب نفعنا الله به، فقال سيدى عيسى بن عبد الكريم، نعرفكم بما رأيـــت فى كرامـــات سيـــدى أبى يعقوب، وسرد ما يـــأتى فى كتـــاب مناقبـــه .

مسكنه ومحل دفنـــه : انتقـــل من قرية بـــوزدور (تدعـــى الآن نيشتيون) واستقر بالقرية المعروفة الآن بزاوية سيدى عيسى عبد الكريم، وذلك أنه نزل بها وأقام بها زاويته التى اشتهرت به اشتهارا كبيرا .

وفى هذه الزاوية كان يلقن تلامذته طريقة أجداده فى الصلاح والتقوى وقد تناسل عنه الاشراف المعروفون بالغلبزوريين وقد جعل الله البركة فى ذريته فانتشرت فى أفخاذ بنى ورياغل وقد انتقل الى هـــذا الموضع مـــن بوزدور فى القرن التاسع الهجرى حسبما رويت عن السنة النسابين مـــن الشرفاء، احفاده وهو مدفون بقرية زاوية سيدى عيسى التى تنسب اليه ازاء مسجدها وله ضريح ثمه مع بعـــض أولاده، الا أنه لا يعلم تاريـــخ ولادته ولا وفاتـــه .

سلسلـة عقبـه من بعـده :

ولاكمال الفائدة نشير باجمال الى بعض احفـاده .

سيـدى بوبكـر بن عمـر :

ممن خلفه من الصلاح والولاية حفيـده سيدى بوبكر بن عمـر وفى زمنه تأسست قرية زاوية سيدى عيسى وتقرت كقرية وهو مدفون بنفس الضريح وقد خلف من الاولاد اثنين وهما: عمر وعبد الرزاق .

عمـر : أما عمر فهو جد آل عمر أبو بكر القاطنين بزاوية سيدى يوسف وآل الحسن القاطنين هناك أيضا وآل سيدى عبد العزيز الساكنين قرب آل هشام وآل بوزمبو (الساكنين بايقنييا من بنى عبد الله من بنى ورياغل) ومنهم سيدى احمد المدفون بزاوية اقنيـا .

تاريخ ولادتـه : ولد فى تاريخ 1012 هـ. فى نحو 65 سنة مضت منها بزاوية سيدى يوسف واستمـر هناك الى مبلـغ الرجال ثم صـارت الكرامات تظهر على يديه وشهدها الحاضرون من زمانه بالتواتر، فذهب اليه جمع من الناس من بنى عبد الله وطلبوا منه الانتقال اليهم للسكنى عندهم رغبة فى صلاحه، فترددوا عليه الى أن استجاب لهم وانتقل فنزل بمنـزل اقنيا الى أن توفى هناك عن عمر يبلغ 68 سنة ودفن هناك، ولا زال ضريحه مشهورا الى الآن، وله ذرية هناك يعرفون بالشرفاء القنيين وبأولاد بوزمبو.

واعثمانا قرب زاوية سيدى عيسى وافقيرا منهم الساكنون قرب أمزون بوطـاء افتيسـا .

أما عبد الرزاق : فقد سكن بقرية تاورى بالموضع المدعو «تاغانينت» من بنى عبد الله، وهنـاك توفى وخلـف من الاولاد اثنين هما: امحمـد وعبـد اللـه .

امحمـد : أما امحمد فهو سيدى امحمد الكبير المدفون بقبيلة بقيوة وهو جد ادردوشا وهو معروف باستجابـة الدعاء عند قبره وكان رجـلا صالحا تقيا حافظا للعهـد والسنـة .

أما عبد الله فانه خلف من الاولاد خمسة :

سيدى يوسف : وهو أكبرهم واليه تنسب زاوية سيدى يوسف حيث نزل بهذا الموضع الذى كان يدعى «باجلمام» (حوض الماء) وقد كان أقام هناك زاويته للتعبد وجمع المتعبدين حوله وكان حيا فى القرن الحدى عشر الهجرى، وتوفى فى نيف وخمسين وألف .

وهو جد الافخاذ التالية: آل السى عمر – آل اماسين أولاد بلعلى. سيدى ابراهيم المدفون بضريح سيدى يوسف: وخلف ولدين سيدى يوسف وابلحاجا، وأولاد سيدى الحاج محمادى وآل امحمد عبد الله .

وأما ابراهيم فهو جد آل تسعدونت وآل سعيد امحند .

سيدى مسعود المدفون بزاوية سيدى يوسف وهو جد آل مسعود.

سيدى احمد وهو جد ايكرودا بأيت عزيز وبعضهم بزاوية سيدى يوسف .

سيدى عيسى وهو المدفون بآل هشام وليس له من العقب الآن الا اثنان يعرف منهما واحد فقط وهو المدعو عبد العزيز بن دحمان من المخمولين المهملين .

وهؤلاء هم احفاد سيدى عيسى بن عبد الكريم وقد تبين مما ذكر أن هؤلاء الاشراف أسسوا زاويتين اثنين وهما زاوية سيدى عيسى وزاوية سيدى يوسف، الا أن الذين سكنوا فى الاخيرة يضاف الى لقب الغلبزوريين، لقب الجلماميين احترازا لهم من الغلبزوريين فى الاماكن الاخرى، وذلك كما أسلفنا ان الموضع الذى نزل فيه جدهم سيدى يوسف كان يدعى باجلمام.

نفوذ الزاويتين : قد عاشت هاتان الزاويتان فى نفوذ كبير على القبيلة ذلك لما لهما من النفوذ الدينى والصلاحى وسط القبيلة، ففى المرحلة الاولى كانت الزاوية الاولى اليها يرجع أمر القبيلة، ثم لما أسست الزاوية الثانية انتقل النفوذ اليها وانكبت القبيلة على الشرفاء الجلماميين، فكان لهذه الاخيرة صيت واعتبار حتى فى فض النزعات القبيلية وكان ذلك بطريق البركة والاعتقاد، لا عن طريق السيطرة الدنوية وقد دعى ذلك الى أن القبيلة كانت تخشى دعواتها، وكان يوجد فيها أخيرا شخص يدعى سيدى عمر الجبار (مشتقة من جبر لا من تجبر) كان آية فى اللسان الدعائى.

وقد استمر الامر هكذا الى أن نبغ فى الزاوية الاولى المجاهد العلامة الصالح النابغة سيدى محمد بن سيدى احمد العزوزى الذى سيأتى التعريف به مبسطا وهو ليس من ذرية سيدى عيسى، وانما هو من ذرية أخيه وهو :

سيدى يعقوب بن عبد الكريم :

وقد أسس هذا الشريف زاوية أخرى فى بنى بوعياش بقرية ازاكرين اساسنو وقد انتقل من بوزدور الى هذه القرية فأسس فيها زاويته التى عمرت فى أيام حياته وكان رجلا صالحا متعبدا الى أن توفى ودفن بهذه الزاوية، وله ضريح فيها يدعى ضريح مولاى يعقوب، الا أن احفاده انتقلوا الى زاوية عمهم سيدى عيسى، وقد خلف من الفروع :

أولاد الحاج عيسى ـ أولاد امحند عبد الله ـ أولاد سيدى احمد ابغليا ـ أولاد شندور بآيت القاضى .

الرجل الذى غير مجرى قبيلة بنى ورياغل :

سيدى امحمد بن موسى الصغير :

فى أواخر القرن الحادى عشر الهجرى، ظهر بفرقة المرابطين رجل صالح يدعى سيدى امحمد ابن موسى وبنى زاوية بجبل آل هشام على الضفة الغربية لوادى غيس وملك الاراضى على تلك الضفة وعمرها وازدهرت زاويته ازدهارا كبيرا .

وكانت ملجأ للمتعبدين الصالحين كما كانت مرجعا لفض النزاعات التى تقع بين عائلات القبيلة، وأصبحت رياسة المرابطين ترجع اليها .

والمرابطون هؤلاء هم فرقة الشرفاء الغلبزوريين أولاد سيدى ابراهيم الاعرج المتقدم الذكر، ويذكرون باسم المرابطين، وقد تقدم أن اسمهم هذا لا ينافى نسبتهم الشريفة .

قد كان اسم المرابط ولا زال الى الآن يطلق فى عرف البلد على الشريف نظرا لكون أصل عمل الشريف ان يرابط فى زاويته أو فى رباطة من رباطات الجهاد، لكونه يدعو الى الصلاح والى الجهاد فى سبيله وهى

وظيفته الاصلية، ثم تطــورت الى أن أصبح الشريف لا فرق بينه وبــين الاهالى فى قيامه بكل الاعمال الاجتماعية والسياسية .

نسبــه : مع كون المتواتر عند القوم أنه شريف ادريسى كباقى المرابطين، الا أنه اختلف هل نسبه يتصل بسيدى عيسى بن عبد الكريــم الذى هو جد المرابطين الغلبزوريين وحفيده سيدى عبد العزيز الغلبزورى، واذا كان هذا صحيحا فانه ربما وقع اغفال عن أحد أجداده من السلسلة التى ذكرنا، وهى التى رواها لنا نسابة المرابطين السيد التهامى بن علوش بن تهامى من احفاد سيدى ابراهيم ابن شعيب بن يوسف، وقد قــال أن سيدى امحمد بن موسى هــذا أصله من قريــة ادردوشا التى ينتســب سكانها الى سيدى امحمد الكبير المدفون فى قبيلة بقيوة .

وتبدو هذه الرواية أقــرب الى الصحة، حيث أن المترجم هــذا يعرف بسيــدى امحمد الصغــير فهو حفيد سيــدى امحمد الكبير تميــزا لاحدهمــا عن الآخــر .

سلسلــة أولاده : وقد خلف سيدى امحمد الصغير مــن الاولاد ذكرين هما : صديق ومحمادى، وهذا الاخير لم يعقب أحدا، وكان رجــلا صالحا وهو مدفون فى مقبرة سيــدى امحمــد وعلى بازاء أطلال المزمة وبأسفل جامــع أجدير، وله ضريــح هناك، وكان حيــا فى أوائل القــرن الثانى عشــر .

أما سيدى صديق، فانه خلف من الذكور أربعة هــم :

سيدى مسعود والد سيدى احمد بورجلة .

سيدى حدو وهــو جد أولاد سيدى حدو بالســوانى وتشتيون وبعضهم فى قبيلة كزناية وهم المعروفون، بأولاد سيدى محمد البوهــالى

وسيدى عبد السلام وهو جد سيدى الحاج عمر وسيدى محمــد والريســولى .

سيدى محمد وهو والد عبد السلام ومحمد وعمــر .

ومن رجال بنى ورياغل : المرابط موسى بن حــدو :

هو من الشرفاء الذين نزلوا بقبيلة بنى ورياغل بجبال بنى بوعياش ــ جبل حمام ــ ويدعى فى التاريخ بجبل العمال .

وعلى ما يؤخذ من مخطوط لدينا أن أحد أجداده من الاشـــراف الادارسة نزل فى قبيلة قلعية بالموضع المعروف بالحيانا من قبيلة بنـــى سدال، وهو المحل الذى نزل فيه فرع من الشرفاء الورياشيين، ولا نعلـــم هل هما نسب واحد أم لا ؟ .

وعلى ما ذكره المخطوط المشار اليه، فانه من هناك تفرعت فروعهم ففرع نزل بجبل عيسى وفرع نزل بجبل حبيـــب (ولا زال الجبـــل يدعى بجبل حبيب الى الآن عن طريق تطوان العرائش) وفرع نزل بجبل حمـــام بنى ورياغل وهو الفرع الذى ينتسب اليه المرابط موسى المترجم له، أمـــا الجد الاول الذى نزل بقلعية فهو حسب ذلك المخطوط محمد بـــن عبد الله بن على بن منصور المرفوع الى مولاى ادريس .

وعلى كل حال، فان الذى يعول عليه فى نسب المرابط موسى وأولاده ما ورد فى ظهائر الملوك العلويين قـــدس الله أرواحهم وأول تلك الظهائـــر هو ظهير شريف للسلطان مولاى عبد الله بن السلطان مولاى اسماعيـــل ابن الشريف بن على بن الشريـــف .

فقد جاء فى الظهير بعد الحمدلة والتصلية ما يلـــى :

الى كافة من يقف على كتابنا هذا من أشياخ قبيلة بنى ورياغـــل (تقطيع هنا) الامر فيها رعاكم الله وسلام عليكم ورحمة الله وبركاته وبعد فحامله المرابط الخير الدين موسى بن حد ابقيناه على ما عهد له من التوقير والاحترام وحاشيناه من جميع ما يطلب به العوام فلا سبيل لاحد عليـــه فى شىء من الاشياء والواقف عليه يعمـــل به ولا يتعداه والسلام أوائـــل الحجة الحـــرام عام 1149 ه .

فمن هذا الظهير يستفاد منه امران: الاول منهما أنه كان محترما احترام الشرفاء، لان مثل هذه الظهائر لا تصدر الا فى حق الشرفاء، أما لفظة المرابط فهى التى كانت تطلق أيضـــا على الشرفـــاء فى هذه الجهـــة وكانـــت تعتبـــر أعلى الالقـــاب مكانـــة فى عرف القـــوم ، وذلـــك لان معناها العرفى عندهم هو الشريف الصالح صاحب البركة والاحترام .

ولذا أطلق على الشرفاء الغلبزوريين كلمة المرابطين ولا زالـــت

فرقتهم تدعى الى الآن بالمرابطين من بين فرق بنى ورياغل حسبما تقدمت الاشـــارة اليـــه .

كما جاءت هــذه اللفظــة فى ظهائر الاحتــرام بالنسبة للشرفــاء الغلبزوريين، فقد جاء فى ظهير السلطان مولاى عبد الرحمان بن هشام فى حق الغلبزوريين بعد الحمدلة والتصلية والطابع ما يلى :

جددنا بحول الله وقوته وشامل يمنه ومنته لحملته المرابطين حفدة الولى الصالح سيدى ابراهيم الاعرج نفع الله له حكــم ما بأيديهم مــن ظهائر أسلافنا الكــرام قدس الله أرواحهــم فى دار السلام وأبقيناهــم واخوانهم المرابطين أهل اغلبزورى على ما كانوا عليه من التوقير والاحترام والمبرة والاكــرام، واسقطنا عنهم ما يلزم غيرهم (خرق) عليهم عــادة ولا يحدث فى أمرهم نقص ولا زيادة فالواقف عليه من عمالنا وولاة أمرنا أن يعمل بمقتضاه ولا يتعداه صدر به أمرنا المعتز بالله فى ثمانية وعشر ربيع الاول عــام 1264 .

وبالمقارنة بين الظهيرين المذكورين يدرك أن لفظة المرابط يراد بها الشريف لانه كما أسلفنا كان كل شريف نزل فى جهة من الجهات الريــف الا وجعل أول عمل له أن يقيم زاوية يتعبد فيها مــع تلامذته ويقصدهــا السكان للتبرك به والرباط فى زاويته، فسموهم بالمرابطين وجارتهم الدولة فى ذلــك .

والظهير الذى أصدره السلطان مــولاى عبد الله فى حق المرابــط موسى، كان فى نهضته الاخيرة التى قضى بها على أخيه أبى الحسن على ابن مولاى اسماعيل، وقد (1) كان هذا الاخير استولى على شمال المغرب ودعى لنفسه، فما كان من السلطان مولاى عبد الله الا أن نهض فى بحــر سنة 1149 هـ. من سوس واسترجع ما كان استولى عليه أخوه الذى فــر الى نواحى تازة الى عرب الاحلاف وأقام بين ظهرانهم عدة سنين ثم عفى عنه السلطان مولاى عبد الله ورجع الى فاس بدار الدبيبغ ثم أعطى له الاجنات والمزارع بمكناسة وبعثه الى داره بها، فأقــام يسيرا ثم وثــب

(1) الاستقصاء ــ ج ــ السابع ص 141 طبعة دار الكتاب بالدار البيضاء.

عليه العبيد فقبضوا عليه وبعثوا بــه الى أخيه السلطــان المولى عبد الله وقالوا ان هذا قد أفسد علينا بلادنا فأخذه وسرحه الى تافيلالــت الى أن مات رحمه الله، ويوجد بين أيدينا ظهائر للسلطان مولاى محمد بن عبد الله والسلطان مولاى الحسن الاول وغيرهما وآخر ظهير للمولى عبد العزيــز جاء فيه بعد الحمدلة والتصلية والطابع الكبير ما يلى :

يعلم من كتابنا هذا أسماه الله وأعزه أننا بحول الله وقوته وشامل يمنه ومنته جددنا لحملته المرابطين أولاد السيــد موسى بن حــدو على ما بأيديهم من ظهــير سيدنا الوالد وظهــائر أسلافنا الكرام قــدس الله أرواحهم فى دار السلام المتضمنة توقيرهم واحترامهم ومبرتهم واكرامهم تجديدا تاما حسب الواقف عليه من عمالنا وولاة أمرنا أن يعلمه ويعمــل بمقتضاه ولا يتعداه صدر به أمرنا الشريف المعتز بالله فى 25 محرم الحرام فاتح عام 1320 ونكتفى فى الصفحة التالية بصورة هذا الظهير .

ومن تاريخ هذا الظهير الاخير يستفاد أن صدوره كان اثناء تقلبات الثائر بوحمارة فى نواحى تازة حيث تبين تشبث الشرفاء والعقلاء فى هذه الجهة بالعرش المجيد .

حيــاتـــــه : من الظهير الاول يتبين أنه كان حيا فى أواسط القرن الثانى عشر، لان الظهير صدر فى حقه بتاريخ 1169 هـ. وقد كان أبوه توفى بقرية أجدير بنى بوقياظا، وهناك دفن حيث مسجد القرية الآن أما ولده المرابط موسى فانه توفى بزاويته بقرية وادى الحدادين أسفل جبل حمام وأقيم له ضريح ثمه لازال قائم الذات الى الآن .

وقد كان منحاه فى تدبير شؤون زاويته مبنيا على العمل لا علــى التوكل فحسب ولذا اقتنى أملاكــا فى القرية وملك الفدادين كان يحرثهــا ويجمع محصولها للوافدين على الزاويـــة .

صـــلاحـــــه : توجد بين أيدينا وثيقة شرعية كافية لمعرفة مدى صلاحه وتقواه، وقد حررت هذه الوثيقة بتاريخ 1288 لاثبات توقــير احفاده لاجل استصدار ظهائر بذلك .

فقد جاء فى هذه الوثيقة ما يلى :

يشهد من يضع اسمه عقب تاريخه بمعرفته لحفائد الخير الدين

الحمد لله وحده   وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد وآله وصحبه وسلم تسليما

يعلم من كتابنا هذا أسماه الله وأعز أمره أننا بحول الله وقوته وشامل يمنه ومنته جددنا لحامليه المرابطين
أولاد الشيخ موسى بن حمد على ما بيدهم من ظهير سيدنا الوالد وكذا ما بيدهم من أسلافنا الكرام قدس الله أرواحهم بعد ار
السلام المتضمنة توقيرهم واحترامهم ورعي نسبهم وإكرامهم تجديدا تاما حسب الواقف عليه من عمالنا وولاة أمرنا أن
[illegible] صدر به أمرنا المعتز بالله في 25 محرم الحرام فاتح عام 1132

الولى الصالح صاحب البرهان الواضح المرابط موسى بن حدو المدفـــون ببنى ورياغل من الجبل حـــداء بنى عروص رحمه الله ونفع به وهـــم ــ أى الاحفـــاد ــ :

المرابط سليمـــان واخوانـــه .
والسيد الحاج محمد بن الحاج عمر (هو جدنا رحمه اللـــه) واخـــوانـــه .
والمرابط محمد فتحا بن المقدم واخوانـــه .
والفقيه العدل سيدى احمد بن الخير الدين سيدى محمد بن الحاج وأخوه المرابط عمر .
والمرابط احمد بن الفقيه سيدى مسعود .
والمرابط عمر بن احمد بن عبد الرحمان .

وولد المـــرابط شعيب بن احمـــد بن عبد القادر وغيرهـــم من اخوانهم كبيرا وصغيرا الساكنين بالبلدة المذكورة بربع بنى بوعياش فى الموضع المسمى عند أهل المنزل بالرابطة معرفة كافية شرعا بها ومعهـــا يشهدون بأنهم من أهل الخير والديانة والاحـــوال الصالحة والتوقـــير والاحترام والمبرة سلفا عن خلف حسبما بأيديهم من الظهائر الشريفـــة الصادرة لهم من الائمة الكرام قدس الله أرواحهم .

أولاده رحمـــه اللـــه :

قد خلف من الاولاد أربعة هم: محمد ــ الحاج عمر ــ صالح ــ اسى اعلى ــ ومن هؤلاء الاربعة تناسل سكان الرابطة مسقـــط رأس كاتب هذا المؤلف الذى يصل نسبه الى أولهم حسب الترتيب التالى :
احمد بن عبد السلام بن الحاج محمد بن الحاج عمر بن احمد ابن عبد السلام بن محمد بن المرابط موسى بن حدو .

الحاج عمر بن المرابط موسى :

كان وليا صالحا انتقل الى قرية الرابطة حيث خلف هناك أولاده المعروفين بالشرفاء أولاد سيدى الحاج عمر، وقـــد توفى هناك ودفـــن

شمال المسجد وله ضريح هناك يقصد للتبرك به وبالاخص يوم الخميس حيث يعتقد فيه التبرك لداء التابعــة .

وقد بنى ضريحه بأعلى قمة ذات أحجار صلبة تشــرف على سهل النكور الى البحر الذى يحضن جزيرة النكور ويحد شرقا جبــال بنى توزين ينساب بأسفلها وادى النكــور، أما جنوبا فهناك قمــة أم الرابطة التى بأعلاها مسجد عتيق ينسب الى سيدة كانت تتعبد فيه ولذا تنسب القرية اليها فقيل أم الرابطة لصلاحها ورباطها، الا أن الاســم الحقيقى للرابطة انها كانت رباطا أيام عمــارة مدينة النكور التى تقــع أسفلهــا .

ومن احفاد سيدى الحاج عمر هذا الولى الصالح سيدى الحاج شعيب وسلسلته هى الحاج شعيب بن سيدى عمر بن محمد بن الحاج عمر .

أدركت هذا السيد المبجل وأنا صغير وهو شيــخ كبير ذو لحيــة بيضاء ووجه ناصع البياض، حالته نظيفــة ذو هيئة ووقار، وكان امامــا حمزاويا يقرأ عليه الطلبة ما بين الثلاثين والخمسين كل على قدر حفظــه وكان الطلبة يتفرقون بين صخور هذا المعقل الصالح، يقرؤون القــرآن فى الواحهم جهارا بمختلف القراآت وكــانت منطقة المسجد والضريــح تقشعر منهما الابدان ببركة القرآن الكريــم .

وكان من خصاله رحمه الله البغض لليهود فهو لا يطيق أن يرى فى السوق يهوديا، فمهما رآه الا وهــدده بعصى بيده فى أسفلها حديــدة حتى يكاد أن يخرق بطنه وله تصلب ضد جزيرة النكور التى كانت تستعمل لشــراء الضمائــر .

توفى رحمه الله فى العقد الثانى من هذا القرن (العشرين) .

الحاج محمد بن الحــاج عمــر :

خلف الحاج محمد هذا أولادا كثيرين أناثا وذكورا، ويبلــغ الان احفاده ما يناهز عن الف نسمة وله مشارع خيرية كثيرة فى قرية الرابطة، منها المسجد والجب الذين بناهما بمالــه .

وكان من أبرزهم السيد عبد السلام بن الحاج محمد الذى كــان يتولى نظارة الحرب التحريريــة .

وفـــاتـــــه : (أى السيد عبد السلام) توفى رحمه الله فى 24 رمضان عام 1365 هـ، عن سن يناهز 71 سنة ودفن بالمقبرة العموميــة بالرابطة التى بازاء ضريح سيدى الحاج عمـــر .

صالح بن المرابـــط موســـى :

أما صالح فانه خلف من الاحفـــاد قليلين منهم السيد امحند بـــن علوش مقرىء القرآن، قرأت عليه فى مبدأ قراءتى وهو اسى امحمد بـــن علوش بن حدو بن عبد القادر بن شعيب بن صالح بن المرابط موسى .

اسى على بن المرابط موسى :

أما اسى على فهو جد اسعليثا ومنهم الحاج بنعلى وهو الحاج محمد بن على بن حدو بن محمد بن السى على بن المرابط موسى .
وهناك فروع أخرى تفرعت عن الاولاد والاحفاد لهؤلاء الاربعـــة الاولاد منهم من سكن فى بنى بوقياطا ومنهم من لا زال فى قرية الحدادين.

ومنهم الشيخ أبو اسحاق ابراهيم بن صالح :

هو أبو ابراهيم بن صالح العربى الحمـــيرى من أهالى مدينـــة المزمة ببنى ورياغل ازاء جزيرة النكور، كان رجلا صالحا زكيا رضيا مـــن أعيان المزمة ووجهائها وفى بادىء الامر لم يكن أحد يعتقد فيه الصلاح لانه كان يتستر، الا فى آخر عمره ظهر صلاحه على يد سارق وذلك انه كـــان للشيخ جنان رمان طيب حلو المذاق فعمد السارق وسرق منه كمية ولمـــا أراد السارق أن يأكل منه وجده واحدة بعد أخرى مملوءا بالعفن مسودا مرا لا يوكل فجاء السارق الى الشيـــخ وعرفه بالسرقـــة وما وجد عليـــه رمانه وانه تاب مما فعل فقال له الشيخ اذهب فكله فأنت فى حل، فوجـــد الرمان رجعت اليه حلاوته وزال عنه التعفن وأكلـــه فشاعت القضيـــة فى البلد وعرف صلاحه مع ما عرف عليه ذلك الجنان من الخصب ولو فى زمن القحط، بينما الجنان بجواره فى قحـــط .

منـــاقبـــه : وعدا ما ذكر فقد كان أهله يحكون عنه أنه فـــى اليل ربما سمعنا جلجاح سطل وسط الدار، يقولون للشيخ ان سارقـــا

بالدار، فيقول لا انما متوضىء يتوضأ، وكان أصحابه يرون ان المتوضىء هو بعض الجن المومنـــون .

حيــاتـــه : لم نعثر على زمن حياته وكان له ابن عم يقول لـــه على بن ياسين بن صالح، وهو الذى حكى جـــل حياة عمه هـــذا، وقـــد قال فى حقه صاحب المقصد الشريف :

أهـــل الحقائق ان نظرت وجدتهم　　متسربلين بكل فضل باهـــر
وتجوهـــروا بلطائـــف فتكللـــت　　تيجانهم بزبرجـــد وجواهر

من رجـــال بقـــيــــوة :

الشيـــخ الحـــاج حســـون :

ذكره صاحب كتاب تحف تاريخية صحيفة 81 .

وهو الحاج حسون بن عبد الحليم بن اسماعيل ويرفع نسبـــه الى سيدنا أبى بكر الصديق صاحب النبى (صلعم) وخليفته الاول من بعده يصل اليه فى 31 أبا حسب مخطوط بمناقبـــه .

وحسب نفس هذا المخطوط، فان سلسلته ذكرها أحد مشاهـــر علماء بادس يدعى ابا الحسن على المراكشى وقد تقدم التعريف به .

ولتعميم الفائدة من ناحية التعريف بالشيخ حسون هذا وللاطلاع على نموذج الحياة الاجتماعية فى نفس الوقت، ننشر ملخص المخطـــوط، ويكنى الحاج حسون بأبى على وليس اسمه عليا كما لا يوجـــد بين أولاده من اسمه على، ومن هنا يتضح أن تسمية المدرسة الابتدائية بالحسيمة التى هى أول مدرسة بنيت فيها باسم على بن الحاج حسون، هو جهـــل بتاريخ هذا الشيخ وأودلاه، على أن المقصود من اطلاق الاسم على المدرسة هو اسم الشيخ ابى على، لانـــه الـــذى له تـــاريخ فى الصلاح ، فهو الاجدر باطلاق اسمـــه على المؤسسات الوطنيـــة .

ولادته ووفـــاتـــه : لم تذكر المصادر شيئا عن تاريخ ولادتـــه ولا وفاته، الا ما ذكره مخطوط مناقبه من أنه حج عام 566 هـ. وانـــه تلمذ للشيخ أبى داود البطيوى التمسمانى، الذى توفى عام 578 هـ. حسبما يأتى فى ترجمته. وضريحه مشهور فى قرية ادوز من قبيلة بقيوة

حيث كانت له زاوية مشهورة تضـــرب اليها اكباد الابل للزيارة والتبـــرك بصاحبهـــا .

وخلف عقبا فى القرية منهم أولاد سيدى عمر الادوزى .

حجه وزيارته لقبـــر المصطفى (صلعــم) :

وفى ربيع الثانى عام 566 هجرية أعلن فى زاويته لتلامذته أنـــه يسافر الى البقاع المقدسة للحج وزيارته قبر المصطفى (صلعم)، واختار أشخاصا ثلاثة لمرافقته وهم 1 ــ ولده امحمد فتحا، وكان من الصالحين المتقين على سيرة والده، وهو الذى عينه خليفة مكانـــه. 2 ــ وخديمـــه السيد عبد الرحمان بن شماس من قرية ادوز ببقيوة، وهى قرية الشيخ الحاج حسون 3 ــ والعالم الامام ابن الكماد ببادس ولم يكن معـــه فى الزاوية، ولكن جمهور من اتباعه اغتموا لعدم مرافقتهم اياه، وبالاحرى عدم اختيارهم لمرافقته مع الناس بفراقه هذه المدة التى قد تكون سنـــة كاملة، لان الحج اذ ذاك لا يكون الا عن طريق البر مع استعمال الزوارق الصغيرة من مرسى الى مرسى، اذا لم يكن هنـــاك خوف من القراصنـــة، وهى تجوب شواطىء البحر الابيض المتوسط، وهو كذلك فقد خـــرج فى جمادى الثانية عام 566 هـ. ورجع فى فاتح رجب عام 567 هـ. ولما علم باغتمام تلامذته أعلن أن مرافقته مباحة لكل من جهز نفسه، وذلك بعـــد صلاة الجمعة بمسجد الحاج على التذكانتى الذى كان مقامـــا على رأس عين تذكانت، وشرع الناس يتهيأون بالزاد الى جمادى الثانيـــة 566 هـ. واستدعى من بادس العالم ابن الكماد المشار اليه، فسافروا من أدوز ولم يمروا على بادس بل ذهبوا الى مرسى بوسكور وهى ضفة بين بـــادس والحسيمة الآن وكانت قرية عامرة وليست هى النكور، كما ذكره الامـــير شكيب ارسلان وتبعه السيد احمد المكناسى، كما سبق أن بينا، ومن هناك ركبوا زورقا بالمقاذف، ومن بسكور ذهبوا فى البحر الى مرسى قلعيـــة، وهى مرسى غساسة التى كان مرسى عامرة ومن هناك تابعوا سيرهـــم برا الى مدينة الاسكندرية بمصر، وقد اتصل بمصـــر بالشيوخ الكبـــار، فاتصل بالشيخ العمرانى مريد الرفاعى، والشيخ العارف بالله الحجاج يوسف الاقصورى فى قريـــة قوص، وبعد ما تلقى منهم تجديـــد الاذن

لتلقين الاوراد، تابع سفره الى الحجاز، وبعد ما حج واعتمر وزار قبر المصطفى (صلعم) رجع مارا على مصر أيضا .

وصوله الى بلدته : وعند رجوعه مع أتباعه الذين حجوا معه ولا نعرف عددهم، مر على مدينة المزمة التى هى شرقى بادس على 20 ميلا منها، تلقاه أهلها واستضافوه ثلاثة أيام فى فرح عظيم، شملهم بوجود الشيخ بين أظهرهم وبالاخص تفضله عليهم باللقاء اثر رجوعه من الحج، وفى اليوم الرابع رحل الى قريته بادوز، ولم يمر على بادس، وقد هرع تلامذته من جميع النواحى بالهدايا والتحف وعندما تلقته زوجته اعلمها بأن ولدهما الحاج محمد الذى حج معه هو خليفته من بعده وكان شابا غير متزوج .

تزوج الحاج محمد : وعندما انصرم على وصولهما ثلاثة أشهر خطب لابنه المذكور بنت أخيه صفية فزفت اليه يوم عاشر شوال عام 567 هـ. وانجب معها ابراهيم ثم أبا بكر والزاهد .

بركاته : وقد تقدم فى معرض الكلام عن البرغواطيين انكسارهم أمامه بسلاح الايمان والدعاء التالى: «يامن له العظمة والجبروت، ياذا الملك والملكوت يا من هو حى لا يموت انصرنا على من يموت » .

ويقال أنه عند ولادته رأت أمه اسرارا علمت بها زوجها، فأمرها بكتمانها، الا أنه قام بعقيقة كبيرة ذبح فيها ابقارا وأغناما، وحضرت جماعة من العلماء والصلحاء ببادس حفلة العقيقة وكان منهم الشيخ العارف بالله العالم الفقيه أبو الكبير البادسى .

مشايخه : تلمذ أول ما تلمذ وهو شاب للشيخ الصوفى العارف بالله وامام الحقيقة أبى داود البطيوى، وبعد ما قضى فترة من الزمن ثمه رجع ولزم الخلوة، وكان لا يأوى الا الى الفيافى والقفار وقد أعد خلوة يأوى اليها فى جبل أدوز، وأهله يتبركون بها، وكان يعتكف بها أشهرا الى أن أتاه الاذن من عند شيخه أبى داود بلزوم الجماعة فى مسجده وبقبول كل من أتى اليه من الرواد وباذن فى الاوراد لكل من أتى تائبا، ومن ذلك الوقت وهو يتصدى لقضاء حوائج الناس بالانتساب والدعاء والبركة .

ومن مشايخه أيضا أبو حجاج يوسف الاقصوى، وشيخ بغـــداد الرفاعى وذلك فى طريقه الى الحج كما أشرنا فيمـــا قبـــل .

ومنهم الشيخ أبو محمد عبـــدون :

هو الشيخ العالم الصالح المتصوف المعلم أبو محمد عبدون بن على البقيوى من بنى يفراسين من قبيلة بقيوة ومن أولاد بنى منصور من قرية تيقيت، كان صاحب تحقيق وطاعة وصلاح وكـــان يخالط الصلحاء ترجم له مؤلف مناقب الحاج حسون الادوزى، وقد رفع بعضهم سلسلة مشيخته الى سيدى احمد الرفاعى .

حيـــاتـــه : ويوخذ من كونـــه تلمذ للشيخ أبى على الحـــاج حسون أنه كان حيا فى أواسط القرن الســـادس الهجرى اذ أن الحـــاج حسون حج عام 566 وقد يكون رمز لوفاته صاحب المقصد الشريف فى البيـــت الآتـــى :

فبقـــاؤه للعالمـــين وجوده   ومماتـــه فيهم عـــين وحـــيـــاة

فكلمتا عين وحياة، تتضمنان على حساب عدد الجمل 557 والله أعلم.

ومنهم أبو زكريا يحيى بن مخلوف البقوى :

من فخذ بنى يفراسن (ولا زال مدشر فوق بوسكـــور يدعى الآن افراس) من قبيلة بقيـــوة .

كما كان رحمه الله من الزهاد الذين جابوا فى الآفاق لاغراض دينية، فحج وغزا بالاندلس، وتمكن خلال تجواله من الاجتماع بجمع غفير من العلماء والصلحاء ومشايخ التصوف، وكان دأبه البحث عنهم للاجتماع بهم والاخذ عنهم سواء فى الريـــف أو فى الاندلس بمناسبة رحلاته للجهـــاد، أو فى المشرق فى رحلاته للحج، وقد سلك عند ذهابه من مكة لزيارة قبر المصطفى (صلعم) بالمدينة المنورة طريق المشى على الارجل، فقد حكـــى عنه نفسه أنه قال لما رجعت من مكة الى المدينة جئت عن طريق الماشين، وقال كان لى رفيق فوردنا بعض المياه فبتنا فيه فلما صلينا الصبح تزودنا وســـرنـــا .

سكناه ومهامه الفلاحيــة : كان يسكن بقبيلة بقيوة بالجبل الــذى يطل على الوادى النازل الى مرسى بوسكور، وكان له مع داره مسجــد يصلى فيه، فقد قال جئت يوما الى مسجدى هذا نصلى المغرب فوجدت فيه رجلا مسافرا توسمت فيــه الخير، فلما صلينا قلــت له قم بنا الــى المنزل لنأكل شيئا، فقال ايت الى هنا قال فأتيته بما حضر فأكل ثم رفــع يده، ثم قال فلما صلينا العشاء الاخيرة قلت له لولا شغل لى لبت هنــا، قال وما شغلك فقلت له ان لى فدانا من قمــح قد أضرنى فيه الخنزيــر، فأنا أبيت فيه فى ديدبان صنعته ــ الديدبان حوش ــ اطرده منه، فقال لى اقعد فانك لا تراه فيــه ابدا، قال فلم اعمــل بقوله ومشيت الى الفــدان فبت فى الديدبان، فما رأيت للخنزير اثرا بعد ذلــك .

حيــاتــه : جاء فى ترجمة الشيــخ أبى طاهر ابن العلام، انــه زاره فى داره ووجده يصب سمنا على طعام للفقراء وابن العلام هذا كان حيا أواخر القرن السادس الهجرى .

ومنهم أبو عبد الله الشريف الحسنى :

حسب ما قاله صاحب المقصد الشريف .

كان والده نزح عن البلاد الهبطية فنزل بمدينة بادس واستوطنها، وقد خلف ولده ابا عبد الله المذكور، ولما توفى أبوه انتقل الى الشيــخ أبى يحيى اجدوم شيخ وقته فى التصوف، فتلمذ له وبقى معه الى أن توفى شيخه اجدوم، فانتقل الى مسقط رأسه ببادس .

وقد قيل أنه اعطاه عصاه فصار يتصرف بها فى قضاء الحوائج ، فظهرت بركته واصبح شيخا مباركا، وهو شريف النسب .

مناقبــه : كان هذا الشريــف من رجال الخير والصلاح، وكــان مجاب الدعوة، قيل انه ما تدخــل فى قضية ووقع الغدر بــه الا أخذ الله ثــاره حينــا .

ومن ذلك ما حكاه صاحب المقصد الشريف، أنه وقعت فتنة فــى قبائل ورغة بين بنى ونجان وبنى عيسى، لان هؤلاء أخذوا امرأة من بنى ونجان غصبا، فتدخل هذا الشريف لردها، فوعده بنو عيسى بردها، ولاكنهم بعد ذلك غدروا فبقيت عندهم 18 يوما، فلما علم بذلك قال رحمه الله ان

كل ليلة بقيت عندهم بقتيل، قيل فقصد بنو ونجان فى عدد قليل الى بنى عيسى وهم فى عدد كثير، فقتل الاولون فيهم 18 قتيلا بعدد اليالى التى بقيت عندهم المرأة .

ومن ذلك ما حكاه الشيخ عبد الحق بن اسماعيل البادسى المؤلف انصالح، قال شاهدت ان رجلا سوقيا يعرف بابن تافيلالت من سكان حجر نغزاء، وكانت زوجته صغيرة فسكن بها مع أبويه، فكان يصدر منها نشوز، فحملها زوجها ذات ليلة وذهب بها الى محل يقال له بويرمان، فجاء هذا انشريف يردها لزوجها، قال الراوى وكنت حاضرا معه فطالبهما برد الزوجة فامتنعا، بل أن أمها أغلظت له القول فتغير خاطر الشريف، قال الراوى فعلمت أنه ستنزل بالرجل نازلة، وكان كذلك، قال فكنت أربط دابتى عند أبوى الزوجة فذهبت لتفقدها فوجدت الرجل قاعدا فى وسط بيته وفيه اثر مرض فقلت ما بك، فقال لا أدرى غسلت الساعة رأسى فى العنصر وها أنا لم يبق بى عضو الا وتألم، ولم يمض أسبوع حتى توفى، وكان يحترف حرفة البناء، فطلب المؤذن ممن حضر الجنازة صدقة لاولاده، ورجعت الزوجة الى زوجها برورا بالشريف .

نسبه : أما سلسلة نسبه فلم نعثر على شىء صريح يدل على ذلك، كما لم نعثر على من خلف من الذرية، الا أن الذى وجدته فى تقييد ان بعض الشرفاء من أولاد كنون بن محمد نزلوا ببادس، وهل هذا الشريف منهم؟، فاذا كان منهم فان له اخوانا نزلوا بقبيلة بنى ورياغل بالجبل ازاء المزمة ومن المزمة انتقل بعضهم الى قرية بو الماء، وهى قرية مشهورة فى بنى عروص فرقة من بنى بوعياش .

كما نزل اخوان لهم بقبيلة كتامة الى جهة البحر، ونزل بعضهم بناحية المصامدة، هذا ما يوجد فى ذلك التقييد، وقال ان جد هؤلاء جميعا هو جعفر بن عمران بن حسن بن جنون بن محمد بن احمد بن مسعود ابن عبد الخالق بن عبد الكريم بن سعيد بن عبد الرحمان بن يحيى بن مولانا ادريس، ولكن لا ندرى بالضبط هل المترجم له من هذه السلسلة أم لا؟ والله أعلم .

من رجـــال بقيــوة :

أبو العباس احمد بن سوسن البوسكــورى :

هو من فخذ بنى ورجين كأبى يحيى زكرياء الا أن هذا من أهالى مرسى بوسكور التى هى احدى مراسى بقيوة شرقى بادس .

كان رحمه الله متحليا باخلاق فاضلة جمــة .

حــرفتــه : كان يتولى مختلف المهن الحرة، فاحترف حرفة الخياطة وتارة القصارة مع امانة وتجنب الشبهــات .

كــرامــاتــه : حكى الشيخ أبو يعقوب البادسى أنه قال ذهبنا ونحن صبيان فى جمع منهم الى مرسى بوسكور ــ ذهبــوا من بادس ــ فوجدنا رجلا يضرب أثوابا على حجر ــ يغسلها ــ فعبث به أولئك الصبيان وصاروا يقذفونه بالماء والرمل وهو ساكت، فلما انصرفنا قال أكبرنا، ذلك هو الشيخ أبو العباس احمد بن سوسان قال فرجعت اليه واعتذرت عمــا فعل أقرانى من الصبيان، فقال لا بأس عليــك الصبا شعبة من الجنــون، قال ثم لاعبنا مع صبيان بوسكور بالاحجار فجرح أصحابى كلهم وسلمت أنا من بينهم، وأما الصبى الذى كان يعرفه فتنفل جرحه ومات .

حيــاتــه : كان حيا فى أيام قيام أبى العباس الكميلى بالدعوة للفاطميين ببادس وجبالها وذلك عام 685 .

ومن رجـــال بقيــوة أيضــا :

الشيخ أبو يحيى زكرياء بن يحيى التقيتــى :

كان من صلحاء بقيوة من أهل مدشر تقيت بكسر التاء وتشديــد القاف المكسورة وسكون التاء الاخيرة وكان منزله على خندق وعر المسالك، يعرف فى ذلك الوقت عندما يصل (الخندق) الى البحر بوادى الحوارى وتعرف الفخذة التى ينتمى ايها ببنى ورجين، ومنزله قرب رابطــة أم ايمن على فرسخ واحــد .

احســانــه : وللشيخ اليد الطولى فى الخيرات والعطاء وتــلاوة القرآن فى الحال والترحال ودوام وظيفة قراءة الاوراد .

حصافة عقله : كان الرجل الذى دعى للفاطميين أبو العباس الكميلى حوالى سنة 685 هـ. ينتسب الى المتصوفة وكان قبل حجه وقبل هذه الدعوة يقرأ بمسجد تيقيت، ويأوى اليه، فحكى الشيخ أبو العباس احمد بن سوسان المتقدم الترجمة، قال كنت صبيا وكنت أجلس الى الكميلى هذا، فجاء الشيخ زكرياء ووجدنى جالسا معه فقال لى لا تقعد مع ذلك الطالب بعد هذا اليوم فانه فاسد العقل .

حياته : قد تلمذ الى الشيخ أبى موسى عمران امصول، وكان يجتمع معه فى رابطة أم أيمن، ويظهر من كونه نهى عن الجلوس مع الكميلى الذى قام بالدعوة الفاطمية حوالى 685 هـ. انه كان حيا فى حوالى أوسط القرن السابع الهجرى، لانه لما نهى عن الجلوس معه كان الكميلى لا زال لم يحج وكان طالبا .

ومنهم أبو عيسى عمران امصول :

هو من قرية تغزى بفرقة تكيذيث بكسر التاء والكاف المعقدة وكسر الدال وسكون التاء الاخيرة، فرقة من قبيلة بقيوة .

وكان الشيخ فاضلا ملازما لرابطة أم ايمن يأتى الى هذه الرابطة صلحاء بقيوة للاجتماع بالشيخ وسماع أقواله وحكمه المأثورة التى ينتفعون بها، وله مجالات فى المقامات والعبادات .

مكاشفاته : وقد كانت له مكاشفات مروية صالحة لا تتخطى مقايس الشريعة الاسلامية، فقد حدث عنه الشيخ أبو العباس احمد بن سوسان أنه توجه ذات يوم جمعة الى رابطة أم أيمن، وكان يواصل الصيام وقد قال عنه مؤذن صلاة المغرب أنه أمر الشيخ أبو موسى احد تلامذته أن يذهب ويأتى بالكيس الذى فيه الخبز ثم أنه قسم الخبز ولم يسهم لى (أى للقادم لانه كان يواصل) .

وكان من عادة صلحاء بقيوة زمن هذا الشيخ أنهم يأتون الى رابطة أم ايمن ويجتمعون به لقضاء ليلة النصف من شعبان، وليلة سابع وعشرين من رمضان، وليلة عاشراء بصفة لازمة للعبادة، وكذلك كانوا يأتون فى غير هذه الاوقات، ومن مكاشفاته فى هذا الميدان ان الشيخ أبا يحيى

زكرياء المتقدم الترجمة ذهب الى الرابطة، وكانت زوجته طلبت منه قبل أن يذهب أن يحش الكلاء لعجلة لهما ولكنه امتنع وذهب الى الرابطـــة، فلما دخل على الشيخ أبى موسى قال له وما يدرى أحدكم أن يكون حش الربيع للعجلة أفضل، فبهت الشيخ زكرياء وعلم أنها مكاشفة .

حيــاتــه : من ترجمة الشيخ أبى العباس بن سوسان الــذي حكى عنه ما تقدم، ومن ترجمة الشيــخ أبى يحيى زكرياء يعلم تاريــخ حياته، فكلاهما كانا موجوديــن من النصــف الثانى من القرن السابــع الهجرى، فهو كان حيــا فى هذا الوقت .

ومن رجــال بقيــوة أيضــا :

الشيخ أبو مروان عبد المالك الوحانسى :

أصله من الاندلس، وقد جــاء الى بلاد الريف يتعبد فى رباطــات بادس وغيرها، الى أن توفى فى بقيوة ودفــن فيها قرب المكان المعــروف بامريقا، وهــو المعروف عند أهالى الريــف بسيدى مالك، وقبره يــزار للاستشفاع به الى الله للبرء من عاهات صرع الجنون وغيرها، ويقصــده زوار كثيرون الى الآن بقوافل يعتكفون أياما وليالى، وهو معروف باستجابة الدعاء عند قبره والله أعلــم .

كان رحمه الله عارفا محققا سالكا طريقة القوم المتصوفين غــير مجذوب، وكان صاحب مجاهدة وبلاء .

ويظهر من قول الشيخ عبد الحق بن اسماعيل فى حقه من أبيــات شعرية أنه كان من العلماء الصالحين فقد قــال :

شمــس العلوم يالها من شمس تبــدو فتعلو ثــم تمســى

الــى أن قــــال :

فذا وذلــك من القيــاس قطعا ضدان ليس البدر شبه شمس

وكان جواب الافاق خريتا لا يعرف سكونا وكان يتردد على أسفى لزيارة الشيخ المشهور أبى محمد صالح وقد قصــده بعد أن ذهــب الى المشرق واراد أن يأخذ عن شيخ بمصر فوجه من هنــاك الى أبى محمد صالح، فقد حكى عن نفسه أنه قال أردت أن آخــذ عن شيخ فى الديــار

المصرية فقيل لى أن شيخك أبو محمد صالح بأسفى، قال فشدت وسطى اليه فلما دخلت عليه قال يا عبد المالك ما جئت حتى وجهت، كما حكى عن رحلته الى مصر ولم يصرح بأنه حج، كما لم يوجد فى المصادر تسميته بالحاج، الا أنه من الراجح أنه حج لان الصلحاء كانت رحلتهم لامرين: الحج وملاقات الصلحاء، فقال انه دخل مصر وتلاقى مع الشيخ أبى الحسن على بن الصباغ. ثم قال انه ذهب الى أقطار الشام، وحكى انه بات يوما عند راهب بالشام فى ديره، فلما أراد الخروج صباحا خفيت عنه الباب فجعل يدور والراهب ينظر اليه فقال الم تعرف الباب الذى دخلت منه فما زال يدور الى أن أراه الراهب الباب، وقال (الراهب) كيف تزعم أنى على باطل وقد تصرفت فيك، قال فسافرت مهموما الى مصر، فلما دخلت على ابن الصباغ قال تصرف فيك كافر ارجع اليه فقلت وهمة الفقراء معى قال وهمة الفقراء معك، قال فرجعت، فلما رآنى الراهب ارتعدت فرائصه لانه علم انى ما جئت الا لامر، قال فقلت له كم تواصل (أى من دون أكل) قال أربعين يوما، قال له نقصتك نصفها، فلما واصل عشرين يوما لم يقدر ثم قلت له نقصتك نصفها، وهكذا الى أن وصل الى لاشىء قال فلم يقدر الراهب أن يصبر على الطعام الى أن مات جوعا وتخرب ديره.

وقد استقر بالشيخ المطاف الى مدينة سبتة فقد حكى عنه الشيخ يحيى بن حسون أنه استقر بمدينة سبتة وصار يطعم الطعام للفقراء ليلة المود، ويحيى تلك الليلة بالسماع يحضرها جمع من الفقراء وتوقد المصابيح بالزيت وتستعمل الشطحات الطرقية.

مناقبه: منها ما تقدم مع الراهب الذى مات جوعا.

ومنها أنه كان صاحب مكاشفة، ففى سبتة قيل أنه حضر اليه فقير ليلة المولد أتى من المشرق برسم زيارته، وكان مع الفقير جراب فيه حشيش تركه فى المقبرة وجاء لاحياء ليلة المولد فقال له الشيخ ان ذلك الشىء الذى فى الجراب هذا وقته فذهب الى المحل ليأخذ الجراب ويرمى به فى البحر، ولما رجع الفقير قال له الشيخ أكل جرابك الاحوات فاستحيى الفقير وتاب.

نفسه المنبسطة: كانت نفسه مرحة منشرحة يمازح أصحابه

وكان من لا يعرفه يقول عنه أنه ليس بصالح لكثرة مزاحه، لكنه يــرد هذا الخاطر بمكاشفاته، فقد قيل أن جماعة من أهل بادس ذهبوا اليــه بسبتة فقعدوا اليه، فاظهر لهم بسطا كثيرا فقال احدهم (ولعله الشيــخ عبد الله بن الرئيس على البيدق) فى خاطــره اين هــذا من سيــدى أبى يعقوب الشفاف (أى من ناحية الوقار والرزانة) قال فحينا قــال لى فى صدور احدكم غيرة فعلمت أنه كاشفنى .

أشيــاخــه : أخذ عن الشيخ أبى محمد صالح الهسكورى كمــا أخذ فى مصر عن الشيخ أبى الحسن على بن الصباغ وتلمذ عليه الشيــخ يحيى بن حسون وكان حيا فى أواخر القرن السابع ولا يعلم بالضبط وقت وفــاته ولا ولادتــه .

ومنــه الشيــخ أبو محمد المســارى :

أصله من بنى مسارة ولا يعلم كيفية ولا أسباب انتقاله الى الريف، الا أنه كان من صلحاء قرية اسكرام بقبيلة بقيــوة .

وكان رجلا صالحا كثير الاستقامة والانابة، لا يتقيد بمقام فــى مكان دون مكان، وله كرامات يرويها جمهور قبيلة بقيوة من صلحاء زمانه.

وقد قال فى حقه الشيخ عبد الحق بن اسماعيــل :

من كان لله العظيــم مطيعا   أضحى به نور الرشاد سطيعــا

وفــاتــه : ومع أنه لا يعرف شىء عن تاريخ حياته ولا وفــاته، الا أنه توفى بقريــة اسكــرام ودفــن بصحــن جامعها وقبره يــزار، يقصــده الاهــالى .

من رجال بنى توزيــن :

أبو الحسن الحاج على بن مخــوخ :

الذى يوجد بين أيدينا من المخطوطات والظهائر أنه شريف ادريسى،

الا أنه ليس من أولاد مولاى عبد السلام صاحب جبل العلم ببنى عروص الجبلية، بل أسلافه كانوا من سكان تافيلالت، ومنها نزح جده يعلى بن سالم ونزل بقبيلة الاخماس بجبالة، وهناك خلف سبعة أولاد منهم عبد الحليم الذى خلف السيد المخوخ والد السيد الحاج على بن مخوخ المترجم له، ويقال أن جده الاعلى هو سليمان بن على بن محمد بن عبد الله بن عبد الرحمان بن الحسن بن طلحة بن جعفر بن مولاى ادريس والله أعلم.

ثم أن هذا نزح من الاخماس ونزل بجبل بنى عيسى (لم نعثر الى الآن ما هو هذا الجبل وأين موقعه والراجح أنه جبل بتمسمان، وسيأتى الكلام عليه عند ترجمة الشيخ اليستثنى) ومن هناك انتقل الى قبيلة بنى توزين بعد وفاة شيخه اليستثنى، فنزل بجبل تسفت (بهذا الاسم يعرف الآن) وكان يدعى فى ذلك التاريخ بجبل بنى وزاب .

زاويته ومشيخته : كانت له فى القرية التى يسكنها والتى تدعى الآن بزاوية سيدى الحاج على، زاوية وكانت عامرة معروفة بالفضل والرجوع اليها للعبادة، وهى قرية فى قبيلة بنى توزين لا زالت الى الآن لها صلاح واحترام وقبيلة بنى توزين من قبائل بطيوة المنحدرة عن زناتة وهى التى تعرف من فرقها ببنى توجين بالجيم كما أسلفنا .

وكان أبو الحسن هذا شيخ وقته من المجاهدة والوصال والبركة، وكان نسيج وحده فى التقرب الى الله تعالى بأعمال البر والتقوى وملازمة الذكر .

وكان أول الامر أميا، لكن استدرك ذلك بعد كبر سنه، فتعلم الكتابة وحفظ القرآن الكريم، قيل عنه أنه طيلة خدمته للشيخ أبى عبد الله اليستثنى لم يكن أحد أكثر منه تقشفا ولا أشد منه خدمة فى الزاوية وللفقراء، وكان نازلا عند شيخه المذكور بجبل عيسى موطن ذلك الشيخ، وبعد وفاة شيخه انتقل الى بنى توزين وهناك استقل بالمشيخة، فشيخه الوحيد هو اليستثنى ولم نعثر على شيخ آخر له .

حياته ومحنته : فى تاريخ حدود 685 كان قام الشخص الذى يدعى أبا العباس الكميلى بالدعوة للفاطميين كما أسلفنا وكان يزعم أنه رسول المهدى المنتظر، الى غير ذلك من الخرافات، وتبعه على ذلك رعاع

الناس، وكان العلماء والصلحاء استنكروا عليه ذلك، ومن جملتهم الحاج علي بن مخوخ، فقال لما بلغه خبر الكميلي، قولوا له يلزم الخلوة ثمانية أيام فيظهر له الحق، ولما بلغت الكلمة الى الكميلي، قال قولوا للحاج علي أن هذا الشأن ليس شأنه (يعني أنه بعيد عن السياسة) فلما بلغ ذلك للسيد الحاج علي قال لا بد من قارعة تنزل به، فكان الامر كذلك، فانه لما استفحل أمر هذا الكميلي ببادس بعد القتل والسبي هجم على مدينة المزمة بقبيلة بني ورياغل فقتل هناك بتاريخ 20 صفر الخير عام 686 ه. وصلب بباب المزمة وبعث برأسه الى السلطان أبي يعقوب يوسف بن يعقوب بن عبد الحق المريني، فعلق الرأس بباب مراكش مع رأس أبي عامر عبد الله بن محمد بن علي بن محلي البطيوي صاحب مراكش .

ورغم ما قام به الشيخ ابن مخوخ ضد الكميلي، فان السلطان تغير خاطره على المتصوفة لكون الكميلي كان ينتسب الى التصوف، فجعل السلطان يذكر المتصوفة عامة بأقبح الذكر، وذلك ما دعى الشيخ المخوخي ان يغيب عن الريف الى المشرق، فغاب نحو شهر كما فعل جميع الفقهاء والشيوخ الى أن يتحقق الامر عند السطان .

عبوره الى الاندلس : واثر رجوعه من هذه الغيبة توجه أيضا الى الاندلس للجهاد عن طريق بادس، وقد حكى عن نفسه في ذلك أنه بات في سطح رابطة البحر ببادس منتظرا السفر الى الاندلس، غير أننا لم نعثر في المصادر التي اعتمدناها في ذلك عن ذكر شيء من حركاته في الاندلس ولا مدة مكوثه هناك .

سخاؤه : حكى عنه صاحب المقصد الشريف، أنه زاره يوما في بيته فروى له بنفسه هذه القصة، قال له أنه : صب بين يدي على البساط ثلاثة آلاف دينار عشرية فضية، فما قمت الى صلاة العصر حتى فرقتها على الفقراء .

مناقبه : خلف عقبا كثيرا من الشرفاء الذين تعتز بهم هذه الجهة لمقام صلاحهم، فقد انتشرت ذريته منهم أولاد سيدي الحاج علي وهم سكان موضع زاويته، ومنهم الوكيليون الذين نزل بعضهم على ضفة وادي ملوية السفلى وبعضهم بقصبة العيون سيدي ملوك، ومنهم على

وادى النكور بقرية غلبون، ومنهم المرحوم المجاهد سيدى محمد بن على بويحيا المجاهد المشهور فى الحرب التحريرية الريفية، وبأيدى الجميع ظهائر ملوكية علوية نثبث هنا نسخة من ظهير السلطان مولاى محمد بن عبد الرحمان الصادر بتاريخ 1276 هـ. ونصه :

الحمد لله وحده وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد وآله

جددنا بحول الله وقوته وشمال يمنه ومنته لماسكيه الشرفاء أولاد السيد الحاج على بن مخوخ الوكيلى الحسنى حكم ما تضمنه ظهير سيدنا الوالد رحمه الله الذى بأيديهم المتضمن التوقير لهم والاحترام والرعى الجميل المستدام والحاشات بما يطالب به العوام من الوظائف المخزنية والتكاليف (تقطيع) فلا تخرق عليهم عادة ولا يحدث فى جانبهم نقص ولا زيادة فنأمر الواقف عليه من عمالنا وولاة أمرنا أن يعمل بمقتضاه ولا يتعداه الى ما سواه والسلام فى 23 من ربيع الثانى عام 1276 ونسخة من الظهير الاخير لملانا عبد العزيز وهو بتاريخ 21 جمادى الاولى عام 1329 .

ومنهم الشيخ أبو الربيع سليمان بن يحيى :

ويعرف بابن ستهم وهو مدفون بمدشر اعزوزن من قبيلة بنى توزين ربع تسفت يقال لقومه بنى محسن.

صفاته : كان فاضلا متقشفا ومع ذلك فان لباسه كان حسنا ولم يلبس الاسمال قط وكان فى وجهه تآكل لم يستعمل دواء لعلاجه الى أن مات به .

جهاده : تمشيا مع سنن الصالحين فى ذلك الوقت الذى تقتضى ان يساهم كل أحد فى الجهاد بالاندلس وهى سنة الصالحين، وكان الاندلس موضع الجهاد، وفى هذا الشأن قام وركب من مرسى قصر المجاز وهو القصر الصغير قال بعض أصحابه الذين رافقوه فى تلك الرحلة سرنا معه عام الغزوة بالاندلس للجهاد، فنزلنا بقصر المجاز ننتظر الجفن (المركب) انجوز فيه فأتى فقير أسمر اللون عليه مرقعة وبيده ركوة فسلم على الشيخ أبى الربيع وهو جالس على ساحل البحر، فأعرض عنه الشيخ الى آخر حكاية كرامة جرت له معه .

بـــركـــاتـــه : كان له أخ يدعى الشيخ أبا يحيى زكرياء، وكـــان تاجرا فى الاسواق فتح الله عليه فى تجارته، وكان ينفق على زاوية الشيخ أبى الربيع فضجر من الانفاق، وتكلم بكلام خشن أمام الشيخ أبى الربيع، فقال له ان الفقراء هم الذين ينفقون عليك، فغضب أبو يحيى وقال لا ينفق أحد على أحد فقيل انه ما أتت عليه الا أيام قـــلائل حتى ذهب ما بيـــده وركبته ديون، فأتى الى الشيخ أبى الربيع وأعلمه بحالـــه، فقال له عـــد الى حالتك والفقراء ينفقون عليك فقيل فعاد وعاد الرزق عليه الى ما كـــان (وما أنفقتم من شىء فهو يخلفه) (يمحق الله الربا ويربى الصدقات) .

استقباله للحجاج بزاويته : وكما هى العادة التى كان الصلحـــاء فى ذلك الوقت رتبوها لاستقبال وفـــود السائحين أما للحـــج أو لمجـــرد الاعتبار، انهم جعلوا زواياهم محطات لايواء الوفود .

وفى هذا الميدان فقد حكى السيد عبد الكريم بن ورشون، وكـــان يتولى اقراء القرآن فى الزاوية للصبيان، انه ذات يوم لما صلينا الصبـــح قال الشيخ لاصحابه، فرقوا القمح للطحن واذبحوا ثورا واصنعوا الطعام، فان ضيوفا واردون علينا، قال وبعد جزء من اليل سمعنا التكبير والتهليل، فورد علينا جمع من حجاج المصامدة قاصدين زيارته والتوجه للحج .

حيـــاتـــه : كان حيا أواخر القرن السابع، ويؤخذ ذلك من كون الشيخ بوشعبان وهو الرجل الاسود الذى كان راتبا برابطة البحر ببادس، حكى أنه وقعت له معه كرامة، وبوشعبان هذا عاشر الشيخ عبد الحق بن اسماعيل الخزرجى الذى كان حيا بتاريخ 772 هـ.

ومنهم أبو عقيل حفيد الشيخ أبى داود :

وهو عبد الرزاق بن عبد الواحد بن الحاج ابراهيم بن عيسى بـــن أبى داود شيخ الشيـــوخ فى وقته الآتـــى :

ترجمتـــه : وكنى بأبى عقيل باسم ولد له وهو جد جماعة ابو عقيلا من قبيلة بنى توزين وهو كما تقدم من أحفاد الشيخ أبى داود المدفون بتمسامان من فرقة بوداود، ولا يعرف من ذهب الى قبيلة بنى توزيـــن هل هو، أو أحد أبائه، وكان رحمه الله تقيا صالحـــا ورعا متقينا للعبـــادة واقفا عند حدود الشريعة لا يبالى بشىء فى ذكر الله ولا تأخذه فيه لومة

لائم، وقد ورث الصلاح عن أجداده، فجده الحاج ابراهيم كان من فحول الصالحين كما تأتى ترجمته وهو الذى كفله وعنه أخذ الصلاح .

حيـاتــه : سيأتى أن جده الحاج ابراهيم توفى عام 650 هـ. ويظهر من الحكاية التى ستأتى فى ترجمته التى يوردها حفيده ابو عقيل ان هذا الاخير عاش بعد جده أى فى النصف الثانى من القرن السابع الهجرى ولم نقف على تاريخ وفاته ولا ولادته بالضبط .

ومنهم بعض الشرفــاء وهــم :

أولاد زيان (ولعلهم الساكنون بجبل اعزوزن الى جهة وادى النكور) ومن علمائهم الفقيه العلامة المشارك الخير الدين الصالح سيــدى محمد بن الحاج حدو بوزيان توفى حوالى 1968 بالحسيمة ودفن فى مقبرة أجار ازكاغ وهو من افذاذ الرجال فى التقوى والصلاح والمعرفة .

ومنهم أولاد سيدى الحاج على بن مخوخ المتقدم الترجمة :

ومنهم أولاد عمران : نزل بعضهــم فى موضع كان يدعى بجبــل بنى عيسى، والبعض الآخر بجبل كان يدعى بوسماك، وجدهم حسبمــا فى المخطوط على بن يحيى من ذرية عمران بن مولاى ادريس والله أعلم.

ومنهم أولاد يعلى : ولهم اخوان فى قبيلــة بنى ورياغل يدعــون بنى يعلى بحوز مدينة النكور وقريتهم تدعى الآن تزى يعلى، وجدهــم حسب المخطوط هو سليمان بن على من ذرية حمزة بن مــولاى ادريس ، واللــه أعلــم .

ومنهم أولاد سيدى الحاج عبد الله: النازلون بقبيلة بنى توزين الى جهة القبلة بموضع كان يدعى ببنى خالد، وجدهم حسب المخطوط على ابن امحمد من ذرية محمد بن مولانا ادريس وهم اخوان مع أولاد عبــد القوى بقبيلة بنى سعيــد بوادى كــرط .

ومنهم أولاد عبد الــرزاق : ببنى خالد وهم من ذريــة مولانــا عبد الســلام بن مشيــش .

الشيخ أبو داود مزاحم بن على :

من رجــال تمســامــان :

اسمه مزاحم بن على بن جعفــر بن سليمــان بن على بن أبى

عبد العزيز يرفـع نسبه الى جـد يدعى البطيوى واليه تنسب القبائـل البطيوة من المزمة الى ملوية .

كان شيخا فاضلا زاهدا تقيا له فى الكرامات مجال واسع، وممـا يحكى فى حقه حسبما فى المقصد الشريف، أنه اتفق لملك المغرب الموحـدى محمد بن عبد المومن بن على الذى كان أكبر أولاد أبيه والذى بويع بعـد وفاة أبيه فى السابع والعشرين من جمادى الثانية عام 558 هـ. ولم يبق فى الملك الا خمسا وأربعين يوما، اذ اتفقوا على خلعه فى شعبان عام 558 لما عهد عليه من ادمان شرب الخمر واختلال الرأى وكثرة الطيش وجبـن النفس (1) وكان به ضرب فى الجذام، فلما اعجز شأنه الاطباء ذكر لـه أن ببلاد بطيوة شيخا صالحا يداوى الادواء والعاهات (ببركة الله)، فوجه اليه من خدامه من يشخصه اليه على جواد، فلما بلغه الرسول ومعه الفـرس ليركبه، أبى عليه ركوب الفرس وركب اتانا له، وكان الرسول والشيـخ فى سيرهما كفرسى رهان، فلما وصل الشيخ وكان الرسول رآى من كراماته فى الطريق حكاها للسلطان فأمر بادخاله عليه وأعلمه بمكان الـداء مـن جسده، فأخذ الشيخ من ريقه بسبابته اليمنى، وقال للسلطان أمسك يـدى وامـرر بسبابتى على الموضع الـذى فى جسدك موبؤا ففعل فشفاه الله، فأمر الملك له بمـال جزيل وامتنع .

ويحكى زيادة على ما تقدم أنه رافقه فى سفره هذا ولد له يدعى يوسف، وان أحد وزراء الملك أقنعه بأن يأخذ المال لنفسه، وكان قدرا هاما، ولما رجع الشيخ وولده وكانا فى الطريـق التفت اليه من دون أن يعلمـه بشىء، وقال قد أخذت المال ودعى عليه بأن يميته الله فقيرا، فحكى انه لم يمض عام عليه حتى افتقر من دون اخوانـه، وانه مات فقيرا كما دعـى عليـه الشيـخ .

وقد ذكر هذه الكرامات الشيخ أبو محمد عبد الحق بن اسماعيل الخزرجى وقد انشد فى هذه الكرامات قولـه :

جـارى الجياد سابغات فبذهـا (كـذا) من فوقهـا اسحالـه
وأرى الخليفـة من بـرء مـا عزا الطبيب بنانـه اخمالـه

---

(1) المعجب فى تلخيص أخبار المغرب ص 236 طبعة الاستقامة بالقاهرة.

ومن حبه للخير، أنه كان أحد اخوانه فى الانتساب يدعى أبا زيد هبة، من قبيلة مزيات بأحواز فاس كانا معـا ينتسبان الى الشيـخ أبى مدين، فبلغه أن أبا زيد يدعو على الناس اذا لحقه منهم ضرر، فربما هلك المدعو عليه، فشد أبو دارد الرحال اليه لينصحه قائلا له يا أبازيد اصلح ولا تفسـد .

حيـاتـه ووفـاتـه : ولد بقبيلة تمسامان فى البلد المعروف فـى ذلك الوقت ببنى ورتد، ويعرف الآن بربع آل بوداود، ورحل الى الاندلس لطلب المعرفة وأقام بها زمنا، ثم رجع واتصل بالشيخ الزاهد أبى مديـن المدفون بالعباد (1)، وعن هذا الشيخ أخذ الطريقة الصوفية، ثم ارتحل الى بلاده (بنى ورتد) وأقام زاوية هناك كانت تدعى الرابطة، ولا زالت تسمى القرية بالرابطة بتمسامان وكان المحل يعرف فى ذلك الوقت باحلاس وكان الساحل يدعى بساحل تيقلال، وكان يتحنث فى هـذه الرابطة وبـين داره ومدينة المزمة خمسة فراسخ غربا على ساحل البحر .

وقد عمى رحمه الله فى آخر عمره وتوفى بتاريخ 578 هجرية .

ومنهم أبو ابراهيم اسماعيل بن سيد النـاس :

شيخ من شيوخ بطيوة من فخذ بنى عيسى، وكان رجلا صالحـا مستجاب الدعوات، وهو تلميذ الشيخ أبى داود المتقدم الذكر، كان عارفا بالله صوفيا ذا كرامات، وكان يسكن فى الحصن الذى يوجد ببنى عيسـى بتزروت، وهذا الحصن كان معقلا فيها ومن تلامذته الشيخ أبو عبد اللـه اليستثنى الآتى ترجمتـه .

ومن بركاته ولو بعد موته كما حكى الشيخ عبد الحق الخـزرجى أن القبائل المجاورة لجبل بنى عيسى اذا هاجمت هذه الاخيرة فى معقلهـا وتحصنوا فى المعقل خلف ضريح الشيخ أبى ابراهيم هذا لا تنال منهم تلك القبائل منالا، فاذا خرجوا من الحصن وابتعدوا عن الضريح أخذت منهـم القبائل قتلى وسبايا، واذا تكاثرت القبائل وهاجموا الحصن، فان مبلغهم

---

(1) بتلمسان بالقطر الجزائرى .

الروضة، وربما انهزموا، وعندئذ يصيح بنو عيسى ويكبرون ويقولون يا بركة سيدنا أبى ابراهيم .

وانشد عبد الحق المذكور فى حقه قوله :

بدر بدا والليل ساج فاهتدى   بسناه فى البيداء سارى الغيهب

ولا يعرف شىء عن تاريخ وفاته، الا أنه معروف بأنه مدفون فى روضة قبلة المسجد الذى هناك خارج الحصن وقبره مشهور للزيارة والتبرك به ونظرا لكونه تلمذ على الشيخ أبى داود فيكون حيا فى القرن السادس.

ومنهم أبو عبد الله محمد اليستثنى :

كان بادىء أمره راعيا للغنم بالاجرة فى جبال بنى عيسى من قبائل بطيوة (وهذه الجبال تدعى الآن بنى بويدر بتمسامان) بعدما رحل من بلاده (بنى يستثنى) وهو صبى، وقد الهمه الله التقوى والصلاح وقت رعيه للغنم فحبب اليه الصوم والتقوى، وكان يتصدق بغذائه مستخفيا .

أما عن تاريخ ولادته أو وفاته فلا يعلم عنها شىء الا ما كان من تلمذته على الشيخ أبى ابراهيم بن سيد الناس الذى كان حيا فى القرن السادس، وعليه فيكون هذا الشيخ كان حيا فى أواخر القرن السادس أو أوائل القرن السابع .

مشايخه : تلمذ على الشيخ أبى ابراهيم بن سيد الناس بعد ما ضمه اليه، وقد بلغ بعد شيخه شأنا كبيرا حيث تصدى للمشيخة، وناهيك أنه كان شيخا للعارف بالله السيد أبى الحسن على بن مخوخ المتقدم الترجمة .

أحواله : قال الشيخ ابن مخوخ أن الشيخ اليستثنى تفوق عليه بعلم الجبروت بمعنى أنه كان مسلوبا، ومثل ذلك ما قاله عنه الشيخ الفقيه الحاج أبو عمران موسى بن عبد السلام وقد أدركه، قال كان الشيخ اليستثنى مغلوبا جذب وهذب فاتصل بعالم الجبروت، مرتقيا فى عالم الملكوت، ورفض جميع الملاذ من النساء والطعام والشراب، وكان نحيف الجسم داثر الحس لا يكاد يحس بشىء من أحوال الدنيا وكان

يغتسل لكل صلاة، وكان الشيخ سليمان الورياغلى من تلامذته وقد حكى عنه كرامات .

علاقاته بالاندلس : حدث الشيخ أبو الحسن بن مخوخ أنه كانت بين المترجم له وبين الشيخ أبى اسحاق بن عبديس مراسلة وكان هذا الاخير يوجه اليه كل سنة معجون الترنج من غرناطة، فتأخر سنة فقال لتلامذته من يصل منكم الى الشيخ أبى اسحاق ليأتى من عنده بمعجون الترنج، قال فتوجه أحد الفقراء .

وحكى أيضا عن آخر حياته ويوم وفاته قال سرنا معه قاصدين بلاد الغرب (يعنى من المغرب) فلما بلغنا الى فج العروص (هى فرقة آل عروص الآن) وهو آخر بلاد بطيوة، وأول بلاد كزناية، نزلنا به على ماء برأس الفج، فنظر الى جهة الغرب وقال ردونى فانى عندما نظرت الى جهة الغرب أظلم قلبى، وقال أنه فى يوم وفاته آخر صلاة المغرب الى أن جمعه مع العشاء، فقال ناولونى الماء فاغتسل وصلى العشائين، ثم توفى رحمه الله، وقال ابن مخوخ اننا اتخذنا مراويح لدفع الذباب عنه (يظهر أنه كان عاجزا) .

من رجال تمسامان أيضا :

مركاب بن عيسى البلندى :

كان يسكن فى قرية تبلخاشت قرية من قرى تمسامان لا زالت بهذا الاسم الى الآن، وكانت قبيلة تمسامان فى تاريخ حياة الشيخ أبى داود تنقسم الى ثلاث فرق: فرقة بنى ورتدا بفتح الوار وسكون الراء وفتح التاء والدال المشددة وهى الفرقة التى يسكن فيها الشيخ أبو داود، وهى التى فيها ضريحه الآن وتدعى حاليا بفرقة بوداود، وفرقة بنى بلند سميت بابن بلند ابن يصليتن، وهى التى كانت مسقط رأس المترجم له، وفرقة تكسامان وهى التى كانت على الجهة الشرقية بحرا وهو الموضع الذى كانت فيه قرية وادى امقران التى بناها العرب أولاد سيدى صالح المدفون هناك على الشاطىء البحرى .

صلاحه : كان هذا الشيخ قدوة فى التصوف ومجتهدا فيه،

وقد أخذ ذلك عن الشيخ أبى داود البطيوى، بل كان اذا حضر الى رباطته يأمره الشيخ أبو داود بأن يؤم به فى الصلاة لحسن تلاوته وكثرة عبادته. رغم أنه كان يسكن بعيدا عن الرباطة بفرسخين، وقد حكى عن نفسه أنه ذات يوم أتى الى الرباطة فوجد الشيخ أبا داود يصلى اماما بالناس، قال فاغتنمت الصلاة خلفه مخيفا نفسى فى غمرة الناس، فلما سلم أبو داود رد رأسه الى جهتى، وقال لى قم يا مركاب فصل بنا فقمت وتقدمت فصليت .

وفاته : توفى الشيخ مركاب عام 628 هـ. وقد رمز الى وفاته الشيخ عبد الحق الخزرجى بكلمتى فألحده التقى فى قوله :

قامت قيامته فألحده التقى فى لحد نسك لا يراه الملحد

ومنهم الحاج ابراهيم بن عيسى :

هو حفيد الشيخ أبى داود شيخ متصوفى الريف المتقدم الترجمة.

ولد الحاج ابراهيم بتاريخ 560 هـ. وتوفى عن تسعين سنة بتاريخ 650، ودفن بتمسامان بموضع يعرف بداروجن وهو الذى أوصى أن يدفن هناك، وكان هذا الموضع لبعض الصالحين، حبسه على المنقطعين الى عبادة الله .

عبادته وسجنه : كان لا يفتر عن تلاوة القرآن الكريم ليلا ونهارا، قياما وقعودا فى مشيه أو سكونه، وقد سجن رحمه الله مدة تقارب ثلاث سنين عند قراصنة النصارى، وذلك أنه كان يسكن على ساحل البحر قرب رباطة جده أبى داود حيث كان يتعبد، وكان هناك قرب داره عنصر ماء يستقى منها نصارى القرصنة، ومع ذلك فلم يمسوا داره بأذى رغم أن الدار تكون مملوؤة بالودائع .

الا أنه لما ضعف أمر الموحدين على جهة الريف، وتغلب العرب عليها ضربوا مغرما على بنى ورتدا بلد أبى داود، فامتنع هؤلاء من أدائها، وقصد العرب الحاج ابراهيم لما يعرفونه عنه من الصلاح أن يتدخل لدى السكان لاداء المغرم، وبعدما تردد فى استجابة مطلبهم ذهب اليهم، لكنهم امتنعوا، ولما رجع سلك طريق ساحل البحر، فأخذه نصارى القرصنة

أسيرا، وفى أثناء هذا الاسر تمكن هؤلاء النصارى من الوصول الى داره وأخذوا جميع تلك الودائع، وفى أيام أسره أصابت تلك الجهة مجاعة شديدة.

مناقبه : حكى عنه حفيده الشيخ أبو عقيل المتقدم الترجمة، وكان مكفولا لديه راويا عن جدته زوجة الشيخ المترجم له، أنه ذات مرة نظم سبعين حبة من التين فى حبل وبقى سبعين يوما يقتات كل يوم بحبة واحدة حتى ضعفت صحته فطلبت من بعض أصدقائه أن يتدخل لديه ليشفق على نفسه، فأجابهم بأن الدنيا جيفة فمن اضطر اليها حلت له وأنا غير مضطر اليها، وذلك لما يجده من القوت الروحى الذى اكتسبه من العبادة.

الوطاسيون بداره :

ومما يحكى عن بركاته أيضا أنه لما تغلب بنو وطاس على بلاد الريف، وكانت مجاعة، قصده ياسين بن الوزير الوطاسى مع جماعة من بنى وطاس، وذلك لاجل أن يأكلوا عنده، ولما وصلوا اليه وسألوا عليه اظهروا أن القصد الزيارة والانصراف، فقال لهم اجلسوا لنصنع لكم طعاما فجلسوا، فأخرج لهم طعاما قليلا يبدو فى نفس كل واحد منهم أنه لا يكفيه له وحده، فقيل أن الشيخ سمى الله وأمرهم بالاكل، فأكلوا جميعا وشبعوا، وبقيت باقية، فقال لهم الشيخ كنتم قدرتم أن لا تشبعوا.

الشرفاء البويعقوبيون :

ومنهم الشرفاء الثلاثة سيدى محمد بن عمر ــ وسيدى موسى بن محمد بن احمد ــ وسيدى موسى بن احمد ابن على، وهم الشرفاء البويعقوبيون بتمسامان، وقد جمعنا هؤلاء الشرفاء الثلاثة فى ترجمة واحدة لانهم أحفاد سيدى أبى يعقوب المدفون بمغراوة الذى انتشرت ذريته بنواحى الريف .

فمنهم من سكن تطوان، ومنهم من سكن فى وجدة ونواحيها، ومنهم من سكن فى قبيلة تمسامان بالقرية المعروفة بسيدى بويعقوب على الضفة الغربية لواد ألمكثن بفتح الميم وسكون الكاف وفتح الشين وسكون النون، وهؤلاء الآخيرون هم الذين ينتمون الى هؤلاء الاشراف الثلاثة وقد جمعتهم الوثائق التى نستدل بها، فالاول منهم هو الشريف سيدى محمد بن

محمد بن بن محمد بن على بن ابراهيم بن عمر بن ابراهيم بن عبد الله بن محمد بن يوسف بن أبى يعقوب المغراوى وهو الجد الذى ينتسبون اليه.

والثانى هو الشريف السيد موسى بن محمد بن احمد بن سعيد بن موسى بن على بن عبد الله بن مرزوق بن على بن محمد بن يوسف بـن أبى يعقـوب المغـراوى .

والثالث هو الشريف سيدى موسـى بن احمد بن على بن عمـر بن يعقـوب بن عيسى بن سليمان بن يعلى بن محمد بن يوسف بـن أبى يعقوب، وكلهم تفرعوا عن محمد بن يوسف بن أبى يعقوب وسيدى أبـو يعقوب هذا من أحفاد سيدى محمد الدهمان الولى الصالح المشهور، ونكتفى فى ترجمتهم واثبات نسب الشرفاء احفادهـم بتمسامان بنشر الوثيقـة الشرعية وبعض الظهائر الملوكية العلويـة .

فالوثيقة الشرعية هى شهادة مؤرخة بمنتصف ربيع الاول عـام 997 هـ. وها نصهـا :

بعـد الحمدلة يعرف شهوده السادات الاجلاء وهم المرابط الخير الدين الشيخ البركة السيد محمد بن عمر بن محمد بن على بن ابراهيم ابن عمر أبى ابراهيم بن عبد الله بن محمد بن يوسف ابن أبى يعقـوب الشريف والسيد موسى بن محد بن احمد بن احمد بن سعيد بن موسى بن على بن عبد الله بن مرزوق وعلى محمد بن يوسف بن يعقوب، والسيـد موسى بن احمد بن عمر بن يعقوب بن عيسى بن سليمان بن يعلى بـن محمد بن بن يوسف بن يعقوب أتم المعرفة وأكملها ويشهدون مع ذلـك بأنهم منذ ادركوا بأسنانهم وفهموا بعقولهم أنهم يسمعون عنهم سماعـا فاشيا ذائعا مستفيضا على السنة أهل العدل وغيرهم انهم شرفاء ينتسبون الى الجانب العالى المولى سيدى الوجود بأسره مولانا محمد (طعم) فهم من ذريـة سيدى يعقـوب الشريف المذكور، نفعنا الله به من غير طاعن لهم فى ذلك ولا معارض ولا منازع بهذه الحالة عرفهم وعليها خبرهم ولم ينتقلوا عنها حتى الآن كل ذلك فى علمهم وقيدوا بذلك شهادتهم فى منتصف شهر ربيع الاول السعيد المفضل عام سبعة وتسعين وتسعمائة ش الطالب السيد على بن محمد الشريف والسيد احمد بن عبد الله البطيوى والسيـد

عمر بن حدو البطيوى والسيد احمد بن عمر البطيوى وعلى بن محمد سلطان وعمر بن عيسى بن مزيان ومحمد بن قاسم البطيوى وعبد الواحد بن أبى سعيد وعبد الله بن محمد احماموش والطالب عمر بن محمد البطيوى وابراهيم بن احمد البادسى والحاج احمد بن أبى بكر القيسى وعبد الرحمان بن عمر البادسى وعبد الرحمان بن احمد البادسى وعلى بن حدو البادسى وعبد الرحمان بن سليمان اليازغى .

شهدوا لدى من قدم لذلك بموجبه فثبت .

الحمد لله أشهد الاجل الفقيه البركة العالم العلم قاضى الجماعة بمدينة فاس وهو عبد الواحد بن احمد الحميدى أعزه الله تعالى وحرسها بثبوت الرسم أعلاه الثبوت التام وبصحته عنده وثبوته لديه بواجبه وهو حفظه الله تعالى بحيث يجب له ذلك من حيث ذكر وفى التاريخ أعلاه .

أما الظهائر فنكتفى بالاول مما وقفنا عليه والاخير، فالاول لمولانا اسماعيل بن الشريف، ونصه :

بعد الحمدلة والطابع الشريف، يتعرف الوقف عليه بحول الله وقوته وشمال يمنه وبركته اننا جددنا لحملته الشرفاء الاطهار الاجلاء الشريف الحسنى نفعنا الله به وبأمثاله، القاطنين ببنى بويعقوب بتمسامان على ما بأيديهم من ظهائر سيدنا الوالد قدس الله روحه وظهائر من تقدم من الملوك رحمهم الله المحتوية على توقيرهم واحترامهم وتبجيلهم واكرامهم فلا يسامون بما يطالب به من سواهم من العوام، رعيا لنسبهم الشريف ومنصبهم المنيف حسبما تضمنته ظهائرهم وما بأيديهم من رسوم الائمة والقضاة والشهود والثقات، فمن رام حول حماهم جردنا له سيف النكال والبسناه من صواعق غضبنا سربالا، تجديدا لا يزال جديدا ولا تزيده اليالى والايام الا تأييدا، والواقف عليه يعمل به ولا يتعدى كريم مذهبه وابقيناهم على ما هم عليه من دفع زكاتهم واعشارهم لفقرائهم وضعفائهم وأهل الحاجة منهم كما كان عليه عملهم والسلام .

فى غرة شعبان المبارك عام 1144 هـ.

وآخرها للمولى عبد العزيز بن الحسن بن محمد قدس الله روحه.
ونصه : بعد الحمدلة والطابع الشريف كتابنا هذا أعلا الله مقامه

ونشر فى الوية العز أعلامه يستقر بين حملته الشرفاء أبناء المولى الصالح سيدى أبى يعقوب الشريف الحسنى نفعنا ـ الله ببركته المعروفـين ببنى بويعقوب بتمسامان واخوانهم بتطوان ويعلم منه أننا جددنا لهم بحول الله وقوته وشامل يمنه وعزته على ما بأيديهم من ظهير مولانا الوالد قدسـه الله وجعل الفردوس مثواه المجدد لهم على ظهائر أسلافنا الكرام المنعمين بجزيل النعم فى دار السلام المتضمنة اقرارهم على ما عهد لهم من التوقير والاحترام والمراعاة والبرور والاكرام، والمحاشاة عما يطالب به العـوام، فهم عندنا على الحالة التى كان عليها أسلافهم مع أسلافنا لا تخرق عليهم عادة ولا يحدث فى جانبهم نقص ولا زيادة، تجديدا تاما شاملا عاما فنأمر من يقف عليه من خدامنا وولاة أمرنا المعتـز بالله تعالى فى ربيع عشـر صفر عام 1314 .

الشرفـاء القادريـن أولاد لقمـان :

حسبما عثرت عليه من الوثائـق التى سيـأتى بيانها، ان أولاد لقمان القادريين يوجدون على فرعين اثنين احدهما فى بنى بوعياش بقرية تزورخت ببنى ورياغل، وهى قرية بالضفة الغربية لوادى النكور، وثانيهما فى قبيلة تمسامان بالقرية المدعوة ايجار أفاضيـس .

وقد نزحوا من نواحى تلمسان بالقطر الجزائرى بالمحل المعروف بعجرود، واستقر بعضهم فى بنى بوعياش باسم أولاد لقمـان وانتقـل الآخر الى قبيلة تمسامان باسم القادريـين .

وتعتبر هذه الوثائق مصدرا هاما فى ميدان نسب هذين الفرعين .

ومن تلك الوثائق حسب التسلسل التاريخى وثيقة شرعية أخذت نسخة منها بالطريقة التوثيقية وهى هـذه :

الحمد لله نسخة رسم واحد والاعمال بالقبول عقبه والتعريـف عقبهما والاداء عقب الجميع وخطاب من يجيب بما سيذكر عقب ما ذكـر ونصه: الحمد لله يعرف من يضع شكله عقبـه ما سكيه الاجلة القاطنـين بمنزل تزوغت بقبيلة (كذا) الورياغلية اتجاه واد النكور قيلة المعـروفين بأولاد لقمان منهم الفاضل الابر السيد الحاج عمر بن محمد بن مسعـود

بن السيد الحاج محمد بن الفقير احمد بن السيد الحاج محمد بن محمد فتحا بن بعز، والسيد عمر بن اهنساش، والسيد محمد فتحا بن محمد بن احمد، وغيرهم من اخوانهم النازلين بالمنزل المذكور والخارجين منهم الى قبيلة تمسامان النازلين بمنزل فدان الدر شاطىء البحر منهم السيد على بن الحاج على بن عبد السلام، والسيد محمد بن محمد بن عبد الله بن مسعود والسيد شعيب بن احمد بن السى محمد بن احمد بن شعيب، وغيرهم من اخوانهم أيضا المعروفين بأولاد فارس أتم معرفة وأكملها بها ومعها يشهد بأن السادات المذكورين كلهم أولاد لقمان وانهم شرفاء حسنيون، وان النسب الطاهر الطيب الكريم والشرف الحسنى المنيف العظيم الجسيم لا زال من أوصافهم، وحازوا هذه التسمية حديث العهد والزمن القديم، وانهم من ذرية القطب الربانى، سيدنا ومولانا عبد القادر الجيلالى، رضى الله عنه وانه ممن يجب تعظيمهم وتوقيرهم بجانب نسبهم الرفيع العلى الطاهر الطيب الباهر الركن، فمن عرفهم وحقق نسبهم قيده شاهدا به لسائله منذ أواسط شهر الله الانوار ربيع النبوى عام 1293 عبد ربه تعالى احمد بن الحاج على الحسنى الوكيلى (الدعاء) وعبد ربه واحوجهم لما لديه عبد الرزاق بن على الحسنى الوكيلى (الدعاء) ونص الاعمال الحمد لله أعلم بقبولها عبد ربه محمد بن احمد التوزانى العدولى (الدعاء) ونص التعريف الحمد لله الخطاب يليه لقاضى بنى توزين الفقيه سيدى محمد بن السيد احمد العدولى التوزانى قاله عارفه معرفا به عبد ربه تعالى العربى بن محمد الرعرى لطف الله به ونص الاداء الحمد لله أدى المعرف فقبل واعلم به عبد ربه محمد بن عبد الرحمان العلوى الحسنى (الدعاء) وبعده استقل انتهت قابلها بالاصل فما ثلته واشهد سيدنا الامام الشريف الانور الزكى الاطهر العالم العلامة الافضل الفقيه قاضى الجماعة بفاس الغراء وهو (شكله) آعزه الله وحرسها باستقلال الرسم أعلاه عنده الاستقلال التام بواجبه وهو حفظه الله تعالى بحيث يجب له ذلك من حيث ذكر وفى جمادى الثانية عام 1293 عبد ربه (شكله) وعبد ربه (شكله) هـ، والشكلان غير مقرئين، كما أنه ليس بعدهما خطاب .

ومن تلك الوثائق أيضا ظهيران شريفان حسنيان وهما مختومان

بالطابع الصغير الاول منهما تاريخه 14 ذو القعدة 1293 فيكون ما بين الظهير والوثيقة الشرعية سبعة أشهر وبذلك يكون باعث اقامة الوثيقة لاستصدار الظهير المذكور .

ونص الظهير بعد الحمدلة والتصلية :

«خديمنا الارضى الحاج حمادى التمسمانى البويديرى وفقك الله وسلام عليك ورحمة الله تعالى وبركاته وبعد فحملته الشرفاء الاجلة المعروفون بأولاد لقمان القاطنون منهم بتزوغت من قبيلة بنى ورياغل والخارجون عنها الى قبيلة تمسامان نأمركم ان تستوصى بهم خيرا وتراعى جانبهم وتجريهم على عادتهم المألوفة وطريقتهم المعروفة وتكف اليد العادية لنسبهم الطاهر، واذا قرأت كتابنا هذا أردده اليهم يتمسكون به والسلام فى 14 ذو القعدة عام 1293 وبعده استقل وخط كلمة «استقل» مغاير لخط الظهير وهو رديىء ويحتمل انه أخذت منه نسخة فكتب القاضى استقل وهى اصلاح توثيقى وفوق الظهير الطابع الصغير منقوش فيه الحسن بن محمد الله وليه وخط الظهير مغربى ممتاز. والخطاب فى الظهير للقائد التمسمانى من فرقة بنى بويدير والظهير الثانى تاريخه 1297 وبذلك يكون تأخر عن الاول بثلاث سنين وأربعة أشهر وثمانية عشر يوما .

ونصه بعد الحمدلة والتصلية :

«خديمنا الارض الحاج على بن عمر الورياغلى وفقك الله وسلام عليك ورحمة الله وبعد فحملته الشرفاء الاجلة المعروفون بأولاد لقمان منهم القاطنون بتزورغت من قبيلة بنى ورياغل ومنهم الخارجون الى تمسامان، تأمرك ان تستوصى من بنى ورياغل منهم خيرا وتراعى جانبهم وتجريهم على عادتهم المألوفة وطريقتهم المعروفة وتكف اليد العادية عنهم رعيا لنسبهم الطاهر، واذا قرأت كتابنا هذا فأردده اليهم يتمسكون به والسلام. فى ثانى ربيع الثانى عام 1297 هـ. وبعده كلمة استقل وهى رديئة الخط، أما خط الظهير فمغربى ممتاز والخطاب موجه لقائد بنى ورياغل من بنى حذيفة ويظهر أنه لما تمسك الشرفاء القادريون بتمسامان بالظهير سعى الساكنون ببنى ورياغل لاستصدار ظهير

يخصهم، وبأعلا الظهير الطابع منقوش فيه الحسن بن محمد الله وليه ومولاه، الا أن هيئة النقش لم تتفق فيه مع النقش الذى فى الطابع الاول وبذلك يكون طبع كل بطابع خاص ب

هذا وقد عثرت على مذكرة من دون تاريخ ولا امضاء، ونظرا لبعض الفوائد منها فانى أجلب هنا بعض الفقرات التى يتعلق بها الغرض فى هذا المضمار .

من تلك الفقرات «ولا سيما الشرفاء القادريون الذين شاع انتشار نسبهم بأولاد لقمان بالقبيلة الورياغلية من الريف فنسبتهم بتلك النواحى غير خافية» .

«وما زال الشرفاء القادريون المعروفون بأولاد لقمان محققون (كذا) باتصاله (أى مولانا عبد القادر الجيلالى) فى غاية الاشتهار منهم القاطنون بتزورغت من قبيلة بنى ورياغل والخارجون عنها الى تمسامان واخوانهم المعروفون بأولاد سليمان قديما وحديثا وينتسبون الى هذا الشرف الاثيل» .

«وهؤلاء السادات المذكورون من سلالة الشيخ ناصر بن الشيخ عبد الرزاق (1) بن الشيخ عبد القادر الجيلالى نفعنا الله به قدموا على بنى ورياغل من قلعة تاهرت بين هذه القلعة وبين تلمسان من ناحية شرقيها خمسة أيام» .

الشرفاء البقاليون

ومنهم الشرفاء البقاليون الذين نزلوا فى نواحى الشمال ويعتبرون ممن لاينازعهم منازع فى نسبهم الطاهر، أطلعت على مخطوط لاحد الشرفاء يدعى سيد التهامى أطلعنى عليه مولاى احمد الريسونى ساكن طنجة، ذكر فيه جمعا من الشرفاء بقبائل جبالة، وقد طعن فى شرف البقاليين، ولكن لم يذكر أية حجة مع أنه يوجد فى أيديهم شهادات وظهائر فهى حجة قاطعة، ومع ذلك فقد عملت على البحث فعثرت على كتاب الدرر اللآلى فى ثبوت الشرف البقالى لابى عبد الله محمد الحاج العياشى سكيرج

(1) الشيخ عبد الرزاق ليس ولدا من صلب الشيخ عبد القادر بل هو من أحفاده حسبما ذكره فى الترجمانة الكبرى ص. 179 .

الانصارى، فقد اثبت هذا المؤلف شرفهم بما لا يدع مجلا للشك، وعليه فان ما كتبه السيد التهامى هذا، هو رجم بالغيب فقط، وعلى حسب ما ذكره أبو العباس سيدى احمد الغزوانى، فان مجيئهم كان من الساقية الحمراء وقد نزلوا بمدينة فاس ثم انتقلوا الى جهات الريف وصنهاجة وغزاوة .

فقد نزل سيدى عبد الله هذا بقرية بوزويقة بالزاى ثم الواو المكسورة وبعده ياء ثم قاف، وهى قرية تآخم بنى ورياغل على الضفة الشرقية لوادى النكور، وهى التى كانت معسكر القائد بوحمارة لما هزم فى سهول بنى ورياغل .

وسميت بوزويقة لانها كان مؤسسها محتسبا فى الاسواق فهو محرفة عن بوسويقة بالسين ويقال أن هذا المحتسب هو أب الشرفاء السويقيين كما يأتى .

وفى هذه القرية توفى رحمه الله ودفن هناك وله ضريح مشهور ثمه.

سيدى يحيى الحاج :

ومن عقبه سيدى يحيى الذى أسس زاوية أخرى بمدشر الغمان بكسر الالف وفتح اللام وسكون العين المعجمة وهى قرية بتمسمان بأعلا بوزويقة وهناك توفى ودفن ولا زال ضريحه يقصد للتبرك، أما وفاة كل منهما فلم نعثر الى الآن على شىء من تاريخها .

سيدى احمد الحاج :

ويوجد شريف آخر يدعى سيدى احمد الحاج وهو مدفون بجبل مزوجة من قبيلة قلعية ولم نعلم شيئا عن حياته ومماته أيضا .

سيدى الحاج يوسف :

يوجد ضريح بالقبة فى الضفة الغربية لواد النكور قرب قرية أمنود وجنوب مدينة النكور التاريخية بعيد عنها بثلاث كيلومترات فقط .

ويقال عن لسان أهل البلد أنه شريف بقالى وان أولاده هم من الفخذة المعروفة بأولاد الطالب عمر من قرية امنوذ ولا زالوا الى الآن ثمه.

كما يوجد ضريح لشريف بقالى ازاء مدينـة بوسكور الاثريـة بشواطىء بقيوة التى كانت من القرى الساحلية التى كان لها شأن أيـام مدينة بادس ويدعى صاحب الضريح سيدى يعقوب وقد خلف ولدا يدعى الحاج داود له ضريح بازاء أبيه يفرق بينهما سيل الماء وقد عقب ولـدا يدعى ياسين الا أننا الى الآن لم نعثر على حياة هؤلاء الشرفاء بدقة الا ما سمعناه من أفواه النـاس .

أما فى غمارة وقبائل جبالة ومدينة تطوان وطنجة، فان البقاليين فيها قد انتشروا انتشارا كبيرا على الشكـل التالى :

سيـدى عـلال الحـاج :

هو مدفون بزاوية فيفى من قبيلة غزاوة كان حيا أواخر القـرن العاشر وقد خلف ولدا يدعى سيـدى محمد الحاج الكبير وهو مدفـون بفاس مات مقتولا، قتله محمد الشيخ السعدى عام 1017 هـ.

سيـدى عبد الله الحـاج :

هو من أحفاد سيدى محمد الحاج الكبير أبوه يدعى عيسى وهو المدفون فى تطوان المعروف مسجده بمسجد سيدى عبد الله الحاج مقصود للصلاة فيه بكثرة لموقعه من ساحة مولاى الحسن المعروفة بالفدان وقد توفى عـام 1207 هـ.

سيـدى محمد الحاج الصغـير : وهو مدفون بطنجة معروف ضريحه هناك باسم سيدى بوعرقية، ولم يخلف الا بنتا تدعى السيدة رقية دفينة معه فى ضريحـه .

سيـدى محمد الغـزوانى :

وهو أخو سيدى محمد الحاج الصغير وهو جد الغزوانيين، وقـد خلف هذا الشريف كثيرا من الاولاد افترقوا فى قبائل الفحص وغمـارة وجبالة حسبما سنذكـر .

سبب تسميتهم بالبقاليـين :

وقد عثرت على تقييدة عند الشريف سيدى احمد الغزوانى المتوفى بتطوان فى 10 ربيع الاول عام 1384 هـ. موافق 19 غشت 1964 ودفن هناك.

وتحتوى هذه التقييدة على سبب تسمية جده يخلف بالبقـال، وذلك أن جدهم يخلف المذكور كان سكن فى قرية عين بقالة ببنى مزكلدة، وكانت قرية عامرة، ويظهر من كونه كان يسكن بهذه القرية أنه نسب اليها حسب النسبـة المتعارفة، وهذا هو المتبـادر وان كانت التقييدة ذكـرت أسلوبا آخر فحواه، كرامة وقعت له هناك، وهى قصة ربما كانت خيالية لما كان جبل عليـه الناس فى ذلك الوقـت من الاعتماد على مثل هـذه الحكايات، وبناء على هذه التقييدة فان التسمية بالبقاليين كانت تبتدىء من جدهم سيدى يخلف، أما الذى أتى من الساقيـة الحمراء فلم يكـن يعـرف بذلـك .

سيدى يخلف : وسيدى يخلف هذا مدفون بمنزلة الوسطى مـن بنى مدارس من بلاد لمطاوة .

وقد انتشر أولاده فى جهات المغرب ومنهم من قصد غمارة وقبائل الجبالة كبنى حسان وبنى سعيـد .

سيدى عيسى الحـاج :

هو دفين بنى صابر بقبيلة بنى حسان، وقد كانت هناك زاوية تدعى الآن زاوية بنى صابر، توفى فى أواسط شعبان عام 1036 وقـد خلف من الاولاد ثلاثـة :

محمد : وهـو دفين ترغـة على ساحل البحر، وهو جد الشرفـاء الساكنين بازغار أولاد البقال بقبيلة بنى زيـات الغمارية، ومن ذريتـه سيدى احمد الغزوانى الآنف الذكر ومنهم بنو هليل وبنوا سميح واوشثام.

محمد الحاج : وهو دفين انغورى بجماعة اشروطة بالطاء المهمة من قبيلة بنى حسان، وهو جد الشرفاء البقاليين الساكنين بأثروضة بالضاد وبتاسفت من قبيلة بنى سعيـد واد لو .

سيدى يحيى الحاج : وهو دفين زاويـة محراثا من قبيلـة بنى حسان، وهو جد الشرفاء الساكنين بتلك الزاوية وبمدشر اثروضة بالضـاد واغنورى من قبيلة سعيـد .

نسب البقاليـين: حسبما فى وثائق شرعية واحكام عليها من جمع من القضاة الذين يعتد بفتياهم والموجودة تلك الاحكام والوثائق بيد ورثة

سيدى احمد الغزوانى المشار اليه، فان النسب المذكور على السلسة الآتية ابتداء من سيدى يخلف البقال وهو سيدى يخلف بن محمد بن سليمان بن حمزة بن مولانا ادريس، السلسة قصيرة ويحتمل أن يكون هناك أشخاص آخــرون .

الــوثــائق : وثيقة شجرة شرفهم مكتوبة على رق كبير تضمنت نسبتهم الهاشمية مذكور فيها عمود نسبهم على حسبما هو مسطر أعــلاه تاريخها عام 896 هـ. وهى مسجلة على الفقيه الاجل القاضى العدل سيدى احمد بن يحيى الاغصاوى .

ثم ثلاثة أحكام تنص على صحة وثيقة الشجرة المذكــورة، ثــم وثيقة أخرى للشجرة نفسها وبنفس التاريخ ولكن ليست على رق وقــد صححها علماء اجلاء منهم الفقيه العلامة سيدى أبو القاسم ابن على بــن خجو الخليفى الحسانى، والفقيه العلامة سيدى محمــد بن الحســن بن عرضون والفقيه الاجل أبو محمد عبد الله الهبطى، والشيخ الزاهد الورع سيدى يوسف التليــدى .

وكل هذه الحجج منسوخة من رسم واحد مسلسل مسجلــة على قاضى تطوان بتاريخ 18 محرم عام 1370 موافــق متم اكتوبــر 1950، وبعده اعمال وزير العدل فى ذلك التاريخ العلامة النزيه الصالح المطلــح سيدى محمد أفيلال رحمه الله .

ومنهم أولاد الشريف سيدى سليمان بن سالم السويقى :

يعرف هؤلاء الشرفاء فى تمسامان بأولاد سليمان، وكانوا يعرفون قديما بأولاد أبى الليث، ولم نعثر عن هذه الكنية هل هى لجدهم سليمان، أم لجد آخر، ويعرفون أيضا بالسويقيين، وذلك ان جدهم سليمان كــان محتسبا فى السوق فسمى السويقى .

وهم سليمان بن سالم بن ابراهيم بن عبد الحليم من ذرية مولانا ادريس رضى الله عنه وقد تفرعت عن جدهم سليمان هذا فروع منهم :
المعروفون بأولاد سليمان كما أشرنا وهم فى فرقة بنى بويدر، ومن

هذا الفرع انتقل الشرفاء السويقيون الى بنى ورياغل، وهم نازلون قرب جبل حمام، الذى كان يقال له جبل العمـــال .

وانتقلت جماعة من هؤلاء الآخرين ونزلوا بوطاء بنى ورياغل قرب أمزون قرب المطار هناك، ويعرفون بالسويقيين وكان رجل منهم عمر كثيرا يدعى الحاج عمر السويقى وخلف عددا كبيرا من الاولاد وعاش عيشـــة رجل شريف ذى سمعة طيبـــة .

وانتقل فرع من أولاد سليمان ونزلوا بالاخمـــاس احدى قبائـــل جبالة ويدعون ثمه الى الآن بأولاد شركوك وهم ساكنون بقرية زرهون بباب تازة، وكان منهم شيخ الشرفاء فى وقت السلطان مولاى الحسن الاول ويدعى السيد الهاشمى، ومنهم السيد محمد بوغابة كان خليفة على مدينة شفشاون لعامل السلطان مولاى الحسن الاول على تطوان ونواحيها السيد عشعاش الريفـــى .

وقد حكى لى الحاج محمد شركوك أن بيدهم ظهائر ولوائح النسب وان آخر ظهير لهم هو لمولاى الحسن الاول .

ومنهم عائلة أخرى بقرية معكاشة بازاء بـــاب تـــازة .

ومنهم عائلة بقبيلـــة بنى سلمان بغمـــارة فى الموضـــع المدعو اقـــدرانـــن .

ومنهم عائلة بقبيلة بنى رزين بالموضع المدعو تمركت وأخـــرى بقبيلة بنى زجل بالموضع المدعو بالقلعـــة.

ومن رجـــال قبيلـــة قلعيـــة :

سيـــدى ورياش بن عيسى بن عبد الرحمان :

وهو الشيخ الفاضل الولى الصالح قطب وقته الشريف الحسنـــى انودغيرى أصلا، دفين قبيلة قلعية على الباب الغربى لمدينة مليلية، وقـــد خلف هناك زاوية عامرة الى الآن، وذرية صالحة احتفظت بنسبها الشريف ووقارها الدينى، واقتفت سنن أجدادها من التثبـــت بالاخلاق الفاضلـــة ومنهم صديقنا العلامة القاضى المبجل سيدى العربى الورياشى .

كنت كتبت اليه كتابا رجوته أن يفيدنى عن سيدى ورياش جـــده

ونسبه فأفادنى فى الموضوع بما يعهد فيه من الاطلاع وحسن الـدرس، وحرصا منى على الامانة رأيت أن أثبت كتابه برمته لما له من الفـائدة التاريخية المتوخاة من استفسارنا اياه .

على أن رسالته هذه ستصبح وثيقة تاريخية فى ميدانها، فضلا عن انها ذيل أصلها بموافقة جمع من رجال القضاء والعلم .

على أن السؤال الذى كان يطرح نفسـه فى الموضوع عن سلسلـة الرجال، هل سقط منهم أحد قد أجاب عنـه بنفسه، وجوابه فى محلـه، وبالخصوص فان الذى يعنينا من هذا البحث هو ذكر الرجـال ونسبهـم والحياة العامة التى توجد عليها هذه الجهة التى نؤرخ لهـا .

وهذا نص جوابـه برمتـه :

الحمـد للـه وحـده

وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلـم .

حضرة صاحب الفضيلة الفقيه العلامـة المؤرخ النسابة الاديـب الذى أخذ من كـل فن أوفر نصيب القائـد الممتاز لدائرة تطـوان، أبى العباس مولاى احمد بن عبد السلام البوعياشى .

لا زالت كواكب سعدكم دائمة الشروق، وسلام عليه وعلى جميع أسرتكم المحترمة ورحمة الله وبركاته عن خير مولانا الامام نصره الله.

وبعد أيها السيد ، قد وصلنى رسالتكم المؤرخة بأول دجنبر 1965 . والتى مضمنها أن الاقدار الالهية شاءت أن تتنازلوا وتجعلوا محبكم أهـلا لافادتكم بما عسى أن يكون لديه من المعلومات التى تثبت نسب من ينتمى الى الورياشيين القاطنين بجبل قلعية الى جدهم سيدى ورياش بن عيسى بن عبد الرحمان الودغيرى الفجيجى، حيث أنـه ممن ينتسب اليه ولـم تكلفـوا محبكم بأكثـر من بيـان اسـم كـل عائلة منهم، ومستقرهـا ويكون ذلك مصحوبا بالوثائق التى يعتمد عليها الخ ...

أفيدكم يا مولاى اننى لست أهلا لما طلبتم منا لان اثبات النسب ورفع عموده الى سيد الوجود صلى الله عليه وسلم فى زماننا هذا الذى جاء بعد عصر النبوة بألف ونحو أربعمائة عام صعب جدا، ولئن حاولت شيئا من ذلك فسار تقى فيه مرتقا صعبا، بيد أنـى لا أدع حسن ظنكـم

فينا يذهب دون فائدة، سيما وقد سبق لي أن قمت قبل هذا التاريخ بأعوام عديدة بجمع تقييد في هذا الموضوع سيمته «الاحياء والانعاش بذكر أسماء من استوطن قلعية وشفشاون قديما وحديثا من أبناء سيدي ورياش» فرغت من جمعه في ثامن وعشري شوال عام 1370، وبعد ما أطلع عليه قاضي مقاطعة كرت اذ ذاك السيد عبد الرحمن التوزيني وقاضي بني سعيد سابقا السيد شعيب الادريسي، وقاضي بني سيدال سابقا السيد حمو بن عمر الورياغلي، وقاضي مزوجة والناضور سابقا المرحوم العلامة سيدي محمد ابريغش، وقاضي بني بويفرور سابقا سيدي الحاج عمر بن عيسى وقاضي فكيك حاليا العلامة السيد المصطفى بن عبد القادر الفجيجي، وقاضي بني شيكر سابقا الشريف مولاي المصطفى الحنفي، والفقيه العدل السيد عبد الله بن عمر، والفقيه العلامة المدرس الانجب السيد عبد الله الصقلي، ومراجعتهم له ولمصادره حرفا حرفا وضعوا عليه توقيعاتهم بالموافقة وذلك في ثامن حجة 1370 .

ولا بأس أن أذكر لكم في هذه الرسالة ما عثرت عليه من الادلة المثبتة في ظني للنسب الورياشي والمراجع التي نقلت منها ذلك، ثم بعد دلك لسيادتكم النظر في قبولها أو ردها لانكم من أهل النقد والاجهتاد وما صممتم العزم على جمع تأليف في أنساب الاشراف، الا لتوفركم على مراجع كافية في الموضوع، ولستم ممن يسارع للهيجاء بدون سلاح، كما هو معهود فيكم، نرجو من المولى جلت قدرته أن يوفقكم لما فيه رضاه ويسدد خطاكم ويلهمكم الرشد والصواب آمين .

فمن تلك المراجع وهي أهمها لانه مؤلف في خصوص الاشراف الوداغيرين الذين منهم الورياشيون كتاب «الدر النثير فيمن اشتهر وصح نسبه من الاشراف الودغيرين (1) تأليف العلامة النسابة سيدي محمد بن الحسن المخلوفي الودغيري، والكتاب المذكور من المخطوطات النادرة، فرغ مؤلفه من تأليفه في خامس رجب عام 1264 قال: «صاحب دليل مؤرخ المغرب في صحيفة 112 عند تعرضه للكلام على كتاب الدر النثير ان المخلوفي كان حيا عام 1290. قلت: عثرت على نسخة من هذا الكتاب في خزانة

(1) الكتاب بعنوان «النثير في شرفاء الوداغير» .

نقيب الاشراف الادارسة العلامة الشريف مولانا محمد بن مولانا الطيب انبدراوي، ذكر فيه المخلوفي أن مولانا عبد الرحمان الودغيري هو أول من فر الى فجيج من موسى بن أبي العافية، وخلف فيها سبعة من الابناء وهم 1 ـ عيسى 2 ـ منصور 3 ـ احمد 4 ـ محمد 5 ـ عبدالرحيم 6 ـ كثير 7 ـ عبد الله .

ثم ذكر لعيسى بن عبد الرحمان ثلاثة من الابناء: ورياش وعبد الله وامامة أبناء عيسى ثم تكلم على من انتقل من الاشراف الودغيريين من فجيج الى غيرها من الاقطار، فقال في صحيفة 21 ما نصه: وسيد ورياش بن عيسى نزل ساحل البحر من ناحية قلعية هـ. منه حرفيا، ومنها «كتاب الدرر البهية والجواهر النبوية» لامام النسابين وقدوة المؤرخين العلامة الشريف أبي العلاء مولانا ادريس (1) بن مولانا احمد العلوي رحمه الله تعالى، قال رحمه الله في الجزء الثاني من درره صحيفة 124 ما نصه: وأول من استقر منهم بفجيج هو الولي الاشهر والعارف الاكبر أبو زيد السيد عبد الرحمان بن علي الملقب بيعلى دفين طالعة فاس بن اسحاق الملقب بعبد العلي دفين مصمودة عدوة فاس الاندلس بن احمد دفين جرواوة من عدوة الاندلس بن الامام محمد بن الامام ادريس بن مولانا ادريس، وكان سكنى السيد عبد الرحمان هذا قبل الانتقال من مدينة فاس حومة الكغاطين داخل باب الفتوح، ثم قال: وبعد وفاته خلف سبعة أولاد وكلهم أمجاد انجاد وهم: السيد عيسى والسيد منصور والسيد احمد والسيد محمد والسيد عبد الرحيم والسيد كثير والسيد عبد الله، أما السيد عيسى فانتشر أولاده في الاقطار انتشار شمس النهار، فنزل أولاد ورياش بن عيسى ساحل البحر من قبيلة قلعية هـ، الغرض منه، قلت :

وفي عمود هذا النسب الورياشي ورياش ثاني ذكره صاحب «زهرة الاخبار في التعريف بانساب آل بيت النبي المختار» (2) المطبوع أخيرا للعلاة

---

(1) ويعرف بالفضيلي توفي عام 1316 (1898 م) والكتاب بطبعة الحجر بفاس في سفرين سنة 1314 هـ.

(2) في موضوع نسب الشرفاء بالمغرب عامة طبع بالمطبعة الجديدة بفاس سنة 1349 .

المؤرخ سيدي احمد بن محمد بن عبد الله المقــري التلمساني قال رحمــه الله في صحيفة 130 ما نصه: وأولاد ورياش الولي الصالح بالساحل فجدهم الشيخ سيدي ورياش بن عيسى بن يخلف بن عثمان بن ايعيش بن ابراهيم بن ورياش بن عيسى بن سيدي عبد الرحمان الودغيري ه، وقال العلامــة سيدي عبد الله بن محمد (1) بن علي الملقب حشلاف في صحيفة 62 من كتاب «سلسلة الاصول في شجرة ابناء الرسول» ما نصه: ومن الودغيريــين أولاد ورياش بن عيسى على ساحل البحر من قبيلة قلعية ه، وفي تقييد مشهور بارض الريف متداول عند جماعة من الناس فيه بتر وتحريف كثير صــدر من النساخ قد تعرض لذكر جماعة من الاشراف الادارسة القاطنين بأرض الريف، جاء فيه في حق سيدي ورياش ما نصه: ومن الشرفاء الولي الصالح سيدي ورياش المليلي المدفون قبالة امليلية بأرض القلوع، يريد قلعية بحوز جبل اورك على ساحل البحر وهو رحمه الله ترك يزيــد ويوسف ومحمــد فتحا، فأما يزيد فذريته من ناحية انكاد ويوسف ترك علي وهو جد أهــل تميمونت ومحمد المدفون بثغر اجنادة، ترك ورياش وبلقاسم واحمد فاما ورياش الصغير فلم يترك ذرية وبلقاسم هو جد أولاد حم بن يحيى، وهم أهل عين اسعود واحمد هو جد أولاد عبد الله به حد وه، الغرض منه.

قلت: وجاء في تقييد مفيد بخط يد جدنا الفقيه العلامة قاضي ثغر قلعية في زمانه الشريف سيدي الحاج محمد بن علال بن عبد الله بن احمد الورياشي ما نصه: خلف سيدي ورياش بن عيسى وراءه يوسف بن ورياش، ثم خلف يوسف وراءه أيضا علي، ثم خلف سيــدي علي عبد الرحيم ثــم خلف عبد الرحيم محمد فتحا، ثم خلف محمد وراءه عبد الله، ثم خلــف عبد الله وراءه احمد، ثم توفي احمد عفى الله عنا وعنه وخلف عمر وعبد اللــه والعــربي والمختــار الموجــوديــن الآن ه منــه، ولــم يذكــر سيدنا الجد رحمه الله من أولاد ســيــدي ورياش الا جده سيدي يوســف اقتصارا منه على العمود الذي يتصل به لوريــاش .

وأما أبناء السيد احمد بن عبد الله بن محمد الاربعة الذين أشار اليهم جدنا رحمه الله، ففي بينة عدلية خاطب عليها قاضي وقته العــلامة

(1) اسمه محمد كنيته أبو عبد الله كان قاضيا بالجزائر .

سيدى عبد السلام بن محمادى الشريف القضاوى مضمنها: ان السيد عبد الله بن احمد خلف ابنيه محمد وعلال وان أخاه السيد العربى خلف ابنه احمد بن العربى، وان أخاهما المختار خلف ابنه محمد بن المختار بن احمد تاريخ هذه البينة العدلية عاشر ربيع الاول أربع وسبعين ومائتين وألف، مذيلـــة بأشكال العدلين الشاهدين والقاضى المذكور، ولم تذكر هذه البينة لسيدى عمـــر بن احمد ذريـــة .

قلت: وسيدى علال بن عبد الله بن احمد هو جد والدى رحمه الله، وجميع المراجع والوثائق التى قدمنا ذكرها قد وقف عليها أولئك السادات من القضاة وغيرهم من العلماء الذين ذكرنا أسماءهم فى اثناء هذه الرسالة، ولم يوافقوا عليها حتى بحثوها بحثا دقيقا، وقابلوا الفرع بالاصل مقابلة تامة، كما اطلعوا على الظهير الوحيد الذى بقى بيدنا ونجا من يد الاسبانيين الذين احتالوا على جميع ظهائر الملوك التى بيد الاشراف فى أول الاحتلال، فأخذوها من يد أصحابها لغرض ما، وكانت آخر العهد بها، وهذا الظهـــير الذى بقى بيدنا هو لسلطان المغرب مولانا عبد العزيز بن مولانا الحســـن رحمهما الله. نصـــه :

بسم الله الرحمان الرحيـــم

الحمد لله وحده وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم

(الطـــابـــع الكـــبـــير)

يعلم من شريف كتابنا هذا أعز الله أمـــره وخلد فى الصالحـــات ذكره أننا ألبسنا بحول الله وقوته وشامل يمنه ومنته حملته المتمسكـــين بالله ثم به الشرفاء أولاد وريـــاش القاطنين بجبل قلعية رداء التوقـــير والاحترام والذكر الجميل المستدام بحيث لا تخرق عليهم عادة ولا يحدث فى أمرهم نقص ولا زيادة فنأمر الواقف عليه من عمالنا وولاة أمرنـــا أن يعمل بمقتضاه ولا يحيد عن كريم مذهبه ولا يتعداه والسلام. صدر أمرنا الشريف المعتز بالله فى خامس محرم الحرام عام أحد وعشرين وثلاثمائـــة وألف هـ. نص الظهير بالحـــرف .

قلت ويستنتج من جميع ما تقدمت الاشارة اليه أن عمود نســـب محبكم وصديقكم هو ما يلى:

العربى بن محمد بن محمد بن علال بن عبد الله بن احمد بن عبد الله بن محمد فتحا ابن عبد الرحيم بن على بن يوسف بن ورياش ابن عيسى بن يخلف بن عثمان بن ايعيش بن ابراهيم بن ورياش بن عيسى بن عبد الرحمان بن على بن اسحاق بن احمد بن محمد بن ادريس ابن ادريس بن عبد الله بن الحسن (1) بن الحسن (2) بن على وفاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم .

هذا كل ما عثرت عليه من هذا النسب بعد البحث الشديد عنه نحو العشرين عاما فى كل مكان وصلت اليه ولا زلت أبحث وأسأل المطلعين أمثالكم عن الحقيقة التامة التى ركن القلب اليها، ولعلنا نجد ان شاء الله ضالتنا المنشودة عند سيادتكم .

هذا ولسيدى ورياش رحمه الله حرمة عظيمة عند قبائل قلعية وغيرها من قديم الزمان، يقصد الاهالى زيارة تربته وتربة الشهداء المدفونين حوله لان حول ضريحه كانت تدور المعارك الطاحنة بين الدولة الاسبانية التى احتلت مدينة مليلية سنة 1497 ميلادية وبين جميع قبائل الريف من اكتامة إلى قلعية وقد حاصرها المولى اسماعيل نحو العشرين سنة، وهذا الضريح يقع على أبواب مليلية، وكان كلما استشهد احد من المجاهدين حمل ودفن فى التربة المذكورة لذلك على المقابر القديمة منها مهابة وجلالة، حكى لى الشريف المسمى السيد احمد بن محمادى الورياشى، مقدم الضريح أن الشيخ شعيب الدكالى العالم المغربى الشهير رحمه الله كان فى كل مناسبة يزور ضريح سيدى ورياش والاضرحة القديمة المحيطة به، قال كان اذا وصل فى سيره الى المقابر نزع قدميه من نعليه ومشى فى وسط المقابر حافيا، اجلالا لصاحب الضريح والشهداء المدفونين حوله .

وأشار العلامة الناصرى السلاوى الى شىء من هذا فى الجزء التاسع من كتابه الاستقصا ـ الطبعة الجديدة ـ صحيفة 205 ونصه: وصار الحد المشترك بين الاسبانيين وأهالى قلعية قريبا من تربة ولى الله سيدى ورياش، وهو عند أهل تلك البلاد عظيم القدر شهير الذكر ينتابونه للزيارة ويتبركون به ويدفنون عنده موتاهم الخ هـ، الغرض منه .

---

(1) المثنى (2) السبط .

قلت: ولنا كلام طويل الذيل فى تقييدنا الذى سميناه «الكشف والبيان عن سيرة الشريف الغازى سيدى محمد أمزيان» وأخبار مقاومته هو واخوانه الريفيون لابى حمارة ثم الاسبان فى هذا الموضوع. وقد قيل فى سيدى ورياش أكثر من هذا ولا حاجة لذكر ذلك.

قلت ها هنا مسألة وهى أن عمود هذا النسب لا يتجاوز أفراده المذكورون أحدا وثلاثين بالنبى صلى الله عليه وسلم، وحينئذ لابد أن يكون فى عمود هذا النسب نقص بعض الافراد، الجواب انى لا أبرىء عمود هذا النسب من ذلك، لان الحقيقة فى مثل ذلك اليوم فى منتهى الصعوبة، وللعلماء فى ذلك مقالات مشهورة منها أن الامام الاجتماعى المؤرخ العظيم عبد الرحمان بن خلدون، قال فى الجزء الثامن من تاريخه، انه لا بد لكل مائة سنة من ثلاثة أفراد، الابن والاب والجد، غير أن العلامة سيدى احمد بن عبد القادر القادرى له تقييد فى الموضوع موجود فى الخزانة العامة بعاصمة الرباط تحت رقم 1632، جاء فى صحيفة 7 منه ما نصه: وأما ما نقل عن ابن خلدون من أن لكل مائة سنة ثلاثة أفراد، فليست بقاعدة مطردة اذ قد يوجد أكثر من ذلك وقد يوجد أقل ه منه، وقال الشيخ الاجتماعى الاستاذ الامام الشيخ محمد عبده المصرى رحمه الله فى كتابه «الاسلام والنصرانية» صحيفة 172 ما نصه: أن ما بيننا وبين مبدأ الاسلام لا يزيد عن عمر ستة وعشرين رجلا، كل رجل يعيش خمسين سنة ه منه وقد توفى رحمه الله فى حادى عشر يليز سنة خمس وتسعمائة والف ميلادية (1905).

تنبيه: ان صاحب الدرر البهية قال ان النازل بساحل البحر من قبيلة قلعية هم أولاد سيدى ورياش، وذكر صاحب النثير ان النازل هو سيدى ورياش نفسه ولا مخالفة لان من عبر بأولاده فمراده وورياش الاول، لان هذا لم ينزل بالساحل المذكور وانما نزل أولاده وورياش الثانى هو من أحفاده ومن اسند النزول لورياش فمراده الثانى وهو المدفون فى الضريح المشهور به.

وبعد الاشارة الى جملة من المعلومات المسؤول عنها التى لها علاقة بالموضوع نذكر الآن فرق الورياشيين ومقر كل فرقة من فرقهم فنقول:

الفرقة الاولى: أولاد محمد بن عبد الله بن احمد بن عبد الله بن محمد فتحا بن عبد الرحيم بن على بن يوسف بن ورياش بن عيسى بن يخلف بن ايعيش بن ابراهيم بن ورياش بن عيسى بن عبد الرحمان الودغيرى الى آخر النسب المتقدم، وهذه الفرقة بعضهم فى فرخانة من قبيلة مزوجة وبعضهم فى قرية اثلاث بقبيلة بنى سيدال وبعضهم بفرقة اجزولة بقبيلة بويفرور.

الفرقة الثانية: هم فرقتنا معشر أولاد سيدى علال بن عبد الله بن احمد بن عبد الله بن محمد فتحا بن عبد الرحيم بن على بن يوسف بن ورياش بن عيسى بن يخلف بن عثمان بن ايعيش بن ابراهيم بن ورياش ابن عيسى بن عبد الرحمان الخ... بعض الافراد من هذه الفرقة يسكن بفرخانة وبعضهم بمدشر احواضا بفرقة اجزولة من قبيلة بنى بويفرور، ومنزلنا بها يسمى لصرف.

الفرقة الثالثة: أولاد سيدى العربى بن احمد بن عبد الله بن محمد فتحا بن الرحيم ابن على بن يوسف بن ورياش الخ. أفراد هذه الفرقة قليلون يسكن بعضهم فى منزل اشخيا من فرقة ركانة بقبيلة بنى بويفرور.

الفرقة الرابعة: أولاد سيدى المختار بن احمد بن عبد الله بن محمد ابن عبد الرحيم بن على بن يوسف بن ورياش الخ... مقر سكنى هذه الفرقة فرخانة بقبيلة مزوجة.

الفرقة الخامسة: هم أولاد الفقيه السيد احمد ورياش القاطنون بمدينة شفشاون انتقل جدهم سيدى احمد المذكور الى شفشاون أوائل القرن الثالث عشر، ونسب جدهم المذكور هكذا: هو الفقيه المرحوم السيد احمد بن محمد فتحا بن يوسف بن محمد بن على بن يوسف بن ورياش ابن عيسى الخ...

الفرقة السادسة: أولاد سيدى محمد فتحا بن ورياش المدفون بفرخانة ويعرفون بأولاد حم بن يحيى أولاد سيدى محمد العساوى هم أهل عين اسعود بها يعرفون ويعرف منزلهم الآن بمنزل المرابطين مقرهم فى جبل بنى شكير، فجدهم حم بن يحيى بن بلقاسم بن محمد فتحا بن ورياش الخ ...

الفرقة السابعة: أولاد عبد الله بن حدو مقر سكنى بعضهم بعين اسعود بجبل بنى شيكار وبعضهم بمدشر الحيانا من قبيلة بنى سيدال وبعضهم بجبل ثميمونت بجبل بنى سيدال، فجدهم سيدى عبد الله بن حدو بن احمد بن محمد بن ورياش بن عيسى بن يخلف الخ ..

وبعد ما أطلع سيدنا الفقيه العلامة الجليل الشريف الادريسى الاصيل مولانا محمد بن مولانا الطيب الودغيرى ثم البدراوى نقيب الاشراف الادارسة فى عموم المغرب على تقييدنا «الاحياء والانعاش بذكر أسماء من استوطن قلعية وشفشاون قديما وحديثا من أبناء سيدى ورياش» وسرد عليه وأطلع على مصادره وعلى غيرها من كتب النسابين الموجودة بخزانته التى تعرضت للكلام على جدنا الشيخ سيدى ورياش رحمه الله صرح السيد النقيب بثبوت هذا النسب وصار يخاطبنى ايده الله بابن العم، وعادته أن اعترافه بثبوت النسبة النبوية لمن يطلب ذلك منه صعبة المنال ولا يعترف بذلك لاحد الا بعد التثبت التام، وزاد بان شرفنى حفظه الله بقرار أمر كاتبه وصهره الفقيه العلامة الاديب البارع الاستاذ المدرس بفاس سيدى محمد الازرق فكتبه، ونصه حرفيا :

الحمد لله وحده والصلاة والسلام على مولانا رسول الله وآله وصحبه.

ليعلم الواقف عليه أن حامله الشريف الاصيل العلامة الجليل العضو بمجلس الاستئناف الشرعى بمحكمة الناضور سيدى العربى بن محمد الودغيرى الورياشى، جعلته بوجود سيدنا أيده الله مقدما على عمه الورياشيين باقليم الناضور ونائبا عنى فى التعريف بهم فى الحالة المدنية وغيرها وان اشكل عليه أمر كاتبنى فيه وعليه بتقوى الله فى السر والعلانية والسلام. وفى سادس عشر من جمادى الثانية عام خمسة وثمانين وثلاثمائة وألف، الموافق ثانى عشر اكتوبر سنة خمس وستين وتسعمائة والف محمد بن الطيب البدراوى، وختمه بخاتمه الخاص، بداخله نقيب الاشراف محمد ابن الطيب البدراوى .

وفى الختام أقول لسيادتكم هذا ما أمكن لى الآن جمعه فى هذا الجواب لضيق الوقت وكثرة الاشغال، وحررته فى 10 شعبان 1385 موافق 9 دجنبر سنة 1965 .

من رجال بنى يطفت :

أبو الربيع سليمان الجعونى :

هو أبو الربيع سليمان بن أبى بكور الجعونى .

كان فقيها فاضلا قاضيا عدلا نزيها موفقا فى أحكامه، وليا صالحا، وهو من قبيلة بنى يطفت و ابن عم الشيخ ابى زكرياء يحيى بن أبى بكور الجعونى هكذا أورده فى المقصد الشريف وعليه فليس ابن عم له وانما هو أخ له لان كليهما ابن الحاج أبى بكور والله أعلم.

تحريه للعدل: حكى الشيخ أبو محمد عبد الحق البادسى مؤلف المقصد الشريف المتوفى أوائل القرن الثامن الهجرى أنه قال حدثنى يوما بمجلسه (1) فى مسجده بالبادية (بادية بنى يطفت)، قال كنت نائما فى هذا الموضع فرأيت شخصا دخل على هذا المسجد، ودفع الى وثيقة مكتوبة فى رق، ففتحتها وقرأتها وفى آخرها شهادة شاهد من شهود بقيوة معروف بشهادة الزور، وقد مات الآن وما ينبغى ذكره، قال وعلى تلك الشهادة مكتوب شبه علامة القاضى فقرأته (يعنى مناما) فوجدته حبل جهنم أعنى المكتوب على الشهادة قال فأفقت وقد دخل على فى المسجد رجل بوثيقة بيده فأوقفنى عليها، فرأيت شهادة الشاهد المذكور فبحثت عن أصل المسألة فوجدتها باطلا والشهادة زور .

أشياخه: أخذ عن أخيه (أو ابن عمه) الفقيه العلامة شيخ الطريقة الشاذلية أبى زكرياء وأخذ عن الشيخ أبى محمد صالح الهسكورى شيخ زمانه علما وصلاحا ونزاهة وبآدابهما تأدب .

حياته : كان حيا فى النصف الثانى من القرن السابع الهجرى.

من رجال بنى يطفت أيضا :

الشيخ أبو زكرياء يحيى بن الحاج ابى بكور الجعونى اليطفتى:

هو العالم العلم العارف بالله شيخ الصوفية وامام الطريقة

---

(1) أى مجلس القضاء وذلك لان المسجد كان هو محل التقاضى عند الفقهاء لانه المحل الذى يمكن أن يصل اليه كل أحد .

الشاذلية فى وقته الفقيه النحرير الولى الصالح أبو زكرياء يحيى بن ابى بكور وفى بعض المخطوطات (أبى بكر) الجعونى هو من قبيلة بنى يطفت وله ضريح هناك كان فارس الميدان فى الجدال والحوار بالحجج الاقناعية، فقد حكى خديمه أبو محمد عبد الله بن البيدق انه ورد على الشيخ من سبتة رجل يدعى بابن العجوز، ومعه ولد صغير (وكان الوارد شيخا فى العلم) فلما صلينا العشاء الاخيرة قال (الشيخ يحيى الجعونى) أصعد أنت والصبى على السرير وناما (قال خديمه ابن البيدق) وقعد هو والشيخ الوارد، فقال الاخير للشيخ يحيى ما معنى قوله تعالى «لو كان فيهما آلهة الا الله لفسدتا» فقال له أبو زكرياء، حتى تعلم معنى الفساد وحينئذ نتكلم فى المسألة، قال فما زال يذكر معنى الفساد وهو يبطل قوله الى الفجر فطلينا الصبح وذهب الشيخ الوارد الى بلده، فقلت له يا سيدى لقد أطلت مع الشيخ فى الفساد، فقال نعم لانه جاء معترضا لا مسترشدا .

خصاله ومناقبه: كان صادقا فى الاقتداء بهدى الشريعة معظما لها يدافع عنها بما أوتى من اللسان الفصيح والبرهان الصحيح، ومن صراحته أنه كان له ابن أخ قتل طالبا عربيا كان يسكن عنده فأمر الشيخ بقتل ابن أخيه قصاصا، وتردد قومه فقال لهم لا أسكن معكم بلدا حتى يقتل فقتل فعلا.

حياته: كان يسافر الى الاندلس لاجل الجهاد، فقد حكى عنه فى ترجمة أبى مروان الاندلسى قال كنا معه بالاندلس فى سفر فبتنا فى قرية من قرى البشرات. وكان حيا زمن الشيخ أبى محمد صالح الهسكورى الذى توفى اواسط االقرن السابع الهجرى فقد قال فى المقصد الشريف عند التعريف بابن عمه أبى الربيع سليمان الجعونى انه قرأ عليه وعلى الشيخ أبى محمد صالح. وعليه فان الشيخ أبا زكرياء كان حيا فى النصف الاول من القرن السابع الهجرى.

ومنهم عبد المجيد بن أبى القاسم البادسى:

أصله من قبيلة بنى يطفت من القرية التى يقال لها العرس عرف به فى سلوة الانفاس (2) وقال أصله من الريف من بنى يطفت توفى سنة

---

(2) ج ـ لث ـ ص ـ 107 .

ثلاث أو أربع وألف 1004 هجرية ودفن بفاس قرب الشيخ التاودى.

قال وله كرامات مع القاضى أبى محمد عبد الواحد بن احمد الحميوى .

ومن رجال بنى بوفرح :

أبو عبد الله سيدى محمد بن يحيى :

وهو الفقيه النبيه الصالح البركة النزيه أبو عبد الله سيدى محمد بن يحيى بن سعيد البوفرحى. كان عالما جليلا وشيخا صالحا عرف به صاحب سلوة الانفاس (1) كما ترجم له درة الحجال .

وفاته: توفى رحمه الله بفاس فى تاريخ رمضان المعظم عام 886 ودفن بباب الفتوح .

ومنهم أبو الفارس عبد العزيز :

كان عالما جليلا يدعى عبد العزيز بن محمد البوفرحى .

ترجم له فى سلوة الانفاس (2) وقال كان فقيها صالحا اماما بالقرويين ولد سنة 805 وتوفى فى تاريخ 900 ودفن خارج باب الجيسة.

من رجال بنى كميل :

أبو عبد الله محمد بن الدانوسى :

من تلامذة السيخ أبى داود من قبيلة بطيوة غاب عن بلده بطيوة سائحا فى جبال صنهاجة بحوز بادس، ودخل جبل بنى جميل، وهناك توفى ولم يكن يعلم أحد من سكان بنى جميل بحاله ولا بموته حتى عرف به بعض الصالحين ثمه الذى أطلع على مصرعه .

(هكذا أورده صاحب المقصد الشريف ولعله كان مصرعه فى حرب ولكن لا يعرف مع من كان الحرب هل مع الثائر أبى العباس الكميلى)، وهو مدفون بجبل بنى اجميل أطلع عليه جماعة من الصالحين هناك .

كان المترجم له صالحا، ومع ذلك فقد كان يستعمل لباس العامة

---

(1) ج ــ لث ــ ص ــ 87 .

(2) ج ــ الثالث ص 131 لمؤلفها محمد بن جعفر الكتانى سماها سلوة الانفاس ومحادثة الاكياس، بمن أقبر من العلماء والصلحاء بفاس.

تسترا فيه كي لا يشار اليه بالولاية والصلاح، ومن لباسه كساء صوف ارجواني ويضع على رأسه جلموسا غليضا، ويتقلد بخنجر طويل ومن يلاقيه في الخلاء يعتقد أنه لص أو محارب .

صلاحه: كان يصلى العشاء الاخيرة بوضوء الصبح، وكان يحيى الليل عبادة، حكى الحاج ابراهيم بن عيسى ابن أبى داود قال بات عنده ذات ليلة وكان به صداع فطلب منه حناء وضعه على رأسه، وبعد صلاة العشاء الاخيرة طلبته بأن يصعد على السرير لينام فامتنع، فصعدت أنا وبقى هو متوجها الى القبلة يتأوه تأوه الحزين حتى طلع الفجر، وصليت معه الصبح ولم أره جدد الوضوء .

حياته: وهذه القصة تلقى ضوء على تاريخ حياته فقد كان حيا قبل 650 الذى هو تاريخ وفاة الحاج ابراهيم حفيد أبى داود

من رجال مسطاسة :

أبو عثمان الحاج سعيد المسطاسي:

مسطاسة قبيلة بجبال صنهاجة غربى بادس وهى تجاور بنى اكميل لجهة الغرب على ساحل البحر.

وكان هذا الشيخ من صلحائها الافذاذ الذين طلقوا شهوات الدنيا، وعاش رحمه الله على أكل النباتات معرضا عن الطعام، وقد حدثت زينب بنت احمد بن الخضر الخزرجى الاندلسى المتقدمة الترجمة، وكانت هذه المرأة عجوز صدق وراوية للاخبار، وكان الشيخ المذكور صديق أبيها، قالت ذات ليلة كنا نائمين في منزلنا ببادس فطرق الباب طارق في جوف اليل، فخرج أبى ثم رجع وقال لامى قم فاصنع طعاما، فان هذا ولى فقالت لا أصنع له شيئا قالت ولم يكن عندنا غير شعير فأوقد الشيخ (أى أبوها) النار، وسخن الشعير وطحنه بيده وصنع منه طعاما، فلما وضعه بين يديه قال له يا فقيه أما علمت أن لى ثلاثين سنة لم أذق فيها طعاما عقدا عقدته على نفسى لا يمكننى حله.

حياته:كان متصوفا سائحا في البرارى متجردا للعبادة، كان معاصرا للشيخ احمد بن الخضر الخزرجى الذى توفى عام 615 هـ. وعليه فانه كان حيا في أواخر القرن الخامس .

من رجـال مثيـوة :

الشيخ أبو يعلى : الفتوح بن أبى بكر المثيوى المروانى:

كان شيخا ظاهر الغناء الا أنه صحيح الباطن صادق الاقوال معتدل الاحوال كثـير الانبسـاط .

وهو من سكان المحل المعروف بازغت بقبيلة مثيوة، لا زال ضريحه موجودا يقصده الزائرون بشاطىء البحر .

مكاشفـاتـه : قيل أنه بات عنده مرة جمع من الناس مروا عليه فى ذهابهم للحج وهم من المصامدة، فكان فى طبع رئيسهم شراسة فأعلمه الشيخ أبو يعلى بذلك وقال له ان فى طبعك شراسة وقحة فاربأ بأصحابك، فكان ذلك مما سرى فى الحجاج كما كان فى هذا الجمع رجل أصحب معـه مسكرا فى جراب له، فقال له الشيخ ارجع ولا تفعل ما جئت بسببه ففتش جراب الرجل فوجد فيه مسكـرا .

حيـاتـه : كان حيا فى زمن ابى يعقوب البادسى الذى توفى عام 734 هجرية، وعليه فانه كان حيا أوائل القرن الثامن الهجرى .

ومن صلحـاء الريف:

أبو عبد الله محمد الريفى:

هو السيد محمد بن عمر الريفى، عرف له سلوة الانفاس فحـلاه بوصف الفقيه الاستاذ النبيه الصالح البركة النزيه أبى عبد الله سيـدى محمد بن عمر الريفى، كان رحمه الله أول أمره من اللصوص، ثم تاب الله عليه فدخل مدينة شفشاون، وقرأ بها القرآن وجوده برواية السبع ثـم انتقل الى جبل العلم (ببنى عروص الجبلية) وصار يقرىء بها الطلبة ثم ذهب الى فاس، فكان يقرىء الطلبة القرآن بمكتب جامع أبى ابيـاض، وكانت له كرامات ومواضبة على التلاوة توفى بالطاعون سنـة 1271 هـ. ودفن بهذا الضريح قريبا من سيدى محمد العايدى. ولا يعرف أية قبيلـة ينتمى اليهـا .

ومنهـم أبـو على عمـر الطنجـى :

من صلحاء الريف، كان لين الخلق ذا خلق حسن، ملازما للطاعـة

ليل نهار، غازيا فى سبيل الله بالاندلس وهو الذى وقعت له قضية الكـــلاب البوليسية فى الاندلس، فقد حكى أبو العباس احمد الزهيلى عنه قال توجهت (المترجم له) الى الاندلس غازيا، فخرجت فى سرية فدهمنا جيش عظيـــم فأسر من السرية أكثرها، واستخفى بعضهم، وكنت من استخفى فى شظية غير ساترة كانت رجلى بارزة منها وما قدرت الا أنى مأسور قال فكانـــت خيل الروم تمر بى فلا يرانى أحد منهم، ووقف بالقرب منى جماعة ولهم كلاب ارسلوها للبحث، قال فلقد أتت تلك الكلاب حتى لحست قدماى، ثم انصرفت عنى فسترنى الله، وكنت أقرأ سورة يس فلما جن الليل خرجت ومشيت فيسر الله على فى اللحوق ببلاد المسلمين .

حيـــاتـــه: ومن حكاية أبى العباس احمد الزهيلى يتبين أنه كان حيا أوائل القرن الثامن الهجرى، وانه كان من صلحاء بادس .

ومن رجـــال الريـــف أيضـــا:

الشيـــخ الحاج أبو العباس الغمـــاز :

وهو احمد بن محمد بن عبد الله الغماز، وهو أخو الحاج الفقيـــه أبى يعقوب يوسف الغماز المتقدم الترجمة، كان صالحا فاضلا منقطعـــا عن الخلق لعبادة الله، مغتربا مجاورا فى مكة المكرمة والمدينة المنورة سنين عديدة، ثم رجع الى الريف ورجع الى الحجاز أيضـــا .

وهو أصغر سنا من أخيه أبى يعقوب .

وكان فى مكة يتعبد ويقتات من كديده باحترافه الخياطة، وقـــد بقى هناك أولا سنتين كما ذكر ثم رجع الى بادس فأقام بها الى أن توفى هناك رحمه اللـــه .

وقد كان حيا زمن أبى محمد عبد الحق بن اسماعيل مؤلف المقصد الشريف الذى كان حيا بتاريخ 722 هـ. حكى عن عجوز ببرقة، قال كنا فى جمع من الحجاج، فأتينا الى بئر بهـــا فلم نجد دلوا عليها، وكانت معنـــا عجوز صالحة فحاولت أن وصلت فى ركوتها خيوطا كانت عندها وادلـــت الركوة فى البئر، وأظن أنه قال فى ماجل، والماجل هو الجب، قال فلما همت برفع الركوة انقطع الخيط وبقيت الركوة فى الماجل قال فرفعت العجـــوز طرفها الى السماء وقالت اللهم رد على ركوتى، قال فأرسل الله السمـــاء

بماء وابل جرت منه التلاع الى الماجل، فامتلاءت من حينه وصعدت الركوة على وجه الماجل، فأخذتها وأخذنا حاجتنا من الماء، وانصرفنا معترفين بفضل العجوز مع تعجبنا من صلاحها .

ومــن الشرفــاء أولاد داود :

وجدهم هذا ينتسب الى عيسى بن يوسف بن عبد الغفار من ذرية حمزة بن داود بن مولاى ادريس رضى الله عنه والله أعلم .

ونزلوا فى قبيلة قلعية، ولهم أخوة على فروع، منهم فرع فى القرية المدعو بتمايين بقبيلة بنى سعيد الريفية وكانوا يدعون ببنى تميت بفتح التاء والميم المشددة وسكون الياء والتاء وهى كلمة بتمزغت، ولذلك يجمع فيها ساكنان، ولهم أخوة نزحــوا من هذا الفرع الاخير ونزلــوا فى بنى بوعياش بقرية امنوذ، بفتح الهمزة وسكون النون وضم النون وسكــون الدال ويدعون الى الآن اعبدونا أى أولاد عبــدون .

ومن فروعهم الاصلية بنو بوستة النازولن بقبيلة بنى بوعيــاش، من بنى ورياغل، وهم فى أسفــل جبل حمــام قرب قرية بنى بويخلــف وينتسبون الى عيسى بن يوسف بن عبد الغفار المذكور .

وفى أوائل القرن الرابع عشر الهجرى كــان فيهم رئيسهم السيد الحاج امحند البوستاوى وكان مسموع الكلمة شجاعا واسع الثرى نسبيا الا انه كان غليظ الطبع ثقيل المزاح، يحكى أنه قصــده ذات مرة شــرفاء زاوية سيدى يوسف لاصلاح ذات البين مع الحــاج محمد الربضــاوى فى شأن قتل خطا وقع من بعض أولاد الاخير لاحد أولاد الاول، وحملوا اليه الدية والذبائح، ولكن الحاج امحند امتنع من قبول الوساطة بل أخذ الدية وفرقها على أعداء الحاج محمد الربضاوى للانتقام منه، ومن ذلك التاريخ لم تقــم له ولذريته من بعده قائمــة واندثرت سمعتــه وتفــرق أولاده شــذر مــذر .

ومن شرفــاء قبيلــة بنى سعيــد :

المعروفون بأولاد ادريس الذين نزلوا أول ما نزلوا بجهة أمجاو على وادى كرط، وهم من ذرية عبد الحق بن عبد الرحمان بن السكناوى، وهم من فخذة مولاى عبد السلام بن مشيش وأخوة للشرفاء الغلبزوريين

الساكنين ببنى ورياغل، الذين من حفدة العالم الشهير أبو ابراهيم الاعرج المتقدم الترجمـة .

ومن شرفاء القبيلة المذكورة أولاد سيدى عبد الجبار وهم كذلك أول ما نزلوا بنواحى امجاو بقبيلة بنى سعيد ولهم أخوة بالقصر الصغير بأحواز تطوان، وكان يعرف فى التاريخ بقصر مصمودة وجدهم جميعا يدعى سليمان بن على بن محمد بن عبد الله بن سيدى حمزة بن مولاى ادريس والله أعلـم .

ومن شرفاء تلك القبيلة ايضا أولاد عبد القوى كانوا نزلـوا أول ما نزلوا بالجهة الغربيـة الموالية لقبيلة تمسامان، واسم جدهـم على ابن احمد بن محمد من حفدة سيدى محمد بن مولاى ادريس والله أعلم.

ومن الشرفاء أيضا هناك أولاد بومدين نزلوا أول ما نزلوا ببنى سعيد على وادى كرط ويرجع نسبهم الى عيسى بن عمر بن سعيد مـن ذرية يحيى بن مولانا ادريس والله أعلم، ومنهم أيضا الشرفاء أولاد الفقيه وهم كانوا نزلوا فى وادى الدفلة من القبيلة المذكورة وهم ذرية أبى زيد على بن زيد من ذرية عيسى بن مولاى ادريس رضى الله عنه والله أعلم.

ومـن الصلـحـاء :

الشيخ أبو طاهـر بن العـلام:

هو من رجال الريف، ولكن لم نعثر هل هو من أهل بنى ورياغل أو فى تمسمان أو بقيـوة .

وانما وجدنا انه كان يتردد على رباطة أبى داود التمسمانى، قال الحاج سليمان الورياغلى حسبما فى المقصد الشريف اجتمعنـا يوما مـع الشيخ أبى عبد الله اليستثنى (تقدم أنه من تمسامان) فى رباطة أبى داود (وهو من تمسامان) وأبو طاهر حاضر فقال له الشيخ أبو عبد الله ما بال خبز مالقة وتينها، فقال له أبو طاهر تتعرض على بذلك يا أبا عبد الله، ثم غاب يسيرا فأحضر بين أيدينا خبز مالقة وتينها .

ومن هذه العبارة يتضح أنه كان ساكنا قرب رباطة ابى داود التى هى على خمس فراسخ من المزمة التى فى بنى وريـاغل .

ومن جهة ثانية فاننا نجد أن الشيخ الزكى الولى المرضى أبــا زكرياء بن مخلوف اليفرانسى البقيوى يقول: جئت أنا وأخى من المنزل المعروف ببنى أبى عمر، فلما قربنا من منزل الشيــخ أبى طاهر قلــت لاخى وكان أسن منى مل بنا الى زيارة الشيخ أبى طاهر، فقال لى أخى لا أزوره فملت أنا وقلت لابــد لى من زيارته، فلمــا رآى أخـــى عزمى وافقنى فبلغنا اليه فوجدناه فى المنزل يطعم أضيافا له، فلما ناديته قــال لى ادخل فدخلت فوجدته قائما وبيده أناء فيه سمن وهو يصــب السمن على الطعــام .

كما حدث عنه الشيخ أبو عقيل وهو من قبيلــة بنى توزين كمــا أسلفنا،، وقال اعتــدى يحيى بن الوزيــر الوطاسى على قوم فظلمهــم فاستنصروا بأبى طاهر وطلبوا منه أن يمشى معهم اليه ليرفع ظلمه عنهم، فأجابهم، فتوجه اليه فلمــا كان فى بعض الطريق قــال الشيخ أبو طاهــر لاصحابه ارجعوا بنا، فان الرجل قد قتــل، فقالوا له بماذا عرفت، فقــال ما زلت من منذ خرجت من منزلى أراه أمامى، فلما كان فى هذا الوقــت فقدته فرجعوا ثم وصل الخبر بموتــه .

وعليه فان المصادر التى رجعنا اليها لا تذكــر شيئا عن مسقــط رأسه، ولا اين مات، ولكن هو من طلحاء الريف الاوسط، وكان رجلا صالحا كريما ذاكرا ساعيا فى الخيرات، قاضيا لحوائج المحتاجين، كما لا نعــرف شيئا عن تاريخ حياته، الا ما يوخذ من اجتماعه برباطة ابى داود مــع الشيخ ابى عبد الله اليستثنى وهو كان حيا تاريخ أواخر القرن السادس كما تقدم فيكون هذا الشيخ حيا فى ذلك التاريخ .

من رجــال بنى ورياغــل :

محمد بن أبى بكــر :

وهو محمد بن أبى بكر الفقيه عبد الله خطيب المزمة، كان رجلا صالحا وعالما متصوفا وهو من رجال مدينة المزمة، كان يصاحب أبا طاهر بن العلام الشيخ البركة ويحكى عنه كرامات كثيرة.

حياتــه: كان حيا زمن أبى طاهر المذكور الذى كان حيا أواخــر القرن السادس الهجــرى .

ومنهم الحاج سليمان الورياغلــى :

وهو من تلامذة الشيخ أبى عبد الله محمد اليستثنى وكان رجلا صالحا متصوفا يصاحب الشيخ المذكور، ويحكى عنه كرامات .

حيـــاتـــه: كان حيا فى اوائل القرن السابع عشر، على ما يستفاد من تاريخ حياة الشيخ اليستثنى .

الشيـــخ أبو عمـــران موسى عبد السلام:

كان من أهل تفرسيت وقد حكى عنه مؤلف المقصد الشريف أنه قال جزت فى سوق تفرسيت ومعى أثواب أبيعها، فقعد الى جانبى وخطر لى أن أدفع كنبوشا (خرقة) برسم أهله، فترددت ثم دفعته، وبعد حـــين جلست مع صهره أبى سعيد عثمان بن داود، فقال لى حدثنى الشيـــخ أبو عمران أنه كان على نية شراء الكنبوش ولكن ليس عنده ثمن، فاستحيى أن يشترى بالدين فدفعته اليـــه .

كان من تلامذة الشيخ اليستثنى، وهو من المتصوفين المرضيين، حج بيت الله الحرام، وكان ملازما للشيخ المذكور وكان حيا أوائل القرن السابع وعند ادائه الحج لقى ابن دقيق العيد، وتلمذ له وانتفع بعلمه، وهو ابن أخت الحاج أبى عبد الله سليمان أحد صلحاء مكناســة .

ومن رجـــال بادس أيضـــا:

الشيخ أبو على الحسن بن هنـــا:

وكان رجلا صالحا، عمر طويلا وحج بيت الله الحـــرام .

حكى عن الشيخ أبى الحسن المراكشى أنه قدم من مرسى هنين فى قارب للتاجر محمد بن ادريس وابن عمه الرئيس يوسف المعـــروف بالبحـــرى .

ومنهم الشيخ على بن محمد النعجة:

وهو على بن محمد النعجة الزهيلى .

كان رجلا صالحا يؤم بمسجد المقبرة ببادس، وكان يأكل مـــن كديده محترفا حرفة تاجر بزاز ببادس وكان يصاحب الشيـــخ أبا الحسن المراكشى، حتى كان يظن أنه من محترفى الكميـــاء .

ومنهم الشيخ أبو اسحاق ابراهيم النعجة:

كان من رجال بادس وهو شيخ صالح وهو من أولاد الشيخ علي بن محمد النعجة المتقدم الترجمة كان حيا زمن أبي الحسن المراكشي.

ومن الرجال الصلحاء:

أبو عبد الله المفرد :

كان مستجاب الدعوة زاهدا ورعا محببا اليه الخلوات، كان رحمه الله صاحب مكاشفة وكرامة، اشتهر بهما من بين أهالي عصره، وكان موثرا لذوي الحاجات، ومع ذلك فقد كان كريما لا يمسك له شيئا .

وقد قال أبو محمد عبد الحق بن اسماعيل في حقه من أبيات قوله:

فنجومه بالصالحات طوالع ورياضه بالمكرمات (كذا)

ولم نعثر على أي موطن ينتمي اليه، وكذلك لم نعثر على تاريخ حياته أو وفاته ولا أي موضع دفن فيه.

ومنهم أبو محمد عبد الله الطويل المعروف بسبحان الله:

كان من أهل فاس ثم ارتحل الى بادس، وكان من المنقطعين الى عبادة الله، ومن المداومين على التسبيح حتى عرف بسبحان الله، ولزمه هذا اللقب لزوم اسمه الشخصي .

وكان عندما يخيط ثوبه بيده يقول عن كل غرزة سبحان الله، قال الشيخ أبو عبد الله محمد الصبان أنه حدثه الشيخ سبحان الله في ذلك، فقال كنت في مصر فوضعت ثوبي عند بعض المشايخ الصالحين (للغسل كما يظهر) فلما أخذه ونشره قال يا عبد الله عاينت هذه الغرزة وحدها، لم تقل عليها سبحان الله، فان كل غرزة من هذا الثوب مكتوب عليها سبحان الله، الا هذه واشار بيده اليها .

ومن مناقبه ما حكاه الحاج علي الاندلسي قال قال لي عبد الله تهت يوما في الشام، فاسندت الى حائط فتبعني رجل، وقال اني ورفيقي لصان رميناك بسهمين اثنين لنقتلك، وتقدم صاحبي قبلي اليك فسقط ميتا، ولما رأيت ذلك تبت الى الله، فحمل صاحبه الميت ومتاعه وسلاحه فنجاني الله .

هذا واننا لم نعثر على تاريخ حياته ولا وفاته ولا مدفنــه .

ومنهم الشيــخ أبو عمران موسى بن عيسى الطرطور :

سمى طرطورا لانه كان أصم، وكان فى الشام يدعى البربــرى انطرطور، وهو من الصالحين الذين يدفع عنهم الله كــل الشرور، وقــد استفاض عنه فى هذا الباب انه كان مرة فى الشام جالسا تحت علية (غرفة) فحمل حزامه وكان فيه مال مقداره (40 درهما) وقيراط، وكانت امــرأة تطل عليه من العلية فرأت عدها، فنزلت اليه وتعلقت به وطالبته بالدراهم، مدعيــة أنها لها، فترافعا الى الوالى، ولما استفسرها عن حاجتها ذكــرت المقدار بالتدقيق، فلم يشك الوالى انها لها، فأمر بضرب المغربى، ولما هم الجلاد بضربه انحبست يده، وحينئذ شــدد الوالى على المرأة فاعترفــت بفعلتها، واطلق الشيخ وطلب منه العفــو .

لم نعثر على تاريخ حياته ولا تاريــخ وفاته الا أنه لما سئــل (بالاشارة) عن حبس يد الجلاد، قال أنه رأى الشيخ اليستثنى قابضا يده، مما يدل على أنه عاش فى تاريخه أو بعده بقليــل .

ومنهم أبو محمد بكــار:

وهو معروف ببكار بن الحاج من أهل اسكرام قرية بقبيلة بقيوة، وهو من أولاد على بن حمد .

كان رحمه الله ضعيف الحال، ومع ذلك كان ملازما للعفاف، وكان ذا كرامات، حكى الشيخ اسماعيل بن احمد الخزرجى قال بت ليلة بمنزل أسكرام عند رجل من أصحابى يعرف بسليمــان بن ادريس، فأصابنــى مرض شديد، وأصبحت فى غاية من الضعف، فارتحلت قاصدا بيتى ببادس، فقلت فى الطريق انما يصلح حالى ويزيل مرضى مرق فلوس لو شربتــه، ولكن استدركت فى نفسى فقلت هنا جاء المثل القائل طلب الشهــوات فى الخلوات، قال فمررت بدار الشيخ أبى محمد بكار لازوره، فلما ناديتــه باسمه خرج الى بآنية فى يديه فيها مرق فلوس، فقال لى اشرب هــذا فانه يوافقك من غير أن يتعرف عند النداء من أنا، قال فقضيت العجــب ومن هذه القصة يستدل على تاريخ حياته لما تقدم من ان اسماعيل كان حيا فى القرن السابع وتوفى فى 685 هجرية .

ومن رجال تــرغــة :

الشيــخ أبو عبد الله البرانصـــى :

وهو من أهالى ترغة، كان صالحا تقيا ذا كرامات محببا اليه شرب العسل، وقد روى عنه الشيخ أبو العباس احمد بن يحيى الزهيلى، قال قال لى أبو عبد الله البرانصى يجب على كل مبتدأ (يعنى فى طريق القوم) أن لا يغتر بما يراه من الكرامات، فقد يكون ذلك من مكر الشيطان .

ومن مناقبه رحمه الله أنه حكى عنه الشيخ أبو العباس المذكور، أنه قال له ذات ليلة أصبت بجنابـــة فلم أجد الماء فى الدار للاغتســـال، فخرجت الى عين بين جرفين، وهى عميقـــة بينهما فاقتربت منها فرأيـــت الجرفين كأنهما مطبقان على، فعلمت أن ذلك من الشيطان يريد أن يخوفنى، فاستعدت بالله فقلت يا شيطان افعل ما بدا لك والله لا أبرح حتى اغتسل، فرجع الجرفان كما كانا، فاغتسلت وانصرفت .

ومما يحكى بعد موته عن حبه للعسل أن السكان شاهدوا النحل وهى تسكن فى قبره وفرخت العســـل فيه .

ترجمـة ابـى يعقـوب البـادسـى

ننشر هنا مخطوطـا فى مناقب أحد الافذاذ فى أواخـر القرن السابع، وأوائل القرن الثامن الهجـرى وهو أبو يعقـوب البادسى الذى قال فى حقه ابن خلدون ، أبو يعقوب البادسى أكبر الاولياء، وآخرهم بالمغـرب .

وذكره لسان الدين ابن الخطيـب فى كتابه «انتفاضـة الجراب» فقال أنه ولى الله تعالى، ووصفه بأنه الامـام الكبـير والعارف الشهـير .

وناهيك أن مؤلف المخطوط هو قاضى الجماعـة بفاس، أبو محمد عبد الله الاوربى .

وتظهر قيمته التاريخية من عرضه بأسلوب مبسط للحياة العامة فى ذلك العصر حيث أتاح لنا التعرف على الحياة الاجتماعية فى ذلك التاريـخ .

كتاب مناقب ابى يعقوب الزهيلى البـــادسى
الــمــتــوفى عــام 734 هـ.

بسم الله الرحنم الرحيم وصلى الله على سيدنا محمو وآلــه وصحبه وسلم تسليمــا .

قال الشيخ الفقيه المحقق الاثبت الامنى الازكى، القاضى الاعدل أبو (1) محمد عبد الله بن محمد الاوربى، رحمه الله تعالى ورضى عنه آمين، بالله أستعين وعليه أتوكل، ومنه أطلب العون على ما ارومه من جمــع ما سمعته منذ قدمــت على مدينة بادس، حرسهــا الله تعالى وكلأها، من أحوال قطب زمانه ونسيج وحده وشيخ أوانه، الشيخ الولى العارف العامل المنقطع لله تعالى، أبى يعقوب يوسف بن محمد الزهيلى، رحمه الله ونفع به فى حال بدايته ونهايته، وكيفية نشئته وقراءته، وذكر شيوخه وافادته فى علمى الظاهر والباطن .

---

(1) ترجمة المؤلف محمد عبد الله بن محمد الاوربى :

هو الشيخ الفقيه الجليل الصدر العظيم الوجيه العالم المفتى، قاضى اجماعة بفاس، أبو محمد عبد الله بن محمد بن عبد الله الاوربى.

وكان فقيها فاضلا عارفا بعقد الشروط، قاضيا نزيها قريب الغور بعيد الشأو، حسن الظن، محبا فى الصالحين، يذكر كراماتهم واحوالهم، عارفا بأحوال أهل زمانه خاصة وعامــة، وتواريخهم وانسابهم، كثــير الحكايــات فى مجالســـه .

تلامــذتــه: أخذ عنه الشيخ سيــدى يحيى السراج الكبــير، وأبو الوليد اسماعيل ابن الاحمر، وأورده فى فهرستيهما، وغيرهما ولــه فتــاوى فى المعيــار .

ولادتــه ووفاتــه: ولد عام 701 وتوفى ليلة الاثنين 16 ذى القعدة عام 782 وذكر ابن الاحمر ان وفاته بفاس .

وبعض أحواله فى رحلته الى المشرق، واذكر من ذلك ما تظافر الجمع الغفير على نقله، أوما سمعت ممن اثق بدينه وعدله، وقصدى تقييد ذلك وجمعه، استدرارا لرحمة الله سبحانه، لما جاء عن العلماء، انهم قالوا عند ذكر الصالحين تنزل الرحمة، ولاشك ولاخفاء أن ذكر الصالحين، وذكر أحوالهم، بحكاية مناقبهم، ومعاملتهم لله تعالى، مما يرق القلب ويزيل قسوته، وتلك الرأفة هى علامة نزول الرحمة، فنسأل الله جل وعلا أن يمنحنا مما منحهم، ويرزقنا مما رزقهم، بمنه وفضله انه ولى ذلك، والقادر عليه، ولا حول ولا قوة الا بالله العلى العظيم، وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد نبيه الكريم، وعلى آله وصحبه وسلم تسليما.

ذكر نسب الشيخ ومولده ووفاته وشيوخه وقراءته ونبذ من أحواله فى حال بدايته، رضى الله عنه ونفعنا به آمين .

هو يوسف بن محمد بن عبد الله بن علال بن منصور بن سعيد ابن عبد الله بن سعيد بن تميم الزهيلى، وولد رحمه الله ونفع به يوم الثلاثاء السابع عشر من شهر الله ذى الحجة، من عام أربعين وستمائة، بالدار التى كان بها سكناه ببادس المحروسة، وتوفى رحمه الله نصف ليلة الثلاثاء الحادى عشر شهر الله ربيع الآخر، عام أربعة وثلاثين وسبعمائة، وذكر لى أنه كان يقول ولدت يوم الثلاثاء ويعلم الله يوم الثلاثاء أموت فكان كذلك .

أمير مدينة النكور يبحث عن الفقيه عبد المالك بن حبيب :

حكى عن الثقات ان الفقيه عبد المالك بن حبيب قدم على بلاد الريف، فكان بها خائفا مختفيا اذ كان أمير بلد النكور يبحث عليه فاستقر عند أسلاف الشيخ، بموضع يقال له بنو خالص فآووه واسكنوه فى بيت هو الآن بان لم يتغير منه الا سقفه، وأهل ذلك الموضع يتبركون بذلك البيت الذى كان به سكنى الفقيه عبد المالك المذكور رضى الله عنه .

بعد أن كان بعض أهل تلك الجهات طردوه عن أنفسهم فبقى عند اسلاف الشيخ مكرما ملحوظا الى أن انصرف عنهم، فدعالهم، وقال بجدى الشيخ سيدى ابى يعقوب جعل الله البركة فى عقبك الى يوم الدين، ودعا على أوئك القوم الذين طردوه، كان أمرهم بعكس ذلك، وكان الشيخ

سيدى أبو يعقوب رضى الله عنه يقول، وجدت بركة الشيـخ أبى يحيى اجروم، حملنى اليه والدى وأنا صغير، فوضع يده على رأسى، وقال لـى رزقك الله العلم والعمل به وحدثنى من اثق به أن الشيخ رضى الله عنـه قال لما دخلت الكتاب كنت اذا وضعت اللوح من يدى اسمع شعرة بمقدم رأسى، تقول الله الله الله، لا تزال كذلك حتـى أرجع الى لوحى، وقـرأ الشيخ القرآن على المعلم الصالح اسماعيل بن احمد الخزرجى، فحفظـه وجوده بحرف نافع، وفى العربية واللغة والادب على الاستاذ ابى القاسـم الاندلسى، وحدثنى غير واحد أن الشيخ كان يقول حين يزور قبر سيدى ابى على الطنجى، المدفون فى المصلى خارج بادس، الذى يقال عنـه انـه قطب قرأت على هذا الشيخ العربية، وقرأ الشيخ سيدى أبو يعقوب الرسالة أيضا، وتهذيب البرادعى على الشيخ العالم الولى أبى زكرياء، هذا قـرأ بقرطبة أربعين سنة، ثم رجع الى الريف، فظهر له علم جم، وولاية وأحوال صالحة، حدثنى عن سيدى أبى يعقوب أنه قال، كنت أسوق الماء، لسيدى ابى زكرياء لوضوئه أيام قرائتى عليه، فكنت اذا اتيته ليلا بالماء، أجـد فى بيته نورا ساطعا، وقرأ الشيخ أيضا سيدى أبو يعقوب ببادس تهذيـب البرادعى على سيدنا الفقيه العالم الولى المجاب الدعوة أبى ابراهيـم اسحاق بن يحيى الورياغلى الاعرج، ثم رحل معه من بادس الى مدينـة فـاس، وسكن بمسجـد سيدى ابراهيـم. المحمل على الصابة الكائـن بقصر البليدة، بالغرفة التى بقبلى المسجد المذكور، وتفقه عليـه مـدة وقرأ أيضا بمدينة فاس موطأ مالك، رحمه الله تعالى ورضى عنه، على قاضيها وامام الفريضة بجامع القرويين ابى جعفر احمد بن الشيخ الفقيه العلامة امام الفريضة بالجامع المذكور أبى عبد الله المزدعى، حدثت أن ولى الله تعالى سبحانه أبا البركات الطراز من أهل فاس، وكان رجلا معمرا، قد زمن وعمى فى آخر عمره قال للحاج محمد التسولى سلم على الشيخ أبى يعقوب، وقل له الامارة بينى وبينك انطفاء الصبيحة فى مجلس الفقيه أبى جعفر المزدغى، قال الشيخ التسولى فجئت الى الشيخ، وقال له ذلك فتبسم، وقال لى رد عليه السلام، فلما رجعت الى مدينة فاس، دخلت عند سيدى أبى البركات، فقلت له سيدى أبو يعقوب يسلم عليك، وقد بلغته الذى قلت لى، فتبسم، وقلت له سيدى أخبرنى بخبر الصبيحة،

فقال لى سر أولياء الله لا يفشى، وهم احياء، قال فسكت، وانصرفت، فلما مات سيدى أبو يعقوب دخلت عند سيدى ابى البركات، فتذكرت القضية، فقبلت يده، وقلت له يا سيدى سألتك بالله الا ما أخبرتنى بقضية الصبحية، وقد مات سيدى أبو يعقوب، قال فتبسم، وقال ما أكثرك تبحث كنت جالسا فى مجلس الفقيه ابى جعفر المزدغى، والشيخ أبو يعقوب بازائى، فاذا بالصبحية التى يقدؤ اليها القارىء قد انطفأت، فلم يجد القارىء ضوءا يقرىء اليه، فاذا بنور قد استنار من الشيخ أبى يعقوب، وعم على الصبحية حتى قرأ اليه القارىء، هذه قصة الصبحية، قال مؤلف هذا الكتاب، رأيت فى لطائف المنى فى مناقب الشيخ أبى العباس المرسى، وشيخه ابى الحسن، قال الشيخ أبو الحسن الشاذلى رحمه الله تعالى ورضى عنه، لو كشف اليسير من نور المومن العاصى لطبق ما بين السماء والارض، فاذا كان المؤمن العاصى كذلك، فما ظنك بنور المومن المطيع، فلو كشف الحق سبحانه عن مشرقات أنوار قلوب أوليائه، لانطوى نور الشمس والقمر فأين لنور الشمس والقمر من أنوارهم، الشمس والقمر يدخل عليهما الكسوف والغروب، وأنوار قلوبهم لا كسوف لها ولا غروب، قال مؤلف هذا الكتاب، كنت أزور الشيخ الولى سيدى أبا البركات الطراز قبل موته بالصفارين القدماء من فاس المحروسة، وأتردد اليه وأتبرك به، وكان بى فى قلبه موضع والحمد لله وشاهدت منه الكرامات كثيرا، وحضرت دفنه بالجيزيين، قال مؤلف هذا الكتاب غفر الله له .

رجوعه من فاس الى بادس :

وبعد ذلك رجع الشيخ سيدى أبو يعقوب من مدينة فاس الى بادس، وقد حصل من العلم الظاهر جزءا عظيما، وظهر عليه خير عظيم، ولاحت له بوارق الحق فاعتزل بنفسه بالرابطة التى على ساحل البحر خارج مدينة بادس، وهى التى ادخلت الآن بدار الصنعة، واخذ فى المجاهدة والعبادة والانقطاع الى الله تعالى .

شيوخه فى علم الباطن :

هؤلاء شيوخ سيدى أبى يعقوب فى علم الظاهر :

واما اشياخه واستاذه فى علم الباطن، وطريق الارادة فامام الطريقة وشيخ الحقيقة الولى العارف الكبير أبو الحجاج يوسف الاقصورى، من الاقصور قرية من قرى قوص، وله هناك زاوية عظيمة، وتلامذة بالبلاد كثيرون، حكى لى غير واحد ان الشيخ سيدى أبا الحجاج الاقصورى، لما حضرته الوفاة قال له اصحابه يا سيدى من يجلس للناس مكانك، فقال لهم ان الله سبحانه استخلف عوضا منى صبيا بأقصى المغرب، اسمه يوسف بن محمد، بمدينة على ساحل البحر يقال له بادس، وهو الآن من أربعة أعوام، وفى هذه السنة يأخذ المكتب، فاذا كان أوان تربيته فلينصرف اليه احدكم، ويربيه وينهج له طريق الارادة، حدثنى الحاج ابو العباس احد الكماد قال سمعت سيدى أبا يعقوب يقول، رأيت فى المنام فى بداية أمرى، كأنى مت ثم ردت الى روحى، فاذا أنا بثلاثة رجال فى زى الفقراء الاعجام، قد خرجوا الى من البحر، ووقفوا على، ثم جاءنى أحدهم، وقال لى مرحبا بمن كان ميتا فأحييناه، وجعلنا له نورا يمشى به فى الناس، قال فقلت له يا سيدى من أنت، قال فقال لى أنا أبو الحجاج الاقصورى، قال الحاج المذكور، فلما توجهت الى البلاد دخلت الاقصور، ثم جئت الى مصر، واجتمعت مع سيدى كمال الدين حفيد سيدى أبى الحجاج الاقصورى بزاوية بمصر، وذكرت له انى من بادس، سألنى عن سيدى أبى يعقوب، فذكرت له عن الرؤيا التى حدثنى بها سيدى أبو يعقوب الى أخرها، فقال سيدى كمال الدين وقال له سيدى أبو الحجاج وان الله قد استخلفك مكانى، قال الحاج احمد، فقلت لسيدى كمال الدين ياسيدى ما سمعت أنا ذلك منه وانما سمعت الناس يقولونه قال فقال لى سيدى كمال الدين، أنا سمعته من سيدى أبى يعقوب فى تلك الخلوة يشير الى خلوة كان ينزل بها سيدى أبو يعقوب حين توجه الى الحج، قال الحاج احمد، وسيدى أبو يعقوب بالبلاد مشهور، كما هو هنا بالمغرب، قال مؤلف هذا الكتاب، حدثنى أبو عبد الله محمد بن على بن مغيث، قال سمعت سيدى أبا يعقوب يقول يعلم اللله من يرد الله أن يشهره ما يقدر فى نفسه بشىء، كنت حين سافرت الى المشرق أخفى نفسى غاية، وأركب حمارا اشتريته بدينارين غير ربع، وكان يصلى بنا فى الركب رجل من أهل الركب، فاذا برجل يقول

للناس ما نصلى الا خلف صاحب ذلك القيطون، فانى رأيت نورا ساطعا يصعد من قيطونه، قال فاشهرنى عند أهل الركب، بعد أن كانوا لا يعرفوننى
قال مؤلف هذا الكتاب، رأيت فى كتاب مناقب الاولياء وكرماتهم لسيدى الولى الكبير أبى الحسن على بن محمد المراكشى، قال سكنت بقوص مرة فذكر لى عن رجل ولى بالاقصور، اسمه يوسف، ويعرف بأبى الحجاج الاقصورى، فكنت أريد أن أزوره، فتخلفت عن زيارته أياما، فنمت يوما، فسمعت قائلا يقول، قم يا على الى الشيخ يوسف، لانه قد خرج ليجتمع بك، فلم يكذب، فخرجت لنلتقيه أو نصل اليه الى منزله زائرا، فمشيت على ساحل النيل حتى وصلت الى موضع التعدية، فلم أجد المعدى الذى يعدى بالناس، فقعدت على جانب النيل منتظرا لصاحب المعدية، فاذا أنا برجل قد أقبل من الجانب الاخر، وبيده عصا، فرمى برجليه على الماء وصار يمشى ويحط بعصاه على الماء، حتى وصل الى فبهت فى كرامات الاولياء، ولن (كذا) منه فنظر الى وأخذ باذنى وقبلها، وقال لى يا على لا تتوارن عن زيارة الاولياء، ولا تحجبك نفسك عن مقاماتهم بتسويفها لك، فقبلت رجليه، وقلت يا سيدى من أنت، قال أبو الحجاج الاقصورى، قال ثم قال لى ارجع الى مكانك، قال فبكيت، وقلت له يا سيدى بعد موعظة شافية، فقال نعم يا على عليك بمحاسبة نفسك ومن (كذا) اياها فانها مهلكة الرجال، ثم قلت يا سيدى زدنى، قال عليك بالصمت بين يدى العلماء، ثم قلت يا سيدى زدنى، قال بالتواضع وترك الدعوى، قال ثم تركنى ورجع الى حاله، قال سيدى أبو الحسن رضى الله عنه دخلت صنهورة وهى بمقربة من الاسكندرية بينهما مسيرة يوم وبعض آخر، فأويت الى مسجد آخر البلد، فاجتمع حولى فقراء بغير اختيارى فضيقوا على وقتى فى العبادة، فعزمت على الانتقال الى بلد آخر، فلما كان العشاء الاخيرة دخل علينا المسجد رجل فأخذ بيدى، وأخرجنى والفقراء مكانهم، وقال لى امش معى فحملنى الى منزله، وصعد بى الى غرفة ليس فيها الا حصيرة من الحلفاء، فأقعدنى عليها، ثم دار فى زاوية الغرفة فأحضر بين يدى عسلا ولبنا معقودا وخبزا حارا، فواكلنى، فلم أتهن من أجل الفقراء الذين تركتهم فى المسجد

فرأى الرجل عندى قبضا، فقال لى كل فانك طلبت الخلوة وحدك، وهذه خلوة لا تجد مثلها، فتعجبت منه فى مكاشفة فيما كان عندى، فأكلت حتى شبعت، وشكرت الله تعالى، وقال لى أدع لنا الآن، فان دعاء الضيف مستجاب، فدعوت وأمن ثم سألت عن اسمه، فقال اسمى ضرغام ابن مخلوف، فقلت ما حرفتك، قال لى خراز، فقلت من دلك على، قال لى رجل، فقلت له من ذلك الرجل، فلم يعلمنى، فعلمت أنه كوشف بحالى مع أولائك الفقراء، فقعدت نتحدث فى كرامات الاولياء، ثم تركنى وخرج، فما رأيته الى صلاة الصبح، فطيت معه الصبح، وأردت الانصراف، فقال لى الضيافة ثلاثة أيام، ثم قال لى الضيف فى حكم صاحب الدار حتى يخلى سبيله فقلت له نعم وكرامة لا أخالفك، فخرج وتركنى، فلما كان بعد أن صليت الضحى دخل وانزلنى من الغرفة الى الموضع الذى يعمل فيه الدرازة بيت فى المنزل، فقعدت معه وهو على منواله، يعمل شغله، ونحن نتذاكر فى أخبار الصالحين، فاذا بباب منزله يقرع، فقام ليفتح فقلت له تعلم انى رجل لا أريد الجمع مع أحد غيرك فلا تظهرنى لاحد، فقال نعم قم الى غرفتك، فقمت الى الغرفة وفتح الباب، فسمعت حس رجال كثيرين ولم أرهم، فجاء الى الزاوية التى أخرج منها البارحة ما أخرج فرأيته يدخل الى ركنها فيخرج العسل واللبن المعقود والخبز الحار بلا قدر، فعلمت أنه صاحب كرامة، فأقمت عنده ثلاثة، وأنا أراه يخرج الطعام من الزاوية المذكورة، فاذا أخرج أنظر الى الزاوية فلا أرى فيها شيئا وأنا لم أسأله، فلما أردت السفر سألته عن العسل واللبن والخبز الذى كان يخرجه، فقال لى رأيته فقبل بين عينى، وقال لى يا على أنت منهم، يعنى من الصالحين، ثم قال لى يا على دخل منزلى رجال كثيرون ما سألنى أحد عن هذا الا أنت ورجل يعرف بيوسف الاقصورى، فقلت له أتعرفه، فقال لى من أين تعرفه، فقلت له جرى لى من مشيه على الماء، فحكى عنه ضرغام الخراز أنه كان يصلى الظهر والعصر عندهم بصنهورة من ثلاث سنين وبين صنهورة والاقصور ثمانية عشر يوما، ثم قال لى يأخى على هو شيخى، فتأكدت بينى وبينه الصحبة والمحبة، ثم قال لى يا أخى على اعلم أن يوسف يأكل من القدرة، وأنا أيضا آكل من القدرة، وأطعم منها .

الشيــخ أبو الحسن المراكشــى :

قال الشيخ أبو الحسن حكيت هذه الحكاية لشيخ مسن مــن العلماء العاملين بالله، فقال لى يا ولــدى ياعلى اسمع وع، لله رجــال لا يأخذون من القدرة بشىء أو ان ظهرت لهم وأخذوا منها شيئا يحجبهم بها عنهم، فيموتون، ولم يروه وهذا الشيخ هو سيدى أبو الحسن المراكشى وهو مدفون ببادس عــن يسار الخارج من باب المقابر، قال مؤلف هــذا الكتاب، وفى قبر هذا الشيخ عجب، اذا أنت أتيــت اليه ترى عليه نــورا ينشرح قلبك بالنظر اليه، وله أحوال عظيمة مع الخضر عليه السلام، ومع قوم يونس ومع أولياء كبار، وقد رأيت فى كتاب لطائف المنن .

سيدى عبد الســلام بن مشيــش :

قال الشيخ أبو الحسن عن شيخه سيدى عبد السلام بن مشيــش سلــك الشيــخ سيــدى عبــد الســلام الطريــق وهــو ابــن سبــع سنــين ، وظهــر لــه مــن الكشــف أمثــال الجبــال ثــم خــرج الى السياحة ، وأقــام بهــا ســت عشــر سنــة ، قال فدخل عليــه يومــا شيخ فى مغارته، فقال له من أنت، فقال له أنــا شيخك، قد كنت ابن سبع سنين، وكل ما كان يصلك من المنازلات فهو منى، وهى كذا وكذا، فحدثه بجميع ما جرى له من الاحوال، وكان سكناه بالمدينة على ساكنها السلام، وكان يجيىء اليه ويعلمه ويفيده، فقلت لــه ياسيدى كــان ياتيك طيــا أو سفرا، قال فى ساعة يأتى ويروح، فقلت له ياسيدى كنت أنت تروح اليه، قال نعم، قال مؤلف هذا، وحدثنى سيدى أبو عبد الله بن أيــوب بمدينة فاس، قال حدثنى رجل صالح ممن لقيت، قال كنت بمصر فى بعض بواديها، فاذا أنا بطائر أبيض كبير قد وقف أمامى، وصار يهــم، بالطيران ويشير الى كأنه يقول لى اتبعنى، ثم طار مع الارض كطيران النعامة، واذ بريح رطبة قد هبت من خلفى، فصرت أهرول وراء الطــير والريح تحملنى وأنا لا أفارق الارض، أكثــر الاحيان تدوس قدمــاى الارض، وما زلت كذلــك الى أن جن الليــل، فوجدت نفســى فى ارض لا أعرفها، وبين يدى سواد شجر، وكنت اذا كان وقت الصلاة تسكــن الرياح ويقف الطائر حتى أصليها، قال فاذا ذلك السواد بساتين، فدخلت

الى بستان منها وقذف الله فى قلبى عند دخوله ان تلـك الارض أرض مجوس، قال فلما تمكنت من الدخول فى البستان رأيت شخصا مستقبل القبلة الى شجرة يطلى، فلما قربت منه علمت انها امرأة فهممت بالرجوع خوفا من الخلوة، فاذا هى قد أتمت الصلاة وسلمت بسرعة، فقالـت لى يا عبد الله قف لى أكلمك من بعيد، قال فقلت لها ما هذه الارض يرحمك الله، قالـت لى هذه أرض المجوس الفلانيين، قال فقلت لها ومن أنـت، قالت أنا من هؤلاء المجوس، ولكن قذف الله فى قلبى الاسلام، فلم يـزل الله تعالى يبعث لى أشخاصا من الحنيفية كما بعثك أنت فى هذه الساعـة فيعلمنى التوحيد ودين الحنيفية، وصرت استتر بذلك وأدين به خفية الى أن زوجت من أحد هؤلاء المجوس، فحملت لازف اليه، فاختطفت من بين يدىَ الذين حملونى، وصرت فى هذه البادية أعبد الله ويأتينى برزقـى، ويسترنى عنهم، ومهما اشكل على شىء من أمر دينى يسوق الله لى رجلا من الحنيفيين، ويعلمنى، وقد وقفت الآن فى كذا وكذا مسئلة من التوحيد، فساقك الله الى فارشدنى يرشدك الله، وكان عندى فى تلك المسألة علـم فعلمتها، ثم ردنى الطير والريح الى الموضع الذى كنت فيـه .

رجع الى حال الشيخ سيدى أبى يعقـوب :

لما رجع الشيخ سيدى أبو يعقوب نفع الله به من مدينة فـاس الى بادس، وانعزل للعبادة والمجاهدة بالرابطة التى على البحر، وصل اليه من الاقصور أحد أصحاب الشيخ الاقصورى، وهو المريد السالك أبو يحيى الشامى نفع الله به، فنزل عليه بالرابطـة المذكورة، فوجده قد حصل من علم الظاهر جزءا صالحا، وقد ظهرت عليـه أنواره وكذلك أن العلـم اذا استعمل ظهر نور له، وان هو أفشى للتزين بـه للمخلوقين أورث القلـب ظلمة، سيما والعياذ بالله أن أريد به حطام الدنيا وتحصيل المال والجـاه، فأخذ الشيخ أبو يحيى الشامى المذكـور فى تربية الشيخ سيـدى أبىَ يعقوب وتهذيبه وتدريبه، لما ذكر الشيخ سيدى أبو الحجاج من أنه مهيىء لان يكون خليفة له، حدثنى الثقات أنه تربى على يد الشيخ سيدى أبى يحيى الشامى رحمه الله اناس كثيرون من أهـل بادس من البوادى، وانه كان بعضهم يأوى الى الرابطة، وكان فيهم رجل يدعى ابن تازغيت، وان

حاله انتهى الى أن صار يواصل أسبوعا، فان هذا الرجل سمع قائلا يقول له ان الله تعالى لم يقبل منكم الا يوسف، وذكر لى أن هذا الرجل المدعو ابن تازغيت فتر عن العبادة، ولم يستدرج قليلا حتى صار يرجع تازوغايت على فرسان بقوية اذا لعبوا، فنعوذ بالله من الارتداد على العقب.

زيـــارته لوالـــديه يوم الجمعـــة :

حدثنى بعض أهل الخير، قال سمعت من الشيخ سيدى أبى يعقوب، قال لما كنت بالرابطة كنت لا أدخل البلد الا يوم الجمعة، ادخـــل فأزور أبواى، واغتسل للجمعة واصلى، ثم أرجع الى موضعى، قال فدخلت يوم الجمعة فقالت لى والدتى يا يوسف والدك جاء من البادية اليوم، وأخبر أن الزرع قد ييبس فى اكمامه من قلة المطر وشدة الحر، وان الناس قـــد رحلوا من الريف، فاسع ان ترغب من الفقراء الذين فى الزاوية يرغبون الله تعالى فى المطر، قال فخرجت الى الرابطة، فوجدت بها فقيرا أسمـــر من فاس، فقال لى قنطت أمك يا يوسف، قل لها تأخذ من الشعير الـــذى عندها فى القلة تحتالسرير وتصنع بنصفه عصيدة بزيت، ويأكلها الفقراء، وينزل المطر ان شاء الله، قال فانصرفت الى أمى، فأخبرتها الخبر، فتعجبت من ذلك، فقالت لى والله ما علم به أحد الا الله تعالى، ثم صنعت العصيدة بالزيت، وبعثت بها الى الرابطة، وأكلها الفقراء، ثم قال الرجل الاسمـــر اللهم امطرنا، فما أتم الكلام الا والريح والمطر الوابل قـــد عم الارض، وبقى أسبوعا لم يفتر لا ليلا ولا نهارا، حتى تهدمت البيوت، قال فلمـــا كان فى الجمعـــة الآتية دخلت على عادتى الى بادس، فقالـــت لى أمـــى يا ولدى ترغب من الرجل الصالح يدعو الله تعالى فى الصحو، قال فقلت ذلك قال قل لامك تصنع من النصف الثانى من المد كما صنعت بالنصـــف الاول، ويأكله الفقراء ودعا الرجل المذكور وطلب من الله تعالى الصحـــو، قال الشيخ سيدى أبو يعقوب فما أتم الدعاء الا وضوء القمر داخـــل من طاق كانت بالرابطة، زاد غير الذى حكى لى هـــذه الحكاية، ان ذلـــك الرجل قال للشيخ أنا أكل ثلاث أكلات فى السنة، وهاتان أكلتان أكلتهمـــا، وبقيت لى أكلة واحدة حتى يقدرها الله عند من شاء من عباده، حدثنـــى من اثق به عن الشيخ سيـــدى أبى يعقوب، قـــال لى سيدى أبو يحيى

الشامى ليلة كذا فى جوفها، يايوسف خذ الركوة واذهب الى البئر يعنى البئر التى بمقبرة الرابطة، واسق لنا منها الماء قال فذهبت الى البئر فوجدت عليها رجلا بزى الفقراء الاعاجم، فقلت له السلام عليكم ورحمة الله، فقال لى وعليكم السلام، قال فاقشعر جلدى منه واصابتنى رعدة، قال ثم سقيت الماء ورجعت الى الرابطة فقال الشيخ سيدى أبو يحيى يا يوسف أرأيت أحدا على البئر قال فقلت له نعم ياسيدى رأيت رجلا صفته كذا وكذا وأخذنى كذا، فقال هو الخضر عليه السلام والحمد لله الذى أقر عينى بك .

رحلة الشيخ أبى يحيى الى المشرق :

ثم أخذ الشيخ سيدى أبو يحيى الشامى فى الحركة الى المشرق، فخرج من بادس، وخرج معه الشيخ سيدى أبو يعقوب، وخرج معهما جماعة كثيرة من أهل بادس، فباتوا جميعا بموضع يقال له أويزغيت عند الشيخ الصالح أبى يعلى الفتوح بن أبى بكر، وكان وليا من أولياء الله تعالى، فأضافهم وذبح لهم بقرة، وصنع لهم طعاما، فلما أكلوا أعطاهم (1) الرب ليشربوه، فشرب الحاضرون وامتنع الشيخان سيدى أبو يحيى وسيدى أبو يعقوب من شربه، فقال لهم الشيخ سيدى أبو يعلى بيدى طبخته فاستمرا على الامتناع فقال لسيدى ابى يحيى ما تخرج من هذه حتى تشربه، وقال لسيدى أبى يعقوب تطلب ولا تجده، وانصرفا من عنده فسلط الله عليهما شهوة الرب فشربه سيدى أبو يحيى ببلاد غمارة، بعد وداع سيدى أبى يعقوب له ورجوعه، وبقى سيدى أبو يعقوب يصبر نفسه عنه وأمه تطلبه ولم تجده، فلم يزل الشيخ أبو يعقوب يرغب الله تعالى حتى صرف عنه الرب، وتم الكلام على ما علمته من شيوخ سيدى أبى يعقوب رحمه الله تعالى ونفع به فى علم الظاهر وعلم الباطن .

ذكر نبذ من كرامات سيدى أبى يعقوب رضى الله عنه ونفع به:

حدثنى أبو عبد الله بن مغيث مرارا عديدة، احدها بمحضر جماعة من أهل الخير، قال سمعت سيدى ابى يعقوب رضى الله عنه يقول، كنت

---

(1) ما يطبخ ويشدد ويثخن من عصارة بعض الثمار كالبندورة (ماطيشة).

أرى السموات السبع والاراضين السبع والعرش والكرسى والجنة والنار، وحدثنى أيضا أبو عبد الله المذكور عن يحيى عن يوسف وكان رجلا خيرا دينا كثير الموالات للشيخ سيدى أبى يعقوب نفع الله بـــه قال يحيى ابن يوسف سمعت الشيخ سيدى أبا يعقوب يقول، كنت أسمع المؤذن يــؤذن فى السماء الرابعة، وبعد ذلك بالمدينة اسمع المؤذن بصومعه بادس، قال أبو عبد الله بن مغيث حدثنى قارىء الكتاب بين يدى سيدى أبى يعقـــوب، وهو الشيخ المبارك أبو الحسن على بن الكمـــاد، قال قلت لسيـــدى أبى يعقوب ياسيدى سمعت أنك تسمع المؤذن فى السماء الرابعة، قال فقال لـــى نعم، وقال عند انقضاء كل ساعة من النهار، قال مؤلف هذا، ولقد رأيـــت فى كتاب لطائف المنن عن الشيخ سيدى ابى الحســـن الشاذلى أنه قـــال، استنار قلبى يوما فكنت اشهد ملكوت السموات السبع والاراضين السبـــع، فوقعت منى هفوة فحجبت عن شهود ذلك، فعجبت كيف حجبنى هـــذا الامر الصغير عن هذا الامر الكبير، فاذا أنا يقال لى، البصيرة كالبصر أدنـــى شىء يحل فيها يعطل النظر، ورأيت أيضـــا سيدى ابا يزيد البسطـــامى رضى الله عنه أنه قال لى اطلعنى الله سبحانه على عجائب السموات السبع، والاراضين السبع، ثم قال يأبا يزيد كيف رأيت، قال فقلت يا حبيب قلبى ما رأيت شيئا، قال فقال لى يا أبا يزيد تمن، قال فقلت أتمنى، قال فقام أحد تلاميذه من بين يديه، قال له يا استاذى لاى شىء لم تتمن المعرفة، فقال له اسكت ويحك حملتنى الغيرة عليه أن لا يعرفنى غيره، وكان ما كان مما لست اذكره، فظن خيرا ولا تسأل عن الخبر، وحدثنى أبو عبد الله ابن مغيث المذكور عن القلوبى ابى الحسن ابن الكماد المذكور، انه قـــال له قلت لسيدى أبى يعقوب يا سيدى سمعت أن الاولياء اذا قرؤوا القرآن يسمعونه يقرأ عن أيمانهم، قال ابن الكماد فقال لى سيدى أبو يعقوب نعم يعلم الله اذا قرأت القرآن اسمعه يقرأ عن يمينى .

بشـــرى لحملـــة القـــرآن :

وحدثنى الخطيب أبو الحسن على حفيد الشيخ سيدى أبى يعقوب نفع الله به، والحاج أبو العباس احمد بن الكماد انهما كانا مع جماعة من أهل بادس بين يدى الشيخ سيدى أبى يعقوب فى الجامع ببادس، والشيخ

جالس فى المحراب فاذا بالاستاذ أبى عبد الله محمد بن محمد بن الخضار السبتي، وتلميذه الفقيه العدل أبى البقاء يعيش بن سعيد، قد وقفا للشيخ سيدى أبى يعقوب برسم ان يشهد لهما فى عقد اجارة كان بأيديهما، فتوقف الشيخ سيدى أبو يعقوب فى الشهادة، وبقى بين يديه وأطرق برهة حتى أراد الانصراف، فاذا به قد أخذ منهما وكتب فيها بخطه عوضا من الشهادة، وسمع يوسف بن محمد بن عبد الله الزهيلى فى المحراب شيئا، يقول له بشر حملة القرآن برحمة من الله ورضوان، عند كتب هذا وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليما، قال فأخذا الاجارة من يده وانصرفا فرحين بهجين بذلك، واجتمعنا فى ذلك اليوم جميع من كان ببادس من حملة القرآن ينظرون الى خط الشيخ ويقبلونه ويفرحون بهذه البشارة العظيمة التى من الله تعالى بها على لسان هذا الشيخ الجليل، عن لسان القدوة لجميع من حمل القرآن، وحمل شيئا منه، فان الباب واسع والكرم عظيم، وما أرجو الله أن يخلو أحد ممن حمل سورة الاخلاص من نيل هذه البركة، فانه جاء فى الحديث عن النبى صلى الله عليه وسلم، أن سورة الاخلاص تعدل ثلث القرآن، وهذه المسألة مشهورة ببادس، قال مؤلف هذا، كان يحدثنى رجل صالح اسمه يحيى اليازغى، عن رجل صالح كان بمدينة فاس، يقال له سيدى عبد الله المغراوى، وانه كان يكتب اللوح من القرآن، ويبقى فيه خمسة أشهرا وستة أشهر، وفى كل نفدة يرقى لمقام من الفهم أعلى من المقام الذى كان له فى الفهم فى النفدة التى قبلها، فاذا انتهى الى آخر مقام قدر له من فهم معانى القرآن، يقول له امح ذلك اللوح، واكتب غيره، وحدثنى يحيى المذكور عن سيدى عبد الله المغراوى المذكور أنه كان فى بعض الاحيان يقرأ القرآن، فاذا مر بذكر الحور العين كشف له عنها حتى ينظر اليهن وينظرن اليه، ويسمع كلامهن يقلن له اقرأ يفهم منهن أنه اذا سكت عن القراءة يغيب عن ذلك الحال، وكان سيدى عبد الله هذا من كبار الاولياء أى أولياء الله تعالى، وكان يسكن بعين امزليتن بدويرة بلصق مقابر الفدان من فاس، رأيت جماعة من الصالحين يزورونه ويترددون اليه، حدثونى عنه باشياء غريبة غير هذا .

زواجـــــــه :

وحدثنى أبو عبد الله بن مغيث، قال سمعت أبـــا يعقوب يقول يعلم الله ما كنت أردت أن أتزوج حتى قال لى أبواى ان لم تتـــزوج والا فأنت مخالف لنا فى مرادنا، قال فلما رأيت ذلك، قلت لوالدتى اذا عزمتــم على انى ولابد من التـــزوج من ابنت خالتى من البادـــة، فانى أعلم أن أهل البادية أقل دينا من الحاضرة فزوجونى منها، ودخلت معها ثلاثة أعوام، وهى لم تلد، صارت أمى تقول زوجت ولدى من امـــرأة عقيمـــة، وتكرر الكـــلام فى ذلـــك، حتى علمت بذلك زوجتى، فبعثت الى حالتها والدتى، وقالت لها قل لخالتى ولدها ما رأى لى بشرة ولا رأيـــت له بشرة، وانه منذ دخل معى فى البيـــت يصلى فى ركن البيت الليـــل كله، وما رآنى ولا رأيته، قال فبلغ ذلك الى والدتى، فقالت لى ما طلبت ابنت أختى الا لنعطلها، وتكلمت لى بكلام خفت منه، وبعد ذلك اقتضضتها وولدت لى ولدى عبد الله، وحدثنى أبو العباس احمد بن المؤذن جـــار الشيخ سيدى أبى يعقوب وداره بلصق داره، قـــال فخرجت يومـــا من دارى بشقف فى يدى أسوق نارا فبعثنى الشيخ أبو يعقوب فى حاجـــة أقضيها له، فانصرفت وتركت سوقان النار، فقضيت الحاجة ورجعـــت، فلما أتيت الى باب دار الشيخ، فاذا بالشيخ خارج بباب داره فأخـــرج لى يده وبين أصابعه جمرة نار، فوضعها فى الشقف الذى كان فى يـــدى، فبهت، مما رأيت من حبسه النار فى يده كأنها تفاحة أو وردة لا تحـــرق، وحدثنى أبـــو العباس المذكور قال كنت بازاء الشيخ أبى يعقوب يرفع رأسه الى السماء وينظر يمينا وشمالا، قال فقلت له سيدى ما كنت تنظر فقال لى الملائكة غطوا السماء بل الفضاء كله جاءوا للصلاة هنا، وسمعت ذلك من جماعة غير أبى العباس المذكور، وحدثنى أبو العباس المذكور أنه كان مع جماعة من الناس ورآى الشيخ وهو يزور المقابر، فاذا بـــه قد وقف وقال لهم يعلم الله لو رأيتم الذى أرى لما رجع أحد منكم لاهل ولا ولد، وحدثنى أبو عبد الله محمد بن الشيخ الصالح أبى الحســـن ابن مغيث عن أبيه أبى الحسن على المذكور، قال خرجت مع الشيـــخ سيدى أبى يعقوب نفعنا الله به لحضور جنازة، فاذا بالميت قد جاء به

على أعناق الناس، فقال لى سيدى أبو يعقوب يا على رأيت شيئا فوق ذلك الميت، قال فقلت له لا يا سيدى، قال انى أرى روح ذلك الميت تسير فوقه، قال على بن مغيث وكنت أسير معه برسم زيارة المقابر، فيقول لى انى أرى طيورا على المقابر، فاذا قربت منها تدخل فى القبور، وهى يعلم الله أرواح الاموات، ورأيتها مرة فدخلت كلها المقابر، وبقى منها طير واحد أسود على قبر ينظر الى، كأنه يطلب منى شيئا، فعلمت أنه كثير الذنوب فيعلم الله مازلت أدعو له حتى زال عنه ذلك السواد، وحدثنى حفيد الشيخ الخطيب على أنه كان يخرج مع الشيخ وهو صغير الى المقابر، فيرى تلك الطيور ويقول له الشيخ يعلم الله هى أرواح الموتى، وحدثنى عن الشيخ أبى زكرياء يحيى بن يوسف عن أمه الصالحة مامو بنت محمد بن على انهما سمعا من الشيخ سيدى أبى يعقوب نفعنا الله به أنه قال يعلم الله كل من أطلى عليه لا يدخل النار، وقال أيضا يعلم الله اذا تخرج الى القابر ترى رؤوسا تخرج من بعض المقابر تشبه رؤوس الغنم، التى تساق فى العيد من عند الشواط .

قائد قصبة بادس لما دخلها النصارى :

وحدث أيضا عن يوسف بن قياس قائد قصبة بادس حين دخلها النصارى، واستشهد فى ذلك اليوم رحمه الله ونفع به، قال لما وصل بادس قائدا بها، جاء الى الشيخ وأخذ فى الحديث معه والتبرك به، فقال له أثناء كلامهياسيدى ما نزال فى هذه البلاد ان شاء الله حتى ندفنك، قال له الشيخ لا، يعلم الله أنا ندفنك، فلما كان يوم دخول النصارى بادس ركب ابن قياس وقاتلهم على عسكر الموجة، واستشهد هناك، ودفنه الشيخ سيدى أبو يعقوب رحمه الله وكان يقول عند دفنه هذا رجل مسعود.

القاضى أبو محمد عبد الله :

وحدث أيضا على الفقيه القاضى أبى محمد عبد الله بن عبد الرحمان ابن يعلى، أنه قال مات رجل ممن كان يوالينا وكان مسرفا على نفسه، وكانت له أم عمياء، فلقيت الشيخ سيدى أبا يعقوب بقرب دار أم الرجل المذكور وهو يسئل عنها، فدخل اليها ودخلت معه، قال فقال لها ولدك يسلم عليك ويقول لك يا أمى كنت أخدم عليك فى دار الدنيا فادع لى فى الآخرة،

قال القاضى عبد الله المذكور، فقلت له يا سيدى فى النوم رأيته قال لا، يعلم الله الا فى اليقظة كلمنى مثل ما أنت تكلمنى، وحدثنى أبو العباس احمد بن المؤذن قال، كنت وأنا صغير أقرأ لوحى فى عرصة الشيخ سيدى أبى يعقوب بينما أنا أقرأ فاذا بالشيخ قد جاء لجهتى، وقال لى يا ابن محمد سق تلك الحصيرة التى فى قعر العرصة، فيبيت عليها الفقراء الواردون لزيارة الشيخ، قال فقلت له ياسيدى لا يقدر أحد يقرب من ذلك البيت من كثرة مافيه من البراغيث، قال فتبسم الشيخ، وقال لى يعلم الله البراغيث لا يتعدون عليها سقها، ولابد، قال فقمت وأتيت بالحصيرة ودخلت الى البيت وجعلتها فيه وخرجت، فتعلق برجلى وثيابى براغيث كثيرة، فأخذ الشيخ طاشورة (1) ولفه ودخل الى البيت وجعله تحت رأسه ونام، فجلست أرقبه حتى فاق وخرج من البيت ولم يتعلق به برغوث واحد، فتعجبت من ذلك، قال أبو العباس بن المؤذن المذكور حكيت هذه الحكاية لبعض الناس بالاندلس فقال، كان فى ثيابى الشيخ القمل فقلت له نعم كثير، فقال ولاى شىء كانت البراغيث لا تتعلق به وتتعلق به القمل، قال فخلق الله عندى ببركة الشيخ ان قلت له ان البراغيث تتكون من التراب، فهى كسائر الحيوان الخارجة عن الانسان المؤذية له فحماه الله منها، كما حمى الاولياء من الاسواء وغيرها من الحيوانات المؤذية والقمل شىء يتكون من الانسان من ضرورة البشر، كاللعاب والمخاط وغير ذلك من ضروريات البشر اللازمة له، فذلك كانت فى الشيخ فسكت وسلم، وحدثنى أبو عبد الله ابن معيث قال، لما ولد لى ولدى يوسف جئت الى الشيخ سيدى ابى يعقوب، قلت له كيف اسمى ولدى الذى تزايد عندى، فقال له سمه يوسف قال، فقلت له يا سيدى كيف اسميه يوسف واسم أخى يوسف، انما أردت عليا كاسم أبى، قال فقال لى قلت لك تسميه يوسف قال فسكت وانصرفت وسميته فلم يلبث أن غرق أخى يوسف فى البحر، ولم يبق بدارى من اسمه يوسف الا ولدى يوسف فقط، وحدثنى أبو

(1) لم يوجد لها ذكر فى المعاجم ولعلها لهجة محلية تطلق على نوع من الوسادة.

عبد الله بن مغيث المذكور قال، انشأت أنا وأناس من أهل بادس قاربا، وسقناه بالزرع وسفرناه الى بلد الاندلس، بعد أن دعا له الشيخ، واستودعه الله، فانه ما استودع الله له الشيخ جفنا ولا مسافرا ما رأى فى ذلك الا خيرا، فلما سافر الجفن المذكر حدث نوى فى البحر فقلقنا وخفنا على القارب، قال فلما خرج الشيخ سيدى أبو يعقوب من المسجد وبعد صلاة الضحى خرجنا وراءه مريدين ان نسأل منه الدعاء أن يسلم الله ذلك القارب، فاذا بالشيخ قد رد وجهه الينا، وقال قد وصل قاربكم الى الاندلس، وخرج فى تلك البلاد التى فيها الفاكهة قال، فقلت له يا سيدى، المنكب، قال فقال نعم، قال فلما كان الا بعض الايام والخبر وصل بذلك .

جواز التجار من بادس الى الاندلس :

وحدثنى عبد الله بن مغيث المذكور قال كان رجع بمدينة بادس غراب (1) وطريرة رفعها مولانا السلطان المقدس المرحوم أبو الحسن (2) رحمه الله على يد خادمه غازى بن الكاس برسم المجاوزة وكان قيد عليها القائد على المترتى، وكان قد اجتمع ببادس خلق كثير من التجار بأحمال كثيرة من الكساء والجبة، وغيرها، وهم ينظرون الجواز لبر الاندلس ، وطال عليهم الامر، فلما تيسر سفر الجفنين، المذكورين اجتمع التجار وجاءوا للشيخ بالجامع وقالوا له يا سيدى انظر من حالنا من أجل الله تعالى، وكلم لنا غازى عسى أن نسافر فى هاذين الجفنين، قال الشيخ ابعثوا الى غازى، فجاء غازى الى الشيخ، فقال له هؤلاء التجار ضاقوا ها هنا، فعسى أن تجوزهم فى هاذين الجفنين، فقال له السيد غازى مالى فى هذا أمر ولا نهى، وانما بعثنى برسم عملهما فقط، والامر فى

---

(1) سفينتان للسفر فى البحر وفى الاولى قال الشاعر :

غربانها سود بيض قلوعها ... يصفر منهن العد والازرق

(2) هو السلطان أبو الحسن المرينى على بن ابى سعيد عثمان بن يعقوب المنصور ويعرف بالسلطان الاكحل لانه كان أسمر اللون وتولى بعد وفاة أبيه سنة 731 هـ. وتنازل لولده أبى عنان عن الملك بعد قتال بينهما وتوفى فى 752 وجاهد بالاندلس .

الجواز للقائد فقال الشيخ ابعثوا وراء القائد، فجاء القائد راجلا اليه بداره، فقال له الشيخ عسى أن تحمل هؤلاء التجار فى هـذين الجفنين صحبتت الى الاندلس، فقال له القائد مليح والله السلطان أمرني على الاجفان برسم الجهاد نجوز انا فيهما على الحركة، وقال الشيخ ففى هذين الجفنين يكون سفركم ان شاء الله تعالى، فقالوا له وكيف يكون سفرنا يا سيدى فيهما وقد سمعت قول القائد، فقال لهم يعلم الله ما تسافرون الا فيهما ان شاء الله تعالى، فانصرفوا ولم يصدقوا بشىء من ذلك، ثم رجعوا اليه يوما آخر، وهموا ان يكلموه فلما رآهم قال لهم اعملوا على السفر فى ذينك الجفنين، فانصرفوا، فلما كان بعد ذلك دفع الجفنان المذكوران فى الماء، وجعل فيهما الزاد والعدة وبيت أهلهما على السفر، فجاء التجار الى الشيخ رضى الله عنه قال ياسيدى سافر الجفنان، فقال لهم قلت لكم ما يسافرون حتى تسافروا فيهما، فلما كان المغرب جاء عدوى من فاس بالامر من عند مولانا ابى الحسن رحمه الله مع جفان من جباب وقال للقائد احمل هذه الجباب (1) الى بر الاندلس، وجوز ما ببادس من التجار، فعند ذلك صدق التجار كلام الشيخ، وسافر التجار بعد أن جمعوا خمسة وعشرين دينارا من الذهب وتصدقوا بها على فقراء بادس شكرا لله على ما يسره عليهم من السفر فى الجفنين المذكورين .

بنو عبد الوادى بتلمسان يأسرون قائد بادس :

ونزل التجار المذكورون ببر الاندلس، وتوجه الجفنان المذكور ان الى بلد العدو، ثم زفتهما الريح من بلاد العدو حتى بلغا الى ماوراء بجاية من بلاد المشرق، ورجع الجفنان من هنالك الى أن جاز على ساحل برشك وهو فى ذلك التاريخ لبنى عبد الوادى، فأخذ القائد على المذكور يتكلم مع بعض الناس فى ساحل برشك، فقالوا له اصبر حتى ناتوك بالضيافة فساقوا ثلاثة من البقر، وأروه انهم يسوقون له بعض المرافق فدفعه قدر

(1) الجباب بكسر الجيم جمع جبة وهى الدرع، ومن السنان ما دخل فيه الرمح .

الله تعالى لما أراد ان يظهر فيه من كرامة وليه سيدى أبى يعقوب فهبط فى الفلوة الى البر على خلاف عادة القياد، ولم يهبط من الفلوة غيره فأخذه أولائك القوم الذين كانوا بالساحل وادخلوه الى البلد، ورجع ولده القائد حسن بالجفنين المذكورين ولم ينقص من الجفنين المذكورين أحد غيره، وكان عاقبة على أن سجنه بنو عبد الوادى حتى مات فى السجن، وذكر لى غير أبى عبد الله بن مغيث المذكور فى هذه الحكاية أن الشيخ سيدى أبا يعقوب حين عامله القائد على المذكور بتلك المعاملة الخشنة، قال للتجار يعلم الله ما تسافرون الا فى هذين الجفنين وتصلوا فى عافية ولا يخص منكم الا هو، وهو يشير للقائد على المذكور، فكان الامر كما قال الشيخ، فقد بلغ فى الحديث من أذى وليا من أولياء الله تعالى فقد حارب الله تعالى.

السفر فى البحر كان محفوفا بالاخطار :

وحدثنى أبو عبد الله بن مغيث المذكور قال، كنت بمالقة بحانوت أمين قيساريتها بن عبد الرزاق فاذا برجل من التجار جاء الى الحانوت، فأخذ التجار يسئلونه كيف جرى لهم مع النصارى فى البحر حين جاؤوهم، فقال لهم التاجر المذكور أحدثكم بكرامة عظيمة من كرامة سيدى ابى يعقوب البادسى، فقالوا بالله حدثنا، فقال لهم كنا ببادس بجماعة من التجار فلان وفلان وعسر علينا الجواز ولا وجدنا مركبا نجوز فيه، قال فاكترينا قاربا بثمانين دينارا من الذهب، فلما عزمنا على السفر خفنا من الجواز فى القارب، ورغبنا منه الدعاء لنا، وقال لنا امشوا ولا تخافوا واذا رأيتم شيئا تخافون منه فلا يلهيكم ولا يخوفكم، قال فاشتد خوفنا من ذلك، وسافرنا وقطعنا البحر الى أن بلغنا قريبا من المنكب، فاذا (1) بقرقورة مسطعة للنصارى المغيرين تتبعنا، فأيقنا بالهلاك فلما قربت منا بحيث كنا نشاهد كل ما فيها ظهر لنا غراب وطريدة قاصدين الينا من جهة المنكب، فازداد خوفنا، فلما وصل الينا الغراب والطريدة فاذا هما من أجفان المسلمين، جاءا من المنكب يستخلصنا من تلك القرقورة فاعطونا الطريق وجوزنا حتى دخلنا المنكب، ونزلنا به سالمين فى عافية ببركة الشيخ رحمه الله تعالى ونفع به .

---

(1) لا توجد كلمة قرقورة لاحد المراكب فى مادة القرقرة ولعلها عامية.

اختلاف ابى يعقوب مع بعض الفقهاء فى صلاة عيد الفطر:

وحدثنى الشيخ الفقيه أبو موسى عمران الزهيلى، قال فى عيد الفطر لم يكن ببادس من ثبتت عنده رؤية الهلال فأصبح الشيخ سيدى أبو يعقوب اليوم المتم لثلاثين يوما من رمضان، وخرج بالناس الى المطى وصلى بهم صلاة العيد، وأفطر وأفطر الناس، فانكـر ذلك على الشيـخ والفقراء أحد الفقهاء يقال له العباس الساروري، قال الشيخ أبو موسى عمران جئت من البادية ثانى يوم العيد برسم زيارة الشيخ والسلام عليه فوجدته فى عرصة جالسا مستندا للحائط، فوقع الكلام على صلاة الشيخ رفطره وفطر الناس بفطره، أشاع العبـاس من الفطر والخـروج الى المصلى قال الشيخ أبو موسى عمران فقلت للحاضرين الحق من جهة الفقه مع العباس المذكور، فانبرى لى الشيخ وقال تكذبنى، وقال لى يعلـم الله لقد ادى به الشهود عندى من الطرابلس .

غـزوة كبـرى بالاندلـس :

وحدثنى الشيخ الصالح المبارك أبو زكرياء الحاج يحيى الشاكرى خديم الشيخ الصالح سيدى أبى يعقوب فى حال وجهته الى الحجاز، قـال دخلت يوما على الشيخ سيدى أبى يعقوب فى بيته فوجدته قائما يصلى، وسيدتى الزهراء مستقبلة القبلة، فلما سلم الشيخ من صلاته وسلمت عليه، قال الشيخ لسيدتى الزهراء، يا زهرة كانت اليوم فى غرناطة غزوة عظيمة مثل الغزوة التى فى فتوح الشام، فلما كان بعد أيام وصل الخبر الى بادس من الاندلس بالغزوة العظيمة، التى غزى المسلمون مرج غرناطة، وكانت الغزوة العظيمة فى ذلك اليـوم .

فتنـة فى بـادس :

وذكر لى غير واحد أنه كانت فتنة ببادس، ففر أهلها الى البادية، وبعضهم سكن بالبادية وأودعوا أمتعتهم بدار الشيخ سيدى أبى يعقوب، فكان الشيخ رحمه الله يصلى ويخرج فى بعض الاحيان ويتفقد بـاب الدار والاسطاح، وهو يقول اللهم أحرسها من الضرر واجعلها فى كنفـك، قال الشيخ سيدى أبو يعقوب فما خرجت بعـد ذلك اليوم ولا تفقـدت واستأمنت من ودائع النـاس .

تأخـــر نـــزول المطـــر :

وحدثنى أبو العباس بن المؤذن أنه كان جالسا فى جمع من أهـــل بادس فى الجامع بين يدى الشيخ سيدى ابى يعقـــوب وطالب يصحـــح عليه لوحه، وكان للمطر مدة كثيرة لم ينزل، وقلق الناس من ذلك قلقـــا شديدا، واذا بالشيخ يقول بأن يجمعوا الليلة، قال له من حضر أى شىء قلت ياسيدى يجمع الليلة، فقال للطالب الذى كان يقرأ اقرأ، ولم يجبهـــم بشىء، وكان فى ذلك اليوم حر كثير وشمس عظيمة، فاذا بالارياح قـــد هبت وهبت من باب الجامع، حتى صلوا المغرب والعشاء مجموعتين كما قـــال الشيـــخ .

مقارنة بين الشيخين الحاج حسون وابى يعقوب :

وحدثنى جماعة أنهم سمعوا أن سيدى الشيخ الولى المرحوم أبا اسحاق سيدى الحاج حسون البقيوى لما حضرته الوفاة أغمى عليـــه من قبل صلاة العصر الى بعد صلاة العشاء الاخيرة، قال فلما أفاق قال له ولده سيدى الحاج محمد يأبت لا تنس ذكـــر الله تعالى، فقال له حشـــاه ان انساه، ثم قال لـــه ان الله تعالى أعطانى الشفاعة فى عشـــرة آلاف، فاستزدت فأعطيت الشفاعة فى عشرين ألفا، فاستـــزدت فأعطيت الشفاعة فى ثلاثين ألفا، فقيل لى هذا مقامك عندنا، وان الله تعالى أعطى الشيـــخ أبا يعقوب الشفاعة فى خمســـين ألفا، قيـــل لى فحكى ذلك للشيـــخ أبى يعقوب فقال نعم يعلم الله أما تعلمون ان المخلوق اذا خدمه الانســـان يعطيه العطايا الجزيلة ويشفعه فى الجرائم العظيمة ويفعـــل معه الخيرات، فكيف بالخالق سبحانه وتعالى، يعلم الله ما أشفع الا فى جميع مـــن رآنى أنظر اليـــه ولو مرة واحدة، قال مؤلف هذا، واجتمعت فى مسجـــد بادس مع سيدى ابراهيم ولد سيدى الحاج محمد المذكور، وسألته عـــن ذلك فقال لى هذه المسألة صحيحة، ولكنى كثير النسيان فاسأل عنها أخى أبا بكر فانه أثبـــت منى، ثم جاء أخوه أبو بكـــر الى بادس وسألتـــه فى الجامـــع فقال لى نعم كـــذا سمعت من والدى، وزاد ان جـــده لما رأى ما أعطى الشيخ سأل المزيد فقيل له خذ ما أتيتك وكن من الشاكرين .

عـــدد دور بـــادس :

وذكر لى غير واحد أهل بادس أنهم سمعوا الشيخ أبا يعقــوب غير ما مرة يقول يعلم الله الولى يشفع فى أربعين دارا أمامه وأربعين دارا وراءه وأربعين عن يمينه وأربعين عن يساره، وعدوا ديار بادس من كــل الجهات نوجدوا أقل من الاربعــين .

عمل الشيخ أبى يعقوب بيده فى الفلاحــة :

وذكر لى بعض الطلبة أن والده دخل على الشيخ سيدى أبى يعقوب برؤوس الكرنب وأعطاها لى، قال فقلت فى نفسى هــذه الغرصة فيهــا الرباع وله الربع فى خضرها، فكيف يعطنى الشيخ هذه الرؤوس وفيهــا حظ الرباع قال فما أتممــت ذلك حتى قــال لى الشيخ يعلــم الله هــذه الاحواض التى أعطيتك منها الكرنب ما للرباع فيها شىء .

تجارة أهل بادس فى الخشــب :

وحدثنى جماعة من أهل بادس أن رجلا يقال له الرايس على، وكان يبيع فى حانوت .بادس، وكان مع ذلك يتجر فى الخشب فضعف رأس ماله فى وقت، فأعطاه رجل من تجار الاندلس خمسة دنانــير ذهبا، وقــال له اشترها خشبا نجــد عندك ميسرا اذا رجعت من سفرى ان شاء الله تعالى، وسافر الرجل فى البحر الى الاندلس، قــال الرايس على فأخــذت الدنانير وكنت فى حاجة شديدة اليها، فتصرفت فيها حتى اشترى له بعــد ذلك الخشب بغيرها مما يفتحه الله لى، قال فلمــا سافر الرجل قام عليــه البحر فردته الرياح الى جهة الجبهة، وعطب هنالك ونجا برأسه، ورجــع الى بادس، فبينما أنا جالس فاذا به قد دخل عريانا، فقال لى أعطنــى الخمسة دنانير نشترى ما نلبس ونجهز منها على نفسى، فسقط بيــدى، ولم أدر ما أجاوبه به، فوعدته أن أسوقهــا لــه، وصرفته عن نفســى، وبقيت متفكرا فيما أصنع فخلق الله عنــدى ان مشيت الى سيــدى أبى يعقوب فوجدته فى غرفة مع ناس، فجلست منتظرا انصرافهم، فحينئــذ أكلمه، فلما انصرف الناس قام الشيخ فتبعته الى باب العرصة فلما هممت

أن أكلمه، قال لى امش الى حانوتك، فتوقفت فقال لى مرة أخرى امــش لحانوتك قلت لك، فتعجبت وذلك بأنه ما جئته قط الا وتبسم لى ويرحــب بى، قال فخرجت وانصرفت الى حانوتى، وجلست بهــا، وكان عنــدى فى حانوتى زمام لجلد كنت أكتب فيه بيعى وشرائى، فخلق الله عنــدى أن أخذ ذلك الزمام واتصفحه وانظره لعله بقى لى عند أحد شىء، فأطلبــه، قال فأخذت الزمام وحللته فلما فتحته وجدت فيه بين الكواغد خمسة دنانير ذهبا جديدا، فكدت أن يذهب عقلى من العجب مما أعطى الله أولياءه مــن الكرامات، فأخذتها وبادرت بها الرجل لاعطيه متاعه، وفرج الله عنى ما كنت أعانيه من أمر الرجــل .

اشتغــال النســاء بالحيــاكــة والصباغــة :

وحدثنى رجل من أهل البادية يقال له يحيى بن عيسى اليسغفى، قال صنعت أمه كساء وعلقتها فى (1) النول، واحتاجات الى شــىء من اللــك تسبغ به ارجوان الكساء المذكور، ولم يكن عند ناشىء نشترى بــه اللــك، قال فقالت لى أمى خذ هذا المقياس واذهب به الى بادس وأرهنه عند العطار فى اللك الذى نحتاج اليه حتى يتم نسج الكساء ونبيعه ونفــك به المقياس، قال فأخذت المقياس وجعلته فى شكارتى وجئت الى بــادس، فدخلت الى دار الشيخ فلما سلم من صلاته سلمت عليه، فقال لى يا ولدى يعلم الله العطار لا يبيع اللك بالدين، ارفــع طرف السجادة واحمل ذلــك الذى تحتها أربعين درهما جديدا، فأخذتها ومشيت للعطار فقلت له نحتاج من اللك كذا فكم هو، وقال لى أربعين درهما، قال فقلت له عسى أن تحبس هذا المقياس فيها وتعطنى اللك، فقال يا ولدى اللك لا يباع بالدين وانمــا يباع بالدنانير أو الدراهيم، قال وقلت ذلك تصديقا لكلام الشيخ، قــال ثم أخرجت الدراهيم وأعطيتها له وحملت اللــك .

نــارنج سبتــة يجلــب الى بــادس :

حدثنى غير واحد عن أبى بكــر الحيانى أنه مرض ولده مرضــا شديدا، وكان كثير الموالات للشيخ والتصرف فى حوائجه، قال فاشتغلــت

---

(1) خشبة الحايك التى ينسج عليها ويلف عليها الثــوب .

بمرض ولدى وغبت عن الشيخ، قال فلما جئت اليه سألنى عن غيبتى فأخبرته بمرض ولدى، فكتب لى حرزا ونشرة فحملت ذلك للولد فوجد راحة، فاشتهى نارنجة ولم يكن ذلك الوقت منه ببادس الا ما يجلب من سبتة فطلبتها فى بادس فلم نجدها، واشتد طلب الولد لها حتى قطعت الدخول اليه، قال فقلت اذهب الى عرصة الشيخ سيدى ابى يعقوب اسمع العلم وأخبار الصالحين، لعل خاطرى يستريح من أمر الولد، فلما دخلت العرصة لم نجد فيها غير الشيخ وحده، وهو يتوضأ فأردت الرجوع فأشار على بالدخول فدخلت، فلما فرغ من وضوئه قال لى كيف حال ولدك، قال فقلت له ياسيدى حسن كان ولكنه طلب منى نارنجة ولم أجدها، فاذا بالشيخ قام وادخل يده فى ربيع بازاء الحائط وأخرج منه نارنجة عظيمة جدا شديدة الحمرة حسنة الرائحة كأنها قطعت فى تلك الساعة، وأعطاها لى، وقال لى جعل الله راحته فيها، قال فأخذها الولد فشمها وكانت سبب راحته، قال وبقيت عندنا أياما وفقدناها، وهذه حكاية مشهورة عند أهل بادس، حدثنى بها جماعة من أهل بادس .

اهتمام الشيخ أبى يعقوب باليتامى :

وحدثوا عن أبى بكر الحيانى المذكور أنه كان يتصرف للشيخ فى شراء ثوب الايتام، وشراء زرع لهم يعطى له الشيخ الدراهيم ويشترى، فلما كان يوما وجد الشيخ خارجا عن العرصة الى د ره فتبعه، قال أبو بكر فقلت فى نفسى يارب، هذا الشيخ سيدى أبو يعقوب أى شىء دعاه لهذا الصداع الذى يشوش عليه، هذا اليتيم اشتر له ولهذا أفعل كذا، قال فاذ به رد رأسه وخرج، فقال كان سيدك أبو يعقوب قبل أن يعرفك ويعرف غيرك، ثم اعرض عنى وانصرف، قال فكدت أن أموت من مكاشفة سيدى أبى يعقوب وبهت، فاذا به رجع الى وقال يعلم الله تعالى أى شىء نعمل لهؤلاء الايتام قرابة سيدتك الزهراء أولاد أخيها، وأولاد أختها، وأولاد بنى عمها، ويقطع قلبى لا نقدر ما نعمل .

اجتماع اليتامى وذوى العاهات المزمنة فى داره بعيد الاضحى:

حدثنى عبد الله بن مغيث، قال جاءت لدار سيدى أبى يعقوب

ليلة عيد الاضحى بكر عمياء من قرابة السيدة الزهـــراء فأصبحت يـــوم العيد فى الدار، فاجتمع أهل الدار ومن بها من الايتام والمساكين وشــــووا اللحم وأكلوا حتى شبعوا، وكانت البكر العمياء لقرب عهدها بالورود على الدار والانس بأهلها، أصابتها حشمة وحياء، ودخلت فى بيت من بيـــوت الدار واختفت هنالك، والشيخ فى هذا كله مشدود عليه بيته يصلى، فاذا بالشيخ قد خرج من بيته الى البيت الذى فيه البكر العمياء، وصار يقـــول هنا من لم يأكل، وكان فى الدار قدرة بلحم حينا جعلت على النـــار، فغرف منها بيده فى أناء، وأخذ خبزا وحمل اللحم والخبز الى البكر العمياء، وقال لها كلى، قالت فأكلت لحما نضجا فتعجبت من اطلاع الشيخ على حـــالى، وهو فى بيته مشدود عليه، ومن نضج الحم من غير طبـــخ .

احترام المرور فى ملـــك الغـــير الا بحق :

وحدثنى أبو عبد الله بن مغيث المذكـــور عن أبى بكر الحيـــانى المذكور، قال خرج الشيخ سيدى أبو يعقوب من عرصته وجاز فى عرصـــة يعقوب بن يوجرتين المجاورة لها، قال وأنا وراء الشيـــخ، قال فلما وصلنا الى الوضع الذى جرى بينى وبينه ما جرى فى الايتام، قال فقلت فى نفسى كيف يجوز للشيخ أن يمر فى عرصة الغير، فاذا به قد رجع الى منحرفا كما كان صنع فى مسئلة الايتام، وقال لى يعلم الله حظ أمى فى هـــذه العرصة، يشير لعرصة بن يوجرتين باق الى الآن ما بعته ولا قبضت ثمنه.

تحليـــة العروس يـــوم زفافهـــا :

وحدثنى أبو عبد الله بن مغيث المذكور قال، لما تزوجت صفية بنت أبى الحسن على بن الكماد وأخذ فى زفافها، جعلت فى يدها (1) غرفة من ذهب كانت من متاع أختها زوجة ابن عياذ، فلما أراد النساء الانصراف أخذت امرأة ممن حضر الغرفة المذكورة وجعلتها فى حجرها ونسيتها، فلما قامت سقطت من حجرها وهى لم تشعر، فطلبت الغرفة فلم توجد وقامت قيامة عليها فى الدار، فمشت امرأة كانت تخدم صاحبة الغرفة لدار الشيخ

---

(1) لا يوجد اسم للسوار أو الخاتم بهذا الاسم ولعلها كلمة عامية.

سيدى أبى يعقوب وقالت له يا سيدى امرأة ابن عياذ ضاعت لها غرفة من الذهب من يد أختها العروسة فعسى أن تدعو الله يجبرها عليها فقال لها الشيخ سيدى أبو يعقوب تعطى فيها كذا للمساكين، وتجبر ان شاء الله تعالى وكان للشيخ عادة جارية ما انخرقت قط، اذا مشى اليه أحد بتلف شيء وقال له يخلفه الله عليك، فلا يجبر أبدا، واذا قال له تصدق بكذا ويجبر فلابد أن يجبره الله تعالى به، قال فانصرفت تلك المرأة الى صاحبة الغرفة وقالت لها، قال لك سيدى أبو يعقوب تعطى ربيعا كذا للفقراء وتجبر غرفتك، فقالت لها تعطى دينارا، ثم انصرفت فأخذت صاحبة الغرفة صرف دينار غير ربع وساقته فى طرفها للشيخ، وقالت له ياسيدى تلك الصدقة سقتها ، فقال لها وهو لم يعلم كم ساقت وقال من قال شيئا يوفيه، فبعث سيدى أبو يعقوب طالبا اسمه عيسى المصمودى كان يقرأ عليه، وكان رجلا صالحا، هو الان مدفون مع الشيخ فى روضته، قال فقال له الشيخ يا عيسى قل له لان يرد الغرفة التى عند زوجته، فقال له الشيخ اخرج من هنا وأول من تلقاه هو صاحبك، قال فخرج الرجل عيسى الطالب المذكور فلقى رجلا، فقال له يقول لك سيدى أبو يعقوب رد الغرفة التى عند زوجتك لصاحبها، قال فبعد ذلك جاء الرجل زوج المرأة، وقال يا سيدى ما قدرت فى تلك المرأة بشيء، فقال له الشيخ انظرها فى برسيل النخالة تجدها، قال فنظر فى برسيل النخالة فوجدها فأخذها وحملها الى الجامع بعد صلاة الغتمة، ورمى بها لعيسى الطالب ومن كان معه فى بيوت الجامع، فأخذها وحملها الى الشيخ سيدى ابى يعقوب، وحملها ليلا لدار صاحبتها، ونقر الباب فوقف له زوج صاحبتها فأنشد، سيدى أبو يعقوب (ما عودنى أحبائى قاطعة، بل عودونى اذا قاطعتهم وصلوا) ودفع له الغرفة وانصرف، هذه الحكاية مشهورة ببادس .

علاقة المزمة ببادس :

سمعت من غير واحد ببادس يحدث أن رجلا من التجار جاء من الاندلس صحبة القائد يحيى الرتراجى، وكان التاجر المذكور صاحب متاع كثير، وكانت معه شكارة فيها أثاث، حمله للناس من ثياب الخز

وغيرها، فاشتغل باحماله فسرقت له الشكارة، فجاء الى الشيخ سيدى أبى يعقوب فشكى له واستوهب منه الدعاء، فقال له الشيخ تعطى شيئا للمساكين ويجبرها الله عليك، فقال له ياسيدى عشرين دنانيرا ذهبا، فقال له الشيخ سر فى حفظ الله تعالى وآمل الله ان يجبرها عليك، وبعد يومين وصل رقاص من المزمة بكتاب واليها، يقول فيه وصل هنا رجل من الغزاة وبيده شكارة انكرناها عليه وسألناه عما فيها فتوقف، وثقفت الشكارة، فان كان هناك من ضاع له شىء فليأت، فتوجه الرجل التاجر الى المزمة واخرج زمامه وذكر منه جميع ما فى الشكارة فصرفت عليه شكارته، ورجع الى الشيخ مقضى الحاجة، فأعطى العشرين دينارا للمساكين، وحدثنى غير واحد من أهل بادس أن الشيخ رحمه الله كان متى احتاج شيئا من الدراهم قلت او كثرت يدخل يده فى جيبه ويحركه ويقول سبحان الله، ويخرج دراهيم جديدة، أو يحل أحد كتبه فيجد فيه الدراهيم، ورأيت خلقا كثيرا لا يحصون رأوه يخرج الدراهيم من جيبه ومن الكتاب، وأما أحفاده فحكوا لى أنه لم يزل بطول حياته يعطيهم من تلك الدراهيم شيئا كثيرا، وانه كان يقول لهم افلوا ثيابى فيفلونها فيجدون فى جيبه الدراهيم بعد أن لم يكن فيها شىء .

من أسباب تشاجر الزوجين :

وحدثنى أبو العباس احمد بن المؤذن، عن الطالب المعلم للكتاب العزيز أبى عبد الله محمد بن احمد، قال طلبت منى زوجتى أن أشترى لها (1) كنبوشا، قال فاعتذرت لها ولم تقبل لى عذرا، فتشاجرنا بسبب ذلك، وخرجت عنها وأنا مكروب، فمشيت الى الشيخ سيدى أبى يعقوب فجلست بين يديه، واذا به ادخل يده فى جيبه، وصار يحركه ولم يجد فيه شيئا، وزاد فى تحريكه ويقول سبحان الله سبحان الله فاذا به اسمع حركة الدراهم فى جيبه، فاخرج لى أربعة وعشرين درهما، وقال لى خذ اشتر بهذه للفقيرة متاعك كنبوشا، فأخذتها وانصرفت وأنا أتعجب من قدرة الله عز وجل فى اطلاع الشيخ على ما بينى وبين امرأتى، وفى اخراج

(1) الكنبوش هو خرقة من الكتان تشد به المرأة رأسها وهى لهجة محلية.

تلك الدراهيم، وحدثني الشيخ أبو عبد الله بن مغيث وكان شديد الملابسة للشيخ والتصرف في حوائجه والنفقة له والدخول الى بيته والخروج منه، لكون السيدة الزهراء زوجة الشيخ سيدي أبي يعقوب خالته، قال كلما كان الشيخ يحتاج لنفقة داره يقول لي يا محمد امش للطاق، ونمشي للطاقة ونرفع الكتب فنجد الدراهم تحتها، قال وسمعت الشيخ يقول الله اعلم كلما نحتاج لنفقتي نجده تحت الكتاب في الطاقة، قال عبد الله بن مغيث ما زلت طول السنين أخرجها بيدي ؟

الشيخ عيسى بن عبد الكريم صاحب زاوية سيدى عيسى

قال مؤلف هذا، ان لبني ورياغل رجلا مسنا من أولياء الله تعالى، اسمه عيسى بن عبد الكريم، وانه من جماعة الشيخ ابى ابراهيم الاعرج، وان له أسلافا صالحين أولياء، فتشوفت الى رؤيته كثيرا الى أن يسر الله على، فمشيت الى موضعه واجتمعت معه وبت في بيته وأكلت طعامه، ورأيت له بركة عظيمة، وهو رجل أمي لكنه يحفظ من مسائل الفقه ما يحتاج اليه في دينه من العبادات والمعاملات شيئا كثيرا، ويتكلم في دقائقه كلاما تعجبت منه تعجبا عظيما، فكنت اتحدث معه في كرامة الصالحين، الى أن تكلمنا على الشيخ سيدى أبى يعقوب نفعنا الله به، فقال سيدى عيسى بن عبد الكريم نعرفكم بما رأيت من كرامات سيدى أبى يعقوب نفعنا الله به، فقلت له يا سيدى بالله عرفنا، قال نعم جاء العيد الكبير وكانت عندى غنم بالجبل، فمشيت اليها واخترت منها كبشا سمينا، وسقته لاضحى وكان رجل جاء معى في أثناء الطريق بدابته، فحمله لى وقال فلما بلغنا الى مفترق الطريق وضع لى الكبش عن الدابة وانصرف فبقيت أجره وهو يتصعب على، الى أن قربت الشعبة وأنا قد عييت، والكبش قد عيا ورقد في الارض، ولم يقدر على الوقوف، وأنا في غابة ذات سباع كثيرة، ولم أقدر أن أنجو بنفسي وأترك الكبش، ولا أن أجلس معه فتأكلني السباع، وحارت مذاهبي، قال فقلت اللهم ان كان للشيخ سيدى أبي يعقوب عندك مقام وهو مقبول عندك فاجعل لى من أمرى هذا فرجا ومخرجا، وصلى الله على سيدنا محمد وآله، قال فما أتممت الدعاء الا والكبش قد نفخ وانتفض انتفاضتين وجرى أمامى فصرت أجرى وراءه حتى دخل في بيتي، فانطرحت في الارض مما جريت وراءه .

ذكر رؤية الشيخ رضى الله عنه للخضر عليه السلام :

وقد تقدم فى صدر الكتاب ذكر رؤية الشيخ رضى الله عنه للخضر عليه السلام على البئر تحت الرابطة، حين بعثه مربيه سيدى أبو يحيى الشامى برسم استسقاء الماء، وتلك أول رؤية كان له رحمه الله، حدثنى أبو عبد الله بن مغيث قال سمعت الشيخ سيدى أبى يعقوب يقول أول رؤية رأيت الخضر عليه السلام الرؤية التى رأيته على البئر .

الفقيه القاضى أبو البركات الاندلوسى :

وحدثنى أبو العباس احمد بن المؤذن، قال كنت جالسا مع الشيخ سيدى أبى يعقوب رضى الله عنه ونفعنا به فى عرصته، وكان معنا فى المجلس الفقيه القاضى أبو البركات البرفيقى الاندلوسى، فقال لى الفقيه أبو البركات يا فقيه أبا جعفر عسى أن تنظر لى مويهة حلوة اشربها، فقال لى الشيخ سيدى أبو يعقوب ولاى شىء لا يشرب من تلك السانية فمشى الى سانية عرصته، فقال له الفقيه أبو البركات يا سيدى ماؤها شلوق، فقال له الشيخ سيدى أبو يعقوب يعلم اللله يا سيدى لا تشرب ولا تتوضأ مدة بقائك ببادس الا منها، وكذلك فعل حتى انصرف من بادس،

الشيخ الصالح أبو الحسن على :

وحدثنى أبو عبد الله بن مغيث عن والده الشيخ الصالح ابى الحسن على خديم الشيخ سيدى أبى يعقوب، قال كان والدى رحمه الله فى المسجد الجامع من بادس جالسا مع سارية من سوارى المسجد والشيخ سيدى أبو يعقوب جالس مع الحائط يتحدث مع رجل رأيته ولم اتحقق صفته، فبعد ذلك بمدة فاذا بالرجل قد انصرف وجاء الشيخ سيدى أبو يعقوب وحده الى جهة السارية التى كنت معها، فقال لى وهو يبتسم يا على رأيت الرجل الذى كان يتحدث معى، قال فقلت له لا يا سيدى الا أنى علمت أنك تتحدث مع شخص فقال لى ذلك الشخص هو الخضر عليه السلام، قال فارتعدت برأسى، وسلبت عن عقلى اسفا على ما فاتنى من رؤيته والتبرك به، وبقيت ثلاثة أيام هائما متحيرا لم آكل ولم أشرب، قال وكانت عادتى مع الشيخ اذا خرج الشيخ من المسجد بعد صلاة العتمة ان أصل معه حتى يدخل داره، قال فلما كان بعد ثلاثة أيام المذكورة دخل الشيخ

الى داره بعد صلاة العتمة وأردت الانصراف، فقال لى يا على هنا تبيت الليلة عندى، قال فدخل ودخلت معه فأخرج زوجته الى البيت الآخر، وبت أنا والشيخ فى البيت، فقام الشيخ يصلى وقمت أنا أصلى فى الجهة الاخرى من البيت، فصليت ما شاء الله، ثم أصابنى كسل عن الصلاة، فلم أقم أصلى، فجلست جالسا ثم اضطجعت فنمت، فاذا أنا فى النوم فى عرصة الشيخ سيدى أبى يعقوب والشيخ عند الصهريج أمام الساقية ومعه فقير على زى الاعاجم، ويده فى يد الشيخ، والشيخ يقول لى يا على هذا هو الفقير الخضر عليه السلام، قال فقبلت يده وتبركت به ثم افقت، فاذا بالشيخ قد تنحنح وقال لى يا على رأيته، قال فقلت له يا سيدى نعم رأيته؟

الشيخ أبو يعقوب فى جامع عمرو بن العاص :

وحدثنى أبو عبد الله مغيث عن الشيخ أبى يعقوب قال كنت فى جامع عمرو بن العاص أنا والخضر عليه السلام نتحدث، فاذا بوالدك يعنى على بن مغيث جاء وجلس الينا وقبل يدى الخضر عليه السلام، وصار يقول له يا سيدى ادع لنا أن يجمعنا مع أولادنا، قال الشيخ سيدى أبو يعقوب فكان الخضر يدعو له بلسان الاعاجم ما فهمت ما يقول له فى دعائه وحدثنى أبو عبد الله المذكور، قال سمعت سيدى أبا يعقوب يقول، اجتمعت مع الخضر عليه السلام فى جامع عمرو بن العاص ثلاث مرات، قال مؤلف هذا الكتاب غفر الله له، رأيت فى كتاب مناقب الاولياء لسيدى أبى الحسن المراكشى رحمه الله ونفع به، قال على بن محمد خرجت يوما من مصر أريد الميمون لزيارة رجل مخفى على الناس لا يعرفه الا رجال معلومون، وما يمكن لى أن أذكر اسمه، فبينما أنا على شاطىء النيل ماشيا اذ انا بالرجل عليه حلة العجم، وعليه مرقعة وبيده أبريق فسلم علينا مبادرا، فرددت عليه السلام، واثر البشاشة على وجهه، وكان وقت صلاة الظهر فقال أم بنا نصلى الفريضة، فقلت له نعم وكنت على وضوء، ثم قلت له صل بنا قال نعم فأخرنى عن يمينه ثم قال لى تأخر قليلا فان هذه هى السنة فى صلاة الاثنين، فصلينا فكان يطيل السجود والركوع، وما طيت صلاة اتقن منها، وكنت أسمع خلفنا ونحن نصلى، فنظر الى وضحك حتى انظر الى ثناياه، وقال لى يا على أما تعلم

ان ملائكة هذا الموضع صلوا معناء فتعجبت منه الذى عرف اسمى من غير أن أعرفه، وعلمت أنه من الاولياء بلا شك ثم قال لى لو أدركت يقينا فى علم التوحيد لرأيت الملائكة بعينك وكنت أظن بنفسى أنى على شىء فقلت له يا سيدى علمنى مما علمك الله، قال نعم فقال لى أذكر ما علمت فذكرت له شيئا فضحك منى، وقال لى يا على لو أعطيت من علم التوحيد ذرة لحملت السماء على جفن عينك ثم قال لى لا يقع نظرك فى عالم مشاهدتك وغيبتك الا على الله لانه ما فى الوجود غيره، فنظرت فلم أر أحدا فغشى على ساعة، ثم قمت فمشيت حتى وصلت الميمون، فحدثت بذلك السيد الذى جئت لزيارته، فقال لى هو الخضر عليه السلام، فبهت فى وجهه، فقال لى أى شىء يبهتك ما جاءنى رجل قط حتى يلقاه صلى الله عليه وسلم، ومن عندى خرج أمس فبقيت متحيرا حيث لم أسأله أكثر مما سألته فعلم ذلك السيد منى فأقعدنى عنده ثلاثة أيام، ثم أردت أن أودعه وانصرف، فقال لى أقعد الساعة حتى ياتيك صاحبك الاعجمى، الذى هو الخضر عليه السلام، فسررت لعلمى بصدق السيد، فقعدت اليوم الرابع حتى الى وقت صلاة الظهر، فاذا بباب السيد قد قرع فقال لى قم فافتح، فقمت الى الباب ففتحته فاذا أنا بالرجل العجمى الذى صليت معه وأنا متأسف على ما فاتنى من سؤاله عن شىء انتفع به فلم تظهر منى بشاشة من شدة الفرح، فدخل الى بيت السيد فصلى بنا الظهر، ولم أر السيد قرب اليه طعاما ولا شرابا بخلاف عادته مع من يرد عليه من الاولياء، ثم تكلم السيد معه بكلام ما كنت أفهم منه الا بعض الكلمات، وأنا ساكت لا أستطيع خطابا ولارد جواب، فلما فرغ أخذ فى الدعاء فلم أعلم منه الا ثلاث كلمات: الكلمة الاولى ياحى مع كل حى يامن لا يفوته شىء، والثانية يامن أحاط بكل شىء علما، وقهر عباده بالموت والفناء، والثالثة يامن تقدست أسماؤه ولا يخصيها غيره، ثم قال لى السيد الولى قم الى موضعك الذى أتيت منه فبكيت بكاء شديدا حتى كادت روحى تزهق فجبر العجمى قلبى، وقال لى نجتمع يوم الجمعة بمصر فى الجامع، فقلت له ما أعرفك أين أجدك مقال تجدنى فى مسجد عمرو بن العاص، فحينئذ طابت نفسى، ثم ودعت

السيد والرجل الاعجمي، وصرت الى مصر، فنظرت اليه فعرفته وما وجدت معه أحدا، فصليت ركعتين وسلمت عليه، فأخذ بيدي واقعدني على يمينه، فسألني عن حالي فأخبرته فبقيت بمصر سنه اشهر، اجتمعت معه فيها ثلاث مرات في ثلاث جمع وهو لا يجالس فيها أحدا، فوقع في نفسي ان الناس محجوبون عن رؤيته، فعلمني فيها ثلاث علوم، وأوصاني الا أعلمها لاحد الا عند موتي، فقلت له أعلمها لاحب الناس الي، قال ما تستطيع ذلك ما يعلمها الا من قسم الله له بها، فلم يزدني أكثر من ذلك ثم أمرني بالمشي الى بيت المقدس، فمشيت باذنه، وما رأيته بعد ذلك، فعلمت أن ما كان قسم لي الا ما علمني .

القاضي المفتي الشريف أبو عبد النور العمراني ببادس :

حدثني أبو العباس بن المؤذن، وأبو عبد الله بن مغيث وغيرهما وأهل بادس، وكنت سمعت هذه الحكاية لاكن لم أتحقق هل هي على النسق من الشيخ الفقيه المفتي الشريف القاضي ابي عبد النور بن محمد العمراني بمدينة بادس يحكيها عن الشيخ أبي يعقوب والذي سمعته من المذكورين ببادس ان الشيخ سيدي أبا يعقوب .

الشيخ الصالح المؤذن ببادس وتعبير الرؤيا :

حدث أنه كان يرى الرؤيا فيحتاج فيها الى تأويل، والى نظر في الكتب، قال فقال لي المؤذن الصالح الموقت عيسى بن عمر اذا رأيت الرؤيا فانظر اليوم أو الليلة التي تراها فيه، واحسب كم يوم مضى من الشهر وعد على عدد الايام من سور القرآن من أول الفاتحة، وتلك السورة التي توافق في العدد اليوم الذي رأيت فيه الرؤيا، تعد من أولها من الايات على عدد السور التي عددت أيضا، ففي الاية الموافقة لليوم الذي رأيت فيه الرؤيا، الى أن جاءني أبو العباس احمد بن يوسف بن اسماعيل وقص على رؤية رآها، ففسرتها بالوجه المتقدم، وقلت له اذا أنت رأيت رؤيا ففسرها على وجه كذا وكذا، وعلمته التفسير المقدم، فلما كان بعد ذلك وأردت أن أفسرها بذلك التفسير نسيته، فأردت أن أتذكره من عند الشيخ المؤذن أبي مهدي عيسى المذكور، فقلت له ذلك التفسير الذي علمتني أذكره لي واني نسيته، قال فقال لي والله ما علمتك شيئا قط ولا ذكرته

لك ولا عندى منه علم، فانصرفت عنه وعلمت أن الذى كـان علمنى ذلك هو الخضر عليه السلام، قال مؤلف هذا، مازلت أفسر الرؤيـا على هـذا الوجه فلا يظهر لى شىء فيها، فعلمت أن فى هذا التفسير سـرا لم يطلع عليه الا الشيخ سيدى أبو يعقوب وأمثاله، ولم يظهر ذلك السـر لى ولا لأمثالى، مثل أن يكون فى باطن تلك الآية التى تعبر بها الرؤيا ما يطلـع عليه الا أولياء الله تعالى ولا يطلع عليها غيرهم، وقد تقدم فى الحكايـة فى صدر الكتاب عن سيدى عبد الله المغراوى أنه كان يقرأ فى اللوح الواحد من القرآن خمسة أشهر وستة أشهر فى كل نفذه ينفذه يرقى الى مقـام المعرفة، وقد قال سيدنا ومولانا على بن ابى طالب رضى الله عنه وكرم وجهه للقرآن ظاهر وباطن وحد ومطلع والله أعلم .

الخطيـب أبـو الحسـن :

حدثنى حفيده الخطيب أبو الحسن أنه سمع من الشيخ سيـدى أبى يعقوب أنه قال يعلم الله ليس كل واحد يعبر الرؤيا على هذا الوجه، وانه قال عن الرجل الذى علمه ذلك انه الخضر قال وكان سبب قول الشيخ فى ذلك انى رأيت رؤيا فأخذت فى تعبيرها على الوجه المذكور، فاذا بالشيخ يصيح من بيته يا على فجئته ودخلت الى بيته، وقال لى يعلم الله ما أحد يعبر الرؤيا على ذلك الوجه .

ذكر رحلة الشيخ سيدى أبى يعقوب رضى الله عنه الى المشرق :

حدثنى أبو عبد الله بـن مغيث قال سافر الشيخ سيـدى أبو يعقوب الى الحجاز فى شهر الله محرم من خمسة وسبعمائة وكان خروجه فى يوم السبت ولما كان الجمعة الذى سافر فيه جاء من البادية الى بادس خلق كثير من الطلبة والفقراء والصلحاء برسم رؤية الشيخ والسلام عليه، فصلوا معه الجمعة، وخرج الشيخ للمقابر برسم الزيارة على عادته، فخرج وراءه أولئك القوم الى مقبرة من المطلى، فوقف ثمه وجازوا عليه، وأخذوا فى البكاء على فراقه ورغبوا منه القعود، فقال لهم يعلم الله ما مشيـت الا مأمورا رأيت النبى صلى الله عليه وسلم وأبا بكر وعمر رضى الله عنهما وذكر كلاما لم أثبت عليه الآن لبعد ذلك التاريخ قال مؤلف هذا كـان :

الفقيه أبو عبد الله الرهونى ببـــادس :

حدثنى بمدينة بادس صاحبنا الفقيه أبو عبد الله الرهونى، حين رجع من زيارة الشيخ سيدى أبى يعقوب رحمه الله قال، قال له الشيـــخ سيدى أبو يعقوب كان سبب حجتى انى رأيت النبى صلى الله عليه وسلم وابا بكر وعمر وقبل دخوله فى ركن المحراب الجامع قمت فسلمت عليـــه، وأقبلت على النبى صلى الله عليه وسلــم وقلت له ما جاء بك يا حبيبـــى يا رسول الله، فقال لى يا يوسف جئت لزيارتك، قال فقلت لـــه أنا أحـــق بذلك ثم أخذت فى السفــر .

خروج الشيخ أبى يعقوب للحـــج :

وحدثنى أبو عبد الله بن مغيث قال خرج سيدى أبو يعقوب مـــن بادس يوم سفره الى الحجاز وخرج معه أصحابـــه الذين سافروا معـــه، وخرج لوداعهم طائفة من أهل بادس فباتوا تلك الليلة بموضع يقال لـــه ازمورا عند رجل صالح يقال له عيسى بن المعلم، وكان غزير الدمعـــة، ما يسمع شيئا من تلاوة القرآن او الموعظة الا ويبكى بكاء شديدا، قال فانزل الشيخ فى بيت وحده، وانزل من عداه من الواردين معه فى موضع آخـــر وصنع لهم طعاما وأكرمهم غاية، قال فأخذ الشيخ فى الصلاة والدعاء فلم يزل يدعو حتى دخلنى عجب فى ذلك، فاذا أنا أسمع قائلا يقول لى مـــن ركن البيت الذى كنت فيه يا يوسف أدع الفضل عميم والرحمة واسعة، قال مؤلف هذا، قد كنت قبل أن أقف على هذه الحكاية أدعو فى الصلاة وعنـــد زيارة قبور الاولياء لنفسى ولامير المؤمنين وولاة أمرهم ولجميع قرابتى وأهلى ولجميع أهل بلدى ولجميع المسلمين، ولم يخطر بخاطرى أن أقول لنفسى يايتها العاصية المستمرة على ما أنت عليه من أنت حتى تدعو هذا الدعاء ليت العجل يهضم نفسه ثم خطر بخاطرى مرة اخرى ان قلت مـــن جاء الى ملك كبير من ملوك الدنيا فطلب منـــه قيراطا أو خرسا أو شيئـــا يسيرا من متاع الدنيا فقد أســـاء الادب عليه، ولم يقدره قدره، فكيـــف يستطيع أن يسأل من ملك يوم الدين جل جلالـــه وتقدست أسمـــاؤه، أى شىء كان فاستمرت حالتى على ذلك الدعاء والحمد لله الى أن رأيت هذه

المسألة التي جرت للشيـخ سيدى أبى يعقـوب ففرحت وزدت الدعـاء والحمـد للـه .

سفـره عن طـريق الجزائـر :

قال مؤلف هذا لما وصل الشيخ سيدى أبو يعقوب الى الموضـع الذى بات فيه ورجع المودعون له، سافر هو واولئك القوم الذين خرجـوا معه من بادس برسم الحج، وكانوا أناسا قليلين فبلغهم الخبر فى (1) كرط ان الركب قد رحل من تلمسان منـذ أيام، فخاف مـن كان مع الشيـخ فبينما هم كذلك يتحدثون فى أمر الركب اذا برجل عليه زى الطلبـة قـد وقف الى الشيخ، وقال له لعلك تغيرت من فوات الركب، لا تخف، ولا يكن نظرك الا الى مكة، فانها فى قبضتك قال ثم صار الرجل اذا رحل الشيـخ ومن معه يتقدم أمامهم، فاذا نزلوا يغيب عنهم، فما زال معهم كذلك حتى لحقوا الركب فى جهة بجاية، وذكر لى عن الشيخ أنه كان يقول أنه الخصر عليه السلام، حدثنى الشيخ أبو زكرياء يحيى الشاكرى خديم الشيـخ سيدى أبى يعقوب فى طريق الحجاز قال ما ترك الشيخ سيدى أبو يعقوب شيئا من أوراده كلها لا صلاة ولا صوما ولا قراءة القرآن ولا شيئا ممـا كان يفعله وهو مقيم، قال الحاج الصالح أبو زكريـاء يحيى المذكور ومـا نزل فى بلدة ولا قرية ولا مفازة لا يكون فيها عمران، الا ويبعث الله تعالى له رجالا صالحين يتبركون به ويضيفونه ويسعون فى قضاء حوائجهـم، وأما هو فما كان يحتاج لاحد فى شىء غير الماء والمأوى، ولم يزل كذلـك ماشيا وجائيا، قال الحاج يحيى المذكور لم أزل فى برقة ولا فى طريـق الحجاز ومكة والمدينة أحمل ركوة الشيخ فى يدى، وأسير معـه ومهمى احتاج الى الوضوء ينزل عن ظهر البعير ويتوضـأ، واذا سألنى أحد أن يشـرب من الركـوة أعطيتـه يشرب منها، لكون الشيخ أمرنى بذلـك، وما فقدت الماء من تلك الركوة قط، قال مؤلف هذا، رأيت فى كتاب مناقب الاولياء لسيدى ابى الحسن المراكشى قال سرت يوما الى سياحة فتبعنى شاب اسمه يوسف، وكان يواصل خمسة عشر يوما فلما رأيته قلـت لـه

---

(1) وادي كرط بقبائل الناضـور .

ارجع الى الفقراء خير لك، فلم يفعل فرغبنى وبكى فتركته، وكنت أريد أن أصل الى أسوان الى رجل يعرف بعبد الله الهرغى فمشى معى الشاب ومعه الابريق، وكنت أردت أن أمشى على الاقصور، فسرقتنا طريق صغيرة فتهنا فى صحراء، ومشينا النهار كله فيها وبتنا الليل ثم أصبحنا، ونحن نصلى بالتيمم، ثم مشينا الى وقت الزوال، فقعدنا الى الارض واشتد علينا الحر، وحميت علينا الشمس، والابريق بيد الشاب، وأنا أقول يا يوسف أصابنى العطش، فقال لى ياسيدى أقعد مكانك، فتوارى عنى وراء تل رمل فأتانى والابريق مملوء بماء، فنظرت اليه ونظرت الى الابريق فكان العطش لم يصبنى من شدة ما وجدت من الشاب فقلت له والله لاشربت من هذا الابريق شيئا حتى تعرفنى من أين هذا الماء، الذى جئت به فى الابريق، فقال لى ياسيدى انى أعرف فى هذا الموضع مكان الماء فقلت له يا ولدى لنا يومان تائهان فى هذه الصحراء، وما عرفت الطريق فكيف تعرف موضع الماء، ثم قال ياسيدى أقول لك الصدق لولا انى اعتقد فيك ما عرفتك بحديثى، كما لم أعرفه أحدا غيرك، فقلت له عرفنى، قال نعم يا سيدى هذا الابريق له عندى خمس سنين، وأنت تعلم انى متجلد على الوصال، فاذا أردت أن أدخل الى الصحراء برسم الحج، آخذ هذا الابريق معى، فاذا أصابنى العطش أدخلت تحتى فاسمع الماء ينزل فيه باذنى، ولا أعلم من حيث هو فاشرب وأتوضأ وبه أقوى على الصحراء، قال فقلت له ان كان قولك حقا فاهرق الماء الذى فى الابريق، واجعل ما ذكرت، فهرق الماء من الابريق حتى لم يبق فيه شىء، ثم قام واقفا وادخله تحته ثم قرب منى وقال اسمع باذنك الى الابريق، فجعلت أذنى عند عنقه فبالله الذى لااله الا هو لقد كنت اسمع نزول الماء الى الابريق كأنه ينصب من ميزاب، ثم أخرجه من تحته مملوءا بالماء، فقلت أشهد أن الله على كل شىء قدير، وان الله قد أحاط بكل شىء علما وانه فعال لما يريد، فتناولت الابريق من يده وقلت له يا ولدى يا يوسف ومن هذا الماء ينبغى أن يشرب لقربه من الكون، فشربته ماء أحلى من كل ماء وابرد من الثلج، حتى رويت ثم ناولته أن يشرب فامتنع، ثم قال لى توضأ فتوضأت وتوضأ منه وصلينا الظهر، ثم قعدنا فى الموضع حتى صلينا العصر، ثم مشينا الى

المغرب فبتنا تلك الليلة ونحن لا نعلم حيث نحن، فلما أصبحنا صلينا الصبح ثم مشينا مع البحر فرأينا النخيل فلما قربنا منها عرفنا البلد واذا الاقصور، فبتنا تلك الليلة عند الشيخ أبى الحجاج الاقصورى، ثم مشينا الى أسوان، وكان قريب العيد الكبير، فقعدنا عند الشيخ أبى محمد الهرغى، وعيدنا عنده العيد الكبير، ثم أراد الشاب أن يمشى، فتركت سبيله وهو الآن بمكة، ويبعث لى بالسلام مع كل من يعرفنى، فخروج الشاب يوسف معى لتصرفه نفع الله بهم أجمعين .

الشيخ أبو يعقوب فى الحجاز :

وحدثنى الشيخ أبو زكرياء يحيى الشاكرى أن الشيخ سيدى أبا يعقوب لم يفطر مدة غيبته فى الحجاز غير أيام الاعياد ويوم بين مكة والمدينة كان أصاب الناس فيه حر شديد ومات من الناس ألفان أو ما ينيق، فأفطر الشيخ فى اليوم .

زيارته لقبر اللخمى بمصر :

وحدثنى الحاج أبو زكرياء المذكور ان الشيخ سيدى أبا يعقوب مر بقبر الشيخ سيدى أبى الحسن اللخمى مؤلف التبصرة، وانه شك هل هو قبره أم لا، قال فقال اللهم ان كان هذا هو قبر الشيخ أبى الحسن حقا فاطعمنا ببركته اليوم تمرا قال فلما كان بين العشاءين جاء رجل الى قيطون الشيخ بطبق من تمر، وقال لى هذا التمر أريد أن يأكل منه هذا الرجل الصالح، فأخذته وادخلته للشيخ، وحدثنى الشيخ أبو عبد الله بن مغيث قال سمعت سيدى أبا يعقوب يقول كنت فى جامع عمرو بن العاص قرب رمضان، فاذا برجل جاءنى فقال لى أريد أن أقرأ عليك القرآن، قال فقلت له لا أجد لذلك حتى ينصرم شهر رمضان، قال فلما انصرم شهر رمضان جاء الرجل المذكور فأخذ يقرأ على بالسبع والشاذ، ويتكلم فى الآيات بتفسير، ما سمعته ولا عرفته قط، قال فقلت له يا أخى أنت جئت لتقرأ على وتستفيد منى، فاذا بى أستفيد منك، قال فقال لى انما قصدت البركة فقط، قال فلما جاء الى سورة الانعام قلت له يروى أن هذه السورة نزلت على النبى صلى الله عليه وسلم مرة واحدة، ونزل من الملائكة ستمائة ألف، وان فيها اسم الله العظيم

الاغظم، قال فقال لى اذا جئت الى قوله تعالى لن نومن لك حتى نوتى مثل ما أوتى رسل الله، والله يعلم حيث يجعل رسالاته، ثم تدعو فان الدعاء يجاب عند ذلك، قال فلما رآنى استعظم عليه واتعجب منه غاب عنى، وسمعت غير أبى عبد الله ابن مغيث المذكور يقول أن ذلك الرجل كان الخضر عليه السلام، وحدثنى الحاج الصالح الشيخ أبو زكرياء الشاكرى خديم الشيخ سيدى أبى يعقوب، قال اجتمع الشيخ سيدى أبو يعقوب فى مصر برجل من أولياء الله الكبار كان حمالا يحمل الخبز فى قفص حديد، وكان يعطى للشيخ سيدى أبى يعقوب رغيفتين فى كل يوم، قال الحاج يحيى طال ما أكلت من ذلك الخبز، وكان امام جامع عمرو بن العاص رجلا صالحا، وكان يجتمع مع سيدى أبى يعقوب ويتبرك به ويرغب منه أن يجمعه مع الحمال، فلما كان ذات يوم اجتمع الحمال مع سيدى أبى يعقوب فى مسجد عمرو بن العاص وكان يتحدث معه فاذا بالشيخ سيدى أبى يعقوب رد رأسه لينظر الى الامام المذكور ليجمعه مع الحمال، قال فغاب الحمال عنه، قال فلما كان بعد ذلك اجتمع الحمال مع الشيخ سيدى أبى يعقوب فعتب (أى الحمال) عليه ذلك، وقال له لاى شىء تدل على، فقال له الشيخ انما دللت عليك رجلا صالحا، فقال له اياك أن تعود لمثلها؟

سفره الى ابن غازى بليبيا ورجوعه للحجة الثانية :

قال الحاج يحيى لما حج الشيخ سيدى أبو يعقوب الحجة الاولى ورجع الى مصر واجتمع مع الحمال، قال الحمال لابى يعقوب أى شىء تريد أن تعمل، قال له الشيخ أريد أن أرجع الى المغرب، فقال له الحمال حتى تحج حجة ثانية، ولابد لك من ذلك ان شاء الله تعالى، قال فغلب على الشيخ الذين جاؤوا معه من المغرب، فرحل الى جهة المغرب فلما بلغ الشيخ الى اسكندرية طلع فى البحر فى مركب، وطلعنا معه يقول الحاج يحيى، فسرنا حتى اذا بلغنا الى موضع يقال له مرسى ابن الغازى من مرسى برقة، عطب المركب الذى كنا فيه وسلمنا الله تعالى، وخرجنا فى الساحل، فوجدنا مركبا قد فرغ الزرع فى المرسى المذكورة، وهو يريد السفر الى طرابلس، فأطلعنا فيه مغربى فلما رفع القلاع وقف المركب،

ولم يمش، فقال الشيخ هبطوني هبطوني، فهبط وهبطنا معه فقال خاطر الحمال فعل فينا تعالوا نرجع فرجع ورجعنا معه من برقـة الى مصـر فى البر مسافرين فى الحين، فلما اجتمع الشيخ مع الحمال فى مصر قال لـه يايعقوب لابد لك من حجة ثانية، فقال له الشيـخ نعم ورجع حتى حـج حجة ثانية، فلما رجع من الحجة الثانية واجتمع بالحمال قال له يا يعقوب الآن ترجع الى المغرب، فرجع الشيخ الى المغرب، قال مؤلف هذا، قلـت للحاج يحيى أرأيت أنت الحمال، فقال لى لا، كأنى يوما جلست فى جامـع عمرو بن العاص وعلى ثياب خلق جدا ممزق فاذا برجل وقف عند رأسى، فلم أره لكونى كنت جالسا، وهو قائم وحجبـه الله عنى، فالقى الـى قميصا وسروالا وعمامة، قال فلبست الثياب وانصرفت الى الشيخ سيدى أبى يعقوب، فلما رآنى قال لى بالصحة، هل تعرف من أين هذه الثيـاب، قلت له لا ياسيدى فقال لى أنا نعرف من أين هى، قلت فعلمت أنها مـن عنـد الحمـال .

ترحمه على أخيه ابى العباس احمد المدفون بمكـة :

وحدثنى الحاج أبو زكرياء يحيى المذكور، قال فلما دخلنا مكة كان الشيخ سيدى أبو يعقوب يطوف الليل كله وما رأيته نام فيها ليلا أصلا، وكان الخروج الى مقابر باب المعلا يترحم على من هناك ويزور المقابـر ، فدخلت عليه يوما فوجدته جالسا فى الحرم، فقال لى يا يحيى ترحمت اليوم على احمد، وقرأت عليه ودعوت له، قال فقلت له ياسيدى ومن أين عرفته قال فقال له هو اعلمنى بنفسه، قال لى يا أخى يا يوسف جميع ما فى هذه المقابر ينتفع بك، وأريـد أن تخصنى من بينهم بشىء، قال فقلـت له ياسيدى فى النوم رأيته، قال فقال لى لا فى اليقظة مثل ما أنا أكلمك وتكلمنى، وكان حكى لى أن الشيخ سيدى أبو يعقوب كان له أخ سيـد فاضل، وكان أصغر من الشيخ وكان سلم للشيخ أبى يعقوب فى جميـع ميراثه فى أبيه اعانة للشيخ على ما كان بسببـه من العبادة فانفـرد الشيخ بميراث أبويه كله اذ لم يشاركه فيه غير أخيه المذكور وحدثنـى أبو عبد الله بن مغيث المذكور قال كان سيـدى الحاج أبو العبـاس أخ سيدى أبى يعقوب رجلا خياطا وكان زاهدا فى الدنيا تاركا لها، وكان له

طرق الى الحج، وحج اثنتى عشرة حجة، وكان له صوت حسن وتطوف لطيف، وكان يسكن ستة أشهر بمكة وستة أشهر فى المدينة، واتفق له بالمدينة ان كان فى بعض نخلها وهو ينشد قصيدة :

دموعى على واد العقيق عتيق ولى زفرة تعدو بها وتتوق

فلما جاء فى القصيدة الى قولها :

نعتونى فقالوا هاك محمدا وهاك أبا حفص وهاك عتيق

قال سمعه شاب رافضى من حائط هناك فخرج اليه مغاضبا ولطمه لطمة عظيمة، وقال له يابن الفاعلة أنت رأيت أبا بكر وأبا حفص معه ، يعنى مع النبى صلى الله عليه وسلم قال فجلس سيدى أبو العباس الى الارض مكترثا مما فعل به الرافضى مستغفرا الله من ذنبه، فان الصوفية قالوا من جنى عليه فليستغفر الله، قال فخرج اليه رجل من ذلك الحائط، وأخرج له تمرا، واعتذر واسترضاه فترك له تمره، وانصرف الى بيته بالمدينة فاضطجع فنام فاذا به يرى فى نومه النبى صلى الله عليه وسلم قد أخذ الرافضى الكاظيم له من تلابيبه، وأبو بكر قد حبسه من احدى يديه وعمر من الاخرى، والنبى صلى الله عليه وسلم يقول حق على المزار أن يكرم زائره.

حنين أم أبى العباس أخى أبى يعقوب اليه وهو مازال حيا فى مكة:

وحدثنى عن الشيخ سيدى أبى يعقوب أنه كان ببادس مع أمه يوم عيد الاضحى، وأمه تبكى على ولدها الحاج احمد هذا اذ كان فى الحجاز وذكر لها عنه أنه مات، فقال لها سيدى أبو يعقوب أى شىء تعطى للفقراء اذا جاء ولدك، فقالت له ثيابى هذه، فقال ياحمد أمك تبكى عليك وتدعوك، قال سيدى الحاج احمد كنت بمكة فاذا بى أسمع صوت أخى يوسف، وهو يقول ياحمد أمك تبكى عليك وتدعوك، فأخذت فى السفر الى المغرب حتى رجعت الى أمى وفى الحديث الصحيح عن النبى أن شابا من الانصار توفى وله أم عمياء فسجيناه وعرفناه، فقالت مات ابنى فقلنا لها نعم، قالت اللهم ان كنت تعلم انى هاجرت اليك والى نبيك رجاء أن تعيننى على كل شىء فلتحملنى على هذه المصيبة، فما برحنا أن كشف الثوب عن وجهه فطعم وطعمنا، وروى عن عبد الله الانصارى كنت ممن

دفـن ثابـت بن قيـس، وقتـل باليمـامة فسمعنـاه حـين ادخلنـاه القبر يقول محمد رسول الله صلى الله عليـه وسلم أبو بكر الصديـق عمر الشهيد عثمان البر الرحيم، فنظرنا فاذا هـو ميت، وعن النعمـان بن البشير أن زيد بن حارثة خر ميتا فى بعض أزقة المدينة، فحمل وسجى، اذ سمعوه بين العشاءين والنساء يصرخن حولـه يقول انصتوا انصتـوا فحسر عن وجهه، فقال محمد رسول الله النبى الامى خاتم النبئين، كان ذلك فى الكتاب الاول، ثم قال صدق صدق وذكر ابا بكر وعمر وعثمـان، ثم قال السلام عليك يا رسول الله ورحمة الله وبركاته، ثم عـاد ميتـا كمـا كـان .

ذكـر أخـلاق الشيخ وسيرته رضى الله عنـه :

كان الشيخ سيدى أبو يعقوب يوسف رحمه الله تعالى، منذ ما نشأ الاعلى قراءة القرآن، والمداومة على تلاوته، والاعتناء بتفسيره، وتفهمه والتفنن فى معانيه، والاعتناء بآياته، وبحديث رسول الله صلعم، وكـلام العلماء والاولياء واتباع السنة، وتحكمها على نفسه فى أمر دينه ودنيـاه، وحركاته وسكناته وأكله وشربه ولبسه وخلعه ودخوله وخروجه متقللا من الدنيا مجتزئا منها باليسير، لا يرى أبدا يتحدث على شىء منها الا اذا كان جوابا لغيره، ممن يأخذ معه فى شأن نفسه، ولا يتولى قط بناء ولا غرسا، ولا اكتسب شيئا ولو أقل ما تدعوه اليه ضرورة المعاش، ولا أكل قـط الا من ميراثه من أبيه الذى ورثه عن الاباء الصالحين، كما تقدم حاله مـع الفقيه سيدى عبد المالك بن حبيب رضى الله عنه، وكـان الشيخ رحمـه الله كثير الحب فى المساكين والفقراء والصوفية خصوصا، شديد الحـرص على اتباع الصالحين، رحيما باليتامى والاراميل متسببا لهم فى الصدقات والفتوح من غير أن يدخل يده فى شىء مـن ذلك، مهتما بأمور الخاصـة والعامة من المسلمين، ساعيا لسد خلاتهم وستر عوراتهم، وأدرار أرزاقهم واصلاح ذات بينهـم .

الفتنة التى وقعت بين بقيوة وبنى يسغـف :

حدثنى أبو عبد الله بن مغيث قال سمعـت سيـدى أبا يعقـوب يقول، كانت الفتنة ببادس بين بقيوة وبنى يسغف، قال فكنت ادع الله فى

الصلوات أن لا يجرى بينهم دم فكانوا يهمون بالقتال، ثم أن الله يصرف ذلك من بينهم، فسمعت ابليس وجنوده فى الزقاق يقول بعضهم لبعض تعالوا نرحل من هذه المدينة طال ما هو هذا الشيخ الكذا وكذا فى هذه البلدة، ما نقضى لنا فيها الحاجة، ولا يقتتل فيها احد من هؤلاء، وكان رحمه الله اذا صلى الصبح لا يتكلم حتى يصلى صلاة الاشراق، واذا صلى العصر لا يتكلم حتى تغرب الشمس ويفطر، واذا صلى المغرب لا يزال يصلى حتى يصلى العشاء الاخيرة، ثم يركع بعد صلاة العشاء الاخيرة وينصرف الى منزله، واذا دخل شهر رمضان لا يكلم أحدا الا بالاشارة عند الضرورة، وكان فى وقته كله كأنه فى غيبة عن المخاوقين، واذا حدثته حديثا عن الدنيا وانصرفت عنه لا يبقى فى سره من حديثك شىء، وذلك لما جمع الله له من اظهاره للخلق وخلطته معهم، وتطهير قلبه ويده من حطام دنياهم، وكان لا يترك من بشاشته وبسط وجهه وبره بجميع من يرد عليه، أو يجتمع معه، وكان عنده تسليم كثير فى الاشياء، وكان حاله كذلك فى الامر بالمعروف والنهى عن المنكر، وأكثر حاله فيه التغيير بهمته وتسليطها حتى يحكم الله وهو خير الحاكمين، وكان كتاب احياء علوم الدين للامام ابى حامد الغزالى لا يزال من بين يديه يطالعه، وكان معظما للامام ابى حامد المذكور، خاضا على مطالعته كتابه المذكور، قال مؤلف هذا ما رأيت رجلا قط من أهل المكاشفة والكرامة والاحوال الصالحة الا وهو يحب الامام أبا الحسن الشاذلى رضى الله عنه ونفعنا به آمين، وكان يقول أنا أشهد للامام أبى حامد الغزالى بالصديقية العظمى، وقال لاصحابه اذا عرضت لكم حاجة الى الله تعالى فتوسلوا بأبى حامد الغزالى، وحكاية سيدنا الولى العالم أبى الحسن مشهورة فى قصته مع الامام أبى حامد وكتابه قال مؤلف هذا ورأيت جماعة من أهل الخير والدين ما فتح الله على قلوبهم وانهج لهم الطريق اليه الا بمطالعة كتاب الاحياء المذكور، وقال لى رجل صالح ما طالع أحد كتاب بداية الهداية، وكتاب منهاج العابدين، وكتاب احياء علوم الدين، الا وظهر خيره وفتح الله على قلبه قطعا «فان لم يصبها وابل فطل» أنتهى ماقيدته من هذا المجموع من كرامات الشيخ الولى العارف سيدى

ابى يعقوب نفعنا الله به، وهذا الذى جمعته بعض من كل، ويسير مــن كثير، ولكنى اقتصر منه على بعض ما سمعته، وتركت من هذا المجموع ما هو غامض، ومن الله سبحانه وتعالى أطلب العفو والصفح عما تخلد هذا الكلام من تزيين الفاظ وتصنع معان، انه ولى حميد وهو القادر عليه، وصلى الله على سيدنا ونبينا ومولانا محمد، وعلى آله وأصحابه، وأزواجه وذريته، وأهل بيته الطيبين المباركين وسلــم تسليما، واخر دعوانـــا ان الحمد لله رب العالمــين .

نضـــال مستمــر

بعد الكارثة المهولة التى لحقت بالمسلمـين فى الاندلس، والتـى أجلت العرب والبربر عن تلك البلاد الى شمال افريقيا عام 1492، لحق بعض هؤلاء بموانىء المغرب كمليلية وسبتـة وتطوان وسلا، وبقيـت المناوشات مسترسلة بواسطة القرصنة، وقد اشتدت عملية القرصنة لما قام بربروس، المدعو خير الله باشا يعاونه أخوه (أروج) بأكبر قرصنة فى اوائل القرن العاشر الهجرى (أوائل 1500) يجوب البحر الابيض المتوسط ويحاصر تلمسان فما كان من صاحبها الا أن طلب تدخل ملك اسبانيـة (شارلكان) لحمايته وكانت النتيجة فشل أمر تلمسان، وضمها بربروس للباب العالى، ومن هذا التاريخ ظهرت للاسبـان مطامع فى شواطـىء الشمال الافريقى عامة، وشواطىء المغرب خاصـة .

وكانت لها مع مهاجرى الاندلس، الذين استعملوا القرصنـة على شواطئها الجنوبية، مناوشات مستمـرة، وفى هذه الاثناء استـولى الاسبان على مدينة العرائش، التى استرجعها مـولاى اسماعيل سنـة 1888 م. وفى حـدود أوائل القـرن السادس عشـر اختص الاسبـان بمدينة سبتة، بعدما كانت فى يد البرتغال، وذلك عندما انفصلت هـذه الاخيرة عن الاولى، فوقع استفتاء سكانهـا .

وفى هذه المراحل، انتقل النزاع الى حدود المغرب الشواطئية، بعد ما كان النزاع فى قلب اسبانيا نفسها، فاحتلت جزر مليلية والنكور وبادس، وكان لهذا الاختلال عواقبه الوخيمة على المغرب، وبدأ التنافس بـين دول أوربا على هذه الشواطىء، فقد بدا لاسبانيـا أن تملك المغرب لوحدهـا لاحتكاكها الطويل مع المغاربة فى اسبانيا .

ولاجل الانتقام من أولئك الذين استمروا فى احتلالها مدة قرون، ثم لاجل تأمين ترابها الداخلى من عودة الكرة مرة أخرى عليها، وقـد بقيت اسبانيا محتلة لبعض هذه الشواطىء لمدة حوالى خمسمائة سنة من

دون أن تتوغل داخل المغرب، وذلك انها كانت صرفت النظر عن المغرب الى شؤون أمريكا، حيث شغلتها الثروات المعدنية فيها، وفى هذا الاثناء أيضا لم يهدأ بال المغاربة بل استمروا فى النضال المستمر مع المحتلين لشواطىء مليلية وسبتة، والجزر التى بينهما وموقع الدخلة من الصحراء المغربية بالجنوب المغربى، الا أن الجيش الاسبانى تحصن فيها لمناعتها وحمايتها بحريا، حسبما يأتى تفصيله

وعندما عمدت فرنسا لاحتلال الجزائر سنة 1830 م. استفاقت اسبانيا فجأة فبذلت جهودا جبارة لاقصاء فرنسا عن الجزائر، واستعملت كل ما امكنته من الاساليب التى سنحت لها فرصة استعمالها والتى كان فى طوقها دون الاصطدام معها مباشرة، فعمدت الى تقوية الامير عبد القادر الجزائرى باسعافه بالمال والسلاح، كما عمدت الى تحريض المغاربة بمزيد المساعدة اليه لاجل فتح الحدود المغربية للامير ورجاله ليتحرك كيف شاء وبكامل الحرية لاثارة القلاقل ضد فرنسا، ومديد المعونة للمجاهدين، وكل ذلك بغية اقصائها عن شمال افريقيا تنافسا فى الاستعمار، وعندما انتهت حرب الامير عبد القادر، اخمدت الى السكون، وحتى عندما قام بوحمرة بالثورة فى شرقى المغرب الشمالى، لم تحرك اسبانيا ساكنا، للقيام باهتبال الغرة لتوسيع احتلالها لشرقى المغرب، بل قبعت فى جزيرة مليلية، منتظرة ما يسفر عنها نتائج الاحتكاك الداخلى، وكل ما فعلته انها استغلت احتياجه الى المال فاشترت منه مناجم الحديد بجبل «اكسان» قرب الناضور، واشتغلت بتمديد السكة الحديدية رغم أن بعض الضباط قد كانوا يقومون بمحاولة لدى الحكومة الاسبانية لان تقوم بمبادرة استغلال الفرصة لتوسيع احتلالها فى شرقى الريف، مادام المغرب مشتغلا بالفتن الداخلية، وقد حكى الكاتب الاسبانى المدعو «انريكى اركيس» وهو ضابط فى ذلك الوقت فى جيش مليلية فى كتابه المعروف (بالروكى) انه قدم مشروع الهجوم على القبائل اهتبالا لفتنة بوحمرة بدعوى اخمادها، ولكن لم يجد أذنا صاغية، مما جعله يكيل اللوم فى كتابه لرجال الجيش الاسبانى وحكومته اللذين فوتوا الفرصة التى يعتبرها من الفرص الذهبية حسب قوله، وجعل يكيل لحكومته أوصاف الضعف والخور .

والذى يظهر أن احجام اسبانيا عن التحرك فى ذلك الوقت لــم يكن ورعا منها، وانما لما تعلمه عن صعوبة الموقف، فمن جهة ان المغاربة سيتحدون عليها، فى حين أن الجيش الافرنسى بالجزائر بالمرصاد لهـا، يقوم باعانتهم أسوة بما فعلته هى مع الامير عبد القادر، على أنها عرفت عن كثب من هم المقاتلون الارياف فى نضالهم عندما يحتدم الصــراع،

ثانيا أن المطامع الاوربية تشعبت وتكالبت على المغرب، فمــن جهة أن فرنسا قد ركزت نفسها فى الجزائر وهى تحد بالمغرب مباشرة، ولا يهدأ لها بال لتحرك الجيش الاسبانى والحال أن قضية المغرب لــم تسو بين ذوى الأطماع الاستعماريـــة .

وثالثا فان انكلترا نفسها لا توافق على أن تسترسل أية دولــة أوربية لتقوية مركزها خلف جبل طارق، على الممر المائى العديم النظير، الذى هو الممر المغربى الوحيد الى مستعمراتها بشبه قارة الهنــد .

والواقع أنه من تاريخ سنة 1845 وهو تاريخ عقد معاهدة تحديد الحدود بين المغرب والجزائر، وقضية اطمـــاع فرنسا واسبانيا تتســارع لاكتساب السبق لاحتلال المغرب، الى أن جاء مؤتمر الجزيرة الخضــراء سنة 1906، الذى قضى على استقلال المغرب فى غفلة من أهله، وجــزىء الى شطرين اثنين: شطر فرنسا وشطر اسبانيا .

ورغم هذا التقسيم الذى كان من حظ اسبانيا شواطىء الشمــال والريف الوعرة وسواحل الصحراء المغربية بالجنوب الغربى، فانها لــم تتجرأ للقيام بتحركات لاحتلاله، الا فى سنة 1909، عندما باشرت فرنسا احتلال الشطر الخاص بها فى المعاهدة فأرسلت اسبانيا جنودها الى مليلية وسبتة والعرائش، بدعوى توفير الحماية للاهالى والولاة .

وهنا قامت قيامة السكان، فثارت القبائل، وبدأت المعارك تتــرى بين المجاهدين والجيش الاسبانى، كما سيفصل بعــد .

وعند عقد معاهدة الحماية بتاريخ 1912 بين فرنسا والمغرب فى عهد مولاى عبد الحفيظ، التى نصت على وضعيـــة الاحتلال الاجنبــى للمغرب، ووضع نظام خاص بطنجة، عقدت فرنسا مـــع اسبانيا اتفــاق مدريد، فى السنة نفسها (27-11-1912) فى شأن وضعيتها فى اقتســام

الاسلاب وتسوية المشاكل الحدودية وغيرها، ومن بينها وضعية طنجـــة، التى تعرض نظامها لمباحثات فيما بعد بـــين المانيا وفرنســا واسبانيــا وانكلترا، كانت النهاية أن تحكم بواسطة بلدية دولية ينتخب أعضاؤهــا من رعايا فرنسا واسبانيا وانكلترا، تحت اشراف مراقبة دولية، تتكــون من قناصيل الدول، ومن ممثل سلطان المغرب .

القلاع الخمس أو الجيوب المأسورة :

وقد يبدو الامر غريبا ما عليه وضعية الجيوب الساحلية الشمالية للمغرب، وبالذات سواحل الريف من سبتة الى الجزر الجعفرية، كما يبدو غريبا موقف الدولة التى تنتمى بجوارها الى الصداقة التقليديـــة والتى كانت ابدت بشائر حسن التفهم، عندما احتد النقاش بين المغرب وجارتها من جهة جبال البرانس، تلك الدولة التى كانت وضعت كلكلها على الجـــزء الاهم من المغرب فى ذلك الوقت، فامتنعت جارتها هذه ان تجاريهـــا علـــى التكالب المكشوف، والذى اسفر عن الفشل الذريع لتلك الدولـــة الكبـــرى وقد كـــان يبدو أن الدم الاسيوى الافريقى الذى خلفه العرب والبربـــر على السواء فى اسبانيا، ممزوجا بالدم القوطى، طوال ثمانية قرون خلت، والحضارة التى قام أولئك بتهجيرها الى تلك الامة عن طواعية واقتنـــاع سيكونان شفيعين لتمتين أواصر الجوار الـــذى يقضى المنطق استثمـــار تلك الوشائج، بتجنبها للنكسات التى قد تعترضها، نتيجة الحرص الوضيع على اسلاب تافهة، ومع تفاهتها فتأثيرها على نفسية ذى الحق الذى هـــو أحق بحقه، يكون صدمة تمس العلاقة وحسن الجوار فى الصميم، وبالاخص أن ذلك الحق ينتمى الى السيادة الوطنية والعزة القوميـــة .

ولهذا يبـــدو غريبـــا أن تتقاعس الدولة الاسبانيـــة على هـــذه الاسافين (1) التى مر الوقت من غير رجعة لاعتبارها استراتيجيـــة مثـــل هذه الجيوب والرقع، التى ان سهلت لها فى وقت تأخـــر العالم الافريقـــى احتلالها للجزء الشمالى الشاطىء للمغرب، فان هذا التأخر لا يعود ولـــن يعود الى يوم يبعثون .

---

(1) يقال أرض أسيفة وأسافة ككناسة وسحابة رقيقة

واذا كانت الاستراجية الحربية قد انقرضت وخلفتها استراجية أخرى اقتصادية، فلن العقل السليم والتفكير المنطقى، لا يرى سببا اقتصاديا يذكر يعود بالفائدة على الدولة التى تعمل تحت تأثير وحتى المطامع ليست ذا نفع بتاتا، بل أن الخبراء ذوى الفن فى مثل هذا الشأن يرون ان الاضرار الاقتصادية هى التى تجنيها اسبانيا من الاحتفاظ بهذه القلاع، فى حين أن السكان الاسبانيين فى عموم المغرب مضمون لهم راحة الاستقرار والامان، على أموالهم، لما جبل عليه المغرب من رعاية الذمم، وحفظ الجوار، وحسن المعشر، فتاريخه الطويل العريض فى الاستقلال والسيادة خير شاهد على ذلك .

على أن الدولة المغربية الفتية المتطورة بقيادة عاهلها العظيم أمير المؤمنين الحسن الثانى الذى لا يضاهى فى هذا المضمار، قد برهنت للعالم عن أى استقرار يتمتع به، حتى فى أعوص الظروف فلم يبق أى عذر يتذرع به، للابقاء على رقع لا تغنى غناء يذكر لذلك الاجنبى المتسلط عليها، بينما هى من صميم السيادة للدولة المغربية ذات الحق الاصل الاصيل :

ما هى هذه القلاع؟ وكيف أسرت أو انتزعت من الوطن الام؟ وما هى الاسباب التى سهلت هذه المأمورية الشنعاء الا قانونية؟ ذلك ما نبينه فى الجمل الموجزة التالية :

مدينة سبتة أو قلعة البوغاز :

تقع مدينة سبتة بين 35 درجة و53 دقيقة من خطوط العرض شمالى خط الاستواء، وبين 7 درجة و33 دقيقة من خطوط الطول غربى خط كرينتش .

ليس من شأننا فى هذه العجالة، أن نؤرخ لمدينة ظلت حوالى ثمانية قرون، ذات اشعاع حضارى ومركز ذى صلة وصل بين الحضارتين العربية والاوربية، حيث كانت المحطة الرئيسية والممر الهائل لتهجير الحضارة الاولى التى جاءت بكل اعتزاز من بغداد ودمشق والقيروان تخترق الآفاق، لكى تجد التربة الثرية والوعى المتفتح فى قرطبة وغرناطة، وطليطلة واشبيلية وأمثالها، فى العدوة الشمالية من البحر المتوسط، بينما تتكيف مع التطور الحضارى لتجعل من مقرها تلك الصلة كاملة

الاستعداد لتفسير المهمة التي هي نقل الحضارة المزدوجة التي صيغت في القالب الاندلسي، فاضفت عليها مسحة ذات فن معمري وموسيقي وطبي وغير ذلك، فلمثل هذا الشأن من التطور الانساني ينبغي أن يكون ذا عناية خاصة متجمعة، تعبأ لها أقلام وأقلام

لان المدينة التي انجبت ابن السبعين في الفلسفة، والقاضي عياض البعيد الشأو في شتى المناحي من علم وشجاعة، والعالم النحرير السيد عبد الرحمن الكتامي والاديب الكبير مالك بن مرحل وغيرهم.

ممن كان يقول فيهم المعتمد ابن عباد ملك اشبيلية الاديب «اشتهيت أن يكون عندي من أهل سبتة ثلاثة : ابن غازي الخطيب وابن عطاء الكاتب وابن مرانة الفرضي» وأمراء ذوي العزائم كأبي العباس العزفي، وباقي أمراء العائلة العزفية لا يمكن ان يستقصي أمرها الا بهمم فولاذية، تجعل ديدنها محصورا في التنقيب عن مآثرها المختلفة المناحي .

وانما الذي يعنينا هنا أن نشير الى تلك النكبة المفجعة التي استرسل أمرها، ولم يحن بعد أن تنقشع تلك المحن عن هذه المدينة والجيوب الاخرى، التي كان ذنبها الوحيد أنها كانت في أعز أيام المغرب حصونا ودروعا واقية، للحفاظ عن حوزة الوطن، وعزة السيادة، فاستهدفت لما استهدفت له، لما لها من المناعة وحسن الموقع .

فمدينة سبتة هذه التي كان شرف فتحها على يد العربي الاصيل القائد الفاتح المشهور موسى ابن نصير، الذي متعه الله بموهبة الفتح العظيم، والذي لم تنكسر له راية في فتوحاته الباهرة .

وعندما فتحها سنة 87 هـ. فتحا اسلاميا، جعلها ممرا الى فتوحات أخرى في القارة الاخرى، التي ظفرت بما ظفرت به من تلك الحضارة البعيدة الشأو، فركز عمله من الجبل المطل على البوغاز الذي خلف اسمه «بجبل موسى» غربي سبتة .

ومن تاريخ فتحها بضمها الى الفتوحات الاسلامية للقضاء على العقيدة الوثنية فيها شهدت اشعاعا حضاريا وعلميا وعزة اسلامية ومناعة قومية .

فقد ازدهرت وترجمت بالمعنى المتكامل حضارة العرب في شمال

افريقيا انطلاقا من مدينة القيروان بتونس التى أسسها الفاتح العربى الخالد عقبة بن نافع كمحطة اسلامية لنقل القوافل الاسلامية العسكرية والدينية والثقافية والعلمية الى الجزائر والمغرب الاقصى، فكانت أى القيروان محجا للمسلمين من هذين القطرين، وعلى الخصوص فانها تحتوى رفاة كثير من الصحابة والتابعين، وتابعى التابعين .

ولما كانت القيروان تقع على شاطىء البحر المتوسط تقريبا لانها لا تبعد الا بـ 45 كلم عن البحر، فان اتجاه المسلمين اينما وجدوا على هذه الشواطىء، جعلوا من حسابهم أن يقووا روابط الاتصال بين مدنها، التى هى فى الواقع حصونهم الامامية، فأسسوا رباطات، فكانت سبتة تحتل الطرف الغربى للبحر المتوسط، كما كانت الاسكندرية تحتل الطرف الشرقى لذلك البحر، وبينهما كانت قرابة ألف رباط، وكانت الرباطات المهمة التى على البحر الابيض المتوسط التى يعنينا أمرها هنا مثل سبتة وبادس، وجزيرة النكور (الحسيمة) ومليلية والجزائر الجعفرية الى وهران، وغيرها تحصن تحصينا متينا لمراقبة الاحداث والطوارىء فكانت تجهز بصومعة الحراسة، وبتربية الحمام الزاجل الذى يحمل فى عنقه رسالة مكتوبة بماء البصل أو الليمون، لاخفاء كتابتها، والتى لا تظهر الا عند وضعها على النار، فتظهر حمراء، وجامع للصلاة والتعليم، وغرف للمرابطين، واصطبل للخيول، وشرفات لاسقاط الزيت المغلى على العدو الداهم، الى غير ذلك من وسائل الدفاع المقتناة فى ذلك التاريخ .

وعلى هذا الاساس كانت مدينة سبتة، فاذا كان سحنون فى القيروان يعقد حلقات التدريس عن يمين المحراب وبنته تعقدها عن يساره، فان أبا الحسن السبتى كانت له بنت محدثة مسندة وهى أم المجد مريم وان أبا اسحاق الانصارى صاحب نظم الفرائض والسير، والقاضى المدرس حافظ مذهب الامام مالك ابا الحسن المثيوى، يعقدان التدريس فى المسجد الاعظم بسبتة .

واذا كانت مآثر القيروان التاريخية أكثر من أن تحصى، فان مآثر سبتة الشهيرة تضاهيها، وقد احصاها المؤرخون الاقدمون مثل

محمد بن القاسم الانصارى فى كتابه «الكواكب الوقادة، الجامع لما فى ثغر سبتة من تراجم السادة، وقبور الائمة القادة» فأحصى قبور الائمة القادة فى 88 قبرا وعدد المساجد والمزارات فى ألف وأعظمها الجامع العتيق بلغت بلاطاته اثنين وعشرين بلاطا، ويتميز عن سائر جوامع المغرب بالبلاط الاوسط الضخم البناء المرتفع السمك، وبالمقصورة الهائلة، الغريبة الشكل ومنبره له اثنا عشر درجة، وله صحنان، احدهما أكبر من الآخر، وبكل واحد منهما جبان للماء، أما الرباطات، فأعظمها رابطة الصيد، وهى مربعة الشكل قائمة فى الهواء، على اثنى عشر عمودا منها ثمانية من الرخام، وسبعة ناصعة البياض، وواحد حالك السواد مع بريق والاربعة الباقية مبنية بالآجور تحت معاقد أركان القبة ولكل عمود منها خمسة أركان، واستدارت بها ثمانية عشر سرجيا فى أربع بلاطات مشرفة على البحرين معا وتتصل بها دار القيم لخدمتها .

والى جانبها رابطة أخرى على شكلها ومثالها، وفى وسطها قبر لجارية أحد أمراء الموحدين وعلى القبر قطعة من الرخام الابيض .

وعدد الخزانات العلمية والفنون تربو عن 62 خزانة والرباطات والزوايا فى 47 وأزقتها فى 250 زقاقا، وحماماتها فى 22 حماما، واسواقها فى 17 سوقا والحوانيت والدكاكين فى 24.000 حانوتا وفنادقها فى 360 فندقا وأكبر هذه الفنادق بلغت أسرته 80 فى طبقات ثلاث، يدعى فندق «غانم» كما أن أبا القاسم العزفى انشأ مخزنا كبيرا للحبوب يحتوى على 52 مخزنا .

وعدد أفرانها فى 360 فرنا وسقاياتها فى 25 سقاية وأبارها فى 80 بئرا وعدد ديار الاشراف فى أربعة .

وعدد مطامير خزن الحبوب فى 40.000 مطمورة ولجودة أرض المطامير قيل أن الزرع ربما مكث فيها من 60 الى 70 سنة ولا يتسوس أو يتغير لطيب التربة، واعتدال الهواء، وعدد طواحين الزرع فى 103 طاحونة وعدد الارباض ثلاثة وعدد أبوابها فى 50 بابا وأعظمها الباب الجديد، ويقال له الباب الاعظم، وعدد مصلاتها ستة، منها المصلى الملوكية، سميت بذلك لكون السلطان أبى الحسن المرينى يصلى فيها بجيشه وهى مشرفة على

البحر، وعدد محلات الرمى فى 44 مرمى، يتبارى فيها رماة سبتة بالقوس وغيره، وعدد مضارب السمك فى تسعة وعدد المراسى فى ثلاثـــين مرسى وعدد مصاييد الحوت فى تسعة وتسعين ومائتين مصيدا .

واذا كان القاضى أسد ابن الفرات القيروانى امتشق الحســـام لفتح صقلية علاوة على مهامه الاساسية فى التعليم والتحديث، فان القاضى عياض لم يشد عنه فى امتشاق الحسام أيضا ضد الموحدين للحفـــاظ على البيعة التى فى عنقه للمرابطين، رغم مهامه التعليمية، والتحديثية، ويجدر بنا أن ننقل هنا بحثا كنا نشرناه فى كتابنا (الريف بعد الفتح الاسلامى) الذى ادمجنا فصوله كلها ضمن هذا الكتاب حسب الاغراض المناسبة اعـــادة لطبعه لنفاذ الطبعة الاولى من جهة ولاجل حصر ما يتعلق بالريف فـــى مظان واحدة، كما بيناء ليكون مدخلا لحرب الريف الذى خصصنا له الجزء الثـــانى .

القاضي عيـاض والموحــدون

(1) قد كان للقاضي عياض الاثر المحمود فى اتجاه عبقرى الموحدين عبد المومن بن على الى الريف وذلـك لما للقاضى عياض من النفسيـة الحربية، التى جمعها الى التبحر فى الحديث، واداة القضاء الشرعى. وتلك النفسية كانت مجلبة لاهتمام المتربعين على عـروش المغرب والاندلـس، فوقوع مقر عمله القضائى والحربى بمدينة سبتة التى هى حلقة الاتصال بين القطرين الشقيقين قد خنق بذلك أولئك الملوك، فكان أبعث للاهتمام فى نفوسهم، لكسب طاعته، وهـو لا يخفى هذه النفسيـة التى ملكت عليـه مشاعره، ولو فى اشعاره، فتجده مثلا فى وصفه لروضة يصوره شعره أحـد فرسان الميدان فى التشبيهات الحربية وتجنب ليونة الفقهـاء، اذ يقول فى بيتـين اثنـين :

انظر الى الزرع وخامـاتـه   يحكى وقد مالت أمام الريـاح
كتيبـة خضراء مهـزومـة   شقائق النعمـان فيها جـراح

ولو أن تبحره فى علمى القضاء والحديث قد ذاع الذيوع اللائـق، اذ ألف فى الحديث مؤلفات بقيت خالدة امثال كتاب الاكمال فى شـرح مسلم، ومشارق الانوار فى تفسير غريب الحديث وغيرهما، وقد اكسبته السمعة الحديثية المطبقة، وجعلته على رأس محدثى المغرب، فان صموده فى وجه عبقرى الموحدين عبد المومن بن على الكومى، خليفة المهدى بـن تومرت من بعده واحد رجاله العشرة، اذ وقف فى وجهه لما اراد نزع البيعة التى فى عنقه للمرابطين فى أعنف حملة وجهها اليه، قد هيأت له شأوا بعيد المنال، وجعلته قائدا على سيف هذا الشاطىء من البحـر الابيض المتوسط، وقد ضاهى بهذا العمل قاضيا آخر فى شرقى شمال افريقيا، هو قاضى القيروان أسد بن فرات فى فتحه لصقليـة .

---

(1) الجزء الثانى من بحثنا «الريف بعد الفتح الاسلامى» .

ان القاضى عياضا قد وقف فى وجه دولة فتية مرتين وتلك الدولة تولدت وترعرعت فى ظل شخصيتين عبقريتين ملهمتين، المهدى بن تومرت، وعبد المومن بن على، فكلتا الشخصيتين عملتا لخلق هذه الدولة بكل ما أوتيا من الهام وعبقرية، فالاول وان كان اتباعه يحلونه بالامام المعصوم وهو لقب بعيد عن الحقيقة والواقع الا أنه عصامى ملهم استطاع بذكائه الوقاد أن يزعزع اعظم دولة تأسست فى شمال افريقيا وبسطت ذيولها على الاطلس الجبار، مخترقة المفاوز والقبائل البربرية العاتية واصلة الى ما وراء البحر بالاندلس .

وقد كان منذ حداثة سنه يعمل لاجل ادراك هذا الشأو، فقد رحل من مسقط رأسه «قبيلة المصامدة» فى تخوم سوس بعدما شاهد عراك قبيلته وجاراتها مع شعب لمتونة الصحراوى الذى فرض اشتاذه عبد الله بن ياسين صولة دولته على افريقيا .

فالتحق بن تومرت فى رحلته، بقرطبة فى السادسة عشرة من عمره بتاريخ 501 هـ (1107 م) وقد كانت قرطبة المنبع الصافى لفقهاء المغرب، وقد شاهد فيها الضجة الصاخبة التى أقامها فقهاء الاندلس ضد كتاب «احياء العلوم» لحجة الاسلام الغزالى بدعوى خروجه عن المعتقد السائد الذى يتلخص فى التفويض وعدم اعمال التأويل فى المتشابه وترك الجدل جانبا، وقد دعته نفسه ان يأخذ عن الغزالى نفسه افكاره التى راقته فى كتابه المذكور فارتحل الى مصر ثم الحجاز لاداء نسك الحج وبعده التحق ببغداد ليرى شيخ المدرسة النظامية التى وجهت العقيدة الاشعرية التى تقول بالرجوع الى الكتاب والسنة، وبطلها اذ ذلك أبو حامد الغزالى، وقد اخبره عن مصير كتابه المحرق على يد دولة المرابطين، وما يلمز به من الزندقة، فاحدث ذلك فى نفسه موجدة اضطرمت بها أحشاؤه ظهرت فى رفعه يديه الى السماء داعيا: «اللهم مزق ملكهم كما مزقوه واذهب دولتهم كما أحرقوه». فانقلب من بغداد بتعاليم جديدة عاملا على تغيير المنكرات، فمر بأبى بكر الطرطوشى بالاسكندرية، وأخذ عنه وقد طردته حكومة مصر نظرا لعمله السياسى، وهكذا استمر يعمل لتغيير المنكر ويطرد الى أن وصل الى مراكش، وأمير المسلمين فيها على بن

يوسف بن تاشفين فأقام حوله ضجة كبيرة، فكان يخلب لب أمير المسلمين بالوعظ والارشاد الى أن اصطدم مع أخته السافرة الوجه، وهى عادة نساء الملثمين فقرعها وكان سببا لنفيه الى أقصى سوس حيث أعلن دعوته وبدأ دولة الموحدين وقد توفى بعد حرب بينه وبين المرابطين اثر مرض بعد وقعة تدعى وقعة البحرية عام 523 هجرية (1130 م).

أما ثانى الشخصيتين فهو عبد المومن بن على الكومى الذى وطد ملك الموحدين واستحوذ على افريقيا الشمالية من جبال درن ـ الاطلس الكبير ـ الى حدود مصر واستتب الامن فى هذه الربوع حتى قال المؤرخون انه كان يتجول المسافر فى الشمال الافريقى من أقصاه الى أقصاه دون أن يخشى أذى .

وقد كان تلاقى ابن تومرت فى شعب ملالة حيث كان يتولى تلقين آل ملالة القرآن الكريم وعلوم الدين بعد ما آوته قبيلة منه تدعى قبيلة بنى ورياغل، وقد الهم قدوم عبد المومن عليه وأخبر أصحابه بذلك قبل وصوله، قال أبو بكر بن على الصنهاجى المعروف بالبيدق فى كتابه (1) أخبار المهدى ما يأتى :

«بينما هو ذات يوم قاعد اذ سمعناه يقول: الحمد لله على كل حال قد بلغ وقت النصر، وما النصر الا من عند الله العزيز الحكيم، يصلكم غدا طالب طوبى لمن عرفه وويل لمن أنكره» ثم حكى وصول عبد المومن واعلام المهدى اياه بالامر الذى يصير اليه قائلا انه ناد انى يا أبا بكر ادفع الكتاب الذى فى الوعاء الاحمر فدفعته اليه وقال لى اسرج لنا سراجا فقرأ لا يقوم الامر الذى فيه حياة الدين الا بعبد المومن ابن على سراج الموحدين» .

وقد تحقق تنبؤه فان عبد المومن بن على هو سراج وعبقرى الموحدين، وطد أركان دولته وقضى على دولة المرابطين نهائيا وأصبح

---

(1) هو كتاب اخبار المهدى بن تومرت وابتداء دولة الموحدين طبع منه على الحروف بأوربا والمؤلف هذا كان حيا زمن المهدى بن تومرت وتوفى سنة 524 هـ موافق 1129 م.

المغرب وبقية شمال افريقيا وقطر الاندلس زاهرا، ونفق سوق السنة وكسر بلاد دولته بالفراسخ ووصل الامن الى أن فى احدى غزواته الى تونس حيث عاث النورمانديون وذبحوا النساء ومزقوا أشلاء الصبيان وقد سار اليها فى مائتى ألف شخص منها مائة ألف جندى ومائة ألف ما بين الخدم والسوقة، ذكر المؤرخون أنه لم تتلف فى الطريق ولا سنبلة واحدة وقد قسم حملته هذه على أربعة فرق بين الفرقة والاخرى مسيرة يوم بعد استعداد للزاد والماء مدة ثلاث سنين .

عبـــد المومن بن على فى الريـــف

قد ذكرنا أن القاضى عياضا كان متوليا خطة القضاء بسبتة، ولما له من النفسية الحربية كان يتولى الدفاع عنها وعندما قامت دولة الموحدين كان مدينا بالطاعة للمرابطين وفى عنقه بيعتهم لا يجوز نقضها شرعـــا الا بسبب طاعن فى المبايع ـ فتحا ـ وليس من السهل نزع هذه البيعة مـــن شخص يتولى مركزا كمركز عياض بين فقهاء المغرب وقضاته .

وقد آثر بذلك عبد المومن أن يخضع هذا الجزء من المغرب مقدما فجمع جموعه تاركا فاسا وتلمسان وغيرهما من المدن التى ما انفكت موالية للمرابطين، جانبا، وقصد سبتة فى جموع غفيرة من قبائل البربر العاتية فدافع القاضى عياض عنها دفاعا رد عبد المومن عنها فولى وجهته شطـــر الريف واخضعه، قال فى تقويم المنصور «وبعد أن وطد الريف قصد ناحية الشرق حيث بقية بلاد المرابطين» أى أنه سلك طريق شاطىء البحر الابيض المتوسط الى أن وصل الى وهران وفتحها ثم حاصر تلمسان وفتحها كذلك، وبذلك أى بعد عام 534 هـ. (1140 م) أصبحت بلاد الريف خاضعة للموحدين بعدما كانت تابعة للمرابطين منذ تخريب مدينة النكور على يد يوسف بن تاشفين عام 472 هـ. (78ـ1 م) اذ أن ازداجة الذين تغلبوا على وهـــران وأسسوا ملكهم فاحتل الامير على بن أبى الفتوح الازداجى النكور وبقى ملكهم فيها قال ابن خلدون (1) (الى عام 1066 م. فاقلق ذلك يوسف بن تاشفين فوجه حملته الى الريف قال فى القرطاس (2) وفيها فتح مدينـــة النكور وخربها ولم تعمـــر بعد» .

---

(1) فى كتابة العبر وديوان المبتدأ والخبـــر .

(2) هو كتاب الانيس المطرب بروض القرطاس فى أخبار المغرب ودولة فاس لابى العباس احمد بن أبى زرع ويكنى أيضا أبا عبد الله كما ذكـــر فى «لقط الفرائد» طبع بطبعات مختلفة والتى نقلنا عنها هى مطبعة الحجر بفاس صحيفة 3 من الملزمة 13 .

وعليه فان خضوع الريف الى المرابطين من عام 172 هـ. (1078 م) الى عام 534 هـ. (1140 م) اذ فتحه عبد المومن بن على ودان للموحديـن بالطاعه الى عام 612 هـ. (1218 م) حين استخلصه الامير عبد الحق بـن محيو مؤسس دولة بنى مرين، وقد التقوا فى ملحمة بوادى النكور قـال ابن خلدون «والتقى الجمعان بوادى النكـور فكان الظهور لبنى مريـن والدبرة على الموحدين» .

وقدفت هذا الفتح فى عضد عياضّ لان انفصال هذه الجهة عنـه جعله يعجز عن الدفاع، فعندما وجه عبد المومن حملته على فاس وفتحه بعد حصار دام سبعه أشهر قدم القاضى عياض خضوعه، ووفد عليـه واكرم وفادته فرده قاضيا على سبتة، بيد أن القاضى عياضا وان خضع للظروف القاسية وقدم الطاعة فان اختلاف العقيدتين قد حفر هوة بينهما ولا يمكن أن يركن الى الفاتح الذى فرض عليه الطاعة فرضا وقد قصم ظهره بتقليـم جوانبـه .

فما كادت ثورة محمد بن هود تندلع حتى انتهزها عياض فرصة لاعلان عصيانه فقام بثـورة أخرى فى الشمال، وكان الداعى له سببـين اثنين، أولهما الاختلاف فى العقيدتين كمـا اسلفنا، وثانيهما استباحـة المهدى بن تومرت لسفك الدماء فى مسائل سياسية وذلك مثل قضية البشير: التى تتلخص فى ان شخصا يدعى عبد الله بن محمد ويلقب بالبشير كـان صاحبهما من سواحل الجزائر، ورغم انه كان فصيحا عالما ذكيا فاضلا فانه تستر بالفهاهة واللكن والتعرى عن الفضائل بأمر منهما استعدادا سياسيا ليوم له ما بعده، فعندما أعلن المهدى دعوته فىقبائل مصمودة وهنتاتة وغيرها وتسرب الشك فى اخلاص أناس، قام هذا خطيبا غداة صلاة صبـح ذات يوم فبهر الناس فضله وفصاحته بعدما عرفوه بالفهامة واللكن فعـدوه كرامة من كرامات المهدى وقد كانت أعدت له لائحة اسماء المشبوه فيهم (أى اللائحة السوداء) فميز أصحاب الشر بين أفراد القبائل فتخلص ممن فى قلوبهم ميل للمرابطين وصفا له الجـو .

وقد عد القاضى عياض هذا الامر الاخطل مهينا للشريعـة التى لا تجيز قتل النفس الا بالامر البين، وقد كادت هاتان الثورتان تقضيان على

الموحدين قال فى القرطاس «انه لم يبق يومئذ تحت امـــرة عبد المومن الا مراكش» لان ثورة ابن هود كانت اشبه بدعوة المهدى من حيث بناؤهـــا على المعتقدات وقد اسمى نفسه الهادى، وهو وان كان من غوغاء النـــاس ألا أنه لا ينكر فضله، ولولا أن شيخ الموحدين أبا حفص عمر بن يحيـــى انهنتاتى واحد العشرة قد كسر جند ابن هود البالـــغ ستين ألف جنـــدى لما تمكن الموحدون من استرجاع أمرهم .

وقد حذا القاضى عياض حذو ابن هود فأعلن الثورة واستنجـــد بصاحب قرطبة ابن غانية وهو أكبر قـــواد المرابطين فى الاندلس، وطلب منه تقديم عامل له على سبتة ونواحيها ففعل (1) والتف حوله قبائل الشمال ولكن فشل ابن هود وسقوطه قتيلا فت فى عضد عياض فبعد ما أخضـــع عبد المومن قبائل برغواطة قصد سبتة فقدم فقهاء سبتة وعلى رأسهـــم القاضى عياض أنفسهم لامير المسلمين، الا آن علم الخليفة بقيمة القاضى عياض فى العلم والحديث ومكانته عند قومه حمله على أن عفا عنه واقتصر على نفيه قاضيـــا الى تادلا حتى توفى قاضيا ثمـــه عام 544 هجـــرية (موافق 1160 م) .

---

(1) قال فى القرطاس صحيفة 134 طبعة الحجـــر الفاسية «وفى خـــلال هذه الايام (أى سنة 543 قام أهل سبتة على الموحدين بعد أن بايعوهم ومكنوهم من المدينة وكان قيامهم عليهم برأى قاضيهم عياض ابـــن موسى فقتلوا من بها من الموحدين وعمالهم وحرقوهم بالنار وركـــب عياض البحر الى ابن غانية بالبيعة وطلب منه واليا فأرسل معهـــم الصحـــراوى فدخلها وأقـــام بها أياما فلما سمع برغواطة بخـــروج عبد المومن اليهم كتبوا الى الصحراوى والى سبتة يستصرخون بـــه فأتاهم فبايعوه واجتمعوا عليه وقاتلوا عبد المومن وهزموه ثم كانت الكرة عليهم وهزمهم الى أن قال فعفا عنهـــم وعن القاضى عيـــاض وأمره بسكنى مراكش وأمر بهدم سور سبتة فهدمهـــا .

نقود موحدية فى باطن الارض

قد خضع الريف كما قدمنا لعبد المومن بن على عندما تنكب عن سبتة، وسلك مسلك شواطىء البحر، وكان يومئذ على سواحل حوض الريف مدن عامرة، منها مدينة بادس قال المؤرخ الادريسى:

«وبادس مدينة متحضرة فيها أسواق وصناعات قلائل وغمارة يلجؤون اليها فى حوائجهم ومنها مدينة بوسكور ومدينة المزمة قال: «ومن بوزكور» الى المزمة عشرون ميلا وكانت قرية عامرة ومرسى توسق المراكب بها ومنها مدينة مليلية قال: «ومن كرت الى مليلية فى البحر 12 ميلا وفى البر عشرون ميلا ومدينة مليلية مدينة حسنة متوسطة ذات سور منيع وحال حسنة على البحر وكان بها قبل ذلك عمارات متصلة وزراعات كثيرة ولها بئر فيها عين أزلية كثيرة الماء ومنها شرابهم ويحيط بها من قبائل البربر بطيوة .

وكان لعبد المومن على شواطىء طنجة فسبتة فالريف الى مليلية مائة قطعة بحرية من مجموع الاسطول البحرى الهائل المؤلف من أربعمائة قطعة موزعة على شواطىء مملكته، وكان لتلك الشواطىء طرق برية للقوافل تسير فى داخل المملكة الى سواحل البحر فكانت احدى الطرق تصل بمدينة النكور المخربة كما أسلفنا، وكانت قرية «ايجاروانو» فى بنى بوعياش من قبيلة بنى ورياغل تمر فيها احدى الطرق المذكورة، وكانت ثمة ثكنة من ثكنات جند الموحدين وقد عثر أخيرا فيها على نقود فضية مربعة الشكل نقش فى احد وجهيها «الله ربنا محمد رسولنا المهدى امامنا» وفى الوجه الآخر «لا اله الا الله الامر كله لله لا قوة الا بالله .

وهذه النقوذ وان كانت خالية من التاريخ الا أن مرجع أمرها الى سنة 550 هـ. (1166 م) لان عبد المومن فى هذه السنة أمر بضرب السكة باسم دولته قال فى تقويم المنصور «وكان منذ سنة 550 قد أصدر

أوامر الى كل البلاد الافريقية الشمالية باحراق سائر كتب الفروع وأمر العلماء أن يرجعوا فى الامور العامة دنيا ودينا الى كتاب الله وما ثبت من سنة رسول الله وجمعه ابن تومرت فى كتابه المعروف «بموطأ ابن تومرت» ثم ضرب السكة باسم دولته الحديثة وكتب عليها الله ربنا ومحمد رسولنا والمهدى امامنا، ولا ريب أن هذه النقوذ قد راجت رواجا كبيرا وكثر تداولها بين الناس وقد شاهدت بنفسى اثناء جولاتى بالملكة التونسية كمية كبيرة من هذه النقوذ بيد الصبيان فى مختلف النواحى» .

وقد برزت هذه النقوذ فى هذه القرية على سطح الارض من دون اعمال حفرية غير أن المحل المذكور كان معلوما بأنه مدفن للكنوز» وهذه القرية تبعد عن مدينة النكور جنوبيها بعشرة أميال تقريبا وقد ظهرت من تلك الكنوز كمية أخذ بعض الصبيان منها كيلوغراما وربعا وأخذ غيره غير ذلك .

وبهذا البحث تعلم المواقع الاستراتيجية البرية التى كان الموحدون يستعملونها لحفظ سواحل البحر الابيض وتكون صلة الوصل بين القيادة العامة فى داخل المملكة» . (1)

وهكذا شهدت مدينة سبتة ذلك الاشعاع العمرانى والحضارى، وكانت محطة للقوافل الدينية والعسكرية والتعليمية مثلما كانت عليه القيروان، الا أنه بعد نكوص المسلمين على الاعقاب، فى شبه الجزيرة الايبيرية بعدما كانت فتوحاتهم بلغت أوجها، حيث وصلوا الى جنوب فرنسا، بقيادة عبد الرحمن الغافقى، فان عوامل التأخر أدت بهم الى أن ينحسروا ليس على تلك الفتوحات فحسب، وانما هوجموا فى عقر دارهم وذلك نتيجة للتضعضع الذى لحق بملوك المرينيين المتأخرين، فلم يسيروا على نهج أوائلهم الذين بزوا الاقران مثل يعقوب بن عبد الحق وأبى الحسن المرينيين، بينما الممالك المسيحية فى اسبانيا تتوحد لهدف واحد، وهو محاربة المسلمين، اينما وجدوا فى امارة بنى الاحمر

---

(1) هنا ينتهى الجزء الثانى من بحث «الريف بعد الفتح الاسلامى»

بغرناطة التى كانت تلفظ نزعها الاخير فى الاندلس، أو فى المغرب، حيث كانت اسبانيا والبرتغال تتقاسمان مناطق الاحتلال، فاختصت اسبانيا بالمناطق الشرقية التى احتلتها فى التواريخ التالية، والتى تضم لائحتها جزائر (بادس 1508 م) (النكور 1560 م) (مدينة مليلية 1494 م) (الجزائر الجعفرية 1848 م) (الى وهران 1509 م) .

واختص البرتغال بسبتة 1415 م. وما وراءها غربا فى لائحة تضم عدا سبتة، القصر الكبير 1458 م طنجة 1471 م، أصيلا 1471 م العرائش 1510 م المهدية 1515 م، أنفا 1571 م (الدار البيضاء حاليا) الجديدة (1) 1502 م آسفى 1512 م أكادير 1510 م، والدخلة 26-12-1884 فى الصحراء المغربية بواد الذهب .

وعليه فان أول احتلال أجنبى لتراب مغربى كان 1415 م. 818 هـ. من طرف ملك البرتغال جوان الاول الذى استعان على احتلال سبتة بالخداع، حسب أحد روايات المؤرخين، وهى أنه أنزل فى مينائها صنادق يظن أهالى سبتة أنها مملوءة سلعا فاذا بداخلها أربعمائة محارب، خرجوا على حين غفلة من أهلها فاستولوا على المدينة، وكان ذلك أيام السلطان أبى سعيد بن احمد المرينى، فاستصرخوه، فلم يعر لهم أى اهتمام، فرجعوا من حيث أتوا بدون طائل (2) وفى الاستقصاء «كان ذلك بعد حصارها لمدة ست سنوات» وزاد غيره (3) «بعد الاستعداد من البرتغال لمدة ثلاثة أعوام» وان ملك البرتغال هو الذى ترأس الحملة مصحوبا بأولاده الثلاثة: ضون بيدرو وضون دورطى وضون انريكى .

وبقى احتلال البرتغال الى سنة 1580 م حينما توحدت الدولتان تحت تاج فليب الثانى، ولكن عند انفصال البرتغال عن ذلك التاج بتاريخ

---

(1) كانت تدعى البريجة وعندما أخرج منها البرتغال تهدمت بسبب تلك الحروب فجددها السلطان المولى عبد الرحمان فسميت الجديدة الاستقصاء ج. تسع. ص. 12 .

(2) الاستقصاء ج. 4 ص 92 .

(3) تاريخ الحملات على المغرب باللغة الاسبانية .

1798 استأثرت اسبانيا بسبتة، بناء على استفتاء بين السكان المسيحيين، لان المسلمين هاجروا بدينهم عن مدينتهم الاسلامية التى تكالب عليها الدهر بعد عزة وصولة، ولم يرضوا أن يبقوا محكومين، بعد أن كانوا حاكمين، على أن المسيحية فرضت عليهم الهجرة القسرية، أو الدخول فى المسيحية كما فعلت بالاندلس .

وعلى كل حال، فان الاستيلاء على سبتة كان أمرا محبوكا سياسيا، وعسكريا، بين الدولتين الاسبانية والبرتغالية، وكان القصد منه طرد المغرب من شبه جزيرة ايبيريا الذى كان يؤازر أمراء بنى الاحمر بغرناطة ويمد اليهم يد المعونة، وذلك للقضاء على هذه الاخيرة نهائيا، وفى هذا المجال، فان مملكتى قشتالة وأراغون اتحدتا للوقوف صفا واحدا لطرد الامارة الاسلامية الباقية هناك، كما كان الشأن بعد ذلك بالنسبة للاتفاق المعقود بين اسبانيا والبرتغال عام 1509، لتقسيم القارة الافريقية التى بدت لهما انها أدنى الى السقوط فى ايديهما، نتيجة تضعضع الحصن الكبير، وهو المغرب، الذى كان يعتبر بالنسبة لافريقيا الحاجز الامامى، وسبب تضعضعه تكالب حيل بنى الاحمر عليه من جهة، حيث الملوك المرينيون كأبى سالم بن أبى الحسن، وابن زيان بن محمد بن يعقوب، قعدت بهم همتهم، وانحطت سمعتهم الى الدرك الاسفل، وكان بلاطهم عبارة عن دسائس داخلية تنتهى بهم الى القتل والسكر والعربدة، حتى اذا جاء عهد أبى سعيد بن احمد المرينى .

فبينما كانت احداث سبتة تجرى على حافة مملكته بالاندلس، وكان الحزم يقضى عليه ان ينجد هذا الثغر، لانه المنفذ الوحيد والقريب الى اعدائه بالاندلس فانه أجاب استصراخ سكان جبل طارق الذى كان تحت امرأة بنى الاحمر نظرا الى ان الاهالى استصرخوه، خوفا من حصار الاسبان، فكانت النتيجة أن أقتتل المسلمون داخل القلعة بعدما فتح السكان أبوابها للجيش المرينى الذى كان بقيادة أخى أبى سعيد المدعو عبو، وأخذه جند بنى الاحمر أسيرا، وبعثوا به الى غرناطة حيث استعمله بنو الاحمر فى ان يقوم على أخيه بالمغرب، ليقدموا له معونة فقبل، وكانت القاضية على الجميع، وربح الاعداء، وثبتوا أقدامهم على مدينة سبتة

التى جرت بعدها احتلال قلاع أخرى، وذلك لتطويق المغرب من الصحراء الى حدود الجزائر .

ومن يوم احتلالها وقصائد الرثاء والملحمات تحبر وتنشر الى يومنا هذا، حيث قرأت لاحد الشعراء المعاصرين من هذا القبيل، ولكن لا تلك القصائد ولا البكاء بمجد لها لفكاك أسرها، وانما الذى يخلصها هو العمل الوطنى الحماسى بالوسائل العصرية السائدة .

ومما قيل قديما قصيدة العلامة عبد السلام جسوس التى جاء فى مطلعها: «رفعت منازل سبتة أقوالها» الى آخر القصيدة التى ستأتى عند الكلام عن الجزيرة .

ومما قيل فى هذا العصر قول الشاعر الاستاذ محمد الحلو :

لاحت رباها الخضر شاحبة الرؤى خلف الحدود
حسناء ترفل فى السلاسل والغلائل والبرود

أجرى وراها فى جنون وهى تمعن فى صدودى
كالفجر طلعتها الوضيئة فى ابتسامات الورود

قد قاومت كر الزمان كأنها بنت الخلود
وأبت روابيها الشوامخ ان تطأطىء للسجود

شمخت بعزتها كما كانت على عهد الجدود
وقفت تراقب من بعيد زحف فتيتها الاسود

لاحت فكفكفت الدموع وتاه عقلى فى شرود
هذى مغانينا التى خفقت بها حمر البنود

وتجاوبت أصداؤنا فيها كأصوات الرعود
وسقت جحافلنا رباها بالدماء وبالصديد

أبصرتها فى النار غارقة فى كتل الحديد
وسمعت انتها الجريحة فى الحنايا كالوقود

ورأيت فيها سادة بالامس كانوا كالعبيد
يتفيئون ظلالها فى نضرة العيش الرغيد

فــى ناطحــات للسحــاب تطــل كالبحــر المديــد
ورأيت اخوتنــا هنــاك بيوتهــم شبــه اللحــــود
غربــاء فى نظراتهــم معنى السيــادة والمســود
يتطلعــون علــى شقائهــم الــى الافــق البعيــد
ولقــد وقفت على الديار فلــم يطب فيهــا قعــــود
لم تصبنى فيها الحســان ولا انثنيت مــع القــدود
فطفقــت أســألهــا ســؤال متيــم صــب عميــــد
عصــر الحنــين فــؤاده وبكــى وفــاء بالعهــــود
ومتى استطــاع الدمع تحطيم الحواجز والســدود ؟
ومتــى تحــررت الممالــك بالامــانى والوعــود ؟
يــا سبتتى رغــم الانوف ورغم عجرفــة الحســود
هــل أنــت الا درة فــى تــاج المــغــرب العتيــد
سرقتــك فى وضــح النــهــار يــد تطالب بالشهــود
ظــنــوا ابــتــلاعــك سيســاغ يــومــا بالجمــود
ستعــود فتيتك الاســود متى أفاقــت من هجــــود
تشــد وعلــى ربواتــك الخضــراء قدسى النشيــد
يرفــرف العلــم المخضــب فى سماهــا من جديــد
ياسبتتــى رغــم الانــوف ورغم عجرفة الحســود
قسمــا سيجمعنــا الزمــان ونلتقى فى يــوم عيــد

جــزيــرة بـــادس :

يقع خلط عند بعض الكتاب، بين جزيرة بادس المحتلة وبين مدينة بادس التاريخية، ومن هــذا القبيل ما قرأته لبعض الكتاب (1)، حيــث استشهد بقول المؤرخ الشريف الادريسى السبتى «بادس مدينة متحضرة

(1) من محاضرة نشرت بالعلم بتاريخ 8-2-1971 .

فيها أسواق وصناعات، وهى آخر بلاد غمارة، ويلجأ اليها أهل غمـارة لقضـاء حوائجهـم» .

استدل به لحجرة بادس، مع أن الادريسى كان يتكلم عن المدينة التى كانت قائمة فى اليابسة، والتى ذكرناها سابقا كأحد المدن التاريخية.

أما حجرة بادس فهى جزيرة تسامت المدينة، ولذا نسبت اليهـا، ويسميها الاسبان «البينيـون»، وكان يسميها الجغرافيـون الاسبانيون «فليس دى لاغمارة» .

على أن نفس المؤرخ الادريسى وقع فى خلط، حيث قال بأنها آخر بلاد غمارة، مع أنها فى الواقع تقع فى صلـب قبائل الريف، وهى قبائـل صنهاجة بادس، حسبما عند صاحب كتاب «صلحاء الريف»، فهى واقعة بآخر الشاطىء الغربى لقبيلة بقيوة، مجاورة لشاطىء قبيلة بنى بويفرح، وهى بعيدة عن بلاد غمارة .

وعلى كل، فان الجزيرة يفصل بينها وبين اليابسة قناة من مـاء البحر، يصل عند المد الى حوالى 70 مترا وينحسر عند الجزر، فيتمكن العابرون لاجتياز القناة راجلين فى ضحل من الماء لا يصيبهم الا بلل فـى النصف الاسفل من ذواتهم، أما مساحتها فتقدر بـ 2500 مترا مربعـا، وقد حصنها الاسبان وبنوها بناء شاهقا بحيث جعلوها كصومعة فى داخلها دروب، سميت بأسماء اسبانية، كما قسـم داخلها الى غرف للمصالـح الادارية، والعسكرية، وختمـت فى أعلاهـا بمسطح مريح، له منظـر بحـرى خـلاب .

ان الدور التاريخى لهذه الحجرة مستمد من وجودها على رأس مدينة الجهاد والعلم والصلاح (بادس) التى لها شأن وأى شأن فى حيـاة جهات الريف خاصة والشمال عامة، حيث كانـت تعتبر من أهم رباطـات شواطىء الشمال بالمرتبة التى تلى مدينة سبتة، ومرفأ المدينة، والتـى كانت ملجأ طبيعيا ترسو بجدرانها السفن والزوارق التى تقصد المدينـة للاغراض المختلفة، ولذا يكون بها اهتمام خاص، كما أنها كانت ملجأ لسكان المدينة عندما يداهمهم عدو بريا، يعتصمون بها الى أن ينجلى المد لهم.

واذا كانت الفترات التى نكب فيها الاندلس، عرفت القرصنـة

البحريـــة، تجـــوب هذه الشـواطىء فانه بالطبـــع ازدادت أهمية الجـــزر الشاطئية، لانها تكون مرساة سفن القرصنة .

فقد تجلى التهافت على هذه الجزر منذ أن قامت الدولة الوطاسية، التى جعلت همها حماية شـواطىء شمال المغرب ومن ضمنها طرد البرتغال من سـواحله، فكافحت ضده فى البلاد الهبطية فطردتـــه عن مدن أصيـــلا والعـــرائش وطنجـــة .

وقد قدر للسعديين أن ينتصروا وتوطدت أركان دولتهم، وتغلب محمد المهدى الملقب بالشيخ، الا أن علاقة هذه الدولة مع جيرانها: أتـــراك الجزائر لم تكن حسنة، بل تأزمت الامور بينهم الى حد بعيد وذلـــك لان السعديين يرون ان الاتراك غاضبون اذ استولوا عللى تركة دولة بنى زيان بتلمسان، ويـــرون أن ذلك التراث حق مغربى (1) فطالما كـــان المغـــرب فى عهد المرابطين والموحدين وأوائل المرينيين مسيطـــرا على تلك الجهـــة، فتلمسان وجهاتها كانت اقليما مـــن أقاليـــم المغـــرب، ذلـــك ما أدى الى تنافر كبير بل الى حرب، فالسلطان أبو عبد الله الشيخ هجم على تلمسان عام 957 هـ. ودخلها واجلى عنها الاتراك، بينما سليمان القانونى العثمانى ارسل بعثة سرية، اغتالت أحد أولاد السلطان محمد الشيخ، ويدعى عبد القادر، وكان وزيرا لابيه، وعدوا لدودا للاتراك، وكان من الشجاعة بمكان.

ولم يقتصر عمل الاتراك على هذا الاغتيال، بل هيأوا حملة حربية لمساعدة أبى حسون الوطاسى فاتح عام 961 هـ. فاستولى على فـــاس، الا أن السلطان السعدى استجمع قواه فرد عادية ابى حسون الوطاسى فقتله واسترد فاسا فى شـوال 961 هـ. (1555 م) وقد بقى أبو حســـون محتلا لها تسعة أشهر .

ولما لم يحصل الاتراك على مبتغاهم طالبوا من السلطان السعدى تحديد الحدود الشرقية وتعيينها فأوفدوا فى أواخر نفس العام من قبلهم الفقيه الصالح أبا عبد الله محمد بن على الخروبى الطرابلسى، وكـــان مقيما فى الجزائر، الا أنه لم يحصل على طائل، ذلك ما اضطر الاتـــراك

---

(1) الاستقصـــاء ج. 4. ص. 161 .

الى الاعتماد على العمارات البحرية وقرصنتهـا، فكانت سفنها تجـوب شواطىء الشمال، ويحتلون جزيرة بادس كمركز لتهديد المغرب .

على أن الباعث لاحتلالهم هذه الجزيرة لم يكن للتهديد فقط، بل غرضهم كان هو للاستلاء على المغرب، أسوة بالجزائر، وقد يكون السبب الحقيقى لتأزم الامور بينهم وبين المغرب وذلـك أيضا ما جعل المغـرب يبعد خطرهم عن حدوده بمهاجمتهم فى تلمسان، لان الباب العالى التى لا تكاد الشمس تغرب عن ممتلكاتـه فى القارات القديمـة يعز عليـه أن تستعصى عليه دولة فى أقصى المغرب .

وضعيـة احتـلالهـا

استرعى انتباهى بالخصوص فقرتان اثنتان جاءتا فى جريـدة يوميـة (1) .

الاولى هى «وعقد الغالب بالله مع الاسبان اتفاقية سرية تنازل فيها للاسبان عن جزيرة «بادس» .

ثم جاء فى الفقرة الثانية «وتجمع من المجاهدين فى بادس نحـو 8000 مجاهدا لمقاومة هذا الغزو الصليبى، لكـن مجاهدى بادس كـانوا غير منظمين تنظيما عسكريا، بخلاف العدو، الى أن قالت وقد استغاث أهل بادس بالسلطان الغالب بالله بدون جـدوى لجهلهم إتفاقية السـر مـع الاسبان، لتسليم جزيرة بادس لهم، قصد طرد الاتراك، خوفا منـه أن يتسربوا من الجزيرة للمغرب» .

ولعل أن الذى كان السبب فى الاعتماد على وجود الاتفاق السرى هو النص الذي نقله الاستقصاء صحيفـة 49، ج. الخامـس طبعـة دار الكتاب بالدار البيضاء، عن نزهة الحادى فى أخبار ملوك القـرن الحـادى «لابن عبد الله محمد الصغير المراكشى المعروف باليفرانى المتوفى ما بين 52–1154 هـ. (177 م) .

والذى جاء فيه «ذكر بعضهم أن السلطان الغالب بالله لما رأى

---

(1) العلم عدد 8947 بتاريخ 22 دجنبر 1974 تحت امضاء ابن الريف .

عمارة ترك الجزائر وأساطلهم لا ينقطع ترددها على حجرة بادس، ومرسى طنجة، وتخوف منهم، اتفق مع الطاغية أن يعطيه حجرة بادس، ويخليها له من المسلمين، فتنقطع بذلك مادة الترك عن المغرب، ولا يجدون سبيلا اليه، فنزل النصارى على حجر بادس وأخرجوا المسلمين منها ونبشوا قبور الاموات وحرقوها وأهانوا المسلمين كل الاهانة، ولما بلغ خبر نزولهم لولده محمد، وكان خليفته على فاس، خرج بجيوشه لاغاثة المسلمين فلما كان بوادى اللبن بلغه استيلاءهم عليها فرجع، وتركها لهم» .
ولكن هذا النص لم يعتمده لا اليفرانى ولا صاحب الاستقصاء، وانما جلباه لاجل نقضه ورده .

فقد قال صاحب الاستقصاء عقبه نقلا عن اليفرانى «هكذا وجده فى ورقة مجهولة المؤلف». وقال أيضا فى صحيفة 55 فى نفس الجزء، نقلا عن اليفرانى موضحا اسباب عدم الاعتماد على النص المذكور، ومؤكدا بصراحة انها أكذوبة على الغالب بالله من أحد خصوم الدولة السعدية فقال معددا مسائل قيلت ضده، وهى «ومثل ما ذكره بعضهم أعطى حجر بادس للطاغية لتنقطع بذلك مادة الترك» .

«ومثله ما ذكر عنه أيضا أن قائد بنى تودة أخذ أسوار الجديدة، وعزم على فتحها من الغد فكتب اليه السلطان المذكور ينهاه عن ذلك» .

ونظيره أيضا قضيته مع أهل غرناطة .

ثم قال أى اليفرانى «وهذه أمور شنيعة ولست أدخل فى عهدتها، لانى رأيتها فى أوراق مجهولة المؤلف، اشتملت على ذم هذه الدولة السعدية، وظنى أنها من وضع اعدائها لحطه من قدرهم، واخراجهم من النسب الشريف، ووصف دولتهم، بالدولة الخبيثة» .

ونظرا لكون اليفرانى هو المصدر الوحيد الذى نقل ما جاء فى الورقة المجهولة، فانه تبرأ منها ونقضها عروة عروة، فلم يبق للكتاب أيا كانوا أن يعتمدوا نصا مردودا أساسا لكونه لم يستند الا على ورقة مجهولة فى موضوع خطير كتفويت السيادة على جزء من الوطن .
على أن الثابت تاريخيا، أن الجزيرة كانت محل صراع بين قراصنة

الاتراك وقراصنة الاسبان للاستيلاء عليها لمكانها الاستراتيجي الحربي، ولان مدينة بادس كانت مرفأ لفاس وتازا، وهي صلة الوصل بينهما وبين الاندلس .

وعندما احتله الاسبان زمن الغالب بالله السعدي بعدما هجموها بأسطول مكون من 92 سفينة حربية اسبانية وبرتغالية تجر جيشا ضخما من مرتزقة الالمان والصقليين والطليان، زيادة على الاسبان والبرتغال، امتنع الغالب بالله من الاعتراف بالامر الواقع بعقد معاهدة مع الاسبان لشرعية الاحتلال .

وللاستدلال على ذلك ننقل هنا ما جاء في السلسلة الاولى السعدونية، ج. لث. صحائف 15—63—141—151 وج. ل. ص. 263 فقد جاء ملخص الجميع، انه «تكررت تلك الحملات مرات متعددة، فكانت قراصنة الاسبان من مليلية، يغيرون عليها، بينما قراصنة الجزائر (الاتراك) يتخذونها مقرا لهجومهم على سواحل الاندلس، واقتناص السفن المتوجهة الى الهند، يعاونهم في ذلك قراصنة تطوان والعرائش وكانت قراصنة مليلية يؤدون لملك اسبانيا خمس اسلابهم، ولولائهم كانوا يحملون الى اسبانيا والبرتغال سنويا، أزيد من مليون من العملة الذهبية.

وكان الجند الريفي يتصدى للاسبان الذين يحتلون جزيرة بادس، وقد طردوهم منها عام 929 هـ. وبقي الوطاسي أبو حسون، ثم السعديون مالكين لبادس الى عام 1554 م (961—962 هـ.) حيث احتلها الاتراك نحوا من عشر سنوات ثم استرجعها الاسبان، وهدموا مدينة بادس فتخربت واحتفظوا بجزيرتها معززين بـ 92 سفينة برتغالية واسبانية مع جنود مرتزقة من الالمان والصقليين والايطاليين ثم استرجعها الاتراك، وقد رفض السلطان امضاء معاهدة للاعتراف بالامر الواقع، ووجه قائدين لاسترجاع الحصن .

وعليه فان النصوص التاريخية العربية ضد القول بأن أية سلطة مغربية قد فوتت الجزيرة الى الاسبان ولا يمكن تزكية استيلائهم عليها بطرق الاتفاق أو المعاهدة السرية أو العلانية، وانما احتلالهم اياها هي من سلسلة الاعتداءات الاسبانية على الشواطىء المغربية في ذلك التاريخ،

وياما أكثرها وياما أكثر ماردت على أعقابها خاسرة تجر اذيال الهزائم، ولم يغنها انها تمسكت بكل ناعق مغامر ينقم على الدولة المغربية، مثلما فعلت مع الشيخ المأمون بن احمد المنصور الذى فر امام أخيه السلطان زيدان الى اسبانيا حيث استعدى بملكها ليغزو المغرب مدعيا الاحقية بالملك من أخيه، واستجابت اسبانيا لمطلبه «مسرة حسوا فى ارتغاء»، كما يقال وطلبت منه أن يمكنها من العرائش بعد اخلائها من المغاربة فجاء أى المأمون يجر من ورائه خراب وطنه فى سفن الاعداء، فنزل بجزيرة بادس ثم ارتحل الى القصر الكبير وأمر أحد قواده باخلاء العرائش وتمكينها من الاعداء، وقد يكون الاسبان عرجوا عن جزيرة بادس لتزكية احتلالهم بوجود هذا الناعق الذى يرومون من استعماله دمية فى يدهم لاغراض مدسوسة .

ولكن لا هذا الناعق ولا الجيش الاسبانى استوفى مراده، فالشيخ المأمون قتل بفج الفرس، ما بين تطوان وطنجة بتاريخ 1022 على يد المقدم أبى اللفيف (1) وتركت جثته فى الخلاء طعمة للغربان، والجيش الاسبانى رجع مفلولا من حيث أتى، فلم تكن هناك تزكية ولم يكن هناك خلود فى العرائش بفضل صمود المغاربة أمام المغيرين .

وكما استرعى انتباهى أيضا ما جاء فى نفس المقال عن مساحتها «من أنها حوالى 12.825 مترا مربعا وهو ما يساوى اثنى عشر هكتارا وخمس وعشرين وثمانمائة ءارا» .

والحقيقة أن مساحة الحجرة هى 2500 مترا مربعا أى ربع هكتار فقط على أنه حسب الرقم الذى أعطاه صاحب المقال وهو 12.825 لا يتوفر الا على هكتار وربع وبعض آرات وليس اثنى عشر هكتارا كما يدعى المقال .

وعلى كل، فان الاسبان احتلوها عام 914 هـ (1508 م) وبنوها وحصنوها، وكان أول من احتلها الربان «بيدرو نافارو» (2) بدعوى

(1) الاستقصاء ج. 4. ص. 143 .
(2) الاستقصاء ج. 6. ص. 22 .

مراقبة السفن التي كانت تأتي من البندقية، للاغارة على سواحل اسبانيا ضمانا لتجارتها التي تسوقها الى مرسى بادس، كل سنة، وكان الاحتلال بواسطة قوة «لا رمادة» وأقام عليها رئيسا هو «خوان دى فيالولس» الى سنة 1522 حيث انتزعها الاتراك من يديهم بعد هجوم عليها من طرف جنود البسوا لباس الاسبان فظن هؤلاء ان اغاثة أرسلت اليهم من دولتهم حتى اذا تمكن الاتراك من الجزيرة أسروا الحامية الاسبانية .

ومن هنا بدأ التنافس الشديد على احتلالها بين الاتراك والاسبان وكلاهما أجنبيان على المغرب. وكانت سفن الاتراك بقيادة خير الدين بربروس تجوب عباب البحر المتوسط مترصدة تحركات الاسطول الاسبانى فى تلك المياه .

وعندما تمكن الاسبان من الاستيلاء على الجزيرة للمرة الثانية، طردوا منها الحامية التركية مخلفة هناك 21 مدفعا تركيا، جاءت قوة صالح الرائس التركى حاكم الجزائر سنة1555 فهجمت على الجزيرة ودكت تحصيناتها، ثم استولت عليها فى عهد أبى حسون الوطاسى، الذى بانقضاء عهده انقضى عهد الوطاسيين، ولمع نجم السعديين حيث تمكن السلطان محمد الشيخ من تأسيس الدولة الجديدة، وكان لزاما أن يقطع الطريق عن الاسطول التركى اعداء الدولة الفتية، والمؤازرين للوطاسى أبى حسون مؤازرة سافرة

وفى خضم أحداث كثيرة جرت بين السعديين والاتراك سواء أيام محمد الشيخ أو خلفه الغالب بالله، حيث تصعدت تلك الاحداث الى معارك وجها لوجه سنة 1557 م. اذ تحرك الاتراك بجيوش جرارة لاحتلال فاس، فالتقت بهم جيوش الغالب بالله فى وادى اللبن فكانت الهزيمة على الاتراك وفروا متحصنين فى جزيرة بادس، وكانت تحت أيديهم (1) .

وفى سنة 1564 م. جهز فليب الثانى أسطولا بحريا طيبيا يتكون من 92 سفينة حربية محملة على ظهرها قوة كبيرة خليطة من الاسبان

(1) الاستقصاء ج. 5. ص. 39 .

والطليان والالمان والبرتغال والانجليز، بقيادة الجنرال «غرسيا طولدو» ففاجأت هذه القوة حامية الاتراك فى الجزيرة وحاصرتها، ثم سقطت فى يد الاسبان فى غشت 1566 م. ومن هذا التاريخ وهم يحتلونها احتلالا جائرا غير مبنى على أى اتفاق من طرف سلاطين المغرب كما أسلفنا.

وكان الغرض من هذا الاحتلال، أمرين اثنين أولا: قطع الطريق عن الاسطول التركى الذى اقض مضجع الاسطول الاسبانى وذلك حتى لا يجد الاسطول التركى ملجأ يلجأ اليه على شواطىء الشمال، وقد عمد الاسطول الاسبانى أن يسد فى وجه الاتراك كل ملجأ، ومن ذلك ما قام به من سد مصب وادى مرتيل باغراق خمس سفن محملة بالاحجار والجير فى مدخل الوادى، لانه بعد احتلالهم لمليلية والنكور وبادس وسبتة لم يبق مفتوحا الا وادى مرتيل الذى كان يكون دلتا ترسو فيها السفن فرارا من العواصف وللتزود بالمواد الضرورية، وكانت السفن تدخل الوادى الى تامودة بضواحى تطوان.

فقد جاء فى رسالة (1) قائد أسطول البوغاز «دوق الفارودى بانان» من اشبيلية، الى ملك اسبانيا (فليب الثانى) بتاريخ 3 نوفمبر 1564 م. (972 هـ) ما تعريبه: «أما ما ذكرتم جلالتكم فيما يتعلق بما كتب به اليكم دون غرسية ديطوليد وعن اغلاق مدخل نهر تطوان، فيجب على أن أذكر لكم أنه بعد الاستيلاء على البانيون (وهو الاسم الذى يطلقه الاسبان على جزيرة بادس) لم يبق للسفن التركية، فى البحر الابيض، من الجزائر للبوغاز مرفأ تلتجىء اليه، الا ذلك الوادى، ولهذا فانما كتب به اليكم دون غرسية يعتبر مشروعا عظيم الفائدة وأنا أستطيع أن أقوم بذلك العمل ولدى ست من السفن الكبيرة، فيلزم أن تزود بما يكفيها لمدة شهر، وهى المدة اللازمة للذهاب فى فصل الشتاء، ووادى تطوان نهر جيد، ذو فم واسع، وأرضه رملية ومدخله صالح للملاحة، فى أوقات دون أخرى، ولاجل اغلاقه تلزم أربع سفن، لاغراقها محملة بالحجارة والجير عند مدخله ولابد لانجاح هذا المشروع عن احاطته بالتكتم التام».

---

(1) تاريخ تطوان للاستاذ داود، ص. 126 ملخص.

وقد أجابه الملك المذكور آمرا له بتنفيذ المشروع برسالة صادرة من مدريد بتاريخ 21 نونبر 1564 م. وفعلا فقد نفذ الاسطول الاسبانى هذا المشروع وأغلق المدخل صبيحة يوم 9 مارس 1565 م. باغراق السفن المحملة بالاحجار، وذلك بعدما جرت معركة حامية الوطيس مع الاسبانيين الذين نزلوا الى اليابسة لتأمين هذا الاغلاق، فقد وصل الخبر الى المغاربة المحيطين بالوادى من مدينة تطوان وقبائلها، بأن الجيش الاسبانى عازم على مهاجمة تطوان، فاستعدوا لذلك، ولكن الاغلاق وقع طبق المشروع الاسبانى .

استغاثة على لسان الشعراء :

ان كوارث المغرب أصبحت من أواخر المرينيين فالوطاسيين فالسعديين تترى، فالشواطىء المغربية مزقت شر ممزق بين المحتلين، فهذه ثغور سبتة وطنجة وأصيلا تحتل أيام المرينيين، وهذه ثغور البريجة (الجديدة) وسواحل سوس وآسفى وأزمور والمعمورة تحتل أيام الوطاسيين، ورغم أن قيام الدولة السعدية كان لسد الثغور التى تركها الوطاسيون بسوس عورة، فان الاحتلال أيام السعديين أصبح عملا شبه رسمى، ففى زمن الغالب بالله استولى الاسبان على بادس والمزمة، ومحمد الشيخ بن المنصور اذن لهم باحتلال العرائش .

ثم أنه أتت بعد ذلك الدولة الشريفة العلوية، فوجدت نفسها أمام هذه المخلفات الثقيلة وجها لوجه الا أنها قامت باعباء استرداد تلك الثغور واحدا تلو الآخر، فقد شمر السلطان المجاهد مولاى اسماعيل وشنها حملة شعواء على المغتصبين .

وقد قام المجاهدون المغاربة فى الشمال بواجب وطنى شريف، فلبوا نداء السلطان الهمام، وقاوموا قوة واحدة تحت لواء قائدهم أبى الحسن على بن عبد الله الريفى، فحاصروا طنجة، ففى عام 1095 هـ. بعدما طال الحصار على المحتلين، انسلوا ليلا فارين فى مراكبهم البحرية، حيث تركوا المدينة فارغة، بعدما خربوا معالمها، الا أن قائد المجاهدين قد رمم ذلك فى أسرع وقت، وأصلح أحوالها، وفى سنة 1100 هـ. تلقى المجاهد احمد بن حدو الريفى البطيوى من قبيل بطيوة على رأس جماعة

من المجاهدين من طرف السلطان أن يتوجـه الى العرائش لافتتاحهـا، نتوجه اليهـا، واستبسل المجاهدون فى هجماتهـم ضد العـدو، الى أن افتتحت سنـة 1101 هـ.

ولهذا أصبح يطلق على أبناء الريف اسم المجاهدين فلا يرد فى الكتابات الرسمية فى حقهم الا أفعل بالمجاهدين كذا وأوصيك بالمجاهدين الى غير ذلك، لانهم اثاروا حماسا جهاديـا منقطع النظير، فطردوا عـن شواطىء الشمال ما كان فيها من رجـس الغزاة، ففى العرائش كـان النصارى المقيمون فى ذلك الثغر 3200 قتل منهم أثناء القتال الفان وأسـر الباقى، ولم يكن الفتح صلحا كما زعم الاسبان، بل كان عنوة، وقد كافـأ المولى اسماعيل هؤلاء المجاهدين فأسكنهم مدينة العرائش، وأمر القائد احمد الريفى أن يبنى لهم مسجدين وحماما، وان يبنى داره هو بقلعتها (1)

الـى أصيـلا :

وفى غمرة الافتتاح توجهت همته أيضا لفتح أصيلا، فأمر نفـس المجاهدين، فتوجهوا اليها وحاصروا حامية الاسبانيين فيها مدة سنة كاملة، وعندما بلغ بهم الضيق كل مبلغ طالبوا الامان، فأعطاهم السلطان ذلك، الا أنهم رجعوا فركبوا البحر ليلا ناجين بأنفسهم الى اسبانيا، لا يلوون علـى شـىء .

وقد فعل السلطان مع المجاهدين نفس العمل، فكافأهم باسكانهم مدينة أصيلا، وبنى لهم مسجدين ومدرسة وحماما ودارا لقائدهم بالقلعة.

ويظهر أن عدد المجاهدين تكاثروا، ولذا اسكنوا فى المدينتين معا وهو ظاهـر .

الاستـغـاثـة :

وقد تبارى العلماء والشعراء بعد هذا الانتصار، لاستحثاث همة السلطان المجاهد، لفك رقاب الثغور المغربية الشمالية والجنوبية، وكانت بادس وسبتة والجديدة تئن تحت النير الاجنبى .

فقد قال الفقيه العالم الورع أبو محمد عبد السلام ابن حمدون جسوس يستحث همة الغازى مولاى اسماعيل، على لسان هذه الثغور:

(1) الاستقصـاء ج. ص. 74 .

رفعت منازل سبتــة أقوالهـــا | تشكو اليكم بالذى قــد هالهــا
مــع بادس وبريجة فتعطفــوا | وتنبهــوا كى تسمعوا تسآلهــا
يابــن النبى الهاشمــى محمد | قل يا أمير المؤمنين أنــا لهــا
فلقد قضيتم للعرائش حاجـــة | مع طنجة فاقضوا لذى آمالهــا

الى أن قــال :

فابعث لها أهل الشجاعة عاجــلا | كيما تقطع بالعــدا أوصالهــا
وأمدهــم بمؤونـــة ومعونـــة | حتى تراهــم نازلين جبــالهــا
وارفع لهــذا الغرب رأسا انـــه | من الضعف مادام العدا انزالها
أبقــاك ربــى للخلافــة عــدة | تقفو الشريعة مؤثــرا افعالهــا

جــزيــرة النــكـــور :

هذه الجزيرة تقع فى صميــم خليج الحسيمــة، أمام رباطــة المجاهدين التى تحولت الآن الى نادى البحر الابيض المتوسط، وتبعــد عن اليابســة بحوالى 500 متــرا .

ومساحتها 15.000 متر مربع، وترتفع عن البحر بنحو 27 متر. وبهذا الاسم كانت تعرف عند جغرافى المغرب، كالبكرى وغيره، وذلك أخذا من اسم الوادى الذى يصب شرقى تلك الجزيرة بنحو أربع كيلومترات، وهو وادى النكور، أما الواد الذى يبعد عنها بنحو كيلومتر واحد فهو وادى غيــس .

وقد كانت فى عهد امارة النكور للعرب الحمريين ملاذا لبعضهم فى الحروب، وكانت مرفأ لمدينة المزمة التى كانت على الشاطىء المقابل لها.

وقد بينا فى مناسبات من هذا لاكتاب الاهمية القصوى التى كانت تتوفر عليها، وبالاخص اثناء احتلال اسبانيا لها بتاريخ 1673 م. حيــث عنيت من طرفها بتحصينات عسكريــة مهمة، كما قامت بأدوار سياسيــة استعمــاريـــة .

ويسميها الاسبــان «بلاوسيماس» التى اشتقت منها كلمــة الحسيمة، وقد بينا سابقا وجه التسمية بهذا الاسم .

مـدينـة مليلـيـة :

بجوار قلعة مليلية كانت مدينة أزلية تدعى روسادير، وهى فنيقيه وكانت مرسى شرقى القلعة متصلة بها وكانت محطة التجارة الفنيقيين ابان ازدهار دولتهم الشرقية بلبنان، والغربية بتويس القرطاجنية، ثـم استعمرها الرومانيون بعد الفنيقيين .

أما القلعة التى هى مجاورة لروساديس، فكانت تدعى قلـوع جارة، واليها تنتسب قبيلة قلعية وأول من بنى هذه القلعة وحصنها الامير مليل، أمير بنى يفران، واليه تنسب مدينة مليلية، وقد أسسها عام 92 هـ. كما سبقت الاشارة اليـه .

وتقع المدينة عند تقاطع خط الطـول بدرجتين و52 دقيقة غربى كرينيش ودرجة 35،21 دقيقة من خطوط العرض شمال خط الاستواء .

أما أسرها لدى الاسبانية فقد كان على الشكـل التالى: عندمـا سقطت آخر مملكة فى الفردوس المفقود وهى مملكة بنى نصر بغرناطة فى أواخر القرن الخامس عشر، واستولـت الكاثولكية بقيادة الملكـين الكاثولكيين الاسبانيين على ما تبقى فى يد المسلمين من أمر الاندلس، وبعد خمس سنين من سقوط مملكة غرناطة، شـرع الاسبان يهجمـون على المغرب، ومن ضمن ذلك الهجوم على مدينة مليلية .

وذلك أن مليلية كانت محل نزاع بين سلطنة تلمسان، وسلطان المملكة المغربية محمد الشيخ الوطاسى، ولحسم النزاع بينهما التزامـا معا اخلاءها من قوة كل من السلطتين وتركها خالية، واذ ذاك اهتبلهـا الغزاة الاسبان، وانزلوا بها 500 فارسا بقيادة «بدرو دى لسطوبنيان»، الذى نال لقب دون مدينة شـدونة .

وبهذه السهولة نزل الغزاة فى هذه القلعة بقوتهم التى لم تلـق أية مقاومة، لان المسلمين، تركوها عورة لما نشأ بينهم من الخلاف، وهى قلعة أزلية لها أهمية كبرى، وقد شهدت الاسطول التجارى الفنيقى ينزل تجارته بجنبها كما شهدت الاسطول الاستعمارى الرومانى الذى جعلها قاعدة وصلة بين استعمار المغرب والجزائـر .

وكانت تعتبر قاعدة شعب بطيوة فى الريف وقد كانت مجازا لصقر قريش الاموى، حيث مر منها الى الاندلس، لتأسيس المملكة الاموية ذات الشأن الاكبر المعروف (1)، وكان من الطبيعى أن تحتل بهذه السهولة مادام هناك نزاع بين سلطتين ذاتى شأن .

ورغم ان المجاهدين الارياف بعد استيلاء الغزاة عليها، قد قاموا بالقسط الاوفر من الجهاد لرد عادية المغيرين، الا أن موقع القلعة من المناعة، وتحصينها بالاسطول الاسبانى بحرا، قد فث فى عضد المجاهدين. ففى خلال مدة خمسة قرون لم يفتأ الحصار مضروبا عليها، وبالاخص فى القرنين السابع عشر والثامن عشر، ففى هذا القرن الاخير وبالضبط بتاريخ فاتح شتنبر عام 1774 م. شمر السلطان المجاهد مولاى محمد بن عبد الله العلوى، فقرر حصار كل من سبتة ومليلية، لاسترجاعهما الى حظيرة الوطن، ولكن قوة الاسطول الاسبانى الذى يزود الحصنين بالحشود والدخيرة والمئونة حتى الماء، من جهة، ومن جهة أخرى يقطع الطريق عن امدادات المغرب للمجاهدين (2) بحرا .

الا أنه لما كان السلطان سيدى محمد بن عبد الله قد عقد هدنة مع اسبانيا فى عام 1179 هـ. (هدنة وليس معاهدة) ذلك أن أسرى المسلمين الذين كانوا فى قبضة اسبانيا، استغاثوا بالسلطان سيدى محمد هذا وطلبوا فكاك أسرهم، ولما كان للسلطان هذا اعتزاز بالمبادرات الاسلامية الاحسانية، فانه كتب الى ملك اسبانيا يطلب منه أن يعتنى بأسرى المسلمين، كما تعتنى الدولة المغربية بأسرى النصارى، وبالاخص ذوى المعرفة والمقام منهم، فما كان من ملك اسبانيا الا أن أطلق سراح من عنده، ووعد بأن يلحق بهم من وجد عنده فى اقاليم أخرى، فوقع ذلك من السلطان موقعا عظيما ودعاه حبه بالافتخار أن يطلق من عنده من أسرى النصارى، سواء اسبانيين أو غيرهم، مع هدية من ضمنها أسد من المغرب، فبادله ملك اسبانيا بهدية أخرى عظيمة مع كتاب أصحبه لعلية قومه، وبذلك توطدت الصلة بين

---

(1) كما عبر عنها المغنى المشهور زرياب بلبل بغداد الذى جاء الى الاندلس
(2) الاستقصاء ج. الثامن ص. 40 .

الدولتين، واقترح عليه الاخير أن يبعث اليه بعثة لتشتهر الصداقة بينهما، فبعث اليه سيدى محمد بن عبد الله بعثة تتركب من قائدين من قواد الودايا، ومعهما الكاتب أبو العباس احمد الغزال، وزود الاولين بكتاب يعتمد فيهما القائدين المذكورين لدى ملك اسبانيا، ولما وصلت البعثة الى جبل طارق، رأى الكاتب أبو العباس الغزال آن القائدين ليست فيهما غنيه، لانهما ليسا أهلا لتمثيل بلده لدى ملك أجنبى فكتب الى الملك يعلمه بقصورهما عن المهمة التى وكلت اليهما، فتفطن الملك، وبعث بكتاب آخر يعتمد فيه الكاتب الغزالى، وأمره بآخذ الكتاب الاول الذى عند القائدين عنده (1) .

وفعلا قام هذا الكاتب بالمهمة المنوطة به وربط الصلة مع اسبانيا، ومن ضمن ذلك وقع الاتفاق على عقد مهادنة بين اسبانيا والمغرب فيما يخص البحر، فكتب الكاتب الغزال هذا عقد المهادنة بخط يده، وجاء فى هذا العقد العبارة التالية: «بحرا لا برا» وقد كانت هذه العبارة سبب نكبة هذا الكاتب، كما كانت سببا لاسترسال استعمار مدينة مليلية، وذلك أنه لسهولة تكشيط لفظة لا التى بين بحرا لا برا ووضع حرف الواو محلها، وهكذا عمد الاسبان الى تحريف ذلك فأصبحت العبارة هدنة بحرا وبرا، ولما وقع الحصار على مليلية من طرف سيدى محمد بن عبد الله كما أسلفنا استظهر الاسبان بالاتفاق بخط الكاتب الغزال .

وهناك ثارت ثائرة السلطان سيدى محمد على الكاتب المذكور، فوبخه وعزله وطرد من عنده وبقى عاطلا الى أن عمى بصره ثم توفى (2).

وقد كان اهتمام سيدى محمد بن عبد الله بثغور الشمال عظيما، وبالاخص الثغور التى تتعرض لقرصنة اسبانيا والبرتغال وفرنسا، وذلك ما دعاه الى القيام ببعث هذه البعثة المهمة الى اسبانيا لعقد المهادنة وتأمين البحر المصاقب لهذه القلاع المهمة على شاطىء الريف .

---

(1) الاستقصاء ج. الرابع ص. 49 .

(2) هكذا فى الاستقصاء ج. 8 ص. 40 الا أن الاستاذ حسن السائح اعلمنى أنه توجد نسخة فى خزانة تطوان لازالت على أصلها أى بحرا لا برا، ويمكن أن تكون النسخة التى عند الاسبان هى التى حرفت فاستظهروا بها .

وفى نفس السنة التى بعث فيها بهذه البعثة، قام بجولة عبر هذه الشواطىء (1) ابتداء من تطوان بعد أن تفقد ثغر سبتة ومركز المجاهدين فيها، ومن هناك اتجه الى الريف عبر شواطىء غمارة، اذ وقف على مرسى تكساس، ومرسى الجبهة، ثم بادس فالمزمة الى أن وصل الى كرط بضواحى مليلية، فاتصل بالمجاهدين هناك، وبث فيهم روح الجهاد والنضال ورضى عنهم رضى الملوك المعتزين برعيتهم، ثم رجع عن طريق تازة، وعندما وصل الى قاعدة ملكه عين ولده مولاى على، خليفة له على هذه الجهات، فضم اليه نواحى الجبالة والريف وغمارة، وجعل مقره فاسا الجديدة اعتناء منه بهذه الشواطىء .

وفى سنة 1846 م. تعرضت مليلية أيضا لحصار من طرف المجاهدين المحليين، الذين قاموا بحصارها نظرا لما أصاب السلطة المركزية من الضعف، وعندما اشتد الحصار عليها طلب الاسبان من السلطان ارسال كتيبة مغربية للحيلولة بين القبائل وغاراتها على مليلية .

واثر ذلك، وبتاريخ 24 غشت 1859 م. حصل الاسبان من الدولة المغربية على اتفاق حدد بموجبه حدود جديدة لمدينة مليلية، وهكذا تم التوقيع بين المغرب واسبانيا بمدينة تطوان على ذلك الاتفاق، فعينت بموجبه الحدود يحيط المدينة، ضمانا للدفاع عنها وصيانتها، وكان هذا الاتفاق يشتمل على ست مواد، تنص السادسة منها على تسهيل تموين الحامية الاسبانية بمليلية، ثم تمم هذا الاتفاق بمدينة طنجة بتاريخ 30 أكتوبر سنة 1860 م، حيث وضعت الحدود على الكفية التالية:

يبتدىء خط قطاع مليلية المحيط بالمدينة، ومن نقطة تقع على الشاطىء على مسافة الفين وتسعمائة مترا جنوبها، ويبتدىء هذا الخط من منارة (سنطا بربارا)، وينتهى بعد السير المتكسر فى الشاطىء الصخرى المنعرج شمال المدينة، ويبدو من نصوص الاتفاقية هو تحديد ما يسمى بمليلية ولا تدل على تسليمها اليهم .

ورغم كل هذه الاتفاقيات فان المجاهدين الارياف لم يعترفوا بها، بل قاوموا الاحتلال الاجنبى، ففى سنة 1893 م، نشبت الحرب المعروفة

(1) الاستقصاء ج. 8 ص 25 .

بحرب مليلية، وقد اهتبلها الاسبان فوسعوا فى حدودها واعتنوا بها اعتناء بتطوير عماراتها، وفى سنة 1009 م، هجم السكان أيضا تحت قيادة المجاهد الكبير الشهير الشريف الادريسى سيدى محمد أمزيان، وحاصروا مليلية، وهجموا السكة الحديدية التى مدت لاستغلال مناجم الحديد بجبل «أوكسان» الذى كان الثائر العميل بوحمارة عند حلوله بقصبة سلوان، قد أعطى امتيازا لاستغلال منجمى «أوكسان وسيطولا زار» بتاريخ 1907 م. مقابل 650.000 بسيطة اسبانية، ورغم أن مولاى عبد الحفيظ رفض هذا الامتياز، فان اسبانيا لجأت الى الحرب لاحتلال هذا المنجم، فقد جندت 50 ألفا من جنودها معززين بالاسطول البحرى لاحتلال هذه المنطقة .

منطقة مناجم الحديد :

وقد دامت المعارك أكثر من ستة أشهر لاحتلال هذه البقعة، وتكبدت اسبانيا خسائر فادحة، وقد خلفت من القتلى والجرحى الفين بينهم جنيرال واحد وكرونيلات وضباط آخرون، وقد سمت اسبانيا ذلك الاسبوع الذى وقعت فيه المعركة، بالاسبوع المأسوى، سبب لها اضطرابا داخليا فى أمتها وبالاخص الدوائر الحاكمة .

الجزر الجعفرية (1)

هى جزر ثلاثة تقع شرقى مدينة مليلية بحرا، على شواطىء قبيلة كبدانة، قبالة رأس الماء، وتبعد عن الشاطىء بنحو ثلاث (كلم)، وأخذت تسميتها بالجعفرية من اسم جعفر التى تنسب اليه ومن هذا الاسم يطلق عليها الاسبان «شافارينس»، مع تحريف فى النطق، كما هو الشأن فى نطقهم بالكلمات العربية .

ويظهر من تسمية الشريف الادريسى فى نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق، بجزيرة قشقار، حيث قال: كانت حصنا عامرا له مرسى واسعة، وفيها الماشية والاموال، وفيها مياه، وتلجأ اليها المراكب، وهى مسكونة ويصب بحذائها نهر ملوية، ان القصد من ذلك هى احدى تلك الجزر وهى

(1) بهذا الاسم تعرف الآن، وهو اسم متداول مستحسن، وان سميت فى بعض كتب التاريخ بجزر كبدانة أو جزر نهر ملوية أو جزر قشقار.

الاكبر فيها، وهى تسمية لا تخالف تسميتها بجزر جعفر، لانها اسم خاص لاحداها فقط، كما أن الاسبان سموا كل واحدة منها باسم خاص، مع بقاء اسم مجموعها الذى هو شافارينس على ما هو عليه، فسموا الكبيرة منها بجزيرة الكونغريس، وتبلغ مساحتها 900 م. طولا فى 500 عرضا فى ارتفاع 135 م عن البحر، وهى التى كانت عامرة حسبما ذكره الشريف الادريسى وتليها جزيرة أقل منها ومساحتها 500 م طولا فى 400 عرضا، وترتفع عن البحر بأربعين مترا، وسميت عند الاسبان بجزيرة ازابيل الثانية، ثم تليها جزيرة وهى أصغر الجميع ومساحتها 300 م طولا فى 200 عرضا مع ارتفاع 34 مترا عن البحر وسماها الاسبان بجزيرة الملك .

ويبدو من البيان المذكور أهمية هذه الجزر التى تكون ارخبيلا مهما يراقب السكان الذين يقطنون على ضفاف نهر ملوية السفلى، تلك الضفاف التى شهدت فى احقاب متلاحقة احداثا تاريخية مهمة، فقبائل بنى يزناسن العاتية تقطن الضفة الشرقية، وقبائل كبدانة وراءها يقطنون الضفة الغربية، والجميع كان مسرحا لتلك الاحداث، كما تراقب أيضا القطع البحرية التى تسير حذاء تلك الشواطىء .

ولذا فانه عندما احتلت فرنسا القطر الجزائرى حاولت الاستيلاء عليها، وذلك ما حرك ساكن الجيش الاسبانى الذى فى مليلية، فطير الاعلام لملكة اسبانيا ازابيل الثانية، فأمرته باحتلالها باسمها، فقام الجنرال «سيرانو» حاكم مليلية فى ذلك التاريخ، فاحتلها بتاريخ 1848، وجلى عنها سكانها المغاربة ومن ذلك التاريخ وهى تستخدمها كقاعدة عسكرية لتعزيز مليلية ومراقبة تلك القبائل علاوة على كونها مرسى لسفن الصيد فى تلك الناحية .

الحدود المغربية التاريخية

فى شأن هذه الثغور التى لازالت محتلة بعد الاستقلال كنت نشرت مقالات تحت العنوان أعلاه، فى جريدة صحراء المغرب بتاريخ غشت 1957، أقتطف منه ما يأتى :

ان للمغرب كفرنسا مثلا حدودا طبيعية محددة أى مستقرة، لا مد فيها ولا جزر، فقد وضعت لها بحكم الطبيعية، وبقدرة القادر الحكيم،

وذلك لحكمة الاستقرار والتعارف «يا أيها الناس انا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا»، فالمغربى فى فرنسا أو مصر مثلا يعرف بالمغربى، لانه من أبناء حدوده الطبيعية، ولد أو أحد من آبائه داخلها، والفرنسى فى المغرب أو الجزائر أو فى صحرائهما هو فرنسى، وليس مغربيا ولا جزائريا، الا أنه اذا كان وجوده فيهما متساكنا للتعايش فهو ضيف البلد الامين، له ما لضيوفهما من الحرمة والاعتبار، وان كان بصفته حاكما فانه المتسلط يتربص به الدوائر لازاحة ثقله من على الاكتاف، ولا يحتاج تلقين ذلك للجيل الناشىء، لانه أمر مفطور عليه البشر كالنحل فى خلاياها، اننا عندما نتتبع القضايا التاريخية فى الكون أجمع، نرجع بفكرة راسخة ثابتة، ونجدها القاعدة الكونية التى فطر الله عليها نظام البشرية ومع ذلك فانها لا تعمى الابصار ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور .

ان تركيا المسلمة كانت لها وشائج غير طبيعية، وهى وشائج روحية قوية مع جل الاقطار التى سيطرت عليها حقبا من الوقت غير قصيرة، كان يبدو للعيان أنها مخلدة السيطرة على تلك الاقطار الى يوم يبعثون، فهل كانت تلك الوشائج القوية غير الطبيعية بدافعة لها لبقاء سيطرتها على غير حدودها الطبيعية .

كلا فلا اتحاد عقيدة الدين بينها وبين المحكومين غير الاتراك، ولا الجامعة الاسلامية التى تبناها ملوكها أو خلفاء الاسلام فيها، خولت لها سيطرتها على غير تركيا الطبيعية .

بل ان أقطار العرب الاسلامية هى التى قام زعماؤها لازاحة التركى عن السيطرة عليها، فكان لمحمد على باشا فى مصر، وكان لشريف حسين فى الحجاز،، وكان لزعماء سوريا القدح المعلى فى الذب عن أقطارها الطبيعية، فانكشمت تركيا داخل حدودها الطبيعية، ليس فقط من أقطار البانيا والصرب والنمسا والقوقاز بل وحتى من مصر والشام والعراق والحجاز وغير ذلك، ولم يتمكن لها الاستقرار الا عندما يحكم التركى التركى ولا يحكم المغربى أو النمساوى الى غير ذلك.

والمغرب نفسه بعد صولة وجولة فى افريقيا الشمالية، وفى غرب

أوربا رجع الى حدوده الطبيعية بعدما خلف آثارا وحضارة فى أوربا كان لها المعين الذى لا ينضب لتوسيع المدارك، وهل نسيت اسبانيا نفسها أى نشوان أصاب أبناءها عندما غادرت جنودها آخر مدينة فى أمريكا الجنوبية، اذ كانت سيطرتها على تلك الاقطار مثارا للسخط والقلاقل، لم تخرج منها الا عندما غادرت كوبا، فاكتفت من الغنيمة بالاياب، وكان لذلك أحسن وقع فى نفوس الاسبانيين، لكى يحكم الاسبانى الاسبانى، ولا يحكم الامريكى أو الفلبينى ولا الجزائرى الذين يثيرون لها المشاكل الهامة لانها متسلطة عليهم لا بحكم الطبيعة. وهكذا ستغادر صحراء المغرب بالساقية الحمراء ووادى الذهب كما ستغادر سبتة ومليلية والجيوب التى على شواطىء شمال المغرب بنفس الصفة .

أما فرنسا فما بالعهد من قدم، فقد تركت ــ لا رغبة منها ــ أقطار الشام والهند الصينية وغيرها من أقطار شمال افريقيا، بعدما تركت معالم تاريخية مروعة فى «ديان بيان فو» من الهند الصينية، وفى مثلث الموت فى جبال الريف الشاهقة، ولذا فانه ليس لفرنسا أو اسبانيا أى قرار فى الجزائر أو صحراء المغرب، لان الاولى للجزائريين، والثانية للمغاربة، وقد يكون خطؤهما انها عندما يبوء عملهما بالفشل الذريع فتعملان بالقوة لتغيير مجرى الطبيعة فى صوغ سيطرتهما فى صيغة قانونية، فتجنيس أبناء الجزائر تجنيسا فرنسيا ــ كما سبق ــ ان حاولت بربرة الجزء الاهم من المغرب ــ هل كان ذلك بمغن لها عن أن يكون هؤلاء الجزائريون يحملون السلاح ضدها عندما تدق الساعة؟ وهل بمغن لها أن تدعى مرة أخرى أن هذا البشر من المحكومين بقوتها هم ساقطو القدر، وانهم ليسوا فى درجة البشر ؟

ومع هذا الزعم فان حتفها الاهول قد تلقاه أسرع من مقارعة الند للند، وتكون رزيتها على يد هؤلاء السقطاء ــ كما تسميهم كذبا وبهتانا ــ أعظم، ولا عذر لها، فقد عميت حتى عن الحكمة القائلة :

ولا تحارب ساقط القدر فكم   من شاهة قد غلبت ببيدق

ان سنة الكون تطاردها كيفما تلونت وبأية صيغة صاغت أعمالها، انها حتى غطرستها قد حاربها القدر، فلم يترك لها عذرا فى احدى الخطتين.

فلو صح البقاء للمتسلط على الغير لكان البقاء ادعى لتركيا العثمانية، التى لبست الخلافة الاسلامية لباسا قشيبا، لكى تغرى الاقطار الاسلامية الاخرى لتستكين الى حكمها الذى استمد تشريعه من روح الاسلام الذى اعتنقه المحكومون اعتناقا مازج روحهــم .

ولكان ادعى أيضا أن يبقى المغرب فى اسبانيا المسلمة، حيث نقــل اليها بواسطة الاسلام اللغة العربية والعلوم والحضارة البالغتين الشأو البعيد وأتى على ذلك حين من الدهر ترعرت فيه الاجيال والاحقاب، ورضع ابناؤها لبانها غضا طريا، ومع ذلك فان الحدود الطبيعية هى التى كفلــت بحفظ المغربى أو التركى عن تلاشى هذا الاســم، ولم يغد ذكر هذيــن الاسمين الا داخل الحدود الطبيعيــة .

الصحراء المغربية : وادى الذهب والساقية

قضت النزعة الاستعمارية، التى تغلغلت فى حكومة اسبانيا العسكرية، والتى أشربت حبها عندما قدر لها أن تنتشر سيطرتها يوما ما، على شواطىء الاطلس بأميريكا الجنوبية، وشواطىء الهادى فى أقصى آسيا ان لا تنسلخ عن تلك النزعة ولو فى عصر أصبحت تلك النزعة وصمة عار فى جبين الانسانية .

الا أنه على ما يبدو، أن هذه النزعة اللا اخلاقية بالنسبة لمطامعها فى المغرب :

البلد المجاور، الذى أسال دمه غزيرا فى الحرب الوطنية الاسبانية، التى توجت بانتصار النظام الحالى الذى تسكع عن الاقتناع بهدى قضية المغرب فى صحرائه، يبدو أن هناك نزعة انتقامية، استولت على مشاعر ذلك النظام، وقد يكون متولدا من ذكريات ترجع الى عهد ما قبل انقضاء دولة بنى الاحمر بتاريخ 1492 بغرناطة باستسلام أبى عبد الله محمد بن الحسن الخزرجى، حيث انتهت المرحلة الطويلة لحكم العرب والبربر لشبه الجزيرة الايبيرية، التى دامت زهاء 778 سنة، حمل فيها هؤلاء الفاتحون ما هو معروف من العلوم والفلسفة وعموم الحضارة، والتى قابلتها اسبانيا بتأليف محاكم التفتيش، لمصادرة العقائد والمال تحت طائلة أعمال وحشية، لم يشهد التاريخ البشرى مثلها .

واذا كانت اسبانيا تحمل ذلك الحقد الدفين، فانها صبت هجماتها على شواطىء المغرب شمالا وجنوبا، فى ذلك الوقت بالذات، وكان مرماها بعيدا بحيث تريد اكتساح البلد الذى حكمها تلك المدة، ولم يردعها عن التوغل داخل المغرب الا تلك المعركة التاريخية التى جرت بوادى المخازن سنة 1578، حيث غيرت من عقلية الانتقام التى عشعشت فيها، فقرأت الف حساب قبل أن تحصل على موضع قدم من يابسة المغرب، واكتفت بالسطو على أطراف بعيدة، قد تكون الدولة المغربية فى غيبة عنها، أما لانها

نائية مثل جزر الخالدات التى استولت عليها فى القرن الخامس عشر، فى خضم محاكم التفتيش، واجلاء المسلمين عن الاندلس فاصابت منها ما أصابت من غرناطة وجبال بشرات، واما لان السلطة المركزية المغربية شغلتها فتن داخلية، فاستغلت هذا الوهن واحتلت أطرافا فى الشمال مثل مليلية وسبتة وغيرهما من مواقع الشواطىء .

الـدخـلـــة :

واذ فصلنا قضية الشواطىء الشمالية فيما سبق، واذا كانت الصحراء المغربية تختلف وضعيتها فى ذلك التاريخ عن وضعية سبتة بالنسبة لاسبانيا والمغرب معا لما لها من موقع الخطر الداهم على اسبانيا، لانها مجاز القوات المغربية الى العدوة الاخرى .

فان هذه الوضعية بالنسبة للصحراء تطورت عسكريا بعد احتلال جزر كانارى وبعد معركة واد المخازن أيضا وبعد اجلاء الاسبان عن مجموع الشواطىء الاطلسية من أكادير الى طنجة .

فتكونت فكرة محاصرته من منافذه التى تكون السلطة هناك مقصورة على الولاء والتلقائية، فكان احتلال جيوب شاطىء الشمال ومن الجنوب تولدت فكرة «الريو دى أورو»، حيث تسد تلك المنافذ فينكمش المغرب فى محيط داخلى، مملوء بالفتن الداخلية التى تغذيها دسائس الاعداء الجاثمين على تلك المنافذ، بينما تستعمل تلك الجيوب لفتح ءافاق الاهالى المجاورين بالاغراءات تارة وبالتهديد تارة أخرى .

وهكذا انطلقت اسبانيا فى الصحراء ــ وهى التى تعنينا هنا ــ بسلسلة من المؤامرات الطويلة، والملتوية، فبدأت بارسال بعثات سمتها علمية تارة وهى التى كونها الثلاثى المعروف: «تيرفيرا وكيروغة وديزو»، وأحيانا بعثات تجارية للصيد على سواحل الصحراء وهى التى كونها الثنائى «الشركة الكنارية الافريقية» و«الشركة الاسبانية الافريقية» .

وتطورت مطامع هاتين الشركتين فحاولت اقامة مركز اصطيادى يرجع اليه الصيادون فى الظاهر، وفى النية المبيتة كانت لاغراض استعمارية، وقد أعطت لهذا المركز اسم «سنتكروش دى ماربكينية» .

وترجع قصة هذا المركز الى منتصف القرن الخامس عشر،

أى اثر احتلال جزر كنارياس وحاولت اسبانيا أن تعجم عود الاهالى، فجعلت مراكبها تقترب رويدا من الشاطىء، الا أن أملها خاب عندما اقتربت مراكبها سنة 1550 الى شاطىء رأس أغوير (أكادير) فقد اقتحم المغاربة تلك المركب، وأسروا 66 رجلا ممن كانوا فى تلك المراكب .

وعندما اقترب المركب «مانويرا» الى سواحل الصحراء، صعد اليه الاهالى فقتلوا اثنين من ربابينها، وجرحوا واحدا، واسروا أربعة.

وقد عجزت اسبانيا أن تضع قدمها على يابسة الصحراء فى غيبة السلطة المركزية المغربية بالرغم من احباكها مهزلة الشراء أو التنازل من اشخاص ثلاثة من أولاد السباع أحضروا الى تنيريفى عند الموثق خوسى البارث فاستشهد عليهم بالتنازل أو الشراء .

ان هذه المهزلة تتمثل فى الاسئلة التالية: كيف يمكن لدولة ذات كيان أن تحتج بوثيقة سجلت فى ظروف غير معروفة عن أشخاص عاديين؟ قد يقال فى حقهم هيان بن بيان ولكاع بن لكاع، وأى صفة دونية عند الموثق العادى مثل خوسى الباريث؟ ولماذا الاحتياج الى حجة التنازل اذا كانت الارض خلاء ؟

وقد يكون من الطرافة أن أورد هنا حوارا جرى بين السنيور غورسيا فيكراس نائب الشؤون الاهلية بتطوان ويعد عند الاسبان خبيرا فى شؤون افريقيا وله مؤلفات عن الصحراء المغربية سيأتى نقل بعض النصوص عنه ــ وبين جماعة من مواطنى بنى ورياغل ومنهم كاتبه عن قضية وجود اسبانيا فى المغرب وقد وجه الكلام لكاتبه بالخصوص قائلا: هل اسبانيا جاءت الى المغرب بوحى منها؟ ــ وكان يعنى الصحراء ــ أم أن ثلاثة من الاهالى هم الذين طلبوا من اسبانيا أن تنزل بالمغرب؟ فأجبته بأن أى شخص انقطعت به سبل العيش فى المغرب مثلا أو كان خائنا لوطنه يمكن أن يذهب الى أية دولة يستعديها، فهل مجرد ذلك يكفى للاستيلاء على سيادة الوطن؟ فافحم ولم يسترسل .

واذ وصلت اسبانيا فى الصحراء الى طريق مسدود مع الاهالى، فانها رأت ان لا مناص من الرجوع الى السلطان الذى هو صاحب السيادة المطلقة على الصحراء فسلكت فى هذا الرجوع مسالك ملتوية تارة بالتهديد بطلب تعويضات مالية عن الخسائر التى لحقت بمراكبها، وتارة بمطالب ترابية، المتمثلة، فى مركز «سنتاكروش دى ماربكينية» .

أين يوجد مركز سنتاكروش دى ماربكينية ؟

دلت الملابسات التى صاحبت محاولات اسبانيا للنزول بشواطىء الصحراء المغربية، على أن هذا المركز هو المعروف عند المغاربة بانداخلة، وتقع على الشاطىء بوادى الذهب، وتبعد عن رأس بوجدور الذى يقع جنوبها بنحو 450 كلم، وهى على لسان أرضى داخل فى البحر، يكون مع الساحل خليجا طبيعيا هاما، وهى أقدم نقطة تاريخية ارتادها الاوربيون على شاطىء الصحراء، ذلك أنه لما اشتد النزاع بين اسبانيا والبرتغال وقعتا معاهدة سنترا سنة 1509 م. المتعلقة بتقسيم المملكة المغربية، وقضت المعاهدة باحتلال اسبانيا لمنطقة سنتكروش دى ماربكينية، وقد كانت هذه المنطقة غامضة لدى المؤرخين، الا أن الاسبان احتلوا الدخلة الى غاية 1525، ثم بدا لاسبانيا ان تملكه بالقوة فقامت بمحاولة أولية بتاريخ 1698 بهجوم على الموقع، الا أنها لم تسفر على نتيجة بسبب صمود الاهالى فاكتفت بعبور البحر على الشواطىء بمراكب الصيد، التى لم تنج هى أيضا من هجوم عليها، ثم بدا لها أن تعجم عود السلطة المركزية المغربية، فارسلت بعثة دبلوماسية، برياسة السفير خورخى خوان الذى استطاع أن يعقد معاهدة بتاريخ 28—5—1767 تتعلق بالترخيص لمراكب اسبانيا للاصطياد على شواطىء المغرب الجنوبية، وقد ادمج المغرب فى هذه المعاهدة بندا يتعلق بتحفظه على الاصطياد على شواطىء الصحراء، حيث نص بالخصوص على عدم اقدام المراكب الكنارية بالتحرش بالاهالى هناك لان العرب غير منضبطين لكونهم رحلا ولا استقرار لهم مع ما يتصفون به من شدة المراس وركوب المخاطر، فاذا اقتربت تلك المراكب ووقع لها سوء فالمغرب ليس مسؤولا عن الخسائر .

ورغم هذا التحذير الوارد فى الفصل 18 من تلك المعاهدة فان الاسبان عاودوا الالحاح على السلطان بأن يكف عنهم أهل الصحراء عندما يتحرش مركب لهم للصيد، محتجين بالمعاهدة المشار اليها، وطالبوا منه أن يعلن لرعاياه فى تلك النواحى تحمله لمسؤولية الاعمال التى يقترفونها ضد تلك المراكب، فأجابهم لذلك تحت عاطفة الصداقة التى ابداها ملك اسبانيا تجاه السلطان، فعقدت معاهدة أخرى بتاريخ 1799 جاء

فى فصلها 22 ما يأتى : «اذا حرث (تحرش) مركب لجنس الاسبانيول فيما وراء سوس ووادى نون، فمن جهة المحبة التى لملك اسبانيا فى سيدنا أيده الله، يبحث كل البحث، ويستعمل عزمه فى استنقاذ الراعيه المحرثين، بما أمكن الى أن يرجعوا لبلادهم» .

ورغم هاتين المعاهدتين، فان اسبانيا لم يهدأ لها بال وجعلت تبحث عن ذريعة تتذرع بها، لاجل أن تشغل المغرب عن الصحراء لتتمكن من الاحراز هناك على موقع قدم، واهتدت الى أن تتحرش معه شمالا، فعمدت الى توسيع حدود سبتة، الامر الذى ازعج السكان أهل أنجرة وحوز تطوان فمنعوها بالقوة، واصطدموا مع الجيش هناك، فما كان من اسبانيا الا أن أعلنت الحرب على المغرب خارج منطقة سبتة، فزحفت قواتها تحت امرة الجنرال أودينال وجرت معارك عن الطريق الساحلى من سبتة الى تطوان حيث احتلتها تلك القوة الزاحفة سنة 1860 فى الحرب المعروفة، «بحرب ستين» .

ومن هذا التاريخ أصبح وضع اسبانيا بالنسبة لمطالبها الترابية والمالية فى مركز القوة، فجعلت تملى على المغرب ارادتها الاستعمارية فى معاهدة أخرى اثر هذا الاحتلال، وقد جاء فيما يخص الصحراء التى نؤرخ لها هنا فى المادة 8 منها الاتفاق على تعيين لجنة مختلطة لتعيين مركز «سانتكروش دى ماربكينية» .

لماذا هذه اللجنة ؟

وهنا تبدو سلسلة أخرى من المؤامرات الاسبانية فى الصحراء المغربية، ذلك لما استوثقت من قدرتها على الضغط على المغرب بدا لها أن تتوسع بالاقتراب من شمال المغرب، أى بنواحى مدينة أكادير التى طالما طلب ممثلها بالمغرب فتح مينائها والاعتناء به بدلا من الصويرة ولكن السلطان يأبى ذلك لما يعلمه من مطامع الاجانب .

فعندما كانت تطالب بنقطة الداخلة، وتدخلت لدى السلطة المغربية لكف الاهالى عن بعثاتها التجارية والعسكرية، أصبحت الآن تتعامى عن معرفة مركز سنتاكروس، وتطالب المغرب الذى يجهل هذا الاسم بالطبع من خرائطه لانه اسم اسبانى مستحدث على عادتهم

فى اطلاق اسماء الصليب المقدس أو القديسين على الاماكن التى يرتدونها ففرضت الفصل 8 من المعاهدة لهذا الغرض، ولاجل التسابق مع انكلترا التى ارتاد بعض رعاياها تحت رياسة ماكينزى شواطىء الصحراء أيضا لاجل اقامة معمل للصيد فقام سنة 1876 برحلة استطلاع قبالة الجزر الخالدات، وفى سنة 1878 عاد الى تلك الشواطىء فقدم تقريرا الى وزارة الخارجية البريطانية، وفى سنة 1879 أسس معملا للصيد فى رأس طرفاية وكان يعتبر نفوذ هذا المعمل الى رأس بوجدور جنوبا والى حدود سوس شمالا.

وفيما بين 26 دجنبر 1860 وفبراير 1861 جر تمراسلات بين قنصل اسبانيا بطنجة وحكومة مدريد، للتدخل لدى السلطان لتأليف اللجنة لتعيين محل سنتكروش دى ماربكينية، بناء على قاعدة «اضرب الحديد قبل أن يبرد» ولكن المولى عبد الرحمن بن هشام لما يعلمه من مؤامرة الاسبان بعد هزيمة تطوان، لم يوافق على التعجيل بتأليف اللجنة معللا ذلك بأن جهة الصحراء يسودها تمرد بعض المنشقين مثل الحبيب بن مبارك، وانه يرى ارجاء البحث الى أن يقضى على المتمردين، ولما سمع القنصل الاسبانى أنه يوجد هناك تمرد وان ذلك يشوش على السلطان اقترح على حكومته الدخول فى المفاوضات مع هذا المتمرد، الا أنها رفضت اقتراحه ولم تأخذ برأيه، لما تعلمه من عدم جدوى مثل هذه المحاولة التى جربتها مع أولاد السباع فلم تغنها شيئا، لان السلطان يحتج عليها بأنها تعمد الى خونة للتعامل معهم، بينما عموم السكان فى ولاء وطاعة لملكهم.

وعندما وصلت القضية الى هذه الدرجة، فان اسبانيا ارتأت أن ترفع تمثيلها فى طنجة الى درجة وزير، لكى يتمتع بثقل لدى الدوائر المغربية يوازى المهمة الموكولة اليه، وفعلا ففى سنة 1877 قام الوزير الاسبانى السنيور ادواردو روميه برحلة الى فاس حيث بحث مع السلطة المغربية تأليف اللجنة المشتركة، كما قام بمباحثات عى أسرى وادى نول الذين اعتقلهم المغاربة فى شهر شتنبر 1876، وفى شأن التعويض المالى لمبلغ 35000 بسيطة على احد الرعايا الاسبان الذى اغتيل على ذلك الشاطىء. وقد وفق الوزير الاسبانى فى مسعاه، فأجيب لجميع مطالبه، وعلى رأسها تأليف اللجنة المختلطة لتعيين المكان الذى يريده الاسبان

لاطلاق اسم «سنتكروش دى ماربكينية» من جديد بدلا من المكان القديم، وهكذا أبحرت اللجنة بتاريخ دجنبر 1877 من ميناء الصويرة على ظهر مركب اسبانى وضمن اللجنة الاسبانية قنصل اسبانيا بالصويرة.

وقد اهتم هذا القنصل من أول وهلة، بأن يلعب دور الخديعة حتى يتمكن من تضليل اللجنة المغربية، فبقى المركب مترددا بهم ما بين رأس طرفاية وأكادير وهم على ظهره من دون أن يستطيعوا أن يضعوا أقدامهم على اليابسة خوفا من بطش الاهالى بهم، ولان عواصف المحيط فى مبدأ فصل الشتاء جعلت الاقتراب الى الساحل أمرا خطيرا .

وقد تكتشف لها اسباب نجاح تضليلها للجنة المغربية، حيث أن هذه الظروف القاسية التى لاقتها فى هذا الدوران المتعمد سهلت عليها مأموريتها، فلما اقتربت من سيدى افنى وقع اختيارها حوله على موقع سنتكروش، وهنا يبقى الامر لغزا غير مفهوم وسؤال بدون جواب، وهو لماذا هذا الموقع بالذات؟ ولماذا لم يكن رأس طرفاية أو بوجدور أو غيرهما؟ وقد أجابت عنه الاحداث التى جرت بعده، وهى التى تتلخص فى نوايا اسبانيا لامتلاك الصحراء المغربية قاطبة من الرأس الابيض على حدود موريطانيا الى سيدى ايفنى

وعلى كل فان اللجنتين وقعتا على ظهر المركب بتاريخ 21 يناير 1878 محضرا بتعيين سيدى افنى موقعا لسنتاكروش دى ماربكينية، وأعطت اسبانيا اسماء أخرى للداخلة وهو «فيلا ثيسنيروس» .

ولما اطلع السلطان على المحضر رفضه، وطلب اعادة البحث من جديد، ولكن لم تؤلف أية لجنة لان الاسبانيين اعتبروا أن مهمة اللجنتين قد انتهت، وعقب ذلك وردا على امتناع اسبانيا فى تجديد البحث وجه السلطان مذكرة دورية الى الدول الاجنبية بتاريخ فبراير 1884 يدعوها فيها الى الكف عن التعامل التجارى مع الاقاليم الجنوبية المغربية .

هل وادى الذهب والساقية الحمراء أرض موات ؟

ان الدول الاوربية لما كانت تتحكم فى مصير العالم، فى ذلك العصر، استوحت من تلك الغريزة ان تصنف أراضى القارة السمراء،

أصنافا، فاعتبرت منها أراضي «واتا» يحق لاوربا أن تقوم باحيائهـا بالاحتلال، ولذلك اعتبرت ان السكان الذين يعيشون على اديمها كسوائم، ولو كان لهم كيان أو انتساب .

وهكذا عقدت فيما بينها معاهدة دعيت بمعاهدة برلين، وكـان آمر اعتبار الارض الموات موكولا الى تقديرات تلك الدول الاستعماريه حسـب هواهـا .

ولما كانت مطامع اسبانيا فى المغرب معروفة وقديمة كما بينا، ولما كانت جربت كل المؤامرات جنوبا وشمالا، فانها عمدت فى تاريـخ 26 دجنبر 1884 ـ كرد على مذكرة سلطان المغرب الى الدول الأجنبيـه كما أسلفنا ـ فوجهت هى مذكرة الى جميع الدول تعلن فيها أنها قامت باحتلال المنطقة الواقعة بين خطى 20ـ27 من الشاطىء الافريقى، رغم ان مضمون هذه المذكرة بقى حبرا على ورق، لانها لم تستطع أن تحتـل ولو موضـع قـدم .

ذلك أنه بعد ذلك مباشرة أى بتاريخ يناير 1885 قامت شركـة تجارية بتشييد حصون فى الداخلة برياسة بوليلى فقاومها السكان بقيادة البطل الخالد خليفة السلطان الشيخ ماء العينين، وحطموا تلك الحصون بعدما قتلوا عددا من رجالها، وأسروا آخريـن .

الا أنه بتاريخ يوليوز 1885 استطاع بوليلى الذى عين حاكما على تلك الشواطىء وعزز بقوة من الجنود قادهم الكبطان خوصى شاكون، الا أن الاحتلال لم يتعد نقطة الداخلة (سانتكروش دى ماربكينية) فبقـى التعيين على جميع الشواطىء اسميا فقط، كما بقى اسميا أيضا المرسوم الصادر بعد ذلك بسنتين بالحاق ودى الذهب بكنرياس .

هذا هو مسلسل الاحداث التى قامت به اسبانيا، اعتمادا على معاهدة برلين، ولكن هل أرض وادى الذهب والساقية خـلاء ؟

وفى هذا المجال نرجع بالدرجة الاولى الى المؤرخين الاجانـب وبالاخص الذين ينتمون الى الدولتين الاستعماريتين أنفسهما، وبالاخص المؤرخين الذين لا يعتبر أقوالهم أقوالا فردية بل من ذوى الحيثيات فى دولهم، الممارسين لشؤون الاستعمار، الذين يعتبرون من الناطقين بلسانه.

فقد جاء فى كتاب «مغاربة افريقيا الغربية الافرنسية» المؤلف سنة 1904 لمسيو جورج بوله الذى قال فى حقه الامير شكيب أرسلان فى كتاب حاضر العالم الاسلامى (1) «ونظرا لكونه من مأمورى المستعمرات، فقد أتيح له أن يطلع على وثائق لا يطلع عليها غيره، فجاء كتابه بغاية التدقيق» فعدد قبائل الصحراء المغربية، فقال: من تلك القبائل من ينتمى الى أعقاب بنى حسن الهلاليين ومنهم من صنهاجة وغيرها من البربر، ومنهم أشراف ينتمون الى آل البيت، ومجالاتهم فى الساقية الحمراء جنوبى سوس الاقصى الى نهر السنغال (يدخل فى هذا الاسم وادى الذهب).

ثم فصل طبقات هذه القبائل، فقال: الاولى أهل حرب وهم بنو حسن، والحراثون، وهم اشبه بالرعية لكنهم أحرار، والمرابطون وهم طلبة العلم، وصنهاجة الذين يدفعون الضرائب فهم عبيد .

وأشهر القبائل المذكورة الطرارزة، وهم نحو 80 ألف نسمة كان أميرهم لحد تأليف الكتاب هو احمد بن سلوم، الى أن قال والقبائل الساحلية منها آل سيدى محمود، وهم 40 ألفا، وأميرهم سيدى المختار ولد محمد محمود، ثم أولاد مبارك وهم 18 ألفا، وهم مع أولاد ناصر من سلالة بنى حسن الهلاليين .

والى أن قال أيضا، وهناك قبائل الساقية الحمراء، مثل أولاد دليم، والرغيبات والعروصى، والفلالى والصماليل، ورئيس هذه القبائل الشيخ ماء العينين المشهور، وقد خمن مسيو بوله عددهم جميعا بـ 300 ألف.

ومن رجال الاستعمار الاسبانى الذين يوخذ رأيهم رسميا نورد هنا ما قاله الكمندان دومينش الذى كان أيام الحرب الاهلية الاسبانية على رأس نيابة الشؤون الاهلية بتطوان، وألف فى تلك الفترة كتابا عن منطقة الحماية الاسبانية اعتبر أنها تمتد جنوب فاس البالى مع وادى ورغة ؟

ومما قاله فى هذا الصدد وعندما كلف بمهمة استعمارية فى الصحراء المغربية بعد ذلك حرر ابحاثا جاء فيما يخص تلك الصحراء

(1) الجزء 4 صحيفة 368 .

قوله: «ان هؤلاء المورو (الاسبان يطلقون المورو على المغاربة جميعا وليس بخصوص من نزح عن الأندلس وكثيرا ما اصطدم الاهالى أيام الحماية مع المراقبين الاسبانيين بسبب هذه التسمية التى تستشعر الاهانة) كانوا يعتبرون أنفسهم مرتبطين الى حد كبير بسلاطين المغرب، حتى أنه عندما وصلت القوات الافرنسية الى حدود ما يعرف بموريطانيا والحوض، هرعت القبائل المهددة الى مولاى عبد العزيز، طالبة منه العون، وقد طالب هذا بتلك الاقاليم باعتبارها واقعة تحت سيادته» يشير الى زيارة الخليفة السلطانى الشيخ ماء العينين لمولاى عبد العزيز، وقد زاره سبع مرات كما زار مولاى محمد بن عبد الرحمان ومولاى الحسن الاول كما سيأتى، ولم يشر المؤرخ الى التعزيزات التى منحها السلاطين له .

ثم ننقل هنا أيضا عن احد أساطين رجال الحماية السنيور غورثيا فيكراس الذى يعتبر عند الاسبان خبيرا بالشؤون الافريقية كما أسلفنا، وكان يوخذ رأيه مأخذ الاعتبار فيما يخص الارض المغربية التى تحت سيطرة اسبانيا، لانه تقلب فى عدة مناصب سامية منها الكتابة العامة للمندوب السامى بتطوان، ومنها نيابة الشؤون الاهلية، ونيابة التربية الوطنية .

وعليه فأقواله تعتبر أقوال دولته اذ ذاك، فقد قال فيما يخص الصحراء حيث تكلم عن مقاومة الشيخ ماء العينين للزحف الافرنسى الذى وصفه بأنه كان خليفة السلطان فى العبارة التالية: «وبوفاة ماء العينين كان ابنه الهبة الذى ورث السمعة السياسية، والدينية الكبيرتين، اللتين كانتا لوالده، ومكانته كخليفة للسلطان، كان يمارس نفوذه من مراكش الى موريطانيا» .

ويلاحظ أن الجيوش الافرنسية التى ذاقت الامرين من كفاح الشيخين ماء العينين وولده الهبة كخليفتين للسلطان، كانت تستعمل نفس الاسلوب الذى استعمله مع المناضل الزعيم ابن عبد الكريم الخطابى من أنهم نصبوا أنفسهم سلطانا على الاراضى التى يخوضون فيها المعارك، وهى خدعة حديثة للتضليل والتنقيض من قيمة البطولات كما أسلفنا .

أما غير هاذين المؤرخين مثل كورديرو طوريس فانه قال: «ان

السلطة الدينية للسلاطين لم تكن منقطعة لدى مسلمي المغرب الأقصى، وهي تسمية تقليدية، لمجموعة جغرافية يمكن تمييزها، وهي أوسع من الامبراطورية الشريفة» .

وهنا يمكن أن تعتبر جملة «وهي أوسع من الامبراطورية الشريفية» من نمط تعمية، والا فان وجود بعض الجهات مثل الصحراء المغربية وحتى جهة الريف بعيدة عن مركز السلطة مع كونها تدين بالولاء وتخطب بالسلطان على منابر الجمعة، وتتخضع للوالي أو الخليفة الذين يعينان من قبل السلطان، لا يعتبر سلطة دينيه فقط، وذلك لان تضمين الدعاء للسلطان في خطب الجمعة ليس لانه شرط في صحة الجمعة، وانما هو بمثابة تجديد البيعة له من قبل المواطنين، في كل جمعة، فذلك ليس سلطة دينية محضة كما يدعي هذا المؤلف الذي يجهل مقومات سلطة رمز السيادة الوطنية في الشريعة الاسلامية .

ومثل المؤرخ كارو الذي يعتبر أكثر اعتدالا، حيث جاء في احدى فقراته: «وفي عام 1873 توجه ماء العينين الى مراكش لمقابلة السلطان مولاي محمد (بن عبد الرحمن بن هشام) وفي تلك المقابلة والتي تلتها عالج شيخ الصحراء مشاكل متنوعة، وأخبر السلطان بالحالة في الصحراء، وحاول اثارة اهتمامهم بمصير الاسلام في التخوم الجنوبية، واستمع السلاطين الى الشيخ باحترام وسرور وغمروه بالهدايا» .

ان هذه النصوص صريحة، وتتضمن اعترافا لا مجال للجدال فيه، بأن الشيخ ماء العينين كان يعمل في الصحراء التي يتعدى نفوذه الرأس الابيض آخر حدود وادي الذهب الى قبائل الطرارزة والحوض وكان مركز الداخلة «سنتاكروش دي ماربكينية» عبارة عن جيب صغير محدود المساحة، لا تتخطى أفراد حاميته الحصن الذي تحصنوا فيه، لان المغاربة كانوا محاصرين للحامية على الدوام مثلما كان يفعله سكان قبائل أحواز مليلية وسبتة .

ذلك ما جعل حكومة مدريد لم تهتد الى أسلوب قار لوضعية وجودها على ساحل وادي الذهب في هذا المركز الضيق جدا، وهو الذي كان يسمى بمستعمرة وادي الذهب .

وقد تحرج موقفها على تلك الشواطى عندما بدأت بعثة انجليزية تحت اشراف مستر ماكينزى ترتاد الشواطىء الممتدة من بين رأس بوجدور الى حدود سوس، لاقامة معمل للصيد، فهلعت لذلك، واحتدت اطماعها وعمدت الى خلق عدم وضوح مكان مركز «سنتاكروش دى ماربكينية» ذلك ما دعاها لان تدعى أن مركز سنتاكروش يقع بقرب سيدى افنى جنوبا، وبذلك تخطت رأس بوجدور ورأس طرفاية الذى أقيم عليه المعمل التجارى الانجليزى للصيد، تحت اسم «بويرتو فيكتوريا» ويسميه الاسبان رأس جوبى ورغم أن هذا المعمل وكل شواطىء طرفاية قد غادرتها البعثة الانجليزية بعد مفاوضة مع المغرب مقابل 50.000 جنيه استرلينى أداها المغرب كقيمة للبنايات التى شيدتها تلك البعثة ومنها فندق، وبذلك خلص للمغرب الذى جاء فى الاتفاق المعقود بين الطرفين شرط أساسى وهو ممنوع على أية دولة أجنبية أن تضع نفوذها على المساحة التى بين نهر درعة ورأس بوجدور حسب الاتفاق المبرم فى 13 مارس 1895 .

واذ ابتعدت انكلترا عن المنطقة، أصبح الجو خاليا نسبيا من منافس خطير بينما كانت الدول الاوربية الاستعمارية سائرة فى تنفيذ مخططات تقسيم القارة السمراء، فالبرتغال قد احتل انغولا، وموزمبيق، وغينيا الاستوائية فى تاريخ 1505 واحتل سبتة بتاريخ 1415 التى آلت الى اسبانيا عندما انفصلت الدولتان بعضها عن بعض .

واحتلت اسبانيا مليلية سنة 1497 لما وجدتها خالية من الحامية المغربية مراعاة لجوار الاتراك الذين لم يرد المغرب ان يستفزهم ؟

وكانت فرنسا التى احتلت الجزائر تبحث فى غرب افريقيا عن متسع حيوى لوصل الجزائر بالسينيغال .

وفى زحمة هذه الاطماع الشرسة، كان على اسبانيا وفرنسا أن تتفقا فيما بينهما، قبل الاقدام على الزحف على الصحراء بما فيها موريطانيا والحوض ووادى الذهب والساقية الحمراء وطرفاية .

فبعد مفاوضات مضنية توصلتا الى اتفاق بتاريخ 1900، وخوفا من اعتراض الدول الاوربية الاخرى وبالاخص انجلترا والمانيا وايطاليا، قررتا أن يبقى الاتفاق سريا، وقد قضى هذا الاتفاق على أن تحتل اسبانيا

مساحة من الصحراء الساحلية من الرأس الابيض الذى يسمونه بمدينة كاطيل مارا بخليج سينطرة الى رأس بوجدور، ويبعد هذا الرأس عن مدينة العيون بـ 199 كلم، وهو عبارة عن رأس بحرى ويحتل موقعا استراتيجيا عسكريا مع الجمال الطبيعى، ويتوفر البحر هناك على كثرة الاسماك الجيدة، كما يبعد هذا الرأس عن الداخلة بنحو 450 كلم .

وقد تبع اتفاق 1900 اتفاق آخر بين فرنسا واسبانيا بتاريخ 1904، المعروف بالاتفاق المتمم للاول لتعيين معالمه بالتحديد .

وبالطبع فقد أخذ بالاعتبار كأساس لذلك التحديد، المذكرة الاسبانية للدول الاجنبية بتاريخ 28 دجنبر 1884، التى تعتبر كاعلام بالمرسوم الملكى الاسبانى بنفس التاريخ، الذى يحدد منطقة احتلالها بالمساحة الواقعة بين خطى 20—27 وكما أخذ بالاعتبار أيضا المرسوم الملكى المؤرخ فى 10 يوليوز 1885 الذى ينص فى الفصل الاول منه على ما يأتى: الحماية المبسوطة على اقليم الساحل الغربى لافريقيا الواقع ما بين رأس بوجدور، وخليج الغرب فى الرأس الابيض، تم بسطها بمقتضى الامر الملكى الصادر بتاريخ 16 دجنبر الماضى (1884) .

وفى فصله الثانى : انه يتولى الدفاع عن الاراضى المحمية .

ويلاحظ أنه رغم الاخذ بالاعتبار بالمرسومين المذكورين فيما يخص المساحة بين رأس بوجدور والرأس الابيض، وفيما يخص وضعية الاحتلال الذى سمى بالحماية، فان اتفاق 1904 تجاوز وضعية الحماية الى الاستعمار، وتجاوز الحدود من رأس بوجدور فشمل الاتفاق اطماع أسبانيا فى المملكة المغربية بأسرها حيث قسم مناطق نفوذها، الى مستعمرات، وهى وادى الذهب والساقية الحمراء وافنى والى حماية، وهى طرفاية وشمال المغرب، وقد ضيق الاتفاق منطقة طرفاية ووسع منطقة الساقية الحمراء، حيث تعدت رأس بوجدور، وبذلك أصبحت أسبانيا تحتل كمستعمرة حسب الاتفاق الذى تم فى غيبة المغرب مساحة تبلغ 282000 كلم بدلا من 180000 كلم، واذا كانت كل من اسبانيا وفرنسا ضربتا عرض الحائط بالاتفاق الانجليزى مع المغرب فى شأن عدم استيلاء أية دولة أجنبية على الساحل الممتد من وادى درعة الى رأس

بوجدور فان ذلك كان بعد تسوية مطامع تلك الدول الاستعمارية، اذ أطلقت يد انجلترا فى وادى النيل ويد فرنسا والبرتغال فى افريقيا، والمانيا كذلك وايطاليا فى ليبيا، فلم يكن هناك منازع الا الدول الفريسة، ومن ضمنها المغرب الذي قسم بين فرنسا واسبانيا ولم يرد فى شأنه فى ذلك الاتفاق الا جملة مختصرة جدا تتعلق بتصريح مزدوج «بالتمسك بوحدة التراب للامبراطورية المغربية تحت سيادة السلطان»

ولكن حسب الاتفاق المخادع المشار اليه، من أين تبتدىء تلك الامبراطورية، والى أين تنتهى؟ فاذا كان هذا التمسك صحيحا فى الواقع فهل دعيت تلك الامبراطورية للحوار معها فى شأن ذلك التراب المتمسك بوحدته .

وعلى كل فان الاستعمار فى ذلك الوقت كان قويا لا يناقش الحساب، ولكن الآن عندما أصبح ينكمش وقامت عليه قيامة التحرير فقد أعطى الحساب العسير فى الهند الصينية وفى الجزائر والمغرب وأنغولا وموزمبيق وغينيا بيساو وغيرها، ولا زالت القائمة تطول .

الشيخ ماء العينين وموقفه من اسبانيا :

يعتبر الشيخ ماء العينين أسد الصحراء بدون منازع، وكانت له سلطة رئيس المجاهدين الذين يرجع اليهم فى الامور الدنية والدنيوية، اذ أن مسلكه الاسلامى كان مسلك الواقفين عند تعاليم الشريعة الاسلامية، التى تستوجب عليه أن يعمل خليفة لامير المومنين وتحت امرته، يستمد منه السلطة الروحية والزمانية، فكان من الذين لا يغيبون عن سداد الرأى، وارجوحة التفكير وقد رأت فيه قبائل الساقية الحمراء ووادى الذهب، الرأس المدبر والمصلح الكبير، وخليفة السلطان المطاع، فانحشت اليه كلية، وجعلت مدينة السمارة، التى بناها وسط الصحراء ببعد 230 كلم عن العيون شرقا محجا لها، تجد فيها غذاءا ماديا وروحيا، حيث ازدهرت هذه المدينة، وكانت مركز اشعاع فكرى، واشعاع جهادى مقدس فكان نفوذ ماء العينين يتعدى حدود وادى الذهب الى قبائل الطرارزة وقد تخرج عن هذه المدرسة الصحراوية فطاحل من رجال الفكر ورجال الشهامة، حتى

انها كانت صلة الوصل بين ملوك المغرب وقبائل ما وراء الرأس الابيض، فكان السلطان يعين رجال السلطة هناك، وبالاخص فى عهد مولاى محمد ابن عبد الرحمان ومولاى الحسن الاول، وبهذه الاعتبارات استطاع الشيخ ماء العينين أن يوجه نداءا حارا للجهاد المقدس الى سائر المسلمين من سوس الى النيجر فاستجابت تلك القبائل الصحراوية للدفاع ضد الاحتلال الاستعمارى الاسبانى والافرنسى وأبلت البلاء الحسن وبالاخص قبائل أولاد الدليم وتكنة والرقيبات .

واذا كانت اسبانيا تجثم فى الداخلة على تلك البقعة الاستراتيجية على ساحل تلك المنطقة، فان المجاهدين يجدون مندوحة شرعية ووطنية، للقيام بواجب الجهاد لاجلاء الاعداء عنها .

واذا كان الشيخ ماء العينين بوصفه خليفة السلطان، والمصلح الذى تشرأب اليه الاعناق، فانه لم يكن غائبا عن أذهانه ما قام ويقوم به المبشرون المسيحيون للتسابق لتنصير سكان افريقيا، فلم تخف عليه حركة التبشير التى قامت بها جمعية «الاباء البيض» التى أسسها الكردينال لافيجيرى مطران الجزائر سنة 1869، والتى عززها بجمعية رهبانية النساء تحت اسم «الراهبات المبشرات لسيدتنا العذراء» .

وكانت خطة هاتين الجمعيتين فى التبشير، انهم يطوفون فى بلاد الاسلام بافريقيا، بزى المسلمين ويدخلون فى كل نادٍ، ويتحككون بكل عائلة ويتوسلون بكل وسيلة، لاجل بث دعوتهم بين الناشئة الاسلامية مسلحين بذلك بنفوذ الحكومة الافرنسية (1)

ولذا توجب عليه أن يقوم بحملات على مركز الداخلة، مستهدفا بذلك صيانة السيادة الوطنية، التى يمثلها نيابة عن السلطان، كواجب وطنى، ورد الفعل ضد الجمعيات التبشيرية، التى أغرتها سماحة سكان الصحراء كواجب اسلامى .

ولما كان نداؤه المقدس يجد آذانا صاغية، لما اسلفنا من صدق لهجته ووضوح قيادته لتلك الجهات، فانه قام بهجومات متكررة على الداخلة

---

(1) حاضر العالم الاسلامى ج. 2 صحيفة 338–373 .

فى سنوات 1887–1892 أى فى الوقت الذى كان مغاربة الشمال يحاصرون مليلية وسبتة، ويضايقون حجرتى النكور وبادس، كل ذلك نيابة عن الدولة المغربية، بوصفهم جماهير شعبية تستمد شرعيتها من انتمائها للدولة تلقائيا، وواجبها حفظ ترابها والدفاع عنه .

على أن وضعية الشيخ ماء العينين كانت الصق بالدولة من الشمال، فمن منذ سنة 1858 وهو خليفة للسلطان، ونائب عنه فى تسيير الصحراء سياسيا وعسكريا، وكان يقوم برحلات منتظمة كلما دعت الحاجة للاتصال بالسلطان، ففى سنة 1873 رحل الى مراكش لمقابلة السلطان مولاى محمد ابن عبد الرحمان، وكان القصد من الرحلة اطلاعه على الحالة العامة للصحراء ومصير الاسلام فيها ولاجل الاتفاق على الخطة التى يسير عليها، حسبما جاء فى رواية المؤرخين الاسبان أنفسهم .

وفى سنة 1887 قام برحلة الى مراكش لتقديم البيعة الى السلطان مولاى الحسن الاول عندما تربع على عرش أسلافه، وقد جرت مباحثات حول الحالة العامة فى الصحراء وما يتطلبه موقف المغرب منها، وقد اسفرت الرحلة على أمور هامة فجدد السلطان ظهير تعيينه خليفة له، كما زوده باعتدة حربية وهدايا أخرى مهمة، ثم زار بعد ذلك مولاى عبد العزيز سبع مرات فى مراكش وفاس، وعقد صداقة هامة مع الصدر الاعظم أبا أحمد الذى كان عصب الدولة المحرك لدواليبها .

هذا هو الشيخ ماء العينين، وهذه اعماله داخل الامبراطورية المغربية، وقد استمر فى الكفاح ضد اسبانيا وفرنسا، وعندما زحفت هذه الاخيرة على موريطانيا وضيقت الخناق على مجاهدى الساقية الحمراء، ووادى الذهب لاجل أن تتنفس حليفتها اسبانيا الصعداء، وتتمكن من الخروج من جحرها أمره السلطان بنقل مركزه الى تزنيت عام 1909 .

وعندما توفى قام ولده احمد الهيبة الذى ورث كل مزايا والده الجهادية والدينية فسلك نفس مسلك والده، فعينه السلطان خليفة له .

ورغم ان أيامه كانت أيام المحن الكبرى التى شهدها المغرب بأسره شمالا وجنوبا، فانه قام ببطولات نادرة اخترقت سمعته الجهادية وحتى السياسية آفاق الصحراء الممتدة عبر موريطانيا والحوض الى النيجر،

وتصدى كما تصدى أبوه لايقاف الزحف الافرنسى، الامر الذى عمدت معه فرنسا الى اشاعة ما اعتادته أن تشيعه على الابطال الذين يتحدونها مثل البطل ابن عبد الكريم الخطابى من انهما نصبا أنفسهما سلطانين على الاراضى التى يعملون لتحريرها .

الزحف الاسبانى :

فى خضم هذه الاحداث التى توالت ليس على الصحراء أو الشمال فقط، بل على المغرب بأسره، حيث حرر عقد الحماية بين فرنسا والمغرب سنة 1912 أعقبه اتفاق بين فرنسا واسبانيا فى نوفمبر من نفس السنة، فان هذه الاخيرة تحركت من جهتها، فقام الكمندان بنيتس من الداخلة بتاريخ 26 اكتوبر 1914، برحلة الى رأس طرفاية برا ثم رجع الى الداخلة بتاريخ 26 اكتوبر 1914 وبقى الامر كذلك الى تاريخ 27 يونيه 1916 حيث قاد هذا الكمندان نفسه كتيبة توجه بها الى رأس طرفاية حيث احتلها ورفع عليها العلم الاسبانى، وذلك بمساعدة الضغط الافرنساوى على المجاهدين عن طريق موريطانيا حيث توغلت داخل تراب طرفاية .

أما جنوب الداخلة فانه لم يتحرك الا بتاريخ 30 نوفبمر 1920 حيث قاد هذا الكمندان أيضا كتيبة صوب مدينة الكويرة، واحتلتها، وكان احتلالها سهلا نظرا الى أن الضغط الفرنسوى أجلى السكان عن تلك المنطقة.

وتبعد هذه المدينة عن الداخلة بـ 650 كلم، وتقع فى الطرف الاقصى الجنوبى لوادى الذهب، على اللسان البرى المتوغل فى البحر، الذى يقسم حدود موريطانيا ووادى الذهب، ولا تبعد عن مدينة نواديبو الموريطانية الا بـ 15 كلم .

وبذلك تكون اسبانيا تسابقت الى الشواطىء الساحلية، ولم تتجرأ ان تتوغل داخلها، لما تعلمه من صعوبة الموقف أمام الصحراويين الشديدى المراس، المتعودين شظف العيش، والممارسين لركوب المخاطر، فلم تتحرك الى داخل الصحراء الا سنة 1937، حيث استولت على السمارة والعيون، وبئر قندوس وغيرها، أى بعد أن انتهت حروب الشمال وبعد استتباب الحماية فى ربوعها كما استتب لها احتلال طرفاية وسيدى افنى، ولو كانت كما تدعيه من أن الصحراء خلاء لكانت الوضعية غير

ما لاقته، ولو كانت منفصلة عن المغرب لما ارتكبت أدوارا مضنية تارة باسم البعثات العلمية وتارة باسم البعثات التجارية، وتارة باسم الحماية، وتارة وحدة التراب للامبراطورية المغربية تحت سيادة السلطان، حتى أدى بها الحال عندما احتدم خلاف المغرب مع فرنسا، وحاولت ذر الرماد فى أعين المغرب، قدمت مشروعا الى الخليفة السلطانى بتطوان تقترح فيه مشاركة أهالى الصحراء وسيدى افنى فى الحكومة الخليفية بتطوان وتستقدم من هناك مربى ربه لزيارة قبائل الشمال والحفاوة به .

وفى أول عهد الاستقلال كان استرجاع وادى الذهب والساقية الحمراء فى متناول يد المغرب الا أن اعتبار المصلحة العليا لقضايا المغرب العربى حيث كانت حرب الجزائر مع فرنسا على أشدها وكان التكتيك الحربى فى ذلك الوقت، يقضى بترك باب اسبانيا مفتوحا، فرضخ المغرب لتلك المصلحة العامة، مضحيا بمصلحته الخاصة، فتمهل فى استرجاع الاراضى المغتصبة، واستدعى جيش التحرير الذى كان على أبواب مدينة العيون محاصرا اياها، وكان الاسبان بصدد الاجلاء عنها .

وقد ارتأى المغرب أن يحل قضاياه المتعلقة بالاطراف التى ترزخ تحت نير الاستعمار الاسبانى بالحوار الذى لا يقطع حسن الجوار، الذى يحافظ عليه المغرب جهد الامكان .

ولهذا المبدأ، فتح عاهل المغرب جلالة الحسن الثانى، الحوار مع اسبانيا، فى جولات متعددة عرض فيها على رئيس الدولة الاسبانية مقترحات سخية، منبعثة عن القلب الكبير، المفعم بالحكمة والرزانة .

وهكذا زار جلالته بتاريخ 1970 عاصمة مدريد، حيث عرض على الجنرال فرانكو أن يحتفظ المغرب لاسبانيا فى الصحراء بالقواعد العسكرية، الى مدة يتفق عليها بين الطرفين، نظرا لوقوع الصحراء بقرب جزر كنارياس، التى لها أهمية استراتيجية بالنسبة لاسبانيا .

وفيما يخص خيرات الصحراء الباطنية وفوق الارض وفى قاع البحار، ان تشترك الدولتان فى استخراجها وتسويقها تسويقا يعود عليهما بالمنفعة .

الا أنه رغم هذه العروض السخية تصلب الطرف المستعمر ،

فباءت تلك المحاولات الحبية بالفشل، وأمام هذا التعنت المزرى فان جلالة الملك ركب المركب القانونى فى المطالبة بالجلاء عن الصحراء، فطرح القضية على الامم المتحدة، وأصدرت هذه من جهتها قرارا بتاريخ 16 اكتوبر 1964، يقضى على اسبانيا، كدولة مستعمرة، أن تطبق مبدأ تصفية الاستعمار، الصادر بتاريخ 14 دجنبر سنة 1960 بدون قيد ولا شرط .

ثم تابعت الجمعية العامة للامم المتحدة فى سنة 1965 وأصدرت قرار بالحاح على اسبانيا أن تنفــذ قرار 1964 وتقوم بتحرير أراضى الصحــراء .

ومن جهة اسبانيا فقد ماطلت تماطلا مكشوفا، رغم قرارات الامم المتحدة، وفى هذه الحالة فان جلالة الملك الحسن الثانى الح بتاريخ 1966 على لجنة تصفية الاستعمار، لمتابعة عمل التصفية فى الصحراء .

ولما كانت موريطانيا من جهتها قدمت مذكرة بتاريخ 1964 الى الجمعية العمومية للامم المتحدة طالبت هى الاخرى بحقوق فى الصحراء، مدعية أنها تنتمى الى موريطانيا، فان لجنة تصفية الاستعمار أصــدرت قرارا فى سنة 1966 ينص على مطالبة اسبانيا باجراء الاستفتاء فى الصحراء المغربية بالاتفاق مع المغرب والاطراف المعنية الاخرى .

وقد كان من نتائج هذا التهافت أن مكن اسبانيا من التلاعــب والتمشدق بالاطراف المعنية لاطالة وجودها الاستعمارى .

وفعلا كان قرار لجنة تصفية الاستعمار فى هذه المرة أى سنــة 1966 ينص على اجراء الاستفتاء فى الصحراء .

ومع ذلك فان المغرب قبل هذا الاستفتاء على أساس أن مفهوم الاستفتاء لا يتنافى وارجاع الحق الى المغــرب لان السؤال المطــروح على سكان الصحراء على الصيغة التالية: هل يرجعون الى الوطــن الام، أو البقــاء تحت السيطرة الاسبانيــة .

وهذا المفهوم نفســه هو الذى عولت عليه اسبانيا نفسها حســب تخطيطها الذى خططته فى الصحراء، اذ جعلت ديدنها فى التكتيك المخــادع الذى سلكته لتهىء عناصر عملية من السكان للمنادات بالاستقلال الذاتى تحــت رعاية اسبانيــا .

وتمشيا مع هذا المفهوم كونت مجلس الجماعة من سكان القبائل الصحراوية ليجهروا بأنهم يريدون حكما ذاتيا تحت الاشراف الاسباني .

وعليه فان مفهوم الاستفتاء كان واضحا لدى الطرفين معا أى المغرب واسبانيا، وهو المتمثل فى السؤالين الذين يطرحان على السكان، وهما: هل تريدون الرجوع الى الوطن الام وهو المغرب، أو البقاء على سيطرة اسبانيا .

ولما كان المغرب يسير فى خط واضح يعتمد فيه على اصالة مطالبه التاريخية والجغرافية والسلالية والعقائديه، فانه اشترط لهذا الاستفتاء تهييء ظروف قائمة، تجعل المغرب فى الحد الادنى من التساوى لفرص النجاح مع خصمه، وهى ازالة القواعد العسكرية الاسبانية عن تراب الصحراء والاحتفاظ برجال الامن فقط، كازالة الجهاز الادارى لضمان حرية السكان ولو الى الحد الادنى، كما اشترط حرية رجوع الللاجئين الذين هاجروا الى المنطقة المحررة من المغرب تحت طائلة الاضطهاد، ليقولوا كلمتهم عن حرية واطمئنان .

واذا كانت اسبانيا تلكأت على أى حال ولم تنصع لاى قرار واقتراح، وفى زحمة هذا التسابق الشرس من الطرف الآخر، فان عاهل المغرب أدرك بوحى من مبادئه السليمة، ان القضية تستدعى تجنيد الشعب المغربى لاطلاع الرأى العام العالمى على مطالبه الحقة، فقد وجه خطابه التاريخى بتاريخ 8 يوليوز 1974 يحث شعبه فيه أن يعى قضيته الكبرى، ويستشعره بان السنة سنة استكمال تحرير بقايا التراب المغربى الرازح تحت نير الاستعمار الاسبانى .

ولما رأت اسبانيا حماس المغرب المنقطع النظير عدلت عن التفكير فى الاستقلال الذاتى الذى كانت عولت على ارتكاب حماقة من نوع فريد فى هذا الشأن وعمدت الى رفع القضية الى هيأة الامم المتحدة، متذرعة بأنها تريد منح الاستقلال الى الصحراء، وتريد بذلك ابعاد أحقية المغرب فى اقليمه، حتى اذا تمكنت من تنفيد لعبتها استولت بطريقة أو بأخرى على الصحراء .

ولكن عاهل المغرب قرع حيلتها بحجة قانونية فطلب اجراء استشارة محكمة العدل الدولية بلاهاى بالقاء السؤال من طرف لجنة تصفية الاستعمار عليها فى صيغة هل الصحراء لما استولت اسبانيا عليها كانت أرضا خلاء، واذا لم تكن كذلك فما هى علاقتها مع المغرب، فاستجابت هذه المنظمة الى مطلب المغرب، وأصدرت قرارها بأكثرية 81 صوتا مقابل لا شىء باحالة السؤالين على المحكمة مع توصية ضد اسبانيا أن تعدل على الاستفتاء، وبذلك كسب المغرب الرهان الاول، ولازالت القضية تسير الى الامام، ولن يضيع حق وراءه طالب .

البندقية والبطولة
ضمان الوحدة الوطنية

الطرق الحربية عند أهالى الشمـال

ابتداء من سنة 1909 م. تحرك الجيش الاسبانى للخروج مـن مليلية ليجرب مقدرته فى توسيع رقعة الاحتلال، وذلك بعد اتفاق سنـه 1906 م. بين الدول الاوربية للقضاء على استقلال المغرب كما أسلفنـا .

وفى هذا الظرف يجب القاء نظرة على الوضعية العامة فى الشمال من ناحية استعمال السلاح، كأداة لحفظ كيان كل قبيلة أو عائله وضمان وجودها ضمن ذلك المجتمع الذى وكل أمره الى نفسه، ولم تصل اليـه يد السلطة المركزية بالقوة التى يجب أن تصل الى أطراف المملكة المغربيه، وانما كانت الطاعة والولاء لتلك السلطة بوازع دينى يخضع الجميع لها ويدافع عنها عندما يدلهم الامر، ويكون الخضوع للوالى الدى يباشـر السلطه من طرف ملك المغرب بحسب العقيدة الاسلامية، يطيعون داحل نطاق ضيق وتلقائى، وليس للـوالى سلطة قوية ضد المخالفـات التى نرتكب بين الافراد والجماعات، بعضها مع بعض .

ولهذا، فقد تشتد المشاحنات أحيانا بين قبيلـة وقبيلة، أو بـين جماعة وجماعة، أو بين أفراد عائلة واحـدة، ويستعمل السـلاح بكـل الطرق لفض النزاعات، وقد تستمر هذه الحروب الى مدة غير قليلـة، يتربص الواحد للآخر، لكى يأخذه فى مصيدتـه باقامة كمين فى طـرق الاسواق أو كيف ما تيسر، وذلك أخذا للثأر الذى يكون وتر به، أو انتقاما لعرض هنتك، وفى هذه الحالة يكون فى بعض الاحيان اسراف فى استعمال هذه الاساليب العدوانية، ولاجل ضمان نوع من الاستقرار وتقليلا للكوارث التى تنجم عن ذلك، كان من المفروض على رؤساء القبائل «امغارن» أن يضعوا تقنينات للحد من تفاحش العداوة، فكانـوا يعقدون مؤتمـرات (تدعى اكراو) (1) وغالبا ما يكون فى محل الاسواق، وكان لزاما على كـل

(1) بهمزة مفتوحة وكاف معقودة ساكنـة .

قبيلة أو خمس أوفخذ ة أن يكون لديها امغارها يتكلم باسمها، وعليه نزاما أن يحضر فى المؤتمر بأية طريقة كانت، تحرسه جماعته من الاغتيال فى الطريق، وعليه أن يتجنب الطريق المطروقة للجميع .

وفى هذا المضمار يتفقون على أن من قتل بدون أن يكون موتورا أو أيام الاسواق، أو المؤتمرات، مثلا تفرض عليه غرامة، يحددها المؤتمر، تؤخذ فى يوم معين يذهب افراد القبيلة الى قرية الجانى، وعلى أفراد جماعته أن تؤدى ما فرضت عليه، والا فان أولئك الجموع يستعملون وسائلهم بأخذ الغرامة، أما بالاستيلاء على الماشية أو بيع الارض، وللقبائل فى هذا المضمار اتفاقات مكتوبة بينها، تعتبر ملزمه لجميع من وقع عليها فى نطاق تلك القبيلة، التى تكون مجموعة سكنية فى منطقه من المناطق، ورغم هذه الحالة، فان الكلمة الفاصلة عند التشاحى بين القبائل أو رؤسائها يرجع الامر فيه الى الفقهاء الذين يكونون قد درسوا فى القرويين بفاس، وكل من كان يهاجر الى فاس لطلب العلم، فانه مفروض فيه أن يكون د رس علوم الشريعة، زيادة على علوم النحو والتوحيد ، وهذه الفنون الثلاثة هى غالبية تحصيل الطلبة، ففى ميدان التشريع يدرسون مؤلفات التحفة والشيخ خليل، وفى ميدان النحو مؤلفات الفية ابن مالك وشرح المكودى والموضح، وفى ميدان التوحيد مؤلف ابن عاشر .

وعندما يرجع الى البلد يعتبر رجلا مسموع الكلمة، صالحا لان يكتسب لقب القاضى .

فالقبيلة الفلانية لها قاض أو عدة قضاة، وعند اختلاف القضاة فيما بينهم يجتمعون ويناقشون كتب النوازل، بمحضر امغارن، فيصدرون قرارا بينهم أما بالاجماع أو بالاغلبية، وللقضاة هؤلاء الصلاحية التقليدية لاصدار أحكامهم، والخطاب على الرسوم، وتولى عقود الزواج الشرعى.

ورغم كل ما ذكر فانه اذا دعى الجهاد ينبسون كل تلك الخلافات، ويهرعون تلقائيا الى مواقع الجهاد، ومن معتقداتهم الصميمة التى لا تزحزح أن الجنة قطعا تحت ظلال السيوف، فالذى يموت عليها فان أهله يقيمون حفلات الافراح مثل حفلات الاعراس وتأتى القبيلة كلها لحضور الجنازة، ليدفن بينهم فى لباسه، وتتقدم القبائل تهانى بعضها

مع بعض، ومن مات منهم شهيدا فان تلك العائلة فى القانون المحلى لا يجوز لأحد أن يتعرض لها بســوء ولو من طرف أعدائهــا، لانها أدت خدمــه للاسلام بموت شهيدها، فهى مقدسة ومحترمة بين الجميع، حتى عند من قتل له اباه أو ابنه أو أحد أقاربه، وهى من جملة بنود اتفاقات المؤتمرات.

ومما تجدر ملاحظته فى هذا الباب، أن تقوية هذا الوازع الدينى، يرجع الفضل فيه الى الطائفتين السائدتين فى ذلك الوقت فى هذه الـربوع، وهما الطائفة الدرقاوية التى كان شيخها السيد محمد العــربى العلــوى بصفرو ومن الانصاف أن نصف هذه الطائفــة ــ وهى الشاذلية ــ أنهــا أسدت كثيرا من الخير والتوجيه الدينى فى تلك الاوقات المتشابكة الاغراض والمسؤوليات الغــير المقننة، فانها بثت وعيــا دينيا صميما فى الافــراد، وبالاخص أولئك الذين يعتزون بمسكة من العقل الراجح، وكان سلــوك أفراد هذه الطائفة ان لم نقل جمهورها متمسكا بأهداب الدين، ومتحليــا بأخلاق السنة النبوية، يجتمعون عليها فى زوايا تلك الطريقة أيام الخميس من كل أسبوع، وفى مناسبات أخرى، وهذه الزوايا منتشرة انتشارا كبيرا، ومن الملاحظ أن هذه الطائفة غذاها فى هذا البلد الفقهاء الذين يرجعــون من فاس بتعاليم الشريعــة السمحاء، وذلــك مادعى الى اعطاء الحيــاة الاجتماعية صبغة نظيفة، متمشية مع التعاليم الاسلاميــة الصحيحــة، فالصلاة محفوظة فى أوقاتها، حتى أنه فى الاسواق التى تعقد فى أيــام الاسبوع، عندما يصل وقت الظهر أو العصر يؤذن المؤذن على الكديــة التى تكون تعلو السوق آذان الصلاة، وتجد الناس يتقاطرون فــرادى وجماعات وكل واحد يضع بندقيته أمامه، ويؤدون الصلاة المفروضــة فى صفوف طويلة، وهكذا دواليك، فلا يخشى أحد اغتياله من طرف عدوه الذى يكون ملاصقا معه فى الصف بدون غضاضــة .

أما الطريقة الثانية، فهى التيجانية، ولكن بنسبة أقل من الاولى، وعلى كل فان الحياة العامة تبدو فى ذلك الوقت متناقضة تمام التناقض، فمن جهة أن النفوس صقلتها التعاليم الدينية والاخلاق العامة فى حفظ الاعرض والجار والشهامة الانسانية، ومن ناحية أخرى كانت الاحكام لا توخذ بسلطة شرعية عليا مفروضة على الجميع، بل وكل أمر القبائل

الى نفوذها الفردى المتسلط، بينما باب الجهاد مفتوح على مصراعيه بدون انتظام، بل على حسب رغبة الشخص ومحبته فى جنة الفردوس .

ومن الطبيعى فان تنتشئة أجيال على هذه الصورة الفردية، مهذا الفرد يقتضى أن يشب ويشيب على الفروسية، وضرب الاقران، واستعمال الطرق الملائمة لمثل هذه الحالة، فعندما يبلغ أن يحمل السلاح، ولو لم يبلغ الحلم فى كثير من الاحيان، ان يتدرب تدريبا متقنا فرديا لا يتكل على آخر لاستعمال السلاح، ليكون مؤهلا ليقى العائلة عوادى الدهر، معتمدا على نفسه فقط، ويعتبر عضوا فى العائلة يسد مسدا ولا يبالى :

وعلى عائلة الكبير أن تنظر فى أمر تمكينه من السلاح باى وجه كان، وقد كان النوع الاول من السلاح يدعى بوشفار، (أزيدان باللسان المحلى) ثم تطور الى ساسبو وهما نوعان من البندقية: الثانية أرقى من الاولى، لان الاولى تحشى بالبارود من الفوهة ثم دكه بقضيب من حديد دكا قويا، وتوضع حبات الرصاص بعده ترسل الى مسافة قصيرة، أما الثانى فان له خرطوشا محشوا بالبارود والرصاص ولا يطلق منه الا طلقة واحدة، ثم يعاد حشوها بأخرى، وهو أحسن حالا من الاولى، ولكن عند الاحتكاك مع اسبانيا بدأ نوع الخماسية، وهى عبارة عن بندقية تحمل طلقات خمسا (موزير) ينطق بها بلسان الاهالى محرفا (موسى) وعندما ظهر هذا النوع الاخير فى حدود أول القرن العشرين حبب الى الناس وكانت القبيلة تفتخر بان عند أفرادها كذا وكذا منها، وان الرجل يدللها وينيلها بدهن براق، وعندما يأخذها الى السوق ويضعها على كتفيه يعتبر عنتر القوم، يخشى بأسه، لان طلقاتها تصوب الى بعيد، والحقيقة أنه نوع قل أن يخطىء الهدف، وبالاخص اذا كانت غير مستعملة كثيرا، اذ أن استعمالها يخرطها الى أن تجعل الرصاصة لا تسير مستقيمة الى الهدف بالذات، وبالطبع فان حالة نفسية قوم بهذه الدرجة من الاحتراس والعمل اليومى فى سبيل الذوذ عن النفس والعائلة والقبيلة، يجعل تنتشئة رجل من هذا النوع من اعتياده سلوك المغاور، والمسالك الصعبة الوعرة، واقتحامه المهالك يوميا تقريبا، وكونه يستعمل ظلام

الليل فى حياته أكثر من نهاره لكونه محفوفا بالخطر، تكون تنشئة ان لـــم نسمها صاعقة فهى بالغة الخطورة فى الشؤون القتاليـــة .

وقد كان الارياف الى حد غير بعيد يقيسون عمر الشاب بكونه كان وصل الى حمل السلاح، بدلا من أن يقول بلـــغ الحلم مثلا أو سنه كـــذا، وهنا يجدر بى أن أورد هنا قصة حكاها أحد الجنرالات الاسبانيين الذين قادوا الحرب فى الريف عندما كان قائدا أعلى للقوة التى ترابط على خـــط العرائش ــ القصر الكبير ــ فقد ذكر هذا الجنرال وهو منويل غوديـــد، أنه فى سنة 1922 عندمـــا كان يقود العمليـــة بقبيلة بنى كرفط، وكـــان المجاهدون أقاموا كمينا لحامية من معسكر النوادر الاسبانية، ولكن الجيش الاسبانى أقام كمينا مضادا، فوقع من كمين المجاهدين فى الاسر شخصان احدهما يكاد يكون طفلا يحمل بندقية «موزر»، ولما سئل ماذا يصنع بهذه البندقية، ولماذا أتى الى الكمين، قال أنه يدافع عن البلد، ويتدرب علـــى أساليب القتال، وقد عقب على ذلك هذا الجنرال بقوله «تأملوا لهذه الجرأة التى يتحلى بها هذا الصبى، فكيف يكون اقدامه عندما يبلغ مبلغ الرجال».

واذا علمنا وعورة سلسلة جبال الشمال من ناحية التكوين الطبيعى، الذى حباها الله بادغال ملتفة، وشواهق عالية، ومسالـــك ضيقة، وكـــون سكانها هم كصقور فى أوكارها، وليوث فى عرائنها، حيث يضبطون شبـــرا بشبر من تلك المواقع بعيون حادة وحاسة مرهفة وأجساد خفيفة، علمنـــا أى ذعر يحدثونه فى الاعداء، عندما يريدون أن يعكـــروا عليهم صفو تلـــك الحريات، التى ينعمون فيها رغم شظف العيش وقلة الزاد .

وهنا نترك الوصف لاولئك المغيرين من الاسبان والافرنسيـــين الذين خبروا تلك المصاعب، وذاقوا الامريـــن وعاينوا الهول بذاته يرعـــد فرائسهم، وفرائس جنودهـــم .

قال الجنرال غديد فى كتابه «المغرب ومراحل التهدئة» ما يأتى :

«واذا اعتبرنا أن الحرب المغربية لها ظروف غير ظروف الحـــرب فى أوربا، حيث أن المغربى محارب وبعيد الانتصار عليه وصعب الاخضاع، وهى اعتبارات خلفت فى جنودنا عدة قصاصات من البسالة المغربية، جعلت

معنوياتهم منحطة انحطاطا فضيعا، بحيث ان الجندى الاسبانى يعتبر أنه مقدم على هلاك من أول وهلة يساق الى المعترك» .

«وهكذا يظهر أن الحرب فى المغرب هو نوع خاص، ولا يمكن أن يطبق فيها العلوم العسكرية، لان المغربى يأخذ التموين فى قب جلابته، ويمكن أن يقاوم جيشا منظما من حيث التموين والصحة وجميع المعدات الحربية، وان أعماله الحربية منظمة تنظيما دقيقا، فهو يحارب فى منطقة لا تتعدى ما تصل اليه نار بندقيته، ومع ذلك، فهو يتصرف فى تلك المنطقة بحرية وبصورة فردية، فهو محارب كامل، يقوم بأعمال حربية خارقة لا يقدر الجيش النظامى أن يضبطه أو ينال منه منالا، فالريفى والغمارى والجبلى كلهم محارب بدوى، قوى سريع الحركات محارب بطبيعته، وببسالة نادرة، ومتعود على استعمال البندقية، ووسائل العنف من منذ طفولته»، ثم قال «ان أرض الشمال لا تصلح فيها الحروب النظامية، وانما تصلح فيها حرب العصابات، ان هؤلاء المحاربين هم خطيرون كأفراد، فهم لا يحاربون فى فرقة تحت راية طابور ما، وهو يأخذ معه عتاده على أكتافه»، وقال المريشال ليوطى «ان الجنود المغاربة من أشجع الجنود فى العالم، وكمحارب لا يوجد من يماثله فى المعركة، لانه يأخذ معه فى جلابته خرطوشا وخبزا وكرموسا، ليومين وثلاثة، وعندما تنتهى هذه المواد يذهب الى داره ليتزود مرة أخرى»، وقال الوزير الانجليزى المستر وليد جورج «يظل الاسبان فى مراكش فى شقاء وحرج، فهم يمسكون وعول الريف من قرونها، ولكنهم لا يستطعون أن يروضوها، ولا أن يطلقوا سراحها، فيرتطمون بقرونها من آن لآن ارتطام الثائر الصاخب فتدمى جباههم، وتذهل احلامهم، لان الجبال تمد الوعول الثائرة بابدع فرص اندفاع، كما أن الثوار الذين يناضلون عن حرياتهم مولعون بحيل الجبال يستمدون منها القوة والمعونة» .

ومن هذه النصوص ندرك لماذا لم يحتل هذا الصقع من المغرب من طرف المستعمرين القدماء، فقد تجنب الرومان اخضاع هذه الجبال، وتركها بمعزل عن اكتساحه لشمال افريقيا، كما كان الشأن بالنسبة للونداليين، والقرطاجنيين .

وغاية ما أدرك الفنيقيون أنهم فتحوا متاجر لهم حذاء قلعة سيليه بروساديس .

وقد كان مسلك المستعمرين الوحيد هو طريق طنجة ــ وادى المخازن ــ الى فشتالة، حيث يعبرون الى الجزائر من طريق تازة ومفازتها، بينما يخضعون سواحل تمسنا من المهدية الى آسفى وغيرها، والفتح الوحيد الذى رسخت جدوره فى النفوس واستدام الى يوم يبعثون، هو الفتح الاسلامى، الذى أخذه أهالى الشمال، كما أخذه باقى المغاربة عن اقتناع وسخاء، لما فى تعاليمه من انسجام مع الطبيعة البشرية الفطرية، وقد كان احتكاك العرب بالاندلس فرصة ثمينة لان يتعرف أهالى الشمال على مزيد من تلك التعليمات التى خلقت فيهم تلك الصفات العربية القحة، التى تحمى الجار وتقرى الضيف، وتحيط الاعراض بكيان من القدسية، نظرا لكون فرضات جبالهم المتفتحة على الزقاق، كانت معبرا لاولئك العرب جيئة وذهابا، فاختلطوا، ثم أسسوا امارات على تلك الشواطىء .

وعلى كل، فان من مميزات الفترة التى ابتدأت من سنة 1909 حينما بدأ الجيش الاسبانى تحركاته لاكتساح الشمال الموعود بحمايته، ان انجبت مناضلين استقطبوا حولهم جمهور المقاتلين من مختلف قبائل الريف، كما انجبت آخرين فى مختلف قبائل جبالة على اعتبار التفاوت النسبى فى الاساليب المتبعة، ويعنينا هنا ان جو النضال بحماس متزايد ، كان ابتداء من تاريخ 1909، فى جهة الريف، ثم استمر فى مراحله الى معركة أنوال وما بعدها .

ويرجع الامر فى خلق هذا الجو قبل الامير ابن عبد الكريم الخطابى الى زعماء ثلاثة وهم:

1) الشريف سيدى محمد أمزيان القلعى .
2) الشريف سيدى محمد حدو العزوزى الورياغلى .
3) الشريف سيدى عبد الكريم (الاب) الخطابى .

وبفضل هؤلاء الزعماء وبداعى رد عادية المغيرين، فان قبائل الريف أصبحت معسكرا عاما تلقائيا جاعلة من عملها اليومى الدائب أن

ترسل امدادات بشرية وتموينية الى الخطوط الامامية التى تصطـدم فيها مع العدو، لسحقه فى ملاحم احيانا، وعرقلـة تقدمه أحيانا أخـرى، وذلك ما جعل تحركه الى أن يصل الى أنـوال، تحركا بطيئا استغـرق قرابة عشر سنين، فى حين أنه عندما نكص راجعـا تحت ضغط ضربـات المجاهدين الموفقة قطعها فى قرابة عشرة أيام فقط .

ولاجل ذلك فان قيادة الزعيم ابن عبد الكريم للمناضلين الارياف فى أول الاصطدامات الحاسمة،انطلاقا من (دهـر ابران) لم تكن قيـادة مستوحاة من مغامرات ارتجالية، أو كانت مجرد تجربة لاغراض شخصية، انتقاما من الاسبان، لانهم أهانوه فى عاصمة قضائه، أو كانت عملا ذا حدين تخفى فى طياتها أغراضا شخصية للاستـلاء على الحكم، فهذا كله كـان بعيد التصور فى ظروف النضال المحيطـة بالقوم والتى عايشوها تلـك الحقبة الطويلة من الزمن، وهم يكابدون معالجة هذه الشؤون المستعصية ولكى نكتنه تلك الظروف يجدر بنا أن نلقى نظرة عجلى على حياة هـؤلاء الزعمـاء النضـاليـة .

1) سيـدى محمد أمزيـان القلعـى :

هو الشريف الصالح المصلح سيدى محمد أمزيان من أولاد أحمد أعبد السلام بن صالح القلعى الشرفاء الادارسة الذين جعلوا قبيلة قلعية مقرا لهم، والتى آوت الشرفاء الحموديين الذين عبروا البحر من الاندلس عندما أفلت دولتهم هناك، كما ذكرنا فيما قبل .

وقد أسست عائلته زاوية قرب مدينة الناضور دعيت زاوية أولاد أحمد أعبد السلام، وهى فى قمة شرقى مدينة (سغنغان)، حيث يوجـد منجم الحديد (اكسان) التى كان محور الحركات الاولى للصراع المباشر بين المجاهدين والاسبان عام 1909، والتى تولى كبر أمر المجاهدين فيها الشريف المجاهد هـذا .

وقد رأى بعينه ماذا يحيكه الاسبان للاستلاء على ثروات البلاد، باستعمال العملاء الذين باعوا ضمائرهم للاجنبى، حيث باع بوحمـارة ذلك المنجم الذى لا ينضب، ببخـس من الثمن، والحال أنه دعـى فى أمر

المغرب لا صلاحية له بتاتا فى ابرام ما أبرمه، وعندما نشبت الحرب بين المغاربة والاسبان المعروفة بحرب مليلية قاد هذا المجاهد حملة المجاهدين، وأعطوا مثالا للتضحية أثنوا الجيش الاسبانى من خروجه من المعقل الذى تحصن فيه .

وفى سنة 1909 هجم سيدى محمد أمزيان على السكة الحديدية التى تربط بين مليلية ومنجم الحديد بضواحى اسغنغان، فاتلف السكة برمتها، وقد جرت معارك حامية الوطيس تشيب لها الولدان استمرت ستة أشهر، فقد فيها الجيش الاسبانى ما بين قتيل وجريح حوالى 2000 جنديا، وسميت هذه الايام عند الاسبان بالاسبوع المأسوى .

وبعد عقد اتفاق مدريد بين اسبانيا وفرنسا، لقسم المغرب الى قسمين وشرعت فرنسا فى احتلال القسم الذى يخصها بناء على معاهدة الحماية، حلف أن لا يتركهم يحتلون أى شبر الا على أجسام الابطال، وفعلا فانه نظم قبائل قلعية وبنى بويحيى وبنى سعيد الريفية وبنى وليشك وغيرها، وكانت قبائل بنى توزين وبنى ورياغل تمده بالرجال، فقاتل شبرا بشبر، وقد تكاثر عليه الجيش الغازى، فنقل معسكره الى قرية افران اغلال أمام قرية تيكارمين ما بين قلعية وبنى سعيد، حيث استشهد فى معركة مصيرية ومن جملة تقديسات الاهالى له فانه يحكى أن الموضع الذى مات فيه بقى حزينا، ولا ينبت النبات أبدا واستشهد رحمه الله خلال سنة 1913 م. بعدما خاض ما ينيف عن مائة معركة معهم تقدمت الاشارة اليها .

وقد حمل الاسبان جثمانه الى مليلية حيث عرض هناك على السكان الاسبان والجنود ثلاثة أيام، وذلك ليطمئن الجميع أن الذى كان يقلق راحتهم ويجعل استقرارهم فى مليلية غير مضمون، قد لقى حتفه .

وقد سلم بعد ذلك الى عائلته بعد أن تدخل أخوه الشريف السيد التباع بتوسط بعض من كان له مع قائد مليلية العسكرى علاقة، ودفن رحمه الله فى زاويته وأوصى بأن لا يبنى له ضريح، ولكن عائلته بنت عليه ضريحا تحت الحاج القبيلة حيث أصبح ضريحه مزارا للناس، وقد دفن معه فى الضريح ولده محمد وبنته للافاطمة، ونسبه الشريف حسنى بالتواتر،

غير أننا لم نعثر على من ينتسب اليهم من الشرفاء الذين سكنوا قلعية فقد ورد على هذه القبيلة شرفاء كثيرون حسب ما وقفت عليه فى مخطوط من شرفاء الريف كما تقدم .

2) الشريف سيدى محمد بن احمد الفزوزى الورياغلى :

هو العلامة المجاهد صاحب التآليف الكثيرة فى علوم الدين والتصوف حسبما يأتى، وصاحب الحركات السياسية لتحطيم نوايا الاسبان فى الاستلاء على الريف بوسائل سليمة من دون اداء الثمن دما غاليا .

فلما كان سيدى محمد أمزيان ينظم قبائل بطيوة كما اسلفنا ليرد عادية المغيرين من مليلية على القبائل المجاورة، وكان هذا المجاهد يجمع المجاهدين من بنى ورياغل ويرسلهم أفواجا وفرادى الى ميادين القتال، وكان يتنقل بصورة عجيبة فيما بين القرى يلقى على سكانها ما اثر فى فضائل الجهاد، وكان يحضر اليه سيدى محمد أمزيان فيجمع المجاهدين من بنى ورياغل ويسير على رأسهم يخوض المعارك، كما كان يحث القبيلة على منع بعض الافراد الذين كانت لهم علاقة سياسية مع الحاكم العسكرى بجزيرة النكور، اذ فتح هذا باب الجزيرة على مصراعيها ليلجها أفراد القبيلة، كما فتحوا أبواب جزيرة بادس لمثل ذلك، وكان رتب لبعض الاشخاص رواتب شهرية طمعا فى فتح البلاد سياسيا وجعل الجزيرة سوقا رائجا لشراء البضائع شراء رمزيا، وحتى أنه كان يتسامح حتى فى شراء السلاح أو اهدائه، وبالاخص أولئك الذين يجاورون تلك الجزيرة.

ولم يكن ليخفى على الشريف المذكور مقاصد السياسة الاستعمارية، وكان مولعا بمحبة العرش العلوى وولائه الذى كان يضرب به المثل، وهو الذى كان يحرر الرسائل مشابهة لرسائل السلطان مولاى عبد الحفيظ، ويمكن به أحد الغرباء ليدخل بها عندما يجتمع رؤساء القبائل الى المؤتمر، ويمكنه بها كأنها وردت من الملك نفسه، وعندما يضعها على جبهته ويقبلها يقرأها، وذلك لاجل اذكاء الحماس، فكان الاسبان فى جزيرة النكور ومليلية يقلقهم عمله فجربوا حظهم معه بأن أرسلوا اليه يعدونه بكمية كبيرة من المال، ليخمد للسكون ولا يثير القبائل عليهم، ولكن ايمانه القوى وعزته

الوطنية دعته لان يرفض ذلك، وأخيرا هددوه بأنه ان لم يستجب لاخذ المال، فانه نفسه يلقى حتفه، وكان الامر كما توعدوه، فانه قتل من طرف وغد من أوغاد أعمامه، بينما هو راجع الى داره من عمله الدائب فى سوق خميس المرابطين بوادى غيس، أواسط العقد الثانى من القرن العشرين، ودفن فى مقبرة زاوية سيدى عيسى .

ويعتبر عمله بحق أول نهضة فى قبائل الريف الوسطى، كما كان عمل سيدى محمد أمزيان أول نهضة فى القبائل الشرقية، وانتقلت سلطة قبيلة بنى ورياغل الى زاوية سيدى عيسى، فكانت القبيلة معلقة اليه .

وللمجاهد المذكور عدا الاعمال الحربية ضلع كبير فى مختلف الفنون العلمية ولاتمام الفائدة ننشر شهادة عصريه سيدى محمد بن محمد بودهر التوزانى ونصها حسبما بيدى من نسخة منها :

بسم الله الرحمن الرحيم

وصلى الله على سيدنا محمد وآله

الحمد لله وحده وجد بخط العلامة المرحوم سيدى محمد بن محمد بودهر التوزانى رحمه الله فى حاشيته المسماة بغاية الصبور على شفاء الصدور، نصه: التعريف بالناظم وهو ناظم القصيدة وشارحها فى تحريم لحن أهل الفجور التى سترى قال وهو الفقيه الامام العلامة أبو عبد الله سيدى محمد بن احمد الشريف الحسنى الورياغلى صاحب الجد والاجتهاد والتشمير عن ساعد الحزم لخدمة رب العباد من تلاوة واذكار وقيام الليل والاسحار، حتى حكى عليه الخبر وصح واشتهر، انه يردد بعض الآيات ويبكى حتى يطلع الفجر، تصدر للفتوى فى الريف، واتسع باعه فى العلوم، سيما فى علم العروض، حتى صار فيه دأبه متى سمع بيتا من أبيات الشعر فينظر فيه لحظة ويجيب بأن هذا البيت من بحر كذا، فهاذه عادته، وأخبرنى عن نفسه بأنه يعرف جميع العلل والزحاف فى الشعر بديهة حتى لا يحتاج لتأمل فى ذلك، وأما تآليفه فمن أجل ذلك هذا الذى نحن بصدده الذى فاق به فى بديع صنيعه ابناء الناحية فى الزمان، ولم يضاهه أحد بمثله، ولا سبقه لذلك واحد من الاخوان، فطالع تجد، وليس الخبر كالعيان، ومن تآليفه أيضا تأليفه الذى سماه رسالة المتهجدين، فقد

أبدع فيه من العلوم مالا ينبغي ترك مطالعتـــه لذوى العقول والافهــام، ونقل فيه من الاحاديث النبوية والاخبار المصطفويه ما لم يقف عليه غالبا واقف فى كتب العلماء الاجلة، وفسر فيه من الآيات القرانية بكلام أهـــل التصوف ما يشهد بغزارة علمه وسعة اطلاعه على أقوال الايمة، ونقل فيه من حكايات الصالحين ما يسر الواقف عليـــه ممن اتصف بالتسليم لاهـــل الرسوخ والتمكين، ونظم فيه أشعارا أطال فى بعضها غاية، فعليك به ان أردت استيفاء ما بـــه من وعظ ونـــدب الى ما يفضى مآله الى الحسنـــى والزيادة، ومن تآليفه أيضا القصيدة الرائعة فى مدح خير البرية، فيها مائة وأربعون بيتا، قافيتها على الراء من الضرب الاول من الطويل، ومنها أيضا قصيدة فى مدح شيخه سيدى محمد بن احمـــد العلوى الحسنى القاطـــن بقرية صفرو، الى غير ذلك، ومن أشياخه الشيخ الامام العلامة الهمـــام سيدى محمد كنون رحمه الله فى الحديث، وفى النحو الشيخ المدرس الافضل العلامة الاكمل سيدى خليل أبو صالح الخالدى ابقاه الله لنا ملجأ، وكـــان له فى حياته ومماته، وفى الفقه الشيخ العلامة الصوفى سيدى احمد بـــن الخياط، والشيخ الرئيس والولى النفيس سيدى محمد القادرى، والعلامة المرحوم سيدى محمد الوزانى غفر الله له ذنوبه وأسكنه فى أعلى الجنان بمنه وكرمه كان الله للجميع وأيد الجميع بجاه النبى الشفيع طى الله عليه وسلم، وأخذ الطريقة عن سيدى محمد العربى العلوى الحسنى، وعـــن ابن عمه سيدى محمد بن احمد فى صفرو بعد وفاة الاول أيد الله الجميع، والكل فى ظل مولانا أمير المؤمنين مولانا الحسن أسكنه الله أعلى الجنـــان، ومتعه بالنظر الى الحنان المنان، الى غير ذلك من مآثره فانظر فى الحاشية المذكورة تجد أكثر مما كتب هنا والسلام .

وهذه القصيدة التى أشار اليها هى فى تحريم اللحن عند تـــلاوة القرآن الكريم كما كان يسمى فى ذلك الوقـــت بالصيغة وقد وقفنـــا على بعض الابيات منها، مع شرح ناظمها لها لمعانيها، والاستدلال على ما قاله بنصوص فقهية، ونغتنم هذه الفرصة لنشرها خوف ضياعها.

وقد قال فى أول الشرح أما بعد فهذا تفسير ابياتنا على تحريـــم اللحن العجمى الذى كان هزجا أحل الفاظها وأبين النقل المشار اليه فيها،

لتكون فى تحريمه حججا، مقتصرا على المقصود لكونى فى غيره اعرجـــا، ولكن من آخذ معظم الشىء لايلام على عدم الاتيان بما كان همجا، طلب منى ذلك الفقيه البركة القارىء قراءة السبع العالم بوجهها مدخلا ومخرجا، سيدى محمد بن الفقيه العلامة سيدى الحاج عبد الله الشريف الحسنى الورياغلى، وقاد الله من كل ماكان حرجا ، الـــخ ...

وهذه الابيـــات التى وقفت عليهـــا :

لك الحمد يا من أنزل الذكر والهدى ... على عبده المحرم النـــوح والحـــدا
عليـــه وآلـــه وصحب صـــلاتـــه ... تقارن بالســـلام مـــا بقيت غـــدا
وبعد فترجيع جـــلا فى زمانـــنـــا ... به وعد النبى حقـــا أمـــا بـــــدا
اذا اجتمع القراء فى محفل الغـــذا ... لدى البعض يقرءون باللحن والددا (1)
يسمون ذا اللحن القبيح بصيغـــة ... به استوجبوا التقطيع والذبح بالمدى
لتغييرهـــم كـــل المدود بطبعهـــم ... على عكس لحن العرب حاذر من الردا
وقد قـــال بعضهم بأخرى قريبـــة ... الى هـــذه ومـــا يغيـــر كالعـــدا
ولكن وان كانت كذى حرمت لمـــا ... تؤدى من التغيير فى البعض سرمدا
وفى آية التقـــول الزجر قد سطـــا ... بهم صدرها ولو تدبـــر مع البـــدا
وما استوجب النقصان عمدا لواحد ... من المد والحروف دعه ودع عـــدا
وقـــد قيـــد المحـــدثـــون روايـــة ... معنعنـــة الى النبى بهـــا اقتـــدا
كما فى البخارى المهـــدى وغـــيره ... يرجع زينـــو تغنـــى بـــه اهتـــدا

وقـــد علق بعضهـــم الذى سمى نفســـه على بن الحاج محمـــد انبرسيمى بتاريخ خامس شوال عام 1321 هـ. فقال فى كراسة من نصوص الشاطبى وغيره «لا شك من تأمل كلام الفقيه العلامة سيـــدى محمد بن أحمد الورياغلى الريفى فى منظومته المسماة «شفاء الصدور» فى تحريم لحن أهل الفجور وشرحه لها وجده صحيحا الـــخ .

وقوله ومنها أيضا قصيدة فى مدحه شيخه سيدى محمد بن احمد العلوى ولعله يقصد بذلك نظما أبياته 68 سماه «هذه القلادة المنورة فى ذكر السلسلة المطهرة» ويعنى بذلك سلسلـــة الطريقة الدرقاوية فـــى

---

(1) قال فى الجواهر الدد هو اللعـــب .

وفاته بطريقة الاشارة بالحروف الابجدية بلفظة مشكب بالسين والشين والكاف والباء التى محصل اعدادها 1322 هـ. وهى السنة التى فيها مات بالتاريـخ الهجـرى .

وقد علق بنفسه على هذه القصيدة تعليقـات لغوية وتاريخيـة وعروضية، وبذلك تكون كتأليف فى مضمارها. ولاتمام الفائدة سنثبـت هنا القصيدة والتعليقات وقد بدأها بما يلى :

بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على سيدنا محمد واله .

قـال العبد الملقب هر اهـل الله محمد بن احمد الورياغلـى الحسنى عفى الله عنه آمين يارب العالمين لقب نفسه بذلك لما عرف نفسه بنزعة الهرمعهـم .

هذه القلادة المنورة، فى ذكر السلسلة المطهـرة .

أحمـد من فضل أهـل المعرفـة	من الشيوخ الواصلـين الكملـة
سبحـانـه مـن واحـد ومالـك	قسمهـم لغـائـب وسـالـك
مصليـا مسلمـا عـن النـبـى	والآل والاصحاب أولى الحسـب
نخـص منهـم الذيـن نجـمـع	بعقـد سلسلتـنـا فلتسمـعـوا
يسمـى لـذا الـقـلادة المنـورة	فى ذكـر سلسلتـنـا المطهـرة
ومن ذكرتـه وما سـيـدتـه	فالـوزن عـن لى وقـد أردتـه
لكـن لسـان حالنـا قـد سيـد	لقـبـه أو اسـمـه ومـجـد
محمـد بـن احمـد قـدوتـنـا	. . . .
العلـوى (1) نسبـا فخـيـمـا	الحسنـى حسـبـا كـريـمـا
بحـر الشريعـة وذو الجمـال	بحـر الحقيقـة وذو الكمـال
أوصـافـه محمـودة فخيـمـة	يطيـب شـرحهـا بـلا سآمـة

(1) العلوى: هو من ذرية مولانا على الشريف، وهو من تافلالت ونسبه مرفوع الى سيدنا الحسن السبط وشرفاء تافلالت من ذرية محمد الملقب بالنفس الزكية والامام محمد هذا ومولاى ادريس اخوان، وقد قدم جد العلويين وهو الحسن القادم من الحجاز قال سيـدى عبد الله بن طاهر أن قدومه كان فى سنة 664 هـ.

العارف المحقق الرباني ... في سشكب (2) صار الى الرضوان
دفن في روضته بصفرو ... طاش لذا العقل وضاق الصدر
قدس روحه بفضل ربي ... عليه جل رحمات الرب
وبالمشافهة أخذنا عنه ... وبالمذاكرة فدنا منه
أخذ عن استاذه وعمه ... محمد العربي مربي وقته
بالكتب قد أخذت عنه اذ بدا ... مربيا وناصحا من اهتدى
وقد يخلف ابن عمه الحسن ... العالم العارف ما به وهن
كذاك صنوه الذي قد جذبا ... محمد لحضرة هي الحبا
فروعه كسيد السبعي ... كثيرة بذكره الخلوي
وعلمه الجلي والخفي ... أشهر في الاقطار وهو حي
وجمهم بغربنا النحب قضي ... وغيرهم غير انتظار قد نضي
وهو أصل والفروع تقتدى ... وأخذه مجنعن اذ يحتدى
والبدوي شيخه الخضراوي ... عن المربي الاكبر الدرقاوي (3)
تعزى له طريقة مرضية ... كالشاذلي وهي الصوفية
عن الشريف الاكرم المبجل ... منور السر على الجمل (4)
وآخذ هو عن العربي ... عن احمد والده المرضي

---

(2) يشير به الى تاريخ وفاته وهو 1322 هـ.

(3) وهو سيدى العربي بن احمد بن الحسن بن علي من ذرية سيدى احمد بن مولانا ادريس توفي في 22 صفر 1239 هـ. في بني زروال وله زاوية لها فروع .

(4) هو علي بن عبد الرحمان بن محمد بن علي بن ابراهيم بن عمران الشريف الادريسي العمراني من قبيلة بني حسان وسبب تسميته بالجمل يقال أنه وجد بعيرا راقدا في بعض طرق فاس فرفعه ووضعه خارج الطريق فرآه الناس فقالوا هذا الجمل فاشتهر بها، كان بفاس وخرج الى تونس ورجع الى وزان سنة 1153 هـ. ثم الى فاس ومات في 29 ربيع الاول 1194 هـ. عن عمر 106 .

كــلاهمــا يــدعـــى بعبـــدلاوى ... كلاهمـــا الناشـر ثـــم الطاوى (5)
نســـب كـــل واحـــد فـــاســـيــا ... عن قاســـم ينســـب اخصـــاصيــا
عـــن سيـــدى محـــد الفـــاســـى ... يعزى ابن عبد اللـــه فى الأســـاس
تلميـــذ يوســـف النبـــه الفـــاسى ... أمـــام أهـــل وقـــتـــه والآســـى
جـــد لعـــربيـــهـــم المـــذكـــور ... فى البيـــت آنفا وفـــى المسطور
عن شيخـــه العارف عبد الرحمـــان ... عن صنـــوه يوسف عالى الأركـــان
مـــن فاسنـــا هما عن المجـــدوب ... ينبـــوع سر القوم ذى الأسكوب
عـــن سيـــدى عـــلـــى الـــدراوى ... أخلصـــه المولى بذكـــرى الـــدار
عـــن الملـــقـــب أمجـــام أبـــا ... اسحـــاق يكنى ع لنعطى السقبـــا
عـــن الامـــام المـــرتضـــى زروق ... ذى العلـــم والتشريع والتحقيـــق
عن شيخـــه عقبة ذاك الحضرمى ... عن سيدى يحيى الشريف الاكـــرم
عن مظهر السر على ابـــن وفـــا ... عن سيـــد محمـــد نسل وفـــا
أعـــنـــى بـــه والـــــده الا واه ... عن الامـــام الباخلى (6) جـــدواه
عـــن احمـــد نجل عطـــاء اللـــه ... عن شيخه المرسى رحب الجـــاه
عـــن المربى التادلـــى المنتجـــب ... عن الجليل ابن مشيـــش المنتخب
عن عابد (7) الرحمن وهو المدنى ... عـــن الفقـــيرى العراقى السنـــى

---

(5) يعنى أن سيدى احمد بن عبد الله كان فى فاس ناشر الطريقة وكـــان ابنه سيدى العربى صاحب الخمول كما أخبر بذلك سيدى العربى الدرقاوى وسيدى العربى بن عبد الله ولده احمد بن عبد الله وجد سيدى العربى سيدى محمد الفاسى كلهم أولاد سيدى عبد الله معن مـــن الدومة المخفية وهم العبدلاويـــون .

(6) اسمـــه داود .

(7) ابن الحسن الشريف العطى المعروف بالزيات له طريقة أخرى عن سيدى عبد الرحمن التازى عن الشبل عن الجنيد عن السقطى عـــن معروف الكرخى عن الطائى عن حبيب العجمى عن الحسن البصرى عن سيدى الحسن السبط لكن الاولى هى المشهورة حسبمـــا فى تقييدة لسيدى العربى العلوى .

وعن علــى فــاضل نــور الديــن عن شيخـــه بالترك شمس الديــن
وزاد بعضـــهــم هنـــا شيــخــين تـــاج وفخـــر الديـــن مرضيــين
استـــاذ هـــذا النـــور والمـــريـــد لفـــا ونشـــرا عنـــى البـــريـــد
والاخذ شمس الدين شيخه كمـــا صـــرح شيخنـــا بـــداك فاعلمـــا
وآخـــذ هـــو عـــن القـــزوينـــى كـــان يلـــقـــب بـــزيـــن الديـــن
هـــو عن البصـــرى ذى الاحسان عـــن الكريـــم احمد المـــروانـــى
عن شيخـــه أبى محمد سعـــيـــد عن سيـــد سعـــد سعدت يا مريـــد
فتـــح السعـــود عنه ذا الصمدانى عـــن سيـــدى سعيـــد الغزوانـــى
عـــن جابـــر اخذ هـــذا واكتفـــى عن سيـــد الحســـن سبط المصطفى
عـــن سيـــدى عـــلـــي المكـــــرم وهـــو عـــن نبيـــنـــا المعـــظـــم
صلـــى وسلـــم علـــيـــه ربـــنـــا وآلـــه وصـــحـــبـــه ترحـــمـــا
بجاههـــم كـــن لـــى أن تبشـــرا كمالهـــم كـــنـــت اذا مبشـــرا
مـــا أشرس الوفـــاة ما اقصفهـــا ان لم تكـــن لنـــا ومـــا اوجعهـــا
لكـــن اذا كـــنـــت لنـــا بشـــارة تســـر بالحسنـــى وبالـــزيـــادة
واشفـــع لنـــا لربنـــا أن يختـــم لنـــا بتهليـــل ومـــا بنـــا احتمـــا
واشفع لنـــا لربنـــا أن يقـــبـــل دعـــاءنـــا وتـــوبـــنـــا والعمـــل
واغفـــر لنـــا الا هنـــا ذنوبـــنـــا بجاههم واستر لنـــا عيـــوبـــنـــا
وكـــن لنـــا بجاهـــم فى القبـــر مثبـــتـــا ومنعـــمـــا بالخـــيـــر
وخـــوفنـــا امـــن كـــذاك ذعـــــرا والطف بنا فى الدار ذى والاخرى
وهـــب لنا منـــازلا فى الحسنـــى بجـــاه احمـــد الشفيـــع الاسنـــا
وكـــل مســـلـــم ولـــلاخـــــوان ووالـــديـــنـــا رب والجـــيـــــران
كذلـــك الاهلـــونـــا والـــوالـــدان بفضـــلـــك اللـــهـــم يارحـــمـــن
لنـــا الزيـــادة أمنـــحـــن تمتعـــا والحمـــد للـــه بآخـــر الـــدعـــا

3) عبد الكريـــم الخطابـــى (الاب) :

هو عبد الكريم بن محمد بن عبد الكريم، كان عمه زيان واليا على الريف الاوسط للسلطان مولاى محمد بن عبد الرحمان، وكان طالبا حســـن السمت يقظا منصفا، وقد خلف لعائلته شهرة وقيادة القبائل الوسطـــى

للريف وبالاخص بنى ورياغل، ولما توفى عين مولاى الحسن الاول واليا عن الريف السيد بوبكر أوشان من العائله الخطابية، عمر طويلا وتوفى أول الاستقلال عن سن يناهز المائة سنة .

أما جده عبد الكريم فكان فقيها، وكذلك والده محمد، أما المجاهد السيد عبد الكريم، فهو كان آية من آيات الله فى الصبر والاناة، والفراسة الصائبة، وقد قاد سياسة بنى ورياغل ضد الاسبان بعد وفاة السيد محمد بن احمد العزوزى المذكور، نظرا لتوقد ذهنه ومعرفته لمصائر الامور .

ورغم أنه بعد سنة 1906 هادن الاسبان وأرسل ولديه احدهما للعمل فى مليليه مع الادارة الاسبانية هناك، والثانى للتعليم فى اسبانيا، فانه لم يكن ذلك عن سوء قصد، وانما ذلك لاجل الاطلاع عن كثب على دسائس السياسة الاستعمارية بالنسبة للاول، ولاجل استكمال الدراسة العصرية بالنسبة للثانى، وهو أمر طبيعى، وقد سبق أن بينا ذلك باسهاب.

وفيما بعد انتهاء الحرب العظمى قام بمجهود جبار لمحاربة الاستعمارين الافرنسى والاسبانى معا، وبالاخص عندما حضر الى الريف الشخصان عبد المالك الجزائرى والفاول الالمانى حسبما سبق مفصلا عند ذكر اسباب قيام البطل ولده بتنظيم الحرب التحريرية .

وعندما عمل على ارجاع ولديه من اسبانيا، وتفرغ للدفاع ضد اسبانيا، التى كان فرغ لها الجو بموت سيدى محمد أمزيان وسيدى محمد أحمد العزوزى، فوصلت فى زحفها الى تفرسيت وهى قبيلة تقع بين بنى توزين وتمسامان وبنى وليشك ومطالسة، وهى قرية صغيرة جيدة الهواء والماء والمناخ .

كان جعلها الامير عبد القادر الجزائرى معسكرا له، عندما اضطرته الجيوش الافرنسية فى الجزائر لنقل معسكره خارج الجزائر، ولهذه القرية شهرة كبيرة فى موقعها الاستراتيجى، حيث تقع وسط قبائل شتى، وتعتبر مجمعا لقبائل الريف الشرقية، وقد أقام الاسبان بدورهم معسكرا هناك انتظارا للزحف، فقاد السيد عبد الكريم الخطابى حملة اصطدام مع الاسبان الى آن مرض هناك مرضا مشبوها فى اسبابه،

والارجح أنه سم هناك على يـد عميل من عمـلاء الجيش الاسبانـي وبالاخص انه فى هذه المرحلة الاخيرة كان يعتمد هذا الاسلوب مثلما فعل مع السيد محمد العزوزى، وقد بقى فى مرضه 20 يوما قضى نحبه فى سبيل اللـه .

وسبق التعريف بنسبه الشريف عند التعريف بولده البطل ابن عبد الكريم الخطابى، وللرجل اخلاق جمـة تعتبر منحة الاهية، فهـو صبور الى حد أنه لا يلاحظ على وجهه أثرا لغضب قط، ومع ذلك فلا يرى ضاحكا بالقهقهة وانما ضحكه ابتسام وانشراح، فلبداهته الحاضرة كان لا يمل جليسه، ذلك ما جعل أفراد القبيلة يتسابقون لزيارته وقضاء بعض الوقت معه، وبذلك اكتسب شعبية منقطعة النظيـر حتى أن محادثتـه مملوءة بالنكت اللطيفة، مما يستهوى السامعين لحضور مجالسه، وهـو اذا جلس يجلس مربعا، يضع يديه على ركبتيه بوقار، وهو فوق ذلـك فقيه حاذق، قـرأ فى القرويين، وأخذ من الفقه لبه ومقاصده الصحيحـة؛ ويعتز كثيرا بأنه ليس فقيها جامدا، وكان يعرف بالسيد عبد الكريم، ويأبى أن يدعى بالفقيه، وسأله أحد جلسائه ذات يوم لماذا لا يقبل الفقيـه، فاجابه بأن مفهوم الفقيـه فى وسطكم أنـه الذى يشارط فى المساجـد ويتعيش بالمعروف وهو لا يغنى غناء الرجال الشجعان، فلذا اختار السيد عبد الكريم الذى مفهومه الرجل الذى يحمل السلاح ويعتمد على نفسـه، ولا يتعيش الا بكـد يـده .

كما كانت فتواه يقصد بها وقائع عملية، وليست جوفاء، يحكى أنه حضر لديه بعض الذين يظلون على لعب الورق أمام جزيرة النكور، التى كانت مقصدا لضعفاء الضمير، يقضون فيها أوقاتهم ثم ينزلون الى الشاطىء ليلعبوا الاوراق (الكرطة) الى غروب الشمس، وفى هذه الحالـة كانت جماعة منهم ممن يلعبون الاوراق ذبحوا شاة، وجعلوها على النـار لطبخها، فطبخت وانطفأت النار وبردت القدرة المطبوخة، فجاء كلب وأكل منها، فلم يستفيقوا من اللعب الذى تحمسوا له الا بعدما بلغ بهم الجوع مبلغه، فتفطنوا للكلب يأكل من القدرة، ومع ما بلغ فيهم من الجـوع فانهم أكلوا الباقية وبعد الاكل جعلوا يتباحثون فيما اذا كان يجوز لهـم

أن يأكلوا البقية، فذهبوا الى السيد عبد الكريم يستفتونه فسألهم أين كانوا فى يومهم ذلك، فافادوه بأنهم كانوا فى جزيرة النكور، وسألهم هل زاروا الحاكم العسكرى الاسبانى هناك (وكان يدعى بقائد الجزيرة) فقالوا نعم ثم قال عندما نزلتم من الجزيرة ماذا فعلتم، قالوا له كنا نلعب الكرطة الى أن أكل الكلب من القدرة ثم أكلنا البقية، فقال لهم لا بأس بذلك .

وقد شاعت هذه الفتوى فى القبيلة، واستنكرها الفقهاء، ووصفوا السيد عبد الكريم بالتهاون فى فتواه، بل بخرقه للنصوص الفقهية، فاقترحوا عقد مجمع للمناظرة معه فى ملاء من الرؤساء .

وفعلا قرر رؤساء القبائل عقد ندوة للحوار بين فقهاء القبيلة من جهة، وبين السيد عبد الكريم من جهة ثانية، فتقاطر الجميع الى سوق أربعاء سيدى ابى العفيف، على الضفة الجنوبية لوادى غيس، وقد حمل العلماء كتب النوازل معهم، وجعلوا يترقبون حضور السيد عبد الكريم الذى تأخر كثيرا، حتى كان بعضهم يشك فى حضوره، ولكن أخيرا حضر راكبا دابته بكل هدوء النفس، ورباطة الجأش، ولم يحمل معه ولا ورقة واحدة .

ولما جلس وسط الحلقة التى كونها المجتمعون، اشرأبت الانظار باسمئزاز اليه، وكان الذى يحمل راية التنديد به هو فقيه من قرية أجدير نفسها، يدعى الفقيه السى على كان من النوع الجامد الذى لا يفهم من النوازل الفقهية الا ألفاظها الجوفاء .

قال السيد عبد الكريم ماذا تقول ـ موجها الكلام للفقيه السى على ـ أيها الفقيه، فقال هذا انك دائما تتهاون فى النصوص الشرعية، وتفتى بما يعتبر خروجا عن الشريعة، فقد أفتيت أخيرا بما لا يحل لاحد أن يقوله .

فقال له السيد عبد الكريم حسنا، هل سألت المستفتين، ألم يكونوا فى جزيزة النكور مع عدو الاسلام؟ ثم لما نزلوا ماذا كانوا يفعلون؟ ألم يكونوا منكبين على لعب الكرطة؟ هل تحرم أنت هذا العمل؟ وبالاخص الاول، ولماذا لم تتطرق اليه وتحرمه عليهم؟، ثم هل استفتوا قبل الاكل

أم بعده؟ فلما كـــان بعد الاكل، فما هو فائدة الاستفتاء فى جزئية خاصة بهم؟. ولذا فانى أعتبر أنهم بعملهم اليومى كله هم كلاب أربعة، انضـــم اليهم كلب خامس أكل معهـم. يجب أن تستنكر أيها الفقيه أعمال هـؤلاء الذين يذهبون الى جزيزة النكور، حيث العدو يتربص بنا بمثلهم، لينفث فيهم السموم، فصفق له الجمع، واعتبر من ذلك الوقت الفقيه العلامـة الذى لا يغلب فى محاوراتـــه .

أما فراسته فكانت قوية، بحيث أنه عندما كان فى تفرسيت فى حملته ضد الجيش الاسبانى كما أسلفنا، وجاءته الوعكـــة التى شعر بها قـــال لمساعديه الاقربين اذا أنا مت فعليكم بهذا الخلف الذى أتركه من بعـــدى، مشيرا الى ولديه، ثم زاد فان الاسلام تجدونه فى بيتى، ولا يصدنكـــم عنهما انما كانوا مع الاسبان، فان ذلك لم يزدهم الا ايمانا بالاســـلام، وعداوة لهم، لما شهدوه من غطرسة وكراهيـــة للمسلمين، وبالاخـــص مالاقـــوه من المجاهـــدين .

وفضلا عن ذلك فقد اعتقد فيه بعضهم أنـــه من الملهمين، فقـــد حكى بعض مرافقيه أنه كان ذات مرة فى قرية آيت قمرى وهى القريـــة التى نقل اليها ولده البطل من بعد أجدير مقر العمليات الحربية، لكونهـــا غائبة عن أنظار البوارج الحربية وجزيرة النكـــور .

قال: كنا واقفين على كدية وجعل يصيح كوع كوع فى خشوع اثر غروب الشمس، فلما سأله عن عمله ذلك قال أنه تقمص شخصية الذئـــب ينوح عن أهل هذا المنزل فانهم راحلون عنه وللمكان شأن من بعدى يذكر، فكان الامر كذلك، وعلى كل فان نوادره من هذا النوع كثيرة جدا ويحفظها الى الآن القوم على ظهر قلوبهم يحكونها فى مجالسهم ويستملحونها .

وقد خلف رحمه الله من الاولاد :

الذكور : محمد وامحمـــد .

ومن الاناث: أمينة زوجة السيد محمادى بن الحاج السى محمـــد الخاتمى ــ من بنى وريـــاغل .

فطيمة زوجة السيد محمد بن الحاج بودرة من أجدير .

رحمـــة زوجة محمد أزرقان (المدعو بخارطو) من أجدير .

رقية زوجة السيد محمد بن الحاج السى محمـد .

أما زوجته فهى ثيمونت بنت السى احمد بن القاضى وهو عالـم فى بنى ورياغل مشهور من الشرفاء الولقاضين، تدعى فخذته الشندوريين .

وكان له من الاخوان السيد عبد السلام الخطابى، الذى نفى مع أسرة الامير فى جزيرة رنيون وتوفى فى القاهرة، والسيد احمد بوجيـظ، أما حدو بن السى زيان فهو ولد أخيه .

حقيقة كان أثناء وجود أولاده عند الاسبان فى مليلية ومدريـد كانت القبيلة تنتقد عليه وجودهما عند النصارى، وبالاخص ان احدهمـا كان موظفا كقاضى فى مليلية، والثانى يتعلم علم الكفار حسب الاعتقـاد السائد فى ذلك الوقت، وكان يقابل ذلك برباطة الجأش وبكثير من الانـاة، وربما أجاب عن ذلك بأن وجودهم عند الكفار لا يخشى عليهما لان لهمـا بصـيرة اسلاميـة .

ومن نوادره فى هذا الباب، أنه ذات مرة كان شريفان اثنان يدعيان السيد يوسف والسيد بوقشوش من زاوة سيدى يوسف، وهمـا ممـن يجعلون بيته متندى لراحتهم، حضروا بعض الائتمـار عليه من طـرف القبيلة فى سوق خمس المرابطين، وكان هذان الشخصان ممن ساهمـوا فى الافكار العدائية ضده، وقد علم السيـد عبد الكريم بما قالـوه، وفى المساء حضروا لديه، فسألهما عن حالة القبيلة وما عقدتـه، فقالا انهـا توجه الانتقاد اليه، الا أنهما رهن اشارته وعليه أن يطلـب منهما أيـة حاجة يريدها، فوجه اليهما الكلام باناة: ان الحاجة التى يريدها منهما لا يقدران عليها، فأكدا له استعدادهما، فقال لهمـا ان كان ولابد فانـى أريد وجها مثل وجهكما، لا يحمل ذرة من الحياء حتى أجابه به القبيلـة، لانكما فى السوق كنتما الد الخصوم لى، والآن جئتما بوجه آخر، فسقط فى ايديهما، ومع ذلك فقد طمأنهما، وقال لهما: لا تنقطعا عنى وعن مائدتى فان أحوج ما يكون المرء الى مثلكما، لانكما رغم انكما لا تغنون شيئـا، فانه لا يخشى منكما وحث عليهما أن يبيتا معه تلك الليلة، فبعدما مضى وقت من الليل، أمَر أحد خدامه بأن يطلق طلقة نارية فى الفضاء خـارج الباب، وكان هو مع الشريفين فى بيت الضيوف، فلما سمع الطلقة تصنع

الفزع وكان للشريفين بندقية واحدة بينهما، فانتذض السيد عبد الكريم لاخذها، يتصنع رد عادية المغير، ولما بحثها وجدها خالية من القرطـاس، فقال لهما أين لاقرطاس؟ فجعل الشريفان يبحث كل واحـد فى زعبولـه (محفظة يقلدها الرجال للقرطاس) ويقول للآخران لنا قرطاسا واحـدا هو عندك، ويقول الآخر عندك، ولما أعياهما الامر ابتسم وقال اذا كان أمثالكما يأتمرون على فلا بكت على الباكيـات .

خـبـرة كـل واحـــد :

ان عمل المجاهدين الاولين ســى محمد أمزيان وسى محمـد العزوزى كان عملا مستوحى من الترغيب فى الجهاد، واكتساب الشهادة، وفى ضمنهما أن الخضوع لحكم الكفار هو طعن فى الدين وعقيدة المسلـم الحنيف، فكيف للرجل أن تتقبل صلاته وهو تحت امرة الكافر، أو من يأتمر بأمره، وكان باب الجهاد فى كتب الفقه هو الباب المفضل عندهما، لتلاوة ما جاء فيه على مسامع المجاهدين فى القرية والقبيلة والاسواق ومجامـع الصالحين من الزواوى وغيرها وهو القصـد بذاته فى قرارة أنفسهمـا، لا تشوبه شائبة الاعمال السياسية، الا ما كان من الدفاع عن سيادة العرش المغربى، وهو نفسه جزء فى العقيدة الدينية التـى لا تعوزها النصـوص الكثيرة المتداولة التى كانا ومن معهما يتلونها بالحاح على المسامع لتحميس المقاتلين الصابرين الذين ضمئت أنفسهمـا الى التروى من دم الكفـار ليعوض لهم فى الجنة من كأس كان مزاجها كافورا عيناً يشرب بها عبـاد الله يفجرونها تفجـيرا .

أما المجاهد الثالث وهو السيد عبد الكريم الخطابى الاب، فلـم يكن عمله على هذا النسق فقط، بل كان قصده أشمل وأعم .

ذلك أنه كان خبر الامور العصرية وأطلع على مجريات الاحـداث السياسية، فمن جهة كـانت الحرب العظمـى الاولى قد اندلعت وتتبـع مصائرها عن كثب، ثم تتبع انهزام المانيا وحليفتها تركيا وما خلفته هذه الانهزامات فى نفس فرنسا من الاستعلاء على الشعوب التى تتعثـر فى تخلفها المزرى سياسيا واقتصاديا وفكريا، وبالاخص التى تجاورها فـى

مستعمراتها، مثل المغرب الذى آوى يوما ماعدوها الذى ناجزها القتال بثبات وشجاعة نادرة، وهو الامير عبد القادر محيى الدين الجزائرى، الذى أعطى مثالا للبطولة العربية القحة، والذى غسل عار الاستسلام للقوى مهما كانت قوته، فابان للعالم أن المغرب العربى كما وقف منتصرا فى معارك القائد هنباك التى خاضها فى تونس الخضراء ضد المستعمرين القدماء الذين اكتسحوا أوربا وجزءا من آسيا وافريقيا بهمجيتهم الاستغلالية بوسائل الحراب والمنجنقات، فانه يستطيع أن يقف بكل مقدرة ووعى ضد المستعمرين المتحضرين بوسائلهم الحربية الجهنمية المخترعة من الانسان ضد الانسان، لابادة الانسان، لا لشىء الا للجشع الاستعمارى، الذى لا يحكم ولو لحظة العقل الذى منحه له الله، كما تتبع (عبد الكريم) التسلح بين تلك الدول الاوربية التى تتحاكك بينها فى ابتلاع المغرب لقمة سائغة، حفظا لمصالحها، وتسابقا للحصول على الاستراتجية المنقطعة النظير، والتى اكسبه اياها موقعه على بحرين اثنين، هما ممر العالم القديم والجديد، والذين يفصل بينهما برزخ مثلث سبتة وجبل طارق وطنجة، فسال لعاب الدول التى تأمل لنفسها خلود عظمتها لتقوم العالم بأسره، كأنها وكل اليها أمر البشر من عند خالقه القدير.

فمن جهة كانت انجلترا ترى أن امبراطوريتها التى لا تغيب عنها الشمس، والتى تضم بلاد التوابل التى طالما كانت هذه التوابل فى غابر الازمان، تحث الاساطيل التجارية البحرية لتقطع عباب مختلف البحار من أطلس وهادى وهندى، لتصل الى شبه جزيرة الهند، لترجع مثقلة بتجارة رابحة، وان المغرب بعد فتح قناة السويس أصبح أمره حيويا بالنسبة لجواره لجبل طارق، فلا يرتاح لها بال الا اذا كان مضموما الى التاج البريطانى، وطالما حاولت عمليا احتلال طنجة، وردت على الاعقاب، لتأمين سلامتها، وقلعتها المنيعة، التى تقبع على شرايين المرين لتضرب عرض البحرين المتوسط والاطلسى.

ومن جهة ثانية فان فرنسا قد كسبت الجزء الاكبر من شمال افريقيا، وهى فى عظمتها لا تسمح لاحد أن ينازعها سلطتها فيما وراء البحار، فكل تدخل من غيرها يعتبر طعنا فى عظمتها، واحتقارا لها، فاذا كانت

انجلترا تحافظ على سمعتها الاستعمارية، وأساطيلها البحرية فان فرنسا كذلك أصبحت شريكتها فى نفس السبيل، فهى لا تقل عنها كبوليس عالمى يجب أن يهتم بشؤون البلدان والناس أجمعين، اينما كانوا، فى الهند او فى افريقيا السوداء أو افريقيا البيضاء، فلا غرابة أن تتنافس على امتلاك المغرب، بل تزعم الاسبقية التى لا نزاع فيها .

ومن جهة ثالثة فان اسبانيا، هى بدورها تدعى اسبابا تاريخية وجغرافية، وبالأخص انها تعتبر نفسها موتورة من جانب المغرب، فطالما احتل هؤلاء أراضيها، ولم تنج من العثرات التى أصابتها من جراء ذلك، الا بعدما انحص ذنبها، وان اكتساح العرب لبلدها لم تأت حملاتهم الا من الشواطىء المصاقبة لها، وانها ان تلكأت عن احتلال المغرب وعلى الاقل تلك الشواطىء، فانها قد لا تنجو مرة أخرى من تلك الصدمات .

على أن الشواطىء التى احتلتها فى مليلية وسبتة وما بينهما لا يكفيها لضمان استقرارها فلابد من توسيع رقعة تلك الجيوب، وانها ان لم تسارع الى انتزاع حقها فانها قد لا تجد فرصة أخرى وخصوصا أنها رجعت بخفى حنين من مستعمراتها فى آسيا وأمريكا اللاتينية، وشيعت من معقلها الاخير فى كوبا بكثير من الشماتة .

وفى خضم هذه الاطماع والمصالح المتضاربة، حاولت المانيا قبل الحرب العظمى ان لا تترك منافسيها التقليديين يرجعون بالغنيمة الباردة بدون مقابل، فكان ماكان من تظاهر غليوم بطنجة ثم ارضائها بجزء من الكونغو .

كما اهتدى أخيرا المتنافسون المعنيون بالامر ممن أشرنا اليهم الى الاتفاقات الثنائية التى جرت فى سنة 1902 وسنة 1904 الى سنة 1912، وذلك لاقصاء المانيا عن المغرب، نظرا لعدم ارتياح كل من فرنسا وانكلترا لوجودها فى المغرب، ولو بتأثير غير مباشر، كما لا ترتاح انكلترا لوجود فرنسا على الشواطىء المقابلة لجبل طارق، ذلك ما دعاها لان تساهم لصالح اسبانيا، التى اختارتها لانها ضعفت لفقدان مستعمراتها، فهى لا يخشى بأسها، على أن لا غضاضة بأخذ فرنسا القسم الجنوبى، على أن لا تعكر على انكلترا عملها فى بلاد النيل.

وهكذا شاهد السيد عبد الكريم هذا الصراع، وكان يتفهمه جيدا كما شاهد تصارع الرأسماليين على شراء امتيازات مناجم الريف المعدنية، التى حسبوا أن جبال الريف ما هى الا بركان تتفاعل فى باطنها مختلف المعادن، لا تلبث أن تلفظها الى ظهرها، وان السعيد من حاز قصب السبق فى امتلاكها وقد دشنت اسبانيا هذه الحملة فى معدن الحديد بالناضور، ثم تبعتها اخوان منسمان الالمان الذين يعتبرون أول المكتشفين الاوربيين الذين وصلوا الى منطقة الريف، بحثا عن المعادن، وقد حاولوا اضفاء الشرعية على عملهم باستصدار اذن من طرف ملك المغرب لشرائهم الامتياز لكن مساعيهم باءت بالفشل، نظرا لعدم ارتياح فرنسا لوجود البعثة الالمانية تنقب على المعادن فى منطقة حساسة فأوعزوا الى السلطان باصدار ظهيرين اثنين بتاريخ يناير سنة 1914 بتأليف لجنة تحكيم للنظر فى وثائق الامتياز التى يدعيها الالمان، وبالطبع فقد أصدرت المحكمة قرارا بالغاء الامتياز وبالاخص ان المانيا كانت منيت بهزيمة الحرب العظمى، ثم جاء من بعدهم المثرى الاسبانى المدعو انتشافاريتا دى بلباو، فاتصل بالسيد ابن عبد الكريم الذى كان الرأس المدبر لحركات الريف، وبينما هو كذلك اذ زحف الجنرال سلبسترى فى الخط الشرقى الى تفرسيت، مما جعل كل المحاولات التى تتعلق بالاقتصاد فيما بين اسبانيا والريف تتوقف .

وفضلا عن ذلك، فان القضية التى أيقظت الوعى القومى بكل احاسيسه تجلت بكل مظاهرها فى النشاط الذى ابداه مع الزعيم السيد محمد العزوزى بعد وفاة سيدى محمد أمزيان لانماء الوعى الوطنى فى رجال تلك القبائل حيث قاما فى سبيل القضاء على الثائر بوحمارة، الذى جاء مناسبة لقدح زناد ذلك الوعى، فأتى الثمار المرتجى من حماسها المنقطع النظير، فتوحدت العزائم التى انبثق عنها دحر ذلك الماكر، حيث أعطى ذلك الحماس نتائج هامة بالنسبة لنسيان الضغائن الدموية بين العشائر من جهة وبالنسبة لايقاد شعلة النعرة الوطنية للذب عن الدولة ووحدتها من جهة ثانية .

ولاجل استقصاء البحث فى هذا المجال أعيد المقال الذى كنت نشرته فى مجلة الانيس والذى صدرت به بحثى «الثائر المهزوم» نظرا الى أن هذه القضية تعد مبدأ النهضة القتالية فى الريف ضد الخارجين وضد الغزاة معا .

يــوم أغر لنصر العرش العلوى فى الريــف (1)

«سنضرب الافعى الى رأسها، يــوم نستولى على هذا السهــل انوارف الظلال، ولا يبعد ذلك عن يومنا هذا» بهذه الجملة، استهل أســـود قاتم على رأس حملة (برتبة قائد الرحى) فى جيش بوحمارة الزرهونى (2) قالها، وأنفه شامخ للسماء، وذلك عندما أطل بجيوشه، من ربـــوة تمسامان بالمحل المعروف «بالقامت»، عند مطلع الشمس، كأنهم رؤوس الشياطين، وقد ترآى لهم سهل النكور ــ غيس، منبسطا مخضرا، قد التوى فى وسطه نهرا غيس ــ النكور، التواء الرتقاء قد انفصلت عنهما جـــداول السواقى مخططا بذلك رقعا مختلف الحجم والاشكال .

من هذه الربوة وبعدما خامرته نشوة الطغيان، فركب رأســـه فى الهواء، وقد أتى لتأديب قبائل بنى ورياغل، التى تسكن هذا الجنان وحدها، والتى ما فتئت تظهر العداء الكاشـــف للسلطان الجديـــد، مستعيرا اسم مولاى امحمد بن الحسن الناقم على أخيه ــ مولاى عبد العزيز عمـــه ــ وقد تساءل أى باس عند هذه القبيلة؟ التى تمردت على هذا الفاتح العظيم؟ الذى اخضع قبائل ضفتى ملوية ــ كرت بعدما عبأ وزير الحربية العـــربى المنبهى الجيوش الجرارة، فساق سبعين الفا أو يزيدون فى تعبئة عامـــة، من أقصى سوس الى تافلالت، بمعونة قائد المشور، السيـــد ادريس ابن يعيش، فكانت وقائع بوادى الدضر صفر عام 1322 (1904 م) (3) .

---

(1) نشر المؤلف هذا المقال بمجلة «الانيس» عدد 94 السنة التاسعـــة ــ ربيع الاول 1374 نوفمر 1954 كما ضمنه كتابه «الثائر المهـــزوم»

(2) أصله من جبل زرهون بدشرة أولاد يوسف ــ اتحاف اعلام الناس بجمال أخبار حاضرة مكناس ج. أ. ص. 400 .

(3) اتحاف اعلام الناس ــ الجزء الاول ــ للبحاثة الشريف العلوى مولاى عبد الرحمن بن زيدان .

من هذه الربوة، ربوة تمسمان (1) وفى حالة هذه الخواطر أمــر جنوده المطلة على ذلك السهل، أن تتسلل شعاب الجداول المنحدرة الــى وادى النكور على ضفته الشرقية وأطلقت هذه (2) تجرف الاخضر واليابس وتتسلق الهضاب والمرتفعات الخلفة عن تلك الجــداول، كأنها يا جــوج وماجوج، فى زحفه اللانهائى، يحدوها الطغيان والفساد، منتهزة الفرصــة لكى تشبع نهمها دما ومالا، وقد أباح لها رؤساؤها الاعراض والامــوال، فهى مطلقة الاغلال، لكى ترغم أنف هذه القبيلة التى تمردت، والتى مــا فتئت مصرة على تمردها، وقد علم ذلك من حوار وقع بين أحد قواد قبيلة تمسمان، المدعو عمر أفقير (3) رئيس فرقة تروكوت، وبين أحد قواد بنى ورياغل المدعو عمر بن طاهر (4) رئيس بنى عبد الله، قال الثانى للاول :

ــ انك تعد من حلفاء بنى ورياغــل .

ــ نعم أنا أعد نفسى من القبيلة لا حليفا فقــط .

ــ اننا نريد أن نتلاقــى مع قائد بوحمــارة عند قمة تمسمــان بالقامات (5) لنقاتله ثمة قبل أن يصل الى الديار هنــا .

ــ أنا لا أظهر العداء للمخزن، فلا أترككم تقاتلون فى بلدى .

ــ ان قائد بوحمارة هو عبد (وكان أسود اللون) ان لم نقبض عليه ونبيعه فى الاسواق، فان قبيلة بنى ورياغل لم تلد الاحرار .

---

(1) تمسمان قبيلة من قبائل الريف الوسطى الخالصة وفى أراضيها كانت وقعة دهار ابران المشهورة مع اسبانيا سنة 1921 التى دشنت بهــا الثورة التحريرية الريفية، تحت زعامة البطل المغربى الشهير محمد ابن عبد الكريم الخطابى فقد انكسر فيها الجيش الاسبانى انكسارا تلته انكسارات الى ضواحى مليلية .

(2) كانت هذه الحملة عام 1326 سنة 1908 .

(3) كان رئيسا للفرقة تروكوت شجاعا لا يشق له غبــار .

(4) من فرقة بنى عبد الله احدى قبائل بنى ورياغل التى لها تاريخ .

(5) محل بقمة قبيلــة تمسمان شهــد ابان الحرب التحريرية بالريــف مؤتمرات للمجاهدين وكان معسكر المجاهدين ومنه صبت الهجمات علــى العــدو .

ـ افعلـــوا ما شئتم ، أما أنـــا فـــلا .

لهذا كان الشرر الذى يندفع من عينى القائد الاسود، يلقى درسا على جنوده ليجعلوا من أنفسهم جنودا مثل الا بالسة، فى صيحاتها وتسلقها الاشجار والهضاب، وقد اصطحب فى طريقه من قصبة سلوان ـ مقر عمل الثائر ـ بعدما طرد عامل الدولة وقائدها السيد محمد الامرانى، رعاعـــا من الناس لا يحملون فى أفئدتهم رحمة أو شفقة وهم فى صيحاتهم المفزعة ررعوا الفزع فى القلوب، وعلى رأسهم قائد مرعب أيضا، وحتى بصورته الفحمية، صورة طبق الاصل من صور أولئك الابالس، الذين تسرد أسماؤهم العجائب فى حكاياتها المفزعة عند مسامرتهن .

كان القوم يعلمون ان جيوشا جرارة تزحف من قصبة سلـــوان لتأديبهم، ويعلمون فوق ذلك أنها تجمعت من أصناف مختلفة من الخلـــق دوى طبقات متباينة، فمن رعاع جائعـــين، الى ذوى حيثيات ومقامـــات، ورؤساء قبائل كرت وملوية، ومن أبيض اللون الى أسمره، وان هذه الحملة التى سيقوم بها، تشمل الخط الممتد من بين سواحل تمسمان شمالا، الى كزناية ومرنيسة جنوبا ويكون الزحف متحدا وفى نفس الوقت .

وقد أطلق رؤساء القبائـــل منادين ينـــادون فى الاسواق لتقاطـــر السكان على حد الصائم الى مقر عقد المؤتمرات، بأربعاء أمزرون، وقـــد خف السكان قاطبة وعقد رؤساء القبائل مجمعا عامـــا لبحث الحالة عـــن كثب وكان هؤلاء الرؤساء أشبه ما يكونون بقواد عسكريين، لا يخالف لهم الامر، فاجتمع عن المرابطين الحاج عمـــر محمادى (1) وحمو بن الحـــاج عيسى (2) والسيد احمد بورجيله (3) وعن آيت على، الحاج حدو بـــن

---

(1) من قرية دردوشا وكان رئيسا مجربا فى الحروب وله كلمة مسموعة فى فرقة المرابطين توفى قبل الحرب الريفيـــة .

(2) كان رئيسا للمرابطين وهو من شرفاء زاوية سيدى عيسى توفى فى حادثة سوق احد تيسار، فى قضيـــة مشهورة .

(3) كان رئيسا داهية فى شؤون الريف وكان مسموع الكلمة يقطن قريـــة آل هشام، مات فى مبدأ الحرب الريفية اغتاله أحد السكان .

طاهر وحمو بن تقلعيت وحمو حميت (1) وعن آيت يوسف وعلى، السيد محمد شيدى، والحاج عمر بن حدو البهمى من الخطابيين (2) وعن بنى بوعياش السيد عبد السلام الحاج محمد البوعياشى (3) وأموح آمزيان (4) وعن بنى عبد الله، عمر بن طاهر والسيد عمر محمادى وامحند

---

(1) كلهم من فرقة آيت على كانوا رؤساء لقومهم، توفوا قبل الحرب الريفية بقليل واليهم يرجع الفضل فى تموين الحملة ضد بوحمارة.

(2) كان رئيسا لآل خطاب وهو من قرية أجدير والثانى من قرية بوهم وهما من الشجعان الكبار توفيا قبل الحرب الريفية .

(3) من المجاهدين الذين تولوا رئاسة الناظرة الحربية فى الحرب الريفية (أنظر كتاب «المغرب ومراحل التهدئة» للجنرال الاسبانى غوديد صحيفة 84) (MARUECOS Y LAS ETAPAS DE LA PACEFICACION) وتحت امرته انهزم الاسبان بموقعة هار ابران وأنوال، وبعد موقعة تفرسيت وتيزى عزا تولى قيادة الخط الغربى والجنوبى بشفشاون ضد اسبانيا وفرنسا وعلى يده استسلم الريسونى وانسحاب الجيوش الاسبانية من شفشاون وتلمبوط، وكانت موقعة السهل الاحمر ببنى حسان التى قتل فيها جنرالان ودمرت دبابتان وعدد لا يحصى من اللفيف الاجنبى، وفى الجبهة ضد فرنسا كانت انهزاماتها بالرهونة وغزاوة وعند نزول الاسبان بالحسيمة تولى قيادة الخط الشرقى الشمالى بالسوانى بأسفل أجدير وهو من رؤساء بنى بوعياش، وبيد عائلته ظهائر ثمانية من ملوك العلويين المنعمين، باحترام أجدادها احترام الشرفاء أولها ظهير بتاريخ 1149 هـ. للسلطان مولاى عبد الله بن مولاى اسماعيل، وآخرها ظهير لمولاى عبد العزيز بتاريخ 1320، بتجديد تلك الظهائر، وبناء على تلك الظهائر كانت كلمة تلك العائلة ثابتة الاعتبار وقد توفى رحمه الله فى 24 رمضان عام 1365 هـ. (1945) بعد أن أطلق سراحه من سجن مليلية على يد الاسبان الذى قضى به أربع سنوات بعد انتهاء الحرب الريفية وهو والد المؤلف .

(4) من قرية أغميرون توفى قبل الحرب الريفية ــ التحريرية ــ.

ابن على المساوى (1) وعن بنى حذيفة امحند بن سى عمر، وبوطاهر مكوط، وعمر شكوح (2) .

ومع هؤلاء الرؤساء المعاونون، فكانت الاسئلة التالية تتردد على الالسنة :

ــ نرى هل نصمد أمام هؤلاء الابالسة المرعبين؟ الى الفناء الاخير أم نذبح الذبائح قربانا لهم ؟

ــ ان الرعاع الذين أتوا لم يحضروا الا لاشباع نهمهم مالا ودما، فمهما كان الامر فانهم لا يكتفون منا بالذبائح .

ــ الحل الوحيد اذا هو الموت وحده .

وأخيرا قر الرأى على الدفاع مهما كلف الامر، وكان الرأى أن تكون الملاقة فى «القامت» عند قمة جبل تمسمان، قبل أن يصل الى الحدود، ولكن عمر أفقير شيخ فرقة تروكوت حاور عمر بن طاهر وكان بحضور السيد احمد بورجيله، وقد تقدم ذكر ذلك، وفى هذه المحاورة أخذ هذا الاخير غبرة من الارض وذرها فى الهواء فى وجه شيخ تروكوت علامة على عدم الاهتمام به، وبالجيوش الزاحفة، وكان ــ أى بورجيلة ــ فيه نوع من الجذب فتوعده بان الرصاصة الاولى تصيب منه الدم، وقد استجاب الله دعاءه، فقد جاءت رصاصة فى الجولة الاولى وأصابت قريبا من أقرباء عمر أفقير الذى قاتل مع الحملة الزاحفة، واثر هذه المحاورة انفصل الجمع عن الجيشان والامتعاض .

---

(1) كانوا من رؤساء بنى عبد الله ومن الشجعان الكبار، توفى الاول عند احتلال الاسبان للريف قتلوه رميا بالرصاص لما كانوا يخشون من بأسه .

(2) كلهم من قبيلة بنى حذيفة كان الاول حكيما رزينا لا يتكلم أحد عن حضوره لما له من اصالة الرأى ولم يستعمل سلاحا بل كان سلاحه الكلام البليغ، والثانى والثالث كان لهما اقدام وشجاعة، الثالث توفى قبل الحرب التحريرية والثانى سجنه الاسبان بمليلية بعد الاحتلال واثر خروجه توفى .

(1) استيقظت القبيلة صبيحة ذلك اليوم لترى جنود قائد الرحى ينحدرون الى قرية بوزويقة (2) آخر قرية من تمسمان متآخمة لقبيلة بني ورياغل عند مبدء سهول النكور، وكانت طليعة الجيش قد نصبت الاقبية منتشرة في الفضاء، تظهر ناصعة البياض كالنجوم في كبد السماء .

لقد خيم الوجوم على وجوه الوفود المتقاطرين الى أمزورن (3) والهلع يملاء أفئدتهم، والحملة بازائهم بطبولها وابواقها تنفخ فيها، ايذانا بشدة بأسها، ولزرع الفزع في قلوب المتآمرين ضدها، وقد انتظرت الساعة الملائمة، لكي تنقض انقضاض الصاعقة، لتدكهم دكا، وتصيرهم قاعا صفصفا .

بينما الامر على أشده من الهلع، اذ يقدم الحاج حدو بن طاهر الموسى وعماري على فرس انثى من داره بافتسا، على شفا نهر نكور حذاء مخيم العدو .

وقد أطلق عنان فرسه في اختيال لكي يبلغ المؤتمر المنعقد، خبر محلة العدو، ولشدة الهلع لم يميزه أحد، بل كان الظن أنه من طلائع الحملة، فما لبث أن أمطروه بوابل من الرصاص، وكاد أن يردوه وبعد لأى تمكن بعض الحاضرين من اسكات الرصاص معلنا أنه من قوادهم، وانه أتى اليهم بأخبار المحلة، غير أن هذا الحدث كان مشجعا لهم لكي يمضوا في خطة الدفاع والصمود، لكي يكيلوا لها بالمكيال الاوفى .

قام رئيس بني عبد الله السيد عمر بن طاهر ليشد من عزم المؤتمر، ولينفث الروح المعنوية، فأمر المنادى ذا الصوت الجهور احمد لوليشكى (4) بأن ينادى باعلان الحرب، وان من ولى الادبار لا يتزوج

---

(1) نشر بمجلة «الانيس» عدد 95 السنة 9 نوفمبر 1954 .

(2) قرية للشرفاء البوزويقيين من تمسمان هناك عسكر جيش بوحمارة.

(3) قرية بسهول أجدير بين وادى غيس والنكور والآن في عمارة مستمرة.

(4) عمر رحمه الله 135 سنة وكان مزواجا تزوج 24 امرأة ما بين مطلقة ومتوفاة وكان دائما يمسك أربعة، وهو من أصل قبيلة بني وليشك وأبوه حدو محمادى أشرقي هو الذى استوطن بني بوعياش حيث هاجر من قبيلته لقتله شخصا وهو كثير الاولاد تبلغ الآن ذرينه حوالى 700 نسمة ما بين أولاد وأحفاد .

من القبيلة ولا يتزوج من عنده، ومعلنا تقسيم الدفاع تقسيما حربيا تقوم كل فرقة بالدفاع عن القسم المخصص لها، ففرقه بنى بوعياتس بقيادة السيد عبد السلام بن الحاج محمد وأموح أمزيان، جهه مدينه انكور (1) وحوض حواء وقمة سيدى البرقى ويليهم شمالا، فرقة بنى حذيفة برياسة امحند بن سى عمر، وفرقة بنى عبد الله برياسة عمر بن طاهر ثم فرقة آيت على وفرقة المرابطين وفرقة آيت يوسف وعلى متصله بالبحر شمالا، فقامت حركة شعورية سادت أقسام القبيلة وتقوت فى النفوس المعنوية الحربية الى حد بعيد .

وقد وصلت الاقوات من القرى الى أمزورن مقر المؤتمر طيلة اجتماع الرؤساء فى الايام الثلاثة الاولى، ووضعت أكداس من الخبز تحت أشجار التين وقد وكل توزيعه الى ضمائر الاشخاص فكان كل من احتاج الى الخبز أخذ ما يكفيه كما أباح ملاك الجنات والفدادين ثمار أشجارهم للمدافعين يجنون ما لذ لهم .

نادى المنادى معلنا النفير العام الى حيث مقر دفاع كل ثغر معقبا على ذلك بأن المعركة تعد فاصلة فى حياة قبيلتهم، التى كانت الى ذلك الوقت شامخة الانف، وانه ان قدر لها هزيمة فان اسمها سيمحى، وكان نظام الدفاع ان كل فرقة تنكمش جاثمة على الارض من دون حراك، وانهم يجعلون من السواقى المتسلسلة من الوادى خنادق حربية، لكى يخفوا أجسامهم ولكى لا يشعر العدو بوجودهم، حتى اذا أطلق لنفسه عنان الطغيان فى اكتساحه، وجاوز الخنادق الطبيعية، قام الجميع قومة رجل واحد، لقطع خط رجعة العدو، فيكون الثخن والقتل فى قفاهم فيضلون الطريق عند أوبتهم وان أية فرقة قامت وولت الادبار منهزمة، فان اللعنة تنزل عليها، ولا تبقى لها قيمة تذكر وتنعت بأوصاف الجبن والخذلان، وقد تفرقت الجموع الى أماكنها، وحرص كل عن الشجاعة اللازمة، فانكبوا

---

(1) المدينة التاريخية التى دار عليها بحث المؤلف، المعنون «بالريف بعد الفتح الاسلامى» .

على بطونهم جاثمين على التراب، حابسين أنفاسهم، مختبئين في السواقى ومتسلقين الاشجار .

يوم المعركة :

فى الصباح الباكر بأحد الايام من خريف سنة 1326 هـ. موافق 1908 شوهدت حركة غير عادية فى المعسكر الثائر بقرية «بوزويقه»، وبدأت الخيل الجامحة من فوقها تلك الاشباح المخيفة تتراآى غادية وكانت الحملة فى غزوها تصحب معها مدفعا لم يكن يعرف عنه الا أنه يدك كل شىء يصيبه ويرمى الى بعيد وكان القصد من التسلح به زيادة الذعر، وأول ما بدىء به من الهجوم اطلاق قذيفة ترأت للناظرين فى أفق السماء كحجر المقلاع، لا ينشأ عند اصابتها الهدف أى دوى، فانجلى عند ذاك الفزع عن القلوب، واستبشر المنكمشون فى تلك السواقى، والمتربصون تحت الاشجار ان لا خطر يهددهم من مفعول القذيفة، فانه قل أن تصيب الهدف، وانه فى استطاعة كل شخص أن يتجنب الوقوع عليه، لأنها ترى فى السماء، وقد قهقه الجميع عندما رأوا القذيفة فى السماء كحجر المنجنيق .

فياما أشد ابتهاج المنبثين هنا وهناك، لانه لم يبق يفزعهم الا تلك الصور الخيالية لاولئك الجنود المرعبين الذين سيصطدمون معهم بعد حين، والذين نعتوا بكثير من الوحشية والصرامة والفتوة، ها قد انطلق أثر القذيفة الاولى سيل جارف من الخيالة تتجه صوب المناظلين وجهة «أمزورن» وقد لبس راكبوها السلاهيم السوداء التى أصبحت بعد عدو الخيول أجنحة لتلك الشياطين فيخيل للجاثمين أنه وان خانتهم خيولهم فارتدت بالرصاص، فان اصحابها تطير عند ذلك بأجنحتها وقد ترميهم بحجارة من سجين فتجعلهم كعصف ماكول، ومع ذلك فان هذا الوهم يتضاءل أمام العهد المأخود منهم أمام القبيلة، والسبيل الوحيد للنجاة هو الصمود والموت .

ها هى الطلائع تقترب فى سرعة البرق، فتمر على الجاثمين وقد تملكوا أعصابهم، وحبسوا أنفاسهم، الا من وجبات قلوبهم التى أحدثها

رهيب الموقف، وحتى أن الشجاع الصنديد الذى لا تفزعه الملمات فانه لا يتمالك أن تصيبه قشعريرة من مرور العدو بخيوله تقفز فوق السواقى، وقد مر الفوج الاول وتبعه الثانى وكان فى اثر ذلك فوج المشاة الذى سيعثر على الكمين بلا ريب، ولذا فان الوقت الموافق قد وصل واندلعت النيران من تحت الاشجار والسواقى، وكأن قضاء الله قد نزل، فلا ترى الا الخيول تلقى حتفها فتنكب على وجوهها انكبابا، وقد خانت راكبيها اجنحتيهم التى انغمست فى سيول من الدماء، والغبار والمنية تطوف الصفوف، وتتخطف تلك الابالسة التى سلط عليها أبالسة أخرى أشد هولا منها .

ان الامر لمفزع حقا وموقع فى حيرة شديدة، فالمقاتلون تلدهم الارض وينبثقون من السواقى انبثاقا وقد أحس أولئك المختالون أنهم لا طاقة لهم بهؤلاء المغامرين الفتاكين المتولدين عن تلك السواقى والمتساقطين من فوق تلك الاشجار .

فى صيحات من نغمات زغاريد النساء اللائى شاركن المدافعين والتى انبعثت من الدور وحيطانها كالرعد القاصف، هنا بلمحة البصر كانت الخيالة قد انقرضت، بقضها وقضيضها ولم تبق الا الاشباح تتخبط فى دمائها، أما المشاة فلما رأت هول الموقف ارتدت على أعقابها وقد تبعها المقاتلون يثخنون فى قفاهم قتلا وسلبا، وبعد جهد جهيد وصل ما تبقى من مؤخرتها الى مركز القيادة، ويقع كل هذا والقائد الاسود يرى بعينى رأسه مصير جيوشه، وكانت شرارة عينيه التى يرسلها على أصحابه وذوى مشورته تلتهمهم التهاما، لما تملكه من الفزع الاكبر وكانت الاسئلة التالية ترد على شفتيه السوداويين ولا من مجيب .

ـ أين لنا قوة نصمد بها أمام هؤلاء الوحوش المتمردين؟

ـ بل أين لنا من ثبات نصعد به هذه العقبات التى انحدرنا منها فى مرح وخيلاء؟

ثم أين لنا الوقت الكافى لاستجماع بأسنا؟

ان المناظر لمؤلمة لمصرع جنده، الذى طالما دوخ به سيده قبائل التسول وغياثة وضفتى ملوية، ودخل بها تازة فاتحا، وخطب له به على

منبر وجدة (1)، ومع ذلك فان قبائل تمسمان، وبنى وليشك وبنى توزين ومطالسة، وبنى سعيد وبنى بويحيى، وكلعية، التى خلفها من ورائه لم تكن تدين لمولاه بالطاعة الا صوريا، لما تراه من بأسه وقد تنقلب عليه حينما تعلم مصير قوته، فكانت هذه الاسئلة كلها تدور على لسان القائد الاسود، وينقلب بشرر عينيه فى تلك الوجوه التى يتكون منها أركان حربه، ولا يرى فيهم غناية، وها هى الجموع المعادية تقفو أثرا لهاربين من مثاتهم، أما خيالته فلم ينج الا واحد وصل اليه ليخبر عن مدى الكارثة (2) .

(3) لم يبق أمام القائد الاسود الا أن يتسلل تحت جناح الظلام لكى ينجو هاربا، فبعد بزوغ الفجر من اليوم التالى للهزيمة تسلل بما تبقى لديه من فلول جيشه، وتحين وقت غفلة القبيلة التى كانت فى نشوان الانتصار، الذى أحرزته حيث كانت منشغلة وسط أولئك الصرعى فى ساحة الوغى لتجمعهم أكداسا مكدسة، فى سوق أمزورن (مقر المؤتمر)، بينما هم كذلك اذ وصل رسول أعزل من عند قائد بوحمارة حاملا علما أبيض على عمود له يطلب من القبيلة السماح له للتعرف على جثة قائد من قواد الحملة سقط فى المعركة قتيلا، وانه ان سمحت بحمله فلها ألف ريال، ويدعى هذا الرسول الحاج عمر بن عبد الله من قرية «بوزويقة» فأذنت له فى البحث عنه وقد وجده صريعا فى أعلى أمزورن بسوق النساء (الجمعة)، ولما أعلم القبيلة بالعثور عليه استبقته لكى يرى بعينه جثته تحترق بعدما وضعت فوقه أكوام من الاحطاب، وعند انتهاء احتراقه البست الرسول قميصا أبيض قصيرا الى الركبتين وقلدته رأسه فى حبل من الالياف وأطلقته ليعلم القائد الاسود مصير جنده، بعدما طاف على تلك الاكداس من الجثث المجمعة (4) .

---

(1) اتحاف اعلام الناس الجزء الاول .
(2) عن شاهد عيان .
(3) نشر فى مجلة «الانيس» رقم 97 لشهر جمادى الثانية 1374 موافق فبراير -195 ــ العدد لاعاشر .
(4) عن شاهد عيان .

وقد شيعه الفقيه القاضى المجاهد بل رئيس المجاهدين السيد محمد بن السيد احمد عزوز بقوله «وعند جهينة الخبز اليقين» وقد وصل الرسول اليه فى جوف الليل، ولم يكن الخبر الذى تلقاه منه بما رآه بعينه أقل وقعا فى نفسه، من أخبار الهزيمة نفسها، فلم يكن من سبيل لديه سوى الفرار ناجيا بنفسه ان أمكنت له النجاة بحمل ما خف من المعدات، وانقلب على أعقابه، ليقطع عقبة «القمث» فما أصبح الصباح حتى كان يتسلق وسط تلك العقبة فى اعياء، وقد ترك وراءه عمر أفقير فى جماعته ليحمى مؤخرته، وقد تصايح الناس من ورائه فى فرح بالغ الغاية، مقتفين أثره، فقد ناوشهم عمر أفقير بطلقات نارية من بناديق ربع تروكوت، ولكن سرعان ما أرسل رسولا، يجر وراءه ثورا لذبحه أمام القبيلة (1) مقدما لتوبة من عمله .

ومع استبقائه حيا فانه قد حرقت داره وديار أنصاره، وغنمت الاموال، وترك هو وافراد جماعته طلقاء، وقد اضرم النار فى صياح مروع، والهرج والمرج يبلغ عنان السماء، مختلطا مع طلقات البنادق.

أما القائد الاسود المنكود الحظ فانه تابع هروبه فى عدو بلغ به كل مبلغ، لكى ينجو، وبعد أن وصل قرية أجدير تمسمان (2) وبينما استراح قليلا، تابع فراره عن طريق بنى وليشك وبنى سعيد غير أن هذه القبيلة الاخيرة (3) منعته من المرور عليها فتجنب سالكا مفاوز أمطالسة، ولما وصل الى أربعاء تزمورت فى قلعية، حط الرحال خارج السوق .

وقد قيظ الله له هناك سببا لكى تنقض عليه قبيلة قلعية أيضا، وذلك أن أحد جنوده حاول الالتفات الى شابة كانت مع والدها الذى

---

(1) وهى عادة يقوم بها من يكون أتى اثما ازاء القبيلة فيذبح أمامها لتتجاوز الخطيئة .

(2) قرية بتمسمان على وادى بنى توزين وهى مشهورة بالعلماء والصلحاء.

(3) تدعى بنى سعيد الريفية، التى مركزها دار الكبدانى وهناك قبيلة بنى سعيد الجبلية ومركزها وادى لو .

يحمل كيسا فيه كمية من الشعير على أكتافه ليبيعها فى السوق فلما رآه يلتفت الى الشابة ويضحك أنزل من على كتفه الكيس الذى فيه الشعير، وكان معلقا فى رقبته بندقيته، ففى طرفة عين كانت القذيفة تخترق دماغ الجندى الغاشم، وتصايح الناس، وكانت أخبار الهزيمة قد وصلت فى سرية، وتهامس الناس بها، فانقض القوم على تلك الفلول مثخنين القتل فيهم فما وصلوا الى سلوان الا بعد جهد جهيد (1) .

وقد تلقى بوحمارة الاخبار التى حملها اليه قائده المشؤوم بكثير من الهلع والفزع ورغم كونه مشعوذا من الدرجة الاولى، وانه عاش فى أطوار حياته فى كثير من المجازفات ومع ذلك فان هول الكارثة التى نزلت على هامة رأسه، قد دكت اخبولته، وشتت حياله، فأصبح حائرا، وكاد أن لا يعى شيئا من أمره وقد علم أنه فى آخر مرحلة حياته، أو على الاصح، فى آخر دور من أدوار روايته التى كان حالفه النصر فى جميعها (حسب زعمه) الا ما كان يترقب من نهاية الرواية، وها قد وصلت .

وعندما استرجع وعيه لم يكن أمامه الا سبيل الفرار، وبكثير من العجلة شد رحاله فارا سالكا مسلك وادى ورغة، الى بنى مسارة، فعندما علم السلطان مولاى عبد الحفيظ الذى خلف أخاه مولاى عبد العزيز فى الملك، عندما علم بطرده من الريف سير حملة وافته بنواحى مولاى بوشتى الخمار، واشتبكت معه فى القتال فذهب الى بنى مسارة محتميا بضريح سيدى عمران، ولكن لم ينفعه احتماؤه، فقد دخل عليه أحد القواد هو الناجم الدليمى (2) فقبض عليه .

انه عندما فكر أن يهجم على قبيلة بنى ورياغل، لم يكن يرى الا أنه يرسل احد قواده مع رعيل من الاوباش الهمج لتأديب احدى

---

(1) عن شاهد عيان .

(2) من المخطوط لكاتب يدعى السيد محمد عمر كان فى أيام تحركات بوحمارة كاتبا لقائد قصبة العيون سيدى ملوك وهذا المخطوط بخط يده وقد اشتمل على جميع مراحل ثورة بوحمارة بعبارة سلسة، يقع فى ثلاث ملازم الا أنه خال من تاريخ التحرير .

القبائل الخاضعة لنفوذه، وانه ما فتىء ان يرجع ذلك القائد منتصرا حاملا الاسلاب ومثقلا برؤوس من العصاة المقطوعة، لكى يستعرض تلك الجماجم على القبائل الاخرى، لتعتبر وتتعض ويدق الطبول احتفاء بالانتصار لتثبيت دعائم حكومته .

وقد كانت قبيلة بنى ورياغل قبل أن يغزوها تصانعه، وكان هو يتنكب ان يتحرش بها، ومع ذلك فانه كان يتصل ببعض الافراد أصحاب المطامع وذوى الضمائر الضعيفة، فربما أصدر الاوامر فى صورة ظهائر بتوليتهم المناصب أو باضفاء صفة الشرفاء بالاحتراب والتوقير ويظهر من قبوعه فى سلوان (1) أنه لم يكن على ثقة من تمكين أمره فى قبائل الريف الوسطى ، وكان يظهر له من هناك خشونة قبيلة بنى ورياغل (2) التى كانت تصانعه وتلتوى له وتعامله لا عن اعتقاد أحقيته فيما يعمله وانما كانت تدفعه بالتى هى أحسن، وهو من جهته كان يكتفى منها بذلك القدر من الطاعة المصطنعة، فقد سبق له ــ أى قبل الهزيمة بسنة ــ أن أرسل حملة لتأديب قبائل بنى وليشك وتفرسيت وتمسمان وبنى توزين، وعند انتهائه الى

---

(1) نشر بمجلة «الانيس» عدد 98 لشهر رجب 1374 مارس 1955 السنة العاشرة .

(2) تعتبر أمنع قبيلة فى الريف، وهى تنتمى الى صنهاجة المغرب، وكانت مقرا ولا زالت للشرفاء الحسنيين الذين آوتهم وأحبتهم، كما يوجد عنصر مهم للعرب، بسبب هجرتهم الى مدينة النكور والى هذه القبيلة ينسب البطل الشهير السيد محمد بن عبد الكريم الخطابى ، والخطابيون هؤلاء هم من أولاد عبد الله بن الخطاب الشريف الزيانى من ذرية ملوك تلمسان وتقدمت بالصحراء، ومن أحفاد عمران بن مولاى ادريس الاصغر الذى خص له بلاد الريف وبادس بعد موت أبيه كما ذكرت مبسطا قبل، وليسوا من خطابى صنهاجة الذين كانوا يقطنون أحواز فاس، والذين منهم ميمون الخطابى الذى ترجم له الاستاذ عبد الله كنون، فى سلسلة مشاهير رجال المغرب.

هذه الاخيرة المتآخمة لبني ورياغل، رجع بعدما عاث فيها فسادا، وقتل وخرب وحرق ونهب، واكتفى من بني ورياغل بستة آلاف ريال ذعيرة، حملها اليه خمس أفراد من القبيلة، وذهبوا بها اليه ومن بينهم الاشيب الوقور السيد عمر بن الحاج سعيد الورياغلي الكلتومي (1) وعندما وصلوا الى مخيمات بني توزين أدخلهم الى خيمة، وأجلس بالقرب منها حارسا، بيد أنهم لم يدروا أهم ضيوف أم أسرى، فعمد أحدهم عجم عود الحارس وأمره بالرجوع، فعلموا أنهم مأسورون، فاحتاطوا للامر، وعندما وجدوا غرة اهتبلوها، فقلعوا أوتاد الخيمة من الخلف ومع كل ذلك، فان قائد بوحمارة غض عنهم الطرف، واكتفى بالذعيرة فقفل راجعا الى سلوان .

وهكذا كان بوحمارة والقبيلة يتراوغان في معاملتهم بينهم، فلا اخلاص ولا طاعة من جهة القبيلة، ولا ثقة ولا اطمئنان من جهته هو، وغاية ما يصل اليه نفوذه أنه يرسل ما يسميه بالظهائر بالتولية وربما ارسل رسائل التهديد (ففي محرم عام 1322 هـ. اشتكى اليه قائده المولى من قبله الذى أسلفنا ذكره) اشتكى من سوء معاملة القبيلة، فكتب اليهم كتابا .

وهكذا نراه يراوغ القبيلة ويتلون لها ولا يقدر ان يتحرش معها تقية لما عسى أن يحدثه اصطدامه بها .

وقد كانت هذه القبيلة في ذلك التاريخ تحت رياسة العالم التحرير الشهم الهام الفقيه الشجاع، القاضي السيد محمد بن السيد حدو أو عزوز، من زاوية سيدي عيسى، وكانت له مكانة في القبيلة لا تعادلها مكانة، وكان له عونا ما كان يمتاز به من ثبات الجنان، وصدق اللهجة واصالة الرأي ونبل المحتد، وكانت القبيلة عن أمره ونهيه تصدر وترد، وكان له القدح المعلى في الذود عن العرش العلوي، عن اعتقاد ديني راسخ، فكانت همته النافذة وعزيمته الثابتة تقيم الثائر وتقعده وتقض مضجعه .

---

(1) من قرية اكلتوما، وهو شعلة من الحماس والذكاء والاقدام مع تدين ومروءة .

وأخذ الطريقة عن سيدى محمد العربى العلوى، وعن أبن عمه سيدى محمد بن احمد بعد وفاة الاول أيد الله الجميع، والكل فى ظل مولانا أمير المؤمنين الحسن (أى الحسن الاول) حسب قول المعرف به العلامة بودهور التوزانى .

وأيده فى ذلك سيدى احمد بن الخياط، بفتوى تؤيد المنظومة، التى تقدم نشرها .

ومن مناقبه رحمه الله أنه كان شعلة لايقاد نار الجهاد فى ابناء الريف، وله مواقف الابطال سواء ضد بوحمارة أو ضد الاسبان، وفى الواقع أنه أول من أسس نهضة الحرب التحريرية الريفية، وانه قام بتنظيمها مع المجاهد الشهيد سيدى محمد أمزيان الشريف الكلعى، وكان رحمه الله ينتقل بين القبائل والقرى بشكل عجيب لا لقاء ما ورد فى فضل الجهاد والشهادة، وكان يرأس قافلة تلو أخرى الى مواقع الجهاد ليؤازر سيدى محمد أمزيان، وكان يندد بالخونة الذين يعبرون الى جزيرة النكور حيث كانت مقرا للسياسة الاسبانية، وكان رحمه الله يتميز بحب الرسول صلى الله عليه وسلم، وحب آله فى صورة عجيبة، يحكى أنه كان يبكى ليلا ويردد بعض الآيات الى الفجر، ولقيامه بالحث على الجهاد والدفاع عن كرامة المغرب فقد دبر له الاسبان من جزيرة النكور من اغتاله فقد بعثوا اليه بكمية هائلة من المال قائلين له اما أن تأخذ هذه الكمية وتسكت عن اثارة حماس الريف ضدنا، أو سنعطيها لمن يسكت لسانك نهائيا، فاختار الثانية وقال انى لا أبيع الشهادة بالثمن البخس، وشمر عن ساعد الجد فما كان من أحد الاشقياء من أبناء عمومته بزاوية سيدى عيسى يدعى أموح بن حدو بن الحاج عيسى الا أن اراده قتيلا شهيدا، ومما يلاحظ أن القاتل قتل على اثر ذلك برصاصة فى رأسه قتله المجاهد المدعو بوحتان، وأما أبناؤه فقد لزمتهم النعاسة الى يومنا هذا، تقدم الكلام عليه مستوفى.

وقد ورد المترجم له فى الرواية باسم قاضى الشباب، وهو الاسم الذى يطلقه عليه اخوانه المجاهدون، نظرا لحماسه وشدة بأسه ونشاطه المتزايد، ويلاحظ أيضا من الرواة ان الدفاع ضد بوحمارة يرجع اليه، ويستعمل كل أساليب التأثير لبلوغ الهدف .

وعندما رأى أن حملة الثائر رجعت من بنى توزين، واكتفت بالذعيرة، أراد عجم عوده ليصبر غور الضغينة التى يكنها للقبيلة، فكون وفدا من مائة من الشجعان تحت رياسة رئيس بنى حذيفة محمد بن سى عمر وموح أمزيان الاغميرى البوعياشى، وأوصى هذا الاخير بأن لا يقطع أمرا دون مشورة الاول، وكان رجلا أعزل تقوم فصاحة لسانه مقام الجحافل، وودعهم عند مرسى جزيرة النكور، فلما وصلوا تلقاهم رجل من قبيلة قلعية ممن كانوا يخالطون بوحمارة، فأعلمهم بأنه قد بيت لهم المكروه، وانهم ان استكانوا انيه قتلهم ليلا، وعند ذلك تقدم الرئيس محمد بن اسى عمر، وطلب من رفاقه أن لا ينبسوا ببنت شفة الا ما كان من تلبية اشارته عند اللزوم، وأمرهم أن تكون بنادقهم على استعداد لخوض المعركة ولو فى داخل القصبة، أما هو فقد قلد خنجرا من صنع محلى وتقدم القوم، فلما أشرفوا على القصبة تلقاهم القائد الاسود قائد الرحى، وكانوا يدعونه صاحب الوضوء، واستفهمهم عن رحلتهم، وما هو القصد من ذلك، فاجابه محمد بن اسى عمر (تعمية) بأن الوفد قدم ليتمثل أمام السلطان، لتقديم الطاعة ونفى ما يحاكيه الوشاة الحسدة من الاراجيف التى لا أصل لها، واختتم كلامه، بأن وفده لا يغادر القصبة حتى يصطحب معه السلطان، نيزور القبيلة ليقف بنفسه على مدى الطاعة، فانصاغ لذلك واظهر الرضى والقبول، ودخل على مولاه واعلمه بما سمع منه، فخرج الاذن الى الوفد بأن ينزل ضيفا على الحكومة (بزعمه) وحينئذ طلب محمد بن اسى اعمر الاذن لوفده بأن يذهب الى الوادى جنوب القصبة، ليتوضئوا ويصلوا، وكانت الشمس قد آذنت بالمغيب، فاذن له فلما وصلوا الى الوادى أمرهم محمد بن السى اعمر بأن يجلسوا على الماء كهيئة شرب الحمام الذى يصطف ليشرب، ويكونوا صفا واحدا، وعلى مرأى من حراس القصبة كى لا يرتابوا ثم ان ادناهم ينتقل الى اعلاهم، ويتبعه الذى يليه، وهكذا الى أن يغيبوا عن الانظار، تدريجيا، وعندما يغيبون يطلقون العنان لارجلهم تعدو فى فيافى «بوعاك» وأمرهم أن لا يبتعد بعضهم عن البعض، استعدادا للطوارىء، حتى اذا دهمهم الامر وطاردتهم القوة ناجزوها

نلم يتفطن الحراس الا عندما قطعوا مفازة بوعاك في اتجاه معاكس، فلم تقف الكتائب المطاردة لهم على اثر، وبعد لاى وصلوا الى بنى ورياغـل وقصدوا رئيس القبيلة ليجتمعوا بأربعاء أمزورن، وعندما اجتمعوا دخل عليهم شخص مجهول يحمل رسالة فيها طابع السلطان ملاى عبد الحفيظ كان القاضى المذكور يستعمل هــذا الاسلوب وهو أنه كان يعد شخصـا مجهولا لدى القبيلة ويزوده بكتاب ليدخــل على المؤتمــر كأنه رســول السلطان وكثيرا ما كان يعتمد على هذه الكيفية في اثارة القبيلة لمصلحــة العرش العلوى، فيتلقى هذا الكتاب ويقبله أمام أعين الناس ثم يقــرؤه كأنه كتاب من عند السلطان، وهكذا كان مؤدى هذه الرسالة ان السلطان مولاى عبد الحفيظ يعلمه بتسيير حملة بقيادة أحد وزرائه، وانه يطلــب من القبيلة معونة الحملة والدفاع معها وقيامها قيام رجل واحد لدفع الثائر.

وبينما كانت القبيلة تغلى غليان المرجل، بما بثه فيهــا من روح انتضال، انتصارا للسلطان الشرعى وكان هتافهم بنصره يعلو الى عنــان السماء، كان قائد بوحمارة يستحث السير بحملته التى تتكون من طبقــات مختلفة، ومن قبائل متجمعة من جبال غياثة جنوبا الى امطالسة وقلعيــة شمالا، لكى تؤدب الذين شقوا عصى الطاعة، فكانت النهاية المحتومة .

وهكذا انتهت (1) تلك الثورة التى طالت وكبدت الحكومة المغربية خسائر فى العدد والعتاد فكانت تلك الهزيمة الشنعاء فى وقعة عقدة الارانب فى رمضان عام 1320 هـ. وكان ابتداء القتال فيها بين الجيش الحكــومى الذى يقود قسما منه مولاى عبد السلام الامرانى، ويقود القسم الآخــر مولاى الكبير ابن مولاى الحسن (الاول)، وقد بدأت المناوشات بينهما فى قصبة بنى مطير، واعتصم الثائر بجبال غياثة، وقد عزز السلطان مولاى عبد العزيز هذين القائدين بقائديــن آخرين هما السيد محمد الامرانــى وعامله السيد عيسى بن عمر العبدى على رأس المتطوعة (المحلة)، وما كادت الشمس ان تغيب حتى انهزمت قوة الجيــش الحكومى، هزمها الثائــر

---

(1) قبض على بوحمارة يوم السبت 5 شعبان عام 1327 هـ. موافق 21 غشت 1909 ومات يوم الاثنين 13 شتمبر 1909 بفاس .

بمعونة قبائل الحياينة والتسول وغياثة، وغنم أموال الجيش والذخيرة، وكانت نكبة عظيمة لحقت بالجيش، ودخل الجنود فاسا حفاة عراة (1).

وفى صفر عام 1321 هـ (193 م) عبأ وز0ير الحربية المهدى بن العربى المنبهى جيشا جرارا من قبائل أقصى سوس وتافلالت جنوبا الى فاس شمالا، بمعونة قائد المشور السيد ادريس بن يعيش ويمم الجيش مدينة تازة، وعسكر بوادى الخضر، وكاد الانتصار ان يتحقق للوزير بفضل شهامة ابى هاشم المدنى السملالى، لما له من الكلمة المسموعة فى القبائل المحيطة بتازة، ولكن أعمال الجيش الحكومى الوحشية أثارت الاهالى على الجنود، وانضموا الى الثائر، ولم يفك عنهم الحصار الا حضور مولاى عبد العزيز بنفسه، على رأس جيش، وقد ذاق الجنود المحاصرون الامرين (2) .

ولما استقر الثائر فى سلوان (3) قاد مولاى عرفة جيشا ضخما يعزز به عامل الحكومة على وجدة احمد بن كروم المكناسى، وقد حارب ثائرا آخر يدعى أبا حصيرة اليزناسنى الذى ثار تحت اسم مستعار، وهو مولاى عبد العزيز، وقد انهزم عامل وجدة المكناسى المذكور، وفر حاملا أمتعته ولوازم جيشه الى مدينة مغنية حيث عسكر بجنده، واهتبلها بوحمارة فرصة فقصد وجدة جاعلا اياها عاصمة عمله، وقد خطب له على

---

(1) اتحاف اعلام الناس ـ الجزء الاول، وخطوط السيد محمد بن عمر كاتب قائد العيون فى ذلك الوقت السيد العربى الشرادى .

(2) اتحاف أعلام الناس أيضا .

(3) قصبة تمر بها طريق الناضور ـ مليلية ـ وتبعد عن الاولى جنوبا بنحو 12 كيلمترات، وهى قصبة منيعة بناها مولاى اسماعيل من جملة ما بنى من القلاع على وادى ملوية والريف سنة 1090 هـ (1680 م) وانزل بها 500 من خيل العبيد بعيالهم، وذلك عندما بنى قصبة العيون سيدى ملوك، وقصبة رقادة، ببنى يزناسن تحت امرة قائده أبى البقاء العياشى الزوارى، وقد اتخذها بوحمارة عاصمة له، ومنها كان يوجه هجماته .

منابرها ودقت الطبول، وعزفت الموسيقى بدخوله وخروجه، ولم ينجل عنها الا عندما عزز السلطان جيش مغنية ببعثة سياسية، أرسلها عن طريق طنجة، على رأسها السيد احمد الركينة، والسيد احمد عبد الصادق الريفى مستشارا، فنثروا الاموال الطائلة على قبائل انكاد، وعندئذ تخلى عن وجدة، فرجع قافلا الى قصبة سلوان، ومن هناك جعل تسيير أعماله الحربية عن خط ملوية مسون، وقد انضم اليه ثمه الطيب بن بوعمامة، وعبد الملك ابن عبد القادر بن محيى الدين الجزائرى ولكنهما انفصلا عنه بعد ذلك وانضما الى قائد بنى بوزكو السيد حمادة حيث شاركا فى مذبحة رجال الثائر بدار القائد حمادة، راجع كتابنا الثائر المهزوم .

وفى دخول سنة 1322 هـ. قاد المدنى بن محمد الكلاوى جيشا وتلاقى مع جيش الثائر بقيادته فى سهول مسون ووقعت بينهما معارك، جرح اثناءها الثائر، وبعد برئه دخل تازة من غير قتال يذكر أما قبائل انكاد فانه بعدما أعفى رئيس البعثة السيد احمد الركينة، وخلفه فى الريسة السيد احمد بن عبد الصادق الريفى، وتعزز جانبه بالمال والجيش تمكن من احتلال الغزوات وعجرود والسعدية .

وهذه هى الاعمال الحربية المهمة، التى ذاقت فيها قوة الحكومة وخزينتها الخسائر الجمة .

ومن هذا العرض المجز يتضح عمل قبائل الريف الوسطى فى سبيل النضال عن العرش العلوى وبالاخص قبيلة بنى ورياغل، اذ قضت فى مدة قصيرة وبقوة ضئيلة لا تتعدى قوة شجعان قبائل معدودة، فازالت تلك الغصة التى جعلها الاستعمار مطية لقضاء أغراضه، فكبدته هزيمة شنعاء لم تقم له قائمة بعدها .

انتهى الجزء الاول ويليه الجزء الثانى ان شاء الله
مبدأه الصراع العنيف العام ضد الاحتلال الاجنبى فى الشمال

الجزء الاول

الخطا	الصواب	الصفحة	السطر
طفاحل	فطاحل	6	2
اصلية	اصيلة	6	8
العبار	الغبار	7	10
السداجة	السذاجة	18	5
يقبله	يقلبه	21	15
قتيل	قتيلا	21	16
حنقهم	حنقهم	22	15
فانهو	فانهم	23	23
عليه	عنه	34	20
وتيكساص	وتيكساس	40	23
طريقة	طريفة	41	7
عبد الله	عبد الرحمن	46	19
الوالى	الولى	52	13
لتاديهم	لتاديبهم	60	4
منها	منهم	160	5
الخدابى	الخطابى	61	16
القضاء	القضاة	69	16
لمكهم	لملكهم	70	25
يظاهى	يضاهى	75	10
تظاهر	تضاهى	75	14
اختير	اختبر	77	15
يحصروا	يحضروا	79	22
عبد الله	عبد الرحمن	81	2
السدج	السذج	83	23
تحدير	تخديرا	84	5
الربة	الزيبة	86	4
الفار	الفاول	86	5
بصطفة	بصفة	87	9
الفار	الفاول	87	4
لبناذقهم	بنادقهم	90	16
تجرء	تجرا	93	24
الجارجى	الخارجى	75	17
الخالل	الخالد	100	28
والتى	والذى	107	8
مظهر الكل	مطهرا لكل	110	12

الجزء الاول

الخطا	الصواب	الصفحة	السطر
التطييب	التطبيب	112	18
كرطط	كرط	119	10
والدى	ولاذى	121	2
يدعوهم	يتوعدهم	124	21
ذنيهما	ذنبهم	126	23
ياتاهب	يتأهب	128	24
ذرعين	درعين	129	10
فانتقضوا	فانتقضوا	132	7
رجلال	رجلاى	134	13
الفصل	الفضل	146	3
وكن	وكان	153	1
نفس	نفسى	162	6
اقرا له	أقرانه	163	24
بالتعلم	بالتعاليم	174	2

الــفــهـــرس

الصفحة

الـفـهـــرس

الصفحة	
الانــدلس تحيى بـــادس	157
ابن السبعــين الفيلسوف ببـــادس	163
البورغواطيــون ببـــادس	164
على بن العافية البورغواطى والشيخ الحاج حسون	165
تغلب العـــرب على بـــادس	168
تخريـــب بـــادس	170
مــدينـــة المـــزمـــة	171
لجـــوء الادارســـة الى الشمـــال	173
المنطقـــة الاولى لنفوذ الادارســـة	176
المنطقـــة الثـــالثـــة	185
المرينيون فى الريف الامير عبد الحق	187
عين الصفـــا ودولـــة بنى مـــرين	192
الوطاسيون فى قلعـــة تزوضـــا	196
ثورة عمـــر بن يحيى الوطـــاسى	197
ابن الاحمر ووساطته عند السلطـــان	198
نكبـــة أولاد الامـــير أبى بكـــر	200
الوســـط الاجتمـــاعى للريـــف	206
جماعة من علماء وصلحاء وشرفاء الريف	207 — 299
ترجمة أبى يعقـــوب البـــادسى	300 — 343
نضـــال مستمـــر	344
القـــلاع الخمس أو الجيـــوب المأســـورة	347
مـــدينـــة سبتـــة	348
القاضى عيـــاض والموحـــدون	353
عبد المومن بن على فى الـــريـــف	357
نقـــود موحديـــة فى باطن الارض	360
جـــزيـــرة بـــادس	365

الــفــهـــرس

المـراجـع التـاريخـيـة

ـ العبر وديوان المبتدأ والخبر، فى أيام العــرب والعجم والبربــر لعبد الرحمن بن خلدون ـ توفى سنة 808 هـ (1405 م) .

ـ الانيس المطرب بروض القرطاس فى أخبار المغرب ودولة فاس، لاحمد ابن الزرع، توفى فى بضع عشر وسبعمائة .

ـ المسالك والممالك ـ للوزير عبد الله بن عبد العزيز البكــرى ـ توفى عام 387 هـ (1094 م) .

ـ كراريس خطية من نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق لمحمد الادريسى، توفى عام 370 هـ (1164 م) .

ـ تقويـم المنصــور ؟

ـ المقــدمــة لابن خلــدون .

ـ المقصد الشريف والمنزع اللطيف فى التعريف بصلحاء الريف (مخطوط)

ـ المعجب فى أخبار المغرب ، لعبد الواحد المراكشى المتوفى عام 625 هـ (227 م) .

ـ الاستقصاء فى أخبار المغرب الاقصى ، لابى العبــاس احمد بن خالــد النــاصــرى .

ـ سلوة الانفاس ، ومحادثة الاكياس ، لابى عبد الله محمد بن الشيــخ جعفر الكتانى توفى عام 1345 هـ (1926 م) .

ـ مناقب الحاج حســون البقيــوى (مخطــوطة) .

ـ الحلل السندسية للامير شكيب أرســلان .

ـ ازهار الرياض فى أخبار القاضى عياض ـ لابى العباس احمد المقرى.

ـ نفح الطيب ، من غصن الاندلس الرطيب ـ وذكر وزيرها لسان الديــن ابن الخطيب ، للمقرى التلمسانى بـ

ـ كتاب العلوم والآداب والفنون فى عهد الموحدين، للاستاذ المنونى .

ـ مناقب أبى يعقــوب البــادسى لابى محمد عبد الله الاوربــى قاضى الجماعة بفاس (مخطــوط) .

ـ بحث للمرحوم السيد احمد المكناسى مدير خزانة تطوان سابقا، ألقاه فى مؤتمر الآثار العربية بفــاس .
ـ الدرر السنية فى أخبار السلالة الادريســية للشريف سيدى محمــد السنوسى المتوفى سنة 1272 بليبيــا .
ـ البيان المعرب من أخبار المغرب لابى عبد الله محمد المراكشى المعروف بابن عذارى من رجال عام 660 هـ (1270 م) .
ـ الدرر اللآلىء فى ثبوت الشرف البقالى لابى عبد الله محمــد الحاج العياشى السكيــرج .
ـ نيل الابتهاج بتطريز الديباج لابى العباس احمد بابا السودانى .
ـ جــذوة الاقتبــاس لابن القاضى .
ـ درة الحجال ، فى اسماء الرجــال لابى العباس احمد المعروف بابــن القاضى توفى عام 681 هـ (1282 م) .
ـ روضة النسرين فى دولة بنى مــرين لابى الوليــد اسماعيل يوسف المعروف بالاحمــر .
ـ اتحاف اعلام الناس ، فى أخبار جمال مكناس للنقيب عبد الرحمــن ابن زيــدان .
ـ التاريخ والعبر فى نسب آل النبى المختار لسيدى احمد الصــديقى البكــرى .
ـ الدوحــة لابــن عساكــر .
ـ بطــل الريــف ، لعمرو أبى نصــر
ـ الروكى لسنيور أنريكى أركيس باللغة الاسبانيــة .
ـ تاريخ تطوان للاستــاذ محمد داود .
ـ مذكرات تشرشيل عن الحرب العالمية الثانية .
ـ ترتيب المسالك لمعرفة أهل مذهب مالك للقاضى عياض .
ـ الحركة الاستقلالية للاستاذ علال الفاسى .
ـ قلادة العقيان ، فى انساب عرب الزمان للمقريزى .
ـ زعيم الريف محمد ابن عبد الكريم الخطابى ، للاستاذ محمد العلمى .
ـ المنجــد الاسبــانى .



المؤلف (14 دجنبر 1917)

فاذا كان تكلم الكاتب، اى كاتب كان عن نفسه ومراحل حياته، يجعله فى حرج نفسانى، فانه من الاقرار بالفضل لشيوخه واساتذته، ان لا يمر عليهم مر الكرام، ويغفل ذكرهم ولو فى قائمة .

ولذا عنى لى هنا ذكر اولئك الشيوخ الجهابذة، الذين قدموا لامتهم كل خير ابتغاء فضل الله، وبالاخص اولئك الذين لهم الفضل الاكبر وانا اتابع تحصيلى فى كلية القرويين فى اول عهدها بتنظيم الدراسة فيها تنظيما عصريا .

شيوخ خارج التنظيم :

1 — الشيخ الامام، وزير العدل الشريف الحسنى سيدى عبد الرحمان بن القرشى الفلالى (كان فوق الانخراط فى التنظيم، ومع ذلك لم ينقطع درسه فى القرويين فى الحديث الشريف، ولى معه رحلة الى الديار المقدسة على نفقة المغفور له جلالة الملك محمد الخامس قدس الله روحه، مع شرف المثول امام ملك الحجاز جلالة عبد العزيز ءال سعود) .

2 — شيخ الجماعة ورئيس المجلس العلمى بفاس العلامة الاصولى مولاى عبد الله الفضيلى العلوى. (كان فوق الانخراط فى التنظيم، ومع ذلك فقد كانت له دروس فى الاصول والفقه تضرب اليها اكباد الابل) .

3 — العلامة البليغ سيدى محمد اقصبى، (لم ينخرط فى التنظيم وكانت دروسه فى البيان والبلاغة فريدة فى تحقيقها) .

4 — العلامة القاضى المحقق سيدى السايح (كان قاضيا ومع ذلك فقد افتتن الطلبة والجمهور بدرسه الليلى لسعة اطلاعه) .

5 — العلامة سيدى محمد الصنهاجى (خارج التنظيم وكان له جولات وتحقيقات فى الاصول) .

شيوخ داخل التنظيم :

6 — العلامة الاصولى المحقق سيدى الطائع بن الحاج (الاصول فى التخريجى) .

7 — العلامة المحدث سيدى الحسن مزور (الحديث والتفسير فى التخريجى) .

8 — سيدى الحسين العراقى العلامة الفيلسوف (فى فقه الزرقانى فى التخريجى) .

9 — سيدى عبد الرحمن العراقى العلامة الاديب (فى الادب والفقه والتاريخ فى التخريجى)

10— العلامة اللغوى سيدى محمد بن الحاج المعروف بالاعرج (فى اللغة والادب والتاريخ فى التخريجى) .

11— العلامة المتفنن سيدى العباس بنانى (فى المنطق والبيان والجغرافية فى التخريجى)

12— العلامة الفقيه سيدى حسن الزرهونى (فى فقه الشيخ خليل فى التخريجى) .

13— العلامة الحافظ سيدى عبد العزيز بن الخياط (فى المنطق والتاريخ فى التخريجى).

14— العلامة النبيه سيدى محمد الطاهرى (فى البيان والبلاغة) .

15— العلامة الحيسولى الموقت سيدى امحمد العلمى (فى الحساب والتوقيت) .

16— العلامة النحوى سيدى ابو سعيد المكناسى (فى الصرف والحساب) .

17— العلامة المؤلف سيدى بوشتى الصنهاجى (فى فقه الشيخ خليل) .

وفى المرحلة الابتدائية فى الريف كان عمدتى :

18— الفقيه النحوى سيدى محمد بن محمادى التوزانى الحسانى (فى النحو والفقه والتوحيد) .

19— الفقيه الموقت سيدى بوشعيب التمسمانى (فى النحو والفقه والتوحيد) .


مطبعة دار امـــل ـ طنجــة